میشال زیفاگو

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

عشّاق فینیسیا

دار الرواج

هذا الكتاب

هـذه القصة التي شغلت حوادثهـا اذهان الناس في العصور المتوسطة ، وشغل مؤلفها – ميشال زيفاكو – اذهان اهـل الشرق والغرب في العصر الحديث ، لا شك انهـا جديرة بأن تطالع اولاً وثانياً وثالثاً . ذلك لما تحتويه من الغرائب والمدهشات التي كانت ايطاليا مسرحاً لها في عصور الظلم المريـع والجـور الفظيـع والانقلابات المتتاليـة وعنجهية الاقطاعيين واستبـداد الامراء والحكام ، وسلطان القـوة المادية التي لم يكن لهـا هم الا أن تقسو وتغضب وتنكل وتلبث على حالها حتى تتفوق عليها قوى اخرى فتلقي بأربابها في سجون التعذيب الهـائلة وظلمات السجون المريعة ودهاليز الموت الرهيبة .

وهي فوق ذلك قصة غرام قلما عاش مثلها البشر ، وقلمـا خطر لهم ان على الارض أبطال كأبطالها يلاقون من النكبات والويلات مـا لا مثيل له ، فما تزيدهم هذه الاهوال الا عزيمة وصلابة واستعداداً لمجابهـة قوى الاستبداد حتى تنهـار أو يفنـوا هم فناء بطيئاً بين كلاليب آلات التعذيب وانيابهـا المفترسة المخيفة !

انك ان قرأت هذا الكتاب عرفت هذه الحقـائق ووقفت على قوة هـذا الكاتب الذي استطاع ان يستولي عـلى قلوب مئات الملايين من الخلق برواياته الرائعة التي يطبع منهـا في اوروبا مئات الملايين كل عـام . إقرأ هذه الرواية تعرف أي كاتب روائي هو ميشال زيفاكو !!

الثمن : ٧٠٠ قرش لبناني أو ما يعادلها

معركة في قصر

*

صدر الجزء الأول من هذه الرواية
بعنوان : « جسر التنهدات »

*

ندع الآن ساندريجو وبمبو يعقدان المحالفة ، ورولاند ينهمك في قضاء تلك المهمة المجهولة ، وسكالا برينو يدفع عن نفسه الموت في قبو الحجارة ، وجوانا ساهرة على الشيخ كانديانو والد رولاند وهي تحاول أن تتعزى عن أحزانها ، ونعود إلى ثلاثة من أخصّ أبطال هذه الرواية وهم ليونور وألتياري ودندولو .

فإن ليونور بعد أن أنقذت رولاند على ما تقدّم لنا وصفه وعادت إلى قصرها فأطلقت سراح أمباريا ، سقطت في غرفتها واهية القوى قبل أن تصل إلى السرير . وذلك أنها كانت منذ بضع ساعات عرضة لتأثيرات عصبية شديدة مثل خصامها مع أمباريا ومعرفتها فجأة أن رولاند حيّ وأنه أقام ستة أعوام في السجن ، وذهابها إلى جزيرة أوليفو ، والتقائها برولاند ، وتلك المباحثة الهائلة التي جرت بينها وبين زوجها ، كل هذه الحوادث التي جرت لها في بضع ساعات أثرت عليها تأثيراً سحق قواها وهدّ ركن عزيمتها .

وقد سقطت على الأرض لا تعي وفاجأتها الحمّى فأسرعت نساؤها إليها وحملنها إلى سريرها وأبلغن أمرها إلى زوجها . ولم يكن ألتياري قد نام بعد فإنه بعد حادثة بيت الجزيرة عاد توّاً إلى قصره وعليه ظواهر السكينة . ولكن براكين الرعب كانت ثائرة في قلبه فإن رولاند نجا منه ، وقد وثق مما قالته له ليونور وهو أنها أخبرته بأنهم عازمون على القبض عليه فنجا قبل فوات الأوان .

وإنما كان خائفاً منه لأنه لم يكن يعلم أين هو ولا يعرف شيئاً من مقاصده . وهو لا يطمئن له بال ما زال رولاند في قيد الحياة حتى أنه كان خائفاً عندما كان سائراً إلى منزله أن يفاجئه رولاند في الطريق .

فلما دخل إلى غرفته تنفّس الصعداء ومسح عرق جبينه وجعل ينظر في حالته بعد اطمئنانه فقال في نفسه : نعم إن رولاند قويّ شديد ، ولكني قائد الجيش العامّ فمَن يجسر على مهاجمتي والجنود لا تفارقني لحظة ؟

ولكنه ما أن اطمأن من هذا القبيل حتى فاجأه رعبٌ آخر أشدّ من رعبه الأول ، فلقد كان يؤامر . إذ أنه كان شديد المطامع وقد شعر بعد تلك الثورة التي قضت بإسقاط والد رولاند ، أن ما عمله في ذلك العهد كان لخدمة فوسكاري ، لأنه لم يكن له في ذلك العهد غير فريق ضعيف من الضباط وبعض النبلاء في حين أن فوسكاري كان قابضاً على مجلس العشرة وعلى مجلس التفتيش وهما كل القوى الشرعية في فينيسيا .

فلما رأى ألتياريّ أن كانديانو الشيخ قد سملت عيناه وأن رولاند قد حكم عليه بالسجن في الآبار ، طمع بالحكم وعزم على انتزاعه من يد فوسكاري .

ولما كان غرضه الوحيد في هذه المؤامرة كغرضه في المؤامرة الأولى ، وهو نيل ليونور ، فإن الحب كان أشد وقعاً في نفسه من المطامع .

وقد عُيّن فوسكاري حاكماً على فينيسيا . وكذلك ألتياريّ فإنه لم يعدم نصيبه من هذه النِّعم إذ عُيّن قائداً عاماً للجيش في حين أن هذه القيادة كانت من حقوق الدوج حسب القانون .

فبعد أن تزوج ليونور ، وبعد أن وثق أنها لا يمكن أن تكون امرأته ، تغلّبت المطامع في قلبه على الحب . ولكن هذا الطمع لم يكن إلا لخدمة الحب ، فإنه كان يرجو أن يكون حاكم فينيسيا علّه يروق في عيني ليونور !

وما زال يعمل بالسر حتى دخل معظم قواد الجيش والنبلاء في سلك مؤامرته . وفيما هو يحاول أن يضرب الضربة الكبرى علم بفرار رولاند من السجن ثم علم بقدومه إلى فينيسيا فرأى أنه لا بدّ له قبل كل شيء من أن يتخلص من هذا المزاحم الشديد فإن اسم كانديانو كان محبوباً من الشعب .

ولذلك اتفق مع دندولو بشأن رولاند على ما علمناه .

ولكن ألتياريّ كان يؤامر على فوسكاري طمعاً بالتاج وهو على يقين من أن سرّه كان مكتوماً أشدّ الكتمان ، ولم يكن يعرفه غير بعض رجاله الذين يخاطرون برؤوسهم إذا باحوا بهذا السرّ

www.liilas.com

لاشتراكهم بالمؤامرة . وقد عرفت ليونور ذلك . فقلق وساوره الهمّ لأنها عرفت هذا السرّ الهائل .

وهنا وقف وجعل يقول في نفسه : كيف تخونني هذه المرأة وتفضح سري؟ وإنما أخاطر بحياتي من أجلها لأنني لم أكن أطمع بهذا المجد لولاها .

وهنا تنازعه عاملان مختلفان : عامل الحب وعامل الطمع ، فرعب رعباً عظيماً لأنه إذا قتل ليونور عاش بقية حياته دون رجاء ودون قصد ، وإذا لم يقتلها كان عرضة لانتقامها في كل لحظة فإن حياته كانت موقوفة على كلمة تبدر منها . وعلى ذلك فإما أن يعيش من غير ليونور وإما أن يموت بها .

وفيما هو على ذلك جاءته إحدى الخادمات وقالت له : إن ليونور مصابة بحمّى شديدة بلغت بها حدّ الهذيان .

فزالت كل تلك الأفكار من رأسه ولم يعد يخطر له غير أمر واحد وهو أن ينقذ تلك المرأة التي يهيم بحبها ثم يرى بعد ذلك ما يكون .

وعند ذلك أسرع إلى غرفة امرأته وكانت هذه هي المرة الأولى التي دخل بها إلى هذه الغرفة ، فرأى ليونور في سريرها وقد احمرّ وجهها من الحمّى وهي نائمة في فراشها دون حراك . فأمر أن يأتوا بالطبيب ، وجلس بجانب السرير فأخذ يد ليونور بين يديه وارتعش ارتعاشاً عظيماً إذ كانت هذه أول مرة لمس يدها بهذا الشكل ، فلا ندري أكان ارتعاشه لسروره بضم هذه اليد الناعمة أم لإشفاقه وقد شعر أنها تلتهب من الحمّى .

وكان السكون سائداً في تلك الغرفة إلى أن اخترق هذا السكون صوت ليونور وكان هذيان الحمّى قد بدأ فكانت تتكلم بإسهاب فتحادث تارة أباها وتارة رولاند فتسأله العفو وتقسم له أنها لا تزال وافية بعهده .

ثم انقطعت فجأة عن محادثة رولاند وجعلت تحدث ألتياري بهذيانها فبدأت بذكر أسماء رجال المؤامرة . وأيقن ألتياري أنها ستفضح كلّ سره فاضطرب والتفت إلى خادماتها فأمرهن بالخروج من الغرفة وجعل يكلمهن بصوت مرتفع كي لا يسمعن ما تقوله سيدتهن . فخرجن حتى إذا بقي وحده أمامها نظر إليها نظرة وحشية وخرج إلى الغرفة المجاورة كي يستوثق أنه لا يوجد أحد فيها ، فلما وثق من ذلك عاد إلى امرأته وجلس بجانبها يصغي .

فسمع كل ما قالته عن المؤامرة وأيقن أنها واقفة على كلّ تفاصيلها . ثم سكتت فجأة كما سكتت أول مرة . وعند ذلك طرق الباب فارتعد ألتياري وجرّد خنجره وقال : من الطارق؟ فأجابه صوت من الخارج قائلاً : الطبيب .

فاطمأنّ وأغمد خنجره وهو يقول في نفسه : لقد جننت دون شك فإني سأفضح نفسي لشدّة خوفي من الفضيحة .

وملك نفسه وفتح الباب فدخل طبيب العائلة فقال له ألتياري : لقد وقعت السيدة ليونور فخافت خوفاً شديداً أصيبت على أثره بحمّى شديدة . قال : سوف نرى يا مولاي .

وعند ذلك دنا الطبيب الشيخ من ليونور ففحصها فحصاً

مدققاً ثم التفت إلى ألتياري فذعر ذعراً عظيماً إذ رأى القائد العام مجرداً خنجره كأنه يهم بأن يطعنه به ، فإنه كان عازماً على قتله لو قالت ليونور كلمة تشف عن المؤامرة . فلما رأى الطبيب ذلك قال له : إني لا أفهم شيئاً يا مولاي مما تقول . فضحك ألتياري ضحكاً عصبياً وقال له : لا تؤاخذني أيها الطبيب فإن الحقيقة هي أني أنا المريض . ولكن تعال ... تعال معي .

وأغمد خنجره وسار والطبيب إلى غرفة مجاورة ، وهناك اطمأن وعاد إلى السكينة فقال له الطبيب : الحق يا سيدي أنك أخفتني . قال : أرجو أن تعذرني فإن الحزن قد يصيب صاحبه بالجنون . والآن أخبرني بما رأيت .

فاطمأن الطبيب أيضاً فأخبره تفصيلاً بما علمه عن حالة ليونور بعد الفحص ثم قال له : إنها يا سيدي في أشد خطر ، ويجب مراقبتها في الليل والنهار . قال : حسناً ، فسأتولى بنفسي هذه المراقبة . قال : إنه إخلاص عظيم نادر يا سيدي بين الأزواج .

ثم وصف لها الدواء وحاول الانصراف وهو يقول : سأعود غداً . قال : بل تقيم عندي وسأعيّن لك مكاناً في القصر .

فسر الطبيب بهذا الإنعام ولكنه نظر نظرة القلق إلى خنجر ألتياري وقال في نفسه : لماذا أراد هذا الرجل أن يطعنني بخنجره ، فهل هو حقيقة مصاب بالجنون ؟

وعند ذلك ذهب إلى المكان الذي عيّنه له ألتياري وهو بين الرجاء والخوف . وعاد ألتياري فنادى وكيله وقال له: أرأيت

هذا الطبيب ؟ قال : نعم يا مولاي . قال : إذن فاعلم أنه إذا خرج من القصر دون إذني فأنت من الهالكين .

فانحنى الوكيل وانصرف وهو معجب بإخلاص سيّده لامرأته إذ كان يعتقد أنه لا يريد سجن الطبيب في قصره إلا كي يجده للفور حين الإقتضاء .

وعاد ألتياري إلى غرفة امرأته وأمر جميع الخدم أن لا يدخلوا إليها فإنه يريد أن يتولى وحده خدمتها . وكان يقفل باب الغرفة من الداخل وينام على كرسي قرب سريرها نوماً مضطرباً متقطعاً .

وبقيت ليونور على حالها ستة أيام ، وفي اليوم السادس عادت إلى صوابها فشعرت بتعب عظيم لا يوصف ولا سيما في نفسها ، فإن يأسها كان شديداً حتى أنها كانت تشتهي الموت ولا تجد الراحة الكبرى إلا به . فإنها حين كانت تذكر أن جميع شقائها تولّد من ساعة ريب يتولاها اليأس ، وتحكم على نفسها أنها غير جديرة بالإشفاق فقد كان ذنبها العظيم « في اعتقادها » أنها لم تخلص لرولاند كما أخلص لها فإنه لبث وفياً بعهده أما هي فإنها خانت هذا العهد وتزوجت بسواه وسمعت أقوال الناس فيه ، وأنه ليلة خطبتها حين ذهبت إلى مجلس العشرة وسمعت ما قالته أمباريا فيه ، كان يجب عليها أن تجيب تلك الفاجرة فتقول لها : لقد كذبت ، فإن رولاند لا يتدانى إلى حب أمثالك فهو لي يحملته كما أنا له يحملتي .

وحين جاءتها أم رولاند وطلبت إليها أن تذهب معها لتهيج

الشعب على إنقاذ رولاند كان يجب عليها أن تجيب : هلمي بنا ولنمت معاً فاني وإياه واحد لا يجب أن نفترق !

وحين قال أبوها إن رولاند عفي عنه فهجرها وبرح فينيسيا، كان يجب أن تقول له : لقد كذبت ، فـــان رولاند إذا أطلق سراحه لا يلجأ إلا إليّ أنا ...

وحين ذهبوا بهـا إلى كنيسة سانت مارك لعقد زواجها كان يجب أن تمتنع عـن الزواج وتقول : إني لا أتزوج ألتياريّ لأني زوجة رولاند ، وإذا لم أكن له تزوّجت الموت !

هذا ما كانت تقوله هذه المنكودة . ولا بدّ لنا أن نقول هنا إن هذه الأقوال ليست من مخترعاتنا بل هي أقوال ليونور نفسها عثرنا عليها في كتاب كتبته فكان شبه اعتراف .

وهذا ما كان يعذّب نفسها هـــذا العذاب ، لا سيما بعد أن اجتمعت برولاند وأنقذته ووقف أمامها جامداً كأنه لا يعرفها، ثم انصرف دون أن يكلمها كلمة وهي إنما لبست ملابسها القديمة أي ملابس الفتيات كي تلمّح أنها لا تزال على عهدها، وإنما ذهبت إلى تلك الأرزة كي يعلم أنها لا تزال تهواه، وإنما اختارت انتصاف الليل موعداً كي يعلم أنها لا تزال تحنّ إلى لقياه .

وهو مع كل ذلك لم يفه بكلمة فكانت تقول في نفسها : إنه مصيب بكل مـا فعل ، فقد خنته أمام مجلس العشرة بتصديق الوشاية عنه . وخنته أمام أمه بامتناعي عن المسير معها . وخنته أمام الهيكل بقبولي ذلك الزواج . إذن لقد قضي الأمر وأصبح الفراق أبدياً ولم يبقَ لي رجاء بلقياه فماذا بقي ؟ لم يبقَ غـــير

توديع الحبّ أي توديع الحياة . وأمـــا حب الموت الآن فهو الدواء الوحيد لهذه الآلام .

هذا ما كانت تفكر به ليونور في تلك الساعة ساعة اليأس الهائلة . وفيما هي تغمض عينيها كي تستقبل الموت ولا ترى غير الظلمة الأبدية سمعت صوتاً بالقرب منها ، فقالت : من هذا الذي يتكلم هكذا ؟

وقد أصغت، وهي أول مرة عاد فكرها فيها إلى الانتظام ، فعجبت كيف أنها في سريرها ثم ذكرت فجأة أنهـــا سقطت مغميّاً عليها في أرض غرفتها ولم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك .

ولكنها جعلت تصغي إلى تلـــك الأصوات وكانت ضعيفة خافتة ، غير أنها لم تكن أصوات نساء كما توهمت في البدء بـــل كانت أصوات رجال. وقد تبيّنت تلك الأصوات لفورها فعلمت أنها صوت ألتياريّ وصوت أبيها فبذلت جهداً عنيفاً كي لا يبدو عليهـا شيء من علائم الاضطراب ، وكي لا تنهض من فراشها فتطردهما . وأصغت إلى ما يقولان فسمعت ألتياري يقول :

— لقد مضت خمسة أيام كانت شبه خمسة أعوام لِمَا لاقيت في خلالها من الرعب . فأجابه دندولو قائلاً: لماذا ؟ هل تكلمت شيئاً ؟

— بـل إنها قالت كل شيء . وستعود إلى الكلام أيضاً متى عاد الهذيان ، فانها تفصّل لهم المؤامرة تفصيلاً وتذكر المؤتمرين.

— ألعلها ذكرت اسمي ؟

— ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمك .

فساد السكوت هنيهة بعد ذلك وسمعت ليونور أباها يتنهد كأنه قد اطمأن فعلمت أنها بهذيان الحمّى قالت كل ما تعرفه عن المؤامرة وأن ألتياري أقام عندها كل هذه المدة كي يراقبها وأنه دعا أباها للاتفاق معه على أمر هائل دون شك .

وعاد الاثنان إلى الحديث فقال ألتياري : ربما لم تكن عالمة أنك منتظم في سلك المؤامرة ، أو ربما حرصت عليك حتى في هذيانها .

– إذن لقد ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمي !

– نعم ...

– رباه ، ولكن ماذا يكون إذا سمعوها ؟

– إنهم إذا قبضوا علينا قبضوا عليك لا محالة .

وهنا عـــاد الاثنان إلى السكوت فكانت ليونور ترى بعين التصوّر رعبها وتبذل كل مـا تستطيعه من الجهد كي تحافظ على السكينة . وبعد هنيهة عاد ألتياري إلى الحديث فقال : إن الهذيان يفاجئها في المساء وفي الليل ، أمـــا الآن فإنها نائمة نوماً هادئاً ، وما أصعب تلك الليالي التي كنت أقف فيها على الأبواب والخنجر بيدي وأنا متأهب لقتل كل من يسمع كلمة من حديثها حتى شعرت بأني سأفقد صوابي ، ولذلك دعوتك إليّ فإنك أبوها .

– حسناً ، فسأتولى الحراسة مكانك كي تستريح .

فهزّ ألتياري رأسه وقال : لست أشكو من التعب .

– إذن مِمّ تشكو ؟

– أشكو من أنه لا يجب أن يسمعوها .

– نعم لا يجب أن يسمعها أحد فإن كلمة تخرج من فمها تقتلنا وأي قتل ... هناك على جسر التنهدات حيث يربطوننا إلى ذلك الكرسي الحجري . أو أنهم يقتلوننا جوعاً أو عطشاً . أو أنهم يحبسوننا في الآبار ويعذّبوننا كما عذّبنا ...

– أسكت ولا تذكر اسمه هنا فإنها قـد تسمعه فتقول إني سأقذف بكم إلى حيث قذفتم بخطيبي .

– ولكنها نائمة لحسن الحظ نوماً هادئاً ، غـير أن هذا النوم قد يكون علّة موتنا !

وعند ذلك نظر إلى دندولو نظرة وحشية وقـال له : نعم يجب أن لا يسمعوها وليس لذلك غير طريقة واحدة .

فجمد الدم في عروق أبيها وقال له : أية طريقة ؟

– نعم يجب أن لا تتكلم بعد الآن .. وأصغِ إليّ فإنك تعلم يقيناً أني أحب بنتك وأني لا أزال أحبها .

– أسكت ...

– إني أحبها وهذا الذي يولّد اليأس في قلبي ، لأنها تكرهني وتحتقرني وتلعنني وأنا أحبها فلم أعد أستطيع الصبر على هـذا المضض ولم يبقَ غـــير واحد من أمرين . فإما أن أموت أنا أو تموت هي !

– قلت لك أسكت !

– كلا ، إني لا أسكت . وإني ما دعوتك إليّ إلا لتشاركني تكدي فإنك أنت الذي أزوجتني إياها ، وأي زواج هو هذا ! ألا تعـــلم أننا منذ تزوجنا إلى اليوم ونحن عائشان عيش الغرباء

حتى لقد حاولت مائة مرة أن أقتلها؟ والآن فإني أريد أن أنجو من هذا العذاب إذ لم أعد أطيق الصبر عليه لحظة . إني أحبها وقد بلغت بحبها حد الجنون وقد تحملت العذاب معها خمسة أعوام ، والآن فإني سمعتها في هذيانها تنادي خطيبها فتتوسل إليه أن يصفح عنها وتناجيه بأرق ألفاظ الغرام فكانت كل كلمة من كلماتها شبه خنجر يغمد في صدري . وبعد كل هذا فقد باتت شر نذير لي بالموت ، فإن جراح كلماتها لم تكفها فأرادت إعدامي ! نعم ، إني لم أعد أطيق الصبر ، فهل تريد أن تعيش بعد الآن بهذا العذاب وأنت معرّض في كل لحظة لانتقام امرأة ؟ قل ، أتريد أن يكون مصيرك الإعدام ؟

فتمتم دندولو قائلاً : أواه يا ابنتي !

وقد خامر الرعب قلب هذا الأب الشقي ولكنه مع ذلك حاول أن ينقذ بنته فقال بصوت ضعيف : إنها قد لا تذكر بعد الآن هذه الأشياء ، ومتى شفيت فإننا قد نستطيع أن نستوثق منها وأن تعاهدنا على الكتمان ، فاصبر فإني واثق من كتمانها .

وعند ذلك بدرت حركة من ليونور فأجفل الاثنان وجعلا ينظران إليها ، ففتحت عينيها ولم تكن نظراتها نظرات مريضة محمومة بل نظرات تتوقد ذكاء ، فارتعش الاثنان وأيقنا أنها سمعت كل الحديث .

أما هي فقد أيقنت أيضاً أن ساعة الخلاص ، أي ساعة الموت ، قد دنت . وأن الكلام سيكون لها أمضى سلاح للانتحار ما زال أبوها وزوجها قد اتفقا على قتلها . فنهضت من سريرها

وجمعت كل قواها فقالت : إنك مخطىء يا أبي ، فإني لا أكتم سرّكم وسأبوح به في أول ساعة أستطيع بها الخروج من هذه الغرفة . وذلك أنكما أخللتما بالشروط التي تعاهدنا عليها في بيت الجزيرة فلا بدّ لي من الإباحة بسرّكم .

وكان ألتياري قريباً من السرير فنظر إليها نظرة منكرة وقد زال الحب من قلبه بلحظة وبات يكرهها بقدر ما كان يحبها ، وهاجت براكين الحقد في صدره فحاول أن يشفي غليله بكلمة شتم ، ولكن تلك الكلمة وقفت في حلقه فرفع يده وهو يحاول أن يضربها ضربة واحدة تكون القاضية .

فنظرت ليونور إلى بريق خنجره وهي تبتسم ارتياحاً للموت . أما ألتياري فان يده سقطت فجأة وارتجع خطوة إلى الوراء ، ذلك أن دندولو صدمه صدمة قوية وأسرع فحال بينه وبين بنته وهو يقول : إني لا أريد أن تموت ابنتي . فهاج غضب ألتياري وقال : أأنت الذي تصدمني هذه الصدمة ؟

— نعم !

— إذن أنت تريد أن تموت أيضاً .

— إني أؤثر ألف موت على أن أدعك تمسها بسوء .

فنظر ألتياري إلى دندولو نظرة انذهال وحقد معاً . فان هذا الرجل الذي كان يعهد به الضعف ووهن العزيمة والجبن رآه قد استحال في تلك اللحظة إلى أسد مفترس يدافع عن عرينه ، فقال له : ويحك أيها الجاهل ، أتريد أن تدفع بنا جميعنا إلى الإعدام ؟

فتنهد دندولو تنهداً وقال : إني أقبل الموت والشنق والعار والسجن وكل ما اخترعته القرائح الجهنمية من أنواع العذاب ولا أرضى بهذه الدناءة . نعم لقد كنت جباناً وكنت سافلاً إذ بعتك بنتي وبعتك نفسي . أما الآن فاني أستردّ بنتي وأسترجع نفسي وأردّ لك الثمن وهو ذلك المنصب ومـــا ألقى فيه من المجد والسلطة .

فدنا ألتياري خطوة منه قبل أن يتم حديثه ، فأدرك دندولو قصده وقال له : إني أشير عليك أن لا تدنو من بنتي إلا إذا أردت أن يسبق خنجري إلى صدرك سيفّ الجلاد إلى عنقك ! فقال ألتياري : إذن لتمتّ جميعنا فاني أؤثر هذا الموت .

وانقضّ على دندولو وهو يزبـد بخنجره فتلقـاه دندولو بمثل سلاحه . وكان القتال بينهما هائـلاً دون أن يفوه أحدهما بكلمة إلى أن أصيب ألتياري بخنجر عمّه فاخترق الخنجر كتفه فسقط على الأرض قرب السرير ، وحاول وهو على هذه الحال أن يمـدّ يـــده إلى ليونور فدفعه دندولو عنها بعنف وألقاه بعيداً عن السرير . ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً ولكنه كان بالغاً فلم يذهب صوابه وجعل ينظر إلى ما سيحدث بعينين ظهر فيهما الرعب والألم .

أما دندولو فانه حين رأى ألتياري طريحاً بعيداً عنه دنا من ابنته فأخذ يدها ووضعها على جبهته المحرقة فلم يقل كلمة ولكنه جعـــل يشهق بالبكاء . فتأثرت ليونور وبكت لبكائه وهي تقول : أبي ! فاتقدت عينا دندولو بأشعة الفرح وقـال : اللهمّ

عفوك ، فقد عفت عني !

*

وعند ذلك مسح ذلك الأب عينيه وقال لها بصوت يرتجف : إنك لا تقيمين ساعة هنا ، فسأذهب بك إلى بيتنا القديم في جزيرة أوليفو ونعيش فيه عيشتنا القديم . فهزت ليونور رأسها وقاطعته قائلة : ألعلّك نسيت يا أبي أن هـــذا البيت لم يعد لنا ؟ فذكر دندولو أنه باع البيت وكان قـد نسي البيع ونسي رولاند فقال لها : لقد أصبت ، ولكننا نستأجر منزلاً .

قالت : ولكنك نسيت أيضاً يا أبي أن من تكون من أسرة دندولو لا تبرح منزل زوجها وقد رضيت به زوجاً ، فـلا تخف عليّ يا أبي فاني منذ هنيهة كنت أريد الموت أما الآن فاني أريد الحياة لأجلك إذا لم يكن لأجل سواك . وإن السيد ألتياري يعلم يقيناً أني لا أبوح بكلمة تفضح سرّه ، وهو يعلم يقيناً أيضاً أنه إذا أخلّ بشروطنا ودخل مرة ثانية إلى هذه الغرفة تكون العاقبة هائلة عليه . ثم هو يعلم أيضاً أني إذا أصبت بسوء كان نصيبه الشنق لأنك تفضح سرّه انتقاماً لي .

ثم التفتت إلى ألتياري وقالت له : ألا ترضى بهذا الشرط ؟ فقال لها بصوت أجشّ : نعم أرضى . قالت : وأنا أضيف إلى شرطي شرطاً آخر وهو أنه يحقّ لأبي أن يدخل إلى هنا متى شاء.

فقال دندولو : لا فائدة من هذا الشرط يا ليونور فإنك ما زلت تأبين الخروج من هذا المنزل فأنا أقيم فيه في الغرفة المجاورة

لغرفتك فلا يستطيع أحد الدخول إليك إلا على جثتي . فأشار ألتباري إشارة تدل على الموافقة ثم نهض عن الأرض وقد أوهن الجرح قواه فخرج من الغرفة دون أن ينظر إلى الفتاة وأبيها .

معسكر الشيطان الأكبر

*

ولنعد الآن إلى رولاند كانديانو فقد تقدّم لنا القول أنه بعد أن قابل ليونور تلك المقابلة الغريبة ذهب إلى سكالا برينو ومهّد إليه إيصال أوامره إلى زعماء العصابات ثم برح فينيسيا . وقد كان في نية رولاند أن يقابل جان مدسيس في أقرب حين ويمنع اتصاله بفوسكاري دوج فينيسيا .

وهو إنما اتخذ ذلك حجة لنفسه ولكنه في الحقيقة كان يريد الابتعاد عن هذه العاصمة، فهل خشي أن يقبضوا عليه وأن يدفنوه حيّاً في تلك البئر التي كان مسجوناً فيها، أم خشي أن ينصبوا له شركاً فيغتالوه ويعدموه ؟

كلا ، فإن رولاند لم يعد يخشى ظلمة القبور ولكنه كان يريد الفرار من فينيسيا لأنه لم يعد يطيق النظر إليها، ولأنه خشي أن يجتمع اتفاقاً بليونور ، بل لأنه خشي من نفسه وخشي من

غرامه فكان يسير سير الهائم وهو يناجي نفسه فيقول :

كيف ذلك ؟ ألا أزال أحبهـــا إلى هذا الحدّ ؟ احتملتُ بغرامها ما لم يحتمله قلب إنسان فإن شقيّ قد رقّتا لترديد اسمها في كل لحظة وكل نبضة من نبضات قلبي ! كانت تنهّد غرامي ومع ذلك فقد خانتني خيانة لا تقدم عليها بنات العوامّ مع البحارة ! ربّاه ! كيف يحتمل عملها التصديق، فإنها اغتنمت فرصة سجني كي تتزوج سواي وهي تعلم أني أبكي لفراقها الدم لا الدمع ! أليس من العجب أن أبقى على هواها بعد ذلك، فمن أية طينة جبل قلبي؟

وهي الآن قد تصدقت بإنقاذي من كمين وأحسنت إلي بشيء من الحرية وهو ما تعامل به كل مضطهد سواي .

وعند ذلك لكز بطن جواده بعنف شديد كأنه كان يرجو أن يندفع به ويلقيه في هاوية . ولكن الطريق كانت سهلة، فبعد أن جرى الجواد شوطاً بعيداً وهو في أشد حالات الهياج سكن من تلقاء نفسه فعاد رولاند إلى التفكير .

ولم يكن إلا القليل حتى تغلّبت عواطف الانتقام في نفسه على عواطف الغرام فجعل يفكر بفوسكاري وهو علة شقائه، بل هو ذلك الوحش الذي نفّذ ذلك العقاب الهائل بأبيه، فيحدّث نفسه ويقول :

— كفاك يا قلبي غراماً ضائعاً ولأنظر الآن إلى فوسكاري الطامع بأن يتسلط على إيطاليا بأسرها، ولكني له بالمرصاد فلن أدعه يبلغ مراده من هذه الأمنية وسأبذل كل جهدي كي أحول دون اتفاقه مع جان مدسيس ، فإذا لم أستطع ذلك بالسياسة

فعلته بالقوّة .

وقد كان اتخذ في هذا السبيل كل ما يحتاج إليه من التعليمات. وفوق ذلك فإن شهرة جان مدسيس كانت قد طبقت إيطاليا وباتت أعماله مشهورة لدى الخاص والعام . فإنه كان يحب الحرب لمجرد الحرب شأن جميع الذين اشتهروا من رجال الفتوح وكان يأذن لجنده بسلب البلاد التي يفتحها فكانوا يحبونه من أجل ذلك حب عبادة .

وكان المؤرخون يلقبونه « الحربي المحبوب » ولكن أعداءه كانوا يدعونه الشيطان الأكبر ، فغلب هذا اللقب الأخير .

أما رولاند فقد وصل إلى معسكر هذا الفاتح عند هجوم الليل وقد نصب خيمته الكبيرة تحت سنديانة عظيمة . وكان الجنود فرحين يضحكون ويلعبون ويسكرون لأنهم كانوا قادمين على معركة يغنمون منها الأسلاب وقد أذن لهم جان مدسيس بهذا المرح كما كان يأذن لهم في بدء كل معركة . فلما وصل رولاند إلى المعسكر طلب إليهم أن يسيروا به إلى القائد الأكبر فساروا به إلى تلك الخيمة العظيمة الكائنة في وسط المعسكر بحيث كانت منه بمثابة القلب . وكان جان مدسيس جالساً فيها يحيط به قواده الأخصاء وقد وقف اثنا عشر حارساً على أبوابها وبُسطت في وسطها مائدة كبيرة جلس حولها جان مدسيس وقوّاده فجعلوا يأكلون ويشربون بينما كانت جوقة موسيقية تعزف لهم أشجى الألحان فلا تصل الإسماع لشدّة هرج الجنود وقائدهم الأكبر الذي كان يشرب ويضحك ضحكاً عالياً لكل كلمة يسمعها .

فلما رأى رولاند أمامه وهو معفّر من الغبار تشاءم بطلعته فقطب حاجبيه وقال له : من أنت ؟

فأجابه رولاند قائلاً : إني قادم من فينيسيا لأكلمك سرّاً في بعض الشؤون . وأنا أدعى رولاند كانديانو ابن الدوج كانديانو الذي أخذ غيلةً وغدراً في حفلة كان يعدّها وسممت عيناه . فارتعش الجميع لما سمعوه ، فإن حكاية كانديانو العائلة كانت قد اشتهرت شهرة عظيمة وكان لها تأثير رعب شديد كما كان لولده الذي ألقي في الآبار ليلة خطبته تأثير رحمة وإشفاق في جميع القلوب .

أما جان مدسيس فقد أجابه قائلاً: لقد كنت أعتقد أنك في السجن .

— لم أكن في السجن ... بل في آبار فينيسيا .

— إذن أنت تريد أن تكلمني ؟

— إذا كان ذلك يروق لديك .

— إذن أستقبلك على الرحب وأدعوك إلى مائدتي فقد عرفت أباك وعرفت فيه المروءة وكرم الأخلاق ، ولكنه لم يكن كفوءاً لإدارة الشعوب بالحسنى ، على أنه خدم الجمهورية أجلّ الخدمات ويسرّني أن أرى ولده بيننا .

وقد أشار إليه عند ذلك أن يجلس بجانبه وناوله كأساً من الخمر فشرب كل منهما نخب الآخر . حتى إذا تمت هذه المعاملات الأولى انقطع رولاند عن الأكل والشرب وعاد الحاضرون إلى سابق لهوهم في تلك الخيمة العظيمة . وكان جان مدسيس يراقب

خلسة في خلال ذلك رولاند فيعجب بجماله وقوة عضلاته ويقول في نفسه: إذا كان يريد الاعتماد عليّ في استرجاع منصب أبيه فقد أخطأ ، فإن فوسكاري رجل شديد ولا فائدة لي من عدائه . أما إذا كان يريد أن يتولى قيادة فرقة من جيشي عددت نفسي من السعداء .

ثم جعل يسأله أسئلة مختلفة عن حالته في سجنه وعن طريقة إنقاذه، فكان رولاند يجيبه بملء الإيجاز أجوبة تدل على رجاحة عقل وتوقّد وذكاء . حتى إذا أصدر جان مدسيس أوامره إلى الضباط بالانصراف إلى خيامهم كان إعجابه شديداً برولاند ، وكان بنيّته أن يقترح عليه الانتظام في سلك جيشه . فلما انصرف الجميع التفت إلى رولاند وقال له : لقد أصبحنا الآن وحدنا فقل ما تريد أن تقوله لي . واسمح لي في البدء أن أخبرك بأن لدي كثيراً من المعارك يقتضي لي زمن طويل لإنجازها، أي أني لا أستطيع أن أفيدك بشيء فيما يتعلق بفينيسيا. فهز رولاند رأسه وهو يبتسم ابتسام احتقار وقال : إطمئن يا سيدي فإني لا أعتمد في أموري الخاصة إلا على نفسي ، وعندما دخلت إلى السجن لم أدخله إلا بمحض إرادتي فلم يرغمني أحد على الدخول إليه .

— أقسم بالله أني معجب بك كل الإعجاب ولا أكتم عنك بأني أتمنى لو قاتلت بإمرتي .

— إني لا أخضع إلا لنفسي ومع ذلك أشكرك لحسن ظنك بي . فذهل جان وقال له : إذن ماذا تريد ؟ فأطرق رولاند

هنيهة ثم التفت إليه وقال : جان مدسيس ، إنك من رجال الحرب لا من رجال السياسة ، وإن الشعوب يخافونك لأن لديك جيشاً يطيعك خير طاعة ولأن أعمالك الماضية دلّت على ما يمكن أن تكون أعمالك المستقبلة ، ولذلك وجب أن تبقى عند حدّ شهرتك وتلبث ذلك الرجل الحربي الملقّب بالشيطان الأكبر ، فإذا ملتَ إلى السياسة ودخلتَ في حِيَلها ومفاسدها وخداعها أضعتَ تلك الشهرة .

— ومَن أخبرك بأني أجنح إلى الخداع والمفاسد ؟ فقال رولاند : هذا الذي يريدون أن يقترحوه عليك . فقال الشيطان الأكبر : من هم ؟

— فوسكاري دوج فينيسيا ، وذلك أنه يوجد بيني وبين هذا الرجل عداء لا ينتهي إلا بالموت ولذلك أتيتك كي أسألك التزام الحياد بيننا .

فقال له جان ببرود : أوضح ما تقول .

فتنبّه رولاند لبروده وخشي أن يكون قد جاء بعد فوات الأوان، فبرقت عيناه ببارق وعيد وقال له: إني موضح لك بملء الصراحة حالتنا ولك الخيار بعد ذلك بالميل إلى الجانب الذي تختاره . فقال : إني مصغ إليك . فقال رولاند : إن فوسكاري عذّب أبي عذاباً لا يخطر في بال الأبالسة دون أن يرتعد، وألقاني في آبار فينيسيا ستة أعوام، فيجب أن أعاقب هذا الرجل الفظيع وأعوانه في الإثم .

وقد قال هذا القول بلهجة تبيّن فيها الحقد الهائل حتى أن جان

صاح قائلاً . إني لا أريد أن أكون من أعدائك . فقال رولاند: إن كل من يساعد أعدالي كان منهم ، وأنا سأحارب فوسكاري وأعوانه حرباً لا رحمة فيها فإما أموت وإما يموتون ولا وسط بين هاتين الحالتين . إذن فاعلم أني بينما أعمل على استمالة شعب فينيسيا إليّ وانتزاع السلطة من فوسكاري ، بات على هؤلاء الضواري ، أي الدوج وأعوانه ، أن يسعوا إلى محالفة الأشدّاء لمطامع كبيرة يرجو فوسكاري بعد تحقيقها أن يأمن انتقـــامي . وأول هؤلاء المحالفين الذين يطمع بمحالفتهم هو أنت يا جان مدسيس .

— كيف عرفت ذلك ؟

— إن فوسكاري أرسل إليك سفيراً ، أتعرفه ؟

— من هو ؟ فقال رولاند : آريتان الشاعر .

— الشاعر آريتان ؟.. إني أعدّ نفسي سعيداً بلقياه فإني أحب الشعر والشعراء ولا سيما في مجالس الخمر فإنهم أرق منهـا وأجمل وأمتع !

— ولكنك لن تراه ، فقد قبضتُ عليه ووقفت على سرّ سفارته فوضعته في محل أمين وجئت إليك بدلاً منه .

— أنت عملت هذا ؟

— نعم يا جان مدسيس إني فعلته .

— ثم تأتي إليّ وتقول لي بما فعلت ؟ الحق إنه لا بد لي من الاعتراف بجرأتك .

— إن الجرأة كل ما أملك .

— وأنت تقول أنك عارف بما عُهد إلى آريتان أن يقول لي.

— إني أعيد عليك الكلام الذي تلقّاه الشاعر من فوسكاري ليحمله إليك ، غير أني أقوله بشكل موجز لا يضيع شيئاً من جوهره . وخلاصته أن فوسكاري يريد الاستيلاء على إيطاليا وجعلها مملكة واحدة . وهو يقترح عليك أن يضمّ جيشه وأسطوله إلى جيشك فيتمكن بهاتين القوّتين من طرد الأجـــانب وقتل أمانيهم ، حتى إذا تم له ما يريد من إخضاع إيطاليا يجعلها شاركك بالملك عليها فاستولى هو على القسم الشمالي وجعل فينيسيا أو ميلانو عاصمة مملكته ، وأنت تستولي على الجنوب فتجعـــل عاصمة مملكتك روما أو نابولي . هذه هي خطته وهذا مغزى تحالفه فماذا تقول ؟

— وإذا أجبتك عمـــا أرتئيه ، أتتعهد بإيصال جوابي إلى فوسكاري كما أوصلت إلي اقتراحه ؟

— دون شك ، مهما كان هذا الجواب إذا لم يكن أسهل لديّ من أن أكتمك اقتراح الدوج .

— كلا ، فإن الدوج متى استبطأ جوابي أرسل لي سفيراً آخر .

— ربما ، ومهما يكن من الأمر فاني سأكون مخلصاً في إرسال الجواب نفس إخلاصي في حمل الإقتراح ، أي أنك تستطيع أن تتكلم بملء الحرية .

— ليكن ما تريد . فاعلم إذن أن مشروع فوسكاري يعجبني بجملته ، لأنه مشروع عظيم يخلق بمن كان مثلي تحقيقه ومساعدة الآخرين فيه ، ولذلك أقبل مبدئياً هذه المحالفة وهذا كل ما أرغب أن تقوله لفوسكاري .

www.liilas.com/vb3 ALRAHEENA

— أهذا كل شيء ؟

— نعم ، فان اتفاقنا الآن مبدئي كما قلت لك ، أما الاتفاق النهائي فلا يكون إلا بعد اجتماعي بـه ، وسأرسل إليه رسولاً فأعيّن موعد الاجتماع ومكانه وذلـك بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأني سأبحث صباح غـد في طريقة الهجوم على كوفرنوله ، فيوم للتفكير ويوم للهجوم ويوم للنهب ، ثم أبعث رسولي إلى فوسكاري فلا تسبقه إلا بثلاثة أيام .

وقد قال هذا القول وعليه علائم التفكير فما شكك رولاند أنـه يحاول نصب مكيدة ، ولكنه لم يظهر عليه شيء من الاضطراب. أما اقتراح فوسكاري فقد أعجب به جان مدسيس أشد الإعجاب بدليل أنـه كان يقول بصوت متقطع : رأي بديع ... ما أجلّ هذا الإقتراح ... إنـه جدير بي . فقال له رولاند : إذن لقد رضيت بالاقتراح دون تمعّن ودون تردّد .

— لا حاجة إلى التمعّن في مثل هذا المشروع فـان فائدته ظاهرة للعيان .

— بقي عليّ أن أذكر بعض ملاحظات .

— وهي ملاحظات أتلقاها بالشكر لصدورها منك .

— لقد تقدّم لي القول إنك رجل حربي ، وإن السياسة تنقص من شهرتك الحربية إذا اشتغلت فيها . ومما لا ريب فيه أنك إذا جمعت قوتك إلى قوة فوسكاري تخضع لكما إيطاليا وإن يكن المشروع غير سهل كما يظهر لأول وهلة ، فان فلورنسا وبيرومانتو جمهوريتان قويتان ولا سيما إذا اتحـدتا وتحالفتا فانهما تزدادان

قوة . ومع ذلك فلنفترض أنك بعد حرب عشرة أعوام على الأقل تسيل فيها الدماء كالأنهار تمكنتَ من إخضاع إيطاليا ، ثم لنفرض أيضاً أمراً مستحيلاً هو أن البابا وافق على أن تكون ملك الإيطاليين ، وأن أوروبا لم تلبّ دعوته ، لنفرض كل ذلك ، فاذا تم على ما تريد فماذا تصنع بفوسكاري ، فانه حين ينتهي دورك يبدأ دوره فيذوب الرجل الحربي ويحـل محلّه السياسي فوق ذلك العرش الذي بني بالدماء . وفوق ذلك فان فينيسيا قـد تدافع دفاعاً تخرج فيه ظافرة ، فانها تعلم أن مستقبلها في البحر لا في الأرض ، وأنها لا مطمع لها بغير السلم والاتجار والفنون ، فهي ستكون أول المدافعين . ولكن لنعـد إلى مسألتنا الأولى فاذا انتصرتَ فماذا تصنع ؟

— إني إذا انتصرت أجعل كرسي مملكتي في نابولي أو في روما نفسها ، ومن الذي يمنعني ؟

— يمنعك شريكك يا جان مدسيس ، فاني أعرف فوسكاري حق العرفان . ولا تحسب أنه سيكون في إيطاليا ملكان بـل ملك واحد .

فضرب جان بيده على المائدة ضربة اهتزت لهـا الأقداح وقال : إن هذا الملك الوحيد سيكون أنا فـان فوسكاري سيكون مخلصاً بالكره أو بالرضى .

— ليكن ما تظنه ، فقد فرغت من الملاحظات الخاصة بك وبقي عليّ تلك الملاحظات الخاصة بي ، فقد بيّنت لك الأسباب التي تدعوني إلى الحقد على فوسكاري ، فاذا أصبحت شريكه

كنت حائلاً بيني وبين ما أريده له . فاعلم يا جان مدسيس أني أقسم لك بأمي التي ماتت يأساً وبأبي الذي شوّهوه ونكّلوا به، أنه لا يوجد قوة في الوجود تنقذ فوسكاري من قبضة يدي بعد أن قضيت عليه . ثم وقف وقال : تمعّن في الأمر يا جان مدسيس . فوقف جان أيضاً وقال : أظن أنك تهددني .

— بل إني أخبرك بما عزمت عليه فان فوسكاري الجريمة وأنا الانتقام ولك أن تختار .

— لقد اخترت ... ثم صفّق بيديه وقال : إلي . فأسرع اثنا عشر ضابطاً إلى الخيمة فقال لهم : إقبضوا على هذا الرجل واحرصوا عليه كل الحرص. فقال له رولاند: جان دي مدسيس، لقد خيّرتك بين الذئب والعقاب ولا يزال الوقت فسيحاً لديك . فلم يجبه جان دي مدسيس وقال للضباط : إقبضوا عليه . فقال له رولاند : إذن أنت الذي أردت ... وقيما هو يقول ذلك دنا ضابطان ووضعا أيديهما على كتفيه .

وقد عرف القراء قوة رولاند ، فانه دفعهما بيديه فسقطا يهويان على الأرض وأسرع إلى باب الخيمة . فجعل جان عند ذلك يصيح قائلاً : خيانة ... خيانة ... إقبضوا عليه . فانقضّ الضباط عليه .

أما رولاند فإنه التصق بجدار الخيمة وأسرع إلى وضع المائدة بينه وبين مطارديه . ثم جرّد حسامه الطويل وهو يقول: تذكر يا جان دي مدسيس أني عرضت عليك اختيار العقاب فأبيت إلا أن ينفذ فيك .

اصطدام العواصف

*

في وسط قصر أمباريا ، أي في تلك البناية الخاصة ببيانكا ، كانت الحظية وبنتها جالستين تتحدثان وقد وضعت بيانكا يدها بين يدي أمها وجعلت تحدثها عن رحلتها إلى قرية ميستر وإقامتها مع جوانا ومجيء ساندريجو فجأة . وقد تكلمت قليلاً عن رولاند ولكن أمها تبيّنت من كلامها الموجز عنه أنها تحترمه احتراماً عظيماً وتثق به ثقة لا حدّ لها .

وقد سمعت كلام بنتها إلى النهاية دون أن تقاطعها حتى إذا أتمت حديثها قالت لها: لقد عدت إليّ يا ابنتي وزال عنك الخطر بفضل الله وبفضل ذلك القائد الباسل السنيور ساندريجو. فقالت لها بيانكا : ولكني لم أكن في خطر يا أماه قرب جوانا بل إن الخطر عليّ هنا من ذلك الرجل الذي اختطفني ، ومن أولئك الرجال الذين لم أرَ وجوههم ، ولكن هيأتهم لا تزال منطبعة في مخيلتي .

وكانت تعني بهم بيبو وجاله . فقالت لها أمها : لا تخشي يا ابنتي من هذا الرجل . فهزّت بيانكا رأسها وقالت : من يعلم ما

يكون منه ؟ فقالت لها أمها : قلت لك لا تخشي منه فقد مات.

وقد قالت لها ذلك بلهجة تبيّن فيها الخوف فإنها علمت من رولاند نفسه أن بمبو قد مات وأنه هو الذي قتله ومَن يعلم الآن عند أيّ حد يقف انتقام رولاند ، سيما وقد علمت أنهم حين حاصروا رولاند في بيت الجزيرة تمكّن من الفرار ولكنها كانت موقنة أنه سيعود . وقد ذكرت عند ذلك عراكها مع ليونور وأنها هي التي اضطرت إلى إخبارها بأمر فراره من السجن ، فلا شك أن ليونور تهتم الآن بالالتحاق بمن أحبّته وقد لقيته وحدثته ، فهاجت أحقادها على ليونور وعلمت أنهـا لا تستريح من عنائها إلا بموتها .

وهنا ظهرت على وجهها ملامح التهديد الهائل حتى أن بيانكا ارتعشت له وباتت تخاف أمها وقالت لها : ما بالك يا أماه ، وما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟ فقالت أمباريا : لأني أفتكر بهذا الرجل الذي حدثتني عنه والذي كنت تخافينه ، فلا تخشي شيئاً بعد الآن .

وعند ذلك استرسلت بأفكارها إلى بمبو فقالت في نفسها : نعم إن بمبو قد قتل فمن عساه أن يقتل بعده ؟

وفي تلك الساعة دخلت خادمة غرفتها فقالت : يوجـد يا سيدتي رجل يريد أن يراك .

— من هذا الرجل ؟

— إنه لا يقول إسمه .

— هل أتى هذا الرجل من قبل إلى هنا ؟

— لم أستطع أن أتبيّن وجهه فإنه كان يخفيه بردائه .

فخطر لأمباريا أن هذا الرجل هو رولاند إذ لا يـأتي أحد إليهـا متنكراً سواه . ثم وقفت وأسرعت إلى المرآة فجعلت تنظم شعرها وتتجمل . ولمن هذا التجمّل وهي تعتقد أن القادم رولاند ؟ وكيف تتجمل له وهي تعتقد أنها تكرهه بملء جوارحها ، وأنها تحب ساندريجو ذلك اللص الذي تريد أن تزوّجه بلتها ؟ وقالت في نفسها : إنه إذا كان رولاند فلن يخرج حيّاً من هنا .

ومع ذلـك فإنها أخذت تبالغ في التزيّن والتجمّل كأنها تريد أن تطرح نفسها بين ذراعيه حين تراه وقـد نسيت بنتها لاشتغالها عنها بنفسها. أما بيانكا فإنها اضطربت وسألت نفسها قائلة : ترى من عسى أن يكون هذا الرجل المتنكر ؟ ولم يخطر لها أنه رولاند ، بل تمثّل لهـا وجه بمبو الذي لم يكن يخطر في بالها حتى تصاب من رعبها بما يشبه كابوس الحالم . وكانت الخادمة قـد تركت الباب مفتوحاً حين دخولها فرأت بيانكا من خلاله ذلك الرجل الذي استبطأ الخادمة فسار في أثرها ووقف في ذلك الباب ينظر إلى بيانكا نظرات تكهربها من الرعب . فتراجعت منذعرة وصاحت صيحة منكرة .

فالتفتت أمها عند ذلك وصاحت مثل صيحة بنتها قائلة :

— من أرى ؟ بمبو ؟

فانحنى بمبو أمامها وقال : لقـد سئمت الانتظار لأني مضطر إلى الإسراع بمقابلة بنتك . وبعد هنيهة كان بمبو وأمباريا جالسين

في قاعة لم تكن تستقبل المحظية فيها غير أخصائها فقال لهـا الكردينال : لمـاذا لم تبقي هناك مع بيانكا ؟ قالت : أتسألني لماذا ؟ إسمح لي أن أسألك أنا أيضاً لماذا تقدمت حتى بلغت إلى حيث تقيم ابنتي ؟ فجلس الكردينال بجانبها وقال لها : أرى أنه يجب أن نتحدث ملياً بأمرنا ، فتفضلي بالإصغاء إليّ يا سيدتي ما زلت تريدين العودة إلى الأبحاث .

يذكر القراء أن ساندريجو أخبر الكردينال بأنه عازم على الاقتران ببيانكا وأنه يلتمس منه أن يتولى عقد قرانهما . وقد صعق بمبو لهذا الخبر فأسرع بالقدوم إلى قصر أمباريا وهو لا يعلم ماذا يريد لاضطرابه . ولكنه حين رسا قاربه عند باب قصرها كان قد وضع الخطة التي يجب أن ينتهجها .

وقد رأيناه يخبىء وجهه بردائه كي لا يعرفه ، فـإن هذا الرجل كان يعرف جميع مداخل القصر ومخارجه ويعرف الطريق المؤدية فيه إلى حيث تقيم بيانكا . فلم يكد يقيم هنيهة في قاعة الانتظار حتى هاج شوقه إلى رؤية بيانكا ولو قابلته بما كان يتوقعه من ظواهر الرعب . وكان في نيته أن يكلم بيانكا أمام أمها ، ولكن اندهاشه بجمال الفتاة خلب لبه بحيث أن أمباريا حين أخذت بيده وذهبت به من تلك الغرفة تبعها مطيعاً وهو لا يعلم كيف يسير . أما أمباريا فإنها كانت تنظر إليه بانذهال عظيم فلا تصدق أنها تراه وتقول في نفسها: ترى، أكان يفتخر رولاند بأنه قتله أم أنه كان يدّعي هـذا الادّعاء لمآرب خفيّ ! وفي الحالتين ، فقد خفضت منزلته عندها لأنه اضطرّ إلى الكذب

والكذب سلاح الضعفاء .

ولم تجب الكردينال على أقواله الأخيرة بـل سألته قائلة : ألعلّك كنت جريحاً ؟ فقال: أنا جريح ؟ كلا أيتها العزيزة فليس من يجسر على جرحي إلا في هذا المنزل. فقالت : ولكن لِمَ طال غيابك ؟ فقـال : كنت أتجوّل في ضواحي فينيسيا . قالت : كيف ذلك ؟ ألم تجرح في تلـك الليلة التي حاولت فيها اختطاف ابنتي ؟ ألم ينتزعها منك رولاند ؟ فقـال الكردينال : من الذي روى لك هذه الحكاية ؟ قالت : رولاند نفسه !

— إذن ، لقد رأيتِه !

— وأنت رأيته أيضاً كما يظهر ...

— نعم ، فاعلمي إذن أني رأيته وأن حياتنا جميعنا باتت في خطر .

فارتعدت أمباريا وقالت : إني عارفة بما تقول . فقال بمبو : ولكن الذي لا تعرفينه هو أنه يجب أن نبالغ بالحذر وأن نتحد كل الاتحاد كي نستطيع مقاومته أو اتّقاء شرّه فـإني لم أنجُ منه أخيراً إلا بأعجوبة من السماء ، فـإذا وقعت في شركه مرة أخرى فلا مطمع لي بالنجاة . وقد يسهل عليّ وعلى فوسكاري وألتياري المقاومة فإننا رجال ، ومهما بلغ من بأس رولاند فإنه رجل مثلنا، وأما أنت فإنك امرأة ضعيفة مقيمة في قصر معتزل فمن يحميك الآن ؟

وكان يحدثها بهـذه الأقوال وهو ينظر إلى وجهها فاحصاً ، فعجب إذ لم يبدُ عليها شيء من علائم الرعب التي كان يتوقع أن

يراها ، وذلك أن أمباريا كانت واثقة من حماية ساندريجو . فلما رأى بمبو ما كان من سكينتها غيّر خطّته فقال : وفي كل حال يا سيدتي فإن جميع الأحوال تقضي عليك بأن تكوني حليفتي . فأجابته ببرود قائلة : سأفعل . فهاج ثائر الكردينال وقال في نفسه : لنضرب الضربة الكبرى . ثم نظر إليها وقال : إنك قد تجهلين يا سيدتي ما يكون مني إذا قدّر لنا أن نكون عدوّين .

— لماذا نكون عدوّين ؟

— ذلك ما لا أتمناه ، ولكنه إذا حدثت حوادث قضت على أن أعتبرك عدوة لي وجب عليّ أن أعدّ عدّتي للدفاع ، وإني مخبرك بماذا أفعل .

— وأنا مصغية إليك .

— إذن فاعلمي أن أول ما أفعله أني ألقي في فم الأسد ، أي في ذلك المكان المعدّ للوشايات ، ورقة أعددتها من قبل هي معي في كل حين ، وقد استظهرت كلامها بحيث أني أستطيع أن أتلوه عليك . وهنا لا بدّ لي من إخبارك بأنه يوجد صديق لي لديه نسخة من هذه الورقة فإذا احتجبتُ عنه ألقى تلك الوشاية في فم الأسد . أما وقد عرفتِ ذلك فاعلمي أيضاً أنه لا يزال لأسرة كانديانو أصدقاء في مجلس العشرة ولا بدّ لك أن تذكري أيضاً أن رولاند لم يحكم عليه بما حُكم إلا حين برهنت للقضاء أنه قاتل عشيقك دافيليا ... أأنت مصغية لِما أقول ؟

— كل الإصغاء !

— إذن لم يبقَ عليّ إلا أن أتلو عليك الوشاية التي أعددتها

وهي مكتوبة بإنشاء مضبوط صادق . ولا يجب إلا أن تجري العدالة في مجراها وهذه هي فاسمعي : « أنا صاحب التوقيع أتشرف بإبلاغ مجلس العشرة أن أحكامه العالية قد أخطأت في ليلة ٦ حزيران سنة ١٥٠٩ فإن قاتل النبيل دافيليا المأسوف عليه لم يكن رولاند كما توهّم ، بل كان امرأة تدعى أمباريا وهي لا تزال في فينيسيا في قصرها الواقع على الترعة الكبرى » .

وقد سكت بمبو هنيهة بعد ذلك فرأى الرعب قد ارتسم على وجه أمباريا فأتمّ حديثه فقال : إني وضعت اسمي في آخر هذه الرسالة ولا بدّ للقضاة أن يسألوني فأؤيّد ما كتبته بالقول ولا يشك أحد بصدق كلامي وأنا من رجال الله وفي أرقى المناصب الدينية . وأنت ذكية الفؤاد يا سيدتي فلا فائدة من إخبارك عن عاقبة هذه الوشاية .

فاشتدّ رعب أمباريا وتمثّل لها الموت فجعلت أسنانها تصطك فقالت : كلا ، إن ما أسمعه منك ليس حقيقة بل هو حلم مخيف .. كلا إنك لا تشي بي هذه الوشاية الهائلة . وفوق ذلك فإنك بهذه الوشاية تسيء إلى نفسك كما تسيء إليّ . فقال : ربما كان ما تقولينه صحيحاً يا سيدتي ، ولذلك تعلمين دون شك ما يقدم عليه العشاق متى تمكّن منهم القنوط ! إنهم يقدمون على كل خطير ويستقبلون الخجل والعار والموت دون اكتراث ، وأنا من أولئك العشاق !

— إذن ماذا تريد ؟

فوقف بمبو وقال : لا أريد أن تزوّجي بنتك لساندريجو فإن

بيانكا لي . فصاحت أمباريا صيحة يأس وخبأت وجهها بين يديها ، وعندما رفعت رأسها كان بمبو قد توارى عن الأنظار .

أما الكردينال فإنه انصرف مطمئناً وهو يقول في نفسه : إني سأمهلها ثلاثة أيام للتفكير ويفعل الرعب البقية . فإني سأعود بعد ثلاثة أيام وتكون بيانكا لي . ولما بلغ إلى الباب وحاول الخروج منه رأى رجلاً خرج من قاعة الانتظار وعرف أنه ساندريجو فنادى أحد الخدم وقال له : خذ يا بنيّ هذين الدينارين وأجبني . فأخذ الخادم الدينارين بلهفة والمحنى أمامه بملء الاحترام فقال له الكردينال: أرأيت هذا الرجل الذي كان في قاعة الانتظار ؟

– نعم يا سيدي .

– من هو ؟

– لا أعرف اسمه ولكنه يريد مقابلة السنيورا أمباريا .

– أهو الآن عندها ؟

– دون شك .

– إني أمنحك خمسين ديناراً إذا كنت تسهّل لي سماع حديثهما .

– خمسين ديناراً !

– نعم ، ألم تعرفني ؟

– ومن لا يعرفك يا مولاي !

– إذن تعال إليّ في هذه الليلة أنقدك المال .

– تفضّل واتبعني يا سيدي الكردينال .

فسار الخادم يتبعه بمبو حتى بلغ إلى غرفة ضيقة فوضع الخادم إصبعه فوق فمه ودلّه على ستارة كانت تفصل بين هذه الغرفة وبين الغرفة المقيمة فيها أمباريا ثم تركه وانصرف . فوقف بمبو وراء الستارة وجعل يصغي . وكانت أمباريا قد استقبلت ساندريجو بملء الارتياح بعد حادثتها مع بمبو ، فلما دخل إليها قال لها : لقد أسرعت بالعودة إليك كما ترين . قالت : وأنا كنت أنتظر عودتك بملء الجزع . فقال : قد كنت منهمكاً في إيجاد كاهن يعقد قراننا .

فاصفرّ وجه أمباريا ، ولو بحث باحث في أعماق قلب هذه المحظية الغريبة الأطوار لرأى فيه بذور البغض والغيرة ، فإنها باتت تحب هذا اللص الآن حتى أنها أصبحت تغار من بنتها عليه فقالت له : لماذا هذا التسرّع بالبحث عن كاهن؟ قال : لأن لهذه المسألة خطورة عظيمة لديّ ، ولا سيما مسألة الحفلة إذ لا يوجد من يعرفني في فينيسيا ما خلا زعماء الجواسيس وهم لا يعرفون عني سوى أني من اللصوص ، ولذلك أردت أن تكون حفلة القران باهرة في أعظم كنيسة وأن يتولى عقد قراننا أعظم كاهن . فقالت : من هو هذا الكاهن ؟ قال : الكردينال نفسه ، فقد رضي أن يبارك عقد قران القائد ساندريجو وابنة أمباريا .

– ماذا تقول ؟

– أقول الكردينال نفسه .

– بمبو ؟

– هو بعينه .

وعند ذلك ابتسم ابتسام الظافر وقال : إنك تعجبين كيف أنهم يعاملونني معاملة لا يعاملون بها غير ابن الدوج . فستكون الحفلة في كنيسة سانت مارك فتنار بألف شمعة ويحضر صلاة الإكليل جميع القسس والرهبان وكل نبلاء فينيسيا والقائد العام ورئيس ديوان التفتيش ويعقد القران الكردينال نفسه ، فماذا تقولين ؟

— بمبو !

— نعم ، فقد تعهّد لي بذلك .

— أهو تعهّد لك ؟

— في صباح هذا اليوم .

— أكان يعلم اسم خطيبتك ؟

— نعم !

فوضعت أمباريا يدها على جبهتها وذكرت ما قاله لها الكردينال منذ هنيهة وهو : « إني لا أريد أن تكون بيانكا زوجة ساندريجو لأنها لي » ، فاضطربت في أمرها ولم تعلم كيف تحل هذا اللغز . ورأى ساندريجو ما كان من اضطرابها وذهولها فقال لها : إنك تذهلين لذلك ، ولكن متى علمت أن بمبو مدين لي بالحياة بطل انذهالك . وعند ذلك أخبرها بإيجاز كيف أنه أنقذه من مغاور بيافا ، فأيقنت أمباريا أن بمبو قد تقيّد حقيقة بهذا الوعد ولكنه يضمر الشرّ في السر لمنقذه فاضطربت في أمرها ولم تعلم إذا كان يجب في هذه الحالة إنذار ساندريجو ، إلى أن رأت أنه لا بدّ من إخباره والاتفاق معه على مقاومة

الكردينال . ولكنها لو أتيح لها النصر على الكردينال بعد هذا الاتفاق فما تكون النتيجة ؟ إنها تكون زواج ساندريجو بابنتها ! وعند ذاك وازنت أمباريا بين حالتيها فتمثّل لها الموت وتلك الحفلة الباهرة في كنيسة سانت مارك ، فلم تجد حلاً لهذه المشكلة إلا بإطالة الوقت كي تتمعّن في أمرها علّها تجد مخرجاً من هذه المضايق الحرجة .

وعند ذلك أخذت تنادم ساندريجو وتغازله حتى فتنته فخرج بعد حين وهو يقول في نفسه : ترى ، من هي التي أحبها ، أهي الأم أم البنت ؟ وكان بمبو وراء الستارة كما تقدّم فرأى كل ما حدث وسمع كل ما دار بينهما . فلما خرج ساندريجو أزاح الستارة ودخل لغوره إلى أمباريا وهي لا تزال محاولة الشعر فذعرت ذعراً عظيماً ولم تفه بكلمة فقال لها بمبو : لقد وقفت الآن على سرك ، فإنك تحبين ساندريجو وتزاحمين بنتك فيك ولا تفتكرين إلا أن يكون هذا الرجل لك وحدك ، أليس كذلك؟ فتمتمت أمباريا قائلة : هو ذاك . قال : إذا كان ذلك فقد وجدت الحل الموافق .

— أنت ؟

— نعم ، فاعتبري أن ما قلتاه كان لغواً وانسي وعيدي السابق ولنبقَ صديقين .

— نعم .

— وعلى ذلك يكون ساندريجو لك وبيانكا لي .

فارتعدت أمباريا ولكنها قالت بصوت يتلعثم : نعم .

– إذن فاطمئني ولا تقلقي بعد الآن فإن بنتك في وقت قريب لا تكون حائلاً بينك وبين من تحبين .

فتنازعت قلبها عوامل الأمومة وعوامل الغرام إلى أن انتصر عامل الحب على ذلك القلب الفاسد فقالت : نعم لقد رضيت . فخرج بمبو عند ذلك سكران بخمرة الرجاء كما خرج ساندريجو من قبله سكران بخمرة الحب وهو لا يعلم إلى أي المرأتين يميل !

حصون كوفرنولو

*

لقد تركنا رولاند في خيمة الشيطان الأكبر وقد جذب المائدة إليه فكانت حائلاً بينه وبين أعدائه وامتشق حسامه بينما كان جان دي مدسيس يصيح قائلاً: خيانة ... خيانة ... إليّ! وقد بلغ صوته إلى الجنود وجرّد رولاند حسامه الطويل وجعل يدافع به عن نفسه فقتل ثلاثة من الذين تجرأوا على الصعود على المائدة. وكان يقاتل بيده اليمنى ويده اليسرى وراء ظهره مسندة إلى قماش الخيمة وجان دي مدسيس يصيح بأعوانه قائلاً: أقتلوه أقتلوه ! فهجم عليه نحو عشرين رجلاً فصاح بعضهم قائلين : لقد سقط . وقال آخرون : لقد لقي عقابه . وصاح الشيطان الأكبر

قائلاً : بل إنه نجا ، أدركوه ... أقتلوه !

وقد أشار إلى الجنود بيد تضطرب إلى خرق في قماش الخيمة. ذلك أن رولاند بينما كان يقاتلهم بحسامه جرّد خنجره بيده اليسرى ومزق به قماش الخيمة حتى إذا رأى الجنود تكاثروا عليه وأرادوا أن يبطشوا به مرق من ذلك الخرق الذي فتحه مروق السهم وتوارى عن الأبصار . وقد جدّ في أثره نحو مائة جندي ولكن أبحاثهم ذهبت عبثاً فعادوا إلى قائدهم خائبين . وكاد جان دي مدسيس يجنّ من غضبه فلم تبقَ كلمة من قاموس الشتائم حتى لفظها وهو يرغي ويزبد كفحول الجمال . حتى إذا قنط من العثور على رولاند نام في خيمته ونهض عند الفجر فامتطى جواده وسار مع بعض قواده إلى كوفرنولو التي كانت أسوارها تبعد عن معسكره نصف مرحلة .

وقد أسف أسفاً شديداً لفرار رولاند وأرسل في أثره الجنود إلى كل الجهات فلما عادوا إليه بالخيبة هز رأسه وقال : إن رولاند كانديانو تهددني وأهانني إهانة لا تغتفر إلا بالموت ، على أني سأجده ، ومتى ظفرت به عاقبته بما عوقب به أبوه . وعند ذلك انصرف إلى مراقبة الأسوار وقد عزم عزماً أكيداً على مهاجمتها في الغد أو في اليوم الذي يليه .

على أن الحادثة التي جرت له مع رولاند هاجت عزيمته وعوّل على مهاجمة الأسوار في القريب العاجل لا سيما وإن اقتراح فوسكاري قد يثني عقله فرأى أن يفتح هذه المدينة ثم يبدأ لفوره بتنفيذ ذلك الاقتراح بأن يرسل إلى فوسكاري فيخبره

بأنه راض مبدئياً بالاقتراح ويسأله تعيين يوم ومكان للاجتماع . فلما استقرّ رأيه على ذلك لم يعد يفكر إلا بإحراز النصر في هجومه. وقد افتقد تلك الأسوار وفحصها فحص العارف الخبير فأيقن من إحراز النصر .

وفيما هو يراقب تلك الأسوار ولم يكن يصحبه غير اثنين من ضباطه تساقط عليها الرصاص فأصيب أحد الضابطين برصاصة قاتلة وجرح الآخر جرحاً بالغاً وأصيب جواد دي مدسيس برصاصة فقتلته فوثب عنه إلى الأرض قبل سقوطه . وعند ذلك التفت إلى ما حواليه فرأى رجلاً قد خرج من بين الأدغال وقال له : جان دي مدسيس، إني لا يزال لديّ غدّارة وخنجر وأنت لديك مثلي فلنتبارز إذا أحببت .

فصاح جان صيحة فرح حين علم أن هذا الرجل كان رولاند، وهجم على رولاند وأطلق عليه غدّارته فأخطأه ، وأطلق عليه رولاند غدارته فأصابه فسقط ذلك الرجل الحربي يتخبط بدمائه ثم أطبق عينيه فدنا رولاند منه وتمعّن في وجهه فقال : إنه لم يمت بعد ولكنه سيموت قريباً . وعند ذلك فتح جان عينيه فقال له رولاند : هل أستطيع أن أفيدك بشيء ؟ قال : إذهب لا أرجمك الله فلا أريد منك شيئاً . قال : إنك يا جان قد أردت عدائي في حين أني لم أكن أريد إلا ولاءك وبرهنت لك عن صدقي في هذا الولاء . وقد خيّرتك بين الجريمة والعقاب فاخترت الجريمة بحيث لم أجد بداً من تنفيذ العقاب ، وهكذا سأعاقب أصحاب أعدائي .

فقال : إذا كان ذلك فما أبقيت لأعدائك ؟ قال : إن هؤلاء لا أريد أن أضربهم ، أما أنت فاعلم أني قتلتك دون أن أكون حاقداً عليك لأنك كنت حائلاً بيني وبين أعدائي . وعلى ذلك فإني أعيد عليك ما قلته وهو : أتريد أن أفيدك بشيء ؟ واعلم يقيناً أني أمتثل لكل ما توصيني به بملء الإخلاص .

فضحك جان ضحكاً عصبياً ذهب بحياته وأطبق عينيه . وبعد ذلك بربع ساعة علم المحصورون في تلك المدينة بوفاة عدوّهم الكبير فقرعوا أجراس الكنائس وعلا هتافهم حتى بلغ عنان السماء ثم حملوه ودخلوا به إلى المدينة فطافوا به الأسواق فرحين مستبشرين. وهكذا كان دخول ذلك « الفاتح » إلى قلعة كوفرنولو !

رسالة من آريتان

*

كان بمبو وفوسكاري جالسين في سراي الحاكم يتحدثان بصوت منخفض . وكان ذلك في صباح يوم بارد من أيام الشتاء بعد الحوادث التي ذكرناها في الفصول السابقة بعدّة أيام . وقد بدأ الدوج الحديث فقال : هو ذا أسبوعان قد مضيا دون أن

يعود آريتان . قـــال : إني أمرّ كل يوم فأسأل عنه ولم يرد منه شيء إلى الآن .

– ولكن جان دي مدسيس غـــير بعيد الآن عنا فهو في مونتو ، وكان يجب على رسولنا أن يعود منذ أسبوع .

– هو ذاك . ولكن يقال إن الثلوج تساقطت بغزارة في السهول وقد تكون سدت المنافذ .

– أنظر إلى هذه الأخشاب التي تحترق في المستوقد يا بمبو ، فقد كانت شجرة راسخة الأركان فباتت الآن أخشاباً تحترق .

– دع هذه التصورات أيهـــا الدوج العزيز فإن سلطتك لا يتهددها أحد !

فارتعش فوسكاري وقال : أأنت رأيت أيضاً مـا رأيته من معنى احتراق هذه الأخشاب ؟

– كلا ، بـل إني ترجمت فكرك ، ويسوؤني أن أراك حزين النفس ضيق الصدر في حين أن كل شيء في هذا الوجود يبسم لك. فنهض الدوج وسار إلى النافذة ثم أشار إلى بمبو أن يدنو منه فقال له : ماذا ترى من هـذه النافذة ؟ فقال بمبو : أرى مدينة عامرة ملؤها الجلال والمجـد تناطح بقصورها السحاب وتضيء مصابيح قواربهـا في بحيراتها الزرقاء كما تضيء النجوم في السماء ، وأرى ذلـك الأسطول الضخم راسياً بقربها رسوّ الجبال فأقول في نفسي إن كل هذا لك ، ثم أرى أولئك الجنود الذين يسيرون الآن بتمام الانتظام إذا جاء دور حراستهم فأقول إنهم لم يعيّنوا إلا لخدمتك .

فتنهد فوسكاري وقال : أمـا الذي أراه أنا من هذه النافذة فهو ذلك الجسر الهائل ، جسر التنهدات ، فإني ما وقفت مرة في هذه النافذة إلا اتجهت عيناي بالرغم عني ، فإذا رأيت أولئك البحّارة يسيرون في قواربهم ويلتفتون إلى شرفات القصر أقول إنهم يصبّون عليّ لعناتهم ، وإذا رأيت الجنود قادمين للحراسة أقول إنهم قادمون للقبض عليّ ، فإن الناس يعتقدون يا بمبو أني ملأت فينيسيا ظلماً وقد غصّت السجون بهم حتى أني بتّ أسمع تنهداتهم من بعيد . ألم أقبض على كانديانو وهو في نضارة مجـده وكان ما تعرفه من عقابه ؟ وما الذي يمنع الناس أن يقبضوا عليّ كما قبضت عليه ؟

– ما هذا الرعب يا سيدي ، فإني لا أجد مسوغاً له .

– ذلك لأنك لا تريد أن ترى ، فإن الدم يدعو الدم . وقد قلت لك إن رولاند كانديانو يرود حولي حاملاً سيف القضاء ولا بدّ أن ينفذ بي هذا القضاء .

– إن رولاند لا يلبث أن يقع في قبضتنا .

– ولكنه الآن حرّ وأنت تقول يا بمبو إنه لا مسوغ لرعبي ولكني أرى منذ حين من نظرات الضباط المحدقين بي ما يرعبني.

– لماذا لا تقبض عليهم ؟

– وإني كنت أرى في الحفلات التي أعدّها كثيرين من النبلاء يتكلمون حولي همساً ...

– لماذا لا يزال هؤلاء النبلاء في قيد الحياة ؟

– صبراً يا بمبو إلى أن تمتلىء هـــذه الورقة التي أمامي من

www.liilas.com RAHEEN

أسماءهم فإنها تزيد كل يوم . وسأضرب ضربة هائلة أدع بها فينيسيا خافضة الرأس عشرين عاماً . ولكن لا بدّ لي قبل ذلك من أمرين ، أحدهما القبض على رولاند ، فإني لا أزال أخافه ما زالت هذه العصابات تحت قيادته ، والثاني أن يقبل جان دي مدسيس مقابلتي ، وعند ذلك تعلم مقدار قوتي ولا سيما حين يصبح جيش الشيطان الأكبر تحت إمرتي . أعرفتَ الآن قدر جزعي بتأخّر آريتان الشاعر عن الرجوع ؟

وعند ذلك دخل خادم وهو يحمل رسالة على صينية من الفضة وقال : إن بيار آريتان أرسل هذه الرسالة إلى مولاي الدوج وهو لا يستطيع الحضور بنفسه لأنه طريح الفراش . فأخذ الدوج الرسالة وانصرف الخادم . فلم يكد فوسكاري يقرأ السطور الأولى حتى صاح صيحة يأس فاصفرّ وجهه وسقطت الرسالة من يده . فالتقطها بمبو وقرأ هو أيضاً تلك السطور الأولى كما يأتي :

إلى مولاي الشهير العظيم حاكم جمهورية فينيسيا . مولاي .

« ألتمس من سموكم معذرتي فإن ما سأقوله هائل حتى أني لا أكاد أجسر على قوله . فقد لقيت من الحزن في هذه السفارة ما أنهك قواي ، وهذا النبأ المحزن الهائل أقوله بكلمة وهي : إن جان دي مدسيس الشهير قد مات » .

فقال بمبو بلهجة قنوط أيضاً : أمات جان دي مدسيس ؟

قال : نعم ، وهذه هي الضربة القاضية عليّ ، فاقرأ تتمة الرسالة فإني أحب أن أقف على كل شيء . فقرأ بمبو ما يأتي :

« إن جان دي مدسيس الشهير قد مات ، هذا الرجل الذي

كنت عاقداً عليه كل آمالي ، فقد أصيب صباح الثلاثاء حين اقترابه من أسوار كوفرنولو بضربة خنجر ، وقيل إنه أصيب برصاصة غدارة كانت القاضية عليه ، وكان يصحبه ضابطان فقتلا قبله . وكان قاتله رجلاً غريباً عن كوفرنولو لا يعرفه أحد ولكن كثيرين قالوا إنه من أهل فينيسيا ، وأكد بعضهم أن هذا الرجل الفينيسي هو ابن دوج فينيسيا السابق » .

فابتسم فوسكاري ابتسام قنوط وقال : رولاند كانديانو ! فقال بمبو : هذا الذي كتب في لوح المقدور ! قال : أتمّ قراءة الرسالة . فقرأ بمبو ما يأتي :

« إنه حين أصيب هذه الإصابة اضطرب نظام جيشه وكان الحزن عليه لا يوصف ، فسار ضباطه وجنوده إلى كوفرنولو وهم يبكون وعادوا بقائدهم الأكبر إلى معسكرهم ثم حملوه من هناك إلى قصره في مانتو وهناك دنوتُ منه وقلت له : مولاي ، إنه لا بدّ لك من إجراء عملية جراحية في رجلك فتشفى بعد ثمانية أيام . ونعم إنه يبقى أثرها ولكنه أثر شريف وإن كنت غير محتاج إلى هذا الشرف . قال حسناً ، فليحضر الأطباء . وعند ذلك أقبل الأطباء وأعوانهم واصطفوا حوله وهناك لقيت منه ما لا يخطر في بال إنسان ... فإنه كان يحمل المصباح بيده بينما كان الأطباء يقطعون رجله . وقد هربت كي لا أرى هذا المنظر ، ولكني لم ألبث بعد هنيهة أن سمعته يدعوني إليه ، فدخلت فرأيت ضباطه من حوله آسفين ورأيته قد أخذ رجله المقطوعة فجعل يلاعبها بيديه ويهزأ بنا . ولكنه بعد ساعتين عاوده الألم

الشديد وهذيان الحمّى فأسرعت إليه وسمعته يكرر هذا القول : لماذا اخترت الجريمة على العقاب ؟ ربّاه ، هذا هو القاضي الأكبر قد حضر » .

فاضطرب فوسكاري وقال : القاضي الأكبر ؟ فقال بمبو : ذلك ما أقرأه في الرسالة .

— حسناً ، أتمّ قراءتك ، فقرأ بمبو ما يأتي : « وعند الصباح عاد إليه رشده فكتب وصيته ، وبعد ذلك حاول أن يتكلم بشأن المعارك والحروب ولكنه لم يستطع ، فإن الموت عقد لسانه ومات مأسوفاً عليه » .

وكانت بقية الرسالة تتضمن تفاصيل ذلك الموت مما لا حاجة إلى بيانه . فلما أتم بمبو تلاوتها أطرق مفكراً ، فلم ينتبه إلا لفوسكاري وهو يردّد هذا القول : يا للعصاب ! إنها داهية دهماء ! فقال له الكردينال : مولاي ، ما هذا الجزع ؟ فإني رأيتك صبوراً في ملمّات أشدّ من هذه الملمات . قال : ذلك لأن الكوارث وحدها كانت تنذرني .

— ماذا تعني بذلك ؟

فوقف فوسكاري وجعل يجول في الغرفة ويردّد قول جان دي مدسيس : « هو ذا القاضي الأكبر » . ثم يقول لبمبو : ألا ترى يا بمبو شيئاً من الغرابة في أن يقتل رولاند كانديانو جان دي مدسيس ؟

— ولكن ذلك لم يثبت كل الثبوت .

— بل هو ثابت كل الثبوت .

— غير أن رولاند لم يكن له أدنى اتصال بجان مدسيس ، وقد كان في فينيسيا منذ أسبوعين وهو شريد طريد فكيف يتفق وجوده في معسكر مدسيس . وإذا اتفق ذلك فلماذا خطر له أن يقتله ؟

— لماذا ؟ ألا ترى أن هذا الرجل وقف على نياتي ؟ إني لا أعلم كيف عرف ذلك ، ولكني موقن أنه عارف بمقاصدي وهو إنما قتله لأنه يعلم بأنه قد ينقذني . فنهض بمبو وقال : يجب أن أعرف الحقيقة بتمامها ، وأنا ذاهب الآن توّاً إلى آريتان الشاعر ، وبعد ساعة أعلم ما يجب عمله .

— إذهب وعد في القريب العاجل .

فخرج بمبو مسرعاً وبقي فوسكاري وهو في أشدّ حالات الرعب .

*

قبل أن يرد كتاب آريتان بثلاث ساعات دخل رجل إلى منزل هذا الشاعر فسأل عنه فقيل له إنه مسافر . قال : حسناً ، فادخل إليه في غرفة أعماله وقل له إني آت من قِبَل الشيطان الأكبر . فلم يسع الخادم إلا الامتثال . وبعد هنيهة عاد إلى الرجل فأدخله إلى آريتان . فلما رأى آريتان رولاند داخلاً إليه فرح فرحاً عظيماً وقال له : الحق أني بدأت أملّ هذا الأسر ! قال : ألم يعلم أحد أنك بقيت في فينيسيا ؟

— كلّا !

– ألم تخرج من المنزل مرة ؟
– لا في الليل ولا في النهار .
– والمقيمون معك في المنزل ؟
– كانوا جميعهم يحسبون أني مسافر حتى نسائي ، ما خلا الخادم الذي أدخلك إليّ .
– حسناً فعلت .
وعند ذلك جلس رولاند وهو مطرق فقال له آريتان : أتأذن لي بأن أسألك ؟
– سل ما تشاء .
– أرأيت جان دي مدسيس ؟
– رأيته .
– أحدّثته ؟
– نعم !
– بمهمتي ؟
– بمهمّتك !
– ماذا قال ؟ ماذا فعل ؟
– إنك جالس قرب مائدة الكتّاب فاكتب ما أمليه عليك تعلم الحقيقة .
– إلى من تريد أن أكتب ؟
– إلى الدوج قوسكاري .
– إلى الدوج ؟!

– لِمَ هـذا الانذهال ؟ ألا يجب أن تخبره بما فعلت في سفارتك ؟
– لماذا لا أذهب إليه ؟
– لأنك مريض طريح الفراش ولأنه يستحيل عليك أن تبرح الفراش .
– إني لا أفهم ما تقول .
– سوف تفهم ، ولكن قبل كل شيء يجب أن يعلم المقيمون في منزلك أنك أتيت إليه سراً في الليل وأنه يجب أن يعلموا بقدومك من بكائك وتألمك .
– بكائي وتألمي ؟
– نعم ، فاكتب الآن فإني أملي عليك المعاني وأنت تلبسها ذلك اللباس الجميل من اللفظ والعبارة .
فأخذ آريتان القلم وتهيأ للكتابة فقال له رولاند : ولكني أريد أن تحرص على كل كلمة قالها جان دي مدسيس حين نزْعه .
فوثب آريتان من مكانه وقد اصفرّ وجهه وقال : ماذا تقول يا سيدي ؟
– أقول إن جان مدسيس مات قتيلاً .
– جان مدسيس قتيل ؟ ألعلّي حالم ...
– نعم ، وأنا الذي قتلته .
فسالت دموع الشاعر ، ورأى رولاند أنه مخلص في حزنه صادق في دموعه فجعل ينظر إليه نظرات إعجاب . وبعد ساعة جفت دموعه ولكنه شعر بانحطاط عظيم فقال له : لم يبقَ حاجة

إلى الكذب فإني مريض حقيقة وسأكتب ما تمليه عليّ ثم أعود إلى فراشي ، ولكن لماذا قتلت هـذا الرجل وأية إساءة أساءها إليك ؟ قال : إنـه لم يسيء إليّ بشيء ولكنه حاول أن يوقف مجرى العدالة فسحقتْه تلك العدالة . فلم يجبه الشاعر على ذلك وقـال له : إني مستعد للكتابة فتفضل بإملاء ما تريد . فأملى عليه رولاند ذلك الكتاب الذي قرأه فوسكاري وبمبو . وبعد أن أتم كتابته نادى الخادم الذي يثق به وأمره أن يسرع بإيصال الرسالة إلى الدوج . فأخذ الخادم الرسالة وتوارى عن الأنظار . وعند ذلك قال له رولاند : إن الدوج سوف يرسل إليك من يسألك . فقال الشاعر : أتظن ذلك ؟

– بل إني واثق منه ، وربما جاء بنفسه .

– لقد أحسنت بإخبارك إياي . ولكن ماذا يجب أن أقول للدوج حين حضوره ؟

– تعيد ما كتبته إليه وتضيف إلى ذلك قولك : إنه في ليلة الوفاة رأى الضباط رجلاً قدم إلى المعسكر وكلّمهم يتحدثون به.

– من هو هذا الرجل ؟

– رولاند كانديانو .

ويذكر القراء أن رولاند متفاهم مع آريتان على كل شيء ، فمضى في حديثه فقال : إن رولاند كانديانو جـاء إلى معسكر الشيطان الأكبر وطلب مقابلته وهناك خاصمه ودعاه إلى مبارزة لا تنتهي إلا بالموت دون أن يعلم أحد أسباب هذه المبارزة . هذا الذي يجب أن تقوله للدوج إذا زارك ، أو لمن يرسله . والآن

فاعلم أن هـذه المقابلة تهمني كثيراً ، ولذلك أريد أن أحضرها دون أن يراني أحد . قال : إذن أدخل إلى هذه الغرفة المجاورة فليس بينها وبين هذه الغرفة غير حائط رقيق من الخشب .

وبعد هنيهة جعل الشاعر يتوجع حتى تنبّه له نساؤه وأسرعن إليه وهن لا يعلمن أنه قـد عاد فجعلن يؤاسينه ويسلّينه . وما زلن على ذلك حتى دخل أحـد الخدم وقال : إن سيدي الكردينال في غرفة الاستقبال . فأمر آريتان عند ذلـك جميع نسائه بالانصراف ودخل الكردينال في أثر انصرافهن .

وكان رولاند قـد سمع الخادم يلفظ اسم الكردينال فاصفرّ وجهه من الغضب واشتد قلقه فقال في نفسه : ترى مـاذا حدث وكيف جاء إلى فينيسيا وزار آريتان الشاعر وأنا قـد تركته مقيداً في المغارة السوداء ؟

أما بمبو فإنه جلس على كرسي قرب سرير آريتان وقال له: لقد كنت في سراي الدوج حين وصلته رسالتك فأرسلني إليك كي أسألك عن بعض أمور بشأن هذه الرسالة .

– أنت ترى أيها الصديق أني مريض من هذا الحادث الأليم.

– إذن هو أكيد ؟

– دون شك ، وا أسفاه !

– أرأيت بنفسك أن الشيطان الأكبر قد مات ؟

– كيف أكتب للدوج أنه مات لو لم أتأكد من موته ؟

– إنها نكبة فادحة !

– عليّ أيها الصديق !

– بل على الجميع .

وأطرق بمبو مفكراً مهموماً ، ولم يكن همه لوفاة جان مدسيس بل لأن رولاند قتله ، وقال له : أخبرني أيها الصديق بتفاصيل هذه الوفاة . فاندفع الشاعر يصف له ما كتبه في الرسالة حتى إذا أتم كلامه قال له الكردينال : هذا الذي أريد أن أعلمه منك فقد قرأته في رسالتك ولكن خفي عليّ بعض أمور في تلك الرسالة أحب أن أفهمها منك .

– سل ما تشاء .

– ألم تقل لجان مدسيس شيئاً بشأن المهمة التي انتدبناك فيها؟

– كلا ، فقد أتيت بعد فوات الأوان .

– إذن لقد مات دون أن يعلم السبب في زيارتك ؟

– نعم .

– فيستنتج من ذلك أنه هو نفسه لم يستطع أن يقول كلمة لأحد قبل موته عن مقاصد فوسكاري .

– هذا لا ريب فيه .

– إذن لنبحث في شأن آخر ، أي في شأن قاتل الشيطان الأكبر .

– سل ما تشاء .

– إن قاتله دون شك جندياً من جنود الأعداء ؟

– كلا ، فإني أعيد على مسمعك ما كتبته إلى الدوج وهو أنهم كانوا يجهلون في المعسكر هذا القاتل . وأما في كوفرنولو فهم يؤكدون أن قاتله كان ابن دوج .

– أتذكر اسم القاتل ؟

– نعم ، لقد أكد بعض الضباط أنه ذلك الرجل الذي استقبله في خيمته ليلة وفاته وجرى بينهما حديث أدّى إلى الخصام .

– ما اسم هذا الرجل ؟

– رولاند كانديانو .

فارتعش بمبو كأنه لم يكن يتوقع أن يسمع هذا الاسم وبدت عليه علائم الرعب ولكنه رأى آريتان ينظر إليه فخجل وقال: قل لي الآن أيها الصديق ، ألم تخبر أحداً بمهمتك قبل سفرك ؟ فتردّد آريتان لحظة وقال: كلا. غير أن الكردينال انتبه لتردّده فدنا منه وقال : ويح لك أيها الشقي ، إنك بحت بالسر .

– معاذ الله أن أفعل ، وإني أقسم لك على صدقي فيما أقول .

فأخذ الكردينال يده فهزّها وقال : أتعلم من كان سكرتيرك ؟

– أي سكرتير تعني ؟ ألعلّك جننت ؟

– ذلك السكرتير الذي طالما سألتك عنه فلم تعرف شيئاً من أمره حتى أنك كنت تجهل اسمه ، أتعرف من هو ؟

– أقسم بشعر مرغريتا أني لا أعرفه .

– أين هو وماذا جرى له ؟

– إنه اختفى ليلة سفري .

– إذن فاعلم أن هذا السكرتير يدعى رولاند كانديانو .

– أية غرابة تجد في ذلك إذا كان أكيداً ؟ وبماذا يستطيع أن يسيء إليّ ؟ وماذا تهمني أعمال هذا الرجل وهو قد سافر ولا

فرق عندي بين أن يعود أو لا يعود ؟ والذي يهمني في كل ذلك أني خسرت جان دي مدسيس وخسرت ألفين وخمسمائة ريال كنت أرجو أن أقبضها عند رجوعي .

– أصغ إليّ يا آريتان ، أتريد أن تقبض هذا المبلغ الذي حسبت أنك فقدته ؟

– كيف لا أريد ؟

– بل أتريد أن تقبضه مضاعفاً مرّة بل مرتين ؟

– ماذا يجب أن أفعل مقابل ذلك ؟

– لا شيء تقريباً ، فقد قلت إن سكرتيرك رولاند قد يعود .

– ربما ، فهو الذي قال لي هذا القول .

– إذن كل ما يُطلب منك هو أن تحسن استقباله حين عودته وتحمله على البقاء معك ساعة أو ساعتين .

– ليس ذلك بصعب .

– وعند حضوره ترسل إليّ مَن يخبرني ولا إخالك تتردّد .

– كلا ، فإني ما عرفت هذا الرجل ولا أريد أن أعرفه ولا فرق عندي بين أن تقتلوه أو تعفوا عنه ، ولذلك أرسل إليك من يخبرك حين قدومه .

– وفي اليوم نفسه تقبض عشرة آلاف ريال . وإذا أردت فاذهب الآن الى الخزينة واقبض ألف ريال .

– كيف ذلك ؟ ألعلّ الخزينة بيدك ؟

– نعم ، وسأعتبك أيها الصديق بشرط أن تخدمنا هذه الخدمة الجليلة .

– إذن ، اعتمد عليّ .

فودّعه الكردينال عند ذلك وذهب توّاً إلى الدوج فقال له الدوج : ماذا علمت ؟ أعرفت قاتل مدسيس ؟

– إنك لم تكن مخطئاً يا مولاي .

فاصفرّ وجه فوسكاري وقال : إذن هو رولاند كاتديانو ؟

– هو بعينه ، ولكني عرفت من آريتان أمراً آخر يصلح كل ما أفسده رولاند .

– أسرع وقل ماذا علمت ؟

– علمت أن رولاند سوف يكون قريباً في قبضتنا .

– كيف ذلك ؟

– ذلك أن لرولاند علاقة بآريتان .

– ماذا يرجو من علاقته بهذا الشاعر ؟

– لا أدري ، وكل الذي أعلمه أن لرولاند علاقة بآريتان ، وأنه قد يعود إليه .

– وعند ذلك ؟

– نقبض عليه .

فهزّ فوسكاري رأسه وقال : إنك واهم يا بيبو فإننا لن نقبض على رولاند ، وقلبي يحدثني بأنه سيقبض هو علينا . وحسبك دليلاً على أن الاقدار قد باتت علينا لا لنا ، قتْل جان مدسيس ، وأن قاتله كان رولاند . فأجابه بيبو بلهجة تبينت فيها السكينة : ما حسبت أنك فشلت إلا لأنك استرسلت إلى حديث النفس وتشاءمت من بعض الحوادث ، على أنك لو دافعت لنجوت .

وحالتنا الآن بسيطة لا تحتاج إلى الإمعان إذ هي موقوفة على الجرأة ، فإذا بدأت بمهاجمة عدوك كنت الفائز عليه لا محالة ، وإذا صبرت كان الفوز له ، فتدبّر .

— ماذا أعمل يا بمبو ، إنك مستشاري الوحيد الذي أثق بصدق إخلاصه ، فبماذا تشير عليّ ، فإنك ما زلت قائدي في مهامّ الأمور ؟

— ذلك لأني متعلق بك فلا بدّ لي أن أتبعك في حالتَي هنائك وشقائك . وإنك تكلمني عن الإخلاص والوداد وهما كلمتان لا أفهم لهما معنى . فإن عظمتك خير ضامن لي وأنا لا أعتدّ إلا بالقوة والإرادة ولذلك وثقت بي كما أثق بك ، لأننا باتحادنا نؤلف قوة ، وأنا على اليقين أني لو تخليتُ عنك كنتَ في خطر ، وكذلك لو تخليتَ عني فلا آمن على نفسي ، إذن لنتفق ولنبحث فيما يجب أن نعمله على قاعدة هذا المبدأ .

— نعم يا بمبو إني على مبدإك ولي بك ملء الثقة فأشرْ عليّ بما يجب أن أفعله . قال : إن الأمر بسيط يا سيدي . ثم نهض إلى المائدة التي كانت عليها تلك الفاتحة المبيّنة فيها أسماء الموشى بهم ، فاكتفى بالإشارة إليها . فقال الدوج وقد أدرك قصده : ولكن ذلك يؤدّي إلى ثورة .

— إني عالم بذلك يا سيدي ، ولكنك متى اتخذت وسائل الاحتياط أمنت الثورة ، فهل أنت واثق من الجنود ؟

— نعم ، فإن ألتياري مخلص لي .

— ذلك غير عجيب منه فإنه هو أيضاً لم يفز إلا بفوزك ،

فاعلم إذن ماذا يجب أن نفعل : إنه يجب منذ اليوم أن تدعو ألتياري وتتفق وإياه على سجن المشتبه بهم ، ويجدر في هذا المقام أن يعرف دندولو جليّة الأمر كي يسير غور مجلس العشرة ويقف على نواياهم ، فإذا وجدنا بينهم من يتردد وجب علينا أن نبدأ بهم . فاستحسن الدوج هذا الرأي وكتب لفوره رسالتين إحداهما إلى ألتياري والأخرى لدندولو ثم أرسلها إليهما . وعند ذلك نهض بمبو يحاول الانصراف فودّعه الدوج ولمّا بلغ معه إلى الباب قال له : ورولاند ؟ فقال الكردينال : إني أتعهّد به !

المطاردة

*

كان بمبو يعرف طباع فوسكاري حق العرفان ولذلك غادره في الحالة الفكرية التي أراد أن يضعه فيها وانصرف عنه وهو يفكر بردّ تحيات الناس على الجانبين ويباركهم بيده الطاهرة . حتى إذا سار بضع خطوات لقي امرأة يحيط بها أولادها وقد اعترضت الكردينال بطريقه وركعت أمامه وضمت يديها شأن المتوسّل . فقال لها : ماذا تريدين أيتها المرأة ؟ قالت : إنهم

قبضوا على زوجي في هـــذه الليلة وسنموت جوعاً وليس لنا معين غيره .

– ماذا جنى زوجك ؟

– ومـــاذا عساه يجني يا مولاي ، فهو رجل لا يفتكر إلا بأشغاله التي يكسب منها قوت بنيه فيخرج عند الفجر ويعود إلينا عند غروب الشمس يا مولاي ، وقد أتيت كي ألتمس إطلاق سبيله فإن كلمة منك تنقذنا .

وكانت مثل هـذه الحادثة تتفق لبمبو في كل يوم فيهز كتفيه ويقابل من يتصدى له بالاعتراض . وقد حاول هذه المرة أن ينهج مع هذه المرأة ذلك النهج الذي تعوّده ولكنه نظر إلى ما حواليه فرأى كثيرين من الناس قـــد وقفوا ينظرون إلى المرأة وبنيها نظرات إشفاق ، وينظرون إليه نظرات رجاء ، فخطر له خاطر فجائي ونظر إلى المرأة الراكعة أمامه تبكي نظرة المشفق وقال بصوت المتوجع : مسكينة هذه المرأة وأولادها . ثم قال لها : أتقسمين لي أن زوجك لم يرتكب جنـاية ؟ قالت : أقسم بالله يا مولاي أنه بريء من كل ما يمكن أن يتّهم به فما هو من أهـــل الشر ولكن هي وشايات المفسدين . قـال : إنهضي أيتها المرأة فإن زوجك يطلق سراحه اليوم فإننا عائشون في ظلال العدالة بفضل فوسكاري العادل . فصاحت المرأة وصاح الجميع قائلين : ليحيَ فوسكاري ... ليحيَ الكردينال !

فانصرف الكردينال وهو يهزأ بهذا الشعب الهاتف ويقول في نفسه : تبّاً لهذا الشعب ما أشدّ جهله ومـــا أسهل قيادة

الشعوب ، فإنه ينسى ألف إساءة بإحسان واحد . فيا أيهـــا البلهاء ، إنكم تستحقون تلك القيود التي نقيدكم بها !

ثم ابتسم ابتسام الاحتقار وواصل سيره وهو يقول : إن فوسكاري شديد الضعف حـــين يتوقع السقوط ولكنه شديد القوة حين يرجو الفوز حتى أنه لا يغلَب ، ولذلك وجب أن أزيد به هذه الآمال ، وما عفوتُ عن زوج هذه المرأة إلا لأسمعه هتاف الشعب له .

وعاد إلى قصره وهو يفتكر بهـــذه الأمور ، وكتب بضع رسائل ، وفي المساء ارتدى ملابس الفرسان وحاول الذهاب إلى أمباريا فإن بيانكا وأمها كانتا متمثلتين في ضميره كساندريجو ورولاند . ولم يسر إليها بطريق الترعة بـل سار في طريق البرّ ولعلّه أراد بذلك أن لا ينبّه إليه الأنظار وأن يطيل الوقت كي يفتكر . وفيما هو يسير في طريق ضيق رأى رجلاً يسير الهوينا على مسافة عشرين خطوة فارتعش إذ خيّل له أنه عرف هـــذا الرجل من قامته ومن مشيته . وعند ذلك التفّ بردائه حتى أنه ستر به وجهه وأسرع الخطى حتى تجاوز الرجل ونظر إلى وجهه فقال : إنه ليس هو !

ثم ترك الرجل يتجاوزه فلم يسر أمامه بضع خطوات حتى عاوده الشكّ ، وعاد إلى اقتفاء أثره وهو يقول : لا شك أن هذا الرجل هو رولاند كانديانو ، فقد عرفته من قوامه ومن طريقة سيره . ونعم أن الوجه غير وجهه ولكن هل كان الوجه وجه رولاند حين لقيت سكرتير آريتان ؟ وهل كان الوجه وجهه

www.liilas.com

حين قادني إلى السفينة؟ وهل كان كذلك حين لقيته في المغارة ؟ فإذا كان قد تنكّر في تلك الحوادث ألا يمكن أن يتنكّر أيضاً الآن ؟ نعم إنه هو بعينه وليس في ذلك أقلّ ريب .

وقد جعل قلب بمبو يخفق خفوقاً شديداً وأخذ ينظر إلى ما حواليه وقد هجم الليل فلم يرَ أحداً فاشتدّ رعبه وهلع قلبه من الخوف إذ خطر له أن رولاند قد عرفه وأنه سيعود إليه . ولكنه لم يلبث أن اطمأنّ إذ قال في نفسه : إن رولاند قد قتل الشيطان الأكبر ولم يعد إلى فينيسيا إلا اليوم كما عاد آريتان، أي أنه لم يتمكن من الذهاب إلى المغارة فيعلم بهربي منها ، فهو إذن يعتقد اعتقاداً راسخاً أني سجين وسأقبض عليه دون شك .

وعند ذلك وصل إلى منعطف الطريق فرأى اثنين من الجواسيس كان يعرفهما وهما واقفان قرب خمارة يصغيان إلى حديث العمال فدنا منهما وعرّفهما بنفسه وقال لهما بضع كلمات سرية ، فانحنيا وتوارى أحدهما عن الأنظار وهو يركض ، أما الثاني فجعل يسير في أثر بمبو .

أما الرجل الذي حسب الكردينال أنه رولاند فإنه كان يسير بملء السكينة فيجتاز الطرقات والجسور إلى أن وصل إلى منزل على الشاطىء فنظر إلى ما حواليه ولم يرَ ما يحمله على الريبة فدخل إلى ذلك المنزل .

وبعد هنيهة عاد الجاسوس الذي كان قد أرسله برجلين فصار حول بمبو أربعة رجال مسلحين ، فاشتدّ خوفه من منظر هؤلاء الرجال الأربعة بدلاً من أن يطمئنّ وقال في نفسه : إن من

الجنون محاولة القبض على مثل رولاند بمثل هؤلاء الأربعة ، ولكنه قال أيضاً : إن الفرصة صالحة ، وإذا هاجمه اولئك الجواسيس فإنما يخاطرون بأنفسهم ولا خطر عليّ في شيء . ولذلك قال لهم : إني أمنح كلاً منكم مائة دينار إذا تمكنتم من أسر هذا الرجل الذي رأيتموه دخل إلى هذا المنزل .

فبرقت عيونهم من السرور وقالوا بصوت واحد : هلمّوا إليه . فاستوقفهم بمبو قائلاً : إن هذا الرجل شديد القوة ويجب أن تحذروا لأنفسكم. فابتسموا ابتسام الاستخفاف وقال أحدهم: أتريد أن نأتيك به حياً أو ميتاً؟ قال : لا فرق في ذلك عندي، فإذا قتلتموه لا جناح عليكم بل إني أكافئكم . ولكن يجب أن تعلموا أن الرجل سيدافع عن نفسه وهو شديد كما أخبرتكم فقد يقتل أحداً منكم . قالوا : إنها مهنتنا ، وإذا لم نعرض أنفسنا لخطر الموت فكيف نستحق المكافأة ؟ قال : إذا جرح أحدكم فإني أضاعف جائزته ، وإذا قتل لا سمح الله أغنيت عائلته . فتحمسوا لقول الكردينال وقالوا : هلموا بنا إليه .

وبعد ذلك ساروا إلى ذلك المنزل فبلغوا إلى سلم خشبي فصعدوا عليه غير هائبين . ولم يكن هذا المنزل مؤلفاً إلا من طابقين فوقفوا عند الطابق الأول مترددين . وكان هناك بابان فجعلوا يتنصتون عند كل باب فلم يسمعوا صوتاً فواصلوا صعودهم إلى الدور الثاني . وهناك لم يجدوا غير باب واحد فأصغوا منه فسمعوا وقع خطوات موزونة مستمرة فأيقنوا أن الرجل فيه .

أما بمبو فقد كان واقفاً عند مدخل المنزل وهو خافق القلب

مضطرب الأعضاء ينظر إلى نافـذة عالية كان ينبعث منها نور ضعيف . غير أن هـذا النور أطفيء فجأة فأسرع الجواسيس الأربعـة إلى إنارة مصباح يظهر نوره ويختفي حسب مشيئة صاحبه . وأدخل أحدهم خنجره في قفـل الباب يحاول فتحه ووضع اثنان كتفيهما على الباب ودفعاه بعنف .

*

كان هذا الرجل الذي تبعه بمبو رولاند نفسه ، ولا ندري إذا كان عـلم بأنهم يتبعونه فإنه كان مشغولاً عن ذلك بالتفكير بليونور ، فإن عودته إلى فينيسيا جدّدت في نفسه ذلـك الحب الأول الذي توهّم أنه نسيه وهو لا ينسى . وكان قد حاول أن ينقضّ على بمبو فيقتله حين رآه في منزل آريتان ولكنه سكّن روعه إذ لم يكن قرّر في خطته قتل هذا الرجل في الحال . فلما انصرف الكردينال خرج رولاند من الغرفة التي كان مختبئاً فيها فقال له آريتان: ألعلّي تكلمت بما ينطبق على نواياك؟ قال: نعم.

ـ ماذا يجب أن أصنع بشأن ما اقترحه عليّ الكردينال ؟

ـ أي اقتراح تعني ؟

ـ أن أخبره حين تأتي إليّ .

ـ يجب أن تخبره لأني لا أحب أن تخسر ذلـك المال الذي وعدك به. غير أني أعيّن أنا ذلك اليوم الذي يجب أن تخبره فيه بأني عندك ، يجب أن تبالغ بالكتمان إلى أن يحين ذلك اليوم .

وعند ذلك تركه وانصرف وفي نيته أن يجد سكالا برينو

ويذهب وإياه إلى المغارة السوداء . وقد ذهب إلى المنزل الكائن في الميناء فلم يجده فقال في نفسه : عجباً ، أين هو ؟ فقد مضت مدة الإجازة التي منحته إياها فما عسى أن يكون قد حدث ؟ فإن بمبو قد نجا وسكالا برينو غائب وقد يكون قتيلاً فلأذهب إلى المغارة السوداء لأقف على الحقيقة .

وعند ذلك غيّر تنكره وسار فمرّ بقصر ألتياري فارتعش وانتفض انتفاض العصفور وعاودته ذكرى ليونور فاشتد بـه اليأس وجعل يناجي نفسه فيقول : ترى أية فائدة لي من الانتقام مـا زال قضي عليّ أن لا أرى ليونور ، وإذا رأيتها عن بعد زادت آلامي . نعم ، أية فائدة بقيت لي من الانتقام ومن المجد ومن الحياة ! نعم ، إن الموت أفضل معين لي على النسيان ، ولا بدّ لي من الموت إذ لا أستطيع أن أعيش بهذه الذكرى .

وقد جعل يسير دون أن يقصد جهة معينة وهذه الأفكار تتنازعه فمرّ ببيت الجزيرة وبقصر دندولو وسار إلى كل مكان له فيه ذكرى من ليونور دون أن يريد ، فـإن الحب كان يقود خطواته . وما زال على ذلك حتى أقبل الظلام فعاد إلى ذلك المنزل الحقير الذي ماتت فيه أمـه إذ كان ملجأه الوحيد في فينيسيا ، وجعل يسير فيـه ذهاباً وإياباً وهو يفتكر تارة بفوسكاري الذي ضربه تلك الضربة الشديدة وتارة بالكردينال الذي نجا منه. وفيما هو على ذلك سمع صوت كسر الباب ثم رأى الباب قد فتح فأسرع إلى إطفاء المصباح وتراجع إلى جهة النافذة.

أمـا الجواسيس الأربعة فقد دنوا منه والخناجر مجردة في

أيديهم فقال له أحدهم : سلّم إن أردت الحياة . فأجابه رولاند بضربة رمته بعيداً عنه قدر مترين . فهاج ثائر الجواسيس الثلاثة وهجموا هجوم المستميت على رولاند، ونهض الرابع من سقوطه واندفع معهم بعامل الانتقام ، فأيقن رولاند أنهم سيتبعونه في هذا المكان الضيق المظلم ورأى من الحكمة أن يلبث في موقفه وأن يتخذ خطة الدفاع إلى أن يبطش بهم الواحد تلو الآخر . وفيما هو على ذلك سمع صيحة ارتجّت لها جوانب الغرفة ، ورأى رجلاً هائل الجثة قد انقضّ على هؤلاء الجواسيس انقضاض الصاعقة فألقى الرعب في قلوبهم وهجم على النافذة ففتحها ثم عاد إلى أول من لقيه من الجواسيس فحمله بيده كما يحملون الأطفال وألقاه من تلك النافذة فتحطم جسمه على بلاط الشارع . وعاد إلى الآخرين وقد هلعت قلوبهم من الرعب ولم يجدوا للفرار سبيلاً، فجعل يلقي الواحد تلو الآخر من تلك النافذة حتى ألقى الأربعة . وعند ذلك صاح رولاند قائلاً :

— سكالا برينو !

قال : نعم يا مولاي أنا هو ، وقد أتيت قبل فوات الأوان كما يظهر فلنسرع إلى الفرار. فوافقه رولاند على الهرب وأسرعا بالنزول من ذلك المنزل ولكنهما لم يبلغا آخر السلم حتى وجدا الطريق غاصة بالجنود وقد طوّقت المنزل من جميع جهاته وسمعا صوت بمبو يلعلع في ذلك الفضاء ويقول : ادخلوا جميعكم واقتلوا كل من تجدونه . فقال سكالا برينو : يا للهول . وقال رولاند :

لنخترق جموعهم . فقال له سكالا برينو : كلا يا مولاي ، لنعد فاتبعني .

أما بمبو فقد كان واقفاً عند باب المنزل ينتظر النتيجة وعيناه شاخصتان إلى النافذة المضيئة وفكره يتبع الجواسيس الأربعة فيقول : إنهم صعدوا ... لقد بلغوا الدور الأول ... صعدوا أيضاً... الآن وقفوا عند الباب... لقد كسروه ... دخلوا... إن النور قد انطفأ وقد بدأوا القتال .

وقد بعُد عند ذلك قليلاً وجعل يراقب ، فرأى أن النافذة قد فتحت فجأة وأن جسماً قد ألقي منها ، فارتجف سروراً وقال في نفسه : لقد ألقوه من النافذة واسترحت منه . وعند ذلك جثا أمام الجسم الملقى كي يمتع عينيه بمنظر عدوّه ويقول له كلمة تشفّ قبل موته ... وكان بمبو من الحقارة والدناءة بحيث يستطيع أن يتشفّى برجل يموت . ولكنه لم يكد يراه حتى صاح صيحة رعب قائلاً: إنه ليس هو، فما هذا الشيطان الرجيم؟

وبعد هنيهة سقط رجل ثان فثالث فرابع فتيقّن الكردينال من فوز رولاند وجعل ينتف شعره من قهره ويقول : الويل لنا جميعنا فقد نجا هذه المرة أيضاً ! وفيما هو يحاول الهرب رأى طائفة من الجند مقبلة فأسرع إليها وأخبر قائدها بحلية الأمر ، فامتثل الجند له وطوّقوا المنزل . أما رولاند وسكالا برينو فإنهما عادا إلى المنزل ، فكان رولاند يتبع سكالا برينو وهو لا يعلم قصده فذهب به إلى الغرفة الثانية التي كانت تستخدمها جوانا للطبخ فركع قرب المستوقد وجعل يعالج باباً سرياً كان مطلياً

بالطين كي لا يظهر بينما كان الجنود من الخارج يحاولون كسر الباب ورولاند واقف وقفة المتأهب للموت وبيديه غدّارتان ، دون أن يلتبه إلى سكالا برينو الذي كان يشتغل بعنف شديد. وعند ذلك كسر الجنود الباب ودخل أشدّهم جرأة فأطلق رولاند عليه النار فصرعه . ثم دخل آخر ، فكان حظّه حظّ رفيقه . وفرغت الغدارتان ، فجرّد رولاند خنجره وقـــد أيقن من دنوّ ساعته الأخيرة . ولكنه انتبه لصوت سكالا برينو الذي كان يقول : لقد فُتح الممر فأسرع يا مولاي . فدنا رولاند منه فوجد منفذاً يتسع لأكثر من إنسان ، فقال سكالا برينو : أسرع يا مولاي بالمرور . قال : كلا ، بل مُرّ أنت قبلي. فأيقن سكالا برينو أن جداله محال وتقدّمه في ذلك الممرّ فتبعه رولاند وجعل يسير إلى الوراء ووجهه إلى المنفذ . وعند ذلك دخل جميع الجنود ورأوا أنهما هربا من ذلك المنفذ فوقفوا حائرين إلى أن دفعت الجرأة أو الجنون أحدهم إلى ولوج ذلك الممرّ فما سار فيه بضع خطوات حتى فاجأه رولاند بضربة خنجر فخرّ صريعاً وسدّت جثته ذلك المنفذ .

فسار الاثنان آمنين في رواق طويـل انتهيا منه إلى سلّم ، وبعد خمس دقائق كان الاثنان في شارع مقفر غير مأهول فتنهّد سكالا برينو تنهّد ارتياح وقال: إني فتحت هذا المنفذ من عشرة أعوام كي أتمكن من الفرار إذا طاردني الجنود ، فهل كان يخطر في بال أحد أن ابن الدوج يستخدم هذا المنفذ ؟ فأجابه رولاند :

– ذلك يـدل على بعد نظرك وتحسّبك للعواقب ، فهلمّ بنا

الآن وستخبرني في الطريق عن كل ما حدث لك .

*

ولنعد الآن إلى سكالا برينو وطريقة نجاته فلقد تركناه في أشدّ مواقف الخطر ولم يبقَ بينه وبين الموت غير لحظة ، كما تركنا ساندريجو وصاحب الحمـارة يصفيان عند باب القبو ليسمعا آخر كلمة يقولها ذلك المنكود من كلمات نزعه .

أمـا سكالا برينو فقد كانت المياه ترفعه تباعاً إلى أن وصل إلى آخر درجة من درجات السلم فألقى نفسه في المياه وقـد عزم عزماً أكيداً على الموت . ولكن حب الحياة تغلّب عليه فصعد وجعل يسبح حول جدران القبو إلى أن علقت يده بتلك النافذة التي كانت تدخل منها المياه . وقـد اشتدّ رجاؤه حين شعر أن تلك القضبان الحديدية تضطرب بين يديه فإنها كانت قديمة العهد وقـــد خلخلتها المياه وتقادُم الأيام . فأسند رجليه إلى الجدار وجعل يشدّ قضبان النافذة بما أوتيه من القوة البدنية الهائلة فلم تكن غير دقيقة حتى كسر قضيباً ، وعند ذلك خرج من المنفذ إلى الترعة وبذل جهداً عنيفاً حتى تمكّن من الصعود إلى سطح المياه حتى إذا أيقن من السلامة تنفّس الصعداء وذهب إلى المنزل فغيّر ملابسه .

وقد روى سكالا برينو لرولاند كل حكاية سجنه حتى إذا أتم حكايته قال له رولاند: ولكن لماذا ذهبت إلى حمارة مرسى الذهب وأيّ شأن لك فيها ؟

فسالت دمعتان من عيني سكالا برينو وروى له حكايته بالتفصيل وهما يمشيان إلى أن بلغا الجزيرة فدنا رولاند من بيت ليونور وقال له سكالا برينو: ألم تقل لي يا مولاي إن هذا المنزل مشتبه به ؟ قال : لقد كان كذلك أمـــا الآن فقد انقطعوا عن مراقبته ومع ذلك سوف نرى. ولما وصل إلى الباب طرقه فأقبل الخادم العجوز يحمل بيده مصباحاً وقال : من الطارق ؟

فأجابه رولاند قائلاً : ألعلك نسيت جان لورنزو سيدك الجديد ؟ قال : أسألك العفو يا سيدي . ثم مشى أمام سيده إلى المنزل وأنار بضعة مصابيح . ولاحظ رولاند أن يـــدي الشيخ كانتا تضطربان وأنه كان ينظر إليه نظرات غريبة فقال له : كيف ذلك ؟ ألم تعرفني بعد؟ فقال الشيخ: لقد عرفتك يا سيدي من صوتك أما وجهك فما هو وجه جان لورنزو .

— هو ذاك ، فإني أحب أن أغيّر وجهي من حين إلى حين .

فهزّ الشيخ رأسه وسكت . فقال له رولاند : أرى أنـك تريد أن تقول شيئاً تخشى أن تقوله أمام هـــذا الصديق ، فقل أمامه مـا تريد قوله . فقال الشيخ : أقول يا مولاي إن وجهك اليوم غير وجهك يوم كنت تدعى لورنزو . فضم سكالا برينو قبضته فقال له رولاند : إني أعرفـــه يا سكالا برينو منذ عهد بعيد فهو لا يخون رولاند ولا بـدّ أن يكون هناك سبب خطير دعاه إلى قول مـا قاله وسيوضحه لنا . فقال الشيخ : هو ذاك يا سيدي رولاند . فارتعش رولاند إذ رأى الخادم قد عرفه وناداه فجأة باسمه وقال له: تكلم. قال الشيخ : لقد رأيت أمس السيدة

ليونور . فأجابه رولاند بصوت أبحّ قائلاً : هل عادت إلى هنا؟

— كلا، ولكنها دعتني إليها في قصر ألتياري وهناك أخبرتني بكل شيء يا مولاي فعلمت منها حقيقة اسم جان لورنزو وعرفت كل ما عانيته من العذاب ، والآن فإني أعجب لنفسي كيف أني لم أعرفك للمرة الأولى . على أن السيدة ليونور أكدت لي أنـك ستعود أيضاً إلى هنا .

— أهي قالت لك هذا القول !

— نعم يا سيدي ، وقـــد أمرتني أن أبالغ بحراستك حين تكون هنا ، فاعلم يقيناً أنك ستكون في مأمن في هذا البيت كما كنت تـــأتي إليه خاطباً فإني في تلك الأعوام التي مضت وهي أعوام كوارث وانقلابات فجائية أعددت مكاناً سرياً في هـذا المنزل كي تختبىء فيه السيدة ليونور وأبوها عند الاقتضاء ولا يعلم أحد غيري إلى الآن سرّ هذا المكان ، وقد أقسمت لسيدتي أن أخبئك فيه فهل تريد يا مولاي أن تراه ؟ فقال رولاند : نعم !

فسار الخـــادم ومشى رولاند وسكالا برينر في أثره حتى لاقوا شجرة الأرز الكبرى وكانت شجرة عظيمة بضخامتها وقد تدلّت أغصانها حتى بلغت الأرض فأزاح الخادم أحد هـــذه الأغصان فانكشف عن ثقب يحـــذع الشجرة فأراه الخادم إياه وقال له : إن من ينزل من هذا الثقب يبلغ إلى دائرة متسعة عمقها ثلاثة أمتار وقد أنزلت إليها أمس سريراً للنوم ومائدة وضعت عليها من الطعام ما يكفي ثلاثة أيام . أمـا هذا الثقب فلا يراه أحد لتدلي الأغصان عليه ، وفوق ذلك فقد زرعت حواليه نباتاً

كثيراً لينمو كي يحكم سده كما ترى ، فلو اتفق لأحدهم أن يزيح الأغصان لمّا رأى الثقب .

فقال سكالا برينو : إنه خير ملجأ . وعاد الثلاثة إلى المنزل ورولاند عابس الوجه مقطب الجبين فقال له سكالا برينو : أتريد يا مولاي أن أرجىء بقية قصتي إلى الغد؟ قال : كلا ، بل اروها الآن فإني مصغ إليك . فقال سكالا برينو : لقد سألتني عن السبب في ذهابي إلى تلك الحمارة التي كدت أموت في مياهها، فاعلم يا مولاي أني قبل سفرك ذهبت إلى المغارة السوداء فوجدت الأمور على أتم الانتظام وحملت أوامرك إلى الزعماء ثم عدت إلى قرية ميستر ففاجأني فيها مصاب لم أكن أتوقعه .

فأجفل رولاند منذعراً وقال : أبي ؟ قال : كلا يا مولاي ، لا تخف ، فإن أباك لا يزال هنا بحراسة جوانا .

— إذن ماذا ؟

— بيانكا يا مولاي .

— ماذا أصابها ؟

— اختطفت .

— من الذي اختطفها ؟ أتعرفه ؟

— نعم ، فقد قالت جوانا إنه ساندريجو .

— هذا اللص الذي بات عدوّك ؟

— هو ذلك اللص الذي يحقد عليك حقداً هائلاً دون شك لأنه لم يختطف بيانكا إلا بغية الانتقام منك .

— ينتقم مني باختطافها ؟

— نعم يا مولاي ، فربما خطر له أنك تحبها .

— ولماذا هذا الحقد عليّ ؟

— لأنك قهرته وأهنته أمام رجاله .

فأطرق رولاند مفكراً ثم قال : إذن فهذا الرجل اختطف بيانكا وأبقى على أبي لينتقم مني .

— ربما خطر له ذلك ليكون أبلغ في الإساءة .

— ولكن جوانا أين كانت ؟

— مسكينة هذه المنكودة ، وقد تدهش لمّا أخبرك عنها ، فإنها تحب ساندريجو من عهد طويل وكانت ترجو أن تكون امرأته ومع ذلك فقد دافعت عن بيانكا دفاع اللبوة عن أشبالها ولكنه تغلّب عليها وقيّدها . وبعد ذلك ذهبت إلى فينيسيا وعلمت أنه في تلك الحمارة وقد عرفت ما كان بيني وبينه .

— مسكينة جوانا فقد لقيت أشد العذاب .

— ولكن ليس هذا كل شيء يا مولاي ، فإني بعد أن نجوت من قبو الماء لم يكن يخطر لي غير خاطر واحد وهو أن أجدك فبحثت عنك في كل الأماكن التي كنا نلتقي فيها وذهبت إلى ميستر وألقيت أباك وجوانا ثم ذهبت إلى المغارة فرأيت أن بمبو قد نجا .

— لقد عرفت ذلك .

— إذن هذه هي قصتي بجملتها فإني عدت بعد ذلك إلى فينيسيا وصبرت إلى أن هجم الليل فجئت إلى المنزل ولقيت رجلاً عند بابه حسبته جاسوساً فأسرعت بالصعود ووجدتك

تقاتل الجواسيس وأنت تعرف البقية .

وقد رأى رولاند علائم الحزن الشديد بادية في عيني سكالا برينو فأيقن أن حزنه على بنته وقال له : إطمئن أيها الصديق ، فسيكون أول ما أعمله إنقاذ بيانكا ، غير أني أستمهلك يوماً لأرى أبي وأطمئن إليه . قال : إني ذاهب وإياك إذا أذنت . قال : إذن هلمّ بنا .

نحول جوانا

*

لقد عرف القراء كيف أن رولاند كان له مواصلات سرية في فينيسيا يذهب ويجيء بها دون أن يراه أحد . وكان له عدا عن تلك السفينة الكبرى التي ترسو في ميناء ليدو ثلاث سفن أخرى تسع كل سفينة منها ثلاثماية مقاتل فكانت تسافر بشكل منتظم تجاري كي لا تستلفت إليها أنظار الرقباء ولكنها لا تبتعد ، ومتى عادت من سفرها بما تحمله من البضائع أطالت زمن إنزال هذه البضائع جهد الطاقة وذلك كي تبقى أكثر أيامها في الميناء . وفوق ذلك فإن هذه السفن الأربع لم يكن يسافر منها غير واحدة بالمناوبة بحيث يبقى في الميناء دائماً ثلاث سفن . وكان له

أيضاً في البحيرات نحو مائة قارب من القوارب السريعة تنقله حين يشاء من البحيرات الفاصلة بين فينيسيا وبين اليابسة .

وكانت له في البرّ كثير من المحطات للجياد وهي محطات تتصل من شاطىء البحيرات إلى مغاور بيافا بحيث أن رولاند أو أحد رسله لو أراد البلوغ إلى المغاور والعودة منها يتمكن من ذلك ببضع ساعات بفضل هذه المحطات التي أنشأها .

وقد ركب رولاند وسكالا برينو أحد هذه القوارب بعد أن أشار الإشارة السرية إلى البحّار فأطلق النوتي قاربه للريح حتى اجتاز بها البحيرات فخرجا إلى الشاطىء وركبا جوادين وسارا إلى ميستر . وهناك لقي رولاند أباه جالساً في ردهة المنزل فأسرع إليه يعانقه ويناديه بأعذب الألفاظ . فارتعش أبوه لهذا الحنوّ وقال : من هذا الذي يعانقني هكذا ؟ قال : أنا ولدك ... ولدك رولاند .

— ولدي ؟

— واأسفاه ! ألم تعرفني يا أبي من صوتي ؟

فسكت ذلك الشيخ المنكود الأعمى ولكنه جعل يبحث بيديه عن رولاند ليجذبه إليه . فركع رولاند أمامه وقال له بصوت مختنق : أبي... أبي... ألا تذكر ولدك ؟ فوضع كانديانو يده على رأس ولده وجعل يمر بها على شعره كأنه يحاول أن يرى باللمس ما لا يراه ، ثم قال : نعم ، إن الرأس رأس ذكي كريم ولو كان لي ولد لتمنّيت أن يكون مثلك .

— إن ولدك راكع أمامك يا أبي .

– نعم نعم لقد ذكرت ، فقد كان لي ولد فيما مضى ... ولكن ربما كان ذاك من وساوس الهموم ، فإني عندما أهبط بفكري إلى أعماق نفسي وعندما أبحث في قلبي عن رسوم كانت تملأه كأنها قد اختفت .. نعم ، فقد يخيّل لي أني كنت كسائر الرجال منذ عهد بعيد جداً ، وأن عيني كانتا تنظران بملء الارتياح والسرور إلى أحبّاء كنت أحبهم كما أحب نفسي ... فمن أنت ولماذا تقول إنك ولدي ، فلو كان لي ولد لكان مات دون شك ! كلا ! ليس لي ولد .

وعند ذلك رفع يده برفق عن رأس رولاند فنهض ولده وقد تنهّد تنهداً كاد يتمزق له صدره. أما أبوه فلم يهتم إلا بتدفئة يديه على نار المستوقد ، ومع ذلك نادى جوانا وقال لها : جوانا، أكرمي هذا الرجل الذي دفعه الجنون إلى الادعاء بأنه ولدي ، فإني أذكر كما يذكر الحالم أني كنت أشير إشارة بسيطة فيتسارع الخدم إلى إكرام ضيوفي الغرباء ... فأين هذا العهد ومتى كان ؟

فهز رولاند رأسه وقد أيقن أن أباه لا يعود إليه صوابه ، ثم التفت إلى جوانا كأنه يسألها رأيها فقالت له: ولكنه مع ذلك لعن مرّتين فوسكاري وذكر ولده .

– إذن ، أتظنين أنه يشفى ؟

– لا أدري ، ولكن الصواب يعود إليه أحياناً .

– فمشى رولاند بضع خطوات في الغرفة ثم عاد إلى جوانا وقال لها : أرى أنه لا يمكن بقاؤه هنا ! فاصفرّ وجه جوانا وقالت : وأنا أيضاً أرى هذا الرأي .

– قولي كل ما يخطر لك يا ابنتي .

فأطرقت برأسها وقالت : إن الذي أتى قد يعود .

– وعند ذلك ؟

– قد ينتقم منك بأبيك كما انتقم باختطاف الفتاة .

– ولكنك تكونين بالقرب منه تدافعين عنه .

– مولاي ؟

– إني موقن من أنك تضربينه الضربة القاضية إذا تجاسر على الرجوع .

– مولاي !

– ماذا !

– إني أضربه الضربة القاضية دون شك لأني تعهّدت لك أن أحرص على أبيك ، ولكني أضرب نفسي بعد أن أضربه وسل سكالا برينو يخبرك لماذا أقول هذا القول .

وقد قالت هذا القول وغطت وجهها بيدها إخفاءً لاضطرابها. فتوجع رولاند وأخذ يدها بين يديه فقال : إنك تحبين هذا الرجل يا جوانا . ألا تعلمين أنه كان يريد قتل سكالا برينو ؟ فلم تجب ، ولكن ظواهر اضطرابها كانت تدل على يأسها فقال لها : إني سأنقل أبي إلى محل أمين وستكونين معه في مأمن أيضاً . إنك بمثابة أختي وأنا أحترم حبك وأتوجع لمصابك ... ولكن دعيني أتولى أمرك واذهبي مع أبي . فظهرت صحة العزيمة على وجهها المصفر وقالت بملء السكينة : أسألك العفو يا مولاي فإني كنت أنتظر عودتك لأقول لك ...

وهنا توقفت عن الكلام وقد تلعثم لسانها فقال لها رولاند : تكلمي أيتها الأخت الحبيبة واعلمي يقيناً أنك مهما قلت لي فإني أبقى مديناً لك بالجميل إلى الأبد . قالت : إني لا أستطيع البقاء مع أبيك فاصفح عني . إذ لا بدّ لي أن أذهب إلى فينيسيا .

– ليكن ما تريدين ، فإنك تذهبين إليها معي ومع سكالا برينو ، أي مع أخوين يحبانك ويحترمانك ويدافعان عنك .

فهزت رأسها وقالت : كلا ، بل يجب أن أذهب وحدي إلى فينيسيا . فقال لهـــا برفق : إنك تريدين الذهاب إليه لتريه ، أليس كذلك ؟

– كلا ، بل لأدافع عنه .

– ضدي وضد سكالا برينو .

فأجهشت بالبكاء وقالت بصوت مختنق : إني أؤثر ألف موت على أن أتالكما بأذى وأنتما كل ما أحبه وأحترمه في هذا الوجود ، ولكنه حياتي التي أعيش بها . وإن قلبي يحدثني بشرّ مصاب ، وإنك كبير النفس فـلا شك عندي أنك صفحت عن ساندريجو من أجلي ، ذلك ما أقرأه في عينيك ولكن ...

– ولكن ماذا ؟ تكلمي أيتها الأخت العزيزة .

فمسحت جوانا دموعها التي كانت تحرق عينيها وقالت : نعم لقد تمنّت مليّاً خلال هذه الأيام العشرة التي مضت فرأيت ما سيحدث كأنه قد حدث ، فإنك تعفو عن ساندريجو إكراماً لي ، ولكن ساندريجو لا يتجاوز عن حقده عليك . وهذا الذي أريد أن أمنعه ولو بسفك دمي فإني حـين يخطر لي أنك ستلتقي مع

ساندريجو يجمد الدم في عروقي من الرعب .

– إذن أنت تريدين السفر ولا سبيل إلى تغيير أفكارك ؟

– كلا ، فلا بدّ من السفر .

– ليكن ما تريدين ، ولكن اذكري دائماً أن لك أخوين لا تبرحين عن فكرهما . أتعرفين منزل جزيرة أوليفو ؟

– نعم .

– إنك تجدينا هناك متى أردت ، وإذا لم تجدينا تجدين من يخبرنا بأمرك . أفهمت ما أقول ؟

– نعم .

– حسناً ، فمتى تريدين أن تسافري .

– في الحال .

– كيف ذلك ؟ ألا تدّعين لي وقتاً لأعدّ لك معدّات السفر ؟

– لقد تأهبت لكل شيء فاستأجرت مركبة منذ ثلاثة أيام وهي تنتظرني في الغد للسير بي إلى البحيرات ، وهناك استأجر قارباً وأذهب بـه إلى فينيسيا . والآن أستودعكما الله . فعانق سكالا برينو جوانا وهو يتلفظ بألفاظ القانطين ، وعانقها رولاند وهو يتوجع لبأسها . وعند ذلك ذهبت إلى والد رولاند فركعت أمامـه وقالت : أنت الذي أحببته ... أنت الذي كنت تحب تلك الميتة النبيلة التي غفرت لي ولا أزال أقدس اسمها لأنهـــا باركتني ودعتني بنتها ، إن روح هذه المرأة الطاهرة ترف حولنا وهي تعلم يقيناً مـــا أكابده من عناء هذا الفراق . فرفع الشيخ الأعمى يده على رأسها ولا ندري أكان ذلك منه اتفاقاً أم استنار

عقله في تلك اللحظة بشعاع من أشعة الصواب .

وعند ذلك نهضت وسارت مسرعة بعد أن أشارت إشارة وداع إلى رولاند وسكالا بريتو . وقد لبث الرجلان مدة واجمين ساكتين إلى أن تحرك الشيخ حركة استلفتت انتباه ولده والتفت إليه . وفي الوقت نفسه قال سكالا بريتو : أتأذن لي يا مولاي أن أذهب بسيدي الدوج إلى المغارة السوداء ؟ فهز رولاند رأسه دون أن يجيب ، فقال له سكالا بريتو : ثق يا مولاي أنه يكون هناك في مأمن من كل طارىء فإن تلك الحادثة التي جرت لبمبو نبهت الزعماء فزادوا القوة والمحافظة وأنت أدرى بسهولة الدفاع في تلك المغارة .

فقال رولاند : إن أبي سيذهب إلى فينيسيا .

– إلى فينيسيا ؟

– نعم ، فأعدّ لنا مركبة تنقلنا نحن الثلاثة .

– وماذا أصنع بجوادينا ؟

– دعهما في المحطة واجتهد أن يكون وصولنا في الليل .

فأسرع سكالا بريتو إلى الامتثال وبعد ساعة عاد بالمركبة ، فأخذ رولاند بيد أبيه وسار بـه إلى المركبة دون أن يعترض ولكنه اكتفى بسؤاله قائلاً : إلى أين تذهبون بي ؟ فلمعت عينا رولاند ببارق رجاء وقال : إلى فينيسيا يا أبي ... إلى فينيسيا ، أفهمت ؟ تلك المدينة التي كنت حاكماً عليها وأقمت فيها بسراي الدوج مع امرأتك سيلفا وابنك رولاند .

فظهرت على الشيخ علائم عدم الاكتراث وقال : فينيسيا ؟

نعم لقد سمعتهم يقولون عن هذه المدينة إنها جميلة! فتأوّه رولاند وقال : واأسفاه ! ثم ركب المركبة مع سكالا بريتو بجانب أبيه وبلغوا إلى فينيسيا في جنح الظلام فسار بأبيه إلى بيت الجزيرة .

آريتان

*

لقد تركنا بمبو عند منزل الرصيف وقد أمر الجنود بالدخول إلى المنزل للقبض على رولاند وأقام ينتظر تلك اللحظة السعيدة التي تتحقق بها آمال حياته . وبعد هنيهة رجع الجنود وفي مقدمتهم قائدهم فقال القائد للكردينال : لقد قتل منا ثلاثة فإذا أضفناهم إلى الذين سقطوا من النافذة بلغ المجموع سبعة ، فإذا اتفق لنا بضع ليال مثل هذه الليلة أصبحنا من غير بوليس . فلم يكترث بمبو لهذه الأقوال وقال : وهو ؟

– إذا كنت تعني به الذي دخلنا للقبض عليه فقد استحال إلى دخان وهذا أحسن ما يقال عنه في هذا المقام .

– ماذا تعني ؟

– أعني أن الرجل ورفيقه ، لأنهما كانا اثنين لا واحداً ، سارا

www.liilas.com ARAYAHEEN

في الطريق التي يسير فيها الدخان عادة للصعود إلى السماء .

– أهَرَبا من المستوقد ؟

– هذه هي الحقيقة .

فغضب الكردينال غضباً شديداً ولولا حضور الجند لشتم أقبح شتم ولكنه تجلّد وأمر بعض الجنود أن يفتشوا بيوت الحي بحملته وأمر آخرين أن يراقبوا المنزل ثم انصرف إلى قصره وقد ضاقت الدنيا في عينيه واشتد خوفه حتى أنه جعل يفكر في طريقة تمكّنه من الفرار لشدة فزعه من رولاند ، فارتأى أن يترك الدوج وفينيسيا خفيّة ويذهب إلى روما فيلجأ إلى البابا وهناك يكون في مأمن من رولاند .

ولكنه لم يكد يقرّ على هذا الرأي حتى تمثلت له بيانكا فهاجت مكامن غرامه وشغلته عن الخوف ورأى أنه لا يستطيع العيش بعيداً عنها لا سيما وقد تمثّل له أيضاً ساندريجو فهاجت غيرته وزادته هياماً ، فأقام يفتكر في خطة كان قد وضعها بشأن بيانكا فما زال يعالجها حتى استقامت فذهب الى فراشه ونام في تلك الليلة آمناً واثقاً من النجاح . وفي صباح اليوم التالي ذهب توّاً الى آريتان فخلا بـه وبعد حديث مختلف سأله فجأة عن نسائه وقال له : كم يبلغ عددهن ؟ قال : سبع نساء ، وإني أرجو أن أجعلهن تسعاً فمتى تكامل عندي هذا العدد أطلقت على كل واحدة منهن اسم عروسة من عرائس الشعر فأسمّي الواحدة كليو والثانية تربيسكور ...

فقاطعه الكردينال قائلاً : لا تكمل ذكر هذه الأسماء ،

وافترض أنك جئتهن بفتاة جديدة .

– إذن لا يعود يعوزني غير واحدة لتتمّ عندي العرائس التسع .

– أصغِ إليّ يا آريتان فإني أحدثك عن فتاة طاهرة كالزنبقة نفورة كالغزالة التي لم تألف وجه الصياد .

– وهل هي حسناء ؟

– إن جمالها يخلب العقول فما رآها أحد إلا فتن بها ، أما أنا فلا أعلم إذا كانت حسناء فإني ما أحببت جمالها بل أحببتها وقد كنت أحسب نفسي قوياً شديداً وإني ما خلقت إلا للسيادة وسحق الشعوب ، ولكن هذه الفتاة علمتني الخضوع وأنستني الأطماع ومعاني السيادة وبثّ أعاني في حبها عذاباً شديداً فأصبحت في حالة تحمل على الإشفاق .

– ولكني لا أجد في كل ذلك ما يدعو إلى العذاب وأنت تقول إنك تحبها وإنها جميلة فلماذا تتعذب ؟

– افترض أيها الصديق أن إحدى نسائك قد أهانتك وبصقت في وجهك فماذا تفعل ؟

– أجلدها بالسوط حتى أمزّق جلدها .

– وافترض أن التي تفضلها من نسائك قالت لك إنها تؤثر أن ترى خنفساء على أن تراك ، فماذا تفعل ؟

– أضع لها مائة خنفساء في كيس فأزوّدها بها وأطلق سراحها وأبحث عن سواها .

– أرأيت إذن كيف أنك لم تحب؟ أما أنا فإني أعدّ إهانتها

مديحاً ، ولكنها لا تقول لي إنها تجدني أقبح من الضفدع ، ولا تحتقرني ، بل تعاملني بأشدّ من ذلك أي أنها تشمئزّ وتنفر مني نفور المرء من الرائحة الكريهة .

– إذن لم يبقَ عليك إلا أن تأخذها بالقوة ، ومتى فعلت ذلك وعاملتها بالقسوة خافتك وذهب ذلك النفور .

– لقد حاولت ذلك فلم أنجح أيها الصديق ، وفوق كل ذلك فإن لي مزاحماً فيها .

– هل هي تحب هذا المزاحم ؟

– لا أعلم .. ولكني لا أظن أن بيانكا تحب ساندريجو .

– أتقول بيانكا ؟

– هذا هو اسمها .

– أهي بنت أمباريا ؟

– هي بنفسها ، فهل عرفتها ؟

– كلا ولكني عرفت أن لأمباريا فتاة تدعى بهذا الاسم ، ولكنك قلت لي إن لك مزاحماً فيها ؟

– نعم وهو مزاحم لا أستطيع التخلص منه الآن لأني لا أزال محتاجاً إليه وقد قضي عليّ أن أعقد لها بيدي عقد القران .

– لماذا تحتاج إلى هذا المزاحم ؟

– لأني أعتمد عليه في القبض على رولاند كانديانو حين يأتي إلى هنا .

– إذن يجب أن تختار بين الكره والحب .

– لا أريد أن أختار بينهما ، بل أريد كليهما ، وأريد أن

أظفر برولاند كما أظفر ببيانكا ولا عيش لي إلا إذا فزت بهذه الأمنية . أما رولاند فإني معتمد في شأنه على ساندريجو .

– مزاحمك ؟

– نعم ، وأما بيانكا فإني معتمد بشأنها عليك .

– إنك تعلم مقدار إخلاصي لك .

– ذلك لا ريب فيه عندي ، فاسمع ما أنتظره منك ... إن زواج بيانكا وساندريجو لا بدّ من عقده ..

– متى ؟

– لا أعلم بعد فإنه منوط بساندريجو ، ولكن بيانكا تحتجب على أثر عقد القران .

– كيف ذلك ؟

– ذلك منوط بي فسأرضي ساندريجو كل الرضى بحيث لا يكون له من هذا الزواج غير حفلته .

– وماذا يكون من بيانكا ؟

– إنها تكون ضيفتك ، أفهمت الآن ؟

– إني معجب بذكائك يا بمبو .

– أعزمتَ على مساعدتي ؟

– نعم ، فإني أساعدك بذلك كل المساعدة .

فارتاب الكاردينال بقوله وقال له : كيف تقول ذلك ؟ ألعلّه يوجد أمور لا تستطيع مساعدتي فيها ؟

فأسرع آريتان إلى نفي هذه التهمة وقال له : إن سوء الظن من حسن الفطن ، ولكن مثلي مع مثلك لا يحمل على الريب

ويسوؤني أن تشك بي وأنا أوفى صديق لك .

ـ لا بأس أيها الصديق واعذرني فإني لن أعود إلى الظنون.

ـ إني أعذرك دون شك إذ أعلم يقيناً أنك لا تندفع إلى هذه الظنون إلا لاضطرابك . ولنعد الآن إلى ما كنا فيه ، فقد قلت لي إني أقبض خمسة آلاف ريال يوم تدخل بيانكا إلى منزلي .

ـ ليكن ما تريد ، ولكن صداقتك هـذه المرة ستكلفني كثيراً .

ـ لا يحق لك الشكوى فإني لا أقبض من خزينتك بل من خزينة الجمهورية . فقل لي الآن ما تريد .

ـ أريد أن تضيف بيانكا عندك وأن تعرّفها بنسائك كأنها واحدة منهن .

ـ إن الغيرة تدفعهن إلى البكاء ، ولا أطيق بكاء النساء .

ـ ولكنك تعرف طريقة تجفيف الدموع .

ـ حسناً ، فماذا تريد بعد هذا ؟

ـ متى باتت الفتاة عندك ، أريد أن تتعهد بأن لا يراها غير نسائك .

ـ أتعهّد .

ـ هـذا هو القسم الأول من مشروعي وهو سهل كما تراه ، وقد بقي الثاني فقل لي ، ألديك امرأة بين نسائك موصوفة بالذكاء والدهاء ؟

ـ إذا كان الدهاء من الذكاء فكلّهن ذكيات ...

ـ أتحسب أنهن يستطعن إغواء فتاة نقية وتغيير أخلاقها ؟

ـ ذلك لا ريب فيه ، فلا يمضي شهر حتى يغيّرن أخلاق التي تحبّها .

ـ ليس هذا كل الذي أريده ..

ـ ولكنك شديد الظلم بصداقتك ..

ـ لا بأس ، فسننظر في حساب صداقتك وظلمي فإذا رجحت كفة ظلمي وضعتُ أثقال الذهب في كفة الصداقة إلى أن تتساوى الكفتان .

ـ إنه خير قول خيالي لا ينطق به غير الكرادلة ..

ـ بل إنه قول ذهبي ولذلك أعجبك ، فقل لي الآن ، ألم تضجر من إقامتك في فينيسيا ؟

ـ كيف أضجر من هذا البلد ، بلد الحب والفنون ؟

ـ أما أنا فإني أضجر .

ـ إذن سافر !

ـ هذا مـا نويت عليه ، ولكني إذا سافرت وحدي اشتد ضجري .

ـ يظهر أنك تريد أن أصحبك ؟

ـ لقد فهمتَ قصدي .

ـ وأنا مستعدّ لصحبتك .

ـ ولكنك لا تستطيع الابتعاد عن نسائك .

ـ ألم أفارقهن حين ذهبتُ إلى الشيطان الأكبر ؟ وما فعلته من قبل أفعله اليوم .

ـ ولكن هذه المرة يجب أن تسافر مع نسائك .

– أي أنك تريد إخراج بيانكا من فينيسيا وأن لا يعلم أحد بأمرها ما زالت مع نسائي ؟

– هو ذاك .. إنك لشديد الذكاء !

– إلى أين تريد أن أذهب بها ؟

– سأعيّن لـــك المكان حين الاقتضاء . والآن فلنلخّص اتفاقنا فإنك قبضت ألف ريال ، وستقبض أربعة آلاف فتكون الجملة خمسة .

– إنك بارع في الحساب .

– وهذه القيمة مقابل إقامة بيانكا عندك عشرة أيام ، أي أن غذاء هذه الفتاة يكلّف خمسمائة ريال في اليوم .

– وتعليمها ؟

– لقد أصبت ، وقـــد بقي لك عندي خمسة آلاف ريال تقبضها خارج فينيسيا .

– هو ذاك .

– إذن لقد رضيت بجميع اقتراحاتي ؟

– دون شك . ألست صديقك المخلص ؟

وعند ذلـــك افترق الصديقان فذهب بمبو إلى منزله فوجد ساندريجو ينتظره فقابله ضاحكاً ودخل به إلى غرفة أعماله فقال له : أعيّنت يوم القران أيها القائد العزيز ؟ فنظر ساندريجو إليه محدقاً وقال له : ذلك منوط بك .

فاصفرّ وجه الكردينال إذ خشي أن يكون عرف شيئاً من مقاصده وقال له : كيف يكون أمر زواجك منوطاً بي ؟ قال :

إني خرجت الآن من منزل أمباريا وقـد ألحت عليها أن تعيّن يوم الزواج فأجابتني قائلة : « إذهب واستشر الكردينال بمبو قبل أن تأتي على أمر نهائي » . فأتيت إليك ، وها أنا قد نقلت لك أقوالها فلا حاجة إلى تذكيرك بعهودك .

– كلا ، فإني لا أنساها .

– لا شك عندي بأنك لا تنسى مـــا حييت بأنك مدين لي بالحياة ، ولكني خلقت يا سيدي ضعيف الثقة بالامتنان ، وعهدي أن من يصنع جميلاً لا يجب أن يكتفي عنه بالامتنان لأن الامتنان مجّاني ولا شيء يؤخذ مجاناً في هذا الوجود ، ولذلك أرجوك أن تعيّن يوم الزفاف . فأجابه الكردينال دون تردد قائلاً : ذلك سهل ما زال قد أنيط بي ، فإني أجعله في أقرب حين .

– إنه كلام معقول ، ولكني لم أفهم معنى « في أقرب حين » فكأنك لم تعيّن موعداً .

– إذن اسمح لي بدوري أن أذكّرك بعهدك !

– تفضل .

– إنك أقسمت بأن تأتينا برولاند كانديانو ميتاً أو حياً .

– وسأبرّ بقسمي ، فأعطوني بيانكا أعطكم رولاند بعـد اسبوعين من حفلة الزواج ، فإني سأجيئكم بـــه مغلول اليدين والرجلين إلا إذا اضطررت إلى قتله ، وفي هـــذه الحالة آتيكم برأسه .

فقال له الكردينال ببطء : أتأتينا برأسه بعد أسبوعين ؟

– إني ما تعوّدت أن أحنث بيميني .

– ألا تخاف أن يحول حائل دون إنفاذ هذا القصد ؟

فابتسم ساندريجو ابتسام استخفاف وقال : لا يوجد مانع في الوجود يحول بيني وبين هذا الرجل . فقال الكردينال : ولكن العاقل يحسب لكل أمر حسابه . قال : وأنا حسبت لهذا الأمر ألف حساب .

– قلت لك إنه يجب حسبان كل شيء حتى موت خطيبتك.

– ولو ماتت خطيبتي فإن ذلك لا يمنعني عن الوفاء بتعهّدي.

– لقد وثقت الآن بكلامك وأننا سنظفر برولاند بعد أسبوعين ، ولذلك فقد بات من فائدتنا أن نعجّل عقد قرانك ونحن الآن في يوم الثلاثاء ، فهل تريد أن يكون يوم السبت ؟

– إن هذا اليوم يوافقني وأنا أعتمد عليك إذن بإقناع أمباريا ، فقد خيّل لي أنها لا تزال تتردد . فقال الكردينال : ذلك منوط بي فاطمئنّ . قال : ويجب أيضاً إقناع بيانكا . فقال : ولكني لا أعرفها . فقال : أحق ما تقول ؟

– نعم ، فإني لا أستطيع أن أتولى هذه المهمة .

– لا بأس ، فلا تهتم إذن إلا بالأيام وبأن يكون الموعد يوم السبت .

وعند ذلك افترقا ، فلما بقي الكردينال وحده ظهر الاضطراب على وجهه وقال في نفسه : إني لم ألقَ في المغاور السوداء ما لقيت هذه الساعة من العذاب ، فأعطني أيها اللص الشقيّ رولاند وأنا أتكفل بأن أضع القيود في عنقك وألقيك في تلك الآبار ... أأنت تكون زوج بيانكا ؟

وهنا ضحك ضحكاً هائلاً وهاج ثائره فلم تعد إليه سكينته إلا بعد ساعة فذهب إلى أمباريا وقال لها : إننا سنزوج يوم السبت صديقنا ساندريجو ببنتك بيانكا . فاصفرّ وجه المحظية وقالت : يوم السبت ! قال : نعم ، وهنا يجب أن نقنع بنتك بالرضى بهذا الزواج .

– نعم .

– إن بيانكا لي وأنت لساندريجو ، أليس هذا اتفاقنا ؟

فأشارت برأسها إشارة الموافقة ، فقال لها : لا تقلقي لشيء ، فإن الحفلة تكون يوم السبت إذا تمكّنتِ من إقناع بنتك ولا بدّ من إقناعها . ولكن بعد الحفلة تذهب بيانكا في طريق وساندريجو في طريق آخر . أما أمر بيانكا فهو منوط بي ، وأما أمر ساندريجو فهو منوط بك فتدبري .

وعند ذلك تركها وانصرف وهي لا تعي لفرط اضطرابها .

دهاليز سانت مارك

*

في ذلك الزمن كان رئيس بوليس فينيسيا يدعى جينارو وهو في الأربعين من عمره أسمر الوجه رشيق الحركات كثير المطامع

شأن معظم الموظفين في تلك الجمهورية التي كان قومها يتنازعون السلطة فيها كل يوم . وكان جينارو يطمع بمنصب دندولو كما كان ألتياري يطمع بمنصب فوسكاري ، وكما كان فوسكاري يطمع بتحويل تاجه الدوقي إلى تاج ملكي .

وكان متولياً رئاسة الشرطة والتحري ، ولم يكن فوق يده غير يد دندولو . وفي ذلك ما يدل على خطورة المنصب الذي كان يتولاه .

وفوق ذلك فقد كان له لذة عظيمة بمهنته فلم يُؤثر عنه أنه مال إلى سواها أو مال مع أهواء الشباب فلم يكن له حليلة أو خليلة ، ولم يولم وليمة ، ولم يتنزه مع أحد فكانت نزهته أنه يتنكر تارة بملابس التجار وتارة بملابس البحارة ويطوف في المدينة ويجتمع بمشاهير أهل الشر كصاحب خمارة مرسى الذهب وأمثاله فيقف منهم على كل ما يجري في المدينة بحيث لا يفوته شيء من خفاياها .

وكان من عادته أن يقول إن أخص ما يجب أن يُبنى في المدن الكبرى : السجون . وكان يخطر له أن يبني سجناً هائلاً يسع كل المدينة وأن يؤلف هيئة لا يكون فيها غير فريق من الوطنيين فيكون قسم منهم مسجون وقسم سجان .

ففي اليوم التالي الذي رأينا فيه بمبو سار من عند آريتان إلى ساندريجو ومن ساندريجو إلى أمباريا ، كان جينارو رئيس البوليس واقفاً أمام مرآته يصلح شعره وهو يناجي نفسه فيقول:

– هل خلق دندولو ليكون رئيساً لديوان التفتيش ؟ وهل

خلقت أنا لأكون ملكاً لأسيادي ؟ ودندولو فوق جهله أمور هذا المنصب الكبير الذي يتولاه ، قد عهد إليّ بكل أمر وتوارى عن الأنظار بحجة اعتنائه بصهره الجريح . ولكن من الذي جرح ألتياري ! وفي كل حال ، فقد اتصل بي أن دندولو يحاول الاستقالة ، ومَن عسى يتولى منصبه الخطير إلا أنا ؟ نعم ، سأتولى منصبه ، ولماذا لا أتولاه ؟ ألأني لست من النبلاء ؟ هو ذا بمبو وهو ذا فوسكاري نفسه فإنهما كانا من عوام الناس .. نعم إن الفرصة دانية ولا بدّ لي من اغتنامها . والآن فلأشرب كأس خمر فإن ما سأعمله يحتاج إلى قوة .

وعند ذلك شرب كأس خمر اسبانية وعاد إلى مناجاة نفسه فقال : إنني لو لقيت الدوج لقلت له : إنك يا مولاي في حالة كئيبة ، وإنك والجمهورية في أشدّ خطر ، فلو استشرتني في أمرك لمّا وصلت إلى ما وصلت إليه الآن ، ولمّا أشرت عليك أن تسمل عيني الدوج كانديانو وتسجن ابنه ، بل أشرت عليك أن يكون العقاب الكأس ... فكان الحزن قتل الأب وكنتَ أمنت شر الولد . والآن فإنك لو دخلت إلى الحمارات أو طفت بالبحارة أو جلت في الشوارع العامة لمّا سمعت غير حديث الإعجاب برولاند كانديانو ، ذلك عدا تلك العصابات الهائلة التي يتهددك بها في كل حين ، فإذا جئتك بهذا العدوّ اللدود يا مولاي الدوج أتجعلني رئيساً لديوان التفتيش ؟

هذا ما يجب أن أحدّث به الدوج حين أظفر برولاند فلأبدأ الآن بالبحث عنه . ولا شك أن رولاند من أهل الحيلة والدهاء

ولكني أشدّ منه دهاء فإني أعرف عنه ما لا يعرفه عن نفسه ، فهو يعتقد أنـــه لا يحب ليونور وأنا أرى الحب ماثلاً في جميع حركاته وأعماله ، وهو يعتقد أنه لن يعود إلى منزل الجزيرة وأنا واثق من أنه لا بدّ أن يعود إليه. نعم، إنه يشبه العصفور الذي يدرج إلى عشه ، فليذهب إلى هذا العش بل إلى هذا القفص !

وقد خرج عند ذلـك من منزله وهو مطمئن فتفقّد خمارتين إلى أن انتهى إلى خمارة مرسى الذهب . أما صاحب الخمارة فقد عرفه بالرغم من تنكّره فانحنى أمامه بمـــلء الاحترام فقال له رئيس البوليس : مـا لديك من الأخبار يا برتولو ؟ قال : لديّ خبر خطير يا سيدي . فقال : ما هو هذا الخبر ؟

– هو أن سكالا برينو الهائل ، يد رولاند اليمنى، قد مات.

فبرقت عينا الرئيس بأشعّة الفرح وقال : إذا كنت صادقاً فيما تقول يا برتولو كافأتك بعشرة دنانير ، ولكن هل أنت واثق مما تقول ؟

– دون شك ، فأنا الذي قتلته .

– أنت ؟

– نعم ، فقد جاء إلى الخمارة فمـا زلت أسقيه حتى نام إلى الأبد .

– إذن مرّ بي غداً لتقبض مكافأتك .

– ليس هذا كل مـــا لديّ من أخبار يا سيدي ، فقد بقي ساندريجو .

– لا تحدثني بعد الآن عن هـذا الرجل إذ لم يبقَ فائدة من البحث في شأنه .

– لماذا ؟ ألعلّكم قبضتم عليه ؟

– كلا ، بل لأن الحكومة استخدمته .

وقـد تركه الرئيس منذهلاً وهو يقول في نفسه : لقد قتل سكالا برينو فلا بدّ لي بعد ذلك من القبض على رولاند . ومـــا زال يسير حـتى وصل إلى بيت الجزيرة فتسلّق جدار الحديقة وألقى بنفسه إليها . وهناك وقف هنيهة يتمعن ويقول : لا بـدّ من واحد من أمرين وهما : إما أن يكون رولاند هنا فأسرع وأعود بعشرين رجلاً يقبضون عليه ميتاً أو حياً ، أو لا يكون هنا فأجد الخادم العجوز فإني أحاول التعرّف بهذا الأبله من عهد بعيد فقد أقف منه على كثير من الأمور .

وعند ذلـــك تقدّم في الحديقة حتى وصل إلى المنزل فرأى الأنوار كثيرة فيه ولكنه لم يستطع أن يرى احـــداً . فدنا من النافذة فوقف تحتها وسمع صوت رجل يقول : أتقيم الليلة هنا يا مولاي ؟ فأجابه آخر قائلاً : نعم يا فيليب ، فإني محتاج إلى ليلة راحة وعساي أن أجدها في هذا المكان .

فأيقن رئيس البوليس أن الصوت الأول صوت الخـادم وأن الصوت الثاني صوت رولاند ، وقـــد كاد فؤاده يطير سروراً لاعتقاده الراسخ أنـه سوف يقبض عليه ، فتراجع يمشي الهوينا ويختبىء بين الأشجار كي لا يراه أحـد حتى إذا وصل إلى سور الحديقة حاول أن يتسلقه . وعند ذلك شعر أن يـداً من حديد

قد قبضت عليه فحاول أن يجرّد خنجره ، وشعر أن يداً غلّت يده وأنه لا يستطيع الفرار .

وكان جينارو مشهوراً بثبات الجأش فلم يذعر لهذه الحادثة وقال لذلك الرجل الذي كان قابضاً عليه : إني أعطيك ألف ريال إذا أطلقتني . فكان جواب الرجل أن حمله بين يديه كما يحملون الأطفال وعاد به إلى المنزل .

فلما رأى الرئيس ذلك الرجل على نور المصباح دهش دهشاً شديداً دون أن يتذعر وقال : من أرى ؟ سكالا برينو ؟

ثم أجال نظره في الغرفة فرأى رولاند وفيليب ، والتفت إلى سكالا برينو وقال له : أهنئك بيديك فإنها تشبهان الكلاليب . ونظر رولاند إلى سكالا برينو نظرة السائل فأجابه قائلاً :

— إن الأمر بسيط ، وذلك أني كنت عائداً من المدينة فرأيت رجلاً يتسلق سور الحديقة فتسلقت السور في أثره وقفوتُ خطواته وقبضت عليه وهو يحاول الرجوع من حيث أتى . فقال له رئيس البوليس وقد نظر إليه نظرة إعجاب : أحق ما تقول ؟

— كيف أكون كاذباً وأنت الآن هنا ؟

— إذن أهنئك على براعتك فما كنت أحسب أنه يوجد من يستطيع إقتفاء أثري دون أن أشعر به .

وعند ذلك التفت إليه رولاند وقال له : من أنت ؟ قال : بحار فقير يلجأ إلى مروءتك فإنك تستطيع يا سيدي أن تسلمني

إلى الجنود فأسجن وقد أقيم في سجني خمسة أعوام لا أرى في خلالها النور .

— ماذا أتيت تعمل هنا ؟ كن صادقاً في قولك فلا أسلمك إلى الشرطة . فقال الرئيس في نفسه : لقد نجوت بحمد الله فإن الأمر سينتهي بيننا بأن ينعم عليّ ببعض دريهمات إشفاقاً علي ويطلق سراحي فأعود إليه بعد نصف ساعة لمكافأته . وعند ذلك أطرق برأسه مستحيياً كأنه يخجل أن يعترف بزلته . فقال له رولاند : تكلم وقل الحقيقة . قال : إني أخجل يا سيدي من الاعتراف بهذه الحقيقة ، ولكنك وعدتني أنك لا تسلمني إلى الشرطة .

— وأنا موفٍ بوعدي إلا إذا كذبت ، فتمعّن قبل الاعتراف إذا شئت لأني لا أطلق سراحك إلا بشرط الصدق .

— الحقيقة يا سيدي أني فقير وأن أعمالي لا تجري على ما أريد منذ عهد طويل .

— أأنت بحار ؟

— إني بحار بالظاهر يا سيدي وما هذه الملابس التي ألبسها إلا ملابس تنكّر ، فإني لا أمتهن مهنة البحارة فأجتاز الترعة بالعابرين وأنا أغني وأنشد الأشعار . كلا يا سيدي فإن هذه المهنة مهنة أهل الكسل ؟

— إذن ما هي مهنتك ؟

— هي أن أتسرب في ظلمات الليل إلى المنازل التي لا يحيدون حراستها ، وأن أتفقدها دون أن يشعر بي أحد ثم أعود منها بما

تتيسّر سرقته بملء الاحترام . وإني لا أزور غير المنازل الكبيرة ولا أسرق عادة غير ما خفّ حمله وغلا ثمنه ، وذلك لأني شديد الإعجاب بالجوهرات .

– أي أنك تحترف مهنة اللصوصية ؟

– هو ذاك ، واأسفاه ! فإن المرء خلق ليعمل وإنما يعيش الفتى كيما يضرّ وينفع ! ولما كانت أشغالي لا تسير على محور النجاح كما ذكرت لك ولم يكن لي درهم أقتات به ، خرجت الليلة هائماً على وجهي واليأس ملء قلبي حتى وصلت إلى هذا المنزل فدخلت إلى حديقته ودنوت منه فسمعت أصواتاً ورأيت نوراً فرجعت قانطاً على أن أعود إليه في الغد ، فقبض عليّ هذا الرجل . وهذه هي حكايتي .

وكان رولاند يصغي إلى حديثه كل الإصغاء وعند ذلك سمع في الحديقة صوت صفير فارتعش رولاند وسكالا برينو وتنبّه جينارو . فنهض رولاند وقال لسكالا برينو : إحرص على هذا الرجل كل الحرص وبالغ في إكرامه فإنه السيد جينارو رئيس بوليس فينيسيا وقد أراد أن يشرفك الليلة بزيارته .

ثم خرج من تلك الغرفة وقد ترك جينارو فيها مصعوقاً من هذه المفاجأة . وسار توّاً إلى الأرزة الكبرى وهناك صفّر مثل الصفير الذي سمعه فظهر له في الحال رجل وقال له : مولاي ، إن الأمر يجري في هذه الليلة .

– أتقدر أن تذهب بنا ؟

– نعم ، دون خطر .

– حسناً ، فانتظرني هنا .

ثم عاد إلى المنزل فقال لرئيس البوليس : إنك يا مسيو جينارو أسيري . فأيقن الرئيس أنه لا سبيل له إلى المفرّ ، وسكت .

فقال له رولاند : نعم إنك أسيري ، وسأعاملك كما كنت تعاملني إذا اتّفق لك أن تأسرني . فقال الرئيس : لا سبيل بعد إلى الإنكار فأنا هو حقيقة رئيس البوليس ، ولكني أقتصر على سؤالك عن هذه المعاملة التي تريد أن تعاملني بها . قال رولاند :

– ماذا كنت تصنع بي لو كنت أسرتني ؟

– كنت أسلمك إلى الحكومة ، وهنا تنتهي مهمتي .

– وماذا كانت تصنع بي المحكمة ؟

– إنها تسلمك إلى الجلاد .

– وماذا يصنع بي الجلاد ؟

– يقطع رأسك ، إلا إذا أرادوا الاكتفاء بسمل عينيك ، بل أزيد على ذلك أنهم يحاكمونك ويحكمون عليك في الليلة نفسها ولا يصبرون إلى الغد .

وقد قال الرئيس هذه الأقوال لاعتقاده أنه يؤثر بها تأثيراً حسناً على رولاند فلم يرَ شيئاً من علائم التأثر فقال في نفسه : لقد قضي عليّ ولم يبقَ سبيل إلى الرجاء .

فقال له رولاند : إنك أتيت تهاجمني في منزلي يا جينارو دون أن أسيء إليك بشيء .

– ولكن واجباتي تقضي عليّ بذلك يا سيدي وقد أردت إنقاذ الجمهورية .

– بل قل إنك أردت أن تقدّم رأسي إلى مجلس العشرة بإحدى يديك وتلتمس بالثانية المكافأة عن هذه الخدمة ، أليس كذلك ؟

قال : هو ذاك يا سيدي ، فلم يدفعني إلى مهاجمتك غير الطمع . فبرقت عينا رولاند ببارق سرور وقال : إذن قد هاجمتني فغلبتك وكنت تريد أن تسلمني إلى محكمة فينيسيا فأنا أسلمك إلى محكمة الجبال فتحكم عليك بنفس العدالة التي تحكم عليّ بها محكمتك .

– محكمة الجبل يا سيدي ؟ إذن قل لي بصراحة إنك تريد قتلي .

– ذلك منوط بالمحكمة لا بي ...

وعند ذلك سمع رولاند قرعاً على الباب بشكل خاص فقال للطارق : أدخل . فدخل ذلك الرجل الذي لقيه رولاند عند الأرزة وقال له : لقد أزف الوقت يا مولاي .

– حسناً ، فلنذهب .

وقد أشار إشارة إلى رئيس البوليس وانصرف دون أن يهتم لأسيره . فنهض سكالا برينو إلى الرئيس فتأبّط ذراعه وجرّد باليد الثانية خنجره وهو يقول : إن كلمة واحدة تبدو منك تدعوني إلى معاقبتك فلا توقفني في مواقف الجلادين . قال : اطمئنّ فلا أقول شيئاً .

وسار هذا الموكب الصغير يتقدمه رولاند والأسير بين حارسيه وهما سكالا برينو وذلك الرجل إلى أن بلغوا الشاطىء. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقد أطفئت أنوار الترعة ولم يبقَ غير نور واحد كان يضيء في قارب . فمشى رولاند إلى ذلك القارب وصفّر نفس الصفير الذي صفّره في الحديقة عند الأرزة فخرج له في الحال رجل وقال له وقبّعته في يده: إلى أين يريد مولاي أن يذهب ؟

فنزل إلى القارب وقال : إلى سانت مارك . ثم نزل رئيس البوليس يحيط به الرجلان وسار بهم القارب فوقف بعد نصف ساعة عند سانت مارك . وهنا نزل جميعهم فقال الرئيس في نفسه : إلى أين يذهبون بي ؟

وقد سرى الرعب إلى قلبه فقد كان يتوهم في البدء أنهم سيخرجون به من فينيسيا وينقلونه إلى الجبل ، ولكنهم أنزلوه عند سانت مارك فماذا يريدون أن يصنعوا به ؟

وما زالوا يسيرون به حتى وقفوا عند أحد أبواب تلك الكنيسة وبعد هنيهة كان داخل الكنيسة وهي مضاءة بنور ضعيف. فقال الرجل الذي يرافقهم: أسرعوا قبل فوات الوقت. ثم تقدّمهم فدخل من وراء الهيكل في باب ونزل منه على سلم وهم يتبعونه حتى اجتازوا ثلاثين درجة ، وهناك ساد الظلام فأنار الرجل مصباحاً ورأى رئيس البوليس أنه في إحدى مغاور تلك الكنيسة وهي مغارة متسعة بُنيت فيها القبور ، فذهب الرجل إلى أحد هذه القبور وفتحه بلولب خفيّ ، فدخل رولاند قبل

www.liilas.com

الجميع وتبعه رئيس البوليس وسكالا برينو وذلك الرجل فلما دخلوا جميعهم أقفل الباب من ورائهم .

وهناك رأوا نافذة تطل من ذلك القبر على قاعة رحيبة يستطيع الناظر أن يرى من خلالها كل ما يجري في تلك القاعة ويسمع كل ما يقال من الحديث دون أن يراه أحد . فالتفت رولاند عند ذلك إلى رئيس البوليس وقال له : أنظر واسمع ، ولكن حذار أن تفوه بكلمة أو تكون من الهالكين . وقد وقف سكالا برينو فوق رأسه والخنجر مجرّد بيده . وعند ذلك أطفىء النور الذي كان ينير القبر وأخفي ذلك الرجل الذي جاء برولاند . وفي تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فكانت دقاتها في ذلك السكون تشبه أجراس الكنائس في ساعات الموت فلم تكد تدق الدقة الثانية عشرة حتى أشرقت القاعة فجأة بالأنوار . فهمس رولاند بأذن الرئيس قائلاً : أنظر جيداً .

فألصق الرئيس وجهه بنافذة القبر وقد دهش لِمَا رآه حتى أنه نسي موقفه . فقد رأى اثني عشر رجلاً ظهروا في تلك القاعة وهم يحملون المشاعل واصطفوا حول القاعة ولبث كل منهم واقفاً قرب مشعله وفي وسط القاعة مصطبة كبيرة لم يكن عليها أحد ولكن كان عليها كراسي ، وبعد هنيهة جعل الناس يتوارِدون إلى تلك القاعة وكلهم مبرقعو الوجوه فكان كل قادم يقف أمام واحد من حَمَلة المشاعل حتى بلغ عدد الوقوف حول كل مشعل إثنى عشر رجلاً . فعلم جينارو أن حملة المشاعل هم رؤساء تلك العصابة .

وقد جلس أربعة على كراسي المصطبة فقال رئيس البوليس في نفسه : ترى من عسى أن يكون هؤلاء المجتمعون المتنكرون وماذا يريدون ؟ ألعلّهم اجتمعوا لمحاكمتي ؟ أهذه هي محكمة الجبال الهائلة ؟ ولكن كلا ، إن ذلك لا يمكن أن يكون لأنهم لو كانوا يريدون محاكمتي لوجب أن يكون رولاند معهم وهو يجانبي فمن هم وماذا يريدون ؟

وعند ذلك وقف أحد الرجال الأربعة الذين كانوا جالسين على المصطبة فانتزع برقعه وألقاه إلى الأرض ، فذعر الرئيس ذعراً عظيماً ، فإن هذا الرجل الذي أظهر وجهه والذي يظهر أنه رئيس هذه الجمعية السرية كان قائد جيش فينيسيا العام ، أي ألتياري .

أما ألتياري فإنه وقف وخاطب الحاضرين قائلاً : أيها الإخوان ، تفضلوا وانزعوا براقعكم حسب عاداتنا في كل اجتماع كي نأمن الخيانة ونثق أنه لا يوجد بيننا رجل غريب .

فنزع الجميع براقعهم وبرزت الوجوه فجعل كل منهم يحيي الرفاق بكلمة أو بابتسامة أو إشارة ثم ساد السكوت . أما رئيس البوليس فقد كان دهشه لا يوصف ، فجعل ينظر إلى جميع أولئك المحتشدين فعرف معظمهم وكان كثيرون منهم في حاشية الدوج ومنهم مِن كبار الضباط وبعضهم من ضباط الأسطول وآخرون من النبلاء فقال في نفسه : ترى ، ماذا يريدون من هذا الاجتماع السرّي ؟ بل لماذا رولاند الذي كان يستطيع أن يقتله

جاء به إلى هذا المجتمع وأوقفه في موقف يرى فيه أولئك الناس دون أن يروه ؟

أما ألتياري فإنه مضى في حديثه فقال : أيها الإخوان ، أرى أن عددنا قد تمّ وقد عرفتم جميعكم أن ساعة العمل قد دنت ، فأشكركم لحضوركم والتفافكم حولي .

وكان يتكلم بلهجة السيادة ولم يكن بين الحاضرين من يخطر له أن ينازعه تلك السيادة فقد كانت علائم الامتثال بادية على الجميع . وتابع ألتياري كلامه قائلاً : نعم ، لقد تمّ عددنا ولا ينقصنا غير واحد وهو دندولو .

فظهرت علائم القلق على جميع الوجوه بحيث استدلّ رئيس البوليس أن غياب دندولو يتوقف عليه أمر خطير . ورأى ألتياري أنهم يتوقعون منه أن يخبرهم بأسباب هذا الغياب فقال: إن حمل يدي في عنقي أيها الرفاق يدلكم على أني كنت جريحاً وذلك أني اضطررت إلى المبارزة مع دندولو بسبب مسألتنا الكبرى ، فما تردّدت هنيهة عن تجريد حسامي في وجه أب امرأتي وهو شبه أبي ، ولكني أعترف أن يدي اضطربت وذلك طبيعي ، خلافاً له فإن يده لم تضطرب وأصاب بحسامه زوج ابنته . أما السبب في هذه المبارزة فهو أن دندولو أخبرني فجأة أنه لا يريد الانخراط في سلكنا ، وأنه تمعّن في الأمر فرأى بعد التفكير أن الحكة وصالح الجمهورية يقضيان ببقاء فوسكاري رئيساً ، وأن المصلحة العامة تقضي بأن لا يحدث تغيير على الإطلاق فاضطررت إلى مبارزته .

فارتفعت الأصوات وقال كثيرون : من يضمن لنا أنه لا يخوننا ؟ فابتسم ألتياري وقال : لقد حملته على أن يقسم على أن لا يبوح بكلمة مما يعرفه ، بل فعلت خيراً من ذلك فقد أكرهته على الإقامة في قصري ووضعت عليه الرقباء واليوم أكرهته على الاستقالة من منصبه بحيث لم يبقَ لدينا ما نخشاه . فصعد عند ذلك رجل إلى المصطبة واضطرب الرئيس حين رآه إذ عرف أنه أميرال الأسطول . أما الأميرال فإنه التفت إلى الجمهور وقال : سادتي وإخواني، إن ما أراد عمله رفيقنا العزيز ورئيس جمهوريتنا في المستقبل لا يستطيع أن يعمله سواه . ويسوؤني جداً أن أثبتّ هذا الضعف من دندولو ، ولكني ، على ثقتي أنه لا يخون أرى أنه لا بدّ من قتله حرصاً على شرفنا وسلامتنا ومستقبل مشروعنا .

فصاح الجميع قائلين: نعم نعم لا بدّ من قتله. فقال الأميرال: هو ذاك ، ويجب أن نقرّ على ذلك منذ الليلة ، فاسمعوا ما أقترحه . إني أقترح على أن نقترع على ثلاثة منا وهؤلاء الثلاثة الذين تصيبهم القرعة يذهبون إلى قصر ألتياري حيث يقيم دندولو فيقترحون عليه مبارزة شريفة فإذا لم يقبل بها طعنوه طعنة خنجر تكون القاضية ، وإذا قبل بارزه الثلاثة كلّ بدوره حتى يقتله واحد منهم . فوافق أكثر المجتمعين على هذا الإقتراح ونزل الأميرال عن المصطبة .

أما ألتياري فقد قطب حاجبيه ، وقد علم القرّاء كيف أن دندولو كان مقيماً في قصر ألتياري ، ولم يقصد ألتياري بكلّ

مـــا رواه إلا أمراً واحداً وهو إجبار عمّه على الاستقالة كي ينصرف إلى العناية بليونور ، فمـــاذا يصنع متى ذهب هؤلاء المؤتمرون إلى منزله وماذا يكون من ليونور متى علمت مقاصدهم واسترسلت إلى اليأس ؟

ولذلك استرعى الجمهور السمع وقال : أيها السادة الإخوان، إني لا أوافق على اقتراح الأميرال ، فـــلو قتل دندولو في منزلي فكيف أوضح هذه الحادثة ؟ على أني أؤكد لكم أن والد امرأتي مقيم في منزلي وأني مبالغ في مراقبته فإذا قتلناه الآن أثرنا الظنون فيتحدث الناس بما يكون وبما لا يكون . على أننا إذا صبرنا إلى اليوم التالي لفوزنا لا نخاف دندولو سواء أكان ميتاً أو حياً ، ولذلك أسألكم أن تعتمدوا عليّ بكل ما يتعلق برئيس ديوان التفتيش فأنا المسؤول عنه .

وكان ألتياري يتكلم والاضطراب ظاهر في لهجته فحمل الجميع اضطرابه على محمل النسب ، وفوق ذلك فقد كان للمجتمعين بألتياري ثقة لا حدّ لها وما زال قـد تعهّد بعمّه وتحمّل تبعته فلا سبيل إلى مقاومته . ولذلك وافقوا جميعهم على اقتراحه حتى الأميرال نفسه . وكان من الذين خدعوا باضطرابه أيضاً رئيس البوليس فقال في نفسه : إني لم أكن أعهد بأن ألتياري يحب عمّه إلى هذا الحد بل كنت أحسب أن الأمر على عكس مـا رأيت ولكن فلأسمع .

وعند ذلك قال ألتياري : ليقدّم الآن الزعماء تقاريرهم .

فرأى رئيس البوليس ان الاثني عشر مؤتمراً الذين جاؤوا في

البدء بمشاعلهم قد تقدّموا من ألتياري وأعطوه أوراقاً مختلفة . فأخذ ألتياري الأوراق وجعل يقرأها مـــع ثلاثة كانوا بالقرب منه . حتى إذا أتم تلاوتها ذهب إلى أحـد القبور ففتحه ووضع فيـه تلك الأوراق . فارتعش رئيس البوليس سروراً ونسي أن رولاند وسكالا برينو واقفان وراءه .

وعند ذلـــك خلا ألتياري باثني عشر رجلاً من الحاضرين وجعلوا يتداولون فدامت المداولة ساعة . وبعد ذلك عـــاد المتداولون إلى مواقفهم أمام المشاعل وساد السكوت الرهيب هنيهة فإنهم سيسمعون القرار النهائي . وقـد صعد ألتياري إلى موقفه الأول وقال بصوت جهوري : أيها الإخوان ، إن جمعيتنا مؤلفـة من النبلاء وقوّاد البرّ والبحر ومن كل من يتولّى منصباً عالياً في فيليسيا أو كان ذا وجاهة فيها . أما عامة الشعب فـلا نعتدّ بهم إذ ليس بينهم من يحب فوسكاري وسينظرون بحملتهم إلى سقوطه بغـــير اكتراث . ونحن متفقون على المناصب التي يتولاها كلّ منكم في الحكومة الجديدة فـلا حاجة إلى البحث في هذا الموضوع . ولكني أقسم أمامكم أيها الإخوان وأمام أرواح أولئك الموتى التي ترفرف حولنا وأمـام الله الحاضر في الهيكل أني لا أخل بحرف من الشروط التي عاقدتكم عليها ، وأني أمنح كلاً منكم ما وعدته به في أول يوم من فوزنا . والآن فاعلموا أنكم جميعكم قد أقسمتم لي أيضاً يمين الوفاء والإخلاص .

فرفعوا جميعهم أيديهم وقالوا بصوت واحد : إننا نجـدّد اليمين . فقال ألتياري : إذن فاعلموا أننا متأهبون وقد أعددنا

كلّ ما ينبغي من الوسائل ، وكلّ منكم يعرف موقفه وما يجب أن يفعل بحيث لم يبقَ علينا إلا تعيين اليوم الذي يجب أن نضرب فيه الضربة الكبرى ونحن قد اجتمعنا وتداولنا لتعيين ذلك اليوم . فاعلموا إذن أننا لا نجتمع في هذا المكان بعد اليوم فهو اجتماعنا الأخير . وأنتم تعلمون أيها الإخوان أن فوسكاري لم يحتفل بعد بتلك الحفلة التقليدية التي يحتفل بها كل دوج يتولى فينيسيا ، وهي تلك الحفلة التي نسميها « زواج الدوج ببحر الأدرياتيك » . وبناء على إلحاحي وإلحاح بعض رجالنا رضي فوسكاري أن يحتفل بهذه الحفلة في آخر العام أي في زمن قريب ، ففي هذا اليوم ، أي يوم زواج فوسكاري بالأدرياتيك ، يكون موعد زواجه بالموت ، أما موعد إجرائنا فسيكون موعد هذه الحفلة ، فعند إطلاق أول مدفع من مدافع الاحتفال يعمل كلّ منكم بما عهد إليه ، فهل توافقون على هذا الموعد ؟

فصاح الجميع هاتفين لألتياري إشارةً إلى الموافقة ، وعند ذلك قال لهم : إذن أستودعكم الله إلى يوم زواج فوسكاري بالأدرياتيك .

فمُدّت الأيدي إليه من كل صوب وصافحه الجميع وهم يهنئونه بالفوز وهو يقبل تهنئاتهم بالشكر . وبعد ربع ساعة تفرّق الجميع وعاد الظلام والسكون إلى تلك القاعة وبقي جينارو رئيس البوليس وهو حائر مضطرب يسائل نفسه مراراً هذا السؤال فيقول : ترى لماذا أراد رولاند أن أحضر هذه المؤامرة؟

وعند ذلك فتح باب القبر الذي كانوا فيه ودخل ذلك الرجل

الذي جاء برولاند إليه وهو يحمل مصباحاً فخرج رولاند في البدء وتبعه رئيس البوليس بين الرجل وسكالا برينو فصعدوا السلم حتى وصلوا إلى ساحة الكنيسة . وفيما هو يسير معهم وقد نسي نفسه لفرحه لهذا الاكتشاف رأى أن سكالا برينو قد وقف هو أيضاً والتفت إلى ما حواليه فرأى ستة رجال جالسين على كراسي وأمامهم الشموع .

فذعر وقال في نفسه : ترى أية حادثة جديدة ، ومن هم هؤلاء الستة الذين يشبهون القضاة ؟

ثم رأى صندوقاً طويلاً يشبه التابوت فذعر وقال : ما هذا؟ فأجابه صوت قائلاً : إنه تابوتك . فاشتد رعبه ولم يعرف من الذي قال له هذا القول . ثم سمع رولاند يقول لأولئك الستة : يا زعماء الجبل ، إن الاجتماع الذي كنا عزمنا على عقده في بيت الجزيرة سنعقده هنا وإننا في مأمن . ولكننا قبل أن نبحث في أعمالنا أطلب إليكم أن تؤلفوا شكل محكمة لمحاكمة هذا الرجل . فقال أحدهم : ماذا فعل المتهم ومن الذي يشكوه ؟ قال : أنا . قال : تكلم إذن أيها الرئيس فإننا مصغون إليك وسنحكم عليه حسب شرائعنا المستقلة . فقال رولاند : إن اتهامي ينحصر بكلمة وهي أن هذا الرجل يدعى جينارو أي رئيس بوليس فينيسيا . فقال أحدهم : هل التهمة ثابتة عليه ؟

— إنه جاء في هذه الليلة إلى جزيرة أوليفو للقبض عليّ ، أليس ذلك أكيداً يا جينارو ؟ قال : ذلك لا ريب فيه ، ولكني قد فعلت واجباتي . فقال أحد القضاة : إن الإقرار صريح فلا

سبيل بعد ذلك إلى المحاكمة ولم يبقَ بد من أن ينفذ فيه العقاب حسب شرائعنا . ثم وقف وقال : إن مهمتك يا جينارو تقضي عليك بمطاردتنا نحن الذين نحاول إعطاء الحرية والاستقلال لهذا الشعب المضطهد . وإن شرائعكم تحكم على كل من تقبضون عليه منا بالإعدام ، وكذلك شرائعنا فإنها تحكم عليك بالإعدام لأنك من أعدائنا فتأهب للموت . فقال رولاند : إني أطلب للمتهم حق الدفاع عن نفسه .

فنظر الستة إلى رولاند نظرة انذهال ، فقال أحدهم : دافع إذن عن نفسك يا جينارو ، فقد سمعت أننا نعتبرك من أعدائنا وأننا نقضي عليك بالموت لأنك لو قبضت على واحد منا لقضيتم عليه مثل هذا القضاء ، وقد أراد رئيسنا الأكبر الذي أخرجنا من الظلمة إلى النور وعلمنا ما لا نعلم من أسرار الحياة أن تدافع عن نفسك فدافع إذا استطعت . قال : إني لا أعتبركم قضاة .

— وهل الذين يحكموننا منكم قضاة أعظم منا ؟

— نعم لأنهم يحاكمون باسم شرائعنا .

— ونحن نحكم باسم شرائعنا أيضاً ، أما أنتم فتحكمون بالظلم والكذب فتجورون على الضعيف والفقير وترهبون الغني والقادر .

أما نحن فإن شرائعنا تمنح حق الحياة لكل إنسان وتبنى على المساواة ، وأنتم تختارون قضاتكم من بينكم فكيف تنكرون علينا أن نختار قضاتنا من بيننا ؟

قال : حسناً ، فإني أعتبركم قضاة ولكنكم لا تستطيعون الحكم عليّ لأني قمت بواجباتي .

— أتحسب من واجباتك قتل أمثالك في الانسانية أو تسليمهم إلى الجلاد ليقتلهم ؟

— كلا ، إني لا أقبض على أمثالي بل على الذين يسيئون إلى الهيئة الاجتماعية .

— أي الذين يسيئون إليكم أنفسكم ، وكذلك نحن فإننا نقتل من يسيء إلينا .

— إذا كنتم تفعلون نفس ما نفعله لكنتم أيضاً مثلنا .

— هو ذاك ، غير أن مقاصدنا تختلف عن مقاصدكم ولكن الواسطة واحدة وهي الحرب الناشبة بيننا .

— إذا كان ذلك فلم يبقَ لي سبيل إلى الدفاع لأني أصبحت أسير حرب فافعلوا بي ما تشاؤون .

وقد أطرق برأسه وضعفت عزيمته فقال له رولاند : هذا الذي كنت أدفعك إلى قوله يا جينارو وهو أن تعترف أنك أسيرنا وأنك أسير حرب وأنه يحقّ لنا أن نعاملك معاملة عدوّ لدود .

— اقتلوني إذن ما دمتم كما تقولون .

— أصغِ إليّ يا جينارو ، فإن أبي حين كان دوجاً لم يسيء إلى حرّية الشعب بشيء ، ولم يخالف نظام الشرائع ، ولكنه كان يعتبر أن أفقر بحّار وأعظم نبيل متساويان لدى القانون ، وهذا هو ذنبه الوحيد الذي 'جوزي عنه بسمل عينيه كما تعلم وجوزيت' أمي بالموت يأساً وجوزيت' أنا بالسجن ستة أعوام في أعمق الآبار . فاعلم يا جينارو أن الذين أنفذوا هذا العقاب الهائل كانوا

فوسكاري وألتياري"، وقد عرفت جرائمهم الهائلة وأنهم لم يبلغوا إلى هذه السلطة إلا بعد ارتكاب هذه الجرائم ومع ذلك فإنك تخدمهم .

فكيف تقول إنك تفعل واجباتك بالقبض عليّ وإنما أنا أريد معاقبة المجرمين ، بل إني أريد أن أعمل عملاً نافعاً يستفيد به جميع الناس وكان عليك أن تختار بين العقاب والجريمة ولكنك اخترتَ الجريمة بخدمة أهلها .

جرّد نفسك يا جينارو من شوائب الأغراض ولا تفتكر بظاهر تلك الألفاظ الرنانة كالواجبات والعدل والشرائع وغيرها من هذه الكلمات ، بل افتكر بحقيقة معانيها تجد أنك أخطأت بخدمة هؤلاء المجرمين الذين لا يستخدمون الشرائع إلا للعبث بالشرائع ولا يتذرّعون بالواجبات إلا للاخلال بالواجبات .

فتأثر رئيس البوليس لأقوال رولاند وترقرق الدمع في عينيه فقال له رولاند : إن دمعة واحدة تشتري زلات كثيرة، فتمعّن يا جينارو بكل ما رأيته وسمعته الليلة في الدهاليز السرية واذهب فإنك حرّ مطلق السراح .

فكادت عيناه تخرجان من وجهه لفرط اندهاله وقال : أنا حرّ طليق ؟

ثم سقط مغمياً عليه كأنه لم يطق احتمال هذا السرور الفجائي بعد أن سمع بأذنه حكم الإعدام عليه وبعد أن رأى بعينه تابوته وقبره . فلما استفاق لم يجد نفسه حيث كان بل وجد أنه كان طريحاً على شاطىء الترعة . فأسرع إلى منزله ووضع رأسه بين

يديه وتاه في مهامه التفكير .

*

عندما ذهب رولاند إلى كنيسة سانت مارك كان عالماً بما سيراه فقد كان له كثير من المخلصين بين المؤتمرين مع ألتياري وقد وقف منهم على نيّات هذا القائد .

وكان في وسعه إحباط هذه المؤامرة غير أنه رأى أن يهيج الحزبين حزب فوسكاري وحزب ألتياري" فيقسم قوّتها ويضعفها وكلاهما خصمه فقد ثبت جلياً أن الأميرال لم ينخرط في سلك هذه المؤامرة إلا بإيعاز من رولاند . وعلى ذلك فإن الدوج وألتياري سيقتتلان أشد قتال دون أن يعلما أن رولاند هو الذي سحقهما .

فلما أتاه ذلك الرجل حين قبض سكالا برينو على جينارو وعلم منه أن الجلسة ستعقد هذه الليلة خطر له أن يصحب معه رئيس البوليس، وذلك أنه منذ قبض عليه كان يفتكر بأن هذا الرجل قد يفيده فائدة عظيمة . وراح يتمعّن في طريقة استخدامه إلى أن خطر له ذلك الخاطر الفجائي وهو أن يدع رئيس البوليس يعلم بأمر المؤامرة ويعرف جميع المؤتمرين فيخبر فوسكاري دون شك بما رآه فتنشب الحرب الأهلية بين النبلاء المنقسمين إلى قسمين فيضعفان بعد هذا القتال ، فيغتنم رولاند فرصة هذا الضعف ولا يجد مقاوماً شديداً حين يضرب ضربته الكبرى .

ولذلك أطلق سراح رئيس البوليس بعد أن أوهمه أنه محسن

إليه بهذا العفو وبعد أن أوقفه على هذا السرّ الهائل .

*

أما جينارو فإنه بعد أن لبث في منزله مضطرباً نحو ساعتين عادت إليه السكينة وعاد إلى التفكير والإمعان . ومن غريب أمره أنه كان يبذل جهداً عنيفاً كي لا يفتكر برولاند ولكنه لم يكن يستطيع التفكير إلا به فكان يسمع قوله له : « إنك حرّ مطلق السراح » ، فيهتز لهذا القول ويقول في نفسه : إن من واجباتي أن أقبض عليه وسأفعل ، أما الآن فلأفتكرْ بغير هذا الشأن .

جوانا

*

تركنا جوانا وقد خرجت من المنزل بعد أن ودعت رولاند وأباه وسكالا برينو وذهبت توّاً إلى فينيسيا فلم تقم في ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه مع سكالا برينو بل استأجرت غرفة في شارع ضيق يشرف على ساحة سانت مارك .

ولم تكن قد وضعت لنفسها خطة فإن هذه المنكودة لم يكن

لها غير فكر واحد وهو إنقاذ ساندريجو من رولاند . وكانت خطتها شديدة الصعوبة فإنها كانت تريد إنقاذ ساندريجو ، ولكنها كانت تحاول في الوقت نفسه إكراه ساندريجو على عدم قتل رولاند أو سكالا برينو .

فلما وصلت إلى فينيسيا كان أول همّها أن تجد ساندريجو ، فأقامت أربعة أيام وهي تبحث عنه كل يوم في الميناء والأرصفة والشوارع إلى أن كانت الليلة الخامسة فلقيته عند ساحة سان مارك ولكنها وقفت حائرة منذهلة لا تعلم إذا كانت قد خدعتها عيناها لأنها رأت ذلك اللص بملابس الضباط . فلما ثابت من ذهولها كان ساندريجو قد دخل إلى قصر بمبو فوقفت عند ذلك الباب تنتظر خروجه .

وبعد نصف ساعة خرج ساندريجو وسار فاقتفت أثره وهي لا تعلم ماذا تصنع إلى أن وقف عند باب منزله وهمّ بالدخول إليه فالتفت منذهلاً إذ شعر بيد لطيفة قد وضعت على كتفه ورأى جوانا فقال : أنتِ هنا في فينيسيا ؟ قالت : نعم ، وقد أتيت لأحدّثك يا ساندريجو .

— إذن ادخلي أيتها العزيزة لتعلمي مقدار سروري بلقياك .

فدخلت وإياه وأجلسها فقال لها بلهجة الهازىء : ألا تزالين في حراسة الشيوخ والفتيات ؟ إني أهنئك بهذه المهمة ولكني أعجب لفتاة جميلة مثلك لا تزال في نضارة شبابها كيف تقضي على ذلك الشباب وتدفن نفسها حية كي تخدم المجانين . ولكنك أتيت أخيراً وإذا شئتِ أجعل لك مركزاً هنا فلا تعجبي لقولي

الذي لا ينطبق على ظواهر منزلي الحقيرة ولا تغترّي بالظواهر فإنه لا يمضي زمن وجيز حتى أبلغ ما لم يكن يخطر في بال . وكل ما أرجوه أن لا تكوني حاقدة عليّ فقد قضت عليّ السياسة أن أتصرف معك كما تصرفت واعلمي أني قادر على إفادتك فإذا شئتِ أدخلتك إلى منزل امرأة شهيرة فلا تجدين عندها إلا الخير ، أتقبلين ؟

فأجابته قائلة : ساندريجو ، إني ما أتيت إلا لأنقذك .

– ممن تنقذينني ؟

– من رولاند كانديانو .

فوقف ساندريجو وقد توقّف الحقد في عينيه وقال : رولاند كانديانو؟ ذلك الرجل الذي أهانني وداس كبريائي؟ إني أكرهه بملء جوارحي ، ويسرّني أنك أتيت لإنذاري يا جوانا بعد أن أسأت إليك تلك الإساءة ، فقولي لي يا جوانا كلّ ما تعلمينه عنه فقد عرفت نيّاته دون شك وأين هو مختبىء فلا تمضي ساعة حتى يبيت قتيلاً .

– كلا يا ساندريجو ، إنك لن تقتل رولاند .

– لا أقتله أبداً ؟

– كلا !

– ومن يمنعني ؟

– أنا !

– إنك مجنونة دون شك .

– تفرّس في وجهي ، أترى مني ما يدل على الجنون ؟

– إني لا أفهم ما تريدين ، فلقد قلت لي إنك أتيت لإنقاذي من رولاند ثم تقولين إنك تمنعينني عن قتله ، فكيف يتفق هذان القولان ؟

– لقد قلت ما قلته يا ساندريجو فأصغِ إليّ واعلم أنه إذا قتلك رولاند متُّ أنا يأساً ، ولذلك أتيت لأنقذك . ولكنك إذا أردت قتله فاقتلني أنا قبله . فضحك ساندريجو وقال : إني لا أفهم شيئاً من أقوالك لأنك تريدين ولا تريدين في وقت واحد ، فأوضحي ما تقولين .

– ذلك لأني لا أريد أن تموت ولا أن يموت هو أيضاً ، فاعذرني يا ساندريجو إذا كنت لا أحسن التعبير عن أفكاري فلا تنظر إليّ هذه النظرات ، ألا ترى اضطرابي ؟

– ولكني ألم أقل لك إني أكره هذا الرجل كرهاً لا تصفه الأقلام ، وإني لا يهنأ لي عيش إلا بقتله ، فإذا كنت لا تريدين أن أقتله فقولي لي على الأقل كيف تريدين إنقاذي ؟

– ذلك لأني أعلم عن رولاند ما لا تعلمه وإذا كنت قد عرفت شيئاً فقد فاتتك أشياء. ألا ترى ذلك الإعصار حين يثور فيجرف كلّ ما يمرّ به في السهول ؟ هكذا رولاند ، فإنه سيمرّ بفينيسيا مرور الإعصار والويل لمن يقف في سبيله ، فلماذا تريد أن تتصدّى له يا ساندريجو ؟ إني أضمن لك بأنه لا يمسّك بسوء شرط أن لا تقف في سبيله .

– لقد فهمت الآن !

– ماذا فهمت ؟

– فهمت أن رولاند أرسلك إليّ لأنه يخافني .

– إنك منخدع يا ساندريجو ، فإن رولاند لم يكلفني كلمة عنك بل أنا التي كلمته وقرأت بين عينيه أنه يعفو عنك إكراماً لي بشرط أن تنسحب من المعركة .

– أي بشرط أن أبرح فينيسيا ؟

– نعم ، هو ذاك . فلنسافر معاً يا ساندريجو ، أتريد ؟ فإني أسافر معك إلى حيث تشاء وأكون معك كما تشاء .

– أأتيت إلى فينيسيا لتقترحي عليّ مثل هذا الاقتراح ؟

– نعم !

– إن اقتراحك صالح مقبول ولكن يوجد مانع يحول دون تنفيذه .

– كرهك لرولاند ، أليس كذلك ؟ واأسفاه ، إني كنت أود أن تعرفه حق العرفان .

– إذن كان يزيدني كرهاً ، ولكن ليس الكره الذي يحول دون اقتراحك .

– إذن ماذا ؟

– الحب !

فصعقت جوانا لهذا التصريح ومضى ساندريجو في حديثه فقال : نعم ، إني محب وإني محبوب ، ويوم السبت سيعقد قران القائد ساندريجو في كنيسة سانت مارك ويحضر حفلة قرانه نبلاء فينيسيا . والآن ، إذا أردت أن تعرفي خطيبتي فاعلمي أنها تدعى بيانكا .

فسقطت جوانا على كرسيها واهية القوى وأتمّ ساندريجو حديثه فقال : أرأيت كيف أني لا أستطيع أن أبرح فينيسيا في الوقت الحاضر ؟ فاذهبي الآن يا جوانا فقد أوشك أن يهبط الظلام ومتى تزوجت وسكنت في منزلي الجديد سأستقبلك على الرحب .

وكان هذا اللص السفاك يكلّم تلك المنكودة وهو يشاور نفسه بين أن يبقيها عنده أسيرة أو يفتك بها كي يمنعها عن أن تقابل رولاند . ولكن خطر له أنه إذا تركها تنصرف يتعقب أثرها ويعلم أين يقيم رولاند إذ لم يكن لديه شك لفرط غروره بنفسه أن رولاند يخافه وأنه أرسل جوانا إليه . أما جوانا فإن كلمات ساندريجو ضعضعت حواسها فقالت له : إلى اللقاء القريب ! ثم انصرفت وهي تتمتم بكلمات لا تفهم .

وأما ساندريجو فإنه خرج في أثرها إلى أن عرف المنزل الذي دخلت إليه . فانصرف وعاد بعد نصف ساعة يصحبه جاسوس فدلّه على المنزل وقال له : إنها تقيم هنا فيجب أن تعرف أين تقيم بالتدقيق كي لا أجد صعوبة عند الدخول إليها ، فأجابه الجاسوس قائلاً : ذلك سهل . قال : حسناً ، فقف بي موقف المراقبة وسأرسل لك معيناً فإذا خرجت فاتبعها وإذا زارها أحد فأرسل إليّ في الحال مَن يخبرني . ثم تركه وانصرف بينما كانت جوانا في غرفتها الصغيرة تشهق بالبكاء .

*

بينما كانت جوانا تبكي وتنتحب وتنظر واليأس ملء قلبها إلى

تلك الهوّة العميقة التي فُتحت أمامها كان ساندريجو قد دخل إلى منزله ووقف يصلح شعره أمام مرآته ويتأنق في لباسه. حتى إذا أتمّ لبس ثوبه الجديد قال في نفسه: من يستطيع أن يعلم أنه يوجد في هذا الثوب ذلك اللص السفاك ساندريجو! كلا، حتى أن رفاقي القدماء قد لا يعرفونني. ولمّا أتمّ لباسه ولبس قبعته نظر إلى المرآة نظرة أخرى وابتسم وقال: لا شك أن النصر سيكون حليفي وسأظفر بقلب بيانكا في حفلة الليلة.

ذلك أن ساندريجو كان كسواه من الشبان الأغرار الذين منّت عليهم الطبيعة بشيء من الجمال فإنهم يحسبون أن النساء رهن لحظة من لحظاتهم. على أن قتله لرولاند كان أسهل من فوزه برضى بيانكا.

ولم يكن ساندريجو وحده يهتم بهذه الحفلة التي ستعقد فيها خطبته هذه الليلة في قصر أمباريا بل إن رولاند أيضاً كان يودّ حضورها فقد لبس ملابسه ولم يغيّر زيّه ولم يتنكر فلا ندري أكان ذلك لإفراطه في البسالة أم أنه كان له قصد خاص!

غير أنه لبس برقعاً من المخمل الأسود حسب العادة في تلك الأيام وخرج من المنزل في الساعة الحادية عشرة والنصف، أي بعد بدء الحفلة بساعتين. ولمّا خرج من المنزل إلى الردهة وجد كثيرين من الرجال مجتمعين فيها، فقال لهم: هل هيّأتم رجالكم؟ قالوا: نعم، فإنهم في مراكزهم منذ ساعتين.

— حسناً، فسأخرج من الحفلة في الساعة الثانية تقريباً بعد انتصاف الليل. أمّا أنتم فلا تصنعوا شيئاً، فإذا بلغت الثانية

والنصف ولم تروني فابدأوا الهجوم.

فانحنى أولئك الزعماء بملء الاحترام وتفرّقوا بحيث لم يبقَ غير سكالا برينو، فقال: أتظن يا مولاي أننا نفوز؟ فقال رولاند: إطمئن يا سكالا برينو، فإن القصر سيطوقه مائتا رجل وهذا العدد كاف لاختطاف فتاة. قال: لقد أصبت يا مولاي، فإن ثقتي بك لا حدّ لها، وإني أعتقد اعتقاداً كبيراً أنك سترد لي ابنتي، ولكن قلبي يحدثني بمصاب لا أعلم ما هو.

— لا تخف شيئاً، فقد علمت أن بيانكا كانت في قصرها في الساعة الثامنة من هذه الليلة.

فأطرق سكالا برينو هنيهة مفكراً ثم قال: لقد عهدت يا مولاي إلى كل من رجالنا بمهمة يقضيها إلا أنا. فقال رولاند: ليس من مهمة أعهد إليك بها سوى أنه يجب أن تقف أمام قصر أمباريا إلى الساعة الثانية والنصف.

— لماذا لا تريد أن أعمل شيئاً؟

— لأنك أب، وقد يدفعك الحنوّ إلى فعل ما يُفسد عملنا، فدعني أقضي هذه المهمة مع رجالنا وهلمّ بنا الآن فقد حان الأوان.

*

ولنعد الآن إلى جوانا، فإن هذا النبأ الذي تلقته من فم الذي تحبه عن بيانكا قد صعقها فاسترسلت إلى البكاء حتى إذا نضبت دموعها قالت في نفسها: «كلا، إنه لن يتزوّجها وذلك مستحيل». ثم خرجت من منزلها هائمة على وجهها وهي تردّد

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

هذا القول كالمجانين. وما زالت تسير حتى رأت أنها بلغت شاطىء الترعة الكبرى وهناك لقيت بحاراً فقالت له: هل لك أن تدلّني على قصر أمباريا؟ فمدّ البحار يده مشيراً إلى قصر يبعد نحو مائة خطوة. فقالت: أهذا هو قصر أمباريا؟ قال: نعم، هو ذلك القصر المتلألىء بالأنوار إذ يظهر أن لهذه المرأة بنتاً وأنها تحتفل الليلة بعقد زواجها.

فارتعشت جوانا وسارت إلى ذلك القصر.

أم أو محظية

*

كانت أمباريا قد عقدت هـذه الحفلة بأمر من بمبو فجاءها الناس على اختلاف الطبقات وكانت حفلة نادرة المثال فإن المحظيات في ذلك العهد كان لهن منزلة كبيرة ولا سيما من كانت مثل أمباريا. وكان يظهر عليها في تلك الليلة أنها متأثرة تأثراً عظيماً فإنها كانت تضحك ثم يصفرّ وجهها ثم تقطّب حاجبيها ثم تعود إلى الضحك وكل ذلك لغير سبب ظاهر.

ولم تكن قد رأت بنتها منذ ثلاثة أيام، فإن الغيرة كادت تمزّق قلبها الفاسد. وفي الساعة الخامسة من تلك الليلة دخلت

إلى بلتها تتبعها خادمة تحمل صندوقاً صغيراً، فأمرت الخادمة أن تضع الصندوق في الغرفة وأن تذهب لإحضار البقية. فامتثلت وعادت بعد هنيهة بثوب من الحرير الأبيض فوضعته على المقعد. أما بيانكا فإنها كانت تنظر إلى هذه الملابس نظرات تشفّ عن الرعب.

فلما انصرفت الخادمة دنت أمباريا من بلتها فقبّلت جبينها ثم فتحت الصندوق فأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ الثمين ومشطاً مرصّعاً باللؤلؤ أيضاً ونطاقاً مرصّعاً بالألماس ثم أخرجت تاجاً صغيراً رُصّع بالحجارة الثمينة المختلفة فأخذت تلك الحلى بيدها وقالت: كيف ترين هذه الحلى يا ابنتي؟ قالت: إنها من أبدع المجوهرات.

— ولكن جمالها يزيد متى كانت عليك.

— عليّ أنا؟

— نعم يا ابنتي، فإني أحب أن تلبسيها كي أرى كيف تكون مع هذا الثوب الأبيض.

فوقفت بيانكا وقـد تبيّن الذعر في عينيها وقالت: ماذا تريدين مني يا أماه؟ إني أحب أن أعرف الحقيقة مهما كانت هائلة.

— أتعدّين أعظم حفلة أحييها في فينيسيا من الأمور الهائلة؟

— إذن لقد أحضرت لي هذه المجوهرات وهـذا الثوب كي أحضر تلك الحفلة التي سمعت الخدم يتحدثون بها؟

— نعم يا ابنتي، فإني أريد أن تفتني الأبصار وأن تهيجي قرائح الشعراء. واعلمي يا بيانكا أنك قد تجاوزت السنّ الذي

تنحصر فيه البنات في المدارس وفي الغرف وآن لك أن تظهري أمام الناس ، فإن هذه العزلة تقتلك وأنا لا أريد لك إلا الحياة فإنك تعلمين أنك ابنتي الوحيدة وأنك كل ما أحبه في هـــذا الوجود .

وبعد أن قالت لها هذا القول وقفت تتمعّن في جمالها فاصفرّ وجهها فجأة وقالت : نعم ، إن جمـــالك بديع فتّان لا يلبث الناظر إليك أن يراك حتى يتولّه في حبك . وأما أنا ...

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وقالت : ما بالك يا أماه ، وما هذه الأقوال الغريبة التي أسمعها منك ؟ إنك تعذبينني .

فبذلت أمباريا جهداً عنيفاً حتى تمكنت من ضبط نفسها ، فضحكت وقالت : الحق أني مجنونـــة فاعذريني يا ابنتي فإني متأثرة لفرط سروري بك ، فإن هذه هي المرة الأولى التي تجتمعين بها مع الناس .

ثم أشارت إلى المقعد وقالت : أنظري إلى هذا الثوب الأبيض يا بيانكا ، فقد اعتنيتُ به عناية خاصة وستظهرين به كالملكات ولكن كاد يفوت الأوان يا ابنتي وسأسلمك إياه بيدي . فتأوّهت بيانكا وقالت : إني لن أحضر هذه الحفلة يا أماه .

فارتعشت أمباريا وخامر قلبها شيء من الرجاء ولكنها مع ذلك لم تجد بدّاً من إقناعها بضرورة حضور الحفـــلة ، فإن عواطف الأمومة وعواطف الغيرة كانت تتنازع في قلبها . وقالت بيانكا : إنك تعلمين يا أمي شدة نفوري من هذه الحفلات فلماذا تحاولين إكراهي على حضورها وماذا أعمل بحفلة لا أعرف أحداً

من أهلها ؟

فأجابتها بصوت مختنق وهي تتمنى أن تتمكن من إقناعها : ولكن ذلك لا بدّ منه يا ابنتي .

— لا أفهم ما تقولين ، وهذا الذي يعذبني . فقد أشكل عليّ فهم مقاصد الناس حتى مقاصد أمي ، وقد آن لنا أن نتفاهم يا أماه بملء الاحترام .

— تكلمي يا ابنتي وسليني عما تشائين أجبك .

— نعم ، فإني أحبّ أن أعلم قبل كل شيء لماذا تقولين إن حضور هذه الحفلة لا بدّ منه ولم تقولي هـذا القول قبل اليوم . ولماذا كنت تحجبينني عن العيون حتى أوشكت أن تسدّي عليّ منافذ النسيم والآن تريدين أن أظهر في قاعتك لجميع الناس .

— ذلك لأن اليوم غير أمس ، وقد تجاوزتِ عهد الحداثة فأصبحتِ صبية وغداً تصبحين امرأة حسب النظام العام .

فاصفرّ وجه بيانكا وقالت : ذلك يدلّ على أنك تريدين تزويجي .

— هو ذاك .

— وعلى ذلك فقد اخترتِ لي الزوج ؟

— وهذا أكيد أيضاً .

— وإذا قلت لكِ إني لا أريد أن أتزوج وإني أرجوك أن تذهبي بي من فينيسيا ؟

— أجيبك أن زواجك ضروري .

— ولمن ، ما زلت لا أريد الزواج ؟

– لي أنا .

فساد بين الأم والبنت سكون يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة . فأطرقت أمباريا برأسها وكانت عيناها ترسلان شراراً خلافاً لبيانكا ، فإنها كانت تراقب أمها بصمت السكينة . ولكن علائم صحة العزيمة كانت بادية عليها ، فإن نبأ زواجها قد أثر بها تأثيراً عظيماً . ولكنها علمت أنه لا يزال لديها أمور كثيرة يجب أن تعلمها فتمكنت من ضبط نفسها وقالت : أرى يا أماه منذ عهد بعيد أن لديك أموراً خفية تحاولين كتمانها عني ، فإني عشت كل مدة حداثتي وحدي ، ولما جئت إليك جعلت حاجزاً منيعاً بيني وبينك . ومع كل ذلك أشعر أنك تحبينني وأني أحبك . ثم إنك لا تخرجين بي للنزهة إلا حين هجوم الظلام ، وتبرقعين وجهي ووجهك أيضاً ببرقع كثيف كأنك لا تريدين أن يعرفك أحد حين أكون وإياك . وهنا في نفس هذا المنزل أعيش معتزلة منفردة لأسباب لا أعلمها حتى سئمت هذا العيش وهذه الألغاز ، ولكن ليس هذا كل شيء فإنك إلى الآن لم تقولي لي شيئاً عن أبي .

– أبوك ؟

– نعم ، أليس لي أب ؟

فاضطربت أمباريا اضطراباً شديداً إذ لم يخطر في بالها أن ابنتها ستسألها يوماً عن أبيها ، فنسيت في تلك اللحظة ساندريجو وبمبو والحفلة وبدت على وجهها صفرة الخجل وهي لم تخجل في حياتها فقالت لها : أسكتي يا بيانكا ، فلماذا تريدين أن تخجليني؟

تأنف أن تسمع مثل هذه الأقوال ولا تحترم قول غرام يخرج من محظية فيخدش سمعك يا حضرة النبيل . إذن فاعلم أن بيانكا تحبك وليس هذا كل شيء أيها العزيز .. وهنا ضحكت ضحكة المنتقم ثم تابعت تقول : إنك تحب بيانكا ، ولكن يوجد رجل آخر يحبها وهو من أخلص أصدقائك إذ أنه بمبو الذي اختطفتها منه مرة ! أما وقد عرفت ذلك الآن فتعذب كما عذبتني ... أتعلم أين هي بيانكا ؟ أين هي تلك الفتاة النقية الطاهرة التي لا عيب فيها إلا أنها ابنة المحظية ؟ إنها الآن بين ذراعي بمبو وأنا التي ألقيتها بين ذراعيه ، فابحث عنها واظفر بها إذا استطعت .

وعند ذلك سكتت وهي عرضة لنوبة انفعال كانت تهز أعضاءها . فغضب رولاند غضباً شديداً وجرد خنجره وهو يقول في نفسه : لقد دنت ساعة هذه المرأة ، فلتمت ! ولكنه ما لبث أن أغمد خنجره وقال في نفسه : كلا ، لست أنا الذي يجب أن يعاقبها على هذه الجريمة .

وقد نظر إلى أمباريا نظرة صعقتها ثم خرج وهو يقول : مسكينة بيانكا ! إني أتيت لنجدتها بعد فوات الأوان . ثم خرج من القصر وأسرع إلى أحد زعماء عصاباته فقال له :

– سر بعشرين رجلاً إلى قصر الكردينال وادخل إليه بالرضى أو بالعنف فإذا وجدت بمبو فيه فجئني به إلى بيت الجزيرة ميتاً أو حياً .

فأسرع الزعيم ممتثلاً وتوارى عن الأنظار .

وقد وقف رولاند حزيناً منقبضاً يفكر في هذه الفتاة

المنكودة ويقول في نفسه : إني مـــا أبقيتُ على أمها إلا لأنها تحبها . أمـــا وهي التي دفعتْها إلى بيبو ، فلتمتْ ، فإنها لا تستحق الحياة .

وعند ذلـك وضع برقعه على وجهه وارتدى بردائه بحيث لم يعد يعرف وسار إلى حيث كان سكالا برينو . فلما رآه سكالا برينو قال له : ماذا حدث أيها الرئيس ؟ قال : اتبعني .

وقـــد أخذ يسير على شاطىء الترعة وهو يفحص القوارب الراسية فيها وسكالا برينو يتبعه دون أن يجسر على سؤاله ، إلى أن وقف أمام سفينة جميلة عظيمة الإتقان فقال له : أترى هذه السفينة ؟ قال : نعم .. ولكن بيانكا ؟ قـال : صبراً ، واعلم أن هذه السفينة للحظية أمباريا ، أسمعت ؟

– نعم سمعت ، ولكن قلبي يحدثني بمصاب .

– لقد قلت لك صبراً ، فاصغ إلى كل ما أقوله .

– إني مصغ .

– إذن فاعلم أن المدعوّين سيخرجون قريباً من قصر أمباريا وتسود السكينة في ذلك القصر ، ولكنك تبقى في موقفك فلا تفارقه .

– هنا ؟

– هنا أو في غير هذا المكان كما يوحى إليك ، فعندما ترى الجميع قـــد انصرفوا ترى أمباريا آتية إلى هذه السفينة مع ساندريجو ، أفهمت ؟

– نعم ، ولكن فاعلم إذن أن أمباريا وساندريجو سيذهبان

للتنزه في هذه السفينة ولا أقول لك شيئاً بشأن هذا الرجل وهذه المرأة فإن البقية عليك . أما الآن فافترض أنـــه حدثت نكبة وأن ابنتك لا نستطيع أن نردّها إليك هذه الليلة ...

– إني أؤثر يا مولاي أن أعرف الحقيقة مهما كانت هائلة فإن بيانكا ماتت أليس كذلك ؟

– كلا ، إنها لم تمت . ولكن اسمع .

وعند ذلك أخذ يده بين يديه وجعل يحدثه بصوت منخفض فيسليه ويعزيه حتى إذا أتمّ حديثه ووقف سكالا برينو على جلية الأمر لم يبكِ ولم يتنهد بل قال : حسناً يا مولاي .

فابتعد رولاند عنه وذهب فاختبأ وراء شجرة وجعل يراقب فرآه قد اقترب من السفينة التي دلّه عليها وجعل يحادث البحار الذي كان فيها فقال في نفسه : لقد فهم قصدي وقـد قُضي على أمباريا القضاء المبرم .

وعند ذلك انصرف وذهب إلى جهة قصر الكردينال دون أن يرى هو ، ودون أن يرى سكالا برينو أيضاً ، امرأة واقفة على الرصيف تنظر إليهما .

أما هذه المرأة فقد كانت جوانا .

*

وأما سكالا برينو فإنه دنا من سفينة أمباريا . وكان من عادة أمباريا أن تعيّن لسفينتها بحاراً من النوبيين السود ، غير أنها حين كانت تحاول أن توغل في البحيرات تختار رجلاً من الأشداء

الأقوياء كي يحميها عند الاقتضاء من القرصان . وكان هذا الرجل جالساً في مؤخرة السفينة ينتظر والنعاس قد دبّ في جفنيه . فناداه سكالا برينو وقال له : لي كلمة أقولها لك من قِبَل السيدة أمباريا . فأسرع الرجل إليه وقال له: ماذا تريد؟ قال: لا أعلم ، ولكن إحدى نساء السيدة أمباريا تنتظرك عند باب القصر . قال : ماذا تريد مني ؟ قال : خير طريقة لمعرفة ذلك أن تذهب إليها . فقال البحّار : لقد أصبت . وسار في طريق القصر وسكالا برينو يصحبه .

وكان الظلام شديد الحلك فلم يسر البحار بضع خطوات حتى انقضّ عليه سكالا برينو فألقاه إلى الأرض وصفّر صفيراً خاصاً فأسرع إليه نحو عشرة رجال فقال لزعيمهم : خذوا هذا الرجل ولا تسيئوا إليه ولكن لا تطلقوا سراحه قبل صباح غد. فقبضوا عليه ووضعوا الكمامة في فمه وانصرفوا آمنين .

وعند ذلك ذهب إلى السفينة بعد أن أخذ رداء البحار ومشعله وجلس في مؤخر سفينة أمباريا مكانه ووضع رأسه بين يديه فكان يظهر أنه نائم والحقيقة أنه كان يفتكر بأمور هائلة.

*

عندما ثابت أمباريا إلى رشدها رأت أن رولاند قد انصرف فقالت في نفسها إنه ذهب للتفتيش عن بيانكا ومحاولة الوصول إليها قبل بمبو ولكنه سيضلّ سعياً فإنه لا يعرف الطريق التي سارت بها خلافاً للكردينال فإنه يعرفها .

وقد فرحت فرحاً وحشياً حين خطر لها أن ابنتها ستقع في قبضة بمبو وأن رولاند يطوف باحثاً عنها في فينيسيا واليأس ملء قلبه . وعند ذلك قامت إلى مرآتها فأصلحت وجهها وعادت إلى قاعاتها فخطر لها أن رولاند قد يكون باقياً في القصر وأنها تستطيع القبض عليه . ولكنها رأت أن ذلك محال إذ لا يمكن أن يبقى في قصرها بعد أن أظهر لها نفسه فجعلت تسائل نفسها قائلة : ترى ، لماذا لم يبطش بي بعد أن جرحته هذا الجرح الهائل ؟ ألعلّه أشفق عليّ ؟ أم يريد أن ينتقم مني انتقاماً أشدّ من القتل ؟

وعادت إلى الاختلاط بالناس إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث تفرقوا فتوكأت على ذراع ساندريجو وخرجت به إلى السفينة فصعدا إليها ولم ينتبها إلى سكالا برينو إذ حسباه البحار فإنه كان لابساً رداءه وهو في مؤخر السفينة فقالت : سر بنا في عرض البحيرات إلى حيث تشاء .

فسار سكالا برينو بتلك السفينة يمخر العباب وجلس العاشقان تحت تلك الخيمة وقد أرخيت ستائرها الحريرية وتبرقع القمر بالغيوم كأنه خشي أن يرى ما كان يتوقّع أن يراه من المناظر الهائلة . وفي الوقت نفسه كان قارب حقير يتبع تلك السفينة الفخيمة إلى حيث سارت دون أن ينتبه إليه أحد .

ولبث العاشقان يتنزهان نحو ساعة في البحر وقد شغلا بما هما فيه عن مراقبة سكالا برينو الذي كان قد توغّل بهما حتى لم يعودا يريان المدينة . وعند ذلك قال ساندريجو لأمباريا : لنعدّ

إلى البرّ . فقالت بل لنقم هنيهة أيها الحبيب ! قال : ولكننا قد تأخرنا . قالت : ألم يسكرك الحبّ كما أسكرني ؟ وما علينا إذا تأخرنا ، بل ما علينا إذا بقينا كذلك إلى الأبد ؟

– ذلك لأني ...

– ماذا ؟ قل كلّ ما خطر لك .

– ذلك لأني أريد أن أرى بيانكا .

فارتعشت أمباريا فجأة لقوله الذي نبّه فيها عواطف الأمومة ولكنها كانت مضطربة اضطراباً عظيماً لفرار بنتها ولمطاردة بمبو لها ولظهور رولاند ولتلك الساعة التي قضتها مع ساندريجو وقد هاجت هذه العواطف المختلفة تأثيرها حتى كادت تجن فضحكت ضحكاً عصبياً وقالت : بيانكا ؟

فقلق ساندريجو وقال : نعم بيانكا . فخطر لها عند ذلك أن تبوح له بكلّ شيء وأن تستبقيه لها فقالت : أتريد حقيقة أن ترى بيانكا ؟

– نعم . ألا يحقّ لي أن أراها ؟

– ولكنها تكون نائمة في القاعة .

– لا بأس ، فهي تغفر لخطيبها هذا الخطأ ولا سيما حين تعلم أن قلقي عليها شديد ، فإني أريد أن أعلم لماذا لم تحضر الحفلة .

فضحكت ضحك المجانين وقالت : أتريد أن تعرف الأسباب ؟ حسناً ، فأنا أقولها لك . إنها لم تحضر لأنها تكرهك ولأنها تنذعر من مرآك ، فلِمَ تفتكر بها وهي تكرهك في حين أنت معي وأنا أعبدك ؟ إني أريد أن تكون لي بجملتك ولا

أريد أن تقطع الغيرة قلبي . وعند ذلك طوّقت عنقه بذراعيها العاريين ولكنه دفعها عنه وهو يقول : إني أريد أن أرى بيانكا .

فاتّقدت عيناها بشرار الغضب وعضت الغيرة قلبها فهاجت انتقامها وأثارت جنونها فضحكت ضحك المنتقم وقالت : إذا كنت تريد أن تراها فأسرع في أثرها ! فقبض ساندريجو على يدها وقال لها : ماذا تعنين ؟ قالت : أعني أنها ليست في فينيسيا وأنها هربت منك وأن بمبو يطاردها ولا بدّ أن تكون في حوزته الآن .

فزأر ساندريجو زئير الأسود الضواري وصدمها صدمة عنيفة ألقتها على الأرض . فابتسمت وقالت له : أقتلني . قال : أين هي أيتها الشقية ؟ تكلمي .

وقد قبض بيده على عنقها وحاول خنقها فقالت له : لا أعلم.

قال : وبمبو ؟ قالت : في طريق ميستر .

– في طريق ميستر ؟ لقد فهمت كل شيء .

وعند ذلك نهض عنها وأسرع إلى باب الخيمة فنادى البحّار قائلاً : ويحك ، أسرع بنا إلى البرّ .

وقد فتح ستائر الخيمة فمزّقها ولم يكد يرى البحار واقفاً في وجهه على نور القمر حتى صاح صيحة هائلة وقال : ماذا أرى ؟ أهذا سكالا برينو أم خياله ؟

فقال له سكالا برينو : بل هو بعينه أيها الفاجر الغادر . ثم طعنه بخنجره طعنة هائلة فاخترق الخنجر صدره وتركه مغمداً

بـه فهوى على ظهره قتيلاً وباتت قبضة خنجره في صدره تشبه شكل الصليب . ورأت أمباريا هذا المنظر الهائل والذعر ملء قلبها فلم يُفْهَمْ عليها ولم تستطع أن تصيح صيحة إذ كان مَثلُها مَثَل من يصاب في حلمه بالكابوس . وعند ذلـك رأت سكالا برينو يدنو منها فحلّت عقدة لسانها وقالت : رباه من هـذا ؟ أوالد بيانكا ؟

قال : نعم أنا هو أيتها الأفعى !

ولم يقل بعد ذلك كلمة بل إنه قبض على شعرها فجرّها بـه إلى طرف السفينة ، وهناك حملها بيديه القويتين ودفع بها إلى البحر فهوت إلى الأعماق . وقـد هوت السفينة لهذه الحركة العنيفة التي فعلها سكالا برينو وانقلبت ، وخرج صوتٌ على قيد بضعة أمتار يمزّق حجاب السكون . غـير أن سكالا برينو لم يسمع ذلـك الصوت فجعل يسبح حتى بلغ الشاطىء وتوارى عن الأنظار .

قبلة جوانا الاولى

*

إن ذلك الصوت الذي مزّق حجاب الفضاء خرج من قارب

صغير كان يقفو أثر قارب سفينة أمباريا . وذلك أن جوانا كانت واقفة في ذلك القارب وقـد رأت كل تلك الحادثة الهائلة التي لم تستمر أكثر من دقيقة دون أن تستطيع إنقاذ ساندريجو فصاحت تلك الصيحة التي لم يسمعها سكالا برينو لفرط اضطرابه .

وكانت قد أتت وهي نفسها لا تعلم مـا تعمل ولكنها كانت موقنة من أنه ستحدث فاجعة تقضي على رجائها القضاء المبرم ، فإنها جاءت إلى فينيسيا وليس لهـا غير قصد واحد وهو أنقاذ ساندريجو ومنعه من الاعتداء على رولاند .

وقد عرف القراء أنها قد عرفت من ساندريجو نفسه أنـه يحب بيانكا فهربت إلى قصر أمباريا ليلة الحفلة وعوّلت على أن تدخل إليـه بالسر فتقابل بيانكا . ولكنها لم تلبث أن رأت سكالا برينو واقفاً عند باب القصر وقفـة حملتها على الريبة فاضطربت خطتها لوثوقها أن سكالا برينو إنمـا كان كامناً لساندريجو كي يقتله . وقد وقفت عند ذلك لا تفارق سكالا برينو لحظة وهي تتعذب عذاباً شديداً لغيرتها من بيانكا وخوفها على ساندريجو . ثم رأت أن سكالا برينو قـد أبعد البحار وأقام مكانه في السفينة فقالت في نفسها : لم يبق شك أن أمباريا ستتنزه في هذه السفينة مع بيانكا وساندريجو ، ولذلك أسرعت إلى قارب صغير فأقامت فيه تنتظر كما كان ينتظر سكالا برينو ، إلى أن انتهت الحفلة ورأت ساندريجو قادماً إلى السفينة وأمباريا تتوكأ عليه بدلال فاشتدّ خفقان قلبها وقالت : ويح له ، إنـه يحب الأم ويحب البنت ويحب كل حسناء تبدو له إلا أنا وما ذلك

إلا لأني صادقة في حبه .

وجعلت السفينة تسير ببطء وجوانا في أثرها وهي تكاد تجن لاضطرابها فإنها كانت تارة تهمّ أن تنادي ساندريجو وتحذّره وتارة تعقد الغيرة لسانها فتثنّ أنين الموجع وتطرق برأسها فتبكي، إلى أن عادت تلك الحادثة التي تقدمت وبلغ سكالا برينو الشاطىء سابحاً فأسرعت إلى تلك السفينة التي انقلبت وهي تصيح والهة فتنادي ساندريجو دون أن يجيبها أحد . لقد نسيت عند ذاك من هو ذلك الرجل ولم تعد تذكر غير غرامها به فتقول : ويلاه لقد مات قتيلاً فأي رجاء بقي لي بعد في الحياة ؟

وعند ذلك رأت على ضوء القمر ثوب امرأة أبيض عائماً على سطح الماء فأسرعت إليه وجذبته حتى تمكنت من حمله بين فيه إلى السفينة . وهناك ركعت بجانب أمباريا وحاولت أن تخنقها وقد أصيبت بما يشبه الجنون . وعند ذلك شعرت أن أمباريا قد تحركت ثم رأتها فتحت عينيها وقالت : من أنت ؟ قالت أنا التي أحبه .

– تحبين من ؟

– ساندريجو .

وقد هاج ثأرها عندما ذكرت اسمه وعاودها فكر القتل ، ولكنها رأت أن أمباريا قد ضحكت ضحكاً عصبياً وقالت : تحبين ساندريجو ؟ هذا هو .. انظري .

فنظرت المنكودة إلى الجهة التي أشارت إليها فرأت على ضوء القمر جسم ساندريجو يتمرجح فوق سطح الماء قرب السفينة

المنقلبة فألقت بنفسها إلى الماء وبلغت الجثة فطوّقت عنق ساندريجو بذراعيها بحيث امتزج الجسمان ولم يظهر منهما فوق الماء غير الرأسين . وعند ذلك وضعت فمها على تلك الجثة الباردة بحنوّ لا يوصف وقبّلته تلك القبلة الأولى فكانت الأخيرة وهوى الجسمان إلى الأعماق .

أمباريا

*

كان سكالا برينو قد ألقى بنفسه إلى المياه ساعة انقلاب السفينة وسار سابحاً حتى بلغ الشاطىء فذهب إلى بيت الجزيرة.

وكان رولاند ينتظره ، فكان أول ما قاله سكالا برينو أنه سأله عن بلته . فأجابه رولاند قائلاً : إننا لم نعلم شيئاً بعد عنها فقد بحثنا في منزل الكردينال فلم نجدها فيه . فأطرق سكالا برينو برأسه إطراق القانطين ولم يقل كلمة فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له : تشجع أيها الصديق فإن بيانكا قوية صادقة العزيمة فلا خوف عليها من بمبو وسنجدها كما فارقناها. والآن قل لي ماذا صنعت بساندريجو ؟

– قتلته .

– وأمباريا ؟

– أغرقتها .

فجعل رولاند يتمعّن بوجه هذا الرجل الذي يخبره بهذه الأسرار الهائلة بملء السكينة كأنه يروي رواية عادية .

*

أما سكالا برينو فإن كان صادقاً بشأن ساندريجو فقد كان مخطئاً بما رواه عن أمباريا فإنها لم تغرق كما توهّم وقد رأينا جوانا أنقذتها . فلما غرقت جوانا مع ساندريجو بقيت أمباريا وحدها في القارب ورأسها بين يديها لا تعي شيئاً ولا تفتكر بهذه المرأة، وجعلت الأمواج تقذف القارب وتعيده إلى الشاطىء من تلقاء نفسه .

ولما انتبهت من سبات غفلتها كان الصبح قد أشرق والقارب قد بلغ الشاطىء فانتبهت ونظرت إلى ما حولها فرأت بعض الناس ينظرون إليها من الشاطىء نظرات الاندهال فبذلت جهداً عنيفاً حتى نسيت ما مرّ بها وتمكنت من تسكين اضطرابها. وعند ذلك دنت منها إحدى النساء اللواتي كنّ على الشاطىء فقالت لها : هل السيدة سقطت في الماء ؟ قالت نعم ، هل يوجد بحار يستطيع إيصالي إلى منزلي ؟

فأسرع رجل إلى قاربها وقال لها : إني لست بحاراً يا سيدتي ولكني أستطيع إيصالك فإلى أين تريدين أن تذهبي ؟ قالت : إلى قصر أمباريا .

وجعل القارب يسير ببطء وجزعها يشتد فقالت للرجل : أرجوك أن تسرع السير وهناك أكافئك خير مكافأة . قال : إن مشاهدتي ذلك الجمال الذي تعجب به إيطاليا بأسرها خير جزاء لي . فنظرت أمباريا إليه نظرة الفاحص فرأته لابساً ملابس تدلّ على الفقر فافتكرت هنيهة بماذا يجب أن تكافئه إلى أن خطر لها خاطر فانتزعت مشطاً من شعرها مرصعاً بالحجارة الكريمة فدفعته إليه وقالت : إني لا أكافئك بشيء لكونك أوصلتني ولكني أرجو أن تقبل مني هذا التذكار مكافأة لك عما قلته لي .

فأخذه الرجل شاكراً واندفع يجذف فجعلت أمباريا تنظر إلى القصور التي تمر بها إلى أن مرّت بقصر ألتياري فرأت امرأة واقفة في نافذة مفتوحة تنظر نظرات تشفّ عن السويداء . فأسرعت وأدارت وجهها وهي تقول : ويلاه ! إنها هي ... ليونور ... رحماك أعفني عني !

وبعد هنيهة وصلت إلى قصرها وهناك غيّرت ملابسها وعالجوها بالاستدفاء ثم نهضت بعد الظهر وهي نشيطة كعادتها وقد نسيت أو تناست كل ما مرّ بها فلم تعد تخاف غير أمر واحد ، وهو أنها كانت تتوقع في كل لحظة أن ترى رولاند أو سكالا برينو داخلاً إليها .

ولم تكن تفتكر بشيء غير هذا . فإن بنتها تمثل لها كإنسان عرفته من زمن بعيد ولم تكن تعجب إلا لأمر واحد وهو أنها كيف تحنّ على بنتها هذا الحنان وهي تكاد الآن لا تذكرها

وباتت تشبه في قلبها نباتاً غُرس في أرض قاحلة .

وكذلك بمبو وساندريجو فقد ذهبا من مخيلتها وباتت تذكرهما كما يذكر المرء حلماً بعيداً بحيث لم يبقَ ماثلاً لها غير رولاند كانديانو فجعلت تبكي بكاءً أليماً . وعرفت أنها منذ أتت إلى فينيسيا لم تكن تحبّ حباً خالصاً غير رولاند وأنها لا تزال تهواه . ومن عجيب أمرها أنها كانت تحبه بقدر ما تخافه ، فهي قد تبذل حياتها في كلمة غرام تقولها له ولكنها تبذل كذلك كل غال كي لا تراه لشدة ذعرها منه .

ومما زاد اضطرابها أنها رأت ليونور في النافذة فعدّت هذه الرؤية إنذاراً لها بنكبة عظيمة وأقامت في غرفتها تفتكر بهذه الأمور الهائلة بينما كان رولاند يعتقد أنها ميتة . ثم خطر لها خاطر كان خلاصة إيحائها وهو أنها لم تجيء إلى فينيسيا إلا من أجل رولاند ، وأن رولاند يحتقرها ويكرهها دون شك ، وأنه قد يكون هو الذي سلح سكالا برينو ودفعه إلى ما فعل . وقد تجسّم هذا الخاطر في مخيلتها حتى تمكّن الرعب من قلبها ورأت أنه لم يبقَ لها بد من الفرار .

وعند ذلك نادت وكيلها وتداولت وإياه نحو ساعتين حتى إذا انتهت المداولة نهض وهو يقول: سأنفذ كل أوامرك يا سيدتي وسأحضر لك بنفسي ثمن القصر وما فيه من الأثاث والرسوم . قالت : ما عدا الرسم الذي أخبرتك عنه . قال : دون شك يا سيدتي ولم يبقَ عليّ الآن إلا أن أعلم إلى أية مدينة من المدن الإيطالية تريدين أن أوافيك . قالت : إلى روما .

وعند ذلك انصرف الوكيل وجمعت أمبارياكل ما كان عندها من الحلى الثمينة والذهب وبرحت القصر في ظلام الليل دون أن تصحب معها أحداً من خدمها ، فركبت قارباً واجتازت به البحيرات فلقيت وكيلها ينتظرها على الشاطىء وقد أعدّ لها مركبة فركبتها واجتازت بها إيطاليا مسرعة وهي تبذل الذهب بسخاء في الطريق كي لا يعيقها عائق عن مواصلة السير إلى أن وقفت بها المركبة في صباح يوم عند باب أحد القصور في روما فتنفست الصعداء وقالت : الآن نجوت .

وقد دخلت إلى قصرها وجعلت تتفقد غرفه بفرح لا يوصف وهو فرح الأمان بعد الخوف . وللحال أمرت بإصلاح ذلك القصر ووزعت رقاع الدعوة على فتيان روما تبشرهم بعودتها إليهم كما كانت تلك الحفلة التي أعدّتها في فينيسيا حفلة الوداع .

وفي الليل اضطجعت في سريرها وجعلت تناجي نفسها فتقول : أف لفينيسيا وترعاتها وشوارعها الموحلة وجواسيسها الأدنياء وخناجر رعاعها اللامعة وكل ما يرعبني فيها ! فلتسقط فينيسيا ولتحيَ روما وشمسها الذهبية وفتيانها الظرفاء ، فإني هناك لم أكن غير المحظية الحسناء وأما هنا فإني ملكة المحظيات .

وقد نامت تلك الليلة آمنة مطمئنة وقد ماتت في قلبها بيانكا وبمبو وساندريجو حتى رولاند كانديانو . لقد مات الجميع لديها من عشيقها دافيليا إلى قتلته بيدها إلى ساندريجو الذي قتل أمام عينيها . وكان قصرها من أجل قصور روما وهو مبني في شارع لا يقيم فيه غير النبلاء والكرادلة وكبار السيدات فأحدثت

عودتها تأثيراً عظيماً في تلك العاصمة . وبعد أربعة أيام أعدّت حفلة بديعة ظهرت فيها أمباريا بجمالها الرائع . حتى إذا انتهت الحفلة تفرّق المدعوون وهم يعجبون بلطف أمباريا وهي لاهية يفوزها فرحة بانتصارها. ولم يبقَ من بين جميع أولئك المدعوّين غير واحد فدنا منها بعد أن انصرف جميع الناس ونزع برقعه فصاحت أمباريا صيحة رعب قائلة :

– بمبو !

فانحنى الكردينال أمامها وقال : نعم أنا هو فما بالك ذعرت مني ؟ فاصفرّ وجه أمباريا وقالت له بصوت يضطرب : ماذا أتيت تعمل هنا ؟ هل بقيت بيننا علاقة ؟ قال : دون شك . قالت ما هي ؟ قال : ابنتك يا سيدتي !

*

لندع الآن أمباريا مع الكردينال ولنعدْ إلى فينيسيا بل إلى ضواحيها بل إلى تلك الغابة التي تركنا بيانكا فيها . فلقد تركناها وقد أدركها بمبو فذعرت ذعراً لا يوصف وتوهمت أنه رجل الغابات بينما كان بمبو ينظر إليها وقد فرح فرح الوحش الضاري وقد ظفر بالفريسة . أما بيانكا فإنها التفتت وهي تكاد تجنّ رعباً فعرفت بمبو ووثبت لفورها بعد أن كانت قد سقطت جاثية على ركبتيها وقالت له : من أنت ؟

فقال لها بلهجة المتعطف : كيف ذلك ؟ ألا تعرفين من أنا ؟

– نعم، لقد رأيتك مرة أو مرتين ولكني لم أعرفك فمن أنت؟

فتنهد بمبو تنهداً عميقاً وقال : إذا كنت تريدين معرفة اسمي فقد سمعته مراراً وسمعت الناس يلفظونه بملء الاحترام ، فإني أدعى بمبو وأنا كردينال وأسقف فينيسيا ، أي أني رجل عظيم ولا حدّ لسلطتي في فينيسيا. وقد جمعت من الذهب والجواهر ما لا يقدّر بثمن ، ولي قصر يناطح السماء فعندما يمرّ به الناس ينظرون إليه نظرات تشفّ عن الرعب والاحترام لأن جميع الناس يعلمون أن الدوج آلة في يدي فإذا أردت قطعت الرؤوس وإذا أردت فتحت أبواب السجون بكلمة تخرج من فمي .

– وماذا تريد مني ؟

– أريد أن أضع هذه السلطة وهذه الثروة تحت قدميك فأصغي إليّ أيتها الفتاة . لقد قلت لك مَن أنا وسأقول لك مَن أنت . إنك تدعين بيانكا وأمك تدعى أمباريا فأنت ابنة الصدفة والاتفاق إذ ليس لك أب يُعرف ، أي أنك لست شيئاً مذكوراً. وإن أمك تدعى أمباريا ، أتعلمين ما معنى هذا الاسم؟ إنه يفيد معنى الحب الفاسد والشهوات المنكرة، وإنه اسم امرأة تكون ملك الغني ، فهي مثال الخجل والحطة والعار ، وأنت ابنة هذه المرأة، فإذا رآك الناس لا يقولون هي ذي فتاة حسناء قد مرّت بل يقولون هذه هي ابنة أمباريا وهذا كافٍ للدلالة على أنك ابنة الخجل . ورجائي أن تكوني فهمت قولي ، فماذا تقولين ؟

فلم تجبه بيانكا بحرف ولكن عينيها كانتا تتكلمان عنها بأفصح لهجة تدل على الاحتقار .

فاضطرب بمبو وقال في نفسه : أأكون كردينالاً عظيماً وتحتقرني ابنة محظية ؟ ولكنها لحسن الطالع في قبضة يدي ! ثم قال لها: أما الآن فقد عرفتني وعرفت نفسك وعرفت أني بفضل سلطتي وثروتي أخضع أجمل النساء لإرادتي وأنك أنت لا ينظر إليك رجل نظرة إخلاص على جمالك فإنهم لا يحبون بنات المحظيات حباً صادقاً بل يشترونهن شراء كما يشترون أمهاتهن ، فكيف تسكتين بعد ذلك وقد قلت لك إني أتيت لأضع سلطتي وثروتي تحت قدميك ؟

فقالت بصوت سمعه بمبو : يا لله ما أشد هذا القبح !

ولم تقل هذا القول خصيصاً بل إنه خرج من فمها من تلقاء نفسه حتى أنها لم تكن تريد أن يسمعه .

فاصطكت أسنان بمبو ولكنه كظم غيظه وقال : نعم إني قبيح ، ولكن الجمال الحقيقي هو جمال النفس لا جمال الوجه وإنك لم تعرفيني بعد حق العرفان فقد كنت منذ بضعة أعوام أدنى من البحارة في المنزلة فأصبحت اليوم وأنا أعظم عظيم في البلاد وكل ذلك بفضل ما أوتيته من الصبر وقوة الإرادة وحسن الحيلة ، فإذا عرفتِ ما فعلتُ فاعلمي ما سأفعل وهو قول لم أقله لأحد سواك ، بل هو قول لم أكد أجسر على أن أناجي به نفسي. فإني كنت أستطيع بما أنعم الله به عليّ من الذكاء والرجاء أن أذهب إلى روما وأبلغ فيها ما تشاء مطامعي ولكني تخليت عن جميع ذلك من أجلك .

وقد سكت هنيهة علّه يسمع كلمة منها فلم تفهْ بحرف فقال

لها : ما بالك لم تجيبيني ، ألم تسمعي ؟ قالت : كلا . قال : كلا ، بل سمعتني ولم تفتك كلمة من أقوالي ، فأصغي إليّ أيضاً أيتها الحسناء واعلمي أني لقيت فيك من العذاب ما لم يلقَه بشر منذ رأيتك فهل تعطفين عليّ بنظرة رضى؟ وإذا كان عذابي ودموعي لا يؤثران على قلبك ولا يجدان فيه ذرّة من الرحمة فما أنت من النساء . وبعد ، فإذا أسأت إليك فكرهتني هذا الكره ؟ إني لم أكلمك مرة وأنت لا تعرفيني فلا يمكن أن تكرهيني ، ولكني أقرأ سطور الكره بين عينيك . ولماذا هذا الكره وأنت تعلمين يقيناً أني أحبك أصدق حب وأني سأكون السلّم الذي ترقين عليه إلى قمة المجد ، وأني أبذل كل ما لديّ من سلطة ونفوذ ووجاهة ومال في سبيل سعادتك ، فكيف لا ترحمينني ؟ ألا يمكن أن أجد في قلبك القاسي ذرّة من الإشفاق ؟

— كلا !

فتنهّد عند ذلك تنهّداً عميقاً واحمرّت حدقتاه ومدّ يده إليها فتراجعت مذعورة ولكنها كانت متأهبة للدفاع . فارتجف بمبو ورأى بفطرته الفاسدة أنه لم يبقَ له بدّ من استعمال العنف فهجم عليها وهو يقول : ستكونين لي بالرغم عنك .

ولكنه قبل أن يبلغ إليها تراجع وهو يصيح صيحة ألم والدم يقطر من يده . ذلك أن بيانكا أسرعت إلى امتشاق مدية كانت قد خبأتها في صدرها وطعنته بها حين هجم عليها .

ولكنه لم يبالِ بذلك الجرح وهجم عليها ثانية فتراجع أيضاً وقد أصيب بجرح آخر في ذراعه ، فإن بيانكا كانت واقفة

والمدية في يدها وقد عزمت على أن تدافع عن نفسها دفاع القانطين فإذا لم تفز بدفاعها قتلت نفسها .

وقد دام هـذا الخصام بينهما بضع دقائق وبيانكا على غاية الحذر إذ كانت تعلم يقيناً أنه إذا قبض على يدها تمكّن من الفوز عليها . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى يدها فلما أصيب بالجرح الخامس مسح الدم عن وجهه وابتعد عنها خطوتين فقال : كفى ، فاطمئني ، فإني لا أمدُّ يدي إليك ولكني لا أعلم ماذا يكون مصيرك في هذه الغابة المقفرة وإلى أين تذهبين . إني لا أسألك شيئاً الآن بل أسألك أن تعودي معي . فلم تجبه بيانكا أيضاً وأشارت برأسها إشارة سلب ، فقال لها : ألا تريدين أن تعودي معي ؟ فأشارت الإشارة نفسها . فقـال : إذن أصغي إليّ فلا أكلمك بعد الآن وأنصرف وحدي إذا لم أقنعك ، واعلمي أني أريد أن أرجعك إلى فينيسيا وهـذا لا بد منه ، وثقي أني لا أكلمك كلمة في الطريق ولا أدنو منك . وإنك لا تريدين أن تكوني لي فليكن مـا تريدين ، ولكني لا أريد أن تكوني لسواي .

ولما رآها مصغية إليه مضى في حديثه فقال : إني سأدع لك الخيار بعد هنيهة بين أن تعودي معي إلى فينيسيا وبين أن تذهبي إلى حيث تشائين ، فإذا رضيتِ أن تعودي معي أقسمتُ لك أني أحترمك ، وإذا أبيتِ انتقمتُ وكان انتقامي هائلاً لا يخطر في بال إنسان . وهنا لا بد لي أن أخبرك كيف يكون انتقامي ، فاعلمي أني كلّمتك في بدء حديثي عن أمك وأنت ربما تعتقدين

أنها محظية فقط ولكنك واهمة في اعتقادك ، فإن لأمك قصراً في فينيسيا تنفق عليه خمسمائة ألف ريال في العام ، وأنت تجهلين كما يجهل جميع الناس كيف كان استيلاؤها على هـذا القصر . فاعلمي إذن أن صاحب هذا القصر كان يدعى جان دافيليا وهو من أعضاء مجلس العشرة ومن كبار النبلاء . أما هذا الرجل فقد مات قتيلاً بعد أن كتب وصيته بيومين وقد ترك في وصيته هذا القصر للمحظية أمباريا . إنك لم تفهمي بعـد ، فافهمي أن الذي قتل جان دافيليا كان أمّك .

فذعرت الفتاة وقالت : يا للهول . قال : يظهر أن حديثي بدأ يؤثر عليك ، والآن فاعلمي أن لديّ أدلّة وشهوداً من كبار الناس يشهدون أن أمك هي القـاتلة ، فماذا تقولين ؟ أتـكتين أيضاً ؟

وهنا سكت قليلاً بينما كانت بيانكا تبـذل جهداً عنيفاً كي تمنع نفسها عن الإغماء ، فمضى في حديثه فقال : إنك إذا صحبتني إلى فينيسيا أبقيتُ هذا السر مكتوماً فلا أبوح به لأحد ، وإذا اضطررت الى العودة وحدي وشيت بأمك حين وصولي فقبضوا عليها وقتلوها بعد أسبوع .

ولو كان بمبو ألحّ عليها لارتابت في قوله ولكنه قال لها هذا القول وأدار ظهره فسار سيراً بطيئاً . وقد كان موقف بيانكا في تلك الساعة حرجاً إذ كان يجب عليها أن تختار بين موتها وبين موت أمّها . وقد تمثلت لها أمها بأيدي الجنود وهي مساقة إلى ساحة الإعدام فارتعشت فرائصها ومشت في أثر بمبو . أمـا

الكردينال فشعر أنها تسير وراءه فلم يلتفت ، وفرح فرحاً لا يوصف وعظمَ في عينَي نفسه إذ تمكن من إخضاع هـذا الظبي النفور .

ولبث سائراً ساكتاً ، ولكنه كان من حين إلى حين يشعر بلهيب الجرح الذي أصابه ويفتكر أنه لولا هذه المدية التي كانت معها لكان فوزه مضموناً ، فيئنُّ أنين القانطين ويفتكر بطريقة تمكنه من تجريدها من هـذا السلاح . وفيما هو يفتكر بذلك خطر له فكر هائل وهو أن هـذه الفتاة تسير وراءه وأنها قد تطعنه بين كتفيه طعنة تكون القاضية ، فالتفت فجأة فرآها تسير على قيـد بضع خطوات منه والمدية مشهرة بيدها ، فعاد إلى المسير .

ومـا زالا سائرين حتى وصلا الى الشاطىء ورأى البحّار لا يزال ينتظره في القـارب ، فأشار إليها أن تصعد إليه . أما بيانكا فإنها تردّدت لحظة في البدء ثم تمثّلت لهـا أمها يسيرون بها إلى ساحة الإعدام فارتعشت وأسرعت بالصعود إلى القارب .

العـذراء

*

عرف القرّاء أن آريتان كان من أشدّ النـاس جبناً في حين

أنه كان يفـاخر الناس بجرأته وأنه لم يعترف بهذا الخوف إلا لرولاند. وهم يذكرون أيضاً أنه هو الذي دعا أمباريا إلى محادثتها بأمر خطير ، فلمّا وصل وإياها إلى الغرفة دخلت قبله ودخل رولاند مكانه في أثرها وأقفل الباب في وجهه .

وقد عاد آريتان عند ذلك إلى القاعات وهو راضٍ عن نفسه لأنه خدم رولاند خدمة كان حليفها الفوز . ولكنه ما لبث أن هلع قلبه من الخوف إذ قال في نفسه : إن أمباريا عدوة رولاند اللدودة ، وإنه لا بد من حدوث خصام بينهما يكون الفوز فيه لرولاند لا محالة ، وإن أمباريا سوف تذكر أنه هو الذي خدعها هذه الخدعة فترسل أحد أعوانها فيقتله شرّ قتل .

ولم يكد يخطر له هذا الخاطر حتى هرول مسرعاً إلى منزله فأقفل الأبواب وتحصّن به كأنه في حصن يهاجمه الأعداء . وعند ذلك رأى أنه لا يستطيع الرقاد لشدة خوفه فجمع نساءه وجعل يعاقر وإياهن المدام ويروي لهن النوادر المختلقـة عن شجاعته النادرة المثال حتى أقبل الصباح وهو على ما هو فيه .

وفيما هو على ذلك قُرع البـاب الخارجي بعنف فهلع قلبه وأرسل أحد خدمه يستطلع الخبر فعاد وهو يقول : إن الطارق هو الكردينال بمبو تصحبه امرأة . فأمره أن يسرع بفتح الباب وهرع لاستقباله ، ولما رآه تظاهر بالدهشة وقال له : ما هـذا الاصفرار الذي يتولاك وما هذه الجراح التي بيديك ؟

فجلس بمبو على كرسي وهو خـائر القوى وقال له : إني مؤتمنك على سرّ تقسم لي بشرفك على كتمانه ، فإن هـذه الفتاة

التي تراها أريد أن تختبىء عندك بضعة أيام فإنها لا تكون في مأمن إلا إذا كانت عنـــدك . ورجائي أن يعاملها نساؤك بما تستحقه من العناية والإكرام .

فانحنى آريتان أمام بيانكا المنكودة وقد ظهرت عليه علائم الإشفاق الأكيد وقال : إنها تكون عندي كما لو كانت في منزل أبيها . ثم قرع المائدة ونادى امرأة من نسائه تدعى بيريتا فقال لها : إني أعهد إليك بحراسة هذه الفتاة فاعتبري أنها أختك . فدنت بيريتا منها وهي تبتسم لها ألطف ابتسام فتأبطت ذراعها وهي تقول لها بلهجة إشفاق : ثقي أيتها السيدة أني ما زلت بقربك فلا سبيل إلى الخوف .

وقـــد عرف القرّاء كيف أن بيانكا رضيت أن تعود إلى فينيسيا مع بمبو فلما صعدت إلى القارب وسار بها يخترق الأمواج أصيبت بيأس شديد . وذلك أنه خطر لها أنها ستعود إلى قصر أمها وهناك تعود إلى سلطة ساندريجو إذ تكرهها أمها على الزواج به ، وفي هذا الفكر وحده ما يدعوها إلى اليأس ، ذلك فوق ما تجده من النفور من عيشة أمها . ولكنها كانت أمها ولا سبيل إلى مجافاتها ولا إلى مجافاة هـذا الكردينال الهائل فإن الإعدام يتهدد تلك الأم .

وقد اضطربت في أمرها وتمثّل لها الموت ففضلته على العودة إلى منزل أمها ، ولكل ماذا تصنع وإلى أين تذهب ؟ وما زالت هذه الأفكار تتنازعها حتى رأت أن القارب قد وقف عند قصر لم تكن تعرفه . ولم يكن الكردينال قد كلمها كلمة على الطريق

وفاءً بوعده فلمّا وقف القارب قال لها بملء السكينة : أصغي إليّ فإني سأوجز القول وعليك أن تختاري . إنك لا تريدين أن تكوني لي ، فليكن مـــا تريدين . ولكني أقسم بالله أنك لن تكوني لسواي . وهذا منزل صديق أمين سأقيمك فيه ، فـإذا وافقت على اقتراحي فـلا خوف على أمك ، وإذا أبيت وأردت أن تذهبي وأنا لا أمنعك فـلا تمضي ساعة حتى تكون أمك بيد الجلاد وهي متّهمة بقتل جان دافيليا . والآن فاختاري بين أن تتبعيني وبين أن تذهبي إلى حيث تشائين .

وعند ذلك فعل كما فعل حين كان في الغابة ، أي أنـه أدار ظهره ومشى دون أن ينتظر جوابها . فتبعته بيانكا كما تبعته هناك وهي ترجو أن تتمكن من إيجاد طريقة سرّية تخبر بها أمها عن تلك التهمة التي يتّهمها بها الكردينال فمتى هربت أمها تطمئن هي عليها وتهرب بدورها . فلما ذهبت بيريتا بقي بمبو وآريتان فقال الكردينال لآريتان : هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها .

قال : هذه هي التي ...

— نعم هذه هي التي يجب أن يفسد نساؤك أخلاقها .

فأطرق آريتان برأسه إلى الأرض ولم يجب . فقال له بمبو بلهجة المتوعد : ما هذا ؟ قال الشاعر : من هي هذه الفتاة ؟

— ألم أقل لك إنها ابنة المحظية أمباريا ويجب أن يكون في عروقها دماء محظية ولكنها لم تختلط بعد بالناس ولم تعلم شيئاً من سيرة أمها ، أي أنها لا تزال على التربية التي تعلّمتها في المدارس ، على أنها إذا عاشرت نساءك عشرة أيام تصبح كما أريد أن

تكون ، فما تقول ؟

– أقول إني أشفق عليها .

– ولكني سأقتل هذه الشفقة بكلمة أكتبها ، فهات معدّات الكتابة فإنه لا يزال لـــك خمسة آلاف ريال ! هات معدات الكتابة لأكتب لك بها حوالة على الخزينة .

– لا حاجة بي إلى ذلك !

فذهل بمبو وقال : ماذا تقول ؟

– أقول إني أؤثر أن تبقي مالك لك !

– أهذا أنت الذي أسمعه أم أني من الحالمين ؟

فتنهد آريتان وقال : كلا بل أنت في يقظة .

فقيد بمبو هذا التنهد بحساب الخمسة آلاف ريال . وقد كان مصيباً فإن آريتان كان من عشاق المال وقد تنهّد حقيقة لخسارته هذا المبلغ الجسيم . ولكنه رأى تلك الفتاة فرأى الطهارة ماثلة في جبينها واليأس يبدو في عينيها فأشفق عليها إشفاقاً أكيداً . ثم إنه كان من أهل الفنون الجميلة وقد قابل بين جمال بيانكا وقبح بمبو فأنف من أن يدفعها إليه وفضّل خسارة المال . وفوق ذلك فإنه كان لا يزال خائفاً من أن تبحث عنه أمباريا وترسل له من يقبض عليه ويقتله لأنه خدعها بإدخال رولاند إليها فما يكون مبلغ حقدها متى علمت أن بنتها عنده ؟ ولذلك قال لبمبو : إنك غير حالم وإني أرفض ذلك المال الذي تعرضه عليّ !

غير أن الكردينال لم يكترث لقوله فقام لنفسه فأحضر دواة وقلماً وكتب الحوالة على ورقة فأمضاها ودفعها إليه قائلاً : خذ

أيها الصديق . فقال الشاعر : كلا ! ولكنه نظر إلى الحوالة نظرة كئيبة فقال له الكردينال : إذن أنت تريـد أيها الصديق أن تضطرني إلى أن أعمّق البحث في شأن سفارتك إلى جان دي مدسيس .

وقد قال الكردينال هذا القول من قبيل الإبهام فإنه لم يكن يعلم شيئاً من اتفاق آريتان ورولاند ولكن الريب كان يخامر قلبه .

أما آريتان فإنه بعد أن سمع هذا القول اضطرب ووثق أن الكردينال عـالم بالحقيقة وأنه قد يشي به إلى الدوج فيرسله إلى سجون الآبار حيث يموت فيها شرّ موت ، فرعب رعباً عظيماً . وكان الكردينال لا يزال باسطاً إليه يـده بالورقة فأخذها وهو يقول : أي دخل لي بهـذه الشؤون ؟ فقال له الكردينال : إذن لقد بقينا أيها الصديق على اتفاقنا القديم ؟ قال : نعم ، ولا أنكر أني أشفقت هنيهة على هذه الفتاة .

– كلا ، لا يجب أن تشفق عليها بل يجب أن تكون هذه الشفقة عليّ . وبعـد فلِمَ تشفق عليها وهي ابنة محظية أحببتها حباً قاتلاً وسأجعلها من أسعد النساء وأرفعهن شأناً وأبعدهن نفوذاً في حين أنها معرّضة لغرام أقل الفتيان شأناً فيعبث بهـا ويجعلها من عامة الناس ، وعند ذلك ألا تشفق عليها ؟

فاعتذر آريتان عمـا بدر منه وبعد هنيهة فارقه الكردينال وهو يقول له : أذكر أني معتمد عليـــك وعلى نسائك في تقويم أوَدها . قال : إنك لا تذكّر ناسياً . وقام فودعه إلى الباب ثم عاد وهو مطرق يفكر إلى أن قال :

– ويح لي ، ما هذا الجنون الذي أصابني! وما هذا الإشفاق على هـذه الفتاة ! فقد رأيت كثيرات مثلها مع جان مدسيس ، فليحدث لبيانكا ما كتب لها وليفعل بعبو مـا يشاء . أما أنا فخير ما أعمله الآن فهو أن أدخل إلى مخدعي وأنسى هـذه السفاسف بالرقاد .

الكردينال

*

وعندما عاد الكردينال إلى منزله كان النهار قد طلع فلما وصل إليه وجد أحد خدمه واقفاً عند الباب الخارجي فأسرع الخادم إليه حين رآه وقال له : مولاي ، ما هذه الليلة الهائلة التي قضيناها ؟

فأسكته الكردينال إذ رأى رجلين يسيران بالقرب منـه ودخل معه إلى المنزل فقال له: قل الآن ما جرى وأوجز القول. قال : إنهم دخلوا القصر في هذه الليلة دخول المغتصب ! فقطب حاجبيه وقال ألعلّهم لصوص ؟

– كلا يا مولاي ، فإنهم لم يمسّوا شيئاً من رياش القصر كما تبيّنت بعد رحيلهم .

فاصفرّ وجه الكردينال حين أيقن أنهم غير لصوص ونظر إلى الخادم كأنـه يأمره أن يمضي في حديثه فقال الخادم : لقد كانت الساعة الخامسة بعد انتصاف الليل وجميع الخدم نيام إلا أنا فقد لبثت ساهراً بأمرك . عند ذلـك سمعت قرع الباب الخارجي وعلمت أنـك لست أنت الطارق لأن القرع لم يكن بالشكل الذي اصطلحت عليه فلم أفتح . ثم تكرّر الطرق ولمّا لم أفتح البـاب كسروا القفل فجعلت أصيح مستغيثاً فاستفاق جميع الخدم وبادروا إلى نجدتي . وعند ذلك فتح الباب ودخلت منه عصابة كأنها من مردة الجن فقبض بعضهم علينا وأثار بعضهم المصابيح . ثم جاء رئيسهم وسألنا قائلاً : أيكم خادم غرفـة الكردينال ؟ فقلت له : أنا هو . فـدنا مني ووضع غدارته على رأسي وقال لي : سر بي إلى غرفة مولاك . فـلم أجد بداً من الامتثال وغدّارته مصوبة إلى رأسي وذهبت بـه إلى غرفتك لعلمي أنك لست فيها وهناك سألني قائلاً : أين هو مولاك ؟

– قلت : إنه مسافر !

– إنك كاذب .

– بل أقسم بالعذراء .

– إذن سر أمامي فإني أريد أن أرى جميع غرف القصر .

– وعند ذلـك تفرق جميع رجال تلك العصابة في القصر ففتشوه أدق تفتيش حتى أنهم كانوا يفتشون تحت الأسرّة ووراء الستائر ، فلمّا لم يجدوك انصرفوا دون أن يسيئوا إلى أحـد منا بشيء .

فقال بمبو في نفسه والذعر ملء قلبه : إنـــه رولاند دون شك . ثم قال للخادم : دعني الآن وحدي فإني محتاج إلى الراحة وعد إليّ بعد ثلاث ساعات .

– حسناً يا مولاي .

– وأقفـــل كل شيء واذهب إلى السنيور جينارو رئيس البوليس فأورد ما حدث وقل له أن يأتي لمقابلتي ثم اسأله بلساني أن يرسل عشرين جندياً لحراستي فإننا في زمن لم يبقَ فيه أمـان حتى لأمراء الكنيسة .

فامتثل الخادم وذهب مسرعاً لتنفيذ الأمر .

وخلا بمبو إلى نفسه فقال : نعم، إن رولاند يتعقبني، وإنه مقيم في فينيسيا لا يراه أحد فيها على كثرة الرقباء والجواسيس ، فكلما نصبوا له فخاً نجا منه كأنه من الأبالسة . أما أنا فلا سبيل لي إلى النجاة منه بغير الفرار ، فإنه قد ضيّق الحلقة عليّ ، وإذا لم أسرع بالفرار قضى عليّ القضاء المبرم .

وقد تقدم لنا بيان خطة الكردينال فإنه كان يحاول أن يبرح فينيسيا ببيانكا بعد أن يتم نساء آريتان تدريبها على مـــا يريد في مدة أسبوعين .

أما الآن فقد رأى أنـه لم يبقَ له سبيل إلى البقاء أسبوعين بعد أن أيقن أن رولاند يتبعه ولذلك عزم عزماً أكيداً على أن يبارح فينيسيا في الغد مع بيانكا . وتام . وبعد ثـلاث ساعات استفاق واستقبل رئيس البوليس فقال له : قـد أخبرك خادمي بما اتفق لي ليلة أمس ، وإنما دعوتك إليّ لأستطلع رأيك في هذه

الحادثة . فقال : أرى أن هذه الحادثة متفقة مع حادثة خطيرة أيضاً تجهلها دون شك ومع حادثة سوف تحدث .

– ماذا تعني بما تقول ؟

– إنهم وجدوا في الترعة الآن جثتين ، جثة رجل وجثة امرأة . أمـــا المرأة فإنها تدعى جوانا ولا شك أن نيافتكم لا تعرفونها .

– كلا .

– إننا راقبنا هـذه المرأة مدة طويلة ثم توارت عن أنظارنا وإنما كنا نراقبها لوثوقنا أنها كانت تخدم ابن الدوج السابق خدمة سرّية .

– رولاند كانديانو ؟

– نعم ، فإن نيافتكم لا تجهلون أنه لا يزال يطمع بأن يخلف أباه . أما جثة الرجل فهي جثة لص قديم تعيّن أخيراً بين قواد الجيش دون أن يعلم أحد سبب هذا التعيين .

– ساندريجو ؟

فابتسم رئيس البوليس وقال : ألعلّ نيافتكم تعرفون هـذا اللص ؟ قال : أعرف أنه خدم الجمهورية خدمة جليلة .

وبعد أن تمعّن هنيهة قال : إذن لقد قتل ساندريجو ؟

إني لم أقل لنيافتكم إنـه قتل ولكنكم عرفتم الحقيقة كما يظهر فإنه مصاب بخنجر في صدره .

– ماذا تظنون بهذه الجريمة ؟

– أظن أن جوانا قد قادت ساندريجو إلى كمين وأن رولاند قتله .

– ولكن هي ماتت أيضاً ؟

– ربما قتلوها لأنها ارتكبت خيانة . ولكني أرى أني أؤثر على نيافتكم بهذه الرواية .

– كلا ، كلا ، فامض في حديثك فقد قلت لي إنه يوجد حادثة أخرى .

– نعم ، وهي أن الجثتين وجدتا في الترعة كما قلت لكم ولكن وجدوا أمامها سفينة منقلبة وهي بديعة الاتقان .

– إنها دون شك سفينة ذينك المتكودين .

– ربما ، أما أنا فقد عرفت السفينة لفوري وهي سفينة امرأة ولا بدّ أن تكون نيافتكم سمعت بذكرها ولكني لا أجسر على التصريح باسمها في هذا المكان المقدس ...

– لا بأس ، فاذكر لي اسمها .

– إنها محظية شهيرة تدعى أمباريا .

– ماذا تقول ؟ ألعل هذه المحظية قتلت أيضاً ؟

وقد اضطرب الكردينال اضطراباً شديداً فقال في نفسه : لقد قتل ساندريجو وقتلت أمباريا فجاء دوري لا محالة . أما رئيس البوليس فقد قال له :

– كلا ، يا سيدي ، فإن كان أمر هذه المرأة يهمكم فاعلموا أنها لم تقتل وأنها مقيمة في قصرها وقد تأكدت ذلك إذ خطر لي في البدء أنها هي القاتلة على أنها إذا لم يكن لها يد في القتل

فإن لها دخلاً في الحادثة دون شك بدليل أنها تتأهب للسفر وأنها ستبرح فينيسيا غداً إلى روما .

– وأية علاقة ترى بين هذه الحوادث وبين قتل ساندريجو وسفر المحظية والهجوم على منزلي ؟

– لا أجد علاقة ، ولكنّ خطر لي أن أولئك الناس الذين قتلوا ساندريجو وأكرهوا أمباريا على الفرار قد يكونون نفس هؤلاء الذين هجموا على قصركم .

– ترى ماذا يقصدون ؟

– لا أدري ، فربما كان ذلك انتقاماً عن حقد شخصي .

– أتظن أن رولاند كانديانو حاقد عليّ وأنه يريد الانتقام مني ؟ وقد قال الكردينال هذا القول وندم عليه إذ رأى رئيس البوليس يبتسم ابتساماً دلّ على أنه يعرف كثيراً من الأسرار . أما الرئيس فإنه قال له : مهما يكن من الأمر يا سيدي فلا يمضي زمن قليل حتى أقف على الحقيقة بشأن الهجوم على قصركم . ولكن إذا أذن لي سيدي أسديته نصيحة .

– قل .

– نصيحتي إلى سيدي أن لا ينام في قصره مدة شهر .

فوقف بمبو وقال : إنك مخطىء فيما تقول ، فإن الأسقف لا يجب أن يفارق أسقفيته والله يتولى حمايته ولذلك لا أخرج من منزلي ويفعل الله ما يشاء .

– إني أعجب بشجاعة نيافتكم ، ومع ذلك فلا بد لي من أن

أقوم بواجباتي وأتولى حمايتكم، ولذلك أرسلت لكم عشرين جندياً كي يحرسوا القصر حتى يزول كل خطر .

– إني أقبل ذلك مع الشكر .

وعند ذلك فارقه رئيس البوليس وهو يقول في نفسه : نعم، إن جنودي ستحرسك وتراقبك أشد المراقبة فإني أريد أن أعلم قبل سفرك إذا كنت مخلصاً لألتياري وإذا كنت من المؤتمرين فإن اسمك غير مقيّد في قائمتي .

أما بمبو فقد بقي وحده فجعل يجمع ما لديه من الأحجار الكريمة وهي ثروة عظيمة فإنه كان يجمع هذه الحجارة توقّعاً للسفر الفجائي ، فوضعها جميعها في منطقته وعقدها في وسطه . أحرق كثيراً من الأوراق التي يخشى مغبّتها وخرج من قصره من باب سرّي بحيث لم يرَه أحد من الجنود فسار توّاً إلى الشاطىء فاجتمع ببحّار وحادثه ملياً ثم أعطاه مبلغاً من المال وعاد إلى منزل آريتان ، فلم يعجب آريتان لقدومه وقال له : إني سأجلس على المائدة وستتغدى معي فاسمح لي أن أدعو الخادمة كي تعدّ لك مكاناً معي .

قال: لا تدعُ أحداً فإني أتغدى معك بشرط أن لا يعلم أحد بوجودي عندك .

– ولكنهم رأوك تدخل .

– لم يرَني غير خادمك وأريد أن تخبئه في مكان فلا يخرج منه إلا في صباح غد .

– ولكن ماذا حدث ؟

– إفعل ما قلته لك وستتحدث على المائدة .

فخرج آريتان من تلك الغرفة وعاد بعد هنيهة فقال : إني لا أستطيع سجن الخادم حذراً من أن يصيح ولكني أرسلته بمهمة الى تريفيز وهو لا يعود منها قبل يومين .

– حسناً فعلت ، والآن فمُرْ أن يعدّوا لك الطعام في هذه الغرفة وأن لا يدخل إليك أحد .

ثم قام فاختبأ في غرفة ثانية حتى إذا أحضروا الطعام وتغدّيا جلس بمبو على كرسي قرب المستوقد وأطبق جفنيه. فقال آريتان في نفسه : إنه ينام ، فهل خطر له أن يقيم عندي ؟

غير أن الكردينال لم يكن نائماً بل كان يفتكر في طريقة لإقناع بيانكا بالسفر معه. أما آريتان فقد تشاغل عنه بالكتابة حيناً إلى أن شعر بهجوم الظلام فذهب إلى المصباح كي يشعله فقال له الكردينال : لا تفعل . فاضطرب آريتان وقال له : لماذا ؟

قال : لا فائدة من ذلك فاجلس بجانبي وأصغِ إليّ .

فامتثل آريتان وهو معجب لأمره وبدأ الكردينال الحديث فقال : إني سألتك أمرين : أحدهما أن تبقى الفتاة عندك مدة أسبوعين ، والثاني أنك وعدتني بإخراج بيانكا من فينيسيا .

– هذا أكيد .

– إذن إني أعفيك من هذين القيدين اللذين دفعت لك ثمنها مقدماً .

– ماذا تقصد بذلك؟ أتريد أن تسترجع المال بعد أن دفعت معظمه للدائنين ؟

www.liilas.com/vb3 ATHENA

– كلا ، إطمئن فإنك لا ترد إليّ شيئاً ولكن بشرط .

– ما هو ؟

– هو أني عزمت على أن أبرح فينيسيا هذه الليلة وأريد أن تصحبني فإن سفينتي تنتظرني على قيد بضع خطوات من قصرك. ومتى بلغت بها البحيرات فقد نجوت .

– نجوت ؟

– أريد أن أقول إن بقية السفر لا يهم .

– إذن ما هو الشرط ؟

– ماذا تدعى تلك المرأة التي عهدت إليها ببيانكا ؟

– بيرينا .

– إذن يجب أن تناديها بحيث تبقى بيانكا وحدها ثم تدلني على غرفة بيانكا إذ لا بد لي من إقناعها .

فذعر آريتان وقال : ربّاه ماذا تقول أمها ؟

– لا تقول شيئاً فإننا ذاهبان إليها .

– إن المال الذي دفعته لي يكلف غالياً .

فهزّ بمبو كتفه وقال : إنك ستدعو بيرينا ثم تدلني على غرفة بيانكا ثم تخرجنا من هذا المنزل دون أن يرانا أحد .

– حسناً ، فابقَ هنيهة إلى أن أعود .

وبعد هنيهة عاد آريتان فذهب بالكردينال من غرفة إلى غرفة حتى انتهى إلى غرفة بيانكا فقال له : هذه هي .

ابنة المحظية

*

لقد عرف القرّاء من الفصل السابق أن آريتان أبعد خادمه بأمر الكردينال . وكان الكردينال قد طلب إليه أن يسجن ذلك الخادم الذي رآه إلى الصباح فارتأى آريتان أن يبعده عن فينيسيا وكلا الأمرين واحد .

وقد رأى آريتان ذلك الخادم يركب قارباً ليجتاز به البحيرات فاطمأنّ وعاد إلى بمبو . غير أن الخادم لم يتجاوز في قاربه بضعة أمتار حتى عاد إلى شاطىء آخر بعيد عن القصر ، فوثب إلى البرّ وأسرع إلى بيت جزيرة أوليفو . وهناك دخل إلى المنزل دون تردّد كأنه قد تعوّد أن يدخل إليه مراراً ، فلما رآه الخادم العجوز أحسن استقباله فإنه كان جاسوساً وضعه رولاند في منزل آريتان . وقد سأل الجاسوس الخادم العجوز قائلاً : هل الرئيس في المنزل ؟ قال: كلا ، فقد سافر هذه الليلة.

– أيعود ؟

– ربما عاد في المساء .

– إذن سأنتظره .

وقد أقام الجاسوس كل ذلك اليوم في المنزل .

فلندعه الآن ينتظر رولاند ولنعد إلى بمبو الذي تركناه عند باب غرفة بيانكا فإنه فتح تلك الغرفة ودخل إليها فوجد بيانكا جالسة حول مائدة . فلما رأته وقفت لفورها وراء المائدة بحيث جعلتها حاجزاً بينهما . أما بمبو فإنه أقفل باب الغرفة من الداخل ووضع المفتاح في جيبه وذهب إلى النافذة الوحيدة التي كانت في تلك الغرفة فتفقدها دون أن ينظر إلى الفتاة كأنها غير موجودة. ولم تكن هذه الغرفة تطلُّ على الترعة بل على شارع ضيق وهي لا تعلو أكثر من خمسة أذرع عن سطح الأرض. فلما تفقدها عاد إلى بيانكا فوجدها مسلحة بمديتها الصغيرة فابتسم ابتساماً هائلاً وقد عوّل هذه المرة على أن لا يتوقف بسبب الجراح .

أما الفتاة فإنها أجابته على ابتسامه بنظرة كانت تنفذ منها الجرأة . فابتسم بمبو ابتسامه الأول وقال لها : أرى أن هذا الخنجر الجميل لا يفارق يدك فكأنك قد تعلمت القتل من أمك التي قتلت جان دافيليا الشهير الذي لا يزال مجلس العشرة يبحث عن قاتله . فارتعدت بيانكا ، علمت أنه لا يقوى عليها إلا بمثل هذا البحث . وعند ذلك جلس بمبو بعيداً عنها وقال لها : إنك ترين بأنه لا سبيل إلى الخوف بأن أجنح إلى القوة كما فعلت في الغابة ، فأصغي بسكينة إلى كل ما أقوله لك واعلمي أني سأبرح فينيسيا في هذه الليلة نفسها. ولكني عزمت عزماً أكيداً على أن تكوني لي قبل سفري ولا بد من أن تكوني لي .

فهزّت الفتاة رأسها وأرته الخنجر فقال لها : لقد قلت لك

ستكونين لي وسأظفر بك برضاك فإنك تكرهينني بقدر ما أحبك ولا بد من أن أمزج الحب بالبغض . نعم أيتها الشقية ، فإنك ستكونين لي برضاك كما قلت وكفى الآن خداعاً ورياءً ، فاعلمي أني مخيّرك بين أمرين : إما أن تلقي نفسك بين ذراعيّ أو أسلّم أمك إلى الحكومة بعد ساعة . فاختاري .

فصاحت بيانكا صيحة يأس تمزّق لها صدرها وتراجعت منذعرة إلى آخر الغرفة . فقال لها : بورك فيك من فتاة تدفع بأمها إلى يد الجلاد . فصاحت بيانكا صيحة يأس أخرى بحيث وثق بمبو أن الفوز بات له وتقدّم منها خطوتين.. فصاحت بيانكا قائلة : أماه ، لنمت معاً ما زلنا لا ملجأ لنا إلا الموت !

وعند ذلك رفعت يدها بخنجرها وقد اتّقدت عيناها ببارق غريب وطعنت صدرها بذلك الخنجر طعنة هائلة فتدفّق الدم من ذلك الصدر وسقطت تلك الفتاة النقيّة الطاهرة على ظهرها وقضت شهيدة الطهر والعفاف ضحية ذلك الوحش المفترس .

فصاح بمبو صيحة منكرة وأسرع إليها فركع أمامها ورفع بيديه المضطربتين رأسها الجميل المصفرّ ففتحت عينيها ونظرت إلى ذلك الكامن نظرة تدلُّ على السلامة ، وعلى الاطمئنان إلى الموت الذي كان لها خير ملجأ .

فقال بمبو : كلا ، إنك لا تموتين ... إني لا أريد أن تموتي .

وعند ذلك تحركت شفتا الفتاة فأصغى بمبو ليسمع ما تقول فسمعها تتم بصوت خافت قائلة : الوداع يا أمي .. الوداع يا رولاند ! وعند ذلك أسلمت الروح بين يدي ذلك الفاجر .

فوقف الكردينال يتمعّن في وجهها ويقول: أحق أنها ماتت ونجت مني ؟ كلا ، ليس ذلك ممكناً ! كلا إنها لم تمت وهي نائمة.

وقد اضطرب عقله في تلك اللحظة حتى أنه كان يعتقد أنها نائمة وجعل يقول أقوالاً تدلّ على الجنون وهو يحاذر أن تستفيق من رقادها كي لا يزعجها . ثم زاد اختلاط عقله حتى اضطجع بجانبها وتوهّم أنها حيّة تكلمه فحاول أن يضمّها إلى صدره وأن يدنّس شفتيها الطاهرتين بشفتيه. ولكنه سمع عند ذلك أصواتاً مختلفة في القصر فعاد إليه رشده فجأة وذهب من مكانه متذعراً فأصغى إلى تلك الأصوات وقال :

— رباه ماذا أسمع ! مَن هـــذا الذي يتكلم ؟ إنه صوته ! رباه ، لقد قُضي عليّ !

ثم سمع ذلك الصوت يقول : أين بيانكا ؟

فأجابه صوت امرأة تقول : تعال إلى هنا .

وبعـــد لحظة سمع أنهم يطرقون باب الغرفة طرقاً عنيفاً ، فضحك ضحك المجانين وأسرع إلى النافذة فوثب منها إلى الشارع فسقط واقفاً وجعل يسير هائماً مضطرباً إلى القـارب الذي كان ينتظره . حتى إذا بلغه صعد إليه وأمر البحّار أن يسرع السير ما استطاع فاندفع به يسابق الرياح .

ولم يطمئنّ قلبه إلا حين بلغ الشاطىء في آخر البحيرات ، فكافأ البحار خير مكافأة وسار في الرمـال حتى توارى عن الأنظار .

السير المغتصب

*

كان جيو يعرف ضواحي فينيسيا حق العرفان فجعل يسير بطريق معوجة حذراً من أن يراه البحار ويعلم الطريق التي سلكها حتى إذا أيقن أنه لم يعد يراه سار في طريق آخر وهو لا يعلم إلى أين يسير لشدة ما تولاّه من الرعب . وقد نسي في موقفه الحالي بيانكا وموتها فلم يفتكر إلا بنفسه وما يتهدّده من الأخطار فلم يكن يمثل له وجه بيانكا وهي صريعة بـل وجه رولاند ، ولم يكن يسمع كلماتها الأخيرة التي فاضت بها روحها بل كان يسمع ذلـــك الصوت الهائل الذي أضلّ صوابه من الرعب ويقول في نفسه : لا شك أن رولاند سيطاردني ، ولكن أين له أن يجدني فـإن إيطاليا متسعة ثائية الأطراف فكيف يخطر له أني لجأت إلى روما دون سواها ! وفوق ذلك ، فلو علم أني في روما فأية فائدة له في أن يتبعني إليها ومـا عساه يريد إلا أن يتخلص مني لأني أتبعه في فينيسيا وأنا لا أتبعه ما زلت بعيداً عنها ! ثم إنه لو أراد أن يتبعني لينتقم مني فإن روما غـــير فينيسيا ، وإني أكون فيها قوياً فإن البابا نفسه يتولى حمايتي .

وقد حاول بهذه المناجاة أن يطمئن نفسه ويأمن خوفه ولكن الرعب كان لا يزال مستولياً عليه لاعتقاده أن رولاند لا بدّ أن يقفو أثره .

وقد كان أول ما عمله أنه اشترى جواداً نشيطاً وغيّر ملابسه وسار ينهب الأرض بجواده حتى وصل عند هجوم الليل إلى فندق في قرية فريتزلا ولم يكن يوجد غيره في تلك القرية فتعشى في ذلك الفندق ونادى الخادم فقال له : أرى أن هذا الفندق لا يتردد عليه كثير من الناس . قال : نعم يا سيدي ، وأسفاه ! فلو أنه لا يردني من حين إلى حين نبيل مثلك لأقفلته من عهد بعيد .

– إذن لا يوجد أحد الآن في الفندق ؟

– لا يوجد سواك يا مولاي .

– حسناً ، فإني أحب أن أقيم هذه الليلة هنا .

– ان الأسرّة عندنا على غاية من الإتقان والنظافة .

– هذا كل ما أرجوه فأرني هذه الأسرّة .

فأخذ صاحب الفندق مصباحه فتبعه الكردينال إلى غرفة صغيرة لم يكن فيها غير سرير ضيق فقال له الكردينال : لقد أعجبتني هذه الغرفة وسأبيت فيها . وعند ذلك تركه صاحب الفندق فاضطجع على السرير بملابسه ونام .

وفيما هو بين اليقظة والنوم سمع ضجيجاً في القاعة العمومية فنهض وجعل يصغي فسمع صوت اثنين من المسافرين حتى إذا تبيّن لهجتهما اصطكت أسنانه من الرعب فنزل عن السرير وجعل

يزحف زحفاً إلى الباب كي لا تسمع خطواته فوصل إلى الباب بعد بضع ثوان خالها أياماً ووضع أذنه على قفل الباب . وهناك جعل العرق يسيل من وجهه فأخذ يتراجع زاحفاً على ركبتيه إلى نافذة كان يعلم أنها تشرف على بستان ووثب منها إليه ثم تسلّق الجدار وهبط منه إلى الأرض وهو يقول : إني سأسير ماشياً على قدمي إذ لا سبيل للوصول إلى جوادي .

وعند ذلك جعل يركض في الحقول وغدارته مشهرة بيده وهو يلتفت إلى ورائه من حين إلى حين . وما زال يسير راكضاً حتى أشرق الصباح وقد خارت قواه ، وعند ذلك لقي أحد الرعاة فنفحه بدينار واستدلّ منه على مدخل القرية ثم ذهب إليها فاشترى جواداً وسار به ينهب الأرض حتى وصل إلى آخر قرية قبل روما فأقام في فندقها وقد عزم على أن يدخل روما في الليل . وعند الغروب امتطى جواده وسار في طريق روما .

*

وبعد ربع ساعة من مفارقته هذا الفندق قدم إليه فارسان كان أحدهما يشبه العمالقة بضخامة جثته وعلائم الحزن بادية عليه فدخل إلى ذلك الفندق .

جينارو يدفع دينه

*

لندع الآن ذينك الفارسين في الفندق ولندع بمبو يسير هارباً

إلى روما ليجتمع بأمباريا ، ولنعد بأذهان القراء إلى تلك الحفلة التي أعدتها أمباريا في تلك الليلة التي كانت ليلة حب وجنون ، وقبل تلك الليلة التي دفعت الغيرة فيها أمباريا إلى تسليم بنتها .

ويذكر القراء أن سكالا برينو كان قد أخبر رولاند أنه قتل ساندريجو وأغرق أمباريا . وكان اجتماعها في بيت الجزيرة فأرسل رولاند سكالا برينو إلى مكان آخر للبحث عن بمبو بحيث لم يبقَ في البيت غير فيليب العجوز فلما جاء الجاسوس الذي استخدمه رولاند عند آريتان للبحث عن رولاند لم يجده . وقد برح رولاند المنزل وحده وهو قلق البال لاختفاء بيانكا كما أنه كان شديد القلق على جوانا بعد أن علم بقتل ساندريجو فأشفق عليها إشفاقاً عظيماً وعزم على أن يردّها إلى منزلها كي يعزّيها عما هي فيه . وكان قد عيّن لها رقيباً منذ حضورها إلى فينيسيا بحيث كان يعلم أين تقيم وقد ذهب منذ الفجر إلى منزلها لهذا الغرض .

وفيما هو يسير على الرصيف رأى كثيرين من الناس مجتمعين ينظرون إلى قارب صغير فيه امرأة مبتلة الثياب فنظر إلى هذه المرأة فعرف أنها أمباريا . فوقف مطرقاً مفكراً وقد ساءه أن الجريمة انتصرت على العقاب وحاول أن ينقضّ عليها ، ولكنه رجع فجأة عن هذه الفكرة فتنهّد تنهداً عميقاً وسار مواصلاً سيره . وعند ذلك شعر بيد قد لمست كتفه فالتفت فرأى رجلاً فقال له : من أنت ؟ قال : إذا أردت أن تتبعني أخبرتك من أنا. قال : لا حاجة لذلك إذ عرفتك فأنت جينارو رئيس البوليس.

وقد نظر رولاند إلى ما حواليه نظرة الحذر فقال له جينارو : أرجو أن تطمئن يا مولاي فإنك تذكر الأصوات ما زلت قد عرفتني مرتين من صوتي ، وأما أنا فإني أذكر الأعمال .

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني أنه لا يجب أن تخاف ما زلتُ مديناً لك .

— أوضح ما تقول .

— لقد التمست منك يا مولاي أن تتبعني فلا يحمل الحديث هنا .

— إلى أين تريد أن أتبعك ؟

— إلى أي محل شئت بشرط أن لا يسمع حديثنا أحد فإذا شئت دخلنا إلى هذه الكنيسة .

فنظر رولاند نظرة الفاحص ، فانحنى جينارو أمامه وقال له : أقسم لك بشرفي أنه لا يوجد في هذه الكنيسة رقيب أو جند ومع ذلك فإذا أحببت أن تسير إلى أي مكان غيره تبعتك إلى حيث تريد . فقال رولاند : إذن لندخل إلى هذه الكنيسة.

ودخل الاثنان فجلس كلّ منهما على كرسي بجانب الآخر وبدأ رولاند الحديث فقال له : إني مصغ إليك . فقال جينارو رئيس البوليس: أبدأ يا سيدي فأقول إنه كان بوسعي أن أقبض عليك هذه الليلة في قصر المحظية أمباريا ولكني لم أفعل . قال: بل كان يجب أن تفعل عملاً بواجبات مهنتك . قال : نعم ، وكنت واثقاً من الفوز بالرغم عن تلك القوارب التي جمعتها لغرض لم أعلمه .

– أرى أنك واقف على حقيقة الأمر .

– هذه هي مهنتي يا سيدي .

– إذن لماذا تأخرت ؟

– لأنك عفوت عني فباتت حياتك مقدسة لديّ .

فنظر رولاند إليه باندهال ، فقال له جينارو : إن حياتك تبقى مقدسة لديّ إلى أن أخدمك خدمة تعادل خدمتك لي .

– أي إلى اليوم الذي تنقذني فيه .

– أو ما يشبه ذلك من إنقاذ شخص تحبّه فوق ما تحب نفسك .

– من هذا الذي تعنيه ؟

– اصبر يا مولاي ودعني في البدء أتم ما كنت أقوله فقد قلت لك إني لا أقبض عليك ما زلت مديناً لك ، ولكني حين أفي هذا الدين لا يكون لي شاغل غير القبض عليك إذ ليس ذلك من واجباتي فقط بل من فائدتي .

فقال رولاند له بلهجة الاستكبار : ومتى تحسب أنك تتخلص من قيود الامتنان ؟

– بعد عشر دقائق يا مولاي .

– أي أنك بعد ربع ساعة تحاول القبض عليّ .

– كلا يا مولاي ، فإني لا أحاول شيئاً من هذا قبل ثلاثة أيام فإني أحب أن أكون عادلاً معك حتى إذا لم يوفقني الحظ وفزت عليّ تكون عادلاً معي .

– كن مطمئناً فلست من أهل الظلم .

– أشكرك يا سيدي فلقد قلت لك منذ هنيهة إن مهنتي تقضي بأن أعرف كل شيء وقد توسّعت بهذه المهنة ولعاً عظيماً حتى أني لم أقتصر على معرفة ما يعمله المرء بل تجاوزت ذلك إلى معرفة ما يفتكر به ، ولذلك أرجو أن أبلغ يوماً إلى منصب رياسة ديوان التفتيش إذا وفقت فينيسيا إلى اختيار حاكم ذكي . ولكن لندع هذا البحث الآن فأنت تعلم يا سيدي أنه منذ قرّر لي أن أهتم بك ، أي منذ فرارك من الآبار ونيلك هذه الشهرة العظيمة في فينيسيا ، لم يكن لي هم إلا أن أعلم ماذا تعمل وماذا تفتكر . أما أعمالك فقد عرفت منها أنك رجل شديد فقد مضت شهور وأنت تعبث ببوليسنا وهو أحذق بوليس في إيطاليا بل في العالم بأسره . فاسمح لي يا مولاي أن أظهر لك إعجابي بك في هذا المقام ، وإني أقول لك بأني سأكون أسعد إنسان يوم يذاع بأني أنا الذي قبضت عليك . على أني إذا لم أقف على كل أعمالك بالتفصيل ، فقد عرفت أن يدك كانت تدير جميع تلك الحوادث الكبيرة التي حدثت في قصور ألتياري وأمباريا والكردينال وفي قصر رئيس ديوان التفتيش وحتى في قصر الدوج نفسه . فقد رأيت فوسكاري من حين إلى حين ينظر إلى ما حواليه كأنه يخشى أن تنقضّ يدك الهائلة عليه . ورأيت دندولو وألتياري يرتجفان رعباً حين يذكر اسمك . ورأيت الكردينال يضطرب خوفاً كورق الخريف ويتأهب للفرار ، فعلمت عند ذلك شدة هذه الحرب الهائلة التي تثيرها على هؤلاء الأقوياء . ولقد كان ألتياري وفوسكاري شبه أخوين ، وكان

بمبو شبه حاكم ، وكان دندولو لا يشغله إلا إظهار مجده . فهوذا دندولو الآن بات سجين بيته ، وهوذا بمبو يحاول العزلة ، وهوذا ألتياري يأتمر على الدوج ، ومن فعل كل ذلك يا مولاي ؟ إني أعرف ذلك الفاعل الذي أثار الرعب في القلوب وأوحى بدهائه إلى ألتياري هذه المؤامرة ، وأعلم أنه سينقضّ على فينيسيا انقضاض الصاعقة ويبلغ منها ما أراد .. إلا إذا ...

وهنا سكت فقال له رولاند : أتمّ حديثك. فانحنى جينارو وقال : إلا إذا قبضت على رولاند يا مولاي . فابتسم رولاند ، وترجم جينارو معنى هذه الابتسامة بقوله : لقد فات الأوان .

وعند ذلك دخل رجل إلى الكنيسة فوقف على مسافة بضع خطوات وسعل سعالاً ذا معنى يراد به تنبيه الأذهان ، فالتفت رئيس البوليس وذهب مسرعاً إليه . فجرّد رولاند خنجره وخبأه تحت ردائه وأقام ينتظر .

أما هذا الرجل فإنه جعل يكلم جينارو همساً كأنه يقدّم له تقريراً ، حتى إذا أتم حديثه أطلق سراحه بإشارة وعاد إلى رولاند وهو يقول في نفسه : إذن لقد قتل ساندريجو ! يجب أن أعلم حقيقة السبب في مقتله .

وقد عاد إلى مجلسه بجانب رولاند وقال له : لا يشغلك يا مولاي أني حدثت هذا الرجل فهو من أعواني وقد جاء يخبرني أنهم وجدوا في القرعة جثة رجل تعرفه وقد مات مطعوناً بخنجر فاسمح لي أن أحقق في أمره ثم أعود إليك فإنه على الرصيف . فقال رولاند : لا حاجة إلى إزعاج نفسك بهذا الشأن فإن القتيل

لص يدعى ساندريجو وقد عيّن أخيراً قائداً في الجندرمة مكافأة على خيانة ارتكبها .

— إذا كنت عارفاً بذلك يا سيدي فقد يمكنك أيضاً أن تقول لي اسم المرأة .

— أية امرأة ؟

— امرأة وجدت جثتها بجانب جثة ساندريجو .

فاضطرب رولاند اضطراباً عظيماً وخرج لفوره من الكنيسة إلى الرصيف فوجد أنهم يخرجون جثة امرأة من قارب وقد وضعوها على محمل بجانب جثة ساندريجو . ففرّق رولاند الناس عن هذا المشهد وأسرع إلى تلك المرأة وقد عرفها فجعل يفحص قلبها كأنه لا يزال لديه رجاء حتى إذا أيقن أنها ماتت سالت الدموع من عينيه وجعل يندب جوانا بأشجى الألفاظ وينعتها بأشرف النعوت والناس من حوله ينظرون إليه فيتوجعون لمصابه ويحترمون حزنه .

وبعد ذلك دنا من تلك الجثة فقبّل جبينها والتفت كأنه يبحث عن رئيس البوليس فرآه وذهب إليه فقال له : أتريد أن تفي دينك وتخلص من قيود الامتنان ؟ قال : دون شك . قال رولاند : إن الفرصة قد دنت ، فإني كثير الشواغل اليوم وعليّ أن أهتم بالأحياء ، فإذا توليت عني دفن هذه الفتاة أصبحت في حلّ من قيودك .

ثم أخرج من جيبه قبضة من الذهب ودفعها إلى رئيس البوليس لنفقات الدفن . فأبى جينارو أخذها ، ولكن رولاند قال له

بلهجة الأمر : خذ فإني أنا الذي أردت دفنها وأنا الذي يجب أن أدفع النفقات . فأخذ جينارو المـــال وقال : سأنفذ أوامرك وسأدفن هذه الفتاة كما تدفن بنات النبلاء .

– أشكرك . والآن دعني .

– مولاي !

– ماذا ؟

– أقسم لك أن مـــا أريد قوله لك يبلغ أقصى درجات الخطورة فهذه فتاة قد ماتت ولكن توجد غيرها يجب إنقاذها .

– إذن تعال .

وعند ذلك دنا الجاسوس الذي كان قد دخل الكنيسة فقال لرئيسه همساً : هل تعرفه ؟ قال : كلا . فأبرقت أسرّة الجاسوس بأشعة الفرح وقال : أما أنا فإني أعرفه فهو رولاند كانديانو .

فالتفت جينارو إلى جماعة من الجواسيس كانوا يتبعونه على مسافة قصيرة فأشار إليهم أن يدنوا منه وأمرهم أن يقبضوا على الجاسوس قائلاً : إنه من المؤتمرين فخذوه وضعوه في محلّ خفيّ وراقبوه أشد المراقبة . فأسرع الجواسيس إلى القبض عليه بينما كان يرجو حسن الجزاء .

أمـــا جينارو فإنه تبع رولاند إلى الكنيسة وهو يقول في نفسه مشيراً إلى الجاسوس : ويح لك أيها الأبله إنك كدت تفسد عليّ أمري . ثم دخل إلى الكنيسة وجلس بجانب رولاند فقال له : لقد قلت لـــك يا مولاي إني إذا لم أكن واقفاً على جميع أعمالك فإني عالم بجميع مقاصدك ، وأعتقد أن هـــذه الحادثة

الأخـيرة ، أي قتل ساندريجو ، داخلة في خطتك وإن كنت لم أعلم السبب في موت الفتاة .

فاضطرب وجه رولاند حين ذكر جوانا وقال له : امضِ في حديثك . قـال : سأقول لك النتيجة يا مولاي ، إنك تحوم في جميع أعمالـك ونواياك وإرادتك حول امرأة لا أسميها ولكنك تعرفها دون شك . فقـال رولاند في نفسه : ليونور ! نعم ، لا يدفعني إلى ما أعمله غير ليونور !

فقال جينارو : وإني على اليقين يا مولاي من أن هـذه المرأة الشهيرة قـد ملكت قلبك ، فإذا أرشدتك إلى طريقة لإنقاذ حياتها أكون كأني قد أنقذت حياتك .

وقـد كان اضطراب رولاند عظيماً حين سمع هذا القول إذ أيقن بأن جينارو يعلم أن حياة ليونور في خطر ، ولكنه قال في نفسه : ترى ، أيجب عليّ ؟ ولمـاذا أنقذها وكيف تستحق مني هذا الاهتمام بعد أن خانتني ؟ نعم ، إني قد أغفر لهـا خيانتها ولكني لا أدافع عنها إذ يجب عليّ أن أنسى أنها في الوجود .

وعنـد ذلك تنهّد تنهداً كاد يمزق صدره وغرس أظافره في باطن كفه وقال في نفسه : إنها في خطر ! ولكن كيف أنقذها؟ هل أنقذت هي أمي وقد كانت في أشد حالات الشقاء؟ أحاولت إنقاذي وأنا أتعذب في الآبار ؟ نعم إنها حالت دون القبض عليّ في بيت الجزيرة ، ولكن كلّ إنسان سواها ينقذني لو استطاع . وهي الآن في خطر ، ألا يمكن أن يكون ذلك عقاباً لها ؟

وكان يناجي نفسه بسرعة التصور ويحاول أن يقنع نفسه

بوجوب التخلي عنهـــا ولكنه شعر فجأة أن قلبه كاد يخرج من صدره فقـال في ضميره : ويحٌ لنفسي ! إني لا أزال أحبها وأنا أرتعد خوفاً عليها مع أني لم أعرف الخوف .

وعند ذلك أجاب جينارو بصوت المنكسر قائلاً : قل مـا هـذا الخطر الذي يتهدد ابنة دندولو ! قال : حين ذهبت بي يا مولاي إلى تلك القبور التي كان يجتمع بهـا المؤتمرون وسمعت حديثهم بشأن دندولو خطر لي أنهم لا بـــدّ أن يجتمعوا أيضاً بطريقة سرية دون أن يحضر ألتياري اجتماعهم ، فذهبت في اليوم التالي واختبأت في أحد القبور فرأيت نحو عشرة منهم قد جاؤوا إلى محـــل الإجتماع واتفقوا على قتل دندولو بالسرّ لأنهم كانوا يخشون أن يبوح بأمرهم . وبعد أن اتفقوا على ذلك قـال واحد منهم : لقد عرفت على ثقـة أن ابنة دندولو مقيمة مع أبيها في غرفة واحدة في قصر ألتياري ، وأنها واقفة على سر مؤامرتنا ، وأنها تهدّدت زوجها بفضح السر ، فأثر هذا القول على الحاضرين واتفقوا في الحال على قتلها وقتل أبيها ، وعند ذلك نظر إلى وجه رولاند كي يرى تأثير هذا القول عليه فرأى أن وجهه قد اصفرّ وأنه قـد عضّ شفته كي لا يصيح حتى أدماها ، فقال له رئيس البوليس : أتريد يا مولاي أن تعرف اسم الرجل الذي اختاروه لقتل دندولو؟ . قال: كلا . قال : واسم الذين عيّنوه لقتل ابنته؟

فانقدت عينا رولاند وقال : من هو ؟ قـــال : هو الفتى كريماني ، وهذا بيان الخطة التي سيجري عليها ، فـإن السيدة ليونور تخرج للنزهة مرّتين في الأسبوع في سفينتها ..

— إني عارف بذلك .

— وهي تتنزه في يومين معينين من كل اسبوع فتصل بسفينتها إلى جسر التنهدات وهناك تقف هنيهة ثم تعود إلى القصر .

— وإني عارف بذلك .

— إذن فقد تقرّر أن كريماني يغتنم هذه الفرصة وهذا كل ما أردت قوله لك يا مولاي ، فهل تعتبر بعد ذلك أني وفيت ديني؟

— نعم !

فانحنى جينارو وقال : إذن فاعلم يا مولاي أني سأصبر ثلاثة أيام وبعد ذلك يجب أن تحذر مني فإني سأبذل كل جهدي للقبض عليك. واسمح لي أن أنبهك يا مولاي أن هذا اليوم أحد اليومين اللذين تتنزه فيهما السيدة ليونور .

— نعم أذكر ، فاذهب الآن في شأنك فإنك خدمتني خدمة توازي خدمتي لك .

فانصرف رئيس البوليس عند ذلك وقد لاحظ القراء أنه في كل حديثه معه كان يناديه «مولاي» وأنه لمّح له مرة بل مرتين أنه سيغدو في وقت قريب دوجاً، وأنه يطمع أن ينال في خدمته منصب رياسة ديوان التفتيش ، ولكن رولاند لم يكن يجيبه بشيء ، فلمّا خرج من الكنيسة سار وهو يحـدث نفسه فيقول : نعم لقد وفيته دينه وبات مديناً لي . والآن فإني أرى أعمـالي سائرة على محور النجاح ، فـإني واقف على سر المؤامرة وجميع المؤتمرين مطمئنون . وقد عيّن الدوج يوم الحفلة وهو ذلك اليوم الذي يضرب فيه المؤتمرون ضربتهم الكبرى . أما أنا فإني أتخذ

احتياطي من الآن إلى ذلك اليوم فإذا فشل رولاند قبضت عليه وأذعت سر المؤامرة وكافأني فوسكاري دون شك بتعييني في منصب دندولو وإذا كان الفوز في جانب رولاند أدع المؤتمرين يخبطون في ظلماتهم وأكتم سر رولاند فيكافئني نفس المكافأة . وعلى الجملة فإن الفوز مضمون لي من الجانبين ، وسواء كان فوسكاري أو رولاند حاكماً على فينيسيا فإني سأكون فيها رئيس ديوان التفتيش وهذا كل ما أرجوه .

ولما خرج من باب الكنيسة رأى أحد جواسيسه قريباً منها فناداه وقال له : يوجد رجل في الكنيسة . قال : لقد رأيته .

– أعرفته ؟

– كلا .

– لا يجب أن تعرفه .

– إذن ماذا يجب أن أعمل ؟

– يجب أن تتبع هذا الرجل كظله فلا تفارقه لحظة وتعود إليّ في المساء فتخبرني بما فعل .

– حسناً يا سيدي .

– إذا رأيته يختصم مع أحد أبناء المدينة ...

– مع من ؟

– مع أحد من أبناء الأعيان كابن كريماني مثلاً ، فإذا قتل أحد المتخاصمين فلا يبقى إلى المراقبة لزوم فتعود إليّ في الحال وتخبرني بما اتفق .

وعند ذلك افترقا فذهب رئيس البوليس في شأنه ووقف

الجاسوس قرب باب الكنيسة ينتظر خروج رولاند بذلك الصبر الذي امتاز به الرقباء في كل مكان .

أما رئيس البوليس فإنه حين عاد إلى منزله وجد فيه رسول الكردينال بمبو يدعوه إلى زيارته ، وأخبره بالهجوم على منزل مولاه في الليل فقال في نفسه : أرى أن نطاق الحصار أخذ بالتضييق وهو ما قلته لحاكم فينيسيا القادم . وعند ذلك نزع البرقع الذي كان متنكراً به وذهب إلى الكردينال .

وقد عرف القراء ما كان بين هذين الرجلين ، فإن بمبو كان يحاول أن يخفي مقصده عن رئيس البوليس ويوهمه أن لا نية له على الإطلاق بمبارحة فينيسيا . وكذلك جينارو فإنه كان يحاول أن يضغط على أفكار الكردينال كي يفهم منه شيئاً . وقد فاز كل بما كان يبغيه فإن الكردينال برح فينيسيا دون أن يعلم به جينارو ، وكذلك جينارو فقد وثق أن رولاند قضى قضاءه المبرم على بمبو ، ولم يشكل عليه غير أمر واحد وهو كيف أن رولاند لم يدخل الكردينال في سلك هذه المؤامرة الهائلة إلا إذا كان يريد أن ينتقم منه انتقاماً أشدّ هولاً .

جسر التنهدات

*

خرج رولاند من الكنيسة دون أن يرى ذلك الرقيب الذي

www.liilas.com/vb3 MOHAMEEN

وضعه جينارو لمراقبته ، على أنه لو رآه لمّا اكترث له فقد كان في حالة من الاضطراب جعلت كل فكره منحصراً في أمر واحد وهو ذلك الخطر الذي يتهدد ليونور. ولم يكن يذهله إلا أنه بينما كان يعتقد أنه سلاها ولم تعد تخطر له ببال وجد أنه لا يزال يحبها كما كان في عهد خطبته ، وقد علم لأول مرة أن حبها كان دفيناً في قلبه وأن هذا الخطر أحياه وأنه إذا كان لا يزال حياً إلى الآن على ما أصابه من القنوط فما ذلك إلا لأن ليونور لا تزال في قيد الحياة .

وقد أقام ذلك اليوم تائهاً هائماً في فينيسيا لا يعلم إلى أين يسير فكان تارة يقف أمام قصر ألتياري وتارة يرود حول قصر كرياني إلى أن غابت الشمس فذهب إلى جسر التنهدات وقد وضع برقعاً أسود على وجهه وأقام ينتظر في قارب صغير . وبعد هنيهة رأى قارباً قادماً وليس فيه غير رجل واحد فوقف قرب السجن وكان فيه كرياني .

وبعد ذلك بقليل سمع صوت المجاذيف فالتفت وارتعشت أعضاؤه ارتعاشاً ظاهراً إذ رأى ليونور جالسة وحدها تحت خيمة السفينة وقال في نفسه : عجباً ، ما الذي يدفعها إلى هذه النزهة الغريبة ؟ ولماذا اختارت نزهتها جسر التنهدات ؟

وكان اضطرابه عظيماً لمرآها ولكنه تجلّد وضبط نفسه ودفع بقاربه حتى التصق بسفينتها . أما ليونور فإنها رأته وعرفته وكان موقف الاثنين هائلاً عظيماً امتزج فيه الهناء بالخوف واللذة بالاضطراب ولم يستطيعا هذه المرة أيضاً أن يفوها بكلمة

بالرغم من ذلك الحب الذي كان يجذب كلا منهما إلى الآخر . غير أن رولاند بذل جهداً عظيماً كي يتمكن من ضبط نفسه فقال لها بصوت يتهدج : أهربي ... عودي إلى القصر ... ومهما حدث فلا تخرجي منه قبل شهر .

إن ليونور سمعت ذلك الصوت فهل فهمت ما قال؟ ذلك غير مرجّح ، ولكن بحّار سفينتها أدار مقدمها في الحال إلى جهة القصر فاندفعت تسير بملء السرعة ، ذلك أن البحار عرف رولاند وسمع ما قاله فنظر إليه نظرة امتزج فيها الخوف بالامتنان والإشفاق وعاد بسيدته إلى القصر . فلما توارت السفينة عن نظر رولاند تنهّد تنهداً خرج من صدره كالأنين ثم تقدّم بقاربه إلى حيث كان قارب كرياني . أما كرياني فإنه رأى سفينة ليونور قد دنت من الجسر ولكنها بدلاً من أن تتقدم بها إلى حيث كانت ترسو عادة عادت بها أدراجها مسرعة فقال في نفسه : لم يبقَ سبيل لقتلها هذه الليلة ولا بدّ من تأجيله إلى يوم آخر .

وعند ذلك رأى قارب رولاند قد التصق بقاربه وأن فيه رجلاً لا يعرفه فأوجس منه شراً وقال له : إذهب من هنا ولا تقف بجانبي .

أما رولاند فإنه ابتسم وأجابه قائلاً : « فينيسيا وسانت مارك » .

وكانت هذه الجملة جملة التعارف بين المؤتمرين فاطمأنّ كرياني وصعد رولاند إلى قارب الفتى ورفس قاربه برجله فاندفع كما تشاء الأمواج ثم جلس بجانب كرياني وقال له بملء السكينة :

تفضل واجلس يا سيدي فإني قـــادم إليك لأحدثك . فجلس كريماني وهو آمن مطمئن لاعتقاده أنـــه يحادث شريكاً له بالمؤامرة وقـــال له : من أنت يا سيدي ؟ فانتزع رولاند برقعه وجعل ينظر إليه .

أما كريماني فإنه ذعر ذعراً عظيماً لأنه لم يعرف هذا الرجل ولم يره مرة بين المؤتمرين ولكنه ما لبث أن اطمأن إذ اعتقد بأن أحد الزعماء أرسله إليه ، وقـــال له : إني تمعنت في وجهك يا سيدي فوجدت أني لا أعرفك ومع ذلك فقد قلت جملة ...

— وهي تبرهن لك أني من المؤتمرين .

فانحنى كريماني ولم يجب ، فقال له رولاند : كلا يا سيدي ، إني لست من المؤتمرين أي لست منكم ، وإذا كنت قـد لفظت جملة السر فما ذلك إلا لأني كنت أريد الوصول إليك بسهولة لأني أريد أن أحدثك .

فاصفر وجـه كريماني وشتم شتماً قبيحاً وجرد خنجره ، ولكنه لم يستطع أن يأتي بحركة فإن رولاند قبض على يـــده وضغط عليهـــا ضغطاً عنيفاً حتى صاح الفتى صيحة ألم وسقط الخنجر من يده فالتقط رولاند الخنجر ورده إليه . أما كريماني فإنه أخذ الخنجر وقد ظهر الانذهال العظيم في عينيه فقال له : إذن ماذا تريد ؟ قال : أصغ لي بسكينة تعلم ماذا أريد ، واجلس فإن وقوفك في القارب يفسد موازنته فينقلب . فامتثل كريماني وقال : إني مصغ إليك . قال :

— أرى يا سيدي أنك لا تعرفني ولا بد من التعارف بيننا .

أتذكر أننا كنا في حفلة المحظية أمباريا حين حاولت أن تهين الشاعر آريتان فقبض عليك أحد الخدم وألقاك خارج القصر ؟

فاصطكت أسنان كريماني من هـــذه الذكرى ، وقال له رولاند : أرى أنك تذكر هذه الحادثة فإنك حاولت بعدها ثلاث مرات أن تنتقم من هذا الشاعر لاعتقادك أنـــه أهانك بتلك الإهانة ، وفي كل مرة كان يحبط مسعاك .

فجعل كريماني ينظر إليه نظرات الانذهال ومضى رولاند في حديثه فقال : أنا هو الذي كنت أحول دون انتقامك فاني كنت أكره أن يُظلم الشاعر وإنما أقول « يُظلم » لأنك لم تطرد من حفلة أمباريا بأمره وحده بل بأمرنا أيضاً ...

— من أنت ؟

— سوف تعلم ، فقل لي الآن ألم يكن أبوك الشيخ كريماني أحد أعضاء مجلس العشرة سنة ١٥٠٩ ؟ ثم ألم يكن أحد هؤلاء الذين حكموا على الدوج كانديانو بسمل عينيه ؟ إني أخبرك بأمر تجهله ، فان كانديانو بعـــد أن أعموه تركوه يتجول في الأسواق مستعطياً وأنت ابن أحد الذين حكموا عليه . إعلم أني أنا ولده !

— رولاند كانديانو !

— نعم أنا هو ، فان أباك ارتكب جناية لا يرتكبها من تجول في عروقه دماء إنسان ولا حيوان ، لأنه كان يعلم أن أبي لا ذنب له ، وإنمـــا فعل ذلك إرضاء للمؤتمرين على أبي ليضمن مركزه ويضمن مستقبلك فبينما كنت أنت تتجول متنزهاً في كل مكان فسيح كنت أنا سجيناً في الآبار المظلمة العميقة ، على أن البنين لا

يجب أن يؤاخذوا بذنوب آبائهم ، وإنما ذكرت لك حكايتي معكم كي تعلم أنه يحق لي أن أحول بينك وبين التي تحاول قتلها .

فارتعش كريماني وقد علم مما سمعه أن رولاند حاقد عليه حقداً عظيماً وأنه عارف بسر المؤامرة . وكان شجاع القلب ثابت الجنان فخطر له أن يقتل رولاند بضربة دون أن يدع له وقتاً للدفاع ، وقال له بملء السكينة : إنك أردت أن تكلمني يا سيدي وقد رأيت أني أصغيت إليك كل الإصغاء فاذا أردت فأفصح الآن عما تريد مني . قال رولاند : إني أتيت إليك لأخيرك بين الموت والحياة فاذا أردت أن تحيا اقترحت عليك أن تغادر فينيسيا الآن فلا تعود إليها إلا بعد شهر .

فأجابه كريماني بلهجة المتهكم قائلاً : ولكن أتأمرني أن أبرح فينيسيا في حين أني مضطر إلى الإقامة فيها ؟

– هذا ما يجب أن تفعله لأنه لا يجب أن تكون سافلاً كأبيك فترتكب جريمة أفظع من جريمته . ويجب أن تعلم أنه لا فرق عندي بين أن تكون لصاً أو سفاكاً أو خائناً فكن كيف شئت بشرط أن لا أجدك في طريقي .

وكان كريماني يسمع حديثه وهو يتأهب لاغتياله وقال له : مَن أنبأك أني أريد أن أكون لصاً سفاكاً خائناً ؟

– إذا لم يكن ذاك فماذا تصنع هنا ؟ ألستَ كامناً لتلك الفتاة لتفتك بها؟ وإني على شدة كرهي لأبيك أشفق على شبابك ومستقبلك ويسوؤني أن أراك كامناً لامرأة تريد أن تقتلها وهي دون دفاع . فاذهب يا كريماني وإني أعاهدك على نسياني كل

ما كان من أبيك وكل ما يدر منك بشرط أن تقسم لي بأنك تبرح فينيسيا منذ الليلة وتعود إليها بعد شهر .

فأجابه كريماني بضحك عصبي ثم وقف فجأة وطرح رداءه فاهتز القارب اهتزازاً عنيفاً وسقط كريماني إلى الترعة فشعر بأن يداً من حديد قد ضغطت على عنقه . وذلك أن رولاند كان يراقب كل حركاته وقد أدرك قصده فلما وقف كريماني يحاول الهجوم عليه وقف هو أيضاً دون أن يكترث لحفظ توازن القارب ، وسقط كريماني إلى الماء فسقط رولاند في أثره وقبض بيده القوية على عنقه ولم تكن غير لحظة حتى توارى الاثنان في الماء . وبعد هنيهة ظهر رولاند وحده على سطح الماء فتوكأ على القارب وأقام ينتظر حتى إذا مضت عدة دقائق ظهر كريماني على مسافة عشرين ذراعاً وهو جثة هامدة لا حراك فيها .

المطاردة

*

وعند ذلك خرج رولاند من الترعة دون أن يندم على قتل كريماني وسار إلى بيت الجزيرة ، وقبل أن يصل إليها لقي سكالا برينو فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟ قال : أسوأها .

— كيف ذلك ؟

— ذلك أنـــه ليس لدينا أنباء ، وهذا الذي يدعوني إلى القنوط من لقاء بمبو وبيانكا .

— لا بأس ، فاذا لم يكن لدينا ما نعمله في فينيسيا فلنذهب إلى الضواحي فاني أرجو أن أهتدي إلى المكان الذي لجأ اليه الكردينال ، وسنضع الرقباء حول قصره ونذهب إلى الضواحي فنبحث عنه . وقد أرسلت نحو مائتي فارس في أثره فاذا لم نعثر به فلا بدّ أن يجدوه بعد قليل .

وعند ذلـك وصلا إلى المنزل فرأى رولاند الجاسوس الذي كان أقامه في خدمة الشاعر آريتان فقال في نفسه : ترى مـاذا حدث عند آريتان؟ ثم دنا من الخادم وسأله عن السبب في قدومه فقال له: إن السيد آريتان يا مولاي حاول أن يرسلني إلى تريفيزا.

— لماذا ؟

— ليبعدني دون شك ، فقد رأيت الكردينال عنده .

فصاح رولاند وسكالا برينو قائلين : بمبو ؟ قال : نعم، فأنا الذي أدخلته . فقال سكالا برينو: هلمّ يا مولاي لنسرع . فقال الخادم : تمهّل إلى أن تسمع كل حديثي فـــان الكردينال جاء وكانت تصحبه امرأة أو فتاة ...

فنظر كل من رولاند وسكالا برينو إلى الآخر نظرة سرور واندفعا إلى خـــارج المنزل دون أن ينتظرا سماع تتمة أقوال الخادم حتى بلغا الشاطىء فركبا قارباً وسارا به . وكان سكالا برينو ساكتاً لا يتكلم ولكن علائم الاضطراب الشديـد كانت

بادية في عينيه ، فأدرك رولاند سبب اضطرابه وقـال له : إني أعرف بيانكا حقّ العرفان فثق أنها كانت أقوى من بمبو. قال: ولكن قلبي يخفق خفوقـاً عظيماً ويحدثني بمصاب أليم فعسى أن نصل قبل فوات الأوان .

وبعد هنيهة وصلا إلى منزل آريتان وطرقا بابه فلم يفتح لهما أحـد . فكرّرا الطرق مراراً وكانا يسمعان وقع أقدام الخدم وصوت ذهابهم وإيابهم مما يدلّ على فرط اضطرابهم، فان آريتان كان لا يزال معتقداً أن أمباريا سترسل له من يقتله . فلمـا رأى رولاند ما كان من تردّدهم في فتح الباب صاح بملء صوته منادياً آريتان ، فسمع آريتان الصوت وعرف أنه صوت رولاند فأمر خدمه أن يسرعوا بفتح الباب ، وسار معهم فلمّا دخـله رولاند قال له آريتان : أهذا أنت أيها الرئيس ؟

فأجابه رولاند بصوت ارتجفت له أعضاؤه قائلاً : أين بمبو ؟ فتلعثم لسانه وقال : بمبو ؟ الكردينال ؟ ولكن ...

— ويحك ، قل أين هو أو انتزعت أنيابك من فمك وعذبتك عذاباً لا يخطر في بال الأبالسة .

فارتعد آريتان خوفاً وقال : تعال ! وشهد الله أني أخفيتها عندي ولم يخطر لي أن ذلـك يغضبك . ثم سار مسرعاً ورولاند وسكالا برينو في أثره إلى أن أوصلها إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا فحاول سكالا برينو فتحها فوجدها مقفلة فدفـع الباب بكفه فتحطم ودخل الاثنان إلى تلك الغرفة .. وقـــد عرف القراء مـــا لقياه في تلك الساعة الهائلة ، وقد نظر رولاند إلى

النافذة فوجدها مفتوحة وعلم أنه فرّ . وعند ذلك سمع أنين سكالا برينو فالتفت إليه فلقي بيانكا ملقاة على الأرض وسكالا برينو راكع أمامها لا يحسر أن يقول كلمة بل صوته قد اختنق في حلقه . فأسرع رولاند ونظر إلى بيانكا فاذا هي قتيلة فضم قبضتيه ورفع نظره إلى العلاء كأنه يتهدّد القدَر ، ثم سالت دمعتان من عينيه .

وعند ذلك لمس سكالا برينو بلطف فالتفت سكالا برينو إليه وقال : إنها لم تمت أليس كذلك ؟ مولاي قل لي إنها لم تمت ! بيانكا .. ابنتي .. ألا تسمعينني ؟ هذا أنا ! أبوك ! نعم أنا هو أبوك فانظري إليّ وافتحي عينيك فقط فإذا رأيت أني غير جدير أن أكون أباك انصرفت عنك ... ولكن افتحي عينيك.

فهزّ رولاند كتف ذلك الأب المنكود وقال له : قف أيها الصديق ... قف أيها الأخ .

– إنها ميتة فلم يبقَ لي إلا أن أموت بقربها .

– بل إنك تعيش .

– أية فائدة لي من الحياة ؟

– فائدة الانتقام لها .

– الانتقام لها ؟

وقد انتقدت عيناه ببارق هائل ولكن هذا البارق ما لبث أن انطفأ فقال رولاند : نعم يجب أن نظفر بهذا الشقي الذي قتل بنتك ونجزيه موتاً بموت وعذاباً بعذاب ... تعال. ثم أخذ سكالا برينو بيده وسار به وهو يتبعه دون مقاومة كالأطفال

فقال له : أتريد أن ينجو بمبو من أيدينا ؟ وإذا كنا قد تأخرنا عن إنقاذ بنتك أتريد أن نتأخر عن الانتقام ؟

فضم سكالا برينو قبضتيه بشكل هائل واندفع وهو لا يعي إلى خارج القصر مع رولاند .

*

عندما كان سكالا برينو خارج القصر ذهب عنه ذلك الذهول الذي كان يتولاه فغضب غضباً عظيماً وجعل يعاتب الأقدار بكلام لا يفهم وحاول أن يعود إلى بيانكا ليراها مرة أخرى ولكن رولاند منعه وسار به إلى جهة النافذة التي نجا بمبو منها فرآها تطل على شارع ضيق يشرف على الترعة فأسرع إلى الترعة وكان الظلام قد أقبل واصطفّت القوارب فالتصق بعضها ببعض عند الشاطىء ، فسار رولاند على الرصيف وهو يراقبها فوجد مكاناً فارغاً بينها ، أيقن أنه هرب فوثب إلى قارب مجاور كان فيه بحار فجرّد خنجره وقال : إني مخيّرك بين طعنة خنجر تبعث بروحك إلى الأبدية وبين مائة ريال تقبضها للفور . فقال البحار : إني أوثر المال دون شك . فقال رولاند : إذن أصدقني في المقال ، فمتى برح القارب الذي كان يجاور قاربك موضعه ؟

– منذ عشر دقائق .

– من الذي سافر فيه ؟

– رجل بملابس الفرسان وعليه وشاح أسود .

– من أين أتى هذا الرجل ؟

– من هنا . وقد أشار إلى قصر آريتان .

– أكانت تبدو على الرجل علائم السكينة ؟

– بل كان كالخنزير البرّي الذي يطاردونه فإنه كان يلتفت في كل لحظة إلى ورائه كأنما جميع جواسيس فينيسيا في أثره .

– إلى أين ذهب به القارب ؟

– إلى البحيرات .

– عليك إدراكه !

ثم نادى رولاند سكالا برينو وسأله أن يصعد إلى القارب وأمر البحار أن يسير ، وقد جلس بجانب سكالا برينو وجعل يعزيه أجمل عزاء . وبعد هنيهة تبيّن لهم البرّ فقال رولاند : عجباً كيف لم نعثر بالقارب وهو لم يبتعد عنا إلا بعشر دقائق كما تقول .

– ذلك لأن البحيرات عريضة يا سيدي فقد يكون سار بغير الطريق التي نسير فيها .. ولكن كلا .. أنظر ..

– أسكت فقد نظرت .

وقد نظر رولاند على مسافة بعيدة نوراً أحمر عند الشاطىء فأمر البحار بالإسراع حتى وصلوا إلى ذلك الشاطىء فوثب رولاند إلى البر ووجد هناك ثلاثة من البحارة فقال لهم بلهجة الأمر : ماذا تصنعون هنا ؟ فأجابه أحدهم ؟ إننا بحارة ننتظر انقلاب الهواء لنرجع إلى فينيسيا .

– وماذا جرى لهذا الرجل الذي جئتم به ، أي ذلك الرجل الذي كان يلبس ملابس فرسان وعليه وشاح أسود ؟

فتشاور البحارة بالنظر ورأوا أنهم لا يستطيعون المقاومة فأجابه صاحب السفينة قائلاً : إن هذا الرجل دفع لنا مكافأة حسنة لنجتاز به البحيرات ولكنه لم ينقدنا شيئاً من أجل سكوتنا . فأخرج رولاند من جيبه ديناراً فألقاه إليه وقال له : أما أنا فإني أدفع لمن يتكلم ، فقل أين ذهب الرجل .

– إنه ذهب من هذا الطريق القديم .

– متى ؟

– منذ خمس دقائق .

– أعرفته ؟

– كلا يا سيدي !

فعلم رولاند أن هذا كل ما يعلمه البحارة فنادى البحار الذي جاء به وقال له : هل تستطيع أن تأتيني بمعدّات الكتابة ؟ قال: نعم يوجد ورق وحبر في القارب. فعاد رولاند إلى القارب فكتب رسالة ثم طواها دون أن يستطيع ختمها لعدم وجود شمع وقال للبحار: هل تعرف القراءة ؟ فهزّ البحار رأسه وقال: كلا ، واأسفاه !

فاطمأن بال رولاند من أنه لا يفهم معنى الرسالة وقال له : إني كتبت هذه الرسالة لأني لا أعود إلى فينيسيا وقد وعدتك بمائة ريال وهذه الرسالة التي كتبتها حوالة بالقيمة فتذهب بها إلى قصر آريتان وتعطيه إياها فيدفع لك المال ، أتعرف آريتان الشاعر ؟

– نعم أعرفه فقد طالما نظم أشعاره في قاربي وأنا لم أضع

معدّات الكتابة في قاربي إلا من أجله .

قـــال : حسناً ، فأسرع الآن بالذهاب . فامتثل البحار وانصرف وعاد رولاند إلى البحارة الذين أتوا بالكردينال وفهم منهم ما أراد أن يفهمه ثم أخذ بيد سكالا برينو وسارا في طريق بمبو . أما مـــا كتبه رولاند إلى آريتان فسيقف عليه القراء في حينه .

أما رولاند وسكالا برينو فما زالا يتعقبان الكردينال وهما كلما بلغا إلى قرية يعلمان أنه سبقهما بزمن وجيز حتى بلغا إلى آخر قرية قبل روما وعلما أنـــه يتقدمهما منذ ربع ساعة ، فسارا لفورهمـــا فدخلا إلى تلك العاصمة في الساعة التاسعة من المساء . وذهبا إلى أحد فنادقها ، فلما اختليا فيه قال سكالا برينو : أتعلم يا مولاي أن هذا السفاك يستحق مثل ذلك العقاب الذي اخترعه الشاعر العظيم دانتي ؟

فقال له رولاند : إن دانتي العظيم نفسه يـذعر لهول العقاب الذي أعددته لهذا الكردينال .

فتنهد سكالا برينو وقال له وهو يضم قبضته : لا أظن أنه لا يوجد عتاب في الأرض ينطبق على جرائمـه ، فهو الذي أعمى أباك وجعله يتسوّل في الطرقات ، وهو الذي قتل أمك يأساً ، وهو الذي سجنك ستة أعوام في أعمق الآبار ، وهو الذي طارد ابنتي كما يطارد النمر الإبل وسفك دمها الطاهر ، وقد قضيت عليه فهو سيموت الليلة بيدي . فقال له رولاند : كلا فإن هذا الرجل لا يجب أن يموت موتاً عادياً بـل يجب أن أعاقبه عقاباً

وحشياً ينطبق على نفسه الوحشية .

— وما هذا العقاب ؟

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وقال له : إنتظرني هنا ساعة أو ساعتين واستأجر مركبة قوية مستعدة للسفر .

فأحنى سكالا برينو رأسه إشارة للامتثال والتف رولاند بردائه وبرح الفندق .

أنذر القاتل بالقتل

*

لما برح رولاند الفندق سار في أول طريق رآها كأنه لا يريد مكاناً معيناً . وكان رولاند يعرف روما حق العرفان إذ جـاء إليها منذ تسعة أعوام سفيراً من لدن مجلس العشرة إلى البابا ، فكانت أمباريا يومئذ في روما وقـــد عرفته منذ ذلك العهد في قصرها وولعت بـه ذلك الولوع الذي قضى عليها بمهاجرة روما إلى فينيسيا .

وفيما هو سائر لقي جماعة من الفتيان واقفين في وسط الطريق فدنا منهم وقال لهم بظرف : أتأذنون أيها الأسياد لرجل غريب أن يسألكم إذا كانت أمباريا الشهيرة بجمالها قد عادت إلى روما ؟

فأجابه أحدهم سناً وكانت الحيرة قد دارت في رأسه : أتسأل عن أمباريا المقدسة والناس لا يتحدثون بغير حديثها فمن أين أنت قادم ؟

– إذن أمباريا في روما ؟

– ونحن ذاهبون الآن إلى الحفلة التي تعدّها الليلة .

فشكرهم رولاند وانصرف فذهب توّاً إلى قصر أمباريا فاختلط بين جماهير المدعوّين وأقام هناك ساعة ثم عاد إلى الفندق الذي ترك فيه سكالا برينو فوجده واقفاً عند الباب فقال له : أوجدت المركبة ؟ قال : نعم ، وهذه هي . قال : حسناً ، فتعال معي الآن .

فسار سكالا برينو معه حتى إذا اقتربا من قصر أمباريا سارا في شارع ضيق وراء القصر ووقفا عند باب واطيء كان فيه رجل ينتظر فقال له رولاند : ألا تزال على عزمك ؟ قال : نعم يا مولاي . ولكن أما زلنا متفقين على القيمة ؟ قال رولاند : نعم ، وهي ألف ريال .

– وسأقبضها في فينيسيا .

– نعم ، وستوصلنا ثم تعود إلى المركبة فتنتظر فيها .

– حسناً ، فتفضّلا .

وكان هذا الرجل أحد الخدم في قصر أمباريا فصعد سلّماً وتبعه رولاند وسكالا برينو حتى انتهوا إلى رواق طويل ثم نزلوا على سلّم صغير دخلوا منه إلى غرفة كان فيها مصباح يضيء . وكان لهذه الغرفة ثلاثة أبواب ، فقال الخادم لرولاند :

هذا الباب الذي من الجهة اليمنى يشرف على قصر أمباريا ، والباب الأيسر يشرف على أحد القاعات ، أما الباب الثالث فهو الذي دخلنا منه . قال : حسناً ، فاذهب الآن إلى المركبة وانتظرنا فيها . فانصرف الخادم ، وأطفأ رولاند المصباح . ولم يكونا يسمعان حسّاً من الجهة اليسرى ، أما من الجهة اليمنى فقد كان رولاند يسمع صوت أمباريا تودّع زائريها . ثم ساد السكوت ، فقال سكالا برينو لرولاند : هل دنا الوقت ؟ فقال رولاند : كلا ، فاصبر .

وعاد الاثنان إلى الإصغاء ، فسمع سكالا برينو عند ذلك صوتاً ارتعش له وجعل العرق البارد ينصبّ من جبينه وقال : ألعلّي حالم ؟ فقال له رولاند بصوت الهامس : ماذا ؟ قال : هذا الصوت ... فقال رولاند : صوت أمباريا ، توهمّتَ أنك أغرقتها ولكنها لا تزال حية ترزق .

– كلا ، كلا ، بل إني حالم .

فوضع رولاند يده على فم سكالا برينو وقال له : أسكت وانتظر .

*

لقد عرف القراء أن أمباريا حين وصولها إلى روما ذهبت إلى قصرها وجعلت تعد معدّات الحفلة الشائقة بمناسبة عودتها إلى روما . وقد عرفوا أيضاً أنه بعد أن انصرف جميع المدعوّين بقي رجل فرد في القاعة فكشف البرقع عن وجهه فعرفت

المحظية أنه الكردينال بمبو ، وأنها اضطربت عند ذاك اضطراباً عظيماً لمرآه إذ كانت تعتقد أنها بهربها من فينيسيا تركت وراءها كل ماضيها الهائل . ولكنها ملكت نفسها وقالت له : ماذا أتيت تعمل هنا وأية علاقة بقيت بيني وبينك ؟ فأجابها بسكينة وجف لها قلب المحظية قائلاً : ابنتك يا سيدتي !

– ابنتي ؟

– قد كنت أحسب أنه يسرّك أن تعلمي ما جرى لابنتك فأتيت خصيصاً لأخبرك بأنبائها .

وكان يقول هذا القول بلهجة المتهكم ، فقالت له : ولكنك تعلم أنها لم تعد ابنتي فقد كانت مثال الفضيلة وكانت فضيلتها هذه تؤنبني والله يعلم أني كنت أحبها ، ولكن لماذا لم تكن تنظر إليّ إلا نظرات الاحتقار ؟ فقال لها : بل لماذا كانت تحب نفس الرجل الذي تحبينه ؟ فوقفت أمباريا وقالت له : أسكت ولا تقل كلمة عن هذا الرجل . قال : إن من يسمعك يحسب أنك خفت .

– سواء أكان ذلك عن خوف أو عن سواه فلا تذكره أمامي وقل ماذا تريد أن تخبرني .

فانتبه إلى ما ظهر من اضطرابها حين ذكر رولاند فقال لها : إرجعي يا سيدتي بذاكرتك إلى تلك الحفلة التي أعددتها في فينيسيا حين قلت لي إن بيانكا قد هربت فاتبعها في طريق ميستر ... قالت : نعم ، فماذا جرى ؟ قال : إني لقيتها في تلك الطريق وحملتها على الرجوع معي إلى فينيسيا وعند ذلك ...

فقالت له ببرود : وعند ذلك ؟ قال : طعنت نفسها بخنجر أمامي فكانت الطعنة القاضية .

ومن غريب شراسة هذا الرجل الكاسر أنه حمل إلى أم نبأ قتل بنتها كما ينقلون الأنباء العادية دون أن يختلج له قلب أو لسان . بل الأغرب من ذلك أن أمباريا تلقّت هذا النبأ دون أن يظهر عليها شيء من التأثر سوى أنها اصفرّت قليلاً وقالت : إذن لقد ماتت بيانكا ؟ قال : نعم ماتت .

وساد بين الاثنين سكوت ربما عاد فيه إلى ذلك القلب الوحشي شيء من عواطف الأمومة ، ولكنها لم تلبث أن قاومت هذه العاطفة فقالت : ربما كان ذلك خيراً لها .

وقد كان هذا كل ما رثت به بنتها ، تلك الفتاة التي قتلت نفسها لإنقاذ أمها . وعند ذلك قال لها بمبو : والآن أرى يا سيدتي أنه يجب أن نتفق فإن لديّ كثيراً من المشروعات أريد عرضها عليك ، وستوافقين عليها دون شك إذا أردت أن تحفظي مكانتك في روما و ...

فقاطعته أمباريا بملء العظمة قائلة : كفى إنذاراً ، فقد مضى زمن الوعيد ولم أعد أخافك بعد مغادرتي فينيسيا .

– ولكني ما أتيت لأخيفك ، وفي كل حال فقد خيّل لي أنك نسيت الجريمة التي أوثقت عرى الاتفاق بيننا ، بل نسيت اتفاقنا على الدفاع ، ومن الذي يحميك سواي ؟

– ممن تريد أن تحميني ؟

– إنك تعرفين اسمه فلا حاجة إلى ذكره . ومن يعلم ، فإنه

قد يأتي يوماً إلى روما .

– أسكت ... أسكت .

– بل إن رولاند كانديانو الذي ألقيته في ظلمة الآبار يطاردك ليشفي غليله من الانتقام، وقد يكون في روما بل قد يكون هنا في هذا القصر ، ولكن ما أصابك ؟

ذلك أن أمباريا ارتعشت حدقتاها وجمدت عيناها من الرعب ولم تكن تنظر إلى بمبو بل كانت تنظر إلى جهة لا ينظر إليها الكردينال ... فالتفت إلى تلك الجهة مقتدياً بها فرأى رولاند كانديانو ... وقد رعب الكردينال رعباً لا يوصف وبذل جهداً عنيفاً كي يحاول النهوض ليهرب فلم يستطع . أما رولاند فإنه كان يتقدم ببطء فدنا من أمباريا كأنه لا يرى الكردينال حتى خيّل لذلك الرجل أن رولاند غير قادم إليه ودخل قلبه شيء من الرجاء . ولكنه لم يلبث أن ارتعش ارتعاشاً عظيماً فإن يداً هائلة قبضت على كتفه فالتفت فرأى سكالا برينو فسقط على الأرض لرعبه وأوثق سكالا برينو يديه ورجليه ووضع كمامة في فمه دون أن يبدي شيئاً من المقاومة، وعند ذلك حمله وخرج به .

أما أمباريا فقد رأت كل ذلك وأصيبت برعب لا تصفه الأقلام ثم تمتمت في وجه رولاند فرأت عليه علائم الكآبة لا علائم القسوة والانتقام فابتسمت ابتساماً مغتصباً وقالت : لا أنكر أني خفت في البدء .. وستضحك مني فقد توهمت أنك تريد الإساءة إليّ .. أليس كذلك ؟ نعم ، فإنك لا تسيء إلى امرأة ! وإنك رجل عظيم القلب كريم الأخلاق لا تقتل امرأة

لا تستطيع الدفاع عن نفسها !

فقال لها رولاند : سيدتي إنك ستموتين .

فتراجعت أمباريا منذعرة واضطربت عيناها كأنها قد أصيبت بالجنون فقالت : أموت ؟ لماذا ؟ لماذا يجب أن أموت ؟

فوضع رولاند زجاجة صغيرة على المائدة وقال لها: إني أحضرت سماً يقتل للفور دون أوجاع فإنك قتلت دافيليا وليس ذلك من شأني ، ولكنك قتلت ابنتك فيجب أن تموتي .

فاصطكّت أسنانها وقالت : أنا أموت حين أرى الحياة تبسم لي ألطف ابتسام ؟ إنك لا شك من المجانين .

– إن الحياة كانت تبسم أيضاً لليونور التي قضيت على سعادتها ، ولبيانكا التي سفكت دمها ، ولي وقد قضيت عليّ بالشقاء الأبدي، ألا ترين أن الأرض قد ضجت من جرائمك وأن في حياتك موت جميع الذين يقربون منك ؟ تأهبي للموت فلا أمهلك غير دقيقة .

فنتفت شعرها من اليأس وقالت : كلا، لا أريد أن أموت ! أقتلني إذا شئت .. أقتلني إذا استطعت !

وعند ذلك دخل سكالا برينو فزادها منظره ذعراً على ذعر وقالت : إنكما من القتلة السفاكين .. ولكن لا تحسبا أني أموت دون دفاع . إليّ .. إليّ .

غير أن رولاند أسرع للقبض عليها فجرّها إلى المائدة التي كانت عليها الزجاجة وقال : اختاري بين أن تنتحري بشرب السمّ وبين أن تموتي بسيف الجلاد في فينيسيا .

– الجلاد ؟

– نعم ، فإني لا أعلم من الذي وشى بك ، فإني حين برحت فينيسيا كانت الحكومة قد عيّنت جائزة ألف ريال لمن يهدي مجلس العشرة إلى المحظية أمباريا قاتلة دافيليا .

– الجلاد .. الجلاد .. كلا ، كلا .. إني أؤثر الانتحار . نعم إني أنتحر ، ولكن دعني أعيش ساعة بعد .

– يوجد مركبة تنتظرنا عند الباب فإذا أحببت أن تعيشي شهراً أيضاً فتعالي .

– كلا كلا ، رولاند ، أعف عني ... رولاند ، أذكر أني أحببتك .. رولاند ، إني لا أزال أحبك .

وهنا جعلت تتأوّه وتتنهّد وتقول أقوالاً تحنّن القلوب القاسية بحيث اضطرب وجه رولاند وربما كان يحاول العفو عنها ، غير أن سكالا برينو كان يراقبه وقد أدرك ما يجول في نفسه ، فلمّا رأى أمباريا قد ركعت أمام رولاند وبسطت يديها له تتوسل وتطلب العفو أسرع سكالا برينو فأخذ زجاجة السمّ عن المائدة ووثب إلى أمباريا فقبض على شعرها وألقى رأسها إلى الوراء ، وبينما كانت أمباريا تفتح فمها لتستغيث ، صب سكالا برينو السمّ في فمها . وكان ذلك السمّ هائلاً فإنه ما كاد يبلغ إلى جوفها حتى اضطربت اضطراباً عظيماً ثم سكتت ولم تعد تتحرك فكان سكونها سكون الموت . وعند ذلك مسح سكالا برينو العرق عن وجهه المضطرب وقال :

– هلمّ بنا الآن إلى الآخر !

رسالة رولاند إلى آريتان

*

حضر رولاند هذا القتل الذريع دون أن تبدو منه إشارة تدل على الرغبة في المداخلة . ولكنه حين رأى أمباريا راكعة تتوسل إليه جرت في قلبه الرقيق عاطفة الإشفاق ، ولو لم يدرك سكالا برينو قصده وأسرع إلى إعدامها لكان عفا عنها .

أما سكالا برينو فإن مَن ذكر ماضيه وعرف أنه عاش كل شبابه دون أن يدرك معنى الحنوّ ثم ملأ حنوّه على بيانكا فجأة فراغ قلبه كما تملأ أشعة الشمس الإناء الفارغ ، فلما أحبها هذا الحب ورأى أمباريا قد سلمتها تسليماً إلى بيبو ، إن من عرف ذلك لا ينكر عليه قتل تلك المرأة بل يعدّ عمله قضاءً عادلاً . على أننا لسنا في حاجة إلى تبرئة أبطال هذه الرواية أو إلى لومهم فإننا نقص ما حدث لهم وهذا الذي حدث فليحكم عليهم القارىء بما يشاء . أما أمباريا فقد ماتت في تلك القاعة التي كان يحدق فيها عشاقها بها منذ ساعة ، وقد وجدوها في اليوم التالي ميتة في نفس ذلك المكان ، فاحتفل بها أهل روما احتفالاً عظيماً ولبس بعض الفتيان عليها ملابس الحداد ونصبوا لها تمثالاً في محل عمومي .

أما رولاند فإنه برح تلك القاعة لفوره يتبعه سكالا برينو إلى تلك المركبة التي نُقل إليها الكردينال بمبو . فصعد رولاند إلى المركبة وأقام فيها بجانب الكردينال وهو موثق اليدين والرجلين مكموم الفم ، وصعد سكالا برينو إلى جانب السائق وخرجت تلك المركبة بهم من روما تنهب الأرض وتسير في طريق فلورنسا وفينيسيا .

أما بمبو فإنه حين حمله سكالا برينو إلى المركبة ذعر ذعراً شديداً وقال : لقد دنت ساعتي الأخيرة ! وقد أغمي عليه في المركبة . فلما عاد إلى رشده وشعر أن تلك المركبة المقفلة تسير به ذهل في البدء لوجوده في سجن متحرك . ثم لما رأى أنهم لا يسيئون إليه أخذت السكينة تعود إلى نفسه تباعاً . غير أنه كان مضطرباً حائراً إذ لم يكن يعلم إلى أين يذهبون به . ولكنه كان يرى هذا الرجل الجالس بجانبه ، وهو رولاند ، لا يظهر أنه يريد به سوءاً . وقد تمعّن به ملياً وفحصه فحصاً دقيقاً فانتهى بقوله : إن هذا الرجل يستحيل أن يكون يريد قتلي ، ولكن ما عساه يريد مني ؟

وعند ذلك عاودته ذكرى المغارة السوداء فارتعد وقال في نفسه : نعم ، إنه يريد إلقائي في هذه المغارة . ولكني قد أوفّق إلى الخروج منها في هذه المرة كما توفقت في المرة الأولى .

وقد مضت الليلة الأولى دون أن يفوه الكردينال بكلمة . وكانوا قد نزعوا الكمامة عن فمه حين إغمائه حتى أنهم فكوا قيود يديه ورجليه ، ففحص بمبو بالنظر بآني المركبة وقد طمع

بالفرار من أحدهما فرأى أنهما محكما الإقفال .

وفي اليوم التالي وقفت المركبة عند الظهر فرأى بمبو أنها وقفت في سهل متسع ، ثم رأى سكالا برينو قد دنا منه وقال له : أتريد أن تأكل ؟ فشكره وقال له : كلا . وهو يرجو بهذا الامتناع أن يحمله على الإشفاق عليه . وبعد هنيهة عادت المركبة إلى السير ففرح بمبو فرحاً عظيماً إذ بدأ يثق بأنهم لا يريدون قتله ، وقد حاول في ذلك اليوم أن يقف على الحقيقة فنادى رولاند قائلاً بلهجة المتوسل : سيدي .

ولكن رولاند لم يجبه ولم يلتفت إليه .

وعند المساء وقفت المركبة أيضاً وجاءه سكالا برينو فسأله إذا كان يريد أن يأكل فأجابه بنعم . ولما سارت المركبة جعل الكردينال يحدث نفسه فيقول : إنه ظفر بي الآن وسيضعني في سجن .. حسناً ، ولكني سأخرج من هذا السجن بعد ستة أشهر أو بعد عام وعند ذلك يأتي دوره ، ولكني لا أسجنه هذه المرة في الآبار .

وكانت كل تصوّراته منصرفة إلى ساعة فراره والانتقام من رولاند ، وكان يسلّي نفسه باختراع آلات التعذيب التي يعذّبه بها حين الإفلات منه والظفر به فإذا خطرت له وسيلة أرضته ابتسم ابتسام الرضى ونسي كل ما هو فيه .

وقد اجتازوا المسافة من روما إلى بادو بثمانية أيام لم ينبس رولاند في خلالها بكلمة . وعندما وصلوا إلى بادو لم تسر المركبة في طريق البحيرات المؤدية إلى فينيسيا بل سارت في طريق ميستر

www.liilas.com

حتى إذا وصلت إليهـــا وقفت فيها وخرج رولاند من المركبة فحلّ محلّه سكالا برينو وجلس بجانب الكردينال. ثم واصلت المركبة سيرها دون أن يعود رولانـد . ولم يكن بمبو يرى شيئاً ولكنه كان يسمع ، فسمع وقع حوافر خيل كثيرة علم منها أن كوكبة من الفرسان تحرس المركبة .

أمـا رولاند فإنه ذهب إلى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه جوانا مع أبيه وبيانكا ، فدخل إلى الحديقة عند هجوم الظلام وطرق الباب بشكل اصطلاحي، ففتح الباب وظهر منه آريتان الشاعر ، وقد تنهّد آريتان تنهداً عميقاً حين رأى رولاند وحاول أن يظهر مـا لقيه من الضجر في هذه الأيام . ولكنه لم يصغ إلى حديثه وسأله قائلاً : هل فعلت مـا أوصيتك أن تفعله ؟ فقال آريتان : نعم ، فتعال وانظر .

فسار في أثره وفتح آريتان باب غرفة فرأى رولاند منظراً غريباً ... وهو أنـه رأى مائدة عليها صندوق مستطيل يشبه التابوس وقد أوقدت شمعة عند أوله وشمعة عند آخره وغطي هذا الصندوق بقطعة من الجوخ الأبيض ، وقرب هذا الصندوق امرأة جالسة تبدو عليها علامات الكآبة . فقال آريتان بصوت منخفض: إنها بيرينا، وقد صحبتني بالرغم مني مع أنك أمرتني أن أكون وحـدي ولكني لم أستطع مخالفتها لشدّة إلحاحها . فقاطعه ومشى إلى ذلك الصندوق فأزاح عنه الغطاء وظهر عند ذلك أنه تابوت . وقد كان هذا التابوت من خشب السنديان وقد كتب عليه بمسامير رؤوسها سوداء مـا يأتي على هذه الصورة :

« بيانكا ابنة امباريا ، ماتت في السادسة عشرة من عمرها قتيلة بيد الكردينال والأسقف بمبو » .

فأعاد رولاند الغطاء إلى مـا كان عليه وعند ذلك قال له آريتان : إني وضعت بيانكا كما أمرتني في صندوق من خشب الأرز ثم وضعته في صندوق من الزنـك ثم وضعتها في صندوق ثالث من السنديان . وقـد لقيت عناء شديداً لاضطراري إلى تنفيذ أوامرك وحدي ولا سيما حـين نقلته إلى هنا . فقال له رولاند : ألم يعلم الرجال الذين نقلوه إلى هنا ما كان فيه ؟

— كلا ، فلم يعلم به أحد .

— حسناً ، فعد الآن إلى فينيسيا . ثم التفت إلى بيرينا وقال لهـا : ألست أنت يا ابنتي التي أرشدتني إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا ؟ قالت : نعم يا سيدي .

— لماذا ألححت بمراقبة جثة هذه المنكودة ؟

— لأني كنت أحبها حباً شديداً مع أني لم أرهـا إلا بضع ساعات .

— قولي الحقيقة يا ابنتي فـإذا لم تكوني سعيدة في منزل سيدك تكفّلت بإسعادك بموافقة آريتان .

فاصفرّ وجه آريتان وقال : إنها حرة . فنظرت بيرينا إلى آريتان نظرة المشفق وقالت : من عسى يريحه إذا فارقته ومن يعتني به حين يمرض ومن يمسح دموعه حين يبكي؟ فأجابها آريتان بصوت يتهدّج من التأثر ، قال: أحقّ يا بيرينا أنك لا تفارقيني؟ ولكن هذا السيد رجل عظيم قادر يكفل سعادتك كما قال وهو

لا يعرف الكذب . فقالت له : هلمّ يا سيدي فإن سعادتي بأن أرضيك .

فبكى آريتان حنوّاً وقال : إذن أنت تحبينني يا بيريتا فاعلمي أني لا أنسى حنوّك وأنا الذي يكفل سعادتك الآن فهلمي بنا فإنك لا تكونين خادمتي بعد الآن بل ستكونين زوجتي . فقال له رولاند : وعندما تفعل ذلك فاحضر إليّ لتقبض ثلاثين ألف ريال عينتها مهراً لهذه الفتاة . والآن فاذهبا .

فودعاه وانصرفا فباتا تلك الليلة في فندق وفي مساء اليوم التالي دخلا إلى قصر آريتان وسيجدهما القراء فيه قريباً .

قبر بيانكا

*

إن المركبة التي سارت بالكردينال وسكالا برينو ذهبت بطريق تريفيز فكان يخفرها اثنا عشر فارساً ساروا بها إلى مغاور بيافا ثم وقفوا عند المغارة السوداء . وكان الكردينال في خلال هذه الأيام التسعة قد اطمأن بعض الاطمئنان فإنه افتكر ملياً وانتهى بقوله : لأعلم الآن أين يريد أن يضعني وبعد ذلك نرى ما يكون .

ولم يكن حقده قد زاد على رولاند إذ كان مالئاً قلبه فلم يتّسع لمزيد . وقد أخذ في خلال السير ينتقد عليه ويسفّه أعماله فيقول : إني لو كنت مكانه وقبضت على بمبو لما أبقيت عليه لحظة ولَمَا سجنته فإنه قد يهرب من سجنه ! ولكن الأبله لم يقتلني وقد كان يجب أن يقتلني حين رآني ، وسيرى كيف يعضّ أصابعه ندماً ويأساً .

وعندما وقفت المركبة وأنزلوه منها نظر نظرة إلى ما حواليه وعرف من اشتداد الظلام أنهم أوقفوه قرب المغارة السوداء . وقد أخذ سكالا برينو بيده وسار به إلى أن بلغا باباً ففتح أمامها ، فذعر بمبو إذ ذكر هذا السجن وذكر ما لقيه فيه في المرة الأولى من العناء وحاول أن يمتنع عن الدخول ولكن سكالا برينو دفعه إلى الداخل ودخل في أثره . غير أن الكردينال لم يلبث أن دخل حتى ذهل إذ لم يرَ ذلك السجن الرهيب الذي كان فيه ، بل وجد نفسه في غرفة مفروشة فرشاً جميلاً .

أما سكالا برينو فإنه أقفل الباب من الداخل إقفالاً محكماً وجلس على كرسي دون أن ينبس بكلمة . وكان يجتنب أن ينظر إلى الكردينال كأنه كان يخشى أن يخالف الأوامر الصادرة إليه ويبطش به ، ولكن عروقه كانت تنتفخ من حين إلى حين وكانت عيناه تتقدان وينتفض انتفاضاً ظاهراً مما يدلّ على أنه كان يميل إلى عصيان أوامر رولاند وقتل هذا الرجل كما كان يميل عليه حقده وبغضه الهائلان .

وقد جلس الكردينال أيضاً على كرسي في تلك الغرفة المضاءة

وقال في نفسه : ترى أيريد رولاند أن يحمل هذه الغرفة سجني؟

وقد توالت الساعات والسكوت سائد حواليه إلى أن خيّل له أن سكالا برينو قد نام فنهض ومشى إلى جهة الباب وقلبه يخفق خفوق أجنحة الطائر . غير أن سكالا برينو كان قد أسند كرسيه إلى ذلك الباب وجلس عليه فتراجع الكردينال خائباً وهو يقول في نفسه : لا سبيل إلى الخروج من هنا الآن ولكني لا أعدم وسيلة للفرار .

وقد انتهى به الأمر إلى أنه نام نوماً متقطعاً . ثم استيقظ فجأة لوقوع أقدام سمعها ونظر إلى الباب فوجده مفتوحاً ولم يجد سكالا برينو في الغرفة . وكان المصباح لا يزال على المائدة يضيء تلك الغرفة فرأى رولاند واقفاً أمامه ، فذعر لمنظره حتى أنه لم يستطع النهوض . أما رولاند فإنه قال له : تعال .

ثم برح الغرفة وترك بابها مفتوحاً فلبث الكردينال في موضعه وقد جمد مكانه من الرعب إلى أن سرى إلى قلبه الرجاء فجأة فنهض وخرج من ذلك الباب إلى رواق مقفر ، وقد نظر إلى يمينه فلم يرَ غير الظلام الحالك فنظر إلى يساره فرأى نوراً ضعيفاً فارتعش سروراً ومشى في الظلام وهو يرجو أن يجد منفذاً وأن يتوارى في ذلك الظلام عن عيون المراقبين. ولكنه لم يكد يسير عشر خطوات حتى لقي ثلاثة رجال لم يكلموه كلمة ولكنهم جعلوا يدفعونه بجرايهم إلى المكان الذي جاء منه . فتراجع ذليلاً حقيراً ، وما زالوا يدفعونه حتى انتهوا به إلى مكان تألقت فيه أنوار المشاعل بما يبهر البصر ورأى والذعر ملء قلبه انه بات

ضمن دائرة غصت بالرجال والخناجر مجردة بأيديهم ، فأيقن بمبو أنه قضي عليه لا محالة وأصيب لرعبه بما يشبه الدوار فسقط جاثياً على ركبتيه ولكنه بذل جهداً عنيفاً فتمكّن من النهوض ثم شدّ نفسه تباعاً فنظر إلى أولئك الرجال المحدقين به نظرات دموية وقال : ماذا تريدون مني ؟

فانبرى من بينهم رجل وقال له بصوت هلع له قلب الكردينال من الخوف : أنا سأخبرك بماذا يريدون منك .

وكان هذا الرجل رولاند ، فدنا منه ووضع يده على كتفه وقال له بصوت جهوري كان يسمعه الجميع : إنك في سابق الزمان لم تكن شيئاً مذكوراً بل كنت رجلاً مكروهاً يحتقرك الناس ويحتقبونك ويسيئون بك الظنون فلم تجد بينهم غير رجل واحد تأثر لشقائك وأشفق عليك ورآك ذكي الفؤاد قويّ الارادة فجعلك في عداد أصدقائه وفتح لك أبواب منزله وأغدق عليك النعم فمهّد لك سبيل المستقبل بحيث بلغت بفضله ما بلغت . أما هذا الرجل فهو أنا ، فانظر الآن بماذا كافأتني لقد أعميت أبي وقتلت أمي وقضيت عليّ أن أموت في الآبار . فضحك بمبو ضحكاً هائلاً وقال : لقد كنت أبغضك أكثر مما كنت أبغض أولئك الذين كانوا يحتقرونني ولا أزال أبغضك بملء جوارحي .

— ليكن . وقد قبضت عليك أول مرة وسجنتك هنا وأنا أرجو أن تعتزل وتعينك العزلة على التفكير والندم على إساءتك إليّ بحيث يأتي يوم أصفح فيه عنك. فلما نجوت من سجنك عدت

إلى جرائمك بقتلك فتاة بريئة ، فقل بماذا أساءت إليك هـذه الفتاة ؟

– لقد كنت أحبها وأقسمت أن تكون لي ، لي وحدي . فلو لم تمت .. أواه ، إنها لو كانت حية ..

– أكنت تقتلها أيضاً ؟

– كلا ، ولكني كنت أكون أشدّ براعة من قبل فأتمكن من القبض عليها قبل أن تنتحر كما فعلت .

فاصفرّ وجه رولاند لهـذا الخبر الفجائي وأيقن أن تلك المنكودة قتلت نفسها بيدها تخلصاً من عار الفضيحة . وقد سمع عند ذلك أنيناً من ورائه فقال : صبراً يا والد بيانكا .

أما بمبو فإنه ضحك كما ضحك أول مرة وقال وقد هدّد السماء بقبضتيه : إنك تنتصر ، ولكني إذا متّ فقد انتقمت لنفسي قبل الموت بموت التي تحميها أنت .. تلك التي لم يقتلها غير حبي. فاقتلني إذا أردت فإني أموت قرير العين بهذا الانتقام، لأن تلك التي تحبها لم تمت لولاي . فيا أيتها السماء وأقمارها اشهدي بأني أموت آمناً مسروراً . أما هو فيعيش ليتعذب ، فإنه ليس من الذين ينسون . وأنت يا رولاند ، إني أكرهك . واعلم أنه لو كانت بيانكا نفسها لي وأعطيت معها كنوز الأرض لتخليّت عن بيانكا وعن الكنوز مقابل ساعة أستطيع تعذيبك فيها . فاضرب الآن ، فقد قرأت بين عينيك أنك قضيت عليّ .

فالتفت رولاند إلى المحيطين به وقال: ماذا تقولون أيها الإخوان؟ أيستحق هذا الرجل أن يحيا ؟

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين : ليمت . قـال : أيستحق هذا الرجل أن يموت من دون تعذيب ؟ قالوا : كلا ، فليعذّب .

وعند ذلك قبض اثنان على الكردينال وسارا به على مسافة بضع خطوات من ذلك المكان إلى مكان كان فيه صخر كبير حفروه حتى بات يشبه الكهف . وكان نعش بيانكا موضوعاً عند مدخل هذا الكهف فرآه بمبو وقرأ ما كان مكتوباً عليه فاهتز اهتزازاً عنيفاً وتراجع منذعراً ولكن الرجلين كانا قابضين عليه . وهناك تمثلت له حوادث تشبه أحلام النائمين فإنه رأى نحو عشرين رجلاً حملوا النعش ونقلوه إلى الكهف في قلب الصخر ، فجمد الدم في عروق بمبو وحوّل نظره عن ذلك النعش. وعند ذلك سمع صوت رولاند يقول هذا القول الغريب:

– أيها الكردينال ، إني ووالد بيانكا نغفر لك ذنبك ما زلت قد أصبحت من أهل القبور .

فاصطكت أسنان بمبو وقال : أنا الآن من أهل القبور ؟ ما معنى هذا الهزل ؟ إني أشعر بأن صوابي قد ضل . أأنا ميت ؟ من الذي يقول هذا القول؟ كلا! دعوني.. إلى أين تذهبون بي أيها... وقد اختلطت بقية كلامه بأنينه فلم يفهم منها شيء . والذي حدث هو ان رولاند لم يكد يتم كلامه حتى دفع الرجال بمبو إلى ذلك الكهف ، أي إلى قبر بمبو ، وأخذ البنّاؤون في الحال يسدّون بالطين باب القبر .

أما بمبو فقد بات في حالة لا تستطيع وصفها الأقلام إذ كان

يثب في ذلك القبر وثوب المجانين وكانوا يسمعون صوته من الخارج فيرتعشون رعباً لتصوّرهم هذا المشهد .

وقد اشتغل البناؤون ساعة في سدّ باب القبر فلمّا أوشكوا أن ينتهوا من سده ضحك بمبو ضحكاً هائلاً اصفرّت له وجوه الحاضرين وقبل أن يضعوا الحجر الأخير خطر لأحد البنائين أن ينظر إلى داخل القبر فرأى بمبو منطرحاً تحت النعش وقد فارق الحياة . ولما تمّ سد الباب ألقوا فوق الصخرة كثيراً من الحجارة الصغيرة والتراب .

وقد زرعوا فوقها نباتاً من نبات الجبال السريع النموّ فلم تمض بضعة أيام حتى نبت الزرع فوق تلك الصخرة بحيث لم يعد يخطر لأحد أن ذلك النبات يوجد تحته قبر بيانكا ابنة المحظية امباريا وقبر الكردينال بمبو أسقف فينيسيا .

*

أمـــا رولاند فإنه عيّن عشرين رجلاً لحراسة الصخر شهراً كاملاً ثم عـــاد مع سكالا برينو إلى ميستر فذهب منها إلى البحيرات، وفي الساعة العاشرة من المساء دخل إلى بيت الجزيرة.

قبر آخر

*

كان أول ما اهتمّ به رولاند حين وصوله إلى بيت الجزيرة أنه

تفقّد أباه الشيخ كي يطمئن بأنـــه لم يحدث له ما يكدره أثناء غيابه وكان الدوج الشيخ نائماً نوم الأطفال فوقف رولاند هنيهة يتمعّن في وجهه وهو مضطرب ذلـك الاضطراب الذي يحدث عادة لمن يلتقي بمن يحبه بعد فراق كان خائفاً فيه عليه ، أي أن ذلك الاضطراب لم يكن ناشئاً عن تقريع الضمير بعد ذلك القضاء الذي قضى به على الكردينال .

ونعم إن ذلك القضاء كان هائلاً وأيّ قضاء أشدّ وأفظع من أن تسجن رجلاً في قبر مع جثة التي قتلها وتسدّ عليه باب القبر بالطين والحجارة وتدفنه في قيد الحياة، ولكن الأخلاق والعادات تختلف باختلاف العصور والأزمان فقد كانت إيطاليا في ذلـك العهد مسرحاً للأعمال الهائلة وساحة للمعارك الدموية لا تنار إلا بنيران الحرائق ولا يلقى فيها غـــير العصابات تنهب الأرض وتسفك الدماء ولا يسود بـين قومها غير الجرائم بحيث تولّدت القسوة في القلوب وبات الانتقام من أخصّ مطالب الناس .

على أننا لا نبحث في أخلاق أبطال هذه الرواية كما تقدّم لنا القول في أحد الفصول السابقة بل نروي حديث أعمالهم . وعلى الجملة فإن انتقام رولاند لو حدث في هذه الأيام لكان مما تقشعر له الأبدان ويندى منه جبين الإنسانية خجلاً ، وأما في ذلـــك العصر فقد كان أمراً محموداً .

ومهما يكن من الأمر فإن رولاند على شدة إشفاقه وميله إلى العفو عند المقدرة لم يجد في قلبه أية رحمة حين قضى على بمبو هذا القضاء ، ولذلـــك لم يشفق عليه ولم يعفُ عنه ولا سيما ان

الكردينال لم يستعطفه بكلمة بل كان يهيج في صدره البغضاء بما كان يقوله مما يدل على توطّن الحقد في قلبه .

وبعد أن أقام رولاند هنيهة يتمعن في وجه أبيه فارقه ونزل إلى حيث ينتظره سكالا برينو فأقام معه يتحادثان بأحاديث مختلفة دون أن يذكر بيانكا أو بمبو بحرف . وبعد ذلك تركه رولاند فخرج سكالا برينو من المنزل وذهب إلى الأرصفة القديمة في ليدو وهناك جعل يسير ببطء وهو يفكر في مشروع لا بدّ أن يكون شخصياً لأنه لم يطلع عليه رولاند . وقد كانت السكينة بادية في وجهه في حين أن النار تتأجج في قلبه .

وما زال يسير حتى وقف عند منزل كان مكتوباً على بابه بحروف كبيرة : «خمارة مرسى الذهب» . وهناك وقف يراقب فرأى أن الباب مقفل ولكن النور ينبعث من خلال شقوقه فقال في نفسه : إن زبائن هذه الخمارة مجتمعون . ووقف ينتظر .

ويذكر القراء أن لهذه الخمارة بابين يؤدّي أحدهما إلى رواق قصير . فوقف سكالا برينو نصف ساعة ثم رأى ذلك الباب قد فتح وخرج منه رجلان فعرف أن أحدهما برتولو صاحب الخمارة ولم يعرف الثاني لأنه كان ملتفاً برداء كبير . وقد خرجا وتركا الباب مفتوحاً فسارا بضع خطوات وهما يتحدّثان كأنهما يتمّمان حديثاً قديماً . أما سكالا برينو فإنه اغتنم هذه الفرصة ودخل إلى الرواق من الباب المفتوح فدخل إلى الخمارة وذهب بملء السكينة إلى قاعة الاجتماع فأقام ينتظر .

ولا بدّ لنا هنا أن نذكر للقراء قصة ذلك الرجل الذي كان

مع برتولو ولم يعرفه سكالا برينو ، ولذلك نعود قبل ساعة إلى تلك الخمارة فنقول :

دخل هذا الرجل إلى الخمارة وجلس على مائدة قرب الشاربين كرجل تعوّد زيارة هذا المكان . وكان برتولو قد عرفه دون شك فصرف جميع زبائنه حتى إذا لم يبقَ فيها أحد كشف الرجل القناع عن وجهه فظهر جينارو رئيس البوليس . وعند ذلك قال له برتولو : إذا كان سيدي يريد أن يشرب فإن لديّ خمراً معتقة من أفضل الخمور الفرنساوية . فوافقه الرئيس على ذلك ، وبعد أن شرب كأساً سأله قائلاً : ما وراءك من الأخبار؟

قال لديّ أنباء خطيرة .

— ما هي ؟

— أولها أن رولاند قد برح فينيسيا .

— أتعلم إلى أين ذهب ؟

— إن أخصّاءه يؤكدون أنه ذهب إلى ميلانو .

— حسناً ، فليس هذا الذي أريد أن أعرفه ، فقل لي بماذا يتحدثون في الميناء .

— إنهم لا يتحدثون يا سيدي إلا برولاند ، فإنه منذ ظهر للبحارة وقال لبعضهم إن حوادث عظيمة ستحدث قريباً في فينيسيا لم يعد لهم شاغل إلا حديثه وكلهم معجبون به حتى أنهم كانوا يتحدثون الآن في هذه الخمارة فيطعنون بالدوج فوسكاري أقبح طعن ويرجون أن ينقذ رولاند الجمهورية من قبضته .

— أتظن حقيقة أن شعب فينيسيا ينتصر لرولاند ؟

– أتأذن لي يا سيدي أن أتكلم بجلاء ؟

– بل آمرك .

– إذن فاعلم أن معتقدي هو أن رولاند كانديانو لا يلبث أن يظهر لشعب فينيسيا حتى يهبّوا هبة واحدة لنصرته ، ولكن جيشنا وبوليسنا قويان لحسن الحظ .

– نعم هو ذاك . ولكنك ستتبع تعليماتي في انتظار هذه الحوادث .

– معاذا الله أن أخلّ منها بحرف فإني حين أجتمع بأولئك البحارة أظهر لهم أني أشدّ منهم حقداً على فوسكاري ، وعندما يذكرون والد رولاند الأعمى أتظاهر بالبكاء إشفاقاً عليه .

– حسناً تفعل . والآن ، أتظن أن رولاند غير موجود في فينيسيا ؟

– بل أظن أنكم تعرفون من ذلك فوق ما أعرف .

– ورفيقه ؟

– أي رفيق ؟

– ذلك الرفيق الذي لا يفارقه لحظة ، أي سكالا برينو .

فابتسم برتولو وقال : سكالا برينو ؟ قال : نعم ، وأظن أنه يدعى بهذا الاسم .

– إذن يجب ألا تهتمّ يا سيدي لهذا الرجل .

– كيف لا أهتم له وهو خصم شديد ؟

– لقد كان كذلك .

– ماذا تعني ؟

– أعني أنه إذا كان رولاند في ميلانو كما يقولون فإن سكالا برينو قد سافر سفراً شاسعاً لا يعود منه وأنا الذي قتلته .

– بورك فيك ، فإني حين لقيت هذا الرجل آخر مرة أي منذ عشرين يوماً ...

فوثب برتولو من موضعه كأنه قد تكهرب وقد اصفرّ وجهه فقال : أتقول يا سيدي إنك رأيت سكالا برينو منذ عشرين يوماً ؟

– رأيته بعيني ، ولكن لنبحث الآن في المهمّ وهو أني أريد منك أن تثابر على تحميس رفاقك وتجعل لهم ثقة لا حدّ لها برولاند كانديانو .

ثم نهض وخرج من تلك الحانة فتبعه برتولو إلى الخارج وهناك ألحّ عليه رئيس البوليس بوجوب اتّباع تعليماته وقال له : يجب على الأخص في أول شباط أن تبذل كل ما لديك من الجهد ، لأنه اليوم الذي يحتفل فيه الدوج حفلته الكبرى ، وبقدر ما يزيد الهتاف لرولاند يزيد الخطر عليه . وهنا أقول لك إنه إذا سألك رفاقك عن الأوامر التي أصدرتها إليك بشأن تلك الحفلة فقل الحقيقة بتمامها .

وعند ذلك فارقه الرئيس فوقف برتولو هنيهة حائراً مبهوتاً إذ لم يدرك شيئاً من مقاصد رئيس البوليس . وكان برتولو هذا من أخص رجال البوليس وله نفوذ عظيم بين أهل الميناء فلم تكن تخفاه خافية من أمورهم بحيث كان أعظم جاسوس لدى جينارو . فلما توارى رئيس البوليس عنه لم يعد يفتكر بأوامره وخفايا مقاصده بل جعل يفتكر بسكالا برينو وبذلك النبأ الغريب الذي

نقله إليه الرئيس إذ قال له إنه رآه بعينه وهو أمر لا يحتمل التصديق لغرابته . فبعد أن افتكر مليا قال في نفسه : لا شك أن الرئيس قد أخطأ إلا إذا كان قد رأى الشيطان يتمثل له بشكل سكالا برينو .

ولم يكن يقول هذا القول على سبيل المزاح بل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الشيطان قد تمثل له بهذه الصورة لاعتقاده أيضاً أن مثل رئيس البوليس لا يمكن أن يخطىء . وإنما خطر له الشيطان إذ لم يكن يخطر في باله أن سكالا برينو يحيا بعد الموت ويستطيع الخروج من ذلك القبو بعد أن ابتلعته الامواج فيه . ولذلك عاد آمناً إلى الحارة فأقفل بابها ودخل فجعل يحسب نقوده وإيراد الليلة حسب عادته كل يوم . ولما أتمّ عدّ نقوده ذهب إلى باب ذلك القبو الهائل فوقف عنده موقف الحائر المبهوت وجعل يقول : ترى ، أيمكن ذلك أن يكون ؟

ثم فتح ذلك الباب وأطل منه باحثاً عن الجثة وكان الماء قد فرغ من القبو . فلما لم ير شيئاً لاشتداد الظلام عزم على أن يحضر مصباحاً وينزل إلى القبو فيبحث عن الجثة . وقد دخل إلى القاعة العمومية فلم يكد يطأ عتبة بابها حتى وقف والذعر ملء قلبه إذ رأى سكالا برينو جالساً على مائدة وقد أسند رأسه إلى يده وجعل ينظر إليه . فلما رأى سكالا برينو ما كان من جموده وانحباس لسانه قال له : أهكذا تستقبل أصحابك القدماء يا برتولو ؟ فطاش رأس برتولو ولم يصدق ما رآه فقال : ولكني أرى وجهه وأسمع صوته وما أنا بحالم فكيف هذا ؟ أأنا هو

برتولو الواقف أمامه ؟ أهو هو سكالا برينو الناظر إلي ؟

فقال له سكالا برينو : إني عالم يقيناً بأنك ستقدّم لي من تلك الخمرة المعتقة في ذلك القبو الشهير .

ثم نهض ومشى إليه فجعل برتولو يتراجع وسكالا برينو يتقدم وهو يقول له : إن باب القبو مفتوح وما عليك إلا أن تنزل إليه فإن صديقك ساندريجو ينتظرك وقد سئم صبراً .

وكان التهكم ظاهراً في أقوال سكالا برينو ولكنه لم يكن يريد التهكم . ومازال برتولو يتراجع حتى التصق بالجدار ومد يده كأنه يريد اتقاء هذا الخيال . وكان سكالا برينو قد وصل إليه ووضع يده على خنجره وهمّ بقتله ولكنه أنف من قتله وهو على هذه الحال . أما برتولو فإنه كان قد تشجع قليلاً وحلت عقدة لسانه فقال له : أتريد أن تشرب أيها الصديق ؟ فضحك ضحكاً هائلاً وقال : لقد ملأت جوفي من مياه قبوك فأشكرك .

— أقسم لك بأني لست أنا الذي ألقاك في القبو بل إني لم أكن أريد لك هذا ، ولكن ساندريجو كان صاحب هذه الفعلة المنكرة وقد حذّرته كثيراً ومنعته مراراً عن هذا القصد . واعلم يقيناً أيها الصديق أني لا أريد لك سوءاً .

— وأنا كذلك .

— إذن ماذا تريد مني وماذا أتيت تعمل هنا ؟

إني أتيت لأقتلك يا برتولو .

— كلا . إنك لا ترتكب هذه الجناية وما أنت إلا مازح دون شك وإلا كيف يخطر لك أن تقتلني وأنا لم أسيء إليك بشيء

بل كنت أثني عليك منذ ساعة ؟

– مسكين يا برتولو ، لم يخطر لي أنك تخاف الموت إلى هذا الحد .

وكانت أسنان برتولو تصطك من الرعب والعرق يسيل من وجهه وقد امتقع حتى بات بلون الأموات فقال لسكالا برينو : نعم ، فقد عرفتك رقيق الشعور وأنك لا تقتلني دون شك ، فهل تريد أن ألتمس العفو منك جاثياً على ركبتي ؟

وقد ركع عند ذلك فقال له سكالا برينو : إنهض .

وكان في نية سكالا برينو أن يقتله ولكنه حين جاء إليه كان يعتقد أنه سيلقى خصماً ينازله لا أن يبطش به بطش النمر بالنعجة . أما برتولو فإنه تنفّس الصعداء ووقف وهو يقول : إنك ستصفح عني ، أليس كذلك ؟ وحسناً تفعل أيها الصديق فإني أقسم لك بالله أن ساندريجو صاحب تلك الفعلة وأني لا يد لي فيها .

فسكت سكالا برينو ولم يجب . فقال برتولو في نفسه : ترى ما عساه يصنع ؟ أيقتلني ؟ ولكني أراه أغمد خنجره ، ألعلّه يريد خنقي ؟

فقال له سكالا برينو : أصغ إلي يا برتولو ، فإنهم يعتقدون أنك أشدّ وأبسل رجال فينيسيا ، وإني أردت أن اقتلك لأنك أردت قتلي . والآن جميع تلك المصاعب قد حدث معظمها بسببك فأنت لا تستحق الحياة ولكني أشفقت عليك كما قلت لك ...

– أرأيت أنك طيب القلب ؟

– هو ذاك ، ولذلك أقترح عليك قتالاً منظماً ولا أقاتلك بالخنجر بل بالأيدي ، فتأهب وهلمّ بنا .

فاتقدت عينا برتولو ببارق من الرجاء وقال : إذا كان ذلك فافسح لي مكاناً على الأقل . فتراجع سكالا برينو خطوتين وهو يقول : إحذر لنفسك أيها الشقي ، إني سألقيك في القبو .

وعند ذلك هجم برتولو على غرة فانتزع الخنجر من منطقته وطعنه به طعنة نجلاء . غير أن سكالا برينو تمكّن من الوثوب قبل أن يصل الخنجر إلى صدره فأصاب ذراعه وأسال دماءه . وفي الوقت نفسه أصيب برتولو بضربة هائلة على رأسه كادت تضيع رشده وسقط الخنجر من يده ، فرفس سكالا برينو الخنجر برجله وهجم عليه فكان القتال شديداً بين الاثنين وكلاهما مشهود له بالقوة البدنية وكلاهما حاقد على خصمه حقد الموت . إلى أن تمكن سكالا برينو من تطويق ظهر خصمه بيديه وجعل يضغط ضغطاً عنيفاً بينما كان برتولو ينهش وجه سكالا برينو ويعضه .

ومازال على ذلك إلى أن تلاشت قواه وانحلّت عزيمته وسمع صوت تكسير عظامه فلم تكن غير لحظة بعد ذاك حتى انقلب رأسه إلى كتفه الأيسر وأسلم الروح . فأطلقه سكالا برينو عند ذلك فسقط إلى الأرض جثة هامدة فرفسه برجله إلى القبو وسمع صوت سقوطه فيه فأقفل الباب وعاد بملء السكينة كأنه لم يفعل شيئاً .

هذه كانت خاتمة المبارزة بين الرجلين وقد فقد جينارو رئيس البوليس بموت برتولو أعظم ركن من أركان جواسيسه الذين كان يعتمد عليهم في المهمات ولا سيما في ذلك اليوم العظيم الذي لم يكن

يعلم لمن يستتبّ النصر فيه ، ألفوسكاري أم لرولاند .

صديقان

*

قبل هذه الحوادث المفجعة ببضعة أيام كان الدوج فوسكاري وجينارو رئيس البوليس جالسين في قاعة الاستقبال في سراي الدوج . وكان الدوج جالساً في كرسي عظيم ورئيس البوليس واقفاً أمامه وقفة الاحترام . وكان الدوج يحمل بيده رسالة قد قرأها نحو مائة مرة وهو لا يزال يقرأها وهذه هي : « صديقي ومولاي ، حدثت حوادث لم تكن في الحسبان قضت عليّ أن أبرح فينيسيا دون أن أراك ، على أني أرجو أن أعود إليك في أقرب حين فأعاود أعمالي لديك وما هي إلا الإخلاص والوفاء . ولذلك أسألك أن تصفح عني لهذا السفر الفجائي وأن تعلم يقيناً أني في القرب والبعد صديقك وخادمك الأمين » .

بمبو

« أسقف فينيسيا بحول الله »

« حاشية : لا بد لي من أن أوصيك هذه الوصية وهي : أسرع بالإجراء ضد الذين تعرفهم . أما ذلك الرجل الذي حال دون مخابرتك مع مدسيس فإذا لم يكن بوليسك قادراً على القبض عليه في الحال كان الخطر شديداً ، فتدبّر » .

وكان بمبو قد كتب هذه الرسالة قبل سفره وأوصلها إلى الدوج بطريقة مضمونة في نفس ذلك اليوم الذي دخل فيه إلى منزل آريتان . فقرأ الدوج مراراً هذه الرسالة التي حرمته الرقاد لشدة خوفه من عباراتها الأخيرة . وقد دعا رئيس البوليس إليه وقال له : هل عرفت شيئاً عن الكردينال ؟ ألم تسفر أبحاثك عن شيء ؟ قال : أظن يا مولاي أني عرفت المكان الذي ذهب إليه نيافته ، ولكني أسألكم قبل كل شيء أن تعلموا بأني لا أعلم أمراً مؤكداً ، فإن جواسيسي قد انتشروا في كل مكان دون ان يعثروا بشيء . وكل ما أقوله لكم مبني على الظن .

— ما الذي تظنه ؟

— أظن أن الكردينال خاف .

فأجابه بلهجة دلت على العظمة : ممّ يخاف هذا الكردينال العظيم في ظل الجمهورية ؟

فانحنى الرئيس بملء الاحترام وقال : إنه وإن كان كاردينالاً فهو رجل ، ومهما علا مقام الرجل فقد يجد إذا فتّش في ماضيه خيالاً يزعجه في لياليه .

— هل وجدت هذا الخيال ؟

— نعم يا مولاي ، وهو يدعى رولاند كانديانو .

فبذل الدوج جهداً عنيفاً كي يخفي اضطرابه ولكن هذا الاضطراب لم يخفَ على رئيس البوليس فقال في نفسه : لقد سنحت الفرصة لإلقاء ذلك الخطاب الذي طالما ردّدته عند المرآة فلأتأهّب لتمثيل دوري فإن الحياة تمثيل لا يفوز فيها غير البارع

www.liilas.com RAFAHEEN

فيه. وقال له الدوج: إذن أتحسب أن الكردينال خاف رولاند؟

– لا أقول ذلك يا مولاي على سبيل الظن بل على سبيل اليقين، ولا حاجة إلى تذكير عظمتكم بتلك الضربة الهائلة التي أصيبت بها أسرة كانديانو. وحاشاي أن أكون أردت بهذه الذكرى تقريع أحد من الناس، ولكن الضربة كانت قاضية على تلك الأسرة قضاء لا يحتمله التصوّر، غير أن رولاند قد نجا من السجن يا مولاي.

– وماذا تستنتج؟

– أستنتج على سبيل الظن أن الكردينال بمبو كان أحد الذين ضربوا أسرة كانديانو تلك الضربة، وأن رولاند حاقد على الكردينال حقداً هائلاً، وأن الكردينال يعرف هذا الحقد حق العرفان فهو لم يسافر إلا لأنه خاف.

فحدق فوسكاري به وقال له: أتحسب أنه يوجد أيضاً غير الكردينال من يخاف رولاند؟

– كلا يا مولاي، لأن أولئك الذين أشرتم إليهم ليسوا من الذين يهربون حين تثور العاصفة بل إنهم يقتحمون الأخطار حتى يفوزوا. وأظن أني غير محتاج إلى ذكر أسمائهم.

فأطرق الدوج هنيهة مفكراً ثم ابتسم وقال: إنك رجل ماهر يا جينارو. فانحنى وقال: إن سيدي يغمرني بإحسانه.

– أين ذهب الكردينال فيما تظن؟

– إنه هرب إلى روما.

– لماذا ذهب إلى روما ولم يذهب إلى ميلانو أو فلورنسا مثلاً؟

– لا بد أن تكونوا سمعتم بتلك الحظية الرومانية التي أقامت عندنا وكان لها شهرة عظيمة.

فاصفرّ وجه الدوج وقال: أمباريا؟

– هي بعينها. والذي أظنه أنه يوجد بينها وبين الكردينال علائق سرّية تقضي عليه بأن يكون حيث تكون، ولمّا كانت أمباريا قد ذهبت إلى روما فقد ذهب هو إليها في نفس ذلك اليوم.

فنهض الدوج وحاول الرئيس أن ينصرف لاعتقاده أن الدوج يريد ذلك. ولكن الدوج أوقفه بإشارة وقال له: ابقَ فإني أريد محادثتك واجلس أمامي.

– مولاي!

– إني أريد أن تجلس فاجلس فإنك أعظم من أن تلبث واقفاً بحضرتي.

فامتثل الرئيس شاكراً وبدأ الدوج الحديث فقال: دع الآن الحديث بشأن الكردينال فهو يعود حين يريد.

– هذا إذا كان يستطيع.

فارتعد فوسكاري وقال: كيف ذلك؟ فقال جينارو: أريد أن أقول يا مولاي إني أعتقد بأن الكردينال بمبو لن يعود إلى فينيسيا، وأنه يسافر السفر الأكبر الذي لا يعودون منه على الإطلاق. واسمح لي يا مولاي أن أتكلم بصفتي رئيساً للبوليس وإن كان ذلك من واجبات سواي في هذا المقام.

– واجبات من؟

– واجبات رئيسي، رئيس ديوان التفتيش.

– ولكنك تعلم يقيناً أن رئيس ديوان التفتيش قد استقال ، وفوق ذلك فما الذي تنتظره من دندولو وأنت تعلم أنه عاجز الهمة عاجز الرأي ؟ فقل ما تريد قوله .

فقال جينارو : نعم ، إن منصب رياسة ديوان التفتيش خال لتكد الطالع في هذه الأيام التي يجب أن يكون فيها رئيس حازم قوي الإرادة .

– أي يكون مثلك ؟

– كلا يا مولاي ، فإني غير خليق بهذا الشرف .

– وأنا أقول لك أخدمنا في هذه الأحوال بما عرفت به من الإخلاص ، بل أخدم الجمهورية كما يجب أن يخدمها رئيس ديوان التفتيش ، ولا تخف أن يذهب أملك سدى .

فوقف جينارو وقال : إذن لتتكلم بحرية وجلاء يا مولاي ، فإني أنتظر من عهد بعيد أن أسمع ما سمعته الآن من عظمتكم ، وإن همتي أعظم من أن تتقيد بمنصبي الحاضر .

– أي أنك تسألني تعيينك بدلاً من دندولو ؟

– هو ذاك يا مولاي .

– إذن أعدك بهذا المنصب فاجتهد أن تستحقه .

– سأبذل جهدي يا مولاي .

– ولا تحسب أني أعدك دون قصد الوفاء وسأعين لك يوماً محدوداً فعد إلي في اليوم الثاني من شهر شباط وذكرني بهذا الوعد تجد أني صادق به .

– هذا كل ما أرجوه يا مولاي ، وقد فهمت شروطكم. غير

أني اتخذت كل ما ينبغي اتخاذه من وسائل الاحتياط ليوم الحفلة الكبرى قبل أن يتفضل علي مولاي بهذا الوعد .

– حسناً فعلت ، والآن تقول إن الكردينال لن يعود إلى فينيسيا ؟

– أقول يا مولاي إن الكردينال قد بات الآن في قبضة رولاند فيما أعتقد .

– هذا الذي أريد أن أبحث فيه ، أي بهذه المؤامرة التي يدبرونها ضدي ، فإني قبضت على نحو مائتي رجل ولكني لم أطمئن بعد .

– ذلك لأنكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

– هذا الذي أعتقده . ولكن قل لي الآن كيف تمكنت من تعقب أثر رولاند إلى هذا الحد ولم تتمكن من القبض عليه ؟ أبلغ من ضعف بوليسنا أن رجلاً واحداً يعبث به عدة أشهر ؟

– يسوؤني يا مولاي أن لا أخوض في هذه المسألة لأني لا أحب الطعن بأحد .

– قل الحقيقة واطعن بمن يستحق الطعن .

– إني كدت أقبض على رولاند ثلاث مرات ولكن ما حيلتي وقد كانت أوامر دندولو ترد إلي في كل مرة مخالفة للخطة التي كنت أضعها فيلتوي القصد وتضيع الفرصة .

– وبعد أن استقال دندولو ؟

– برح رولاند فينيسيا .

– أأنت واثق مما تقول ؟

— إني لا أخطىء يا مولاي لأني لا أقول إلا ما أتبيّنه بنفسي ولا سيما في الأمور الخطيرة .

— ولكن لا بدّ من القبض على رولاند ومحاكمته فإنه يتولى الآن زعامة عصابات من اللصوص تشبه الجيش ، فإذا لم نقبض عليه كان خطراً دائماً على الجمهورية . ولكني أرجو أن لا يطول غيابه عن فينيسيا وأن لا ينجو من عدل القضاة .

— أسأل مولاي أن يطمئن فإن رولاند سيعود .

— إذا كان ذلك فإني مطلق يدك في العمل فتصرّف كما تشاء .

— ولكنك تمنحني يا مولاي سلطة عظيمة . ونعم إنها مؤقتة ولكني أستطيع بهذه السلطة أن أكره القائد العام نفسه على طاعتي .

— نعم ، أعرف ذلك وأردّد قولي السابق .

وعند ذلك أخذ الدوج ورقة فكتب عليها وأمضاها ثم ختمها بختم الجمهورية وأعطاها إلى رئيس البوليس . فأخذها جينارو وهو يرتعش سروراً وقال : لنبحث الآن يا مولاي في المؤامرة التي تتهمون بها فقد قلت لكم إنكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم . فارتعش الدوج وقال : من الذي يجب أن نقبض عليه ؟ وعند ذلك دخل الحاجب وقال : إن القائد العام على الباب يا مولاي وهو يلتمس الإذن بالدخول . فأشار الدوج إلى الحاجب بإدخاله وقام فأزاح ستاراً وقال لجينارو : اختبىء وراء هذا الستار وانتظر ذهاب ألتياري لتعود إلى تتمة بحثنا .

فامتثل جينارو ، ودخل ألتياري بعد هنيهة فقال : كنت

أحسب أن أجد هنا رئيس البوليس . قال : إنه ذهب الآن ، على أني أستطيع استدعاءه إذا كنت محتاجاً إليه . قال : كلا ، لا فائدة من حضوره . وجلس أمام الدوج . وكان الشيب قد بدأ يظهر في شعر ألتياري وبدت علائم التعب في وجهه ولكن عينيه كانتا لا تزالان براقتين تنبعث منها أشعة تدل على الإرادة الثابتة . وكان القلق بادياً عليه ، وذلك لأن المؤامرة التي يديرها بدأت بالوصول إلى الغاية منها ومع ذلك لم يكن راضياً . على أن اضطرابه لم يكن من غاية المؤامرة بل من سير المؤامرة نفسها فإنه دخل في سلكها مرغماً ثم أصبح بعد قليل رئيساً لها دون أن يسعى لنيل هذه الرياسة . وكان من أهل الطمع وهو يرجو أن يجعل الجمهورية ملكية ثم يجعل الملكية أمبراطورية ويصبح عظيماً كفرنسوا الأول وشارلكان .

ولكن الذي كان يخيفه أن جميع أعمال المؤامرة كانت تجري بسهولة لم يكن يتوقعها ، وكان يرى كثيرين من القوّاد يأتون إليه من تلقاء أنفسهم وينتظمون في سلك المؤامرة بينما كان يحسبهم من أعدائه . ولذلك كان يحسب أن يداً خفية قادرة تدبر شؤونه وتهيء له أسباب مجده . بل إنه توهم مرة أن فوسكاري واقف على أسرار المؤامرة وأنه لم يعاقبه إلى الآن حتى يدعه في اطمئنان إلى أن يتيسّر له أن يضربه الضربة القاضية .

كانت هذه الأفكار تتنازع في نفسه ولا يبرحه خيال ليونور فيضطرب لها هذا الاضطراب الشديد ، فإنه كان لا يزال يهوى ليونور كما كان يهواها قبل الزواج ويرجو أن يفتنها بالعظمة متى

فـاز بمرامه ووضع على رأسها إكليل الدوقية . وكان يقول في نفسه « إن ليونور من سلالة الحكام وإنها لم تحب رولاند من قبل إلا لأنه كان ابن دوج ، فمتى صرت دوجاً أحبتني دون شك » .

هـذا الذي كان يرجوه ألتياري من المؤامرة وهو أن يغنم قلب ليونور حين يفوز بالحكم ويتقلد الإمارة . وقـد جلس أمام الدوج كما تقدّم وهو متأهب لقتله إذا بدرت منه بادرة تدل على أنه واقف على سرّه . أما الدوج فإنه قـال له : حسناً فعلت بقدومك إليّ فإني أسرّ برؤيتك ولكن لا بـدّ لي من لومك فإنك لا تزورني إلا في القليل النادر .

— ذلك لأني أشتغل لك فأنا مشغول عنك بك .

— لا شك عندي بوفائك أيهـا الصديق الصادق فقد بتّ صديقي الوحيد بعد سفر بمبو .

فـلم يجد ألتياري في لهجة فوسكاري أقلّ دليل يحمله على الشك بإخلاصه ، فقال : لقـد أتيتك بأسماء جديدة . فانقبض الدوج وقال : أفي كل يوم تفتح السجون وتلقي في أعماقها العباد؟

— إن مجدك لا يؤيده غير هذه السجون، ألم تعد رجل العزم الشديد الذي عرفناه ؟

— بل إن الجمهورية قـد تجزأت كما أرى ، فإن كثيرين من النبلاء قد هجروا البلاد هاربين وغصت السجون بالمتهمين وقـد أعدمنا خمسة عشر رجلاً في خلال شهرين وبتّ إذا خطر لي أن أتجول في فينيسيا لا أبصر من حولي غـير الرؤوس المطرقة والسكون الشامـل بينما كنت إذا ظهرت للناس لا يقابلونني إلا

بالهتاف ، أما الآن فإنهم إذا نظروا إليّ خلتهم يقولون : كفاك ما سفكت من الدماء وأسلت من الدموع .

— ولكن لم يبقَ غـير القليل فتطمئن نفسك . وفي كل حال فإنك تستطيع أن تظهر للناس يوم الحفلة الكبرى وأنا على يقين من أنك لا تسمع منهم غير الهتاف .

فتناول الدوج قائمة الأسماء من يـد ألتياري وجعل يقرأها ويبتسم ويقول : أهـذا أيضاً من الخائنين ؟ إلى أن أتم قراءة الأسماء فقال : أرجو ألا يوجـد سواهم فإنهم يبلغون الأربعين . فقال ألتياري : كلا ، وأمـا بقية الفينيسيين فإنهم مخلصون لك أشد الإخلاص ، وسأعود إليك بعـد ثلاثة أيام فأخبرك بطريقة ترتيب الجند يوم الحفلة بحيث يحيطون بك من كل صوب .

وعند ذلك نهض ألتياري فودّعه وانصرف . وقـد شيّعه الدوج إلى الباب ، فلما عـاد إلى القاعة لقي رئيس البوليس فيها فقال له : لقد سألتني يا مولاي منذ هنيهة بمن يجب أن نبدأ القبض عليه من المتهمين ، فأجيبك الآن أنه يجب أن تبدأ بهذا الرجل الذي خرج من هنا .

فاصفرّ وجه الدوج وقال : ألتياري ؟

— نعم ، القائد العام يا مولاي !

— أسرع بإيضاح مـا تقول أو أحسب أنك أصبحت من المجانين .

وقـد غضب الدوج غضباً شديداً ، وقبل أن يبدأ جينارو حديثه ، قرع جرساً كان أمامـه بعنف عظيم فقال له الرئيس :

ماذا تفعل يا مولاي ؟ قال : أريد أن آمر بالقبض على ألتياري.
قال : كلا ، لا تفعل يا مولاي . وقد أسرع فوقف عند الباب كي لا يدع أحداً يدخل . فقال الدوج : إذن أقبض عليك أنت أيها الشقي .

وقد مشى إليه مشية المتوعّد فقال له جينارو بصوت الهامس : مولاي ، إنك إذا سجنتني أو قتلتني لا تستفيد شيئاً ولكنك إذا قبضت على ألتياري اليوم أو جعلته يشكّ بك خسرت كل شيء ، فأصغ إليّ بالله .

فعاد فوسكاري إلى مجلسه ويده على جبينه ، وعند ذلك أقبل الحراس وقد سمعوا قرع الجرس فأطلق سراحهم بإشارة ونظر إلى جينارو فقال له : تكلم الآن . فقال : مولاي ، إني وقفت على جميع أسرار المؤتمرين وأنا عالم أن ألتياري زعيمهم . وأنت تعرف ألتياري حق العرفان فهو لا يقدم على مثل هذا الأمر الخطير إلا إذا كان واثقاً من الجند . نعم إن الجيش يجمله مخلص له ما خلا فرقة ولكنها فرقة ضعيفة لا تستطيع مقاومة جيش ، فإذا قبضت على ألتياري اليوم لا تمضي ساعة حتى يثور الجيش ثورة هائلة فينقذونه ويهجمون على قصرك وأنت أدرى بعد ذلك بما يكون . على أن الأجدر بك في هذا الموقف الحرج أن تدعه آمناً ومطمئناً وتتأهب بالسرّ لردّ كيدهم في نحورهم .

فانقدت عينا فوسكاري ببارق مخيف وجعلت شفتاه ترتجفان من الغضب والخوف معاً فقال له جينارو : أتأذن لي يا مولاي أن أسديك نصيحة ؟ قال : تكلم ، فقد خدمتني اليوم خدمة

تجيز لك أن تشير . قال . إني لو كنت في مكانك لبدأت بإطلاق سراح جميع المسجونين الذين وردت لك أسماؤهم .

فتردّد الدوج هنيهة ثم قال : كلا ، فليبقوا في السجن ما زالوا فيه فإن ذلك أسلم عاقبة .

— ولكن جميع أولئك المنكودين كانوا من المخلصين لك .

— وقد أصبحوا أعدائي بعد أن سجنتهم ونكلت بهم ، فإذا أطلقت سراحهم انضموا إلى أعدائي للانتقام مني . على أني متى انتصرت أطلقت سراحهم واحداً تلو الآخر وكنت محسناً إليهم ، أما إذا عفوت اليوم فأكون ضعيفاً في عيونهم وعدّوا ذلك من قبل الخوف .

فانحنى جينارو إخفاءً لما ظهر على وجهه وقال : إني أعجب بذكائكم يا مولاي .

— إذن لا بدّ أن يكون لديك قائمة أسماء الذي انضموا إلى ألتياري .

— ولكن هذه القائمة لم تتمّ بعد وأنا أعمل على إتمامها .

— لا بأس ، فاذكر لي أسماء الذين عرفتهم .

فامتثل جينارو وذكر له نحو ثلاثين اسماً كتبها الدوج بخطه حتى إذا أتمّ كتابتها قال له : ماذا يريد هؤلاء ؟ قال : ما يريده الذين يبتغون قلب الحكومات وهو نيل الرتب والمناصب وما شاكل ذلك .

— وألتياري ؟

— يريد أن يكون في مكانك .

فأطرق الدوج مفكراً ثم قال : متى عرفت ذلك وكيف ؟

– في هذه الليلة يا مولاي ، ولهذا لم أقدم لكم تقريري إلا اليوم وقد اهتديت إلى المؤتمرين بأدلة مبهمة فما زلت أقفو آثارهم حتى حضرت أحد مجتمعاتهم دون أن يروني .

– أين ذلك ؟

– في سفينة الأميرال .

– ومتى تقرر أن يبدأوا العمل ؟

– في اليوم الأول من شهر شباط .

– أي اليوم الذي أشار عليّ ألتياري أن أجعله يوم حفلة .

– لا يزال لدينا يا مولاي بضعة أيام تكفينا لقلب هذه المؤامرة وغلّ أيادي هؤلاء الطامعين . وما زلت قد أذنت لي يا مولاي بالكلام فاسمح لي أن أبسط خطتي .

– قل .

– أرى أنه يجب في يوم الحفلة أن ترسل فرقة الرماة إلى سفينة الأميرال التي عيّنت للاحتفال ، وسيلتصق بهذه السفينة سفينتان أضع فيهما كثيرين من رجالي يتهددون سفينة الأميرال عند الاقتضاء . أما أنت فإنك تذهب إلى ليدو ويحيط بك حراسك كي تبحر منها إلى السفينة ، ولكن عندما تصل إلى الرصيف أشير إشارة خاصة فيقبض رجالي على ألتياري ومَن يحيط بك من المؤتمرين فإنهم لا يستطيعون دفاعاً بغير الجند ، وعند ذلك تعود إلى القصر فتجمع مجلس العشرة وتحكم على المؤتمرين في الحال . أما الآن فيجب أن تكتم الأمر كل الكتمان

وتبالغ بإظهار السكينة كي تحملهم على الاطمئنان ، وهذه هي خطتي .

– وأنا أوافق عليها .

– ولكن عندما تقبض عليهم وتعود بهم إلى قصرك ويحكم عليهم مجلس العشرة فمن الذي يتلو هذا الحكم ؟

– رئيس ديوان التفتيش .

– ولكنه مستقيل ولم تعيّنوا سواه .

– سأعيّن الرئيس في ذلك اليوم يا جينارو وسيكون ذلك أول ما أعمله حين يتمّ القبض عليهم . وأنت تعرف الذي اخترته لهذا المنصب دون شك ولا حاجة إلى ذكر اسمه .

فانحنى جينارو بمل‌ء الاحترام وقال له الدوج : إذهب الآن في شأنك واعلم أنك منذ الآن تستطيع الدخول إليّ حين تشاء فتذكر للحاجب كلمة « جسر التنهدات » فلا يعترضك . فاذهب وتمم قائمتك ودقّق البحث في أعمال المؤتمرين وعد إليّ بكل ما تعلمه من أمورهم ولا تنس أن سعادتك ومستقبلك موقوفان على نجاحك ، فتدبّر . ولكن بقي لي سؤال ، فقد قلت لي إن رولاند كانديانو لا بدّ أن يعود إلى فينيسيا ، أليس كذلك ؟

فارتعش جينارو وقال : هذا الذي أظنه .

– أتظن أنه يعود قبل اليوم الأول من شهر شباط ؟

– لا أظنه يعود يا مولاي قبل منتصف ذلك الشهر .

– حسناً ، فاذهب الآن في شأنك .

فانصرف جينارو وهو يقول في نفسه : ويح لهذا الدوج !

إنـــه يتردد في تقليدي منصب رياسة ديوان التفتيش وأنا أهبه الحياة ، على أن رولاند لا يتردد مثله. وعلى الجملة فإن فوزي بات مضموناً في الحالتين .

وخرج جينارو إلى القاعة التي يجتمع فيها من يريـــد مقابلة الدوج وكان بينهم ألتياري فوقف ينظر إليهم نظرة المتذهل إذ كانوا جميعهم من الذين ذكر أسماءهم للدوج . أمـــا الدوج فإنه سقط على كرسيه خائر القوى بعـــد انصراف جينارو وجعل يقول في نفسه : إن هذه المؤامرة لا تذكر في جانب مـــا يعدّه رولاند من وسائل الانتقام ، فأين هو الآن ؟ وماذا يصنع ؟ وهو سبعود ، فكيف ينتقم مني ؟

وقد تمكّن الرعب من قلبه ولكنه ذكر أن النبلاء ينتظرونه في قاعة الاستقبال فأخفى اضطرابه حتى تمكّن من الابتسام ، وتفقّد درعـــه وخنجره ثم فتح الباب وخرج منه إلى القاعة الكبرى . وهناك رأى ألتياري ورأى أولئك المؤتمرين يدنون منه لإظهار إخلاصهم ، فأبرقت عيناه وبحث عن قائـــد حراسه وقد حاول أن يأمر بالقبض عليهم جميعهم ولكنه ذكر لفوره نصيحة جينارو فكظم الغيظ وجعل يبتسم لهم ويرد على تحياتهم بأحسن منها .

وعند ذلك دنا منه ألتياري وقال : إن الحفلة الكبرى باتت قريبة يا مولاي ، وقد أعدت جميع المعدّات مـــا خلا مسألة واحدة فاننا لا نعلم في أية سفينة تريـــد أن يكون الاحتفال ؟ قال: في سفينة الأميرال أيها الصديق ، أليست هي العادة المتبعة

إلى الآن ؟ فابتسم ألتياري ابتسام الظافر . وقـــال جينارو في نفسه : لم يبقَ فائدة من بقائي في هذا المقام . أما الدوج فانـــه مضى في حديثه فقال مخاطباً ألتياري : وإني بمناسبة هذه الحفلة أحب أيها الصديق العزيز ان تبقى واقفاً بجانبي . وليس ذلك لأني أخشى اقـــلّ حادثة من حوادث الشغب ولكني أحب تشريفك في تلك الحفلة وتشريف جميع الحاضرين الآن فاني أريد أن يكونوا جميعهم أيضاً بجانبي .

وعند ذلك مرّ من بينهم وهو يبتسم لهم ودخل إلى قصره .

تجارة آريتان الشاعر

*

ليسمح لنا القراء أن نعود بهم الآن إلى تلك الليلة المحزنة التي انتحرت فيها بيانكا في منزل آريتان وحين سافر بمبو هارباً إلى روما وطارده رولاند وسكالا برينو .

ويذكر القراء أن امباربا برحت فينيسيا أيضاً قبل هـــذه الحوادث ببضع ساعات وأنهـــا أمرت وكيلها أن يبيع فرش قصرها ما خلا تلك الصورة الكبرى ذات الإطار الذهبي ، أي صورة رولاند .

وكان آريتان قد حضر تلك الفاجعة التي حدثت في منزله وقد دخل الخدم جميعهم إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا بعد انصراف رولاند وسكالا برينو، فلما رأى آريتان هذه الفاجعة أمر خدّمه أن يحكموا إقفال أبواب القصر وقد هلع قلبه من الرعب وأقام المتاريس وأخذ يحصّن المكان تحصين القلاع بينما كانت بيرينا تشتغل بنقل جثة امباريا إلى سرير وقد أخذت كل ما في القصر من الأزهار ووضعتها على ذلك السرير .

أما آريتان فانه بعد أن حصّن قصره دخل إلى غرفته وجعل يمشي فيها مشي المجانين ويحدث نفسه فيقول : قبحاً هذا الكردينال ولعن الله تلك الساعة التي خُدعت فيها بأقواله ! ألم يخبّر ذلك الوحش غير منزلي لقتل تلك الفتاة المنكودة ؟ إنه سيلقى من انتقام مطارديه مما تشيب له الرؤوس ، ولكن ماذا أصنع الآن بهذه الجثة ؟ قوتل الغرام فانه سبب كل شقاء !

وقد بات تلك الليلة على أحرّ من الجمر وعند الفجر نادى أحد خدّمه وأمره أن يهتم بدفن الفتاة وذلك أن يضعها في كفن ويحملها إلى قارب ثم يلقيها إلى المياه كما يدفنون المجرمين والفقراء، فان الفقر كان يعدّ في ذلك العصر من الذنوب . وفيما هو يتأهب إلى ذلك جاءه رسول رولاند بتلك الرسالة التي تقدّم ذكرها وقد عرف القراء كيف أن آريتان قد امتثل لكل ما أمره به رولاند .

وبعد الظهر خرج من قصره ولمّا عاد مرّ بزورقه بقصر امباريا فرأى الناس مجتمعين عند بابه فسأل البحار عن هذا

الاجتماع ، فأجابه البحار قائلاً : كيف لم تعرف ذلك يا سيدي؟ فان أهل فينيسيا لا يتحدثون اليوم إلا بسفر امباريا .

— أسافرت امباريا ؟

— هذه الليلة .

— هل أنت واثق مما تقول ؟

— إنهم يبيعون أثاث قصرها .. أنظر .

فأمر عند ذلك أن ينزل إلى البرّ وبعد هنيهة كان داخل قصر المحظية فوجده غاصاً بالناس على اختلاف طبقاتهم وقد بسطت الأمتعة وعرضت للبيع بالمزاد فاشترى آريتان شيئاً من تلك الأمتعة وأرسلها إلى منزله وأقام ينتظر تتمة البيع . وقد لقي الوكيل ، وهو يعرفه ، فقال له : إن البيع لم يحسن في هذا اليوم إلا بفضلي . قال : ذلك لا ريب فيه يا سيدي وإني لا أجد قولاً أعتبر به عن امتناني .

ثم أشار بيده الى تلك الرسوم الجميلة وقال: تفضل يا سيدي باختيار ما تستحسنه منها .

وإنما قال ذلك كأنه يريد أن يعطيه جعلاً عن تلك الخدمة .

فلم يتردد آريتان وجعل يتفقد تلك الصور والوكيل يتبعه بمصباحه من قاعة إلى قاعة حتى انتهى إلى تلك الغرفة التي كانت امباريا قد جعلتها شبه معبد ووضعت فيها صورة رولاند.

فوقف فيها آريتان وقال : هو ؟ أصورته هنا؟

وكان آريتان لم يعرف اسم رولاند إلا من عهد قريب كما عرف القراء ولكنه عرف معظم تاريخه بعد أن عرف اسمه ،

فقال للوكيل : أتعرف صاحب هذه الصورة ؟ قال : نعم ، فهو رولاند كانديانو ابن الدوج السابق .

– إذن لقد كانت تعرفه امباريا ؟

– لا أعلم ، ولكن الذي أعرفه ان المصور الذي رسمها أقام في صنعها أربعة أشهر ، وقد جعلت سيدتي إطارها من الذهب الخالص .

– ومن يسألك عن الإطار الذهبي ، فخذه وأعطني الصورة وهذا كل ما أطلبه مقابل خدمتي .

– إني أعطيك أياها للفور .

فأخذها آريتان وهو يعتبر أنه استولى على كنز لأنها كانت من صنع تيتيان أشهر مصوّر في ذلك العهد وذهب بها إلى منزله وهناك جعل ينظر إليها معجباً فيتنهد ويقول : ماذا عساي أن أصنع بهذا الرسم البديع ، فلو كنت من الأغنياء لحفظته عندي!

وأقام بضعة أيام وهو يفتكر في طريقة ببيع هذه الصورة إلى أن قال في صباح يوم: لقد وجدت الطريقة ! ثم وثب إلى سريره فلبس ملابسه وذهب توّاً إلى منزل دندولو ومعه الصورة . وهناك استقبله خادم وأخبره أن دندولو يقيم منذ حين في قصر صهره ألتياري ، فذهب توّاً إلى قصر القائد العام وهناك طلب مقابلة رئيس ديوان التفتيش ، وبعد هنيهة كان عنده ، فقال له : إنك طلبت مقابلة رئيس ديوان التفتيش ولكني استقلت من منصبي ومع ذلك .. قال إني أتأسف لحرمان فينيسيا من رئيس مثلكم ولكني التمست مقابلة السيد دندولو رئيس ديوان التفتيش.

– إذن تريد مقابلتي مقابلة شخصية ؟

– نعم يا سيدي فقد خطر لي ، ولا أعلم كيف جاءني هذا الخاطر ، أنك أنت ، أو أن أحداً من ذويك تحفظان أثر صداقة لرجل من أصحابك وهو رولاند كانديانو .

فلم يكد آريتان يتمّ كلامه حتى شعر أنه قد ارتكب خطأ عظيماً إذ رأى دندولو قد نهض فجأة وهو مصفرّ الوجه مضطرب اليدين وذهب إلى الباب فأقفله ثم عاد إلى الشاعر فقال له : ما الذي حملك على أن تظن هذا الظن ؟ وماذا أتيت لتقول لي ؟ فهل أنت آتٍ من قِبَله ؟ قل ، أهو الذي أرسلك ؟

– كلا يا سيدي فإني آتٍ من تلقاء نفسي وما زال هذا الاسم قد أثّر عليك هذا التأثير فأنا مخطىء دون شك وسأعود من حيث أتيت .

– بل ابق وقل بحرية وجلاء ما تريد قوله بشأن رولاند كانديانو .

– أظن يا سيدي أنه فيما مضى كان معدوداً من عائلتكم .

– كيف عرفت ذلك ؟

– ومَن يجهله يا سيدي ؟ ألا تعلم أنهم لا يزالون إلى اليوم يذكرون ليونور ورولاند ويقولون « عشاق فينيسيا » .

– كلا ؟ لا أعلم ولا أريد أن أعلم .

– إني لم أقل هذا القول إلا لأظهر لك أني كنت أحسب أنك لا تزال تحب رولاند ، وأنه لم يفصله عنكم غير حادثة مؤثرة حدثت بالرغم عنك .

فزاد اصفرار وجهه وقال : أيقولون ذلك ؟ قال : نعم ، وربما كانوا مخطئين في كل حال فما هي إلا أشاعات تلقيتها من أفواه الناس فدعتني إلى فعل ما فعلت وأنا غير مسؤول .

— ماذا فعلت ؟

فابتسم آريتان وقال : ذهبت إلى قصر أمباريا متنزهاً وتفقدت قصرها وهم يبيعون ما فيه بأغلى الأثمان لأنه من أبدع الرياش فكان من جملة ما رأيته هناك رسوم من صنع المصور المشهور تيتيان فأخذت رسماً من بينها وجدته أفضلها واشتريته بمائتي دينار وهو رسم رولاند. ولم أكن راغباً في شرائه ولكني كرهت أن تقع هذه الصورة بيد من يجهل قدرها فاشتريتها ، وخطر لي أن أبيعكم إياها رحمةً بجمال الفن وتقديراً لموهبة مصوّرها ليس إلا ، وانظر يا مولاي يتبيّن لك صدق قولي .

وعند ذلك كشف الستار عن الصورة فارتعش دندولو إذ ظهر له رولاند كأنه ماثل أمامه لا يعوزه غير الكلام . وكانت الصورة تنظر إلى كل من ينظر إليها فاضطرب دندولو اضطراباً عظيماً وخيّل له كأنما رولاند يقول له : ماذا فعلت بي وبماذا أسأت إليك أنا أو بنتك فألقيتنا إلى هوة الشقاء ؟

وبينما آريتان ينظر إلى دندولو منذهلاً لِمَا رآه من اضطرابه لمرأى الصورة رأى باب الغرفة قد فتح وبرزت منه امرأة لم تقع العيون على أجمل منها فدنت من دندولو وقالت له : أبي ، إني أريد شراء هذه الصورة . فانحنى آريتان أمامها وقد أعجب بكلامها نفس إعجابه بجمالها . أما دندولو فقد علم ما يحول في

نفس بنته فلم يُبدِ أقل اعتراض وأشار إلى آريتان أن يتبعه فتبعه إلى غرفة أخرى وهناك نقده ثمن الصورة ، فقبض آريتان الثمن وقال له : يسرني يا سيدي أن هذا الرسم الجميل لم يقع بيد سواك . فشكره دندولو وشيّعه إلى الباب في احترام وقال له : أقسم لي أنك أتيت من تلقاء نفسك وأن رولاند لم يرسلك. فقال له آريتان : أقسم لك يا سيدي أني لم أقل إلا الحقيقة ، وحاشا للشعراء أن يكذبوا إلا عندما يمدحون أحداً ...

وخرج وهو مطرق الرأس نادم على ما فعل فإنه أيقن بعدما رآه من ليونور أنه لو طلب ثمن هذا الرسم أربعمائة دينار لقبضها للفور .

*

وبعد ذلك بيومين سافر آريتان بحثة بيانكا إلى ميستر وأنفذ أوامر رولاند بغاية الضبط كما تقدم لنا بيانه .

الأب والبنت

*

عندما ذهب آريتان وذهب معه دندولو وخلا المكان لليونور

www.liilas.com
RAYAHEEN

نظرت إلى تلك الصورة التي رسمها تيتيان أشهر مصوّر في ذلك العصر وهو ذلك المصور نفسه الذي التمس منها مرة أن يصوّرها فأجابته قائلة : إن رسمي وجسمي لا يكونان إلا لخطيبي . فعاد إلى روما وهو يقول : لقد عدت من فينيسيا بثلاث تذكارات لا يمكن أن أنساها وهي : داخل كنيسة سانت مارك ، وسماء فينيسيا المرصعة بالنجوم ، ونظرات ليونور دندولو .

وقد نظرت إلى صورة رولاند بتلك النظرات التي فتنت لبّ المصوّر وقالت له والدموع تجول في عينيها : أي رولاند ! إنك لا تزال قريباً مني ! رولاند ، أيها الحبيب الكريم ، حبذا لو كنت تسمع كل ما يقوله لك قلبي منذ فراقنا الهائل ، بل حبذا لو تمكنت أن أدخل إلى قلبك وأعرف بماذا حكمت عليّ ! رولاند ، إن عذابي لا تصفه الأقلام فقد لقيت ما لم يلقه أحد ويبقى في قيد الحياة ! رولاند ، إن رسمك هذا لا يسكّن عذابي بل يزيده ! رولاند ، إني أجد العذاب عَذْباً في هواك ويسرّني أن تكون شقوتي بك ولأجلك .

وقد جلست على كرسي وجعلت تتمعّن بذلك الرسم فبقيت على ما هي عليه إلى أن عاد أبوها ورآها جالسة قرب الصورة فقال لها : مَن يعلم يا ليونور ، فقد تكونين مخطئة بشراء هذه الصورة . فهزت ليونور رأسها ولم تجب فقال لها : هل تريدين الاحتفاظ بها ؟ قالت : نعم يا أبي ، فليس لديّ منه تذكار .

— ولكن ضعيها على الأقل في موضع خفي بحيث لا تريها في كل حين .

— بل إني أودّ أن تكون دائماً بقربي .

فجعل دندولو يسير في تلك الغرفة بخطوات مضطربة يتوجس خفية من هذه الصورة إذ كان يعتقد أن بنته نسيت رولاند فوجد بعد حادثة الصورة أنه مخطىء في ما توهّم . وقد ذكر عند ذلك حقيقة توهّمه ، فإن ليونور بعد شفائها كانت تخرج للنزهة مرّتين في الأسبوع تختار لذلك يوماً معيناً وساعة معينة لا تخطئها .

وقد كان ألتياري أرسل مرة أحد خدّامه في أثرها وعلم إلى أين تذهب ، فلما عادت من النزهة وجدت زوجها واقفاً أمامها فقالت له بجفاء : ماذا تريد؟ فاضطرب لجفائها وقال لها: لا شيء سوى أني أريد أن أقول لك بأنه ليس من الحكمة أن تخرجي وحدك في ظلام الليل وسأرسل معك من يخفرك . قالت: إني لا أتنزه بعد الآن . قال : بل اختاري على الأقل موضعاً آخر للنزهة . قالت : إن هذا المكان يعجبني إذ لا أجد فيه ما يقرع ضميري .

فخرج ألتياري وهو يزبد من الغيظ ، وجعل دندولو بعد ذلك اليوم يصحب بنته في نزهتها .

أما هذا الموضع الذي كانت تذهب إليه فكان جسر التنهدات ، فكانت تسير في زورقها حتى تصل إليه ثم تعود إلى القصر . وكان دندولو يقود في أكثر الأحيان ذلك الزورق ، فاتفق ذات يوم أنه حين وصل معها إلى جسر التنهدات رأى زورقاً قد دنا من زورقها وفيه رجل رآه وعرف أنه رولاند

كانديانو وسمع ما قاله لها .

ويذكر القراء تلك المقابلة حين أراد رولاند إنقاذها من ابن كريماني وقال لها : اهربي ولا تخرجي من قصرك قبل شهر .

فلما سمع أبوها هذا الكلام أسرع إلى العودة بها وهو يضطرب اضطراباً شديداً ويقول في نفسه : إن رولاند يراقبها ويحميها . وقد جعل ينظر إلى بنته في الطريق فيجدها ساكنة هادئة بالظاهر وهو لا يعلم ما يثور بقلبها. فلما وصلا إلى المنزل قال لها: أرأيته ؟ قالت : نعم يا أبي .

– أعرفته ؟

– نعم !

فلم يسألها أبوها غير هذا السؤال ولكنه كان يرتعش سروراً لما كان يراه من عدم تأثرها . وقد اطمأن منذ ذلك اليوم لاعتقاده أن بنته قد سلت رولاند وأنه يستطيع في المستقبل تنفيذ خطته التي قررها بعد اختصامه مع ألتياري ، وهي أن يعيش وإياها في منزل معتزل . غير أنه حين رآها واقفة أمام صورة رولاند تتمعن بها عاوده الشك فقال لها بعد سكوت قصير : إذن لقد عزمت على الاحتفاظ بهذه الصورة ؟ فأجابته بذلك الإيجاز الذي ألفته منذ نكبتها قائلة : نعم .

– ألا تخشين أن يحزنك يا ابنتي إطالة النظر إلى هذا الرسم؟

– كيف ذلك يا أبي ؟

– إنه ينبه في نفسك تذكارات قديمة .

– أية تذكارات تعني ؟

وقد قالت له ذلك فاحمر وجهه وعلم أنه بات يخاف ذكر ذلك الماضي أكثر مما تخافه هي . وعند ذلك عاد الاثنان إلى السكوت وقد نهضت ليونور تحاول الذهاب إلى غرفتها فقال لها أبوها : اجلسي يا ابنتي وأصغي إليّ . فامتثلت ليونور وجلست أمامه فقال لها : أتعلمين يا ليونور أنه ستحدث حوادث خطيرة في فينيسيا ، فإنك تعرفين سرّ المؤامرة وتعلمين أنه لا بدّ من حدوث ثورة قريبة .

– ماذا تعني بذلك يا أبي ؟

– ألم يخطر لك أبداً أن فينيسيا هي المدينة التي لقينا فيها أشدّ العذاب ، وأن كلمة أو حادثة مثل حادثة هذه الصورة تنبّه فينا جميع تلك الأحزان الماضية ؟

– إني افتكر كثيراً بهذه الأمور .

فلمعت عيناه ببارق من الفرح وقال لها بصوت منخفض : أتعلمين ماذا فعلت ؟

– كلا يا أبي .

– إذن فاعلمي أني بعت جميع ما أمتلكه في فينيسيا حتى أن منزل دندولو نفسه لم يبقَ لنا ، وكذلك كل ما كان لدينا من التحف فإني بعتها بالسر بحيث أصبحت ثروتنا ذهباً. وقد عهدت إلى رجل وفيّ بنقل هذا الذهب إلى ميلانو وهو ينتظرنا فيها ، ألم تفهمي قصدي ؟

– ألعلك تريد الفرار ؟

نعم ، إذا سافرت معي. فإن زورقاً جميلاً ينتظر أمام القصر

منذ ثمانية أيام وفيه ثلاثة بحارة مخلصون لي، فإذا شئت هربنا في هذه الليلة . وقد اتخذت جميع ما ينبغي اتخاذه من الوسائل التي تساعدنا على الخروج بالسرّ من هذا المنزل إذ لا نخرج من أحد أبوابه بل من أحد نوافذه فإني أعددت سلّماً من الحبال نعلّقه بحديد النافذة ونهبط عليه إلى الطريق ، أرأيت ؟

– نعم ، إنها طريقة سهلة .

– أتوافقين إذن على الفرار في هذه الليلة ؟

– كلا يا أبي .

– كلا ؟ إذن ليكن ذلك غداً أو في اليوم الذي تختارينه .

كلا ، إني لن أهرب .

– كيف ترفضين الفرار ألا تعلمين ... فقاطعته قائلة : إنك إذا أردت الفرار يا أبي خوفاً على نفسك من عاقبة الثورة فافهم وكن موقناً أني أستطيع الدفاع عن نفسي فأنا لا أخاف شيئاً . وسواء انتصر ألتياري أو انخذل فإن حياتي لا تتغير .

– ولكن أنا ماذا أعمل ؟ فإن المؤتمرين يراقبونني ، فإذا لم يقتلني ألتياري قتلني فوسكاري .

– لقد أصبت يا أبي ووجب عليك أن تهرب .

– كيف أهرب وأنت هنا ؟

– قلت لك لا تخشَ عليّ واذهب وحدك إذ يستحيل عليّ أن أبرح هذا القصر ، أما أنت فإن الخطر عليك شديد ولا بدّ من فرارك .

– معاذ الله أن أفترق عنك لحظة .

– أرجو أن تتمعّن في ذلك عساك أن تذعن .

– وأنت أيضاً تمعّني يا ابنتي فإن حياتك في هذا القصر حياة عذاب .

وعند ذلك افترقا فدخل دندولو إلى غرفته ودخلت هي إلى غرفتها ولم يكن يفصل بين الغرفتين غير باب . أما ليونور فقد دخلت وهي غير محتاجة إلى التمعّن فإنها كانت مصممة كل التصميم على البقاء في فينيسيا . أما دندولو فقد قال في نفسه : لا شك أني لا أبرح فينيسيا إلا إذا برحتها معي . ومع ذلك فإذا أكرهتني الحوادث أستطيع السفر ببضعة أيام .

لقاء

*

في اليوم التالي لذلك اليوم الذي عاد فيه رولاند إلى فينيسيا بعد موت الكردينال ، كان جينارو رئيس البوليس جالساً في غرفته يطالع تقارير جواسيسه الأخصاء . وكان ذلك اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني وقد ظهر القلق على وجه الرئيس فكان يسأل كلاً من جواسيسه عن مسألة واحدة فإذا لم يجبه عليها سمع بقية تقريره بملء الضجر وأطلق سراحه . وما

زال على ذلك إلى أن دخل عليه أحدهم فقال له : ما وراءك من الأخبار؟ قال: إني جلت أمس حسب أمرك بين خمارات المينا.

– ماذا سمعت ؟

– سمعت حكايات غريبة أخصّها أن ابن الدوج كانديانو السابق موجود الآن في فينيسيا وأنه يتأهب للاستيلاء على سراي الدوج وأنه سينقذ الشعب من مظالم فوسكاري .

– أأنت واثق مما تقول ؟

– كل الثقة . بـــل إني سمعتهم يصرخون فيقولون ليسقط فوسكاري دوج فينيسيا وليحيَ رولاند دوج الشعب .

– ما هذا ؟ أحق ما تقول ؟

– نعم يا سيدي .

– حسناً ، فعد إلى تلك الخمارات وعد إليّ بكل ما تسمعه وتعلمه .

ثم أطلق سراحه ونادى سواه من الجواسيس فقـــال له : أخبرني بما لديك . قـــال : كنت أمس يا سيدي قرب خمارة مرسى الذهب .. فذكر الرئيس أنه زار أمس تلك الخمارة وقال له : ما رأيت ؟ قال : رأيت برتولو خارجاً منها مع رجل .

– من هو هذا الرجل ؟

– لا أعرفه .

– إذن ماذا عرفت ؟

– ليس هذا الذي كنت أحاول معرفته يا سيدي فإنه بينما

كان برتولو يحادث ذلك الرجل دخل رجـل آخر متلصصاً إلى الخمارة .

– أكان من اللصوص ؟

– كلا ، فإني أعرف اللصوص من مشيتهم .

– وماذا حدث ؟

– حدث أن برتولو دخل بعد هنيهة إلى الخمارة فوقفت عند الباب أتنصت فسمعت أصواتاً تدلّ على الخصام وعرفت صوت ذلك الرجل وبعد المشاجرة بالكلام سمعت صوت عراك عنيف ثم ساد السكوت وبعد هنيهة برح الرجل الخمارة .

– أتبعته ؟

– دون شك .

– وعرفته ؟

– سوف تعلم يا سيدي ، فإني تبعت هذا الرجل الذي خيّل لي أني عرفته من صوته ثم من قامته ومشيته فمـا زال يسير وأنا في أثره حتى وصل إلى جزيرة أوليفو . فوقف الرئيس وقال : مَن هو هذا الرجل ؟

– إنه سكالا برينو وأنا أعرف الآن أين يقيم بحيث نستطيع القبض عليه متى تشاء .

– إحذر أن تقول كلمة من هذا الحديث ، أفهمت ؟

– نعم يا سيدي ، ولكن ليس هـذا كل ما أريد قوله فإني بعد أن عرفت المكان الذي ذهب إليه سكالا برينو أحببت أن أعلم غايته من الذهاب إلى الخمـــارة ونتيجة ذلك الخصام الذي

حدث ، وأنا عائد الآن من خمارة مرسى الذهب .

ـ ماذا علمت ؟

ـ عندما وصلت رأيت بابها مقفلاً على غير عادتها وقد اجتمع كثير من الشاربين وقلقوا على صاحب الخمـــارة فنادوا البوليس وكسروا الباب وبعد البحث وجدوا جثة برتولو في القبو .

ـ برتولو قتيل ؟

ـ نعم ، وإن قاتله هو سكالا برينو .

وقد سكت الجاسوس وأقام ينتظر تهنئة الرئيس ومكافأته على هذا الاكتشاف. أما جينارو فإنه جعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم وقف فجأة وقال له : لا يجب أن تقول كلمة لأحد مما أخبرتني به .

ـ سأبالغ بالكتمان يا سيدي .

ـ لا شك عندي بحرصك على الكتمان وإنما أوصيك من قبيل المبالغة بالحذر ، فاحرص على الكتمان خمسة أو ستة أيام أي إلى اليوم الثاني من شهر شباط ، أفهمت ؟ والآن إذهب فلا حاجة بي إليك .

فانصرف الجاسوس ودخل بعـده جاسوس آخر فحدّق به رئيس البوليس ثم قال له : إني أهنئك بحسن تنكّرك فإني لم أعرفك فمن أنت؟ فنزع شعره ولحيته المستعارين وقال له: أرجو أن تعرفني الآن . فوقف جينارو وقد دهش دهشاً عظيماً وقال بصوت أبح : مولاي كانديانو ؟

ـ إذا كنت تتكلم بهذا الصوت المرتفع تضطر إلى القبض علي

إلا إذا اضطررت أنا إلى القبض عليك .

ـ أعذرني يا مولاي فلم يكن يخطر في بالي أن أراك هنا .

ـ لماذا ؟ أليس لنا فائدة مشتركة تقضي علينا بأن نجتمع من أجلها ؟ أما أنا فهذا معتقدي، ودليل ذلك أني أتيت مساء أمس إلى فينيسيا فكانت زيارتي الأولى لك وقد أتيت أسألك إذا كنت تجد الآن فرصة موافقة للقبض عليّ وتسليمي إلى مجلس العشرة.

وكان جينارو يصغي إلى كلامه وهو منذهل لا يعلم ما يريد منه رولاند . وقد عرف القرّاء أن هذا الرئيس كان من أهل العزيمة والإرادة السريعة فرأى بسرعة التصوّر أنه إذا قبض على رولاند أنقذ فوسكاري ونال ذلـــك المنصب الذي يطمع فيه ولكنه رأى أيضاً أن الجوّ لا يخـلو لفوسكاري بعد ذلك وأن فوز رولاند أسرع إلى تحقيق آماله، فوقف أمامه وقفة الاحترام وقال له : لقد رجعت يا مولاي عن فكر القبض عليك . قال : يسرني أن أعرف السبب في ذلك .

ـ السبب بسيط يا مولاي ، فهو أولاً معرفة الجميل ...

ـ لم يبقَ لي عليك جميل فقد وفيت دينك فلا تبحث في هذا الموضوع .

ـ وفوق ذلك فإني أرى الحق في جانبك ما زلت من أنصار العدالة والحق .

ـ إن هذا السبب غـير كاف فإن من كان مثلك لا ينظر إلى وجوه العدل والظلم إلا في آخر أعماله ! كلا ، ليس هذا بالسبب الأكيد. وما زلت تأبى أن تكون حرّاً في مقالك فسأقول عنك

ما كان يجب أن تقوله فأصغ إليّ : إنك إذا قبضت عليّ يعيّنك فوسكاري رئيساً لديوان التفتيش بعد ساعتين وهـذا منتهى مطامعك .

– أرأيت إذن يا مولاي أن الحق وحده الذي ...

فقاطعه رولاند قائلاً : كنت أحسب أنك أشد صبراً مما أراك فإنك إذا قبضت عليّ تصبح رئيساً لديوان التفتيش كما قلت لك وبعد ذلك ماذا يحدث؟ إن يوم أول شباط يأتي وأكون أنا في السجن فينشب القتال بين فوسكاري وألتياري ، أليس كذلك ؟

– دون شك يا مولاي .

– وأنت تعلم يقيناً أن الفوز يكاد يكون مضموناً لألتياري ، ومتى فاز يكون أول عمله أن يلقي في آبار السجون جميع أنصار فوسكاري وأنت في مقدّمتهم ، وهـذا هو السبب الذي دفعك إلى الرجوع عن القبض عليّ فماذا تقول ؟

– أقول إنك من النوابغ يا مولاي .

– وأنا أقول إنـه كان يجب أن تقول الحقيقة وأن لا تحاول إكراهي على تعيينك في المنصب الذي تطمع فيه وأنت لا تظهر لي من الكفاءة ما يحملني على الرضى بهذا التعيين .

– هل فات الأوان ؟

– نعم ؟ إلا إذا أسلمت من غير شروط .

– لقد رضيت يا مولاي .

– أرضيت أن تكون لي دون أن تقيّدني بقيد ؟

– نعم يا مولاي ، ولكني ألتمس من عظمتكم أن لا تنسى

بأني كنت قادراً على أن أكون حائلاً دون مقاصدكم .

– ذلك يفيد أنك تسألني منصب رئيس ديوان التفتيش .

فانحنى جينارو دون أن يجيب .

– يسوؤني إخبارك بأني عزمت على إلغاء هذا المنصب .

فاصفرّ وجه رئيس البوليس وكفاه بهـذا النبأ داعياً للاضطراب فإنه قضى قضاءً مبرماً على أمانيه . وعند ذلـك أخذت العوامل تتنازعه حتى أنـه نظر إلى الباب كأنه عزم على القبض عليه والميل إلى جهة فوسكاري. على أن رولاند كان يفحص وجهه ويقرأ أفكاره حتى رآه مدّ يده يحاول قرع الجرس .

فوقف رولاند ودنا من النافذة فقال له: قبل أن تقرع الجرس تعال وانظر ، فإني لا أحب أن ترتكب هفوة قد لا أغفرها لك. فشعر جينارو بأن لرولاند سلطاناً عليه فقال له : مولاي أتحب أن .. فقاطعه قائلاً : تعال وانظر . فامتثل جينارو ودنا من النافذة فقال له رولاند : ماذا ترى ؟ فنظر جينارو إلى الرصيف الذي كانت تشرف عليه النافذة ولم يجب . فقال له رولاند : كم تستطيع أن تحشد من الرجال للقبض عليّ ؟ قال: إني إذا ناديت رجالي جاءني منهم مائة رجل على الأقل ، ولكني لا أريد القبض عليك . قال : ولكن هؤلاء الذين تراهم يذهبون ويجيئون يزيـد عددهم على أربعمائة رجل ويوجد مثلهم في الشوارع المجاورة فإذا أردت أن تثير معركة دموية يا جينارو فافعل .

– لقد قلت لك يا مولاي إني استسلمت إليك .

– دون شروط .

– دون شروط ، ولكن أستسلم إلى كرمك ومروءتك .

– حسناً ، فاجلس الآن لتتحدث إذ لديّ ما أسألك عنه بشأن الحفلة الكبرى ، فقل لي في أية ساعة يخرج الدوج من سراياه في ذلك اليوم ؟

قال : في الساعة التاسعة من الصباح تقريباً . قال : إذن صف لي بالتدقيق الموكب الذي يسير فيه الدوج إلى ليدو فمن أية فرقة يتألف الحرس ؟

– من فرقة الرماحة وحملة البنادق فإنهم يذهبون قبل الدوج إلى سفينة الأميرال بحجة أنهم يريدون حماية الدوج فيها .

– أين يكون موقف ألتياري القائد العام ؟

– بجانب الدوج ، وذلك منذ خروجه من السراي .

– أرى يا جينارو أنك أنت الذي دبرت هذه التدابير ، والآن فما الذي عرفته من أنباء المؤتمرين ؟

– ربما أكون لا أعرف شيئاً يا مولاي لا تعرفه فأنت تعرف خطة المؤامرة حق العرفان ولكن الذي عرفته حديثاً أن ألتياري وافق على إرسال الفرق إلى سفينة الأميرال والحقيقة أنه يريد القبض على الدوج فوسكاري في ساعة الحفلة . وفي تلك الساعة نفسها تزحف فرقة إلى سراي الدوج وهي خالية من الحراس ، وعند ذلك يقرع جرس سانت مارك وتقتدي به أجراس الكنائس فيحتل الجنود مراكز الدفاع في المدينة .

– هذه هي خطة ألتياري فقل الآن ما تعرفه عن خطة فوسكاري .

– إنها على أتمّ البساطة ، فإن الموكب سيقف عند رصيف ليدو وعند ذلك يضرب فوسكاري ألتياري الواقف بجانبه الضربة القاضية بدلاً من أن يذهب إلى سفينة الأميرال . وفي الساعة نفسها يطعن كل قائد من قواد فوسكاري زعيماً من زعماء الثورة ، وقد عيّن لكل قائد الزعيم الذي يجب أن يطعنه بحيث يأخذهم على غرة . أما سفينة الأميرال فسيحيط بها ساعة الحفلة سفينتان عليها جنود مخلصون للدوج .

– إنها خطة بسيطة مثل كل خطة صالحة ، ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن الجواسيس .

– إن جواسيسي سينتشرون في جميع أنحاء المدينة ويصيحون في كل مكان « ليحيَ فوسكاري » بحيث يجذبون معهم الشعب ولكني أستطيع أن أدعهم يهتفون لغير فوسكاري .

– لا فائدة من ذلك فدعهم يهتفون له قدر ما يشاؤون ، بل إني أؤثر هذا الهتاف . ولكن يجب ألا تغيّر شيئاً من خطة الحفلة وكذلك خطة المؤتمرين ، فإنها لا تغيّر .

– إذن لا يبقى عليّ يا مولاي إلا أن أنتظر اليوم الأول من شهر شباط .

– نعم ، يجب أن تصبر بملء السكينة كما أنا صابر .

وعند ذلك نهض رولاند يريد الانصراف فلما وصل إلى الباب قال له جينارو :

– كلمة أيضاً يا مولاي .

– ما هي ؟

– إذا حدث حادث لم أكن أتوقعه فأين أجدك ؟

فحدق رولاند بجينارو ونظر إليه نظرة اضطربت لها أعضاؤه ثم قال له دون تردد : إنك تجدني في بيت الجزيرة فإني أكون فيه وحدي كل ليلة .

– أرى من الحكمة أن لا تكون وحدك يا مولاي .

– لا أكون وحدي بل يكون معي أيضاً والدي الأعمى المجنون .

وقد ذكر أباه واتقدت عيناه ببارق مخيف من الانتقام ، فانحنى جينارو كأنه أراد اتقاء هذه البوارق الهائلة ، وعندما رفع رأسه رأى رولاند يسير في الرواق بملء السكينة فقال في نفسه : وحده مع أبيه الأعمى المجنون !

وبعد أن توارى رولاند عن نظره جلس في كرسيه وأطرق مفكراً فجعل يقول في نفسه : ترى ، لماذا يريد أن يلغي منصب رياسة ديوان التفتيش ؟ إنه يخطىء في ذلك خطأ عظيماً . نعم ، ولكن أحق ما يقول إنه يبيت وحده كل ليلة في بيت الجزيرة ؟ صبراً يا جينارو ولا تتسرع فإن موقفك خطير . وقد جعل يتمشى في غرفته وهو يتمعّن ويفتكر إلى أن استقرّ على رأي فقرع الجرس . وبعد هنيهة دخل إليه أحد خدمه فحدق به كأنه يريد أن يسبر أعماق قلبه ويعلم إذا كان يستطيع الركون إليه فقال له : أريد أن تذهب ...

ثم توقّف عن إتمام الحديث وقد ظهرت عليه علائم التردد فقال : كلا ، لا فائدة من ذلك فعد إلى حيث كنت . فامتثل

الخادم وانصرف . أما جينارو فإنه قام إلى غرفة ثانية كان يضع فيها ملابس التنكّر فتنكّر تنكراً عظيماً بحيث كاد أن لا يعرف ذاته وقال في نفسه : إن مثل هذه المهمة لا يجب أن أعهد بها إلى سواي . وإليك بيان ما جال في خاطره :

لقد رأى أنه إذا ترك الأمور تجري في مجاريها كان النصر مضموناً لرولاند دون شك . وأية فائدة له من فوزه؟ فإن رولاند نفسه قال له إنه سيلغي منصب رياسة ديوان التفتيش وهذا المنصب كان كل ما يطمع به رئيس البوليس . وهو لم يكن فاسد الطبع لئيم النفس ، ولكنه كان شديد الطمع ميالاً إلى مهنته كل الميل بحيث كان يريد أن يبلغ في الترقي بها إلى أبعد حد . وما زال رولاند يريد إلغاء هذا المنصب متى تولّى الحكم فلم يبقَ لديه غير طريقة واحدة لاستبقاء المنصب الذي يطمع فيه ، وهي إلغاء رولاند نفسه .

وهنا تشعّب فكر جينارو إلى طريقين فإنه إذا كان يريد القضاء على رولاند يجب أن يكون واثقاً من أن ضربته ستكون القاضية وإذا فشل بها انتقم منه دون شك وكان انتقامه هائلاً .

ولذلك خطر له أن يقتل رولاند ولكنه لا يقتله بيده بل يرسل له من يقتله فإذا فشل لا يكون مسؤولاً لدى رولاند ولا يكون معرّضاً لانتقامه . ولكن ، من هذا الذي سيرسله ؟ إن القراء سيعرفونه ، أما جينارو فإنه كان يفتكر به فيقول : إنه إذا نجح بقتل رولاند فزت أنا بما أبغيه وإذا لم ينجح لا يعلم رولاند الحقيقة بل سيكون مديناً لي بالامتنان لأني أنا سأتولى

إنذاره. أما هذا الرجل الذي اختاره جينارو لقتل رولاند فإنه كان ألتياري القائد العام . وقد قلنا إن فكره كان متشعباً بطريقين ، أما الطريق الثانية فهي المؤامرة ، فإنه كان يفتكر بها فيقول إنه إذا فاز ألتياري يخبره جينارو بأنه كان يعرف سرّ هذه المؤامرة من عهد بعيد ولكنه كان يكتم أمرها ليله إليه ، وفوق ذلك فإنه سوف يرشده إلى طريقة للتخلّص من رولاند وذلك كافٍ لنيل رضاه . وإذا فاز فوسكاري كان منصب جينارو مضموناً فإنه يعود عودة الظافر إلى سراي الدوج الذي ينعم عليه بهذا المنصب فهو لا يرجع عن وعده .

فلما فحص جينارو هذه الخطة وقلّبها في جميع وجوهها ذهب توّاً إلى قصر ألتياري وكان متنكراً كما قدمنا فاضطر إلى البقاء في قاعة الانتظار إلى أن يؤذن له بالدخول. وقد لقي هناك كثيراً من القوّاد الذين كانوا ينتظرون يوم أول شباط بفارغ الصبر وهم يتحدثون بهذا اليوم بطريق الألغاز ولكنه كان يفهم ألغازهم وهم لا يشعرون . وقد صبر إلى أن جاء أحد خدم ألتياري فقال له : إني قادم بمهمة إلى مولاي القائد العام . قال: مِن قِبَل مَن؟ قال: من قِبل رئيسي جينارو ورئيس البوليس. قال : حسناً فانتظر .

وبعد هنيهة عاد فأدخل جينارو إلى القائد العام فقال له ألتياري : أنت قادم من قِبل جينارو كما قلت ؟ قال : كلا يا مولاي ، بل إني جينارو نفسه أتيت متنكراً .

— لقد عرفتك الآن من صوتك ولكن لِمَ تنكّرت ؟

— لأن التنكّر عادة قديمة عندي ، وفوق ذلك فإني ما أحببت أن يراني أحد عندك لأني قادم إليك بمهمة سرّية .

فأشار إليه بالجلوس وقال له : إني مصغ إليك . وفي الوقت نفسه جرّد خنجره وجعل يلعب به وهو مصغ إليه . فقال له جينارو : ماذا تقول يا مولاي إذا قبضت على رولاند كانديانو ؟ فارتعد ألتياري واتّقدت عيناه . فابتسم جينارو وقال : إني ما أحببت أن أقدم على هذا الشأن الخطير دون أن أخابرك فيه.

— هل أخبرت به الدوج ؟

— كلا ، فقد خطر لي أن تعلم ذلك قبله .

فنظر ألتياري إليه نظرة المرتاب لأنه كان يعلم أنه من أخصّاء الدوج فاضطرب في أمره وقال في نفسه : ما عسى يريد مني هذا الداهية ؟ ألعلّه قادم لتجسّس أحوالي ؟ ولماذا ذكر القبض على رولاند فجأة دون مقدمة ؟ ثم قال له بصوت مرتفع: لماذا أتيت تحدّثني بأمر هذا الرجل دون سواي ؟ أتعلم أني أدير بوليس الجمهورية ؟ نعم ، إني أستغرب ذلك ، على أن إدارة البوليس لو كانت بيدي لمّا تجاسر رولاند أن يعود إلى فينيسيا وهو رئيس العصاة الثائرين بل إني كنت قبضت عليه من عهد بعيد وجازيته بما يستحقه من الإعدام .

— ومع ذلك فقد تجاسر وعاد إلى فينيسيا .

فارتعش ألتياري ارتعاشاً ظاهراً وقال : ماذا يريد وماذا أتى يعمل ؟ قال : أرأيت يا سيدي أنه يهمّك أن تعلم ما جرى لرولاند ، فإنك كلمتني بلهجة عنيفة كان يجب عليّ من بعدها

استئذانك بالانصراف ولكني صديق لك .

— أنت صديقي ؟!

— نعم صديقك. ولماذا الاندهال وأنا أعلم كثيراً من الأمور؟

فاصفرّ وجه ألتياري وقال : بماذا تتعلّق هذه الأمور التي تعرفها ؟

— ولكن ... برولاند كانديانو ... وأعرف على الأخص أن بينك وبينه عداء شخصياً هائلاً فلنتكلم يا سيدي بحرية وبرهاني على حرّيتي في قولي أني محتاج إليك وسأبيّن لك هذه الحاجة في غير هذا المقام .

— متى ؟

— بعد شهر أو بعد نصف شهر، فإني مضطرّ في خلال هذه المدة إلى التغيّب عن فينيسيا لأني أحب أن أتجاهل ما سيجري خلال هـــذه المدة من الحوادث فليقبضوا على رولاند ويطلقوا سراحه . وليفعلوا غير ذلك فإني لا أحب أن أعرف شيئاً .

— هل لك أن تقول لي لماذا تريد مبارحة فينيسيا ؟

— للسبب الوحيد الذي ذكرته لـك وهو أني لا أحب أن أعلم شيئاً مما سيجري في هذه الأيام .

فوقف ألتياري فجأة وقـــد أيقن الآن أن رئيس البوليس عارف بسر المؤامرة ودنا منه . فقال جينارو في نفسه : إني إذا قلت كلمة في غير موضعها كنت من الهالكين . أما ألتياري فانه حدّق به وقال له : ماذا تظن أنه سيجري ؟

— لقد قلته لك منذ هنيهة، أي أنهم سيقبضون على رولاند.

فتنفس ألتياري الصعداء وعاد إلى مجلسه فقال: لماذا لا تريد أن تتداخل في شأن القبض عليه ؟

— ذلـك لأني حاولت القبض عليه ولم أنجح وبتّ أخاف إذا حاولت ذلك مرة ثانية أن لا أنجح أيضاً وهو اعتقاد راسخ فيّ لا يتزعزع ولا أعلم إذا كنت تفهم ما أعنيه كما ينبغي .

— امضِ في حديثك .

— لقد رأيت هذا الرجل الهائل فخفته وأنا لم أعرف الخوف على ما مرّ بي من الأخطار لا سيما وقد علمتُ يقيناً أن أمر القبض على كانديانو لم يعد من أمر البوليس بـل أصبح شأناً عائلياً يقضي بالمبارزة فقلت في نفسي إنه يوجد في فينيسيا من يهمّه أن يعـــلم بأن رولاند كانديانو يبيت الليلة وحده في منزله .

فارتعش ألتياري ولكنه أخفى اضطرابه وقال له: من هذا الذي يهمّه أن يعلم ما قلت ؟

— أنت يا ألتياري ، وقد وعدتك أن أكون حراً في مقالي إلى آخر حدود الحرية وسأفعل ولو كان قولي يسيئك . ألا اعلم أنك كنت ورولاند تحبان امرأة.. ألا اعلم أن حياة هذا الرجل باتت حاجزاً منيعاً دون سعادتك. والحقيقة أن القبض على رولاند لا يفيدني شيئاً بشرط أن لا أدعه يسيء إلى الجمهورية خلافاً لك، ولذلك تخلّيت لك عنه وأنا أعتقد أني أخدمك أجل خدمة . لا تعجب يا سيدي ممـــا أقول فانك ما جفوتني وأبعدتني إلا لاعتقادك بأني شديد الإخلاص لسواك وأمـا أنا فاني من أشد المخلصين لك وقد ساءني أن أراك مسترسلاً إلى الأحزان وأن لا

www.liilas.com

تنال من هناء الحياة ما يستحقّه ذكاؤك وهمّتك .

وهنا ساد السكوت هنيهة فكان ألتياري يقول في نفسه : ترى ، من هذا الذي يخونه منا ؟

ثم بدا له أن جينارو مخلص فيما قاله فإنه لو كان عارفاً بسرّ المؤامرة ولو كان مخلصاً لفوسكاري فما الذي يمنعه عن أن يقبض عليه في سراي الدوج وهو يذهب إليها في كل يوم . وعند ذلك نظر إليه ألتياري نظرة تدلّ على الثقة فأدرك جينارو معنى هذه النظرة وقال : أظنّ أني قمت بواجبي الأدبي بقدومي إليك وأنا ذاهب الآن فأرجو أن تعلم مهما حدث بأني نهجت معك مناهج الأصدقاء . فلم يجبه ألتياري ولكنه شيّعه إلى الباب وهناك صافحه بيد تضطرب وقال له : أتقول إن رولاند كانديانو يبيت هذه الليلة في منزله ؟

— نعم ، في بيت الجزيرة .

— وحده ؟

— مع أبيه الشيخ .

وهنا افترقا فأسرع جينارو بالعودة إلى منزله فنادى أحد خدمه وقال له : أتعرف جزيرة أوليفو ؟ قال : نعم . قال : أتعرف مَن يقيم فيها الآن ؟ فقال الخادم : ذلك الرجل الذي زارك اليوم بعد الجواسيس .

— لقد عرفته كما يظهر .

فابتسم الخادم دون أن يجيب . فقال جينارو : إذن إذهب هذه الليلة واكمن في الحديقة طول الليل ومهما حدث في المنزل أو

في الحديقة فلا تتداخل بل يجب أن تسمع وترى وتقف على كل ما يجري ثم تعود إليّ فتخبرني بما يكون ، فإذا نجحت بمهمتك أعطيتك عشرة ريالات وإذا فشلت فيها جلدتك عشر جلدات .

لقاء أيضاً

*

أما ألتياري فقد بقي وحده واقفاً في غرفته يتمعّن ويفتكر إلى أن أقر على الأمر الذي كان يتردّد فيه فنادى أحد خدمه وقال له : ادعُ لي كاستريشو . وبعد هنيهة جاءه هذا الرجل وهو شاب في السابعة والثلاثين من العمر وعليه ملابس الضباط . فنظر إليه ألتياري نظرة ثقة وإعجاب وقال له : أتريد أن تصحبني هذه الليلة في رحلة مخطرة ؟ قال : إنك تعلم يقيناً بأني مستعدّ لسفك دمائي في سبيلك .

— حسناً ، فعد إليّ في الساعة العاشرة من هذا المساء وليكن معك صديقيك روماني وجيبرتو .

— سنحضر في الوقت المعين فهل الأمر مقلق ؟

وهنا أشار إشارة الضرب . فقال : نعم .

— حسناً ، فمَن هذا الذي قضي عليه ؟

– سوف تراه .
– أين ؟
– سوف تعلم .
– حسناً ، فسأحضر مع رفاقي كما أمرت .

وانصرف الضابط فابتسم ألتياري ابتسام الرضى فإنه منذ أعوام بعيدة لم يشعر بما كان يشعر به من الاطمئنان ، فقد وثق بعد الإمعان أن جينارو لم يكن ضدّه وقد كان يخافه كثيراً ولكنه علم بعد ما سمعه من رئيس البوليس وعزمه على مبارحة فينيسيا كي لا يتداخل بما سيجري من الشؤون أن المؤامرة لم يبقَ شك لنجاحها وأنه سيغدو دوجاً بعد ثلاثة أيام . وفوق ذلك فإنه سيفتك برولاند ويرفع عن صدره أثقال هذا الكابوس . وأي فوز يدعوه إلى الاطمئنان مثل هذا الفوز ، فإنه متى صار دوجاً ومات رولاند فلا بد لليونور أن تحب زوجها فإنها أحبت رولاند وحفظت عهده وهو في قيد الحياة ولكن الغرام لا يكون بالأموات .

ولما فازت نفسه بهذه السكينة أخذ يعدّ وسائل الفتك برولاند حتى رسخت في ذهنه فخرج من غرفته وسار في رواق فصعد سلّماً خفياً يؤدّي إلى المكان الذي تقيم فيه ليونور مع أبيها . وكان كل رجائه في تلك الساعة أن يرى ليونور فنظر إليها نظرة تشفّ عن انتصاره وتدلّ على قرب حوادث عظيمة . ولكنه لم ير ليونور ولم يجد أباها فنزل إلى القاعة التي كان الضباط مجتمعين فيها وجعل يحدثهم بملء البشاشة والارتياح خلافاً لعادته فقد كان دائم التجهّم والتقطيب . وبعد ظهر ذلك اليوم خرج

ألتياري وحده من قصره وجعل يطوف في شوارع فينيسيا حتى أقبل الظلام فذهب إلى أقبح شارع في المدينة كان يعيش فيه البحارة وأولئك الشقيّات اللواتي قدّر عليهن نكد الطالع وسوء التربية أن يبعن أجسادهن بقطعة من الخبز . وهناك المتسولون على اختلافهم وأهل الدعارة والشقاء . دخل ألتياري إلى أحد البيوت في ذلك الشارع ، شارع الشقاء ، وقد فتحت له الباب امرأة عجوز فقال لها : أهنا يقيم سبارتفنتو ؟

قالت : نعم يا مولاي فتفضل بالدخول . فدخل ألتياري وأقفلت العجوز الباب ودنت منه فقالت له : ألعلّك قادم يا مولاي لمقابلة ابني أو بنتي أو لمقابلتي ، فإن لكل منا شأناً خاصاً به . مثال ذلك أنك إذا أردت أن تعرف ماضيك وحاضرك ومستقبلك وما يكون من غرامك ، وإذا أردت أن تكون محبوباً لا يخفوك مَن تحبّه فأنا الذى أجيبك . وإذا أردت سمّاً نقيّاً يقتل شاربه دون أن يدع أثراً للقتل فأنا الذى أجيبك . وإذا كنت تريد فتاة حسناء تدرك معاني الغرام وملاذ الصبابة فابنتي تجيبك . وأما إذا أردت أن تتخلص من زوج غيور أو عاشق مزاحم بضربة خنجر فابني يجيبك . فاختر يا سيدى بين الأم والابن والبنت .

فقال ألتيارى : أني أتيت لأرى سبارتفنتو .

– إنه هنا كأنه ينتظرك فقد عهد إليه بمهمّة يكسب منها عشرة ريالات ولكنه بقي هنا كأنما كان يحدثه ..

– أسكتي أيتها العجوز ونادي ولدك .

ففتحت العجوز باباً يطلّ على سلّم وقالت: أدخل يا سيدي.
فتردّد ألتياري حين رأى السلم المظلم ثم استوثق من خنجره وصعد ذلك السلم بقدم ثابتة بينما كانت العجوز قد قرعت السقف بعصاها مرتين. وقد انتهى من ذلك السلم إلى غرفة لم يكن فيها غير سرير ومائدة عليها زجاجة وبضعة أقداح وكثير من السيوف المختلفة معلقة بالجدار، وهناك رجل طويل القامة وقف حين دخول ألتياري فانحنى أمامه وقال: إني أنا سبارتفنتو مستعدّ لخدمتك في ما تريد. قال: يسرّني أن أراك، فقد وصلت شهرتك إليّ وعلمت أنك أمهر من طعن بالخنجر وضرب بالسيف.

– نعم، فإني أقتل بضربة واحدة.

– ومَن قال لك إني أريد القتل؟

– إذن لماذا أنت هنا، فهل خدعتك تلك العجوز الشمطاء؟

ثم مشى إلى الباب وهو مقطّب الجبين.

فاستوقفه ألتياري وقال: قف وأصغ إليّ. فعاد الرجل ووقف أمامه فقال له ألتياري: نعم، إني أتيت لأني محتاج إليك في قتل واحد من الناس فهل تفعل ما أريده منك؟

– وأنت هل تعرف الأجرة التي أتقاضاها؟

– لا أبالي بالأجرة فإني أدفع لك قدر ما تشاء بشرط أن لا تخطىء الرجل.

– إن أجرتي عن الرجل العادي عشرة ريالات.

– حسناً، ولكن الرجل الذي أريد أن تقتله شديد هائل.

– وأجرتي عن الرجل الموظف بالحكومة خمسون ريالاً.

– ولكني قلت لك ...

– وشروطي أن النصف يدفع مقدماً.

فمدّ ألتياري يده إلى جيبه فأخرج قبضة من الذهب ودفعها إليه وقال له: أتصغي إليّ الآن؟

– تكلم.

– هل أنت مستعدّ للقتل؟

– كيف لا والقتل مهنتي؟

– ولكني أنذرك أن الرجل شديد قوي فيجدر بك أن تصطحب بضعة من رجالك الأشداء.

– إني أكفي وحدي.

– لقد قلت لك إن الرجل شديد الخطر.

– ولكنه سيموت فيزول بموته كلّ خطر.

– ألم تخف منه؟

فنظر إليه نظرة المندهل وقال: ماذا يفيد معنى الخوف؟

– وإذا سألتك أن يكون ذلك في هذه الليلة؟

– بل في هذه الساعة.

– أواثق أنت من قدرتك على قتله؟

– كيف لا أكون واثقاً من قتله وأنت تدفع أجرتي؟ فقل لي أين أجده.

– في جزيرة أوليفو.

– متى؟

– الساعة العاشرة، فتقتله وتعود في الساعة العاشرة والنصف

إلى كنيسة سانت مارك فرموز فتجد أربعة رجال واقفين قرب بابها وأنا منهم فأعطيك ما تملأ به جيوبك من الذهب .

ـ حسناً ، فسأعود إليك في تلك الساعة . والآن عيّن لي المكان بالتدقيق .

ـ في بيت دندولو القديم ، أتعرفه ؟

ـ نعم أعرفه .

ـ وسيكون الرجل فيه مع رجل عجوز فتقتل الفتى ، أفهمت ؟

ـ دون شك .

ـ كيف تصنع لتدخل إلى المنزل أو لتأتي به إلى الحديقة ؟

ـ هذا شأن يتعلق بي .

ـ إذن لقد تمّ الاتفاق ، والآن تستطيع الانصراف .

ـ إذهب آمناً وسأعود إليك في الساعة العاشرة والنصف بعد أن أقتله .

فالتفّ ألتياري بردائه وحاول الانصراف فاستوقفه اللص وقال له : لقد نسيت أمراً .

ـ ما هو ؟

ـ اسم هذا الرجل .

فارتعش ألتياري وقال : ماذا يفيدك اسمه ؟

ـ أحب أن أعرف اسم الذي أقتله لأضيفه إلى أسماء قتلاي .

ـ إذن لا بدّ لك من أن تعرف اسمه ؟

ـ ذلك لا بدّ منه أو لا أقتله .

ـ فأطرق ألتياري هنيهة مفكراً ثم قال : إن الرجل هائل

كما قلت لك وقد فعل أموراً عظيمة فخرج من الآبار ، وانتقم من كثيرين من أعدائه ، وهو يتولّى قيادة جميع عصابات السهول والجبال .

ـ اسمه ؟

ـ إحذر فإنه أمهر الطاعنين بالخنجر .

ـ اسمه ؟

ـ إعمل بنصحي واصطحب رجالك .

ـ اسمه ؟

ـ رولاند كانديانو .

ـ ماذا تقول ؟!

ـ رولاند كانديانو .

ـ أحق ما تقول ؟ أتريد أن أقتل في هذه الليلة رولاند كانديانو ؟

ـ نعم .

فذهب اللص إلى المائدة التي كان قد وضع عليها الذهب فردّه إليه وقال : خذ مالك .

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

ـ لأني لا أقتل رولاند .

فقبض ألتياري على ذراعه بعنف وقال : ويحك أيها الشقي ، أتريد أن أقبض عليك غداً وأزجّك في أعمق السجن ، فإني أطلب إليك أن تقتله باسم الحكومة .

ـ وأنا لا أعرف الحكومة ، واحذر من أن تنذرني . ألا تسمع

أنين المياه في القرعة ؟ إن هـــذا الصوت قد يكون أنين الذين توعدوني فإني لا أغفر لمن يجسر على تهديدي . وبعد فـــماذا أستحق الملام إن أنا رددتُ لك مالك ؟ هـل سرقتك ؟ فقل ، ماذا تريد ؟

ـ أريد أن أبقي لك هذا المال ولا أنذرك ، ولكن قل لي على الأقل لماذا لا تريد أن تقتل رولاند ؟ ولكن لماذا أسألك فإن السبب ظاهر وهو أنك خفت .

وقد قال ذلك على رجاء أن يثير حماسته . فقال سبارتفنتو: إنك لو أذعت ذلك لَـمَّا وجدتَ من يصدقك فقد قلت لك إني لا أعرف الخوف .

ـ بل إنك ترتجف لمجرد اسم رولاند .

ـ ولو افترض صحة ذلك فإنه جائز إذ لم يخطر لأحد أن يسيء إلى رولاند حتى ندم الندم الشديد . أمـــا أنا فإني لا أخاف الموت .

ـ إذن لماذا لا تريد قتله؟ ألا تريد أن تتكلم؟ ألا تعلم من أنا؟

ـ إني أعرف بأنك القائد العام .

ـ وإذا كنت تعرفني فلماذا تعاندني ؟

ـ ولماذا لا أعاندك ، فإني لا أخافك بل إني أستطيع أن ألقيك من هذه النافذة فأجعلك طعماً للأسماك . ولكني أدعك تتصرف بأمان .

فاصفرّ وجه ألتياري واصطكّت أسنانه ولكنه لم يقـــل كلمة لخوفه من العاقبة . أما اللص فإنه اندفع في حديثه فقال :

إن السبب في أني لا أريـد قتل رولاند هو أني سفاك ولكني لست من الجواسيس ، ولكل امرىء مهنة اشتهر فيهـــا فإني أخدم أولئك الذين لا يعرفون ان يقاتلوا مقابل أجرة أتقاضاها، ولكن لا شأن لي بأعمال الحكومة فإنـه يوجد في فينيسيا دوج ومجلس عشرة وديوان تفتيش ورئيس بوليس وجيش منظم فعليهم أن يقبضوا على رولاند إذا كان من المتمردين . أما كونه متمرّداً عاصياً فإني لا أعدّ له ذلك ذنباً يجب أن يقتل له، بل إني أعدّ عصيانه واجباً مقدساً ، ولا أتكلم بلساني بـــل بألسنة جميع جمهور الشعب ما خلا النبلاء ، فقد قال لهم رولاند إنه سينقذهم من نيركم وهو فاعل ما يقول . ولذلك يرى الشعب ، وأنا منهم، أن هذا العصيان لا بدّ منه فإذا قتلتُه كما تريد أكون قـد خنت ذلك الشعب بحملته وما أنا من الخائنين .

فكبر وقع هذا الكلام على ألتياري وعلم يقيناً أنه لا سبيل إلى إقناعه فخرج من ذلك المنزل وهو يعثر بأذياله وبلغ إلى قصره في الساعة التاسعة . وبعد ذلك بساعة جاء الضباط الثلاثة الذين واعدهم على اللقاء وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر والغدّارات وكلهم مخلصون للقائـد العام أشدّ الإخلاص إذ كانوا من رجال المؤامرة فقالوا له : لقـد أتينا حسب أمرك ، فإلى أين تريد أن تبعث بنا ؟ قال : أصغوا إليّ ، فإن اليوم العظيم قـد دنا والفوز مضمون لنا فإننا قد تأهبنا لكل طارىء وعرف كل منكم مهمّته فلم يبقَ لدينا غير حائل واحد يجب إزالته في هذه الليلة ، فإنكم تعرفون دون شك أن رولاند كانديانو في فينيسيا .

فقال أحدهم : أهو هذا الحائل ؟ وقال آخر : يقال إن جميع البحارة وعامة الشعب متأهبون للثورة إنقاذاً له . وقال آخر : بل إن جميع الناس لا يتحدثون إلا به . فقال أولهم : هو ذاك ، ولكنه لا ينتصر له واحد من النبلاء أو القواد أو الجنود ، فماذا يفيده البحارة والشيالون والنساء والأولاد والفقراء ؟

فقال له ألتياري : لقد أخطأت ، فقد يكون وضع خطة لا نعرفها .

– لا سبيل لنجاح هذه لأننا سنستولي على فينيسيا في أقرب حين .

– هذا الذي أرجوه ، لكن يجب أن نتوقع كل أمر ونتأهب لكل طارىء فان لدينا في ذلك اليوم العظيم ما يشغلنا عن كبح جماح الثائرين ، فلذلك رأيت أن نقتل رولاند .

– لنقتله .

– إذن هلموا بنا وسنضع خطتنا ونحن في الطريق .

اللقاء أيضاً

*

ولنتقدم ألتياري ورجاله إلى منزل الجزيرة ، فان رولاند صعد في الساعة التاسعة والنصف إلى غرفة أبيه فوجده مضطجعاً

على كرسي طويل فوقف هنيهة أمامه ثم لمس كتفه فانتبه الشيخ وقال : ماذا يريدون مني ؟ فقال : هذا أنا رولاند يا أبي ، وقد أتيت إليك الآن لأنهم قد يهاجمون المنزل هذه الليلة فلا بد لي من إخراجك منه فتعال معي .

وعند ذلك لفه برداء وأخذه بيده فقال له : إلى أين يذهبون بي ؟ قال : لقد قلت لك يا أبي إنك لا تستطيع الإقامة هذه الليلة في المنزل .

– مَن يدعونني بأبيه ؟ فارتعش رولاند وقال : أنا هو .. أنا ابنك رولاند .. ألا تذكر يا أبي ؟

فأطرق الشيخ برأسه وسار مع رولاند كأنه لم يسمع شيئاً .

فتنهد رولاند وسار به إلى حيث كان ينتظره سكالا برينو والخادم العجوز فأشار إليهما أن يتبعاه وساروا جميعهم إلى تلك الشجرة الكبرى التي يذكر القراء أن الخادم فيليب قد جعل كهفاً في جذعها يلجأ إليه في زمن الثورات ، فتعاون معهما على إنزال الشيخ إلى الكهف ، وأقام فيليب عنده ثم عاد مع سكالا برينو إلى المنزل فقال رولاند : إني أريد أن أعلم الآن إلى أي حد يبلغ جينارو من حدود الخيانة .

ويذكر القراء أن رئيس البوليس اجتمع في صباح ذلك اليوم برولاند فقال له بعد انتهاء المداولة : أين أجدك إذا احتجت إليك ؟ فأجابه : في بيت الجزيرة حيث أكون وحدي مع أبي ، كما تقدم في الفصل السابق . ولذلك كان يتوقع رولاند أن يهاجموه في هذه الليلة فخبأ أباه في الكهف . وكان رولاند قد أخبر سكالا

برينو بجميع ما جرى بينه وبين رئيس البوليس وقال له لا حاجة إلى إزعاج رفاقنا فإني وإياك نكفي المهاجمين . فقال له سكالا برينو : إنهم لا يستطيعون الوصول إلينا إلا من طريق واحد وهو طريق الكنيسة وساكن لهم هناك ، فإذا رأيتهم كثيرين لا أدعك تقاومهم وحدك . قال : إذهب ، فإني منتظرك .

فانصرف سكالا برينو وأطفأ رولاند المصباح فأقام ينتظر وهو مطرق يفكر . ولا ندري بماذا كان يفكر ، أبذلك الموقف الذي كان يخاطر فيه بحياته ؟ أم برئيس البوليس الذي ملك قياده ثم عاد إلى خيانته ؟ أم بحان مدسيس وساندريجو وبمبو وكرياني وأمباريا وجميع أولئك الذين قتلهم ؟ أم تمثلت له بيانكا التي ماتت شهيدة العفاف وجوليا التي ذهبت ضحية الإخلاص ؟ أم كان يفكر بأولئك الذين يريد الانتقام منهم وهم دندولو وفوسكاري وألتياري ؟ أم تمثلت له ليونور في تلك الساعة وهي لم تبرح ضميره منذ عرفها إلى اليوم ؟

إنه كان يفكر بواحد من هذه الأمور ، ولعله كان يفكر بها كلها فقد مرت به كل حوادث حياته في تلك الساعة منذ ليلة خطبته إلى الآن . وفيما هو على ذلك جاء سكالا برينو وقال : لقد أتوا . فقال له رولاند : كم يبلغ عددهم ؟

— أربعة .

— أرأيت معهم جينارو ؟

— كلا ، ولكني رأيت أنهم ليسوا من الجواسيس العاديين .

— كيف ذلك ؟

— أعني أنهم بملابس الضباط .

فوجم رولاند هنيهة لأنه لم يكن يتوقع حضور ضباط ثم قال : ربما كانوا غير قادمين إلى هنا .

وعند ذلك سمع وقع خطواتهم في الحديقة فأسرع رولاند وهمس في أذن سكالا برينو بضع كلمات فأجابه بصوت منخفض قائلاً : لقد فهمت . وقام الاثنان فوقف كل منهما عند أحد مصراعي الباب وقد جرّد رولاند خنجره وتسلّح سكالا برينو بكرسي ضخم من خشب السنديان الغليظ .

أما القادمون فكانوا ألتياري ورفاقه وقد خرجوا من القصر كما تقدّم فركبوا زورقاً إلى الجزيرة ، فقال أحد الضباط : إذا كان كانديانو وحده كما قيل لك فإن واحداً منا يكفي . فهزّ ألتياري رأسه وقال : إن المنزل متسع وكان يجب أن نكون أكثر من أربعة .

— ولكن ليس منا مَن يعرف هذا المنزل .

— أنا أعرفه وذلك يكفي . فاعلموا الآن أننا سندخل إلى الحديقة وندنو من المنزل وهناك قاعة كبيرة للطعام يجب أن ندخل منها إلى المنزل دون أن يسمع لنا حس .

— ولكننا سوف نضطر لكسر الباب .

— كلا ، إن لديّ مفتاحه فلقد كنت سيد هذا المنزل .

وقد قال هذا القول بلهجة دلت على أنه يتميّز غيظاً فذكر الضباط الثلاثة أن ليونور امرأة قائدهم كانت تقيم في هذا المنزل ، وأنها كانت خطيبة رولاند ، فعلموا أنهم لا يخدمون المؤامرة

بقدومهم بل إنهم يخدمون أغراض قائدهم الشخصية . غير أنهم كانوا شديدي الإخـــلاص له فامتثلوا وساروا ساكتين فكان ألتياري يقول في نفسه: لا شك أنه وحده، ولولا ذلك لهاجمونا. ثم خطر له خاطر فجائي وهو أن جينارو قد يكون منخدعاً ، وأن رولاند قد لا يكون في المنزل . فأسرع إلى فتح الباب دون تحسّب وقال لرفاقه بصوت منخفض : سيروا إلى اليسار. فتقدم اثنان من الضباط وقـد جرّدا خنجريهما بينما كان ألتياري يقفل الباب الذى فتحه ، فتقدّما من باب القاعة ففتحاه ودخلا .

ولكنهما مـــا أن تجاوزا العتبة حتى صاحا صيحة تدل على الـــفزع وخرج عند ذلك رولاند وسكالا برينو وكادت كرسي سكالا برينو تفلق رأس ألتياري، ولكن رولاند استوقفه قائلاً: إن هذا الرجل لي ! فهلع ألتياري من الخوف. أما الضابط الذي كان معه فإنه رمى بخنجره إلى الأرض وقال: إني أسلّم نفسي. فحبسه سكالا برينو في إحدى الغرف . أمـا رولاند فإنه نظر إلى ألتياري نظرة كهربته وقال له : تعال .

فتبعه ألتياري ، وأضاء سكالا برينو مصباحاً ودخـل في أثره فقال له رولاند : دعنا الآن وحدنا .

ـ مولاي ؟

ـ قلت لك دعنا وحدنا ولا تدخل إلى حين أدعوك .

فخرج سكالا برينو ممتثلاً وجلس ألتياري على كرسي وقد بدت علائم الاضطراب الشديد على وجهه . أمـــا رولاند فإنه أقفل باب القاعة وعاد الى ألتياري فقال له : إنك قادم لقتلي ،

أليس كذلك ؟ قال : نعم . وقـد عادت إليه كل شجاعته بعد خوفه من تلك المفاجأة فقال: نعم إني قادم لقتلك فإن كلا منا يبحث عن رفيقه منذ عهد بعيد .

ـ ولكني لم أبحث عنك يا ألتياري، ولو أردت البحث عنك لظفرت بك من عهد طويل كمـا ظفرت بصديقك بمبو وأمباريا حليفتك بالإثم ، ولكن ما زلت قد لقيتك الآن فلا بأس من أن أقول شيئاً من أفكاري .

ـ إذن لنوضح أفكارنا قبل أن نقتتل فإنك لا تجـد أشهى من قتلي وأنا لا أجد أشهى من أن أخطف روحك .

ـ لا حاجة إلى الإيضاح يا ألتياري فإني أريد أن أقول لك ما أفتكر به .

ـ قل .

ـ أتذكر يا ألتياري ليلة خطبتي ؟

فهزّ ألتياري رأسه وقال : كلا ، لا أذكر .

ـ أمـــا أنا فاني أذكرها ، فقد دنوتَ مني في تلك الليلة فصافحتني وقلت لي بلهجة المخلصين: « أهنئك يا رولاند وأرجو أن تكون سعيداً » .

نعم ، إنك قلت لي هذا القول وبعد نصف ساعة ألقيتني في أعماق السجون . نعم إنك قلت لي هذا القول وقـــد حفظت كلماتك عدة أعوام وأنا فيها أبحث عن أصلك ، فأيقنت أنك لا يمكن أن تكون من رجال السيف إذ لو كنت منهم لتخلّصت من عدوّك بالسيف وليس بالخيانة .

فتبيّن الغضب في وجه ألتياري ومضى رولاند في حديثه فقال: أصغ إليّ بسكينة كي أحدثك، فلقد قلت لك إنك لست جندياً كما هي عليه ملابسك. وقد خطر لي حيناً أنك من أولئك اللصوص الذين يكمنون في الطرقات، فوجدت أنك لست منهم أيضاً إذا لو كنت منهم لكنت طعنتني غيلةً وقتلتني غدراً، لكنك لم تجسر. إلى أن خطر لي أنك جاسوس، ولكني رأيت أيضاً أنك أحطّ من الجواسيس إذ كنت تستطيع أن تقبض عليّ ولكنك لم تفعل بل صافحتني وهنأتني وأنت تضمر لي الموت.

– ويحٌ لك أيها الشقي، إن هـذه الإهانة ستكون آخر ما تقوله.

وعند ذلك وثب يريد الهجوم على رولاند ولكنه لم يستطع أن يأتي بحركة فإن رولاند انقضّ عليه بسرعة وقبض على يديه وأعاده ذليلاً إلى مجلسه. ثم تركه وقال له: لقد سألتك أن تسمعني بسكينة وسأوجز في كلامي لـك، فلقد قلت لك إنك لست جندياً ولا لصاً ولا جاسوساً. أما وقد رأيتك تريد مهاجمتي بأربعة رجال فقد عرفت الآن من أنت.. إنـك ألتياري من زمرة الجبناء الأدنياء الذين ترفعهم سفالتهم وحقارة نفوسهم إلى المناصب الرفيعة في هـذا البلد البائس المسكين. إنك من زمرة أخسّ نفوساً من الكلاب يا ألتياري.

فاهتز ألتياري في مجلسه ولكنه لم يجسر على معاودة الهجوم بل اكتفى بأن قال له: إنك أنت الجبان ما زلت تقول لي هذا القول والقوة في جانبك.

– إننا وحدنا في هذه القاعة وما القوة إلا في جانبك فإن خنجرك في يدك أما خنجري فقد تركته مغمداً في صدر قائدك.

وقد قال هذا القول وكتف ذراعيه. أما ألتياري فإنه وقف والخنجر مجرّد بيده وقد برقت عيناه ببارق هائل من الحقد ورفع يده فلم يبقَ بين رولاند وبين الموت غير لحظة. ولكن رولاند لم يجزع ولبث واقفاً في مكانه يبتسم ابتسام الاحتقار.

فألقى ألتياري خنجره إلى الأرض بعنف، فقال له رولاند بلهجة الساخر المتهكم: لقد كنت أعلم يقيناً أنك لا تجسر على قتلي لخوفك. قال: كذبت. فقال رولاند: بـل إنك خفت، فقد قلت في نفسك إني إذا قتلته قتلني رفيقه. وهذا كل ما أريد أن أقوله لك يا ألتياري وهو أنك لست جباناً فقط بل لو صُوّرت النذالة والجبن لَمَا تمثّلتا إلا برسمك، ولذلك أعاملك معاملة الجبناء الأنذال الذين يأنف الشجاع من قتلهم، فاذهب يا ألتياري فقد عفوت عنك. قال: إن ذلك سيكلفك كثيراً. فقال رولاند:

– إنه لا يكلفني شيئاً مـا زلت جباناً فإنك لا تجسر على لقائي وإن كنت في طليعة جيش لأنك تخافني ولأنـك جبان، فاذهب فإني لا أكترث لك في المستقبل كما أني لم أكترث لك في الماضي لأنك جبان.

وعند ذلك ذهب إلى الباب ففتحه وكان سكالا برينو ينتظره فقال له: دع هـذا الرجل ينصرف ولا تسيء إليه بشيء، ولا تتدانَ إلى صفعه لأنه جبان فدعه ينصرف فقد عفوت عنه.

فأنّ ألتياري أنين الموجع وجعل العرق البارد يسيل من وجهه

وقد اضطربت أعصابه لِمَا لقيه من الخذل وسار حتى وصل إلى جثتَي القائدين وتراجع منذعراً . فقـــال رولاند : أرأيت يا سكالا برينو كيف أنـه لم يجسر أن يقترب من ضابطَيه ؟ فقد كانا وحشين مفترسين ولكنهما لم يكونا جبانين ! أرأيت مقدار جبنه ، فإنه لا يجسر أن يرى الأموات لشدّة خوفه من الموت ؟ ولكن ماذا ينتظر ولماذا لا يذهب وقد عفوت عنه ؟

فزأر ألتياري زئير الوحوش الضواري ووثب من فوق الجثتين وبعد هنيهة كان في الحديقة وقد شيّعه رولاند إلى الباب ، فلمّا خرج منه قال رولاند : لا تقفل الباب يا سكالا برينو بـل دع جميع الأبواب مفتوحة فـلا يجب الاحتياط مع الجبناء ... دعه ينصرف فقـد عفوت عنه . فجعل ألتياري يركض وهو يذوب من الخجل ويقول في نفسه : نعم نعم إني لا شك جبان .

فرار دندولو

*

منذ ذلك اليوم الذي أحضر فيـه آريتان صورة رولاند إلى ليونور كان دندولو مضطرب النفس قلق البـال حزين النفس إذ شعر بـأن بنته قد انفصلت عنه كل الانفصال وأنها لا تزال تحب

رولاند حباً لا يؤثر عليه كرور الأيام. وقد ذهب رجاؤه وزالت مطامعه فبات يخـاف الإقامة في فينيسيا ولم يعد يخطر له إلا أن يقضي مـــا بقي له من الحياة في منزل بعيد عن الناس ينسى فيه ماضيه وبنته وكل شيء في الوجود .

وقد كان قرب ذلك اليوم العظيم يروعه حين يبيت ألتياري دوجاً وتنتقل بنته إلى سراي الدوج ، فقد كان يظن في البدء أن ابنته تتفق مع ألتياري ولكن بعد ما رآه منها في حادثة الصورة أيقن أن الاتفاق محال وعوّل على الفرار قبل أن تستتبّ السلطة لألتياري وينتقم منه . وقد كان هيّأ أسباب الفرار وهو موقن بـأن ابنته تكرهه ولكنه عوّل أن يراها مرة أيضاً وهو يقول في نفسه : ربما عادت إليّ متى علمت هذه التفاصيل . فلما اجتمع بها قال لها : هل تمنّيت يا ابنتي بمـــا اقترحته عليك منذ بضعة أيام ؟ فقالت : أي اقتراح تعني ؟

— أن نبرح فينيسيا معاً إلى أي بلد شئت .

— لقد أجبتك جواباً يا أبي في ذلك الحين .

— نعم لقد أجبتني جواباً يدل على عدم الإشفاق ، فإن إصرارك على البقاء بعد إصراري على الذهاب يدل على أن ليس لي بنت . ومع ذلك فقد يكون ذنبي أقل مما تحسبين ، فإن هذا الخطأ ما أوحاه إليّ غير حبي إياك .

— لا شكّ عندي يا أبي فيما تقول ، ولولا ذلك لمـا كنت تراني.

— ليس هـذا كل الذي أريد أن أقوله ، فاعلمي أن رولاند كانديانو إذا كان قد نجا أخيراً فأنا الذي أنقذته .

www.liilas.com/vb3 RAHEENA

فوقفت ليونور وقد اصفرّ وجهها وقالت : ما هذا الاسم الذي ذكرته يا أبي ؟

– هو الاسم الذي يردّد قلبك ذكره في كل لحظة، ومع ذلك يجب أن تصغي إليّ لأنني لا أريد أن تلعنني ابنتي بعد موتي .

– كلا يا أبي لا ألعنك .

– هو ذاك ، وقد تصفحين عني أيضاً ولكنك تلبثين على اعتقادك بأني لم أقم بواجباتي ، ولذلك لا أجد بدّاً من قول الحقيقة يحملتها تبرئةً لنفسي ولراحتي .

– إذا كان ذلك لا بدّ منه لراحتك فقل .

– اعلمي قبل كل شيء أن رولاند لم ينجُ عشر مرات إلا بفضل رئيس ديوان التفتيش أي بفضل أبيك ، أتعرفين ذلك ؟

– كلا ، إني لم أكن أعرفه .

– واعلمي أيضاً أنه قبل نجاة رولاند كان أحد الجواسيس عارفاً بمكانه فذهبت به إلى ليدو وقتلته كي لا يبوح بهذا السر لأحد.

فارتعشت ليونور ولم تجب. فقال لها: أعلم يقيناً أنك لا تعتبرين عملي غير إصلاح خطأ جاء بعد فوات أوانه ، ولكن اصغي إليّ أيضاً فإني محدّثك بما جرى في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة فاسمعي.

فخفق قلب ليونور خفوقاً شديداً وحاولت أن تهرب ولكنها ذكرت ما قاله لها أبوها فإنه أشار بيده إلى صورة رولاند وقال لها : أتعلمين أين كانت هذه الصورة قبل أن تصل إليك؟ قالت: نعم يا أبي ، في قصر المحظية أمباريا .

– ألم تسأليني كيف اتفق وجود هذه الصورة هناك ؟

– أية فائدة من معرفة ذلك .

– إني مخبرك بـه ، فاعلمي أن المحظية دعت المصوّر تيتيان إلى صنعها نقلاً عن ذاكرته ، وهذه الصورة تمهّد لي سبيل مـا أريد قوله لك ، فقد رأيتها قبل الآن في قصر المحظية .

– أنت ؟

– نعم ، فاذكري أن رولاند جاءنا ليلة الخطبة حسب عادته في بيت الجزيرة وكنت وإياه في الحديقة .

– بالله يا أبي لا تعد إلى هذه التذكارات .

– إني لا أقول لك غير ما يجب قوله ، فإني كنت تلك الليلة من أسعد الناس ولكن هذا الهناء كان آخر هناء عرفته وا أسفاه! فبينما أنا واقف في الترعة وقـد بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف ، سمعت وقع خطوات في الحديقة فحسبت أنك أنت عائدة ولكني نظرت من النافذة فإذا القادم هو ألتياري . نعم ، لقد كان ألتياري ، وما كنت أحب هذا الرجل ، وكنت أعلم أنه لا يحبني، فاستأت لحضوره ومع ذلك لم يسعني إلا أن أرحب به . فدخل ، ورأيت وجهه مضطرباً وعينيه تتوقدان فقال لي: إني أتيت لأكلمك في شأن خطير . قلت له : إني مصغ إليك . قال : لا أستطيع أن أكلمك هنا . قلت : أين تريد ؟

– تعال معي إلى قرب كنيسة سانت مارك .

– في هذه الساعة ؟

– بل في الساعة الأولى بعد انتصاف الليل ، وإذا لم تحضر ساءت العاقبة وكان الخطر شديداً .

فوعدته بالحضور وأنا لا أعلم شيئاً مما يريد، فودعني وانصرف. وقد رأيته وقف في الحديقة وجعل يرتجف ثم انصرف وهو يسرع السير . ولقد عجبت لهذه الزيارة ولهذا الموعد ، وأنذرني قلبي بحدوث مصاب. فلما رجعت من الحديقة بعد أن شيعت خطيبك، سألتني عن السبب في اضطرابي فقلت لك إنه اضطراب سرور .

قالت : نعم أذكر ذلك ، وأذكر أيضاً أني قلت لك بأني أتوقع حدوث نكبة وأسفاه . قال : نعم يا ابنتي ، وتذكرين أيضاً أننا قمنا نتحدث إلى ما بعد انتصاف الليل بنصف ساعة فدخلت إلى غرفتك وذهبت أنا إلى سانت مارك فلقيت ألتياري ينتظرني . وهناك شكرني لحضوري فقلت له : لماذا أردت أن تكلمني هنا وليس في منزلي؟ فقطب حاجبيه وقال لي: ذلك لأني لا أطيق الإقامة في منزلك فإني أشعر فيه أني أصبح كالمجانين .

قلت : إني لا أفهم ما تقول .

فغيّر ألتياري الحديث وقال لي : إني على موعد في هذه الجهة ولا أدري إذا كنت أذهب إليه ، فإن ذلك منوط بك !

قلت : تكلم . قال : هل تقرر زواج بنتك برولاند ؟

— دون شك ، وأنت تعرف ذلك حق العرفان .

— ألا يوجد ما يمنع هذا الزواج ؟

— كلا ، فإن مَن كان بمنزلتنا لا يخلّ بعهوده .

— وإذا قلت إن هذا الزواج لا يتمّ عقده ؟

— أرى أنك تهينني يا ألتياري .

— كلا ، ولكني أسألك إذا كنت تريد استعمال سلطتك بمنع

هذا الزواج .

— ولماذا ؟

— لا تسألني عن الأسباب بل أجبني.

— إذن أجيبك بالرفض البات .

— وعلى ذلك فستعقد خطبتها غداً؟

— دون شك .

فسكت مطرقاً ولم يخطر لي في تلك الساعة أنه يحبك بل حسبت أنهم يريدون تزويج ابن الدوج بسواك لمآرب سياسية . فلما سألني ألتياري عن قولي الأخير أجبته قائلاً : إني أعتبر الإلحاح في هذا الموضوع إهانة لي . فتركني عند ذلك مغضباً وانصرف، فقفوت أثره ورأيته دخل قصر المحظية أمباريا وأقفل الباب بعد دخوله. ولا أدري ما الذي دفعني إلى تعقبه وإدراك حقيقة مقصده فإني دنوت من ذلك الباب وطرقته ففتح لي أحد الخدم وقال لي : أدخل أيها السيد فوسكاري فإنهم لا ينتظرون سواك .

وكان وشاحي يغطي جانباً من وجهي فحسبني ذلك الخادم فوسكاري الذي كان رئيس ديوان التفتيش في ذلك العهد . وقد حاولت أن أقول له بأني لست فوسكاري ، ولكني لُفت إلى معرفة هذه الغرائب ورأيت أن في هذا الاجتماع سرّاً أحببت الوقوف عليه، فأدخلني الخادم إلى غرفة متسعة وقال لي: إفتح باب الوسط فإني لا يحق لي أن أتجاوز هذا الباب. ثم تركني في تلك القاعة التي لم يكن فيها سواي ، فتجاسرت على الدنوّ من

ذلك الباب الذي دلّني عليه الخادم، ولكني علمت أن ألتياري قد دخل من هذا الباب فأردت أن أقف على سرّ هذا الاجتماع، ودنوتُ من ذلك الباب فسمعت صوتاً يشبه صوت النزع. وكان هذا الصوت صادراً من غرفة مجاورة، فذعرت ودنوت من ذلك الباب ففتحته برفق ورأيت منه امرأة ورجلين. أمـا المرأة فكانت أمباريا المحظية، وأما الرجلان فكانا ألتياري وبمبو، ذلك الماكر الذي أصبح كردينالاً.

والآن فاسمعي يا ليونور ما كانوا يتحدثون به، فقد قال بمبو يخاطب أمباريا: إن الوشاية مكتوبة ولا يبقى غـير التوقيع عليها، وأنا أتعهّد بإيصالها إلى موضعها. فأجابه ألتياري قائلاً: نعم إنك مصيب بما ارتأيته يا بمبو... نعم إنه هو القاتل... نعم هو الذي يجب أن يُتّهم ويُحكم عليه بما يحكم به على القاتلين. أما أمباريا فإنهـا أجابته قائلة: ولكن مجلس العشرة يدعوني إليه لسؤالي. فقال لهـا ألتياري: إني أحد أعضاء هذا المجلس كما تعلمين وسأمنعه عن أن يدعوك، فوقّعي على الوشاية دون خوف. فاعترض بمبو قائلاً: بل يجب أن تذهب إلى مجلس العشرة كي تسحق شهادتها هذا الرجل فلا تقوم له قائمة بعد ذلك.

وكأنما المحظية تأثرت من لهجة بمبو أو كبرت عليها هـذه الجناية فقالت: وإذا أبيت أن أوقع على الوشاية وأشهد على الجناية؟ فأجابها بمبو: إذن نذهب إلى مجلس العشرة ونشهد بما نعرفه إذ لا بدّ للجلاد من قطع رأس، فاختاري بين أن يكون رأسك أو رأس الذي تريد أن تشي به.

فوجف قلب المرأة وأخذت القـلم بيد ترتجف فوقعت على الوشاية.

وقـد علمت أنهم يشون على رجل منكود، ولكن الحقيقة الهائلة لم تخطر في بالي. ولما رأيت بمبو وضع الوشاية في جيبه علمت أن أمباريا قد قتلت رجلاً وأنهم يريدون اتّهام سواها بـه، فتراجعت بينما كان الثلاثة يتحدثون بصوت منخفض حتى وصلت إلى منتصف القاعة. وهناك سمعت ذلـك الصوت صوت النزع صادراً من غرفـة على يساري، فدنوت من تلك الغرفة وفتحت بابهـا فرأيت رجلاً صريعاً على الأرض والدم يتدفق من صدره فدنوت منه ونظرت إليه فإذا هو دافيليا أحـد أعضاء مجلس العشرة. وعند ذلك فتح عينيه فقلت له: أتسمعني يا دافيليا؟ قال: نعم. قلت: من الذي طعنك؟

— هي!.

— أمباريا؟

— نعم، وسأموت.

— أتعلم ماذا يجري هنا يا دافيليا؟ أأنت مصغٍ إليّ؟

— تكلم.

— إنهم يحاولون اتّهام رجل منكود بقتلك، وقـد سمعت حديثهم.

— من هذا الذي يتهمونه؟

— لا أعلم.

— كلا، إن هـذا لا يكون ... وسأذهب بنفسي إلى مجلس

العشرة ؟

– حسناً تفعل ، فهل أستطيع أن أفيدك الآن بشيء ؟

– كلا .

– إذن سأخبر أهلك .

– كلا ، لا تفعل .

– لماذا ؟

– لأن الريب يخامرها فتجهز عليّ ، فاذهب قبل أن تراك .

– أستودعك الله .

– أسرع أسرع بالذهاب .

فخرجت من ذلك القصر الجهنمي وأنا شبه المجانين وعدت إلى منزلي .. وفي اليوم التالي ..

فقالت له ليونور : وفي اليوم التالي ذهبت المحظية إلى مجلس العشرة فشهدت أن رولاند القاتل ولكن دافيليا لم يحضر .

– بل حضر ، ولكنه مات قبل أن يستطيع إظهار الحقيقة .

وساد السكوت هنيهة بين الأب وبنته ، ثم نهضت ليونور ومشت ببطء إلى صورة رولاند وقالت : رولاند ، لماذا تأخر أبي إلى الآن عن إخباري بهذه الحقيقة الهائلة ؟ فقال لها أبوها : ليونور ، ليونور ، إن حزنك كان عظيماً فلم أستطع أن أزيده بمثل هذه الأنباء ، وأنا لم أخبرك بها الآن إلا لأن قلبي يحدثني بأننا سنفترق فراق الأبد .

ولكن ليونور لم تسمعه فأتمت حديثها مع الصورة فقالت : رولاند ، إني لو عرفت هذه الحقيقة من قبل لانتقمت لك من

زمن طويل . ولكن ثق أيها الحبيب أني سأنتقم لك ، وأقسم لك أن هذا الرجل الذي أتسمّى الآن باسمه لا يموت إلا من يدي .

وعند ذلك عادت إلى كرسيها وغطت وجهها بيدها فناداها أبوها فأشارت له أنها مصغية فقال : ألا تجيبين رجائي يا ليونور وتبرحين معي هذه المدينة التي لا ترى فيها غير الأشباح الدموية ؟

– كلا يا أبي .

– إني أتوسل إليك ، فتعالي معي ولنهرب .

– كيف ذلك ؟ ألم تسمع قسَمي ؟ وأن ألتياري سيموت من يدي إلا إذا أخبره أحد بمصيره فهرب من انتقامي .

فاصفرّ وجه دندولو وأيقن أن إقناعها محال فتراجع قانطاً وهو يقول : أستودعك الله . ثم خرج من تلك الغرفة ذليلاً خجلاً قانطاً من بنته لا سيما بعد أن أهانته وأظهرت له أنها تخاف أن يشي بها إلى زوجها ويحذّره من انتقامها . ولم يعد يخطر له في تلك الساعة غير الفرار ، فذهب إلى غرفته فأحرق كل ما كان لديه من الأوراق التي يخشى عليها ، ثم انتشح بردائه وخرج من ذلك المنزل خروج اللصوص . ولما وصل إلى الرصيف التفت إلى نافذة ليونور وقال : أستودعك الله يا ابنتي . وفي تلك اللحظة أطفىء نور الغرفة الذي كان ينبعث من تلك النافذة فكان شبه جواب لهذا الوداع .

وسار دندولو حزين النفس منقبض الصدر إلى الشاطىء ولكنه لم يسر خطوة حتى أبصر رجلاً قد تصدّى له وهو ملتفّ بردائه فلم يرَ وجهه وقال له : من أنت ؟ فأجابه الرجل قائلاً : لقد سرّني أنك لم تعرفني .

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ أريد أن أقول لك كلمة بالسرّ ولكني لا أقول لك شيئاً هنا مخافة الرقباء ، فهل تريد أن تتبعني ؟

ـ ليكن ما تريد .

فسار الرجل وتبعه دندولو وهو غير مكترث لأمره ولكنه استاء لتأخّر سفره . وما زالا يسيران حتى اقتربا من منزل آريتان وهناك شارع ضيق مقفر فدخل الرجل إليه ثم وقف والتفت إلى دندولو فقال : ألديك خنجرك يا دندولو ؟ فأجابه بعظمة : إنه لا يفارقني. قال: حسناً، فلو لم يكن معك خنجرك لأعطيتك خنجراً إذ لديّ اثنان . وعند ذلك نزع رداءه فألقاه إلى الأرض فقال له : دندولو ... أراك تقترح عليّ مبارزتك ؟

ـ هو ذاك .

ـ ولكني لا أبارز رجلاً لا أعرفه .

ـ إذن أضطر إلى قتلك كيف اتفق، فخير لك أن تدافع عن نفسك. والآن لا بدّ لي من أن أوضح لك السبب في هذا القتل.

ـ إني مصغ إليك .

ـ أتعلم يا دندولو أننا اليوم في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني . إنك تعد هـذا القول من سقط المتاع ولا تكترث له ولكن تعلم خطورته حين تعلم أنه بعد يومين يبدأ شهر شباط .

فارتعش دندولو ارتعاشاً ظاهراً فقال له الرجل : أرى أنك فهمت فلا حاجة إلى إخبارك بما سيجري في هذا اليوم الرهيب ، ولكن لا بد لي من تذكيرك بأنك واقف على جميع أسرارنا وأنك

أردت الخروج من جمعيتنا فقرّرنا بالإجماع قتلك وقتل ابنتك .

ـ ليونور ؟

ـ نعم ، وقد تعيّنت أنا لقتلك فأقمت أراقب خروجك خمسة عشر يوماً ويجب عليك أن تشكرني لأني اقترحت عليك مبارزة شريفة في حين أني كنت قادراً على اغتيالك .

ـ نعم أشكرك، ولكني لا أرى وجوباً لهذه المبارزة فإني كنت أستحقّ القتل لو كنت جديراً بالخيانة .

ـ إن المرء ضعيف بالطبع يا دندولو ، فقد يتفق حدوث حوادث تدعوك إلى الإباحة بما تعلم .

ـ لو كنت أريد خيانتكم لخنتكم من عهد بعيد .

ـ ولكن لا يزال لدينا يومان وفي ذلك وقت فسيح .

ـ إني مغادر فينيسيا الآن .

ـ ولكن رسولك يستطيع أن يبلغها بعد ساعة فإن حياة الف رجل معلقة بحياتك ، وفي كل حال فقد تلقيت الأمر بقتلك ولا يسعني العصيان وقد أنفت من قتلك اغتيالاً فاقترحت عليك المبارزة .

فأيقن دندولو من لهجته أن لا سبيل معه إلى الجدال وأنه لم يبقَ عليه إلا أن يدافع عن نفسه . وكذلك الرجل فإنه تأهّب للقتال وبعد هنيهة انقضّ كل من الفريقين على خصمه بخنجره فكان قتالاً هائلاً دام خمس دقائق أسفر عن سقوط دندولو صريعاً . فأكبّ الرجل عليه وفحص جرحه فقال: إنه لا يعيش أكثر من ربع ساعة . ثم التفّ بردائه وتوارى عن الأنظار .

رسالة آريتان

*

كان آريتان قد دخل في هذه الليلة إلى منزله في الساعة الثامنة وعليه علائم الاستياء فإنه كان قد دعي إلى مأدبة فلما ذهب إليها قيل له إنها تأجلت إلى موعد آخر . وكان قد رأى من أهالي فينيسيا ما لم يره من قبل فإن علائم الاضطراب كانت بادية في جميع الوجوه وأكثر الناس يجتمعون عصابات ويتحدثون بأصوات منخفضة .

فعاد إلى منزله وهو مضطرب البال وتعشّى وحده وهو يقول في نفسه : ترى ماذا حدث في فينيسيا أو ماذا عسى يحدث فإني أرى سكون القوم يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة ، فإذا استمرّت الحال على هذا المنوال 'حرمت' فينيسيا من وجودي وذهبت'.. ولكن إلى أين أذهب؟ أأذهب إلى روما والكردينال روسبولي جلدني فيها بالسياط؟ أم أذهب إلى باريس ووليّ العهد حاقد عليّ لأني هجوته وهجوت' أمه ، فهو يقتلني لا محالة . قبحاً لهؤلاء الأشراف ما أصغر عقولهم وأحقر نفوسهم . إلى أين أذهب فإني لم أعد أطيق الإقامة في هذا البلد! وفيما هو على ذلك

جاءه أحد خدمه فقال له : يوجد على الباب رجل جريح يريد أن يكلمك وهو من أهل الجاه كما يظهر من حديثه وملابسه .

ـ ألعلّك رأيته ؟

ـ نعم ، فقد سمعت أنينه تحت النافذة فذهبت إليه ووجدته في حالة النزع فطلت إليّ أن أحمله إليك .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ أعرفه .

ـ إذهب إذن وجئني به .

ـ لقد فعلت يا سيدي .

ـ كيف تفعل ذلك أيها الأبله دون أمري ، أحسبت بيتي مستشفى ؟ وبعد ، فأين وضعته ؟

ـ في أحد غرف الدور الأول وأرسلت من يدعو طبيباً .

ـ حسناً فعلت ، وها أنا ذاهب إليه .

وذهب آريتان إلى الجريح فلما رآه صاح صيحة انذهال وقال: هو دندولو الذي بعثه صورة رولاند ! وعند ذلك فتح الجريح عينيه فقال له آريتان : تشجع يا سيدي فإن الطبيب سيحضر قريباً فينقذك . فأشار إليه دندولو أن يدنو منه فقال له : ماذا تريد ؟ أتستطيع الكلام ؟ قال : لا حاجة إلى الطبيب فإني سأموت . وعند ذلك دخل الطبيب ففحص الجريح وتبيّن آريتان من عيني الطبيب حالة اليأس . أما دندولو فإنه سأل الطبيب بصوت خافت قائلاً : إني موقن بقرب الموت ... ولكن قل لي متى سأموت . قال : توكل على الله يا سيدي .

– بل تكلم ولا تخف فلا أخشى الموت .
– أتريد ؟
– ذلك لا بدّ منه .
– إذن فاعلم أن الموت يكون حين إخراج الخنجر من صدرك ولكن ذلك ليس بأكيد ، فثق بالله .
– لقد فهمت ، فهل تستطيع أن تعطيني مقوّياً وقتياً يعينني على الكلام ؟
– ذلك سهل .

وقد أخرج لفوره زجاجة صغيرة من حقيبته وأفرغها في فم الجريح فلم يكد الشراب يستقرّ في جوفه حتى شعر بأنه انتعش فقال للطبيب : أشكرك وأرجو أن تنصرف الآن . فامتثل الطبيب وشيّعه آريتان إلى الباب فقال له : ماذا ترى؟ قال : إنه يعيش ساعة أيضاً إذا بقي الخنجر في صدره وإذا أخرج يموت للفور .
– ألا يمكن إنقاذه ؟
– كلا ، واأسفاه !

فعاد آريتان إلى الجريح وقال له : إطمئنّ يا سيدي فإن الطبيب يرجو لك الشفاء . فقال له دندولو : إني أعرف حقيقة أمري فأسرع إلى مجاوبتي عما أسألك عنه بأتمّ الجلاء فإن الأوان يفوت بعد نصف ساعة . قال : سل يا سيدي ما تشاء . قال : لقد قلت لي حين زرتني إن رولاند من أصدقائك .
– هو ذاك .
– إذن أستطيع أن أعهد إليك بمهمة سرية إليه .

– دون شك ، فإنه يزورني في أكثر الأحيان .
– أريد أن أعطيك كتاباً إليه .
– وأنا أتعهّد بتسليمه إياه .
– وسأملي عليك الكتاب فتكتبه بخطك .
– كما تريد .
– أقسم لي أنك تنسى كل ما أمليه عليك .
– أقسم .
– إذن أكتب .

فأحضر آريتان معدّات الكتابة وأملى عليه دندولو ما يأتي:

« رولاند ، إني على وشك الموت فقد أصبت بطعنة خنجر لا سبيل إلى النجاة منها ، فكل ما أقوله لك حقيقة لا ريب فيها فإن القادمين إلى لقاء ربهم لا يكذبون » .

« رولاند ، إني جبان وقد حملني ضعفي على ارتكاب جريمة كانت شرّاً عليك ، ولو كنت وحدك الذي شقيت بسبب هذه الجريمة لتعزّيت ولكن أباك وأمك قد أصيبا بها ، وكذلك ابنتي قد عوقبت بذنب سواها وإليك بيان الحقيقة ... »

فقاطعه آريتان الشاعر وقد غار على صناعة الإنشاء وقال له: ألا ترى يا سيدي أن الإملاء ركيك ؟ فقال دندولو : إني أستحلفك بشرفك أن لا تغيّر كلمة من هذا الكتاب . ثم عاد إلى الإملاء فقال :

« رولاند ، إن ابنتي جديرة بك وقد ضحّت نفسها وأقدمت على ما لا يقدم عليه إنسان من تضحية وذلك أنك كنت في السجن

فتوعّدني ألتياري بالدمار وبالقتل وبالتسمم إذا لم أطعه فاضطررتُ إلى الامتثال لأني جبان . وقد قلت لليونور مرة إنك هربت من فينيسيا وتخلّيت عنها وسلوت حبّها ثم قلت لها مرة ثانية إنك متّ وأخيراً قلت لها إني في أشدّ مواقف الأخطار وإنه لا ينقذني من هذا الخطر غير زواجها بألتياري . فوافقت ليونور على أن تدعى باسم ألتياري ولكنها لم توافق على غير ذلك. أي أنها تكون امرأته بالإسم ليس إلا، فهي تحمل اسمه ولكنها ليست امرأته».

« وما زالت على ذلك إلى الآن ، فإنها حين اعتقدت أنك متّ مات كل رجاء في قلبها ، ووفت بعهدك بعد الموت . ولما علمت أنك حي عادت إلى عبادتك فهي هي على وفائها في الحياة وفي الموت » .

« هذا ما أريد أن أقوله لك قبل أن تدركني الوفاة ، ولا أدري أيقدّر لكما أن تلتقيا أم حكم عليكما بالفراق الأبدي وهو ما أرجّحه ، فان هذه الحوادث التي ستجري ستكون شؤماً على ابنتي » .

« وكل ما أطلبه إليك في هذه الساعة الأخيرة أن لا تسيء ظنك بليونور بل قدّس اسمها في قلبك فإنها ضحية ضعفي وشهيدة الوفاء . أستودعك الله يا رولاند .. الوداع يا ليونور .. إني سأوقّع على هذه الرسالة وأموت » .

وعند ذلك أخذ القلم من يد آريتان وكتب اسمه في ذيل الرسالة. وبعد ذلك وضع يده على الخنجر المغمد في صدره وجذبه برفق فلم تمضِ هنيهة حتى فاضت روحه وردد النفس الأخير .

فكبر موته على آريتان وقال في نفسه : ويحٌ لي ما أعظم شقائي ! فهذه جثة ثانية في منزلي لا أدري ماذا أصنع بها وأخاف أن أكرَه على السفر بها كما فعلت بجثة بيانكا .

عند ذلك خطر له أن يبحث في جيوب الفقيد علّه يجد وصية كتبها قبل موته فلم يطل بحثه وظفر بورقة مطوية كانت في جيبه ففتحها وقرأ فيها ما يأتي :

« أنا دندولو كاتب هذه السطور عزمت على مغادرة فينيسيا ولي أعداء كثيرون أخاف أن يفتك بي أحد منهم على الطريق . فاذا حدث وقتلت ألتمس ممن يطّلع على هذه الوصية أن يعمل بشروطها وهي :

١ — أن يخبر بموتي ابنتي ليونور المقيمة في فينيسيا في قصر زوجها ألتياري القائد العام ويتلطف جهده باخبارها .

٢ — أن تحمل جثتي إلى فينيسيا وتدفن في تربة آبائي .

٣ — أن يذهب إلى ميلانو وهناك يذهب إلى آخر منزل في شارع سانتو فينزل إلى القبو وينزع أول بلاطة في الصف الأول من جهة الباب فيجد هناك صندوقاً ... »

فتنحنح آريتان ومسح عينيه وقال : ألعلّني أقرأ خطأ ؟ فلأقرأ بسكينة . وقرأ :

« وهذا الصندوق يحتوي على خمسين ألف ريال وألف دينار وحجارة كريمة تبلغ قيمتها خمسين ألف ريال » .

فكاد آريتان يغمى عليه وصاح صيحة فرح عظيمة فتراكض إليه الخدم ولكنه انتهرهم وطردهم أقبح طرد فتراكضوا من

وجهه منذعرين . وبعد أن أقفل الباب في أثرهم عاد إلى الوصية وقرأ ما يأتي :

« إن هذه الوصية إذا عثر بها نبيل ، أو شاعر أو رجل آخر من أهل الفنون الجميلة فلا أهينه بعرض مكافأة عليه... وإذا لقيها لص وكان يحترم إرادة الأموات الأخيرة فليقنع بأربعة آلاف ريال . وإذا لقيها رجل فقير فإني أسمح له بخمسمائة ريال يستعين بها على حاله . وأيّاً كان الذي يظفر بهذه الوصية فإني ألتمس منه أن يقسم ما في الصندوق إلى قسمين متساويين فيعطي قسماً لرولاند وهو يكون إما في فينيسيا أو في مغاور بيافا ، والقسم الثاني لابنتي ليونور زوجة ألتياري القائد العام » .

إلى هنا انتهت وصية دندولو . فلمّا أتمّ آريتان تلاوتها نظر إلى الجثة نظرة المؤنب وجعل يمشي في الغرفة وهو يحدّث نفسه ويقول: إني لا أستطيع أن أحسب نفسي من اللصوص فلا يحقّ لي أن أقبض أربعة آلاف ريال وأنا مضطر إلى أن أعتبر نفسي شاعراً أي من الذين لا يجب أن يهانوا بعرض المكافأة عليهم . ولكنني أقبل هذه الإهانة ، ولو قبلت بها... فكم تكون مكافأتي؟ فإنها لم تعيّن في الوصية .

ثم ضرب جبينه بيده فجأة وقال : إني أعد نفسي من الفقراء ومَن عسى أن يكون أفقر مني؟ ولكنه والأسف لم يجد على ذلك الفقير إلا بخمسمائة ريال .. وحبذا لو كانت دنانير على الأقل .

مسكين يا آريتان لا بد لك من الاكتفاء بخمسمائة ريال !

وقد تعزى آريتان بهذا الخاطر وخرج من غرفة الميت فلقي

بيريتا وقال لها: لقد نكبت بمصيبة فادحة يا بيريتا فقد خسرت ثروة عظيمة .

وقد ترك الجثة في موضعها ودخل إلى غرفته فجعل يفتكر بما يجب أن يصنعه فارتأى أن يخبر في البدء ألتياري بموت عمّه ، ثم يذهب إلى ميلانو فيأتي بذلك الصندوق العجيب ثم يأخذ منه خمسمائة ريال ويقسم الباقي إلى قسمين حسب الوصية ثم يذهب بكتاب دندولو إلى رولاند .

وهنا لا بدّ لنا من الثناء على هذا الشاعر فإنه لم يخطر له في بال أن يستأثر بما في الصندوق على شغفه بالمال وما ذلك إلا لأنه كان من الشعراء أي من أولئك الفتيان الذين هذبت الآداب نفوسهم فما غرّهم مال وما تدنّسوا بنقيصة .

ليونور

*

وفي صباح اليوم التالي لبس ملابس الفرسان وذهب لإنفاذ وصية الميت وقد وضع كتاب دندولو إلى رولاند في جيبه فجعل يقول في نفسه : ترى ، أيجب أن أخبر ليونور بما تضمنته رسالة أبيها إلى رولاند ، فإن هذه الأنباء تفيدها ؟ ولكن من يعلم ما يكون بعد أن أصيبت هذه العائلة بذلك اليأس القاتل ، فقد يحدث إذا اطلعت على الرسالة أمور هائلة تنقضّ صواعقها على

رأسي . وبعد فإن الميت لم يعهد إليّ بأن أطلعها على الرسالة بل سألني أن أسلمها إلى رولاند فلأحترم إرادة الميت .

وقبل أن يخرج من منزله دخل إلى غرفة الميت كي يتحقق أن حوادث الأمس لم تكن حلماً فرأى دندولو ميتاً كما تركه . وذهب إلى قصر ألتياري فتمكّن بعد الجدال العنيف من الإذن له بمقابلة ليونور . وكانت ليونور قد قضت ليلة هائلة فإن ما أخبرها به أبوها عما فعله ألتياري حوّل حزنها إلى غضب وانتقام فقالت : إن ألتياري لا يموت إلا من يدي . ولم تقل هذا القول عن بادرة حدّة بدرت منها بل إنها كانت عازمة كل العزم على ذلك وهي تعلم يقيناً أنها إذا قتلت ألتياري كان قتله داعياً إلى فراق رولاند فراق الأبد . فإذا بقي لها بقية رجاء ذهب هذا الرجاء ، فإن جميع أهل فينيسيا يعلمون أنها لم تقتل زوجها ألتياري إلا للاقتراب من حبيبها رولاند كانديانو .

على أن هذه الفتاة كانت ترجو على قنوطها أن تعود إلى ذلك الزمن القديم ، ولكنها لا تعلم كيف ترجو وعلى أي أساس تبني هذا الرجاء ، فكان اليأس عظيماً في قلبها إذ كانت تعتقد أنها متى قتلت ألتياري لا بدّ لها أن تنتحر . وقد تمكّن منها فكر الانتحار ولذلك باتت تلك الليلة التي قتل فيها أبوها على أحر من جمر الغضا فبينما كان أبوها يموت في منزل آريتان كانت هي تتأهب للموت أيضاً .

ولما جاء آريتان وطلب مقابلتها امتنعت في البدء ثم أذنت له بالدخول حين ذكرت أن هذا الشاعر رجل شهم وأنه من أصحاب

النفوس الشريفة التي تمشي مع المظلوم ضد الظالم . فدخل آريتان إليها وقال لها : إني قادم يا سيدتي بأنباء لا بدّ من إخبارك بها ولذلك اغتفرت لنفسي خطأ الإلحاح بمقابلتك فإن هذه الأنباء خاصة بأبيك الشهير .

وكان آريتان يتوقع أن تسأله الأسئلة الكثيرة ولكنها سكتت ولم تجب بشيء . فقال لها : لقد رأيت أباك يا سيدتي أمس في منزلي وقد جاء إليه دون أن يريد ، أي أنهم جاؤوا به إليّ .

— جاؤوا به إليك ؟

— نعم يا سيدتي ، وذلك يحملك على الظن أنه جريح .

— إنه يدعوني إليه ، فهلمّ بنا .

— كلا يا سيدتي فتفضلي بالإصغاء إليّ فإنه مصاب بجرح خطر قاتل .

— بل تريد أن تقول إنه مات ؟

— هو ذاك يا سيدتي ، فقد حملوه إلى منزلي وهو بحالة النزع فلم يستطع إلا أن يعهد إليّ بإخبارك والله يعلم ما ..

فمنعته عن الكلام بإشارة وقد اصفرّ وجهها وذكرت أن دندولو أبوها وأنها باتت وحيدة في هذا الوجود فشعرت بخوف عظيم لم تدرك سببه وهي قادمة على الموت ، ونظرت إلى آريتان وقالت له : لقد قلت إن أبي كان جريحاً .

— نعم ، لقد فاجأه أحد اللصوص بطعنة خنجر تحت منزلي وسمعت صيحته فأسرعت لنجدته فوجدته ملقياً على الأرض فحملته إلى المنزل وأسرعت باحضار الطبيب فلم يجده نفعاً وا أسفاه !

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEENA

– أشكرك يا سيدي على كل ما صنعته .

– إني لم أفعل غير واجباتي وليس هذا كل شيء فإن الفقيد الكريم قد عهد إلي بدفنه .

– كلا ، فإن ذلك خاص بي ، فتفضل برافقتي إلى منزلك .

فانحنى أمامها بملء الاحترام وهو قلق لسكوتها إذ كان موقناً بأن النار تتأجج في صدرها .. وكانت ليونور تعتقد أن أباها قد قتل بيد ألتياري أو أحد رجاله فلم يزدها ذلك حقداً على هذا النذل ألتياري إذ لم يعد قلبها يحتمل المزيد من الحقد عليه ، وسارت مع آريتان إلى الغرفة التي وضعت فيها جثة أبيها فتركها وحدها . أما ليونور فإنها دنت من أبيها فركعت أمامه وأخذت يده بين يديها . وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل منه رجل والنار تتوهج في عينيه . وذلك انه بينما كانت ليونور تدنو من جثة أبيها دخل رجل إلى منزل آريتان وهو ملتف بردائه وقد لقي آريتان في صحن الدار فقبض على ذراعه وقال له : أين هذه المرأة التي دخلتَ بها ؟ ادعُها إليّ في الحال .

فصاح به الشاعر قائلاً : ويحك ، هل أنت من المجانين ، أم انك تريد أن آمر خدمي فيطردوك بالسياط وأعقاب الأحذية ؟

– ويحٌ لك أيها الشقي ، إني أقتلك شرّ قتل إذا لم تمتثل .

– ولكنك تقدم على أمر منكر أيها الرجل ، فإن هذه السيدة التي هناك تتمّم واجباً مقدساً ويجب عليك أن تخجل من نفسك أيها الوقح .

فلم يسمع الرجل مزيداً وأسرع إلى الغرفة التي كانت فيها

ليونور ودفع بابها بعنف ودخل . أما ليونور فإنها التفتت ورأت أمامها زوجها ألتياري فقالت له : لقد انتهى بك الأمر إلى أن تراقبني ؟ فلما رأى ألتياري جثة دندولو نزع قبعته وتراجع ببطء . وكان قد رأى ليونور خرجت من القصر وهو يعلم أن رولاند في فينيسيا فأيقن أنها ذاهبة إليه أي أنها تحاول الفرار فاقتفى أثرها ووصل حين دخولها .

أما ليونور فإنها قالت له : لعلك آتٍ لتشق من موت ضحيتك ؟ فأجفل ألتياري وقال : ضحيتي ؟ إني أقسم لك بأن لا علم لي بما حدث ، ولكن دندولو قد خان كثيرين من فينيسيا وكنت أكرهه لأني لم ألقَ منه غير السوء ، ولكنه كان أباك !! كلا يا سيدتي لست أنا الذي قتلته فابحثي عن قاتله بين الذين خانهم كما خانك وخانني . وأنا الآن ذاهب ، فلو كنت عالماً إلى أين كنت قادمة لمّا وافيتك .

وعند ذلك نظرت ليونور إلى ذلك الخنجر الذي قتل به أبوها وكان لا يزال في يده . ولكنها قبل أن تقبض عليه كان ألتياري قد انصرف فوقفت واجمة وكلمات ألتياري ترنّ في أذنيها حيث قال : إن دندولو قد خان كثيرين في فينيسيا فابحثي عن قاتله بين الذين خانهم . فجعلت تقول في نفسها : ترى ، أي رجل لقي من خيانة أبي مثل ما لقيه رولاند ؟

وقد ذعرت عند ذلك إذ خطر لها أن رولاند قاتله . وإذا كان ذلك فهل يحقّ لها أن تلومه ؟ كلا ، ولكن القدر قد وضع سداً عظيماً بين هذين العاشقين اللذين تحدّثت بحبهما الركبان فلم

يبقَ عليها إلا أن تحني رأسها صاغرة لهذا القدر .

وبعد هنيهة نقلت الجثة إلى قصرها وعيّنت موعد الدفن في اليوم التالي أي في اليوم الأول من شهر شباط وأقامت تلك الليلة تحرسها . وكان خاطر الانتحار قد تمكّن منها فجلست أمام جثة أبيها وتاهت في مهامه التفكير . وبعد زمن طويل التفتت فرأت رجلاً ينظر إليها وكان هذا الرجل زوجها . فقال لها ألتياري : إني واقف هنا منذ ثلاث ساعات وأنت لا ترينني وكنت أنتظر أن يقع نظرك عليّ... نعم إني أذكر اتفاقنا وهو أنك تكتمين سرّي وفي مقابل ذلك لا أدخل إلى غرفتك ولا أكلمك ، ولكن يجب اليوم أن أكلمك لأن الذي سأقوله أمر خطير ولا أدري إذا كنت أستطيع الكلام بعد قليل .

قالت له : ماذا تريد أن تقول لي ؟ فارتعش ألتياري فرحاً إذ لم يجد في لهجتها ما يدل على غضب أو نفور فقال لها بصوت يتهدج : أتريدين إذن الإصغاء اليّ ؟ قالت : إنك ما زلت نقضت الاتفاق فأتلفه بجملته وتكلم فإني مصغية إليك .

ومما تجدر ملاحظته أن ليونور لم تكن تأذن له من قبل بمحادثتها لأنه كان زوجها ، أما الآن فقد بات عدوّها الذي عزمت على الانتقام منه بالقتل ، ولا بدّ من مقابلة الأعداء للوقوف على نياتهم ، فإنها باتت تكرهه الآن فوق ما كانت تحتقره .

فقال لها ألتياري : إني أحببت أن أكلمك أمام الميت ، فإن أباك الذي كنت أكرهه أعده الآن شاهداً مقدساً على ما أقوله ، وإني أقسم بهذا الميت على أني لا أقول لك غير الحقيقة فاسمعي :

إنك تعلمين بأنه ستجري حوادث خطيرة فإنك عالمة بمؤامرة الفينيسيين على الدوج فوسكاري وانهم يريدون أن أكون أنا خلفاً له . وغداً بعد الظهر سأضع على رأسي تاج فينيسيا إذ لا شيء ينقذ فوسكاري الآن ولا يوجد من ينازعني السيادة . فأنت الآن في حالة تحسدك عليها الأميرات ، ولا يبعد أن يكون لك في وقت قريب لقب ملكة فإني أرجو أن يكون لي لقب ملك ، ولقد نظرت إلى ما حوالي ، ونظرت إلى المستقبل ، فرأيت أن مجد الجمهورية ومصلحتها يقضيان بأن يكون الاتفاق تاماً بين الدوج والدوجة ، أتسمعين ما أقول يا سيدتي ؟

— إني مصغية إليك .

— وقد أتيت أسألك ماذا يكون نهجك حين تدخلين إلى سراي الدوج الذي أقام فيها كثيرون من أجدادك .

— إني أنهج نهج امرأة بيعت وأنت اشتريتها ، أي نهج أمة تكره سيدها ؟

وقد كان يرجو أن يبهرها جلال الملك وأن تكون قد ملّت عيش العزلة والانفراد ولكنه رأى من جوابها وسكينتها أن عزيمتها ثابتة لا تتزعزع ، فكظم غيظه وغيّر خطة حديثه فقال : إنك ترفضين ذلك التاج الذي أعرضه عليك وتأبين أن تكوني تلك الدوجة التي تحسدها كثيرات من الأميرات الايطاليات ، فلأدع الآن هذه الأبحاث لأعود إلى بحث آخر . أتعلمين يا سيدتي من الذي دبّر هذه المؤامرة التي سينفجر بركانها بعد غد ؟ أتعلمين لماذا يقتل رجال فينيسيا ويسفكون دماءهم في ذلك اليوم ؟ إن

كل ذلـــك من أجلك ! نعم ، إني أنا الذي أعددت المؤامرة ، ولكن جميع تلك الدماء والدموع لا تسيل إلا في سبيل انتصارك ، فقد خطر لي أنـــك إذا ارتفعت إلى العلى لا تتدانين إلى خفض النظر وتنسين ذلك الماضي ، وخيّل لي أن الأميرة ليونور سوف تنسى الحقد الذي كان كامناً في نفسها على رجـــل تزوّجت منه دون أن يكون له في قلبها ذرّة من الحب . وأنت ترين أني لم أخاطر بحياتي ولم أعمل هذه الأعوام الطويلة إلا من أجلك . على أني سأرجع عن هـــذه المطامع ما زلت لا تريدين أن تكوني أميرة إذ لا فائدة لي بعد ذلك من منصب دوج .

فلم تجبه ليونور بكلمة ولبثت صامتة كأنها لم تسمع ذلك الحديث فهاج غضب ألتياري ولكنه كبح جماح غضبه وقـال : اسمعي أيضاً ، فإني أقترح عليك أن نبرح فينيسيا ونذهب إلى حيث تشائين ونعيش كما تريدين فنسافر منذ الليلة وأدع رفـاقي الذين دفعتهم إلى هذه المؤامرة ، أي كما أني كنت بطلاً في سبيلك أصبح جباناً في سبيلك أيضاً ، أتريدين ؟ قولي ، أتقبلين ؟

— قـــل لي يا ألتياري ، ألست أنت الذي وضعت وشاية أمباريا في صندوق الوشايات ؟

— ماذا تعنين ؟

— إنك سمعتني فـــيما أظن ، فإن أمباريا كتبت إلى مجلس العشرة تقول إن رولاند كانديانو قتل جان دافيليا ، ألم تكن أنت الذي أملى عليها هذا الكتاب ؟

— كذب وافتراء . فإني لا أتدانى إلى مثل هذه النقيصة .

— فمدت ليونور يدها إلى جثة أبيها وقالت : ألا تسمع يا أبي ما يقول بعد أن أقسم بك أنـــه يقول الحقيقة ؟ ثم التفتت إلى ألتياري وقالت : مـــن منكم الذي وضع الكتاب في صندوق الوشايات ، فقد كنتم تأمرون على قتل رولاند وكنتم كثيرين ؟

— كذب وافتراء ، فإني لم أشر على أمباريا بشيء ولم يوضع كتاب في صندوق الوشايات ..

فقاطعته قائلة : ألتياري ، من الذي أراد الاجتماع بـأبي في ساحة سانت مارك بعد اجتماع المؤتمرين بقليل في منزل أمباريا ؟

وهنا أخذت يد أبيها الميت وهزتها بعنف وقالت : تكلم يا أبي .. إستفق من سبات موتك وأعد على ألتياري ما حدّثتني به .

فذعر ألتياري ذعراً عظيماً لأنهم كانوا في ذلك العهد يخافون خوفاً شديداً من أرواح الأموات وقـال بصوت مختنق : نعم ، نعم ، إني أعترف بأن كل ما تقولينه حق ، فقد كنت خائناً أثيماً ! نعم ، فإني في ليـلة خطبتك كنت أسمع الناس مع بعبو يذكرون اسم رولاند وليونور فتقطع الغيرة قلبي . نعم ، أنا الذي أغرى المحظية على اتّهام رولاند وأعدّ تلك الرسالة التي ألقيت في صندوق الوشايات . نعم ، أنا هو يا ليونور ذلك الخائن الأثيم . على أني لو اضطررت إلى فعل أكثر من ذلك لأفصلك عن رولاند لفعلت . وإني سأفعل ما لا يخطر في بال بشر لتكوني لي ، بـل إني أدخـل إلى جهنم النار وأستعين بأبالستها كي لا تحول قوة في الوجود بيني وبينك . وقد أهانني رولاند إهانـة لا تحملها نفس أبية ، واضطررت إلى المخاطرة بحياتي وسفك دماء الناس وإثارة

فينيسيا ، ولكني لم أفعل ذلك لنيل منصب الدوج بل للفوز برولاند وانتزاع قلبه من صدره لأنك تحبينه .

وقد هاج غضبه واتقدت عيناه ومشى إلى ليونور . ولكنها لبثت واقفة في مكانها تنظر إلى جثة أبيها كأنها تستشهده على ما يقول . أما ألتياري فإنه ضمّ قبضتيه ورفع يده كأنه يريد أن يسحقها فالتفتت إليه عند ذلك وقالت له : أتمّ جرائمك واقتلني فإنك إذا قتلتني تستريح ولا يبقى حولك من تغدر به . فسقطت يد ألتياري وتراجع عنها خطوة وقد هاج غضبه فعمد إلى الشتم القبيح واتّهمها بكلّ ما يخجل المرأة ثم قال لها : أما أنا فإني حرّ على الأقل فقد أحببتك ولا أزال أحبك بدون عقل وقد فعلت ما لم يكن يمكن فعله كي تكوني لي ، وأما أنت فقد أحببت سواي ورضيت مع هذا الحب أن تسمي باسمي فأيّنا أفضل وأيّنا الخائن ؟ أجيبيني أيتها الشقية ، أجيبيني .

قالت : نعم أجيب ، وجوابي أني عفوت عنك .

– أنت ؟ أأنت تعفين عني ؟

– ألم تقل لي إن رولاند قد عفا عنك ؟ ويجب على كل امرأة أن تقتدي بالرجل الذي تحبه .

فقبض ألتياري على شعر رأسه حتى كاد ينتزعه وقال : أقتلها .. ولكن كلا ... لا أستطيع لأني لا أزال أحبها .

ثم برح تلك الغرفة وهو يقول : لعنتك السماء والأرض فإنك علّة شقائي .

أما ليونور فإنها سقطت على كرسي واهية القوى وهي تقول :

إنه لم يحسر على قتلي فلا بدّ إذن من أن أقتل نفسي . وقد دل هذا القول على مبلغ يأس تلك المنكودة فانها لم تهج غضب ألتياري إلا لتحمله على قتلها ولم تحاول قتله لأنها علمت أن رولاند عفا عنه ولذلك عزمت عزماً أكيداً على الانتحار بعد أن تدفن أباها . وكان مدفن عائلة دندولو في الجزيرة وراء كنيسة فرموز ولا يبعد بيت الجزيرة عنها غير بضع خطوات . فذهبت إلى ذلك البيت وهي تعلم أنه لرولاند فدخلت إليه وذهبت إلى غرفتها القديمة فيه فلبست تلك الملابس التي كانت تلبسها ليلة خطبتها ، فان ملابس العذارى كانت تختلف في ذلك العهد عن ملابس المتزوجات . ولعلها كانت تريد بذلك أن تكون في الظاهر كما هي في الحقيقة ، بل ربما أرادت أن يعلم أهل فينيسيا أنها إذا ماتت في غير منزل زوجها فذلك لأنها لم تكن متزوجة بل كانت عذراء ، بل ربما كانت تريد أيضاً أن يعلم رولاند بعد موتها أن كبرياءها منعتها عن أن تقول له : إني لا أزال وفيّة بعهدك وإني لا أزال نقية عذراء .

وقد عزمت بعد تلك الليلة أن تنتحر بشرب السمّ ، وأقامت تلك الليلة أمام جثة أبيها .

*

وفي صباح اليوم التالي بعد أن حملت الجثة إلى المدفن ، وذلك في صباح اليوم الأول من شهر شباط ، تفرّق الناس وانصرف ألتياري وضباطه فساد السكون الرهيب في قصر ألتياري القائد العام .

*

إن هذه الحوادث التي سنقصها منحصرة في يوم واحد وهو اليوم الأول من شهر شباط الذي بات يوماً تاريخياً في فينيسيا. ولا نجد مَثَلَنا في قص حوادث ذلك اليوم إلا مَثَل ذلك الكيماوي الذي لا يعرف مواد الجسم إلا بعد تحليله والنظر في عناصره ثم يعود إلى تركيب تلك العناصر. وكذلك نحن فلا بدّ لنا من بيان تلك المقدمات التي تؤدي كلّها إلى نتيجة ذلك اليوم.

ففي صباح الأول من شهر شباط كان جينارو رئيس البوليس لا يزال ساهراً إلى الساعة الخامسة من الصباح فانه قضى كل ليلته بالإمعان والتفكير. وقد وقف في النافذة وجعل ينظر منها إلى فينيسيا والقمر لا يزال مشرقاً في سمائها وقد اصفرّ وجه النجوم لقرب بزوغ القمر. ولكن جينارو لم يفكر بهذه النجوم وقد أغلق النافذة وهو يقول: إن الهواء بارد ولكنه سيهبّ سخناً بعد ساعات ويكون اليوم هائلاً.

وعند ذلك دخل إلى غرفة كان فيها كثير من الملابس المختلفة يستعملها للتنكر، فبالغَ بالتنكر وابتسم ابتسام المعجب بنفسه وهو يقول: إني لا أكاد أعرف نفسي.

وقد تنكر بملابس الحجّاب المقيمين في سراي الدوج وبرج منزله من باب خاص لا يخرج منه سواه. وبعد هنيهة وصل إلى جوار سراي الدوج فلقي فرقة واقفة هناك من الجند فاجتازها ودخل إلى الدوج بفضل كلمة السر التي لقّنه إياها الدوج نفسه فكان يستطيع أن يدخل إليه متى شاء. وقد لقي القاعة فارغة فجعل يناجي نفسه ويقول: هو ذا اليوم العظيم الذي تحتفل به

فينيسيا بتزويج الدوج من الأدرياتيك، ولكن ترى من الذي سيكون الدوج، ألتياري أم فوسكاري أم كانديانو؟ على أنه أيّاً يكن المنتصر فإن أعمالي سائرة على محور الفوز، وكل من ينتصر من هؤلاء الثلاثة انتصرت معه، فإذا فاز فوسكاري فهو لا بدّ له مني وفوق ذلك فقد وعدني وعداً أكيداً وسيكون أول ما يفضيه حين عودته إلى السراي أمر تعييني رئيساً لديوان التفتيش. وأما ألتياري فقد خدمته أجل خدمة حين أخبرته أين يوجد كانديانو وهو لم ينجح ولكن ذلك لا ينقص قدر الخدمة وفوق ذلك فهو يعلم يقيناً أني واقف على سر المؤامرة وأني أستطيع عند الاقتضاء أن أبرهن له عن ذلك فهو إذن يثق بإخلاصي ولا يبخل عليّ بهذا المنصب إذا فاز. وقد بقي كانديانو، فإني أطلعته على نيات فوسكاري وعلى ما يصنعه ألتياري ورفضت رفضاً باتاً أن أقبض عليه في حين أن ذلك كان من واجباتي، فلا ريب عنده باخلاصي. ونعم ان رولاند قال إنه سيلغي منصب ديوان التفتيش ولكني أستطيع إقناعه بأنه لا بدّ لفينيسيا من هذا المنصب وهو من أهل العقل وسيحفل ببراهيني.

وخلاصة ما تقدم أني أخلصت لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وخنت كل واحد منهم وبات كل واحد منهم يعتقد أني من المخلصين في خدمته، فليتنازعوا الملك وليقتتلوا عليه ما يشاؤون إذ لا بدّ لواحد أن يفوز ولا بدّ لي أن أفوز الفوز العظيم فانهم والحق يقال لا يشتغلون لأنفسهم بقدر ما يشتغلون لي.

وقد جعل يضحك حتى سمع خطوات فوسكاري فانقطع

عن الضحك ودخـــل الدوج فلقيه جالساً في قاعته . ولم يعرفه الدوج في البدء حتى عرّفه بنفسه فسأله قائلاً: لماذا هذا التنكّر؟ قال : لأني أبلغت ألتياري بأني غائب عن فينيسيا فلا يجب أن يراني ، وبهذا اللباس أستطيع أن أكون دائماً بجانبك .

– ولكن لماذا أبلغت ألتياري أنك غائب عن فينيسيا ؟

– لأنهم إذا علموا بوجودي في فينيسيا قد يغيّرون خطة المؤامرة لخوفهم مني . وإذا علموا أني غائب يطمئنون ويبقون الخطة على نفسها .

فأعجب فوسكاري به وظهرت عليه علائم الاطمئنان فسأله قائلاً : ألم تعلم شيئاً عن رولاند ؟

– كلا يا مولاي .

– إذن ليس هو في فينيسيا ؟

– أؤكد لكم أنه لغاية أمس لم يكن هنا . وقـــد قال هذا القول دون أن يكون كاذباً وسيعرف القرّاء لماذا .

– على ذلك لا يكون هناك الآن ؟

– من يعلم يا مولاي ؟ فان هـــذا الرجل عجيب في سرعة انتقاله فبينما نحسب أنه في فينيسيا نجد أنه في روما يقتل أمباريا. وبينما هو في روما يتصل بنا أنه في مغاور بيافا يجرى أموراً لا نعلمها . وبينما نعتقد أنه هناك قد نجده بعد ساعة في ليدو .

– وأي شأن له في ليدو ؟

– أظن أنه عالم بما سيحدث .

– كيف عرف ؟

– من يعلم ؟ فاني أقول ما أقوله على سبيل الظن . والذي أظنه أنه إذا كان عارفاً بما سيحدث فلا بدّ له أن يحضر .

– وأية غاية له من الحضور ؟

– إنه يكره ألتياري كرهاً لا حدّ له ، والذي أراه انـــه يريد إحباط مساعيه بحيث أنه سيكون نصيرك اليوم بالرغم عنه.

– نعم ، إن ذلك معقول . وإنمـــا يفعله كي يبقى له عدوّ واحد بدلاً من اثنين .

– هو ذاك .

– هل أتممت معدّاتك ؟

– نعم يا مولاي ، فإن ساحة سان مارك قد احتلها الجنود بأمرك ، وجميع عمالي وجواسيسي في مراكزهم على جميع الطرقات التي يسير فيها الموكب ، وقد صدر إليهم الأمر بالالتفاف حولك كلما تقدمت بحيث أنك حين تبلغ الرصيف تجد جميع جواسيس المدينة محيطين بك وكل واحد منهم مسلّح بخنجر وغدّارة .

– حسناً يا جينارو .

– وفوق ذلك فقد وزعنا كثيراً من المال على الشعب كي يهتفوا لـــك حين مرورك . وأخذت فرقة من الجند فقسمتها إلى فرق فرّقتها في المدينة فاذا بلغت الساعة العاشرة ودقّ جرس سانت مارك زحفوا كلهم إلى سراياك وهم يهتفون فيصلون إليها حين تصل.

– حسناً فعلت يا جينارو .

– أمـــا الذي سيحدث في ليدو ، فقد خصصنا زورقاً جميلاً مزيناً لحملك إلى سفينة الأميرال التي تجري الحفلة فيها. وأنت تعلم

يا مولاي أنك إذا ذهبت إلى هذه السفينة بتّ أسير ألتياري لأن جنوده فيها ، ولكنك حين تصل الرصيف تشير الإشارة الخاصة بدلاً من أن تركب الزورق فينقضّ المخلصون لك بخناجرهم على زعماء المؤامرة المحيطين بك ويقتل كل منهم الزعيم الذي أمر بقتله وتطلق السفينتان الملاصقتان لسفينة الأميرال نيرانها على تلك السفينة بحيث يكون الفوز مضموناً ، فتعود إلى سراياك فائزاً منتصراً وقد قتلت زعماء المؤتمرين على غرة وأرعبت قلوب الآخرين.

– حسناً فعلت يا جينارو ، فانتظرني لألبس ملابسي .

وكان جميع موظفي الحكومة قد اجتمعوا في السر وبينهم ألتياري فعيّن رئيس التشريفات موقف كل منهم في الموكب وتجمهر الشعب في الخارج . وبعد هنيهة فتح باب القاعة الكبرى وخرج منه فوسكاري بملابسه الرسمية وقد وضع التاج على رأسه وتقلّد حسامه المرصّع قبضته باليواقيت واللآلىء ، ولبس ذلك الوشاح الكبير فكان يحمل ذيله الطويل اثنان من الخدم وقد دخل إلى تلك القاعة العظيمة يتقدّمه رئيس التشريفات ووراءه ستة من الحجاب ، فالدوج وستة حجاب من ورائه ، فأهل منزله ، وفي الختام أربعون جندياً .

فأحدقت به العيون كالنطاق ومشى إلى وسط القاعة بمل الجلال فصاح ألتياري قائلاً : ليحيَ الدوج . فردد الجميع هذا الهتاف ، وتنبّه فوسكاري للهاتفين فرأى أن معظمهم كانوا ينظرون إلى ألتياري . وبدأت عند ذلك التهنئات بينما كان رئيس التشريفات يعيّن لكل مكانه في الموكب ما خلا ألتياري فقد

أراد الدوج أن يكون بجانبه . فلما تمّت هذه المعدّات دقت أجراس سانت مارك فكانت إشارة إلى سير الموكب .

وخرج الموكب من السراي فكان جينارو أحد اللذين كانا يحملان ذيل رداء الدوج ، فكان ينظر نظرات تشفّ عن القلق إلى الشعب وفوسكاري وألتياري .

وقد اجتاز الموكب نصف الطريق دون حادث حتى بلغ إلى طريق ضيقة فتوقّف عن المسير ورفعت القبعات جميعها عن الرؤوس واصفرّ وجه ألتياري وذلك أن موكباً آخر قد اعترضه مؤلف من الرهبان والكهنة ووراءهم نعش دندولو وليونور تسير في أثره .

رولاند كانديانو

*

في الليلة الأخيرة من شهر كانون الثاني كانت مغاور بيافا وضواحي المغارة السوداء متلألئة بأنوار المشاعل ، وحول هذه المشاعل جمهور من الناس يبلغ عددهم خمسمائة رجل وكلهم بملابس أهل الجبال ، وكل منهم قد أسند يده إلى بندقيته ووضع غدارتين في حزامه وتقلّد خنجراً . وقد اجتمعوا بشكل هلال ووضعت أمامهم منصة عالية تشبه منبر الخطابة . فصعد إليها رجل كانوا ينظرون إليه نظرات الإعجاب والحبّ فإن هذا الرجل كان

رولاند الذي كان يخطب فيهم فيقول : لقد أصبحتم الآن رجالاً لأنكم تعلّمتم أنّ واجبات الرجال ليست قاصرة على حماية الضعيف بل على إضعاف القويّ أيضاً، إذ أية ضمانة لحماية الضعيف بوجود القوّة، فإنها ما زالت موجودة فلا بدّ من توالي الثورات، فخير طريقة لحماية الضعفاء إبادة الأقوياء. وإذا قيل لكم إن الأقوياء قد تكون في صدورهم عواطف رحمة وعدل، كانوا كاذبين . فإن المرء لا يشتدّ خطره ويكثر شرّه إلا باشتداد قوّته، فالقوة هي مصدر الشر . هذا الذي عرفتموه وصرتم به رجالاً ، ولذلك أرفض تلك السلطة التي أردتم أن تسلموني إياها . فإذا أتيح لنا النصر أتولى الإدارة العمومية ستة أشهر وأكون دوجاً بالاسم لا بالفكر، وأفرغ جهدي لتعليم شعب فينيسيا معنى الحرية الحقيقية، فمتى عرفوا أنهم لا يحتاجون في سعادتهم إلى رؤساء ودّعتهم وداع الأبد .

وهنا سكت رولاند . ونحن لا نتولّى نقد قوله بل ندعه إلى القارىء ونكتفي برواية ما حدث. ولا شك ان سامعيه كانوا يرون رأيه إذ لم يخطر لأحد أن يثنيه عن عزمه على تولّي الرياسة ستة أشهر ، على أن المستقبل يخلف الظنون ، ولكن رولاند كان يقول ما قاله بملء الإخلاص . وفي كل حال فإن هذه الأقوال لم توحها إليه المبادىء الفلسفية وحدها بل كان لليونور يد فيها . وذلك أن حبها كان يتجسّم في قلبه في كل يوم ، وهو في كل يوم يزيد قنوطاً من لقائها إذ لا يمكن أن تكون زوجته . ومن هنا تولّد يأسه ولم يعد يكترث للحياة إذ لم يجد نعيماً فيها .

ووطد النفس إذا انتصر على تولّي السلطة إلى أن يتمكن من سحق قوة الظالمين ثم يذهب إلى حيث لا يعود . هذا ما كان يفتكر به حين كان يخطب بالقول . فلمّا نزل عن المنبر ذهب إلى المغارة السوداء . وهناك اجتمع بالزعماء فعيّن لكل منهم المهمة الخاصة به في يوم أول شباط . وتعين على كل منهم أن يسافر في الليلة نفسها إلى فينيسيا برجاله فيذهبون إليها في طرق مختلفة ويجتمعون في مكان معيّن .

وكان قد أرسل منذ أسبوع ألف رجل إلى فينيسيا بحيث بات عدد أولئك الذين كانوا من اللصوص ألفي رجل . وهذا عدد رجاله الذين سيحاربون . غير أنه كان له أضعاف هذا العدد في فينيسيا من البحّارة والعمال والتجار الذين عملوا على نصرته بالسرّ وانتصروا ذلك اليوم العظيم . وكان لرولاند الشعب ، ولألتياري الجند ، ولفوسكاري موظفو الحكومة .

ولما انتهت الجلسة في المغارة السوداء برح اللصوص الجبل وعزم رولاند على الذهاب إلى فينيسيا فالتفت باحثاً بنظره عن رفيقه الأمين . فأسرع سكالا برينو إليه وقال له : هوذا أنا يا مولاي . قال : إذن هلمّ بنا إلى فينيسيا فقد آن الأوان . فقال: إني إحب قبل ذلك أن أكلمك يا مولاي . قال : ماذا ؟ قال : صبراً إلى أن ينصرف جميع إخواننا .

*

ولما انصرف الجميع قال له رولاند: تكلم الآن. قال: مولاي، إني أريد أن أودعك الوداع الأخير. فارتعش رولاند وقال له :

ماذا تعني؟ قال : إنك يا مولاي عيّنت لكل زعيم مهمة إلا أنا.

– ولكنك تبقى بجانبي فلا تفارقني ، وهذه هي مهمتك .

فأجابه بلهجة ملؤها الحنوّ قائلاً : دعني أتم حديثي يا مولاي، فإني عيّنت لنفسي مهمة وأنا ألتمس منك أن لا تسألني عنها ولا بدّ لإنفاذها من أن أفارقك الآن .

فحدّق رولاند به وقال : أتقسم لي يا سكالا برينو أنك لا تريد الانتحار . فارتعش سكالا برينو ولم يجب ، فأخذ رولاند يده وقال له: أرى أنك قد يئست من الحياة أيها الصديق. قال: هل تجسر يا مولاي أن تقول بأنك لم تيأس منها أنت أيضاً؟ فقد كنت لصّاً شقياً لا عاطفة لي ولا ضمير ، فجعلتني رجلاً وعلّمتني أن أفتكر ، أي أن أشقى . فلما عرفت بيانكا خلت أن أبواب النعيم قد فتحت لي وكان ذنبي الوحيد أني عوّدت نفسي على عبادتها. أما الآن وقد عادت روحها الكريمة إلى مبدإها فلا أنكر عليك أني سئمت الحياة . ولكن لا تظن أني أحاول الانتحار، فقد علمتني أن الانتحار ضعف. وفوق ذلك فان وجودي معك خير بلسم لجراحي وخير عزاء لي عمن فقدت، فثق أني لا أبغي الانتحار ولكني نهجت لنفسي خطة أظن أني سألقى فيها الموت، ولهذا أردت وداعك الوداع الأخير لاعتقادي أني سأموت .

– ما هذه الخطة التي نهجتها ؟

– ألتمس منك يا مولاي أن لا تسألني عنها .

فأطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال له : أتقسم بأن تعود إليّ إذا سلمت من الموت ؟

– أقسم لك على الامتثال . والآن فاسمح لي أن أودعك فلا بدّ من ذهابي لأصل قبل فوات الأوان .

وعند ذلك تقدّم لمصافحته وكانت المرة الأولى التي بدا فيها يمدّ يده إلى رولاند . ففتح رولاند ذراعه وعانقه عناقاً طويلاً وكلاهما يبكي لاعتقاده أنه الوداع الأخير . ثم أفلت سكالا برينو منه وانطلق راكضاً كأنه لم يطق هذا الوداع . أما رولاند فإنه خرج من المغارة باكياً مطرقاً مفكراً فلقي رجلاً ينتظره بجواد ، فامتطى الجواد وسار به ينهب الأرض والحزن يملأ قلبه .

وأما سكالا برينو فإنه كمن وراء صخرة إلى أن خرج رولاند فجعل يتبعه بالنظر حتى توارى عن نظره فتنهّد تنهداً طويلاً وذهب إلى تلك الصخور التي دفنت تحتها ابنته بيانكا فجعل يطوف حولها. وأقام مدة وهو ينظر إلى تلك الأزهار النامية على ضريحها. ثم ركع وجعل يقبّل تلك الصخور والأزهار وهو يبكي بكاءً أليماً . وبعد ذلك نهض فجأة وبرح ذلك المكان دون أن يجسر على الالتفات فوصل إلى فينيسيا في آخر كانون الثاني وذهب إلى أحد فنادق ليدو فطلب زجاجة من الخمر وأقام ينتظر .

وفي الساعة التاسعة جاءه رجل بملابس البحارة فقال له: لقد جئت في الزمن المعيّن . قال : نعم ، وأنت هل أحضرت المال ؟ فأعطاه سكالا برينو منطقة محشوّة بالذهب، فلمعت عينا البحار وقال له : حسناً فاتبعني . فقام سكالا برينو في أثره وقال له : كيف يجب أن تفعل ؟ قال له : تعال معي وسوف ترى .

وقد سار به البحار إلى منزل وهناك أعطاه ثوباً من ملابس

البحارة يوافق جسمه كان قد أعدّه له خاصة . فلبسه سكالا برينو وقال : متى يركب الجنود الزورق ؟ قال : عند الفجر . قال : إذن كيف نصنع ؟ فقال البحّار : لا تهتم بذلك وقل نفس ما أقوله أو لا تقل شيئاً . والآن هلم بنا قبل فوات الأوان .

وبرح الاثنان ذلك المنزل إلى الشاطىء فركبا زورقاً وسارا به إلى جهة سفن الحكومة . وبعد ربع ساعة أشار البحار إلى سفينة ضخمة وقال له: هذه هي سفينة الأميرال . فوضع سكالا برينو يده على كتفه وقال له : إقبل مني هـــذه النصيحة أيها الصديق ، وهي أنك حين تصعد إلى سفينة الأميرال إرجع منها إلى البرّ ولا تعُد إليها .

فضحك البحار وقال : أشكرك لهذه النصيحة فقد كنت عازماً على أن أنصح بها نفسي وسأعمل بها دون شك لأني أتوقع حدوث ما سيكون .

وكان هذا البحار من جنود سفينة الأميرال ، فصعد بسكالا برينو وهو متنكر بملابس جنود البحارة إلى السفينة وقـــال الاثنان كلمة المرور فلم يعترضهما أحد .

أما سكالا برينو فقد كان خدم مدة طويلة في إحدى السفن الكبرى بحيث كان ابن الصناعة ، فذهب توّاً إلى الموقف الذي اختاره كأنه من بحارة تلك السفينة . وكان رفيقه يتبعه فقال له وقد خلَوا : أتأذن لي أيها الرفيق أن أعلم ما تنويه ؟ فهل أنت ناقم على زعيم تريد قتله ؟ قال : هو ذاك ، فإني كنت بحاراً في إحدى بواخر الحكومة وقد عاقبني أحد ضبّاطها ظلماً عقاباً

صارماً إذ جلدني بالسياط ، فعرفت الآن أنه في هـــذه السفينة وأتيت أنتقم منه . قال : حسناً تفعل ، ولكنهم إذا علموا بأني أنا الذي جئت بك شنقوني دون شك . قال: لا تخف مني الإفشاء. وفوق ذلك فإنك غني الآن بما أعطيتك وستهرب . قال : هو ذاك ، الآن أستودعك الله وأرجو لك التوفيق فإن ظلم هؤلاء الرؤساء لم يعد يطاق . وعند ذلك تركه وعاد من السفينة إلى زورقه فلما توسّط البحر رأى سفينة كبيرة سائرة إلى سفينة الأميرال .

*

أما سكالا برينو فقد أقام وحده يراقب فرأى بعد هنيهة تلك السفينة الكبرى قد التصقت بسفينة الأميرال وصعد منها رجل فقال لأحد الضباط بلهجة السيادة : سر بي إلى غرفة الأميرال . فتمعّن الضابط بوجهه وعرف أنه ألتياري القائد العام ، فأسرع إلى الامتثال وذهب به إلى الأميرال . وقد خلا الاثنان ساعة وعند الفراق صافحه الأميرال وهو يقول : سأبدأ العمل قريباً .

ولما انصرف ألتياري جمع الأميرال ضباطه وأخبرهم بما يجب أن يفعلوه ، فأسرع الضباط إلى إيقاظ البحارة واضطربت السفينة بهم فكانت الأوامر تنقل إليهم همساً . ثم رفعت المراسي ومخرت السفينة العباب حتى بلغت الشاطىء في الساعة الرابعة من الصباح دون أن تنتبه السفن الحربية إليها . وهنـــاك صعدت الجنود إليها . ولم ينتهوا من ذلك إلا في الساعة الخامسة .

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

الدوج القديم

*

لقد تقدّم لنا القول إن موكب فوسكاري التقى بجنازة دندولو وإن ليونور كانت تسير وراء الجنازة بملابس الحداد. فبعد أن دفنت الجثة وتفرّق الناس عادت ليونور إلى قصر ألتياري وهي تسمع هتاف الناس لهذا الوغد فيشتدّ يأسها وتصح عزيمتها على الانتحار.

وهناك خرجت سرّاً من القصر وذهبت إلى بيت الجزيرة فلقيت هناك خادمهم القديم فيليب وقد أسرع إليها وهو فرح بلقائها وقال لها: أهذا أنت يا سيدتي؟ قالت: نعم، فهل تريد أن تأتمنني مفتاح غرفتي القديمة؟ فدهش الخادم العجوز لقولها وقال: أأتمنك؟ قالت: نعم، فإن المنزل لم يبقَ لنا كما تعلم.

فاضطرب الشيخ وقال: ولكنك تعلمين يا سيدتي أن المنزل لك ما زال له.

ثم تركها مسرعاً وعاد بالمفتاح فأخذته ودخلت إلى غرفتها فوقف الشيخ يراقبها وهو يكاد يذوب حنوّاً عليها وقد رأى في عينيها من دلائل اليأس ما رابه، فوقف يتمعّن في أمره وهو لا يعلم إذا كان يحق له المداخلة في شأنها. ولكن قلقه اشتدّ عليها حتى لم يعد يكترث للواجبات، فأسرع راكضاً إلى الأرزة

الكبرى فأخرج من كهفها والد رولاند وجاء به إلى قاعة الطعام فأقامه فيها وصعد إلى غرفة ليونور فقرع باب الغرفة وهو يقول: هذا أنا يا سيدتي. ففتحت ليونور الباب ولكنها أسرعت إلى إخفاء زجاجة في صدرها وقالت له برفق: ماذا تريد؟

وكان قد رآها خبّأت الزجاجة فارتعش وقال لها بصوت يتهدج: ماذا فعلت يا سيدتي؟ ولماذا لبست ملابس العذارى؟ قالت: إنه خاطر خطر لي فلا تقلق له. قال: سيدتي، لماذا خبّأت زجاجة السم في صدرك؟

فلم تجبه على سؤاله وقالت له أيضاً برفق: ماذا تريد؟ قال: يوجد رجل في قاعة الطعام يريد أن يكلمك وهو رجل شيخ نبيل كان يحبك من قبل كابنته.

— كابنته؟

— سيدتي، إني في خدمة بيتكم النبيل منذ خمسين عاماً. ومَن خدم هذا العهد الطويل يستحقّ المكافأة. وكل ما آمله من المكافأة أن تقابلي هذا الرجل.

وقد بسط يديه شأن المتوسّل وقد سالت دمعتان من عينيه فتأثرت ليونور لحنوّه وقالت له: هلمّ بنا. ولا ندري ما كان يرجو الخادم العجوز من هذه المقابلة، ولعلّه رأى من الدوج القديم بارقة صواب فرأى أن يثنيها عن عزمها.

ونزل الاثنان حتى وصلا إلى قاعة الطعام، فلمّا رأت ليونور والد رولاند عرفته للفور وقالت: من هذا، والد رولاند؟ كلا، إني لا أريد أن تراني.

ولكنها ذكرت للحال أنه أعمى فدنت منه ووقفت أمامه وذكرت أيامها الماضية وما كانت تجده من حنوّ ذلك الشيخ ، ثم ذكرت تلك المصيبة الفادحة فجعلت تشهق بالبكاء . وقد ارتعش الشيخ لبكائها وقال : من هذا الذي يبكي ؟

فركعت ليونور أمامه وأخذت يده بين يديها وقالت له بصوت مختنق : إنها فتاة قانطة منكودة لا تراها ولكنك رأيتها من قبل يا مولاي الدوج . ألا تذكر ليونور دندولو يا مولاي ، وأنك كنت ترتعش حنواً حين تقبّل جبينها ؟ ألا تذكر ما قلت لها يوماً وهو أن هذه الفتاة خلقت لتكون سعيدة ؟ إذن فاعلم أن هذه الفتاة الشقية التي تبكي أمامك هي ليونور دندولو .

فقال لها : من هذا الذي يدعوني دوجاً .. دوج ؟ ما هذا المزاح ؟

فلم تلتنبه ليونور لهذا القول ومضت في حديثها فقالت : أبي ، إنك لا تعلم المصيبة التي نكبتني ، فإنهم إذا أعموا نظرك فقد أعموا نفسي وأحرقوا قلبي ومنعوني أن أحب . إنك لا تعلم أي عذاب أقاسيه حين أحبه حباً ليس وراءه حب وهو يحتقرني ولا أستطيع أن أبرهن له بأني جديرة به وأن خطئي الوحيد إنما كان لأني أردت إنقاذ أبي ! مولاي الدوج ، إني غير مخطئة وقد عزمت على الموت ، ولكني قبل أن أموت أحب أن أظهر له براءتي .

فاصفرّ وجه كانديانو وارتجفت يده وقال : من هذا الذي يبكي ؟ من هذا الذي يتكلم بلهجة تقطع القلوب من الإشفاق ؟

– إنها ليونور يا مولاي الدوج .. ليونور التي كنت تدعوها

بابنتك . ألعلّك نسيتها ؟ أتنساني وأنا أرجو أن تبارك لي البركة الأخيرة ؟ ذلك أن ليونور كانت تجهل أنه مجنون . فقال : ليونور .. ليونور دندولو ، نعم أذكر أن هذه الفتاة جميلة عاقلة .. نعم لا بد أن أكون عرفتها .. أتقولين إن ليونور دندولو أصيبت بنكبة ؟

فصاحت صيحة يأس وقالت : أقول إنها تبكي عند قدميك ، وإنها عازمة على الانتحار ! أقول إن الأرض والسماء ظالمتان لأنهما تعاقبان البراءة ، ولأني أعاقب بذنب سواي . قال : ليونور دندولو .. إصبري . ألم تكن تأتي من عهد بعيد إلى قصر كائن على الشاطىء ؟ نعم ، قصر جميل كان يأتي إليه كثير من النبلاء .

– إنه قصرك يا مولاي .. ربّاه ، كيف لا ترسل صواعقك فتنقضّ على رؤوس أولئك الذين نكبونا بهذا المصاب !

وعند ذلك سمعت صوتاً أجشّ يقول من ورائها : لقد فات الأوان ولم يبقَ سبيل للعقاب . فالتفتت ليونور منذعرة فرأت ألتياري . ولكنها لم تره بشكله المعروف فقد كان مصفرّ الوجه ممزّق الملابس بارز العينين مضطرب الأعضاء . فدنا من ليونور وقال لها : إنك تريدين أن تموتي فهلمّي ، ولكنك ستكونين لي قبل الموت . فتراجعت ليونور منذعرة واصطدمت بالدوج فضمها إلى صدره فقالت له : نعم يا أبي ، أريد أن أموت ولكن لا أحب أن أخجل بموتي معه . احمني يا مولاي ودافع عني . اليّ .. اليّ .. أنقذوني من أنياب هذا الكلب الحقير .

انتصار فوسكاري

*

بعد أن مرت جنازة دندولو سار موكب فوسكاري إلى رصيف ليدو فكان فوسكاري كلّما تقدم يشتدّ قلقه وذلك أن الناس كانوا يهتفون له في بدء السير . فلما تقدم انقطعت أصواتهم وساد السكون من حوله . ثم سمع هذا الهتاف قد استبدل فجعل الناس يهتفون للقائد العام ويدعونه منقذ الجمهورية بعد أن كانوا يهتفون لفوسكاري . فالتفت إلى ألتياري الذي كان يسير بجانبه وقال له : يخيّل إليّ أنهم يهتفون لك ! قال: إن الشعب يخطىء يا مولاي في بعض الأحيان. فالتفت عند ذلك إلى جينارو وقال له همساً : ماذا تقول ؟ قال: إني أضمن الفوز الأكيد إذا حافظت للنهاية على السكينة .

وماذا جرى للفرقتين الخاصتين بألتياري ؟

– إنها في سفينة الأميرال .

– ولكنها قد تعودان إلى البر ؟

– ذلك محال ، فإن سفننا محيطة بسفينته .

– إنك مسؤول عن ذلك .

– دون شك .

وبعد هنيهة وصل الموكب إلى الرصيف فصاح فوسكاري

صيحة غضب ، ذلك أنه رأى سفينة الأميرال ملاصقة للرصيف ورأى الفرقتين واقفتين بأسلحتهما على البرّ .

فدنا عند ذلك ألتياري منه وقال له بلهجة تدل على التهكم والثقة من الفوز : إننا أحببنا يا مولاي أن نوفّر عليك مؤونة الذهاب إلى سفينة الأميرال فجاءت سفينة الأميرال إليك .

فجرد فوسكاري خنجره وهو يقول : يا للخيانة يا للعار !

بينما كان فوسكاري يسير بموكبه إلى رصيف ليدو ، كان كلّما تقدم الموكب إلى محطة تحتلّ عصابة " تلك المحطة التي برحها كأنها تحاول أن تقطع عليه خط الرجعة إلى سراي الدوج. وكانت هذه العصابات مؤلفة من رجال لا يعرفونهم في فينيسيا وهم مدرّعون بدروع خفية تحت ملابسهم وقد لبسوا على رؤوسهم خوذاً صفراء. وكانوا مدججين بالسلاح ، فكان أشدّ هذه العصابات أقربها إلى سراي الدوج . ولا يتجاوز قدر رجال العصابة خمسين رجلاً ما خلا ثلاثاً كانت تؤلف الواحدة منها من مائة رجل . وقد أتت فجأة عصابة مؤلفة من ثلاثمائة رجل وهجمت على سراي الدوج فانتصرت على الجنود التي بقيت لحراستها واستولت على السراي.

وللفور دخل خمسة منهم إلى قاعة مجلس العشرة وجلسوا على كراسيه وذهب ثلاثة آخرون إلى قاعة الجلسات السرّية . وقد جرى كل ذلك بسرعة وجرأة نادرتين، وذلك لأن هذه العصابات كانت موطدة نفسها على الموت .

ثم إن هذه الخطة كانت قد درست درساً مدققاً فلقيت هذا الفوز العجيب . وهذه العصابات كانت لرولاند كانديانو .

أما خطته فقد كانت على أتم البساطة وهي أنه يدع فوسكاري وألتياري يشتبكان بالقتال في ليدو فيضعفان أو يبيد أحدهما الآخر . ومتى عاد الغالب منهما إلى سراي الدوج يعود ضعيفاً منحطّ القوى فيهجم عليه رولاند برجاله ويفوز عليه لا محالة مهما بلغت قوته .

وكان رولاند قد جعل يطوف في المدينة يصحبه خمسة من رجاله وقد لبس تلك الملابس التي كان يلبسها في عهد أبيه حين كان دوجاً وقد برز وجهه للناس فعرفته في البدء إحدى النساء فصاحت قائلة : أيها الناس ، هوذا رولاند كانديانو قد عاد إليكم لينقذكم من المظالم .

فلم تكن غير لحظة حتى اجتمع الناس من حوله وجعلوا يهتفون هتافاً بلغ عنان السماء فيقولون : ليحيَ رولاند الذي سينقذنا من الظلم .

وبعد ربع ساعة كان خبر قدومه قد ملأ فينيسيا فازدحمت الجماهير من حوله وكلهم يهتفون له ويدنون منه كأنه وليّ من أولياء الله يريدون أن يتبركوا به .

وعند ذلك سمع دوي البنادق من ليدو ، فإن القتال كان قد نشب بين فوسكاري وألتياري ودقت أجراس الكنائس وأسرع نحو مائة رجل إلى رولاند فحملوه ووضعوه في مكان مرتفع ، فصاحت النساء قائلة : تكلم .. تكلم . وصاح الرجال قائلين : أنقذنا .. أنقذنا .

فأشار بيده إشارة سكت لها الجميع فقال لهم بصوت

جهوري : أتريدون الحرية أم الاستعباد؟ فصاحوا قائلين : الحرية الحرية ! قال : أتريدون أن تجعلوني حارساً لحريتكم ؟ فصاحوا قائلين : نعم نعم ، نريد رولاند .. دوج الشعب . فأشار رولاند إشارة مفادها أنه رضي بما يرضاه الشعب .

وكان هذا كل خطابه فيهم ، فنزل عن ذلك المكان المرتفع وقد عقد اتفاقاً بينه وبين الشعب وزحف إلى سراي الدوج .

*

والآن فاعلموا ما جرى في سفينة الأميرال ، فإن سكالا برينو حين صعد إليها كان البحارة نياماً ولم يكن ساهراً فيها غير الأميرال وبعض الضباط . فبعد أن برح ألتياري السفينة نزل سكالا برينو إلى العنبر وهناك أخرج مصباحاً صغيراً من جيبه الكبير فأناره وجعل يبحث في عنبر تلك السفينة المتسع . وعند ذلك سمع من فوق رأسه وقع خطوات كثيرة مستعجلة ، فصبر وجعل يصغي وهو آمن مطمئن إذ لا شأن لأحد في العنبر ، فسمع أنهم يرفعون المراسي وسمع أصواتاً تقول : إلى البرّ . وكان في هذا العنبر غرفة مقفلة تستعمل مستودعاً للبارود ، فصبر إلى أن سارت السفينة وانشغل بحّارتها بسيرها ، فأخرج خنجره وكسر به قفل ذلك الباب ودخل إلى الغرفة فرأى نحو خمسين برميلاً من البارود وضع بعضها بجانب بعض ، ففتح ثقباً بأحد هذه البراميل فتدفق منه البارود .

وعند ذلك أخرج من جيبه فتيلاً خاصاً يبلغ طوله مترين فوضع أحد طرفيه في ثقب البرميل وأمسك الطرف الآخر وقال

في نفسه : إني وعدت رولاند أن لا أقتل نفسي ، ونار الفتيل لا تصل إلى البارود قبـــل دقيقتين . وعند ذلك جلس القرفصاء وأقام ينتظر .

*

وكان على هـذه الحالة والمصباح بيده معدّاً لإحراق الفتيل وهو يصغي حتى سمع أصواتاً تقول: إلى البرّ ، إلى البرّ . فأشعل الفتيل بنور المصباح وصعد إلى ظهر السفينة بملء الاطمئنان بينما كان فوسكاري يقول : يا للخيانة يا للعار .

وقد قال فوسكاري هذا القول وجرّد خنجره فكان أول ما فعله أنه هجم على جينارو مدير البوليس وطعنه بـه ، فسقط جينارو على الأرض وهو يقول : « لقـد قتلت » دون أن يبدي حراكاً. ولكن لو دنا أحد منه في تلك الساعة وأصغى إلى حديثه لسمعه يقول : لقد حسبت أيها الأبله أنك قتلتني ، ولكني قـد نجوت منك بفضل هذه الدرع . ولرآه أيضاً ينظر خلسة إلى ما يجري حوله .

أما ألتياري ورجاله فإنهم جرّدوا خناجرهم حين رأوا ما كان من فوسكاري وصاح فوسكاري مستنجداً بالنواب قائلاً: إليّ، فإنهم يريدون قتل الشريعة وإبادة الحرية. فأجابه ألتياري قائلاً : بل إنهم يريدون قتلك إذا امتنعت عن التسليم .

فنظر فوسكاري إلى مـا حواليه فرأى أن المؤتمرين قد اشتبكوا بالقتال مع جنوده. ودوى رصاص البنادق من الجانبين فأشار ألتياري إلى جنود الفرقتين الكائنتين في سفينة الأميرال

وصاح بهم قائلاً: إنزلوا إلى البر. فتجمعت الجنود لقوله واندفعوا إلى الجسور الخشبية التي وضعت بين السفينة والشاطىء .

وعند ذلك سمع دوي هائل ارتجّ له الفضاء وفتحت سفينة الأميرال كما تفتح فوهـــة البركان وتصاعد عمود طويل من النار والدخان ثم تساقطت النيران تساقط الأمطار وتطايرت بقـايا السفينة إلى الأرض والبحر .

وذعر المتحاربون لهذه الحادثة الهائلة وساد السكون وتوارت سفينة الأميرال وهرب الفريقان ومعظم المؤتمرين الذين كانوا في السفينة . وعند ذلك أشرق وجه فوسكاري بأشعة الفرح فجرّد حسامه واندفع فاندفع في أثره الجنود والنبلاء الذين كانوا إلى الآن في موقف التردّد فكانت ساعة هائلة قتل في خلالها مئات الرجال.

ولبث ألتياري يقاتل مع بعض رجاله إلى أن كسر حسامه فنظر إلى فوسكاري نظرة جنون وقبض على شعره بيده فصاح فوسكاري برجاله قائلاً : إقبضوا عليه. ولكن ألتياري وثب من بينهم وهرب قبل أن يظفروا به ، فقال فوسكاري لرجاله بلهجة المنتصر: هلم بنا إلى القصر ودعوا هذا الخائن يهرب إلى حيث يشاء.

جسر التنهدات

*

وقد التفّ النواب والنبلاء حول فوسكاري يهنئون له بينما هو يسائل نفسه فيقول : لماذا تدق الأجراس دقات حزن ، وما

هذا الصراخ الذي أسمعه من بعيد ؟ ومع ذلك فقد سار برجاله إلى السراي .

وكان قد قتل من جنوده في هذه المعركة عدد كبير ولكن بقي له قوة لا يستخفّ بها . وكانوا كلما تقدّموا خطوة اضطروا إلى الوقوف لاعتراض العصابات في كل حين . وبعد ساعة من ذلك السير البطيء وصلوا إلى مكان ضيق يتشعب منه طرقات كثيرة ، فقال أحد أعضاء مجلس العشرة : هلمّوا بنا نركب الزوارق . فأجابه فوسكاري قائلاً : كلا ، فإن الشعب يحسب إني خفته .

وعند ذلك هجمت عصابة مؤلفة من خمسة عشر رجلاً فأطلقوا بنادقهم على رجال الدوج دفعة واحدة وارتدّوا إلى جهة السراي وهم يصيحون قائلين : الحرية ... الحرية ! كانديانو ! إنها في يد رولاند كانديانو !

وقد قتل بهذه الطلقات أربعة وجرح ثمانية . ومع ذلك فإن الدوج أمر أن يتقدم الموكب فواصل سيره وكان كلما تقدّم من السراي يشتدّ هتاف الناس لرولاند ويكثر هجوم العصابات . حتى أن النساء كنّ يصرخن من النوافذ قائلات: لتحيَ الحرية.. ليحيَ رولاند . وكان كثيرون يرمون موكب الدوج بالقذائف من أعلى السطوح. فاشتدّ جزع الدوج إذ كان يرى رجاله تتساقط أمامه ولا يسمع غير أصوات الهتاف لرولاند ، فصاح قائلاً : ربّاه ، إني لا أسألك غير الحكم على هذه المدينة أسبوعاً واحداً فقط فأجعلها قاعاً صفصفاً وأحرقها بأهلها المتمردين . وصاح النواب قائلين : تبّاً لكم أيها العبيد الأشقياء ! وصاح الجنود

قائلين : إلى الموت .. إلى الأمام .

غير أن أصوات هتاف الشعب كانت تخفت أصواتهم فلا يسمعها أحد .

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا إلى سانت مارك . ولكنهم لم يبلغوها إلا وقد تضعضع شملهم وتمزقت ملابسهم وتهشمت أعضاؤهم . فصاح الدوج بمن بقي من رجاله قائلاً : أسرعوا إلى السراي .

وقد قال هذا القول بصوت متلجلج إذ كاد يجن من رعبه . وعند ذلك التقى بعصابة مؤلفة من ثمانمائة رجل يتقدمهم رولاند وقد بقي حسامه في غمده. فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين: الحرية الحرية !

وقد خرجت هذه الأصوات من أفواههم كما يخرج الزئير من أشداق ألف أسد . وصاحت جماهير الناس من حولهم بالهتاف لرولاند صيحات تشبه دوي الرعود القاصفة .

ورأى فوسكاري رولاند قادماً إليه كما يرى الموت ، فسقط حسامه من يده لشدّة رعبه .

ورأى الجنود ما كان منه فحسبوا أن ذلك إشارة من حاكمهم إلى التسليم فاقتدوا به وسلموا أسلحتهم .

وبعد لحظة التقى رولاند بفوسكاري فقال له نفس الكلمات التي كلّمه بها حين قضى عليه بالسجن منذ تسعة أعوام : فوسكاري ، إني أعدّك عاصياً متمرداً وأقبض عليك .

فجرّد فوسكاري خنجره وحاول أن يطعن به نفسه .

ولكن عشرين رجلاً انقضّوا عليه انقضاض العقبان الكاسرة واختطفوا الخنجر من يـــده . وبعد هنيهة كانوا يصعدون إلى السراي ، فأخذ فوسكاري تاجه عن رأسه وألقى به إلى الأرض كما فعل والد رولاند في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة .

فأصدر رولاند أمره عند ذلـك بالمحافظة على المدينة وجاءه النواب وفريق مـن النبلاء فأظهروا خضوعهم . وهكذا انتهت تلك الثورة ببضع ساعات كسائر ثورات فينيسيا بـــل كسائر الثورات التي يتداخل فيها الشعب .

*

بينما كان رجال رولاند ينفذون أوامره وقد حفظت أوراق الحكومة وفتحت أبواب الآبار والسجون فخرج منها السجناء ، وبينما رؤساء الأسطول يتسارعون لمبايعة الدوج الجديد وقد سادت الأفراح في فينيسيا ، كان رولاند يسير إلى جسر التنهدات وقد نزل على ذلـــك السلم الذي نزل عليه من قبل وهو خافق القلب لتأثـره ، فقد بات دوجاً ورأى أعداءه قـــد سقطوا من حوله الواحد تـلو الآخر وقبض على أشدّهم هولاً ، ولكن كل ذلك لم يخفف شيئاً من شقائه في حب ليونور إذ أنـه في تلك الساعة لم يكن يفتكر إلا بها .

وقد وصل إلى جسر التنهدات يحيط بـــه زعماء عصاباته وكلّهم يعرفون تاريخ حياته وما فعل به فوسكاري .

وقد أخذوا معهم فوسكاري ، فلمّا وصلوا إلى الجسر أمر رولاند أن يجلسوا فوسكاري على السرير الحجري الذي جلس عليه

من قبله أبوه حين حملوا عينيه ، ودنا منه رولاند وقال : فوسكاري ، إننا أتينا بك لمحاكمتك على ذنوبك السابقة ، وإنما نحاكمك على ما أسأت به إلى الدوج كانديانو . أما ذنبك إليّ فإني أعفو عنه .

*

وليسمح لنا القراء أن نعود إلى بيت آريتان الشاعر فقد كان أقفل جميع الأبواب ووضع ورامها المتاريس وسدّ المنافذ فكأن هذه الثورة لم تثر في فينيسيا إلا لإرهابه . أمـا هو فقد أقام في غرفة كائنة في وسط المنزل يرتجف من الرعب ولا يتعزّى بأحد .

ولم يكن معه غـــير خادم واحد وهو الخادم الذي جعله رولاند رقيباً عليه في منزله ، فإن جميع الخدم كانوا واقفين عند الأبواب وقد أمرهم أن يدافعوا عن المنزل حتى الموت إلى أن يتسنى له الفرار .

وفيما هو على ذلك قرع باب غرفته قرعاً شديداً فاندلع لسانه من الرعب وجعل يصيح : رحماكم لا تفتكوا بي ، إني لا دخـل لي بهذه الثورة قسماً بثغر مرغريتا .

وقد فتح الخادم الباب فكان الطارق نساءه فدخلن قائلات : لقد تأيد الفوز لرولاند .

فضرب آريتان جبينه بيده وقال : الرسالة . . رسالة دندولو . . ربّاه كيف أستطيع إيصالها إلى رولاند دون أن أخاطر بنفسي .

وبعد التفكير هنيهة قرر أن يعهد بإيصالها إلى ذلك الخادم فكلّمه بصوت منخفض وأعطاه إياها فانطلق بها لفوره .

*

أما سكالا برينو فإنه بعد أن أشعل الفتيل في سفينة الأميرال صعد إلى ظهر السفينة فلم ينتبه إليه أحد من البحارة والجنود لانهماكهم في أعمالهم لأنه كان مرتدياً بملابسهم، وقد رأى الجنود تنزل إلى البرّ فاندفع بينهم وفتح لنفسه سبيلاً بالقوة فوصل إلى ساحة القتال ساعة الانفجار . وهناك رأى ما كان من انخذال ألتياري وشاهده يركض هارباً فقال في نفسه: إذا نجا منهم فلن ينجو مني . واندفع في أثره .

وأما ألتياري فإنه أسرع راكضاً إلى قصره ودخل إلى غرفة ليونور فلم يجدها فصاح بملء اليأس قائلاً : لقد هربت . ثم ذكر فجأة أنه رآها تشيّع جنازة أبيها. وتراكض الخدم إليه منذعرين لهيئته فقال لهم: أين ليونور ؟ فأجابه أحدهم قائلاً : أنها في بيت الجزيرة . فخرج راكضاً ، وبعد هنيهة كان في بيت الجزيرة وقد دخل إلى قاعة الطعام كما تقدّم حيث تركناه يحاول أخذ ليونور بالقوّة وهي بين ذراعي والد رولاند تصيح وتستغيث .

أما والد رولاند فإنه مدّ يده شأن المتوعّد وقال : من هو هذا السفاك الذي يجسر على إرهاب امرأة ؟ فأجابه قائلاً : هذا أنا ألتياري .

— ماذا تريد ؟

— أريد امرأتي .

فاندهل الشيخ وقال بلهجة من يستفيق من نوم طويل : امرأتك ؟

فإن تلك الصيحات التي كان يسمعها من الخارج ، وصوت

ليونور الشجي وقد ركعت أمامه تروي له مصابها ، وعناية فيليب ، كل ذلك قد ردّ صوابه إليه .

فأجابه ألتياري : نعم امرأتي . وإني... وقبل أن يتم جملته شعر أن يداً قوية قد وضعت على كتفه فالتفت مغضباً فرأى أمامه سكالا برينو فقال له : ماذا تريد مني ؟ قال : أريد أن أقتلك.

وعند ذلك وثب إلى الجدار حيث تعلّق الأسلحة فانتزع خنجرين فأبقى واحداً في يده وألقى بالآخر إلى ألتياري . فالتقط ألتياري الخنجر وأسرع سكالا برينو فوقف بينه وبين ليونور . أما والد رولاند فإنه جلس على كرسيه وحدق بعينيه كأنه يريد أن يرى ما يحدث .

وأما ليونور فإنها ركعت وخبّأت رأسها بين ركبتي الشيخ كي لا ترى .

وقد جرّد ألتياري الخنجر ونظر إلى سكالا برينو فرأى جثته الضخمة ونظراته البراقة الهائلة فحاول أن ينقضّ عليه. ولكنه ما لبث أن تراجع عن هذا العزم كأنه علم بأنه قضي عليه القضاء المبرم . وقد هاله منظر سكالا برينو وكره أن يموت من يده ، فالتفت إلى ليونور وقال لها واليأس ملء قلبه : إني أموت ، فكوني سعيدة ما زالت سعادتك معقودة بموتي . ولكني ألعنك ساعة الموت. ثم نظر إلى ما حوله نظرات تدل على الجنون وطعن نفسه بخنجره طعنة عنيفة . وبعد هذه الطعنة لبث بضع ثوان ينظر إلى ليونور نظرات وحشية ثم هوى إلى الأرض صريعاً .

وأما سكالا برينو فإنه ألقى خنجره ودنا منها فقال لها: سيدتي

لقد انتهى كل شيء وقد نجوت . فقال له والد رولاند: من أنت؟ قال: إني صديق مولاي رولاند وصديق السيدة ليونور وصديقك.

– رولاند ... أين هو ولدي ؟

فصاح سكالا برينو بصوت يتهدّج من التأثر قائلاً : تقول ولدك ؟ أحق ما أسمع ؟ ربّاه ، أحقّ أن الصواب عاد إليك ؟

فسالت دمعتان من عين الشيخ وأطرق برأسه فقال : يا ليته لم يعد إليّ هذا الصواب ، فقد ذكرت الآن وأسفاه ، وبحثت في أعماق نفسي فلم أجد غير ظلمات اليأس .

ثم قال بصوت خنقته عبرات اليأس: ولدي .. أين هو؟ فإنه لا شك قد قنط في أعماق السجون ! ولدي رولاند أين أنت ؟

فبكى سكالا برينو وحاول أن يخبره بكل مـــا حدث وبانتصار رولاند فحال دون ذلك دخول الخادم العجوز إلى تلك القاعة مسرعاً يصحبه جاسوس رولاند في منزل آريتان .

وقد دنا هذا الجاسوس من سكالا برينو وقال له : يجب في الحال أن أرى الرئيس .

– لماذا ؟

– لأعطيه هذه الرسالة .

– هاتها .

فأخذ سكالا برينو تلك الرسالة التي كتبها آريتان إلى رولاند بإملاء دندولو ، وقرأها معجباً بسرعة ، ثم التفت إلى الجاسوس وإلى فيليب وقال لهما : يجب أن تراقبا هذه السيدة كل المراقبة ، وأن تمنعاها عن الخروج ، وأن لا تدعاها لحظة وحدها .

ثم التفت إلى الشيخ فتأبّط ذراعه وقال له : أتريد أن تعلم أين هو ولدك ؟ أتريد أن تلمسه وتراه بيدك وقبلاتك إذ لا تستطيع أن تراه بعينيك ؟ إذن تعال معي .

– ولدي ... ولدي .

– تعال ، تعال .

فقالت ليونور : أبي لا تتركني. وقال سكالا برينو : تعال. وقد نظر إلى الرجلين وجدّد بنظره وصيّته إليهما بشأن ليونور ، ثم سار بالشيخ .

أمـا ليونور فإنها كانت لا تزال راكعة فأسندت رأسها إلى الكرسي وقد وهنت قواها وجعلت تبكي بدموع غزيرة . وأما فيليب فإنه حمل جثة ألتياري إلى الخارج وعاد إلى الإقامة معها حسب وصية سكالا برينو .

عذاب فوسكاري

*

ولنعد الآن إلى جسر التنهّدات فقد تركنا فوسكاري هناك مقيّداً على ذلك الكرسي الحجري الذي سمّوا عليه عينَي والد رولاند ، وإنما أجلسوه عليه كي يعاقبوه بذلك العقاب نفسه. على أن كبرياء فوسكاري لم تنحط حتى في هذه الساعة فجعل ينظر إلى رولاند نظرات وحشية ملؤها الحقد وقد تمثلت حقيقة نفسه في عينيه إذ لم يبقَ سبيل للتنكر في هذا الموقف بعد أن سقط من

قة مجده فظهرت نفسه مجردة .

أما رولاند فإنه دنا منه وقال له : فوسكاري ، إني أمثل هنا رجلاً عملتَ فيه عملاً أشدّ فظاعة وهولاً من القتل لتنفيذ أطماعك ، أي أني هنا ابن كانديانو الذي قبضت عليه وسملت عينيه وقضيت على صوابه فماذا تقول ؟

– أقول إنك تحسن عملاً بالانتقام لأبيك .

– فوسكاري ، إني أكرهك كما يكرهون رجلاً يبطش بشيخ مسكين لا يستطيع الدفاع عن نفسه وأنا أحب أن أعاقبك بنفس ما عاقبت به أبي.. أنظر إليّ يا فوسكاري ترى ذلك الوجه الذي طالما تمثّل لك في ليالي ندمك . أنظر يا فوسكاري فإنك بعد هنيهة لا ترى لأنك ستعمى كما عمي أبي وتطوف في الأسواق متسولاً كما طاف أبي .

فارتعش فوسكاري في البدء ارتعاشاً بيّناً ثم تغلّب على ضعفه وعادت إليه كبرياؤه فأجاب رولاند بنظرة حقد، فانقدت عينا رولاند وأشار إشارة فدنا رجل منه لم يلبث فوسكاري أن عرف فيه الجلاد ، فقال : الوداع أيها النور ، الوداع أيتها الحياة .

وعند ذلك سمع صيحة عظيمة عند مدخل الجسر وتباعد الناس الذين كانوا يحيطون برولاند ودخل رجل عجوز يقوده رجل هائل الجثة وهما كانديانو وسكالا بريتو. فكان كانديانو باسطاً يديه المرتجفتين وهو يقول بصوت مختنق : ولدي رولاند ... ولدي أين أنت ؟

فسالت مدامع الجبليّين حنوّاً ، وبعد لحظة كان رولاند بين

ذراعي أبيه وهو سكران بفرح لا تصفه الأقلام وقد نسي كل شيء في تلك اللحظة ولم يخطر له أن يعلم كيف عاد الصواب إلى أبيه ، وكذلك أبوه فإنه لم يبحث كيف أن ولده بات السيد الحاكم في سراي الدوج .

وعند ذلك شعر رولاند أن يداً تلمس كتفه فالتفت فإذا بأحد الزعماء يقول له مشيراً إلى فوسكاري : لا يجب أن نطيل نزعه .

فاضطرب رولاند وأخذ بيد أبيه إلى فوسكاري وقال له : هوذا الرجل الذي أعماك . فقال أبوه بصوت أجش : الرجل الذي أعماني ؟

– نعم يا أبي ، فاذكر الرجل الذي قبض عليك في تلك الليلة الهائلة .

– فوسكاري ؟

– ذلك الرجل الذي قيّدك على الكرسي الحجري .

– فوسكاري ؟

– ذلك الرجل الذي قضى عليك بالظلمة الأبدية .

– فوسكاري ؟

فأطرق فوسكاري عند ذلك برأسه ولم يطق أن يرى . فقال رولاند : إنه هنا يا أبي ، وهو جالس على نفس ذلك الكرسي الذي أجلسك عليه ، فقل يا أبي ماذا يجب أن تصنع به ؟ فبسط الأعمى يديه وقال : أين هو فوسكاري ؟ دعني ألمسه يا ابني .

فأخذ رولاند يد أبيه ووضعها فوق رأس فوسكاري. فقال له كانديانو : أأنت الجالس على ذلك الكرسي الذى لا يجلس عليه

WWW.liilas.com/vb3 RAFAHEEN

غير المجرمين ؟ فأجاب فوسكاري بملء الكبرياء : أنا هو الجالس على هذا الكرسي الذى أجلستك عليه من قبل .

فقال رولاند : إحكم يا أبي بما تريده من العقاب . فقال فوسكاري : إني أنتظر عقابكم بنفس لا تخاف . وأعاد رولاند قوله :

– تكلّم يا أبي .

– نعم ، نعم .

ثم ضغط بيديه المرتجفتين على رأس فوسكاري وقال له : فوسكاري ، إني أعفو عنك فاذهب وعش سعيداً واجتهد أن لا يقتلك ضميرك .

وعند ذلك سقطت كبرياء فوسكاري ونكس برأسه إلى الأرض . وبينما كان يذهب مطرق الرأس محدودب الظهر كأنه كان يخاف أن يقتله ضميره كما قال له الشيخ ، كان رولاند راكعاً يقبّل يدَي أبيه ويقول : إنك عظيم يا أبي في أعمالك ، فقد علمتني اليوم أن أعظم انتقام هو العفو عند المقدرة .

عشاق فينيسيا

*

كانت ليونور راكعة في قاعة الطعام حينما برحها كانديانو الشيخ وسكالا برينو . وكانت تودّع كلّ شيء في الوجود ، فتودع الحياة وتلك السماء الزرقاء وذلك الشباب الناضر وهذا المنزل الذي أحبت فيه ! بل كانت تودّع الحب نفسه فتتمتم قائلة:

الوداع يا رولاند .

وكانت تكرّر هذا الاسم كأنها تريد أن تموت وهو بين شفتيها . وقد تجمّع كل الوجود في حبها وتجمّع كل حبها بهذا الاسم .

وما أعظم تلك الساعة الرهيبة التي كانت تكلّم فيها من تحب من أعماق نفسها وتبسط له براءتها وما لقيت من اليأس ثم تودعه الوداع الأخير . وقد وقفت عند ذلك فلم ترَ الذين كانا يراقبانها لأنها تجرّدت عن المادة ولم تعد ترى غير خيال رولاند الذى كانت تناجيه فقالت: رولاند، إني أحببتك ... رولاند، رولاند ، إني لا أزال أحبك ... رولاند ، رولاند، أستودعك الله فعش سعيداً بعدي .

وعند ذلك مدّت يدها إلى صدرها وأخرجت منه زجاجة السمّ ونظرت من النافذة إلى الأرزة الكبرى فقالت : رولاند.. رولاند !

فأجابها صوت من الحديقة يقول : ليونور ليونور !

فتكهرب جسمها وقد شعرت أنها باتت في غير هذا الوجود وقالت : رولاند !

فأجابها الصوت عند عتبة الباب قائلاً : ليونور !

وقد مرّت دقيقة شبه دهر وقف فيها كل من العاشقين تجاه الآخر دون أن يجد كلمة يقولها .

وقد علمت ليونور أن رولاند قد عرف براءتها وعرف رولاند ان ليونور لا تزال تحبّه كما يحبها ، فكان موقفاً هائلاً

شعر فيه كلّ منهما أن قلبه يهمّ بالخروج من صدره ، وأنهما لا يستطيعان احتمال هذا الفرح الهائل .

ثم فتح كل منهما ذراعيه دون أن يريـــد وسالت المدامع من عيونهما . وهكذا جمع العاشقان قلبيهما في قلب واحـد ثم افترقا ووقف كلّ منهما يبسم إلى حبيبه تلـــك الابتسامة الحلوة التي أنستهما مرارة الماضي .

*

وبعد ذلـــك بخمسة أشهر احتفلت فينيسيا بزواج رولاند وليونور وقد جعلا هذا الزواج في نفس اليوم الذى عقدت فيـه خطبتهما القديمة .

وكان في اليوم التالي لانتصاره قـــد انتخبه الشعب دوجاً لفينيسيا ففعل كل مـا يمكن فعله في سبيل إطلاق الحرية للشعب بحيث بات الشعب الفينسي أسعد الشعوب مـدة عامين ، إلى أن تغلبت مطامع البعض وفساد أخلاق الآخرين فعاد الشقاء إلى تلك المدينة . ولكن ذلـــك خارج عن نطاق حكايتنا فنقتصر على القول إن سكالا برينو أبى كل الإباء أن يخلف ألتياري في منصبه فاكتفى بأن يكون ملازماً لرولاند ورفيقه في أسفاره .

وأما آريتان فإنه رفض كل مـا عرض عليه من مناصب وأموال واكتفى بنظم قصيدة في وصف ذلك الانقلاب فاعترف الناس بأنها خير ما جادت به قرائح الشعراء .

وأمـا جينارو فإنه جاء إلى رولاند بعد سقوط فوسكاري

Bibliotheca Alexandrina
0147819

عشاق فينيسيا

ميشال زيفاكو

رواية
عشّاق فينيسيا

ترجمة
طانيوس عبدو

الجزء الثاني

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

« لدار الجيل »
بيروت ـ لبنان

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠
Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

٣٨

التقاء وحشين

خرج ساندريجو من قصر امباريا وهو يكاد يطير سروراً فبرح فينيسيا لفوره وسار في طريق مغاور بيافا فوصل في الساعة التاسعة الى قرية تريفيزا ودخل أحد بيوتها ولقي فيه اثني عشر رجلا مجتمعين .

وكانوا مضطجعين على الارض حول مستوقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شك فانهم حين دخول ساندريجو وقفوا جميعهم إكراماً له فانه بعد عناء اربعة اشهر لم يستطع ان يجمع غير هـذا العدد القليل من رجـال عصابته القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كان مركزها العام بخمارة مرسي الذهب كما رأيناه .

فتفقد ساندريجو رجاله وقد ظهرت عليه علائم الرضى فقال :

— لقد اجتمعتم كلكم هنا فكم يبلغ عددهم هناك ؟

فأجابه أحدهم وكان نائبه في غيابه قائلا :

— انهم ستة فقط اربعة عند باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن .

قال : إذن لا بد لنا من الفوز ولكن يجب ان نفاجئهم مسرعين .

قال : نعم فان سكالابرينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى ان يعود .

قال : لا تخافوا سكالابرينو بعد الآن فقد سددت معه حسابي القديم ولا تنسوا ما وعدتكم به فان الكنز في المغارة فيجب ان تبحثوا عنه فيها حتى تجدوه ومتى ظفرتم به يكون النصف لكم .

فاتقدت عيونهم ببارق من السرور ومشى أمامهم وهو يقول :

— إذن هلموا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كل منهم في جهة حسب الأوامر التي تلقاها وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء حتى إذا وصل الى قيد ألف خطوة منها اختبأ وراء الادغال واقام ينتظر .

وبعد ساعة سمع صفيراً فقال : لقد قضي الأمر وأسرع الى المغارة فدخل اليها فوجد اربعة رجال مقيدين . فقال له ثائبه :

— لقد كانوا ستة فاضطررنا الى قتل اثنين .

فأظهر ساندريجو إشارة تدل على عدم الاكتراث ثم نظر الى الأسرى وقال : فكوا قيودهم .

ففكوا قيودهم وعند ذلك دنا ساندريجو منهم فقال لهم :

— لقد كنتم من رجال عصابتي فثرتم عليّ وخضعتم لرجل لم يكن في شيء منا بل لا يمكن ان يكون .

وأنا قادم من فينيسيا حيث لقيت فيها بعض كبار اهل المناصب وعرفت منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جـــاء الينا ليلقي بذور الشقاق بين عصاباتنا .

أتعلمون من هو هذا الرجل الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟

إنه احد عمـال مجلس العشرة وخطته بسيطة واضحة وهو انـه يحمل عصابات الجبل على الثقة به ثم يـــأتي بهم الى فينيسيا وهناك يقبض عليهم جميعاً مرة واحدة .

فصاح به احد الأسرى قائلاً : لقد كذبت .

فأخذ ساندريجو غدارته فوضعها على صدغ الأسير وقال له :

— أأنت واثق من اني كذبت ؟

قال : نعم انك من الكاذبين .

فأطلق ساندريجو الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات شهيداً وفاء لرولاند .

أما ساندريجو فلم يكترث لما فعل وعاد الى مخاطبة الاسرى فقال :

— أتريدون ان تكونوا معنا ، أتريدون ان تذهبوا الى رفاقكم المتشردين في الجبال فتخبروهم بمـــا قلته لكم وتظهروا اليهم ذلك الخطر العظيم الذي يتهددهم وإذا كنتم حقيقة من اللصوص فـلا بـد لكم ان تقتلوا وان تنقذوا اخوانكم أمـــا أنا فاني أنسى الماضي واجعل لكم حظاً من هذا الكنز الموجود هنا .

فقال احدهم : اني اقبل .

وقال الثاني : اني رضيت .

وسكت الثالث ، فقال له ساندريجو : ما بالك لا تجيب ألعلك تريد ان تقتفي أثر هذا القتيل ؟

قال : نعم فاني أؤثر كل موت على الخيانة ، فما انت إلا من الكاذبين فاضرب يا ساند ...

وقبل ان يتم لفظ اسمه سقط قتيلاً فأدار رفيقاه رأسيهما كي لا يريا هذا المنظر فقال لهما :

— لقد اصبحتما الآن منا ونسيت كل ما مضى منكما ، ثم ذهب الى نائبه وهمس في أذنه قائلاً :

— يجب ان تبـــالغ في مراقبتهما واذا خفت منهما الخيانة فاحذر ان تكون رحيماً .

وبعد ذلك نظر الى الجميع وقال : إبدأوا الآن التفتيش عن الكنز .

فصاح الجميع صيـاح الفرح وتواروا عن الانظار في تلك المغارة المظلمة الكثيرة الشعاب .

أمـا ساندريجو فانه ذهب الى المغارة وبيده مشعل فوصل الى باب محكم الإقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً،فقال في نفسه:أيكون قد مات؟

ثم فتح ذلك الباب بالمفاتيح التي أخذها من الأسرى ودخل الى ذلك السجن فرأى في أحد زواياه رجـلاً متربعاً وقـد تمزقت ملابسه ورقّ ونحل حتى ذهب لحمه ولم يبق فيه من دلائل الحياة غير بريق عينيه .

وكان هذا الرجل بمبو .

فلما رأى الكردينال ذلك الرجل داخـلاً عليه يحمل مشعـلاً بيده وفي منطقته ذلك الخنجر المصبوغ بالدمـــاء تراجع زاحفاً منذعراً حتى التصق بالجدار وهو يقول :

— انك قادم لقتلي كما أرى فان رولاند كانديانو الذي انتزع الرفق من قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد ان يتهمه بقتلي .

فقال له ساندريجو ، اطمئن .

ولكن بمبو لم يسمع هذه الكلمة وقال بلهجة المنذعر .

ألم اكفر بعد عن ذنبي نعم ان ذنبي كان عظيما والآن وازنت بين شقائي وبين ما حملت رولاند من الشقاء فعلمت مقدار اساءتي اليه .

ولكن لكل شيء حداً حتى العقاب فقل لرولاند الذي هو رجـل مثل العقاب الأكبر بيد الله لا بيـده فان الله المنتقم الجبار يغفر أيضا لمن يثوب ويندم فدامةصادقة وأنا تائب نادم فاني اقضي جميع اوقاتي بالصلاة والاستغفار ولكن لا يسمعني احد .

وقد جعل الكردينال عند ذلك يقرع جبهته بالارض ويلتمس ويستغفر .

فنظر اليه ساندريجو نظرة ازدراء وقال في نفسه .

ويح للرجال كم يغيرهم الشقاء فقد كان هذا الرجل يخافه الناس وكان لا

ضمير له ولا ذمة ولا رحمة ولا قلب فاصبح عند الشقاء جزوعاً ضعيفاً يشبه الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث بامه .

ووالله اني لم اتعهد لفوسكاري باحضاره اليه لتركته يموت في هذا السجن فانه لا يستحق الحياة .

ثم قال له :

— انهض يا حضرة الكردينال فانك من امراء الكنيسة ويجب ان تركع امامك لا تركع أمامنا فانت الان حر طليق .

فلبث بمبو جاثياً وقال :

— انا حر طليق !

قال ، ألم اقل لك ذلك فانهض فانت حر ان تخرج من هنا وان تعود الى فينيسيا والى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر الدوج الذي ينتظرك .

أأنا حر .. اذن لقد عفا عني رولاند .. اذن لم يخطىء ظني فيـــه فهو الرجل الطيب الكريم الاخلاق الذي اسأل الله ان يباركه عني .

وقد سالت الدموع الغزيرة من عينيه وحاول ان يقف لكنه سقط فقال:

— رباه الا يكون مراده تعذيبي بالرجاء الكاذب بعد اليأس كما عذبته انا حين زرته في السجن .

فانهضه ساريجو وهزه هزاً عنيفاً وقال :

— لا شك انك قد فقدت صوابك والا فما معنى هذا الهلع بعد ان قلت لك انك حر وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعو له هـذا بل انا الذي انقذتك فتعال معي .

وعند ذلك حدق جداً الى خارج المغارة بينما كان اللصوص يشتغلون ينقب جدرانها باحثين عن الكنز .

فلما تنشق الكردينال الهواء النقي هواء الجبال ورأى النجوم تتقد في السماء وقف هنيهة وهو مندهش مأخوذ .

فأجلسه ساندريجو على حجر وسقاه كأساً من الخمر فشربها جرعة واحدة وهدأت افكاره بعد ان كان مصاباً بما يشبه الذهول فنظر الى ما حواليه وبدأ ان يعلم ما مضى فقال لساندريجو .

من انت اذكر لي أسمك يا منقذي كي اردده في صلواتي ما حييت .

فأجابه ساندريجو قائلا :

— اني ادعى ساندريجو .

— نعم من قواد الجندرمة في فينيسيا .

— ألعلهم ارسلوك لانقاذي ؟

— كلا بل ارسلت نفسي واذا كنت انقذك فلأن انقاذك يروق لي .

— اني ابارك كيف كان قصدك .

وقد أخذت عند ذلك يد ساندريجو بين يديه فضغط عليها اشارة الى امتنانه ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير واثق من انه بات حراً طليقاً .

ولقد طال طوافه بضع ساعات بحيث انه لم يعد الى المغارة الا حين طلوع الشمس .

وقد فكر ملياً اثناء طوافه واطمأن باله حتى عادت اليه سكينته ودهاؤه وتعبه .

فلما رآه ساندريجو قال له ، اني اؤثر ان اراك كما انت الآن على ما كنت عليه .

قال ، هل تتبعني ؟

— واية فائدة لي من ان اتبعك فقد كنت واثقاً انك ستعود .

— اذن أنا حقيقة حر .

— أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

— هو ذاك فالى اين تريد الذهاب بي ؟

— الى فينيسيا حيث ينتظرونك .
— من الذي ينتظرني ؟
— الدوج فوسكاري كما قلت لك .
حسناً فلنذهب في الحال .

— بل يجب ان تأكل كي تتقوى ثم تغير ملابسك الا ترى انهـــا بانت رقعاً بالية ؟

وقد دله عند ذلك ساندريجو على قاعة في المغارة كان فيها مائدة عليها طعام وشراب وهناك ثوب تام من ملابس الفرسان .

فبدأ الكردينال يلبس الثوب ثم اكل وشرب وخرج الاثنان من المغارة فركبا جوادين وهما بالرحيل .

وقبل ان يرحلا نادى ساندريجو احد اللصوص فقال له :

— ألم تعثروا على شيء ؟

قال ، كلا

قال ، عودوا الى البحث عن الكنز فاني واثق من وجوده في هذه المغارة

فهز اللص رأسه اشارة الى يأسه من لقائه .

قال ، لا بد ان تجدوه لو نسفتم الجبال .

ثم اطلق لجواده العنان واقتـدى به الكردينال فاجتازا قرية ترفيزا وسارا في طريق تريفيزا كي يذهبا منها الى مستر ومن هنـاك الى بحيرات فينيسيا .

وقد بدأ الكردينال الحديث معه فقال له :

— اني أعيد عليك ما قلته وهو اني ممتن لك الى الأبد .

قال ، اني اقبل امتنانك الابدي على اعتقادي بانه لا يوجد شيء ابدي في هذا الوجود حتى ولا امتنان كردينال .

فلم يجبه الكردينال على تهكمه وقال له :

لقد قلت لي حين انقذتني في الليل اقوالا لا اذكرها لاضطرابي في ذلك الحين ولكني لا أزال اذكر اني سمعت منك اسم رولاند .

— نعم فقد سألتني اذا كان هو الذي صفح عنك .

فاتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال :

— ألعل هذا الرجل من اصحابك ؟

قال ، ان صداقته لي تشبه صداقة العاصفة للنوتي وصداقة النمر الموعل نعم اني أكره هذا الرجل بملء جوارحي ولولا يقيني انك تكرهه أشد ما أكرهه لما انقذتك ولتركتك تموت في سجنك اقول هذا وأنا أرجو ان تعذرني لحريتي .

— قل ما تشاء فاني ما سررت بحياتي بمثل ما اسمعه الآن منك .

— اذا كان ذلك فلنتكلم بجلاء فاعلم اذن انك غير مدين لي بشيء وذلك اني لم انقذك لفائدتك بل لفائدتي اذ ارجو ان تكون لي اشد سلاح على مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال، اني ضربته ضربات شديدة ولكني ارجو باعتمادي عليك ان اضربه الضربة القاضية .

— اعتمد علي ولكن يجب ان اعرف هذا الحليف الذي تعاهدت واياه على الهجوم وقد عرفت من انا في حين اني لم اعرف من انت .

لقد قلت لك اني قائد في الجندرمة تحت إمرة التياري القائـــد العام ولكني لم انل هذا المنصب الا من عهد قريب فقد كنت قبله من اللصوص.

فنظر اليه الكردينال نظرة انكار فأجابه على نظرته قائلاً :

— إذن ذلك يدهشك دون شك ولكنك حين تصل الى فينيسيا تعلم عني أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة .

— من هو ؟

— هو الدوج فوسكاري .

ـ حسناً فسأصبر الى ان أراه فأقول لك ما أريده منك والآن قل لي ما تريده مني .

فأطرق ساندريجو هنيهة مفكراً وقال :

اني اطلب اليه قضاء امرين احدهما ان تعينني بكل قوتك على رولاند كانديانو .

ـ لقد اتفقنا على هذا الطلب فما هو الثاني .

ـ ان طلبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكردينال فقد كنت لصاً قبل ان أكون قائد ولكن اللصوص يحبون كما يظهر كسائر الناس وقد احببت فتاة .

ـ أتريد ان أساعدك على رضى اهلها بزواجك ؟

ـ كلا فاني لا أعتمد على أحد في مثل هذا الشأن .

ـ اذن ماذا تريد ؟

ـ لقد كنت بالأمس لصاً واصبحت اليوم قائداً فاريد ان يكون لي مقام بين العائلات الايطالية ولاسيما لامرأتي .

ـ لماذا لا يكون لأمرأتك مقام ؟

ـ الأمر سوف تعلمه فان الأسرات النبيلة ستستقبلها ببرود وأنا أريد ان يدخل القائد ساندريجو وامرأته الى أرفع بيت وهما شامخا الرأس .

ـ ماذا يجب ان اعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟

ـ يجب ان يحضر حفل زواجي اشرف العائلات وان تكون الحفلة باهرة وان يعقد قراننا اعظم رجال الكنيسة في فينيسيا اي الكردينال بمبو بنفسه .

ـ إذن انت انقذتني لهذه الغاية ؟

ـ كلا بل اني انقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي انك تحمل من الحقد على رولاند فوق ما احمل ولا انكر عليك اني حين سمعتك تتوسل وتثني

على كرم رولاند ندمت وعزمت على التخلي عنك غير اني رأيت ولاسيما بعد هذا الابتسام الذي تبتسمه الآن ان حقدك عظيم عليه وهو رجـــل شديد يستحق عناء المؤامرة عليه .

— وأنا ارى رأيك فلتسرع اذن فاني ما زلت في هذه الجهـات لا آمن على نفسي .

وقد جد الاثنان عند ذلك السير وبعد ساعة دخلا الى سراي الدوج فقال ساندريجوا لفوسكاري .

أرأيت يا مولاي كيف وفيت بوعدي ؟

فشكره الدوج باشارة وجعل ينظر بمبو وهو معجب بتغيره فان سجن بضعة ايام فعل به ما لم يفعله برولاند سجن ستة اعوام .

فأدرك بمبو سر نظراته وقال له :

نعم لقد تغيرت كثيراً فان كل دقيقـة مرت بي في ذلك السجن الهائل كانت بمثابة عام ثم قال له بصوت منخفض .

يجب ان نتحادث

قال ، في هذا المساء

— اين نجتمع ؟

— حسب العادة في جسر التنهدات

— حسناً فساوافيك ولكن اعلمت ان رولاند في قيد الحياة .

— نعم لقد علمت

— انه حاقد علينا حقداً شديداً وانتقام هـذا الرجل هائل كما علمت بالبرهان .

وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بمبو جباناً ومـع ذلك فانه ارتعد فقال له بمبو :

يجب ان نحذر لأنفسنا كل الحذر وان نتخـذ الوسائل السريعة فننقض

انقضاض الصاعقة أو يقبض علينا رولاند الواحد تلو الآخر فان هذا الرجل اشد وأقوى مما كنا نتوقع .

ـ سنجتمع في هذا المساء

ـ ثم التفت الى ساندريجو وقال له :

اشكرك يا حضرة القائـد لانقاذك الكردينال فانت من اشد اعواننا ورجائي ان تستمر على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وان استمر على ترقيتك بما ينطبق على كفائتك .

فانحنى ساندريجو شاكراً وهو يكاد يطير سروراً ثم استأذن من الدوج وخرج مع الكردينال الى قصره .

وهناك قال له الكردينال ، لقد مشيت الآن ايهـا الصديق في طريق الثروة والسعادة فان فوسكاي لا يرجـــع عما يعد به وأما أنا سأساعدك بملء قوتي .

ـ وأنا معتمد عليك دون شك .

ـ اذن عد الي غداً فاني مضطر هذه الليلة الى مشاورة رجل لا بد لي من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

ـ ماذا سألتني ؟

ـ وأنا سابدأ عملي منـــذ اليوم ولكن لا تستطيع ان تجيبني الآن عما سألتك اياه ونحن في طريق البحيرات .

ـ ان تحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ويعقـد لي في الكنيسة الكاتدرائية ويتولى عقد القران الكردينال بمبو اسقف فينيسيا .

ـ انه شرف عظيم لا يمنح عادة الا لأكابر الناس ولكني لا استطيع ان ارفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد فقل لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

ـ انها تدعى بيانكا وهي ابنة المحفظية امباريا .

وعند ذلك انحنى وانصرف فبقي بمبو وحده دون حراك كأنما الصاعقة قد انقضت عليه .

فلم يشب إلى رشده الا بعد حين فجعل يقول :

بيانكا ، انه يريد ان يتزوج بيانكا وان اتولى انا عقـــد القران فيا له من ابله ؟

ثم ضحك ضحكا هائلاً وقام فغير ملابسه وخرج من منزله فركب قاربا وسار به الى قصر امباريا فصعد السلم وهو يضم قبضته منذراً متوعداً وهو يقول في نفسه .

اني اقتل الاثنين ولا اسمح بمثل هذا الزواج .

وفي ذلك الحين رسا قارب عند باب قصر امباريا وخرج منه رجل .

أما هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

٣٩

الموت

ندع الان ساندريجو وبمبو يعقدان المحالفـة ورولاند ينهمك في قضاء تلك المهمة المجهولة وسكالابرينو يدفـع الموت في قبو الخمارة وجوانا ساهرة على الشيخ كانديانو والد رولانالد وهي تحاول ان تتعزى عن احزانها وتعود الى ثلاثة من أخص اعضاء هذه الرواية وهم ليونور والتياري ودندولو .

فان ليونور بعد ان انقذت رولاند على ما تقدم لنا وصفه وعادت الى قصرها فاطلقت سراح امباريا سقطت في غرفتها واهية القوى قبل ان تصل الى السرير .

وذلك انها كانت منذ بضع ساعات عرضة لتأثرات عصبية شديدة مثل

خصامها امباريا ومعرفتها فجاءه ان رولانـد حي وانه أقام ستة أعوام في السجن وذهابها الى جزيرة اوليفو والتقائها برولاند وتلـك المباحثة الهائلة التي جرت بينها وبين زوجها كل هذه الحوادث التي جرت لها في بضع ساعات اثرت عليها تأثيراً سحق قواها وهد ركن عزيمتها الطبيعية والعقلية .

وقد سقطت على الأرض لا تعي وفاجأتها الحمى فأسرعت نساؤها اليها وحملتها الى سريرها وابلغن أمرها الى زوجها .

ولم يكن التياري قد نام بعد فانه بعد حادثة بيت الجزيرة عاد تواً الى قصره وعليه ظواهر السكينة .

ولكن براكين الرعب كانت ثائرة في قلبه فان رولاند نجد منه وقـد نجا منه وقد وثق مما قالته له ليونور وهو أنها أخبرته بأنهم عازمون على القبض عليه فنجا قبل فوات الاوان .

وإنما كان خائفاً منه لأنه لم يكن يعلم اين هو ولا يعرف شيئاً من مقاصده وهو لا يطمئن له بال ما زال رولاند في قيد الحيـاة حتى إذا كان خائفاً عندما كان سائراً الى منزله ان يفاجئه رولاند في الطريق .

فلما دخل الى غرفته تنفس الصعداء ومسح عرق جبينه وجعل ينظر في حالته بعد اطمئنانه فقال في نفسه :

ـ نعم ان رولاند قوي شديد ولكني قـائد الجيش العام فمن يجسر على مهاجمتي والجنود لا تفارقني لحظة .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن من هذا القبيل حتى فاجأه رعب آخر أشد من رعبه الأول .

وهو انه كان يؤامر .

وذلـك انه كان شديد المطامع وقد شعر بعد تلك الثورة التي قضت بإسقاط والد رولاند انه لم يعقل ما عمله في ذلك العهد إلا لخدمة فوسكاري لأنه لم يكن له في ذلك العهد غير فريق ضعيف من الضباط وبعض النبـلاء

في حين ان فوسكاري كان قابضاً على مجلس العشرة وعلى مجلس التفتيش وهما كل القوى الشرعية في فينيسيا .

فلما رأى التياري ان كانديانو الشيخ قد ثملت عيناه وان رولاند قد حكم عليه بالسجن في الآبار طمع بالحكم وعزم على انتزاعه من يد فوسكاري .

ولما كان غرضه الوحيد في هذه المؤامرة كغرضه في المؤامرة الأولى وهو نيل ليونور فان الحب كان أشد وقعاً في نفسه من المطامع .

وقد عيّن فوسكاري حاكماً على فينيسيا وكذلك التياري فانه لم يعدم نصيبه من هذا النعم إذ عيّن قائداً للجيش في حين ان هذه القيادة كانت من حقوق الزوج حسب القانون .

فبعد ان تزوج ليونور وبعد ان وثق انهـــا لا يمكن ان تكون امرأته تغلبت المطامع في قلبه على الحب .

ولكن هذا الطمع لم يكن إلا لخدمة الحب فانه كان يرجو ان يبلغ منتهى العظمة أي ان يكون حاكم فينيسيا عله يروق في عيني ليونور .

ومـــا زال يعمل بالسر حتى دخل معظم قواد الجيش والنبلاء في سلك مؤامرته وفيما هو يحـاول ان يضرب الضربة الكبرى علم بفرار رولانـد من السجن ثم علم بقدومه الى فينيسيا فرأى انـــه لا بد له قبل كل شيء ان يتخلص من هذا المزاحم الشديد فان اسم كانديانو كان محبوباً من الشعب .

ولذلك اتفق مع دندولو بشأن رولاند على ما علمناه ولكن التياري كان يؤامر على فوسكاري طمعـاً بالتاج وهو على يقين من ان سره كان مكتوماً أشد الكتمان ولم يكن يعرفه غير بعض رجاله الذين يخاطرون برؤوسهم إذا باحوا بهذا السر لاشتراكهم بالمؤامرة وقـد عرفت ليونور ذلك .. ذلـك لا يهمه بل المهم انها عرفت هذا السر الهائل .

وهنا وقف وجعل يقول في نفسه :

ـ كيف تخونني هذه المرأة وتفضح سري وإنما أخاطر بحياتي من أجلها إذ لم أكن اطمع بهذا المجد لولاها .

وهنـا تنازعه عاملان مختلفان عامل الحب وعامل الطمع فرعب رعبـاً عظيماً لأنه إذا قتل ليونور عاش بقية حياته دون رجاء ودون قصد .

وإذا لم يقتلها كان عرضة لانتقامها في كل لحظة فان حياته كانت موقوفة على كلمة تبدر منها .

وعلى ذلك فإما ان يعيش من غير ليونور وإما يموت بها .

وفيما هو على ذلك جاءته إحدى الخادمات وقالت له :

ـ ان ليونور مصابة بحمى شديدة بلغت بها الى حد الهذيان .

فزالت كل تلك الأفكار من رأسه ولم يعد يخطر له غير أمر واحد وهو ان ينقذ تلك المرأة الهائم بحبها ثم يرى بعد ذلك ما يكون .

وعند ذلـــك أسرع الى غرفة امرأته وكانت هذه هي المرة الأولى التي دخل بها الى هذه الغرفة فرأى ليونور في سريرها وقد احمر وجهها من الحمى وهي نائمة في فراشها دون حراك .

فأمر ان يأتوا بالطبيب فجلس بجانب السرير فأخذ يد ليونور بين يديه وارتعش ارتعاشاً عظيماً إذ كانت هذه أول مرة لمس يدها بهذا الشكل فلا ندري أكان ارتعاشه لسروره بضم هـذه اليد الناعمة أم لإشفاقه وقد شعر انها تلتهب من الحمى .

وكان السكوت سائداً في تلك الغرفة الى ان اخترق هذا السكوت صوت ليونور فان هذيان الحمى قد بدأ فكانت تتكلم بإسهاب فتحادث تارة أباهـا وتارة رولاند فتسأله العفو وتقسم له انها لا تزال وافية بعهده .

ثم انقطعت فجـأة عن محـادثة رولاند وجعلت تحدث التياري بهذيانها فبدأت بذكر اسماء رجـــال المؤامرة وأيقن التيارى انها ستفضح كل سره فاضطرب والتفت الى خادماتها فأمرهن بالخروج من الغرفة وجعل يكلمهن بصوت مرتفع كي لا يسمعن مـا تقوله سيدتهن فخرجن حتى إذا بقي وحده

أمامها نظر اليها نظرة وحشية وخرج الى الغرفة المجاورة كي يستوثق انه لا يوجد احد فيها فلما وثق من ذلك عاد الى امرأته وجلس بجانبها يصغي .

فسمع كل ما قالته عن المؤامرة وأيقن انها واقفة على كل تفاصيلها .

ثم سكتت فجأة كما سكتت أول مرة .

وعند ذلك طرق الباب فارتعد التياري وجرد خنجره فقال من الطارق ؟

فأجابه صوت من الخارج قائلاً : الطبيب .

فاطمأن وأغمد خنجره وهو يقول في نفسه :

ـ لقد جننت دون شك فاني سأفضح نفسي لشدة خوفي من الفضيحة .

وقد ملك نفسه وفتح الباب فدخل طبيب العائلة فقال له التياري :

ـ لقد وقعت السيدة ليونور فخافت خوفاً شديداً وأصيبت بحمى شديدة .

قال : سوف نرى يا مولاي .

وعند ذلك دنا الطبيب الشيخ من ليونور ففحصها فحصاً مدققاً .

ثم التفت الى التياري فذعر ذعراً عظيماً إذ رأى القائد العـــام مجرداً خنجره كأنه يهم ان يطعنه به فانه كان عازماً على قتله لو قالت ليونور كلمة تشف عن المؤامرة .

فلما رأى الطبيب ذلك قال له :

ـ إني لا افهم شيئاً يا مولاي مما تقول .

فضحك التياري ضحكاً عصبياً وقال له :

ـ لا تؤاخذني أيها الطبيب فان الحقيقة هي اني أنا المريض ولكن تعال .. فعال معي .

وقد أغمد خنجره وسار الطبيب الى غرفة مجاورة وهناك اطمأن وعاد الى السكينة ، فقال له الطبيب :

ـ الحق يا سيدي انك اخفتني .

قال : ارجوك ان تعذرني فان الحزن قـد يصيب صاحبه بالجنون والآن فاخبرني بما رأيت ؟

فاطمأن الطبيب ايضاً فأخبره تفصيلاً بمـــا علمه عن حالة ليونور بعد الفحص ثم قال له :

ـ انها يا سيدي في أشد خطر وانه يجب مراقبتها في الليل والنهار .

قال : حسناً ، فسأتولى بنفسي هذه المراقبة .

قال : انه خلوص عظيم نادر يا سيدي بين الازواج .

ثم وصف لها الدواء وحاول الانصراف وهو يقول : سأعود غداً .

قال : بل تقيم عندي وسأعيّن لك مكاناً في القصر .

فسر الطبيب بهذا الإنعـام ولكنه نظر نظرة القلق الى خنجر التياري وقال في نفسه :

ـ لمـــاذا أراد هذا الرجل ان يطمئني بخنجره فهل هو حقيقة مصاب بالجنون ؟

وعند ذلك ذهب الى المكان الذي عيّنه له التياري وهو بين الرجاء والخوف .

وعاد التياري فنادى وكيله وقال له : أرأيت هذا الطبيب ؟

قال : نعم يا مولاي .

قال : إذن فاعلم انه إذا خرج من القصر دون إذني فأنت من الهالكين.

فانحنى الوكيل وانصرف وهو معجب بإخلاص سيده لإمرأته إذ كان يعتقد انه لا يريد سجن الطبيب في قصره إلا كي يجده للفور حين الاقتضاء .

وقد عاد التياري الى غرفة امرأته وأمر جميع الخدم ان لا يدخلوا اليها فانه يريد ان يتولى وحده خدمتها .

فكان يقفل باب الغرفة من الداخل وينام على كرسي قرب سريرها نوماً مضطرباً متقطعاً .

وبقيت ليونور على حالها ستة أيام وفي اليوم السادس عادت الى صوابها فشعرت بتعب عظيم لا يوصف ولا سيما في نفسها فان يأسها كان شديداً حتى انها كانت تشتهي الموت ولا تجد الراحة الكبرى إلا به ، فانها حين كانت تذكر ان جميع شقائها تولد من ساعة ريب يتولاها اليأس وتحكم على نفسها انها غير جديرة بالاشفاق ، فقد كان ذنبها العظيم « في اعتقادها » انها لا تحب رولاند كما أحبها فانه لبث وفياً بعهده ، أما هي فانها خانت وتزوجت بسواه وسمعت أقوال الناس فيه ، وانه ليلة خطبتها حين ذهبت الى المجلس العشرة وسمعت ما قالته امباريا فيه كان يجب عليها ان تجيب تلك الفاجرة فتقول :

ـ لقد كذبت فان رولاند لا يتدانى الى حب أمثالك فهو لي بجملته كما أنا له بجملتي .

وحين جاءتها أم رولاند وطلبت اليها ان تذهب معها لتهيّج الشعب على انقاذ رولاند كان يجب عليها ان تجيب :

ـ هلمي بنا ولنمت معاً فاني وإياه واحد لا يجب ان نفترق .

وحين قال أبوها ان رولاند عفى عنه فهجرها وبرح فينيسا كان يجب ان تقول له :

ـ لقد كذبت فان رولاند إذ أطلق سراحه لا يلجأ إلا الى .

وحين ذهبوا بها الى كنيسة سانت مارك لعقد زواجها كان يجب ان تمتنع عن الزواج وتقول :

ـ إني لا أتزوج التياري لأني زوجة رولاند وإذا لم يمكن ان اكون له تزوجت الموت .

هذا ما كانت تقوله هذه المنكودة ولا بد لنا ان نقول هنا ان هذه الأقوال ليست من مخترعاتنا بل هي اقوال ليونور نفسها عثرنا عليها في كتاب كتبته فكان شبه اعتراف .

وهذا الذي كان يعذب نفسها هذا العذاب لا سيما بعد ان اجتمعت

برولاند وانقذته ووقف أمامها جامداً كأنه لا يعرفها وانصرف دون ان يكلمها كلمة وهي إنما لبست ملابسها القديمة أي ملابس الفتيات كي تلمح انها لا تزال على عهدها وإنما ذهبت الى تلك الأرزة كي يعلم انها لا تزال تهواه وإنما اختارت انتصاف الليل موعداً كي يعلم انها لا تزال تحن على لقياه .

وهو مع كل ذلك لم يفه بكلمة فكانت تقول في نفسها :

ـ انه مصيب بكل ما فعل فقد خنته أمـــام مجلس العشرة بتصديق الوشاية عنه وخنته أمام أمه بامتناعي عن المسير معها وخنته أمـام الهيكل بقبولي ذلك الزواج .

إذن لقد قضي الأمر واصبح الفراق ابديـــاً ولم يبق لي رجاء بلقياه فماذا بقي ؟

لم يبق غير توديع الحب أي توديع الحياة وأما حب الموت الآن فهو الدواء الوحيد لهذه الآلام .

هذا ما كانت تفتكر به ليونور في تلك الساعة ساعة اليأس الهائلة .

وفيما هي تغمض عينيها كي تستقبل الموت ولا ترى غـــير الظلمة الأبدية سمعت صوتاً بالقرب منها .

فقالت : من هذا الذي يتكلم هكذا ؟

وقد أصغت وهي أول مرة عاد فكرها الى الانتظام فعجبت كيف انها في سريرها ثم ذكرت فجأة انها سقطت مغمياً عليها في ارض غرفتها ولم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك .

ولكنها جعلت تصغي الى تلك الاصوات وكانت ضعيفة خافقة غير انها لم تكن أصوات نساء كما توهمت في البدء بل كانت اصوات رجال .

وقد تبينت تلك الاصوات لفورها فعلمت انها صوت زوجها وصوت أبيها فبذلت جهداً عنيفاً كي لا يبدو عليها شيء من عـــلائم الاضطراب وكي لا تنهض من فراشها فتطردهما واصغت الى ما يقولان فسمعت التياري يقول :

ـ لقد مضت خمسة أيام كانت شبه خمسة أعوام لما لاقيت في خلالها من الرعب .

فأجابه دندولو قائلاً :

ـ لماذا هل تكلمت شيئاً ؟

ـ بل انها قالت كل شيء وستعود الى الكلام ايضاً متى عاد الهنديان فانها تفصل لهم المؤامرة تفصيلاً وتذكر المؤتمرين .

ـ ألعلها ذكرت اسمي ؟

ـ ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمك .

فساد السكوت هنيهة بعد ذلـــك وسمعت ليونور أباها يتنهد كأنه قد اطمأن فعلمت انها بهنديان الحمى قالت كل ما تعرفه عن المؤامرة وان التياري أقام عندها كل هـذه المدة كي يراقبها وانه دعا أباهـا للاتفاق معه على أمر هائل دون شك .

وعاد الاثنان الى الحديث فقال التياري :

ـ ربما لم تكن عالمة انك منتظم في سلك المؤامرة او ربما حرصت عليك حتى في هذيانها .

ـ إذن لقد ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمي .

ـ نعم ..

ـ رباه ولكن ماذا يكون إذا سمعوها ؟

ـ انهم إذا قبضوا علينا قبضوا عليك لا محالة .

وهنا عاد الإثنان الى السكوت فكانت ليونور ترى بعين التصور رعبها وتبذل كل ما تستطيعه من الجهد كي تحافظ على السكينة .

وبعد هنيهة عاد التياري الى الحديث فقال :

ـ ان الهنديان يفاجئها في المساء وفي الليل أما الآن فانها نائمة نوماً هادئاً وما أصعب تلك الليالي التي كنت أقف فيها على الأبواب والخنجر بيدي

وأنا متأهب لقتل كل من يسمع كلمة من حديثها حتى شعرت بأني سأفقد صوابي ولذلك دعوتك إليّ فانك أبوهـا .

ـ حسناً فسأتولى الحراسة مكانك كي تستريح .

فهز التياري رأسه وقال :

ـ لست أشكو من التعب .

ـ إذن مما تشكو ؟

ـ أشكو من أنه لا يجب ان يسمعوها .

ـ نعم لا يجب ان يسمعها أحـد فان كلمة تخرج من فمهـا تقتلنا وأي قتل .. هناك على جسر التنهدات حيث يربطوننا الى ذلك الكرسي الحجري او انهم يقتلوننا جوعـاً او عطشاً او انهم يحبسوننا في الآبار ويعذبوننا كما عذبنا .

ـ اسكت ولا تذكر اسمه هنا فانها قد تسمعه فتقول اني سأقذف بكم الى حيث قذفتم بخطيبي .

ولكنها كانت نائمة لحسن الحظ نوماً هادئاً غير ان هذا النوم قد يكون علة موتنا .

وعند ذلك نظر الى دندولو نظرة وحشية وقال له :

ـ نعم يجب ان لا يسمعوها وليس لذلك غير طريقة واحدة .

فجمد الدم في عروق أبيها وقال له :

ـ أية طريقة ؟

ـ نعم يجب ان لا تتكلم بعد الآن .. واصغ إليّ فانـك تعلم يقيناً اني أحب بنتك ولا أزال أحبها .

ـ اسكت .

ـ اني أحبها وهذا الذي يولد اليأس في قلبي لأنهـا تكرهني وتحتقرني وتلعنني وأنا أحبها فلم استطع الصبر على هذا المضض ولم يبق غير واحد من أمرهما إما ان أموت او تموت .

ـ قلت لك اسكت .

ـ كلا اني لا اسكت واني ما دعوتك إلا لتشاركني في نكدي فانك انت الذي زوجتني اياها وأي زواج هذا ألا تعلم اننا منذ تزوجنا الى اليوم ونحن عائشان عيش الغرباء حتى لقد حاولت مائة مرة ان اقتلها .

والآن ، فاني أريد ان أنجو من هـــذا العذاب إذ لم أعد أطيق الصبر عليه لحظة .

اني أحبها وقد بلغت بحبها حد الجنون وقد تحملت العذاب فيهـا خمسة اعوام والآن فاني سمعتها في هذيانها تنادي خطيبها فتتوسل اليه ان يصفح عنها وتناجيه بأرق الفاظ الغرام فكانت كل كلمة من كلماتها شبه خنجر يغمد في صدري .

وبعد كل هذا فقد باتت شر نذير لي بالموت فان جراح كلماتهـا لم تكفهـا فأرادت اعدامي .

نعم اني لم أعد اطيق الصبر فهل تريد ان تعيش بعد الآن بهذا العذاب وأنت معرض في كل لحظة لانتقام امرأة .. قل أتريد ان يكون مصيرك الاعدام ؟

فتمتم دندولو قائلاً :

ـ أواه يا ابنتي .

وقد خامر الرعب قلب هـذا الأب الشقي ولكنه مع ذلـك حاول ان ينقذ بنته فقال بصوت ضعيف :

ـ انها قد لا تذكر بعد الآن هذه الأشياء ومتى شفيت فاننا قد نستطيع ان نستوثق منها وان تعاهدنا على الكتمان فاصبر فاني واثق من كتمانها .

وعند ذلك بدرت حركة من ليونور فأجفل الأثنان وجعلا ينظران اليها .

ففتحت عينيها ولم تكن نظراتها نظرات مريضة محمومة بل نظرات كانت تتوقد ذكاء فارتعش الاثنان وايقنا انها سمعت كل الحديث .

أما هي فقد أيقنت أيضاً ان ساعة الخلاص قد دنت أي ساعة الموت وان الكلام سيكون لها امضى سلاح للانتحار ما زال أبوها وزوجها قد اتفقا على قتلها .

فنهضت من سريرها وجمعت كل قواها فقالت :

انك مخطىء يا أبي فاني لا اكتم سركم وسأبوح به في أول ساعة استطيع بها الخروج من هذه الغرفة .

وذلك أنكما اخللتما بالشروط التي تعاهدنا عليهما في بيت الجزيرة فلا بد لي من الاباحة بسركم .

وكان التياري قريباً من السرير فنظر اليها نظرة منكرة وقد زال الحب من قلبه بلحظة وبات يكرهها بقدر ما كان يحبها فهاجت براكين الحقد في صدره فحاول أن يشفي غليله بكلمة شتم ولكن تلك الكلمة وقفت في حلقه فرفع يده وهو يحاول أن يضرب ضربة واحدة تكون القاضية .

فنظرت ليونور الى بريق خنجره وهي تبتسم ارتياحاً للموت .

أما التياري فان يده سقطت فجأة وارتجع خطوة الى الوراء ذلك ان دندولو صدمه صدمة قوية وأسرع فحال بينه وبين بنته وهو يقول :

— اني لا أريد ان تموت ابنتي .

فهاج غضب التياري وقال :

أأنت الذي تصدمني هذه الصدمة ؟

— نعم

— اذن أنت تريد أن تموت ايضاً

— اني اؤثر ألف موت على ان أدعك تمسها بسوء .

فنظر التياري الى دندولو نظرة انذهال وحقد معاً فان هذا الرجل الذي

كان يعهد به الضعف ووهن العزيمة والجبن رآه قد استحال في تلك اللحظة الى أسد مفترس يدافع عن عرينه فقال له .

– ويحك ايها الجاهل أتريد ان تدفع بنا جميعنا الى الاعدام .

فتنهد دندولو تنهداً وقال :

– أني أقبل الموت والشنق والعار والسجن وكل ما اخترعته القرائح الجهنمية من أنواع العذاب ولا أرضى بهذه الدناءة .

لقد كنت جباناً وكنت سافلاً اذ بعتك بنتي وبعتك نفسي أما الآن فاني استرد بنتي واسترجع نفسي وأرد لك الثمن وهو ذلك المنصب وما ألقى فيه من المجد والسلطة .

فدنا التياري خطوة منه قبل ان يتم حديثه .

فأدرك دندولو قصده وقال له :

– اني أشير عليك ان لا تدنو من بنتي الا اذا اردت ان يسبق خنجري الى صدرك سيف الجلاد الى عنقك .

قال ، اذن لنمت جميعنا فاني اؤثر هذا الموت .

وقد انقض على دندولو وهو يزبد بخنجره فتلقاه دندولو بمثل سلاحه .

وكان القتال بينهما هائلاً دون ان يفوه أحـــدهما بكلمة الى ان اصيب التياري بخنجر عمه فاخترق الخنجر كتفه فسقط على الأرض قرب السرير وحاول وهو على هذه الحال ان يمد يده الى ليونور فدفعه دندولو عنها بعنف والقاه بعيداً عن السرير .

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً ولكنه كان بالغاً فلم يذهب صوابه وجعل ينظر الى ما سيحدث بعينين ظهر فيهما الرعب والألم .

أما دندولو فانه حين رأى التياري طريحاً بعيداً عنه دنا من ابنته فأخذ يدها ووضعها على جبهته المحرقة فلم يقل كلمة ولكنه جعل يشهق بالبكاء .

فتأثرت ليونور وبكت لبكائه وهي تقول :

– أبي

فاتقدت عينا دندولو بأشعة الفرح وقال :

– اللهم عفوك فقد عفت عني .

* * *

وعند ذلك مسح ذلك الأب عينيه وقال لها بصوت يرتجف .

انك لا تقيمين ساعة هنا فسأذهب بك الى بيتنا القديم في جزيرة اوليفو ونعيش فيه عيشتنا القديم .

فهزت ليونور رأسها وقاطعته قائلة :

– ألعلك نسيت يا أبي ان هذا البيت لم يعد لنا .

فذكر دندولوا انه باع البيت وكان قد نسي البيع ونسي رولاند فقال لها: لقد أصبت ولكننا نستأجر منزلا :

قالت ولكنك نسيت أيضاً يا أبي ان من تكون من أسرة دندولو لا تبرح منزل زوجها وقد رضيت به زوجاً فلا تخف علي يا أبي فاني منذ هنيهة كنت أريـــد الموت أما الآن فأني أريد الحياة لأجلك اذا لم يكن لأجل سواك .

وان التياري يعلم يقيناً اني لا أبوح بكلمة تفضح سره وهو يعلم يقيناً أيضاً اذا دخل مرة ثانية الى هذه الغرفة تكون العاقبة هائلة عليـــه ثم هو يعلم ايضاً اني اذا أصبت بسوء كان نصيبه الشنق لأنك تفضح سره انتقاماً لي .

ثم التفتت الى التياري وقالت له :

– الا ترضى بهذا الشرط ؟

فقال بصوت أجش .

نعم أرضى

قالت وأنا أضيف الى شرطي شرطاً آخر وهو انه يحق لأبي ان يدخل الى هنا متى شاء.

فقال دندولو :

لا فائدة من هذا الشرط يا ليونور فانك ما زلت تأبين الخروج من هذا المنزل فأنا أقيم فيه في الغرفة المجاورة لغرفتي فلا يستطيع احد الدخول اليك الا على جثتي .

فأشار التياري اشارة تدل على الموافقة ثم نهض عن الأرض وقد أوهن الجرح قواه فخرج من الغرفة دون ان ينظر الى الفتاة وأبيها .

٤٠

معسكر الشيطان الأكبر

ولنعد الآن الى رولاند كانديانو فقد تقدم لنا القول انه بعد ان قابل ليونور تلك المقابلة الغريبة ذهب الى سكالابرينو ومهد اليه ايصال أوامره الى زعماء العصابات ثم برح فينيسيا .

وقد كان في نية رولاند أن يقابل جان مدسيس في أقرب حين ويمنع اتصاله بفوسكاري دوج فينيسيا .

وهو انما اتخذ ذلك حجة لنفسه ولكنه في الحقيقة كان يريد الابتعاد عن عن هذه العاصمة فهل خشي ان يقبضوا عليه وان يدفنوه حياً في تلك البئر التي كان مسجوناً فيها أم خشي ان ينصبوا له شركا فيغتالوه ويعدموه .

كلا فان رولاند لم يعد يخشى ظلمة القبور ولكنه كان يريد الفرار من فينيسيا لانه لم يعد يطيق النظر اليها ولأنه خشي ان يجتمع اتفاقاً بليونور

بل لأنه خشي من نفسه وخشي من غرامه فكان يسير سير الهائم وهو يناجي نفسه فيقول :

كيف ذلك .. الا أزال أحبها الى هذا الحد .. احتملت بغرامها ما لم يحتمله قلب انسان فان شفتي قد رقتا لترديد اسمها في كل لحظة وكل نبضة من نبضات قلبي كانت تنهد غرام ومع ذلك فقد خانتني خيانة لا تقدم عليها بنات العام مع البحارة .. رباه كيف يحتمل عملها التصديق فانها اغتنمت فرصة سجني كي تتزوج سواي وهي تعلم اني ابكي لفراقها الدم لا الدمع .. أليس من العجب ان أبقى على هواهـــا بعد ذالـــك فمن أية طينـة جبل قلبي .

وهي الآن قد تصدقت بانقاذي من كمين واحسنت الي بشيء من الحرية وهو ما تعامل به كل مضطهد سواي .

وعند ذلك لكز بطن جواده بعنف شديد كأنه كان يرجو ان يندفع به ويلقيه في هاوية.

ولكن الطريق كانت سهلة فبعد ان جرى الجواد شوطاً بعيداً وهو في أشد حالات الهياج سكن من تلقاء نفسه فعاد رولاند الى التفكير .

ولم يكن الا القليل حتى تغلبت عواطف الانتقام في نفسه على عواطف الغرام فجعل يفكر بفوسكاري وهو علة شقائه بل هو ذلك الوحش الذي انفذ ذلك العقاب الهائل بابيه فيحدث نفسه فيقول :

— كفاك يا قلبي غراماً ضائعـاً ولانظر الآن الى فوسكاري الطامع بان يتسلط على ايطاليا باسرها ولكني له بالمرصاد فلن ادعه يبلغ مراداً من هذه الأمنية وسأبذل كل جهدي كي أحول دون اتفاقه مع جان مدسيس فاذا لم استطع ذلك بالسياسة فعلته بالقوة .

وقد كان اتخذ في هذا السبيل كل ما يحتاج اليه من التعليمات وفوق ذلك فان شهرة هذا الرجل كانت قد طبقت ايطاليا وباتت اعماله مشهورة لدى

الخاص والعام فانه كان يحب الحرب لمجرد الحرب شأن جميع الذين اشتهروا من رجال الفتوح وكان يأذن لجنده بسلب البلاد التي يفتحها فكانوا يحبونه من أجل ذلك حب عبادة .

وكان المؤرخون يلقبونه الحربي المحبوب ولكن اعـــداؤه كانوا يدعونه الشيطان الأكبر فغلب هذا اللقب .

أما رولاند فقد وصل الى معسكر هذا الفـــاتح عند هجوم الليل وقد نصب خيمة كبيرة تحت سنديانة عظيمة .

وكان الجنود فرحين يضحكون ويلهون ويسكرون لأنهم كانوا قادمين على معركة يغنمون منها الأسلاب وقد أذن لهم جان مدسيس بهذا الهرج كما كان يأذن لهم في بدء كل معركة .

فلما وصل رولاند الى المعسكر طلب اليهم ان يسيروا بـــه الى القائد الأكبر فساروا به الى تلك الخيمة العظيمة الكائنة في وسط المعسكر بحيث كانت منه بمثابة القلب .

وكان جان مدسيس جالساً فيها يحيط به قواده الاخصاء وقد وقف اثنا عشر حارساً على ابوابها ، وبسطت في وسطها مائدة كبيرة جلس حولهـا جان مدسيس وقواده فجعلوا يأكلون ويشربون ، بينما كانت جوقة موسيقية تعزف لهم أشجى الألحان فلا تصل الاسماع لشدة هرج الجنود وقائدهم الأكبر يشرب ويضحك ضحكاً عالياً لكل كلمة يسمعها .

فلما رأى رولاند أمـــامه وهو معفر من الغبار تشاءم بطلعته فقطب حاجبيه وقال له :

ـ من أنت ؟

فأجابه رولاند قائلا :

ـ اني قادم من فينيسيا لأكلمك سراً في بعض الشؤون وأنا أدعى رولاند

كانديانو بن الدوج كانديانو الذي أخذ غيلة وغدراً في حفـــلة كان يعدها وثملت عيناه .

فارتعش الجميع لما سمعوه فان حكاية كانديانو الهائلة كانت قد اشتهرت شهرة عظيمة وكان لها تأثير رعب شديد كما كان ولده الذي ألقي في الآبار ليلة خطبته تأثير رحمة وإشفاق في جميع القلوب .

أما جان مدسيس فقد أجابه قائلاً :

ـ لقد كنت اعتقد انك في السجن .

ـ ولكنهم قد يخرجون ولو كانت تدعى آبار فينيسيا .

ـ إذن انت تريد ان تكلمني ؟

ـ إذا كان ذلك يروق لديك .

ـ إذن استقبلك على الرحب وأدعوك الى مـــائدتي فقد عرفت أباك وعرفت فيه المروءة وكرم الاخلاق ، ولكنه لم يكن كفؤاً لإدارة الشعوب بالحسنى على انه خدم الجمهورية أجلّ الخدمات ويسرني ان أرى ولده بيننا .

وقد أشار اليه عند ذلك ان يجلس بجانبه وناوله كأساً من الخمر فشرب كل منهما نخب الآخر .

حتى إذا تمت هذه المعاملات الأولى انقطع رولاند عن الأكل والشرب وعاد الحاضرين الى سابق لهوهم في تلك الخيمة العظيمة .

وكان جان مدسيس يراقب خلسة ، في خـلال ذلك ، رولاند فيعجب بجماله وقوة عضلاته ويقول في نفسه :

ـ إذا كان يريد الاعتماد عليّ في استرجاع منصب أبيـه فقـد أخطأ فان فوسكاري رجل شديد ولا فائدة لي من عدائه أما إذا كان يريد ان يتولى قيادة فرقة من جيشي عددت نفسي من السعداء .

ثم جعل يسأله أسئلة مختلفة عن حالته في سجنه وعن طريقة إنقـــاذه فكان رولاند يجيبه بملء الإيجاز أجوبة تدل على رجاحة عقل وتوقد وذكاء .

حتى اذا اصدر جان مدسيس اوامره الى الضباط بالانصراف الى خيامهم كان اعجابه شديداً برولاند وكان بنيته ان يقترح عليه الانتظـــام في سلك جيشه .

فلما انصرف الجميع التفت الى رولاند وقال له :

لقد اصبحنا الآن وحدنا فقـل ماذا تريد ان تقول لي واسمح لي في البدء ان اخبرك بأن لديّ كثيراً من المعارك يقتضي لي زمن طويـل لانجازها اي اني لا استطيع ان افيدك بشيء فيما يتعلق بفينيسيا .

فهز رولاند رأسه وهو يبتسم ابتسام احتقار وقال :

اطمئن يا سيدي فاني لا اعتمد في اموري الخاصة إلا على نفسي وعندما دخلت الى السجـــن لم ادخله إلا بمحض ارادتي فـلم يرغمني احـد على الدخول اليه .

ـ اقسم بالله اني معجب بك كل الاعجاب ولا اكتم عنـك بأني أتمنى لو قاتلت بامرتي .

ـ اني لا اخضع إلا لنفسي ومع ذلك اشكرك لحسن ظنك بي .

فذهل جان وقال له :

اذن ماذا تريد .

فأطرق رولاند هنيهة ثم التفت اليه وقال :

جان مدسيس انك من رجال الحرب لا من رجال السياسة وان الشعوب يخافونك لأن لديك جيشاً يطيعك خير طاعة ولأن اعمالك الماضية دلت على ما يمكن ان تكون اعمالك المستقبلة ولذلك وجب ان تبقى عند حد شهرتك وقلبث ذلك الرجل الحربي الملقب بالشيطـان الأكبر فاذا ملت الى السياسة ودخلت في حيلها ومفاسدها وخداعها أضعت تلك الشهرة .

ـ ومن اخبرك بأني اجنح الى الخداع والمفاسد .

هذا الذي يريدون ان يقترحوه عليك .

ـ من هم ؟

فوسكاري دوج فينيسيا وذلك انه يوجد بيني وبين هـذا الرجل عداء لا ينتهي إلا بالموت ولذلك اتيتك كي اسألك التزام الحياد بيننا .

فقال له جان ببرود :

اوضح ما تقول :

فتنبـه رولاند لبروده وخشي ان يكون قد جاء بعد فوات الاوان فبرقت عيناه ببارق وعيد وقال له :

اني موضح لك بملء الصراحة حالتنا ولك الخيار بعـد ذلك بالميل الى الجانب الذي تختاره .

ـ اني مصغ اليك .

ـ ان فوسكاري عذب ابي عذاباً لا يخطر في بال الأبالسة دون ان ترتعد والقاني في ابار فينيسيا ستة اعوام فيجب ان اعاقب هـذا الرجل الفظيع واعوانه في الاثم .

وقد قال هذا القول بلهجة تبين فيها الحقد الهائل حتى ان جان صاح قائلا :

إني لا اريد ان اكون من اعدائك .

قـال ان كل من يساعد اعدائي كان منهم وأنا سأحارب فوسكاري واعوانـه حرباً لا رحمة فيهـا فأما اموت وأما يموتون ولا وسط بين هاتين الحالتين .

اذن فاعلم اني بينما اعمل استمالة شعب فينيسيا إليّ وانتزاع السلطـة من فوسكاري عليهم يهتم بمحالفة الأشداء لمطامع كبيرة يرجو بعد تحقيقها ان يأمن انتقامي واول هؤلاء المحالفين الذين يطمع بمحالفتهم هو انت يا جـان مدسيس .

ـ كيف عرفت ذلك .

أن فوسكاري ارسل اليك سفيراً أتعرفه ؟

— من هو ؟

ارتين الشاعر .

— الشاعر ارتين : اني اعد نفسي سعيداً بلقيـــاه فاني أحب الشعر والشعراء ولا سيما في مجالس الخمر فانهم أرق منها .

— ولكنك لن تراه فقد قبضت عليه ووقفت على سر سفارته فوضعته في محل امين وجئت اليك بدلاً منه .

— انت عملت هذا ؟

— نعم يا جان مدسيس اني فعلته .

— ثم تأتي إليّ وتقول لي بمـــا فعلت الحق انه لا بد لي من الاعتراف بجرانـــك .

— ان الجرأة هي كل ما املك .

— وانت تقول انك عارف بما عهد الى ارتين ان يقوله لي .

— اني اعيد عليك الكلام الذي تلقاه ارتين من فوسكاري ليحمله اليك غير اني اقوله بشكل موجز لا يضيع شيئاً من جوهره .

وخلاصته ان فوسكاري يريد الاستيلاء على ايطاليـــا وجعلها مملكة واحدة وهو يقترح عليك ان يضم جيشه واسطوله الى جيشك فيتمكن بهاتين القوتين من طرد الاجانب وقتل أمانيهم .

حتى اذا تم له ما يريد من اخضاع ايطاليا يجملتها شاركك بالملك عليها فاستولى هو على القسم الشمالي وجعل فينيسيا او ميلانو عاصمة مملكته وانت تستولي على الجنوب فتجعل عاصمة مملكته رومة او نابولي .

هذه هي خطته وهذا مغزى تحالفه معك فماذا تقول :

— واذا أجبتك عما ارتأيه أتتعهد بايصال جوابي الى فوسكاري كما اوصلت إليّ اقتراحه .

ـ دون شك مهما كان هذا الجواب إذ لم يكن اسهل لدى من ان اكتمك اقتراح الدوج .

ـ كلافان الدوج متى استبطأ جوابي ارسل لي سفيراً آخر .

ـ ربمـا ومهما يكن من الأمر فاني سأكون مخلصاً في ارسال الجواب نفس اخلاصي في حمل الاقتراح اي انك تستطيع ان تتكلم بملء الحرية .

ـ ليكن ما تريد فاعلم اذن ان مشروع فوسكاري يعجبني بجملته لأنه مشروع عظيم يخلق بمن كان مثلي تحقيقه ومساعدة الآخرين فيـه ولذلك اقبل مبدئياً هذه المحالفة وهذا كل ما ارغب ان تقوله لفوسكاري .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم فان اتفاقنا الآن مبدئي كما قلت لك اما الاتفاق النهائي فلا يكون إلا بعد اجتماعي به وسأرسل اليه رسولاً فأعين موعد الاجتماع ومكانه وذلك بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأني سأبحث صبـــاح غد في طريقة الهجوم على كوفرنولـــة فيوم للتفكير ويوم للهجوم ويوم للذهب ثم ابعث رسولي الى فوسكاري فلا تسبقه إلا بثلاثة ايام .

وقد قال هذا القول وعليه علائم التفكير فما شكك رولاند انه يحـاول نصب مكيدة ولكنه لم يظهر عليه شيء من الاضطراب .

أما اقتراح فوسكاري فقد اعجب به جان مدسيس أشد الاعجاب بدليل انه كان يقول بصوت متقطع :

رأي بديع .. ما اجل هذا الاقتراح .. انه جدير بي .

فقال له رولاند اذن لقد رضيت بالاقتراح دون تمعن ودون تردد .

ـ لا حاجة إلى التمعن في مثل هذا المشروع فان فائدته طاهرة للعيان .

بقي عليّ ان اذكر بعض ملاحظات .

ـ وهي ملاحظات أتلقاها بالشكر لصدورها منك .

ـ لقد تقدم لي القول انك رجل حربي وان السياسة تنقص من شهرتك الحربية اذا اشتغلت فيها .

ومما لا ريب فيه انك اذا جمعت قوتك الى قـوة فوسكوري تخضع لكما إيطاليا ، وان يكن المشروع غير سهل ، كما يظهر لأول وهلة ، فان فلورنسا وبيرو ماتتوجمهوريتان قويتان ، ولا سيما اذا اتحدتا وتحالفتا ، فانهما تزدادان قـوة .

ومع ذلك فلنفترض انك بعد حرب عشرة أعوام على الاقل تسيل فيها الدماء كالأنهار تمكنت من إخضاع إيطاليا ، ثم لنفترض ايضاً امراً مستحيلاً هو ان البابا وافق على ان تكون ملك الايطاليين وان أوروبا لم تلبي دعوته أيفرض كل ذلك فاذا تم على ما تريد فماذا تصنع بفوسكاري فان حين ينتهي دورك يبدأ دوره وينزل الحرب ويحل محله السياسي فوق ذلك العرش الذي بني بالدماء .

وفوق ذلك فان فينيسيا قد تدافع دفاعاً تخرج فيه ظافرة فانها تعلم ان مستقبلها في البحر لا في الأرض وانها لا مطمع لها بغير السلم والاتجار والفنون فهي ستكون أول المدافعين .

ولكن لنعد الى مسألتنا الأولى فاذا انتصرت فماذا تصنع ؟

قال : اني اذا انتصرت اجعل كرسي مملكتي في نابولي أو في روما نفسها ومن الذي يمنعني ؟

ـ يمنعني شريكك ، يا جان مدسيس ، فاني اعرف فوسكاري حق المعرفان ولا تحسب انه سيكون في إيطاليا ملكان ، بل ملك واحد .

فضرب جان بيده على المائدة ضربة اهتزت لها الأقداح وقال :

ـ انهذا الملك الوحيد سيكون أنا فانفوسكاري سيكون مخلصاً بالكره و بالرضى .

ـ ليكن ما تظنه فقد فرغت من الملاحظات الخاصة بك وبقي عليّ تلك

الملاحظات الخاصة بي ، فقد بينت لك الأسباب التي تدعوني الى الحقد على فوسكاري ، فاذا اصبحت شريكه كنت حائلاً بيني وبين ما أريده له

فاعلم ، يا جان مدسيس، اني اقسم لك بأمي التي ماتت يأساً وبأبي الذي شوهوه ونكلوا به لا يوجد قوة في الوجود تنقذ فوسكاري من قبضة يدي بعد ان قضيت عليه .

ثم وقف وقال :

تمعن في الأمر ، يا جان مدسيس .

فوقف جان أيضاً ، وقال :

أتظن انك تهددني ؟

ـ بل اني اخبرك بما عزمت عليه فانفوسكاري الجريمة وأنا هو الانتقام ولك ان تختار!

ـ لقد اخترت .. ثم صفق بيديه ، وقال :

فاسرع اثنا عشر ضابطاً الى الخيمة ، فقال لهم :

اقبضوا على هذا الرجل ، واحرصوا عليه كل الحرص .

فقال له رولاند :

جان دي مدسيس لقد خيرتك بين الذئب وبين العقاب، ولا يزال الوقت فسيحاً لديك .

فلم يجبه جان مدسيس ، وقال للضباط : اقبضوا عليه .

فقال له رولاند : إذن أنت الذي أردت .

وفيما هو يقول ذلك ، دنا ضابطان منه ووضعا يديهما على كتفيه .

وقد عرف القراء قوة رولاند ، فانه دفعهما بيديه فسقطا يهويان على الأرض ، وأسرع الى باب الخيمة .

فجعل جان عند ذلك يصيح قائلاً :

خيانة .. خيانة .. اقبضوا عليه .

فانقض الضباط عليه .

أما رولاند فانه التصق بجدار الخيمة واسرع الى وضع المائدة بينه وبين مطارديه ، ثم جرد حسامه الطويل وهو يقول :

تذكر يا جان مدسيس اني عرضت عليك اختيار العقاب فابيت إلا ان ينفذ فيك .

٤١

اصطدام العواصف

في وسط قصر امباريا أي في تلك البنـاية الخاصة ببيانكا كانت المحظية وبنتها جالسين تتحدثان ، وقد وضعت بيانكا يدها بين يدي امها وجعلت تحدثها عن رحلتها الى قرية مستر واقامتها مع جوانا ومجيء ساندريجو فجأة.

وقـد تـكلمت قليلاً عن رولاند ، ولكن امها تبينت من كلامها الموجز عنه انها تحترمه إحتراماً عظيماً وتثق به ثقة لا حد لها .

وقد سمعت كلام بنتها الى النهاية دون ان تقاطعها حتى اذا اتمت حديثها قالت لها :

لقد عدت اليّ يا ابنتي وزال عنك الخطر بفضل الله وبفضل ذلك القائد الباسل السنيور ساندريجو .

فقالت لها بيانكا :

ولكنني لم اكن في خطر يا أماه قرب جوانا ، بل ان الخطر عليّ هنـا من ذلك الرجل الذي اختطفني ومن أولئك الرجال الذين لم أر وجوههم ولكن هيأتهم لا تزال منطبعة في مخيلتي .

وكانت تعني بهم بمبو ورجاله ، فقالت لها أمها :

لا تخشي يا ابنتي من هذا الرجل .

فهزت بيانكا رأسها ، وقالت : من يعلم ما يكون منه .

فقالت لها أمها : قلت لك لا تخشي منه فقد مات .

وقد قالت لها ذلك بلهجة تبين فيها الخوف فانها علمت من رولاند نفسه ان بمبو قد مات وانه هو الذي قتله ومن يعلم الآن عند أي حد يقف انتقام رولاند سليماً ، وقد علمت انهم حين حاصروا رولاند في بيت الجزيرة تمكن من الفرار ولكنها كانت موقنة انه سيعود .

وقد ذكرت عند ذلك عراكها مع ليونور وانها هي التي اضطرت الى اخبارها بأمر فراره من السجن فلا شك ان ليونور تهتم الآن بالالتحاق بمن احبته وقد لقيته وحدثته فهاجت احقادها على ليونور وعلمت انها لا تستريح من عنائها إلا بموتها .

وهنا ظهرت على وجهها ملامح التهديد الهائل حتى ان بيانكا ارتعشت له وباتت تخاف أمها ، فقالت لها :

ـ ما بالك يا ابنتاه ؟ وما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟

قالت : لأني افتكر بهذا الرجل الذي حدثتني عنه والذي كنت تخافينه فلا تخشي شيئاً بعد الآن .

وعند ذلك استرسلت بأفكارها الى بمبو ، فقالت في نفسها :

ـ نعم ، انه قد قتل بمبو ، فمن عساه ان يقتل بعده ؟

وفي تلك الساعة دخلت خادمة غرفتها ، فقالت :

يوجد ، يا سيدتي ، رجل يريد ان يراك .

ـ من هذا الرجل ؟

ـ انه لا يقول إسمه .

ـ هل أتى هذا الرجل من قبل الى هنا ؟

ـ لم استطع ان أبين وجهه ، فانه كان يخفيه بردائه .

فخطر لأمباريا ان هذا الرجل رولاند إذ لا يأتي احد اليها متنكراً سواه .

فوقفت واسرعت الى المرآة فجعلت تنظم شعرها وتتجمل .

ولمن هذا التجمل ، وهي تعتقد ان القادم رولاند وكيف تتجمل له وهي تعتقد انها تكرهه بملء جوارحها وانها تحب ساندريجو ، ذلك اللص الذي تريد ان تزوجه بنتها ، فقالت في نفسها .

ـ انه اذا كان رولاند لا يخرج حياً من هنا .

ومع ذلك فانها اخذت تبالغ في التزين والتجمل كأنها تريد ان تطرح نفسها بين ذراعيه حتى تراه وقد نسيت بنتها لاشتغالها عنها بنفسها .

أما بيانكا فانها اضطربت وسألت ذاتها قائلة :

ترى من عسى ان يكون هذا الرجل المتنكر ، فلم يخطر لها انه رولاند بل تمثل لها وجه بمبو الذي لم يكن يخطر في بالها حتى تصاب من رعبها بما يشبة كابوس الحالم .

وكانت الخادمة قد تركت الباب مفتوحاً حين دخولها فرأت بيانكا من خلاله ذلك الرجل الذي استبطأ الخادمة فسار في أثرها ووقف في ذلك الباب ينظر الى بيانكا نظرات تكهربها من الرعب .

فتراجعت مذعورة وصاحت صيحة منكرة .

فالتفتت أمها عند ذلك وصاحت مثل صيحة بنتها قائلة :

من أرى .. بمبو ؟

فانحنى بمبو امامها وقال :

لقد سأمت الانتظار لأني مضطر الى الاسراع بمقابلة بنتك .

وبعد هنيهة كان بمبو واماريا في قاعة لم تكن تستقبل الحظية فيها غير اخصائها فقال لها الكردينال :

ـ لماذا لم تبق هناك مع بيانكا ؟

قالت : اتسألني لماذا فاسمح لي ان اسألك ايضاً لماذا تقدمت حتى بلغت الى حيث تقيم ابنتي

فجلس الكردينال بجانبها وقال لها :

أرى انه يجب ان نتحدث ملياً بأعمالها ، فتفضلي بالإصغاء اليّ يا سيدتي ما زلت تريدين العودة الى الأبحاث .

* * *

يذكر القراء ان ساندريجو أخبر الكردينـــال بأنه عازم على الاقتران ببيانكا وانه يلتمس منه ان يتولى عقد قرانهما .

وقد صعق بمبو لهذا الخبر فأسرع بالقدوم الى قصر امباريا وهو لا يعلم ماذا تريد لاضطرابه

ولكنه حين رسا قاربه عند باب قصرها كان قد وضع الخطـة التي يجب ان ينتهجها .

وقد رأيناه يخبىء وجهه بردائه كي لا يعرفوه ، فان هذا الرجل كان يعرف جميع مداخل القصر ومخارجـه ويعرف الطريق المؤدية فيه الى حيث تقيم بيانكا .

فلم يكد يقيم هنيهة في قاعة الانتظـار حتى هاج شوقه الى رؤية بيانكا ولو قابلته بما كان يتوقعه من ظواهر الرعب .

وكان في نيته ان يكلم بيانكا امام امها ولكن دهشته بجمال الفتاة خلب لبه بحيث ان امباريا حين اخذت بيده وذهبت به الى تلك الغرفة تبعها ممثلاً وهو لا يعلم كيف يسير .

أما امباريا فانها كانت تنظر اليه بانذهال عظيم فلا تصدق انها تراه وتقول في نفسها :

ترى ، أكان يفتخر رولاند بانه قتله ام انه كان يدعى هـــذا الادعاء لمأرب خفي .

وفي الحالتين فقد خفضت منزلته عندها لأنه اضطر إلى الكذب والكذب سلاح الضعفاء .

ولم تجب الكردينال على اقواله الاخيرة بل سألتـه قائلة :

ألعلك كنت جريحاً .

قال : انا جريح ، كلا ايتها العزيزة فليس من يجسر على جرحي إلا في هذا المنزل .

ولكن غيابك .

كنت اتجول في ضواحي فينيسيا .

ـ كيف ذلك ، ألم تجرح في تلك الليلة التي حاولت فيها اختطاف ابنتي. ألم ينتزعها منك رولاند ؟

ـ من الذي روى لك هـذه الحكاية ؟

ـ رولاند نفسه .

ـ إذن لقد رأيته .

وأنت رأيته ايضاً كما يظهر .

أجل فاعلمي إذن اني رأيته وإن حياتنا جميعاً باتت في خطر .

فارتعدت امباريا وقالت اني عارفة بما تقول .

ـ ولكن الذي لا تعرفيه هو انه يجب ان نبالغ بالحذر وأن نتحـــد كل الاتحاد كي نستطيع مقاومته او اتقاء شره فاني لم انج منه اخيراً إلا باعجوبة من السماء ، فاذا وقعت في شركه مرة اخرى فلا مطمع لي بالنجاة .

وقد يسهل عليّ وعلى فوسكاري والتياري المقاومة فاننا رجال ومهما بلغ من بأس رولاند فانه رجل مثلنا وأما انت فانك امرأة ضعيفة مقيمة في قصر معتزل فمن يحميك الآن ؟

وكان يحدثها بهذه الاقوال وهو ينظر الى وجهها فاحصاً فعجب إذ لم يبد عليها شيء من علائم الرعب التي كان يتوقع ان يراهـــا وذلك ان امباريا كانت واثقة من حماية ساندريجو .

فلما رأى بمبو ما كان من سكينتها غير خطته فقال :

وفي كل حال يا سيدتي فان جميع الاحوال تقضي عليـك بان تكوني حليفتي .

فأجابته ببرود قائلة : سأفعل .

فهاج ثائر الكردينال وقال في نفسه : لتضرب الضربة الكبرى ، ثم نظر اليها وقال :

انك قد تجهلين يا سيدتي ما يكون مني إذا قدر لنا ان نكون عدوين .

ـ لماذا نكون عدوين ؟

ـ ذلك ما لا أتمناه ، ولكنه اذا حدثت حوادث قضت عليّ ان اعتبرك عدوة لي ووجب عليّ ان أعد عدتي للدفاع ، وإني مخبرك بماذا افعل .

ـ وانا مصغية اليك .

ـ اذن فاعلمي ان اول ما افعله اني القي في فم الأسد أي في ذلك المكان المعد للوشايات ورقة اعددتها من قبل وهي معي في كل حين .

واني قد استظهرت كلامها بحيث اني استطيع ان اتلوه عليك .

وهنا لا بد من إخبارك بأنه يوجد صديق لي لديه نسخة من هذه الورقة ، فاذا احتجبت عنه ألقى تلك الوشاية في فم الأسد .

أما وقد عرفت ذلك فاعلمي ايضاً انه لا يزال لأسرة كانديانو اصدقاء في مجلس العشرة ، ولا بد لك ان تذكري ايضاً ان رولاند لم يحكم عليه بما حكم إلا حين برهنت للقضاء انه قاتل عشيقتك دافيليا ، أأنت مصغية لما أقول ؟

ـ كل الاصغاء .

ـ إذن لم يبق علي إلا ان اتلو عليك الوشاية التي أعددتها وهي مكتوبة بإنشاء وطني صادق . لا يجب إلا ان تجري العدالة في مجراها ، وهذه هي فاسمعي :

« انا صاحب التوقيع أتشرف بابلاغ مجلس العشرة ان احكامه العالية قد أخطأت في ليلة ٦ حزيران ١٥٠٩ ، فان قاتل النبيل المأسوف عليه لم يكن رولاند كما توهم بل كان امرأة تدعى المبساريا ، وهي لا تزال في فينيسيا في

قصرها الواقع على الترعة الكبرى .

وقد سكت بمبو هنيهة بعد ذلك فرأى الرعب قد ارتسم على وجه امباريا فأتم حديثه فقال :

اني وضعت إسمي في آخر هذه الرسالة ، ولا بد للقضاة ان يسألوني فأؤيد ما كتبته بالقول ولا يشك أحد بصدق كلامي وانا من رجال الله وفي أرقى المناصب الدينية .

وأنت ذكية الفؤاد يا سيدتي ، فلا فائدة من اخبارك عن عاقبة هذه الوشاية ..

فاشتد رعب امباريا ، وتمثلت لها المشنقة حتى جعلت اسنانها تصطك فقالت :

كلا ان ما اسمعه منك ليس حقيقة بل هو حلم مخيف . كلا انك لا تشي بي هذه الوشاية الهائلة . وفوق ذلك فانك بهذه الوشاية تسيء الى نفسك كما تسيء اليّ .

ـ ربما كان ما تقولينه صحيحاً يا سيدتي ، ولذلك تعلمين دون شك ما يقدم عليه العشاق متى تمكن منهم القنوط ... انهم يقدمون على كل خطير ويستقبلون الخجل والعار والموت دون اكتراث ، وأنا من اولئك العشاق ..

إذن ماذا تريد ؟

فوقف بمبو وقال :

لا اريد ان تزوجي بنتك لساندريجو ، فان بيانكا لي .

فصاحت امباريا صيحة يأس وخبأت وجهها بين يديها ، فعندما رفعت رأسها كان بمبو قد توارى عن الانظار .

أما الكردينال فانه انصرف مطمئناً وهو يقول في نفسه .

اني سأمهلها ثلاثة أيام للتفكير ويفعل الرعب البقيـة فاني سأعود بعد ثلاثة أيام وتكون بيانكا لي .

فلما بلغ إلى البـاب وحاول الخروج منه رأى رجلاً خرج من قاعـة الانتظار وعرف انه ساندريجو فنادى أحد الخدم وقال له :

خذ يا بني هذين الدينارين وأجبني .

فأخذ الخادم الدينـارين بلهف وانحنى أمامه بملء الاحترام فقـال له الكردينـال :

أرأيت هذا الرجل الذي كان في قاعة الانتظار ؟

— نعم يا سيدي .

— من هو ؟

— لا أعرف اسمه ولكنه يريد مقابلة السنيورا امباريا .

— أهو الآن عندها .

— دون شك .

— اني امنحك خمسين ديناراً اذا كنت تسهل لي سماع حديثهما .

— خمسين ديناراً ؟

— نعم ألم تعرفني ؟

— ومن لا يعرفك يا مولاي .

— اذن تعال إليّ في هذه الليلة انقدك المال .

— تفضل واتبعني .

فسار الخـادم يتبعه بمبو حتى بلغ الى غرفة ضيقة فوضع الخـادم أصبعه فوق فمه ودله على ستارة كانت تفصل بين هذه الغرفة وبين الغرفة المقيمـة فيها امباريا ثم تركه وانصرف .

فوقف بمبو وراء الستارة وجعل يصغي .

وكانت امباريا قد استقبلت ساندريجو بملء الارتياح بعد حادثتهـا مع بمبو فلما دخل اليها قال لها :

لقد أسرعت بالعودة اليك كما ترين .

قالت وأنا كنت انتظر عودتك بملء الجزع :

ـ قد كنت منهمكاً في ايجاد كاهن يعقد قراننا .

فاصفر وجه امباريا ولو بحث باحث في اعماق قلب هذه المحظية الغريبة الأطوار لرأى فيه بذور البغض والغيرة فانها باتت تحب هذا اللص الآن حتى انها أصبحت تغار من بنتها عليه فقالت له :

لماذا هذا التسرع بالبحث عن كاهن .

ـ لأن لهذه المسألة خطورة عظيمة لديّ ولا سيما مسألة الحفلة إذ لا يوجد من يعرفني في فينيسيا ما خلا زعماء الجواسيس وهم لا يعرفون عني سوى اني من اللصوص ولذلك أردت أن تكون حفلة القران باهرة في أعظم كنيسة وان يتولى عقد قراننا أعظم كاهن .

ـ من هو هذا الكاهن .

ـ الكردينال نفسه فقد رضي أن يبارك عقد قران القائد ساندريو وابنة امباريا .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول الكردينال نفسه .

ـ بمبو ؟ !

ـ هو بعينه .

وعند ذلك ابتسم ابتسام الظافر وقال :

انك تعجبين كيف انهم يعاملونني معاملة لا يعاملون بها غير ابن الدوج فستكون الحفلة في كنيسة سانت مارك فتنار بألف شمعة ويحضر صلاة الاكليل جميع القسس والرهبان وكل نبلاء فينيسيا والقائد العام ورئيس ديوان التفتيش ويعقد القران الكردينال نفسه فماذا تقولين .

ـ بمبو !

ـ نعم فقد تعهد لي بذلك .

– أهو تعهد لك ؟
– في صباح هذا اليوم .
– أكان يعلم اسم خطيبتك ؟
– نعم .

فوضعت امباريا يدها على جبهتها وذكرت مـا قاله لها الكاردينال منذ هنيهة وهو اني لا أريد ان تكون بيانكا زوجة ساندريجو لأنها لي .

فاضطربت في أمرها ولم تعلم كيف تحل هذا اللغز .

ورأى ساندريجو ما كان من اضطرابها وذهولها فقال لها :

– انك تتذهلين لذلك ولكن متى علمت ان بمبو مدين لي بالحيـــاة بطل انذهالك .

وعند ذلك اخبرها بإيجاز كيف انه انقذه من مغاور بيافا فأيقنت امباريا ان بمبو قد تقيد حقيقة بهذا الوعـــد ولكنه يضمر الشر في السر لمنقذه فاضطربت في أمرها ولم تعلم إذا كان يجب في هذه الحالة إنذار ساندريجو الى ان رأت ان لا بد من إخباره والاتفاق معه على مقاومة الكاردينال .

ولكنها لو أنبح لها النصر على الكاردينال بعد هـذا الاتفاق فما تكون النتيجة .. انها تكون زواج ساندريجو بابنتها فوازنت عند ذلك بين حالتيها فتمثلت لها المشنقة وتلك الحفلة الباهرة في كنيسة سانت مارك فلم تجد حلاً لهذه المشكلة إلا بإطالة الوقت كي تتمعن في امرها علها تجد مخرجاً من هذه المضايق الحرجة .

وعند ذلك أخذت تنادم ساندريجو وتغازله حتى فتنته فخرج بعد حين وهو يقول في نفسه .

ترى من هي التي أحبها أهي الام أم البنت

وكان بمبو وراء الستارة كما تقدم فرأى كل ما حدث وسمـع كل ما دار بينهما .

فلما خرج ساندريجو زاح الستارة ودخل لفوره الى امباريا وهي لا تزال محلولة الشعر فذعرت ذعراً عظيما ولم تفه بكلمة فقال لها بمبو .

لقد وقفت الان على سرك فانك تحبين ساريجو وتزاحمين بنتك فيه ولا تفتكرين الا ان يكون هذا الرجل لك وحدك اليس كذلك .

فتمتمت امباريا قائلة : هو ذاك .

قال : اذا كان ذلك فقد وجدت الحق الموافق.

ـ انت

ـ نعم فاعتبري ان كل ما قلناه كان لغواً وانسى وعيدي السابق ولنبق صديقين اترين .

ـ نعم .

ـ او على ذلك يكون ساندريجو لك وبيانكا لي .

فارتعدت امباريا ولكنها قالت بصوت يتلعثم: نعم .

ـ اذن فاطمأني ولا تقلقي بعد الآن فان بنتك في وقت قريب لا تكون حائلا بينك وبين من تحبين .

فتنازعت قلبها عوامل الأمومة وعوامل الغرام الى ان انتصر عامل الحب على ذلك القلب الفاسد فقالت :

ـ نعم لقد رضيت .

فخرج بمبو عند ذلك سكران بخمرة الرجاء كما خرج ساندريجو من قبله سكران بخمرة الحب وهو لا يعلم الى اية المرأتين يميل .

٤٢

اسوار كوفرنولو

لقد تركنا رولاند في خيمة الشيطان الأكبر وقد جذب المائدة اليـــه فكانت حائلا بينه وبين اعدائه وامتشق حسامه بينما كان جان مدسيس يصيح قائلا :

ـــ خيانة .. خيانة .. إلي .

وقد بلغ صوته الى الجنود وجرد رولاند حسامه الطويل وجعل يدافع به عن نفسه فقتل ثلاثة من الذين تجرأوا على الصعود الى المائدة .

وكان يقاتل بيده اليمنى ويده اليسرى وراء ظهره مسندة الي قماش الخيمة وجان مدسيس يصيح باعوانه قائلا :

ـــ اقتلوه اقتلوه .

فهجم عليه نحو عشرين رجلا فصاح بعضهم قائلين : لقد سقط .

وقال آخرون : لقد لقي عقابه .

وصاح الشيطان الأكبر قائلا : بل انه نجا ادركوه ، اقتلوه .

وقد أشار الى الجنود بيد تضطرب الى خرق قماش الخيمة .

ذلك ان رولاند بينما كان يقاتلهم بحسامه جرد خنجره بيده اليسرى ومزق به قماش الخيمة حتى اذا رأى الجنود تكاثروا عليـــه وأرادوا ان يبطشوا بـــه مرق من ذلك الخرق الذي فتحه مروق السهم وتوارى عن الابصار .

وقد جاء في اثره نحو مائة جندي ولكن ابحاثهم ذهبت عبثاً فعـادوا

الى قائدهم خائبين وكاد جان مدسيس ان يجن من غضبه فلم تبق كلمة من قاموس الشتائم حتى لفظها وهو يرغي ويزبد كفحول الجمال .

حتى إذا قنطوا من العثور بـه نام في خيمته ونهض عنـد الفجر فامتطى جواده وسار مـع بعض قواده الى كوفرنولو التي كانت أسوارها تبعـد عن معسكره نصف مرحلة .

وقد أسف أسفاً شديداً لفرار رولاند وارسل في أثره الجنـــود الى كل الجهات فلما عادوا اليه بالخيبة هز رأسه وقال :

— ان رولاند كانديانو تهددني واهانني إهانة لا تغتفر إلا بالموت على انني سأجده ومتى ظفرت به عاقبته بما عوقب به أبوه .

وعند ذلك انصرف الى مراقبة الأسوار وقد عزم عزمـــاً اكيداً على مهاجمتها في الغد او في اليوم الذي يليه .

على ان الحادثة التي جرت له مـــع رولاند هاجت عزيمته وعوّل على مهاجمة الاسوار في القريب العاجل لا سيما وان اقتراح فوسكاري قد يثني عقله فرأى ان يفتح هذه المدينة ثم يبدأ بتنفيذ ذلـــك الاقتراح بان يرسل الى فوسكاري فيخبره انه راض مبدئياً بالاقتراح ويسأله تعيين يوم ومكان الاجتماع.

فلما استقر رأيه على ذلك لم يعد يفكر إلا بإحراز النصر في هجومه.

وقد افتقد تلـــك الأسوار وفحصها فحص العارف الخبير فأيقن من إحراز النصر .

وفيما هو يراقب تلـك الأسوار ولم يكن يصحبه غـير إثنين من ضباطه تساقط عليهما الرصاص فأصيب احد الضابطين برصاصة قاتلة وجرح الآخر جرحاً بالغـــاً وأصيب جواد جان مدسيس برصاصة فقتلته فوثب عنه الى الأرض قبل سقوطه .

وعند ذلك التفت الى مـا حواليه فرأى رجلاً قد خرج من بين الادغال وقال له :

– جان مدسيس انـه لا يزال لديّ غـدارة وخنجر وانت لديك مثلي فلنتبارز إذا أحببت .

فصاح جان صيحة فرح حين علم ان هذا الرجل كان رولاند .

وهجم على رولاند واطلق عليه غدارته فأخطـأه وأطلق عليه رولاند فأصابه فسقط ذلك الرجل الحربي يتخبط بدمائه ثم أطبق عينيه .

فدنا رولاند منه وتمعن في وجهه فقال :

– انه لم يمت بعد ولكنه سيموت قريباً .

وعند ذلك فتح جان عينيه فقـال له رولاند :

– هل استطيع ان افيدك بشيء ؟

قال : اذهب لا أرجعك الله فلا اريد منك شيئاً .

قال : انك يا جان قد أردت عدائي في حين اني لم أكن أريد إلا ولاءك وبرهنت لك عن صدقي في هذا الولاء .

وقد خيرتك بين الجريمة والعقاب فاخترت الجريمة بحيث لم أجد بداً من تنفيذ العقاب وهكذا سأعاقب اصحاب اعدائي .

قال : إذا كان ذلك فما أبقيت لأعدائك .

قال : ان هؤلاء لا أريد ان أضربهم أمـا انت فاعلم اني قتلتك دون ان أكون حاقداً عليك لأنك كنت حائلاً بيني وبين اعدائي .

وعلى ذلك فاني أعيد عليك ما قلته وهو :

– أتريد ان افيدك بشيء واعلم يقيناً اني امتثل لكل ما توصيني به بملء الاخلاص .

فضحك جان ضحكاً عصبياً ذهب بحياته واطبق عينيه .

وبعد ذلك بربع ساعة علم المحصورون في تلك المدينة بوفاة عدوهم الكبير فقرعوا اجراس الكنائس وعلا هتافهم حتى بلغ عنان السماء ثم حملوه ودخلوا به الى المدينة فطافوا به الأسواق فرحين مستبشرين وهكذا كان دخول ذلك الفاتح الى قلعة كوفرنولو .

٤٣

رسالة من ارتين

كان بمبو وفوسكاري جالسين في سراي الحاكم يتحدثان بصوت منخفض .

وكان ذلك في صباح يوم بارد من أيام الشتاء بعد الحوادث التي ذكرناها في الفصول السابقة بعدة أيام .

وقد بدأ الدوج الحديث فقال : هوذا اسبوعين قد مضيا دون ان يعود ارتين قال اني أمرّ كل يوم فأسأل عنه ولم يرد منه شيء الى الآن .

— ولكن جان مدسيس غير بعيد الآن عنا فهو في مونتو وكان يجب على رسولنا ان يعود منذ اسبوع .

— هو ذاك ولكن يقـــال ان الثلوج تساقطت بغزارة في السهول وقد تكون سدت المنافذ .

— انظر الى هذه الأخشاب التي تحترق في الموقد يا بمبو فقد كانت شجرة راسخة الاركان فباتت الآن اخشاباً تحترق .

— دع هذه التصورات ايها الدوج العزيز فان سلطتك لا يتهددها احد .

فارتعش فوسكاري وقال: أأنت رأيت ايضاً ما رأيته من معنى احتراق هذه الأخشاب ؟

— كلا ، بـــل اني ترجمت فكرك ويسؤني ان أراك حزين النفس ضيق الصدر في حين ان كل شيء في هذا الوجود يبسم لك .

فنهض الدوج وسار الى النافذة ثم أشار الى بمبو ان يدنو منه فقال له : ماذا ترى من هذه النافذة ؟

فقال بمبو : أرى مدينة عامرة ملؤها الجلال والمجد تناطح بقصورها السحاب وتضيء مصابيح قواربها في بحيراتها الزرقاء كما تضيء النجوم في السماء ، وأرى ذلك الاسطول الضخم راسماً بقربها رسو الجبال فأقول في نفسي ان كل هذا لك ، ثم أرى اولئك الجنود الذين يسيرون الآن بتمام الانتظام إذا جاء دور حراستهم فأقول انهم لم يعينوا إلا لخدمتك .

فتنهد فوسكاري وقال : أما الذي أراه أنا من هذه النافذة فهو ذلك الجسر الهائل جسر التنهدات فاني ما وقفت مرة في هذه النافذة إلا اتجهت عيناي بالرغم عني فاذا رأيت اولئك البحارة يسيرون في قواربهم ويلتفتون الى شرفات القصر اقول انهم يصبون عليّ لعناتهم ، وإذا رأيت الجنود قادمون للحراسة اقول انهم قادمون للقبض عليّ ، فان الناس يعتقدون يا بمبو اني ملأت فينيسيا ظلماً وقد غصت السجون بهم حتى اني بتُّ اسمع تنهداتهم عن بعيد .

ألم أقبض على كانديانو وهو في نضارة مجده وكان ما تعرفه من عقابه فلا يمنع ان يقبضوا عليّ كما قبضت عليه .

— هذا الرعب يا سيدي فاني لا أجد مساغاً له .

— ذلك لأنك لا تريد ان ترى فان الدم يدعو الدم وقد قلت لك ان رولاند كانديانو يرود حولي حاملاً سيف القضاء ولا بد ان ينفذ بي هذا القضاء .

— ان رولاند لا يلبث ان يقع في قبضتنا .

— ولكنه الآن حرّ وانت تقول يا بمبو انه لا مساغ لرعبي ولكني أرى منذ حين من نظرات الضباط الحدقين بي ما يرعبني .

— لماذا لا تقبض عليهم ؟

— واني كنت أرى في الحفلات التي أعدهـا كثيرين من النبلاء يتكلمون حولي همساً .

— لماذا لا يزال هؤلاء النبلاء في قيد الحياة ؟

— صبراً يا بمبو الى ان تمتلىء هذه الورقة التي أمامي من اسمائهم فانها كل يوم تزيد وسأضرب ضربة هائلة أدع فينيسيا خافضة الرأس عشرين عاماً .

ولكن لا بد لي قبل ذلك من أمرين احدهما القبض على رولاند فاني لا أزال أخافه ما زالت هذه العصابات تحت قيادته .

والثاني ان يقبل جان مدسيس محالفتي وعند ذلك تعلم مقدار قوتي ولا سيما حين يصبح جيش الشيطان الأكبر تحت أمرتي .

أعرفت الآن قدر جزعي بتأخر ارتين الشاعر عن الرجوع ؟

وعند ذلك دخل خادم وهو يحمل رسالة على صينية من الفضة وقال :

— ان بيار ارتين أرسل هذه الرسالة الى مولاي الدوج وهو لا يستطيع الحضور بنفسه لأنه طريح الفراش .

فأخذ الدوج الرسالة وانصرف الخادم .

فلم يكد فوسكاري يقرأ السطور الأولى حتى صاح صيحة يأس فاصفر وجهه وسقطت الرسالة من يده .

فألتقطها بمبو وقرأ هو ايضاً تلك السطور الأولى كما يأتي :

« الى مولاي الشهير العظيم حاكم جمهورية فينيسيا »

« مولاي »

« التمس من سموكم معذرتي فان ما سأقوله هائل حتى اني لا أكاد أجسر على قوله .

« فقد لقيت من الحزن في هذه السفارة ما أنهك قواي وهذا النبأ المحزن الهائل اقوله بكلمة وهي :

« ان جان مدسيس الشهير » .

فقال بمبو بلهجة قنوط ايضاً :

– أمات جان مدسيس ؟

قال : نعم وهذه هي الضربة القاضية عليّ فاقرأ كل الرسالة فاني أحب ان أقف على كل شيء فقرأ بمبو ما يأتي :

« ان جان مدسيس الشهير قد مات هذا الرجل الذي كنت عاقداً عليه كل آمالي بين ذراعي فقد أصيب صباح الثلاثاء حين اقترابه من أسوار كوفرنولو بضربة خنجر وقيل انه أصيب برصاصة غدارة كانت القاضية عليه وكان يصحبه ضابطان فقتلا قبله .

وكان قاتله رجل غريب عن كوفرنولو لا يعرفه احد ولكن كثيرين قالوا انه من أهل فينيسيا وأكد بعضهم ان هذا الرجل الفينيسي هو ابن دوج فينيسيا السابق » .

فابتسم فوسكاري ابتسام القنوط وقال :

– رولاند كانديانو .

فقال بمبو : هذا الذي كتب في لوح المقدور .

قال : تمم قراءة الرسالة فقرأ بمبو ما يأتي :

« انه حين أصيب هذه الاصابة اضطرب نظام جيشه وكان الحزن عليه لا يوصف فسار ضباطه وجنوده الى كوفرنولو وهم يبكون وعادوا بقائدهم الأكبر الى معسكرهم ثم حملوه معهم الى قصره في مانتو وهناك دنوت منه وقلت له :

– مولاي انه لا بد لك من إجراء عملية جراحية في رجلك فتشفي بعد ثمانية ايام ونعم انه يبقى أثرها ولكنه أثر شريف وان كنت غير محتاج الى هذا الشرف » .

قال : حسناً فليحضر الاطباء .

وعند ذلك أقبل الاطباء وأعوانهم واصطفوا حوله وهناك لقيت منه ما لا يخطر في بال انسان .

فانه كان يحمل المصباح بيده بينما كان الاطباء يقطعون رجله .

وقد هربت كي لا أرى هذا المنظر ولكني لم ألبث بعد هنيهة ان سمعته يدعوني اليه فدخلت فرأيت ضباطه من حوله آسفين ورأيته قد أخذ رجله المقطوعة فجعل يلاعبها بيديه ويهزأ بنا .

ولكنه بعد ساعتين عاوده الألم الشديد وهذيان الحمى فأسرعت اليه وسمعته يكرر هذا القول :

« لماذا اخترت الجريمة على العقاب ، رباه هذا هو القاضي الأكبر قد حضر » .

فاضطرب فوسكاري وقال ، القاضي الأكبر .

فقال بمبو : ذلك ما اقرأه في الرسالة .

ـ حسناً اتم قراءتك فقرأ بمبو ما يأتي :

وعند الصباح عاد اليه رشده فكتب وصيته وبعد ذلك حاول ان يتكلم بشأن المعارك والحروب ولكنه لم يستطع فان الموت عقد لسانه ومات مأسوفاً عليه .

وكانت بقية الرسالة تتضمن تفاصيل ذلك الموت مما لا حاجة الى بيانه فلما أتم بمبو تلاوتها اطرق مفكراً فلم ينتبه لا لفوسكاري وهو يردد هذا القول :

ـ يا للمصاب انها داهية دهماء فقال له :

ـ مولاي ما هذا الجزع فاني رأيتك صبوراً في أشد من هذه الملمات .

قال : ذلك لأن الكوارث وحدها كانت تنذرني .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

فوقف فوسكاري وجعل يجول في الغرفة ويردد قول جان مدسيس

هوذا القاضي الأكبر ، الا ترى يا بمبو شيئاً من الغرابة في ان يقتل رولاند كانديانو جان دي مدسيس ؟

ـ ولكن ذلك لم يثبت كل الثبوت .

ـ بل هو ثابت كل الثبوت .

ـ غير ان رولاند لم يكن له ادني اتصال بجان مدسيس وقد كان في فينيسيا منذ اسبوعين وهو شريد طريد فكيف يتفق وجوده في معسكر مدسيس واذا اتفق ذلك فلماذا خطر له ان يقتله ؟

ـ لماذا الا ترى ان هذا الرجل وقف على نياتي.. اني لا أعلم كيف عرف ذلك ولكني موقن انه عارف بمقاصدي وهو انما قتله لأنه يعلم بانه قد ينقذني

فنهض بمبو وقال :

ـ يجب ان اعرف الحقيقة بتمامها وأنا ذاهب الآن تواً الى ارتين الشاعر وبعد ساعة اعلم ما يجب علمه .

ـ اذهب وعد في القريب العاجل .

فخرج بمبو مسرعاً وبقي فوسكاري وهو في اشد حالات الرعب .

* * *

قبل ان يرد كتاب ارتين بثلاث ساعات دخل رجل الى منزل هـذا الشاعر فسأل عنه فقيل انه مسافر .

قال : حسناً فادخل اليه في غرفة اعماله وقل له اني آت من قبل الشيطان الاكبر .

فلم يسع الخادم الا الامتثال وبعد هنيهة عاد الى الرجل فادخله الى ارتين.

فلما رأى ارتين رولاند داخلا اليه فرح فرحاً عظيما وقال له : الحق اني بدأت ان امل هذا الأسر .

قال : ألم يعلم أحد انك بقيت في فينيسيا ؟

ـ كلا

ـ ألم تخرج من المنزل مرة ؟

ـ لا في الليل ولا في النهار

ـ والمقيمون معك في المنزل ؟

ـ كانوا جميعهم يحسبون اني مسافر حتى نسائي مـــا خلا الخادم الذي ادخلك الي .

ـ حسناً فعلت .

وعند ذلك جلس رولاند وهو مطرق فقال له ارتين :

اتأذن لي بأن اسألك ؟

ـ سل ما تشاء .

ـ أرأيت جان مدسيس ؟

ـ رأيته .

ـ أحدثته ؟

ـ نعم.

ـ بمهمتي ؟

ـ بمهمتك .

ـ ماذا قال ؟ ماذا فعل ؟

ـ انك جالس قرب مائدة الكتاب فاكتب ما امليه عليك تعلم الحقيقة

ـ الى من تريد ان اكتب ؟

ـ الى الدوج فوسكاري .

ـ الى الدوج ؟

ـ لماذا الى الانذهال ألا يجب ان تخبره بما فعلت في سفارتك ؟

ـ لماذا لا اذهب اليه ؟

ـ لأنك مريض طريح الفراش ولأنه يستحيل عليك ان تبرح الفراش .

ـ اني لا افهم ما تقول .

ـ سوف تفهم ولكن قبل كل شيء يجب ان يعلم المقيمون في منزلك انك أتيت اليه سراً في الليل وانه يجب ان يعلموا بقدومك من بكائك وتألمك .

ـ بكائي وتألمي ؟

ـ نعم فاكتب الآن فاني املي عليك المعاني وانت تلبسها ذلك اللباس الجميل من اللفظ .

فأخذ ارتين القلم وتهيأ للكتابة فقال له رولاند:

ـ ولكني أريد ان تحرص على كل كلمة قالها جان مدسيس حين نزعه .

فوثب ارتين من مكانه وقد اصفر وجهه .

ـ ماذا تقول يا سيدي ؟

ـ اقول ان جان مدسيس مات قتيلاً .

ـ جان مدسيس قتيل العلى حالم .

ـ نعم وأنا الذي قتلته .

فسالت دموع الشاعر ورأى رولاند انه مخلص في حزنه صادق في دموعه وجعل ينظر اليه نظرات اشفاق .

وبعد ساعة جفت دموعه ولكنه شعر بانحطاط عظيم فقال له :

ـ لم يبق حاجة الى الكذب فاني مريض حقيقة وسأكتب ما تمليه علي ثم أعود الى فراشي ولكن لماذا قتلت هذا الرجل واية اساءة اساءها اليك ؟

قال : انـــه لم يسيء إلي بشيء ولكنه حاول ان يوقف مجرى العدالة فسحقته تلك العدالة .

فلم يجبه على ذلك وقال له : اني مستعد للكتابة فتفضل باملاء ما تريد فاملى عليه رولاند ذلك الكتاب الذي قرأه فوسكاري وبيو .

وبعد ان أتم كتابه نادى الخادم الذي يثق به وأمره ان يسرع بايصال الرسالة الى الدوج .

فأخذ الخادم الرسالة وتوارى عن الانظار .

وعند ذلك قال له رولاند :

ـ ان الدوج سوف يرسل اليك من يسألك .

ـ تظن ذلك ؟

ـ بل اني واثق منه وربما جاء بنفسه .

ـ لقد احسنت بأخبارك اياي فاني سأنام في قاعة الشرف ولكن ماذا يجب ان اقول للدوج حين حضوره .

ـ تعيد ما كتبته اليه وتضيف الى ذلك قولك ، انه في ليلة الوفاة رأى الضباط رجلاً قدم الى المعسكر كلهم يتحدثون به .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ رولاند كانديانو

ويذكر القراء ان رولاند لم يعرف ارتين بنفسه الا الآن فمضى في حديثه فقال ان رولاند كانديانو جاء الى معسكر الشيطان الأكبر وطلب مقابلته وهناك خاصمه ودعاه الى مبارزة لا تنتهي الا بالموت دون ان يعلم احد اسباب هذه المبارزة .

هذا الذي يجب ان تقوله للدوج اذا زارك او لمن يرسله .

والآن فاعلم ان هذه المقالة تهمني كثيراً ولذلك اريد احضرها دون ان يراني أحد .

قال : اذن ادخل الى هذه الغرفة المجاورة فليس بينها وبين هذه الغرفة غير حائط رقيق من الخشب .

وبعد هنيهة جعل الشاعر يبكي ويتوجع حتى تنبه له نساؤه واسرعن اليه وهن لا يعلمن انه قد عاد فجعلن يواسينه ويسلينه .

وما زلن على ذلك حتى دخل احد الخدم وقال :

ـ ان سيدي الكردينال في غرفة الاستقبال .

فأمر أرتين عند ذلك جميع نسائه بالانصراف ودخل الكاردينال في أثر انصرافهن .

وكان رولاند قـــد سمع الخادم يلفظ اسم الكاردينال فاصفر وجهه من الغضب واشتد قلقه فقال في نفسه :

— ترى ماذا حدث وكيف جاء الى فينيسيا وزار ارتين الشاعر وأنا قد تركته مقيداً في المغارة السوداء ؟

أما بمبو فانه جلس على كرسي قرب سرير ارتين وقال له :

— لقـد كنت في سراي الدوج حين وصلته رسالتـك فأرسلني اليك كي اسألك عن بعض أمور بشأن هذه الرسالة .

— انت ترى أيها الصديق اني مريض من هذا الحادث الأليم .

— إذن هو أكيد ؟

— دون شك واأسفاه .

— أرأيت بنفسك ان الشيطان الأكبر قد مات ؟

— لو لم أتأكد موته كنت اكتب للدوج ؟

— انها نكبة فادحة .

— عليّ ايها الصديق ؟

— بل على الجميع .

فأطرق بمبو مفكراً مهموماً ولم يكن همه لوفاة جان مدسيس بل لأن رولاند قتله فقال له :

— اخبرني ايها الصديق بتفاصيل هذه الوفاة .

فاندفع الشاعر يصف له ما كتبه في الرسالة حتى إذا أتم كلامه قـال له الكاردينال :

— هذا الذي اريد ان اعلمه منك فقد قرأتـه في رسالتك ولكن خفي عليّ بعض أمور في تلك الرسالة أحب ان افهمها منـك .

— سل ما تشاء .

— لم تقل لجان مدسيس شيئاً بشأن المهمة التي انتدبناك فيها ؟

— كلا .. فقد أتيت بعد فوات الأوان .

— إذن لقد مات دون ان يعلم السبب في زيارتك ؟

— نعم .

— فيستنتج من ذلك انه هو نفسه لم يستطع ان يقول كلمة لأحد قبل موته عن مقاصد فوسكاري .

— هذا لا ريب فيه .

— إذن لنبحث في شأن آخر أي في شأن قاتل الشيطان الأكبر .

— سل ما تشاء .

— إن قاتله كان دون شك جندياً من جنود الاعداء ؟

— كلا .. فاني أعيد على مسمعك ما كتبته الى الدوج وهو انهم كانوا يجهلون في المعسكر هذا القاتل وأما في كوفرنولو فهم يؤكدون ان قاتله كان ابن دوج .

— اذكر اسم القاتل .

— نعم لقد أكد بعض الضباط انه ذلك الرجل الذي استقبله في خيمته ليلة وفاته وجرى بينهما حديث أدى الى الخصام .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— رولاند كانديانو .

فارتعش بمبو كأنه لم يكن يتوقع ان يسمع هذا الاسم وبدت عليه علائم الرعب ولكنه رأى ارتين ينظر اليه فخجل وقال :

— قل لي الآن ايها الصديق ألم تخبر احداً بمهمتك قبل سفرك ؟

فتردد ارتين لحظة وقال : كلا .

غير ان الكاردينال انتبه لتردده فدنا منه وقال :

ـ ويح لك ايها الشقي انك بحت بالسر .

ـ معاذ الله ان افعل واني أقسم لك على صدقي فيما أقول .

فأخذ الكاردينال يده فهزها وقال :

ـ أتعلم من كان سكرتيرك ؟

ـ أي سكرتير تعني ألعلك جننت .

ـ ذلك السكرتير الذي طالما سألتك عنه فلم تعرف شيئاً من أمره حتى انك كنت تجهل اسمه أتعرف من هو ؟

ـ أقسم بشعر مرغريتا اني لا اعرفه .

ـ أين هو وماذا جرى له ؟

ـ إنه اختفى ليلة سفري .

ـ إذن فاعلم ايها المجنون ان هذا السكرتير يدعى رولاند كانديانو .

ـ أية غرابة تجد في ذلك إذا كان أكيداً وبماذا يستطيع ان يسيء إليّ وماذا تهمني اعمال هذا الرجل وهو قد سافر ولا فرق عندي بين ان يعود او لا يعود ؟

والذي يهمني في كل ذلـــك اني خسرت جان مدسيس وخسرت الفين وخمسمائة ريال كنت ارجو ان اقبضهـا عند رجوعي .

ـ اصغ إليّ يا ارتين أتريد ان تقبض هذا المبلغ الذي حسبت انك فقدته ؟

ـ كيف لا أريد ؟

ـ بل أتريد ان تقبضه مضاعفاً مرة بل مرتين ؟

ـ ماذا يجب ان افعل مقابل ذلك ؟

ـ لا شيء تقريباً فقد قلت ان سكرتيرك رولاند قد يعود .

ـ ربما فهو الذي قال لي هذا القول .

ـ إذن كل ما يطلب منك هو ان تحسن استقباله حين عودته وتحمله على البقاء معك ساعة او ساعتين .

ـ ليس ذلك صعب .

ـ وعند حضوره توسل الى من يخبرني ولا أخالك تتردد .

ـ كلا .. فاني ما عرفت هذا الرجل ولا أريد ان اعرفه ولا فرق عندي بين ان تقتلوه او تعفوا عنه ولذلك ارسل اليك من يخبرك حين قدومه .

ـ وفي اليوم نفسه تقبض عشرة آلاف ريال وإذا أردت فاذهب الآن الى الخزينة واقبض الف ريال .

ـ كيف ذلك ألعل الخزينة بيدك ؟

ـ نعم وسأغنيك ايها الصديق بشرط ان تخدمنا هذه الخدمة الجليلة .

ـ إذن اعتمد عليّ .

فودعه الكاردينال عند ذلك وذهب توّاً الى الدوج فقال له الدوج : ماذا علمت أعرفت قاتل مدسيس ؟

ـ انك لم تكن مخطئاً يا مولاي .

فاصفر وجه فوسكاري وقال :

ـ إذن هو رولاند كانديانو ؟

ـ هو بعينه ولكني عرفت من ارتين أمراً آخر يصلح كل مـا افسده رولاند .

ـ أسرع وقل ماذا علمت ؟

ـ علمت ان رولاند سوف يكون قريباً في قبضتنا .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك ان لرولاند علائق بأرتين .

ـ ماذا يرجو من علاقته بهذا الشاعر ؟

ـ لا أدري وكل الذي اعلمه ان لرولاند علائق بأرتين وانه قد يعود اليه .

ـ وعند ذلك ؟

ـ نقبض عليه .

فهز فوسكاري رأسه وقال :

ـ انك واهم يا بمبو فاننا لا نقبض على رولاند وقلبي يحدثني بأنه سيقبض علينا وحسبك دليلاً على ان الأقدار قد باتت علينا لا لنا قتل .. قتل جان مدسيس وان قاتله هو رولاند .

فأجابه بمبو بلهجة تبينت فيها السكينة . :

ـ ما حسبت انك فشلت إلا لأنك استرسلت الى حديث النفس وتشاءمت من بعض الحوادث على انك لو دافعت لنجوت وحالتنا الآن بسيطة لا تحتاج الى الإمعان إذ هي موقوفة علي الجرأة فاذا بدأت بمهاجمة عدوك كنت الفائز عليه لا محالة وإذا صبرت كان الفوز له فتدبر .

ـ ماذا أعمل يا بمبو انك مستشاري الوحيد الذي أثق بصدق اخلاصه فبماذا تشير عليّ فانك ما زلت قائدي في مهام الأمور .

ـ ذلك لأني متعلق بك فلا بد لي ان اتبعك في حالتي هنائك وشقائك .

وانك تكلمني عن الاخلاص والوداد وهما كلمتان لا أفهم لهما معنى فان عظمتك خير ضامن لي وأنا لا اعتد إلا بالقوة والإرادة ولذلك وثقت بي كما أثق بك لأننا باتحادنا نؤلف قوة وأنا على اليقين اني لو تخليت عنك كنت في خطر وكذلك لو تخليت عني فلا آمن على نفسي إذن لنتفق ولنبحث فيما يجب ان نعمله على قاعدة هذا المبدأ .

ـ نعم يا بمبو اني على مبدئك ولي بك ملء الثقة فأسر عليّ ما يجب ان افعله .

قال : ان الأمر بسيط يا سيدي .

ثم نهض الى المائدة التي كانت عليها تلك القائمة المبينة فيها اسماء الموشى بهم فاكتفى بالإشارة اليها .

فقال الدوج وقد أدرك قصده :

ـ ولكن ذلك يقضي الى ثورة ؟

ـ اني عالم ذلك يا سيدي ولكنك متى اتخذت وسائل الاحتياط أمنت الثورة فهل انت واثق من الجنود ؟

ـ نعم فان التياري مخلص لي .

ـ ذلك غير عجيب منه فانه هو ايضاً لم يقر إلا بفوزك فاعلم إذن ماذا يجب ان نفعل .

انه يجب منذ اليوم ان تدعو التياري وتتفق وإياه على سجن المشتبه بهم ويجدر في هذا المقام ان يعرف دندولو جلية الأمر كي يسير غور مجلس العشرة ويقف على نواياهم فاذا وجدنا بينهم من يتردد وجب علينا ان نبدأ بهم .

فاستحسن الدوج هذا الرأي وكتب لفوره رسالتين إحداهما الى التياري والأخرى لدندولو ثم أرسلهما اليهما .

وعند ذلك نهض بمبو يحاول الانصراف فودعه الدوج ولما بلغ معه الى الباب قال له :

ـ ورولاند ؟

قال : اني اتعهد به .

٤٤

المطاردة

كان بمبو يعرف طباع فوسكاري حق العرفان ولذلك غادره في الحالة الفكرية التي أراد ان يضعه فيها وانصرف عنه وهو يفكر برد تحيات الناس على الجانبين ويباركهم بيده الطاهرة .

حتى إذا سار بضع خطوات لقي امرأة يحيط بها اولادها وقد اعترضت الكاردينال بطريقه وركعت أمامه وضمت يديها شأن المتوسل .

فقال لها : ماذا تريدين ايتها المرأة ؟

قالت : انهم قبضوا على زوجي في هذه الليلة وسنموت جوعاً وليس لنا معين غيره .

ـ ماذا جنى زوجك ؟

ـ وماذا عسى يجنيه يا مولاي فهو رجل لا يفتكر إلا بأشغاله التي يكسب منها قوت بنيه فيخرج عند الفجر ويعود الينا عند غروب الشمس يا مولاي وقد أتيت كي التمس إطلاق سبيله فان كلمة منك تنقذنا .

وكانت مثل هذه الحادثة تتفق لبمبو في كل يوم فيهز كتفيه ويقابل من يتصدى له بالاعتراض .

وقد حاول هذه المرة ان ينهج مع هـذه المرأة ذلـك النهج الذي تعوده ولكنه نظر الى ما حواليه فرأى كثيرين من الناس قـد وقفوا ينظرون الى المرأة وبنيها نظرات إشفاق وينظرون اليه نظرات رجاء فخطر له خاطر فجائي ونظر الى المرأة الراكعة أمـــامه تبكي نظرة المشفق وقال بصوت المتوجع :

ـ مسكينة هذه المرأة واولادها ثم قال لها:

ـ أتقسمين لي ان زوجك لم يرتكب جناية ؟

قالت : أقسم بالله يا مولاي انه بريء من كل ما يمكن ان يتهم به فما هو من أهل الشر ولكن هي وشايات المفسدين .

قال : انهضي ايتها المرأة فان زوجك يطلق سراحه اليوم فاننا عائشون في ظلال العدالة بفضل فوسكاري العادل .

فصاحت المرأة وصاح الجميع قائلين :

ـ ليحيا فوسكاري.. ليحيا الكاردينال.

فانصرف الكاردينال وهو يهزأ بهذا الشعب الهاتف ويقول في نفسه .

ـ تبا لهذا الشعب ما أشد جهله وما أسهل قيادة الشعوب فانه ينسى

الف إساءة بإحسان واحد ، فيا ايها البلهاء انكم تستحقون تلك القيود التي نقيدكم بها .

ثم ابتسم ابتسام الاحتقار وواصل سيره وهو يقول :

ـ ان فوسكاري شديد الضعف حين يتوقع السقوط ولكنه شديد القوة حين يرجو الفوز حتى انه لا يغلب ، ولذلك وجب ان ازيد بـه هذه الآمال وما عفوت عن زوج هذه المرأة إلا لأسمعه هتاف الشعب له .

وقد عاد الى قصره وهو يفتكر بهذه الأمور فكتب بضع رسائل وفي المساء ارتدى بملابس الفرسان وحاول الذهاب الى امباريا فان بيانكا وأمها كانتا متمثلتين في ضميره كساندريجو ورولاند .

ولم يسر اليها بطريق الترعة بل سار في طريق البر ولعله أراد بذلك ان لا ينبه اليه الأنظار وان يطيل الوقت كي يفتكر .

وفيما هو يسير في طريق ضيق رأى رجلاً يسير الهوينا على مسافة عشرين خطوة فارتعش إذ خيل له انه عرف هذا الرجل من قامته ومن مشيته .

وعند ذلك التف بردائه حتى انـــه ستر به وجهه وأسرع الخطى حتى تجاوز الرجل ونظر الى وجهه فقال انه ليس هو .

ثم ترك الرجل يتجاوزه فلم يسر امامه بضع خطوات حتى عاوده الشك وعاد الى إقتفاء أثره وهو يقول :

ـ لا شك ان هذا الرجل رولاند كانديانو فقـد عرفته من قوامـه ومن طريقة سيره .

ونعم ان الوجه غير وجهه ولكن أكان الوجه وجه رولاند حين لقيت سكرتير ارتين ؟ وهل كان الوجه وجهه حين قادني الى السفينة ؟ وهل كان كذلك حين لقيته في المغارة فاذا كان قد تنكر في تلك الحوادث ألا يمكن ان يفتكر ايضاً الآن .. نعم انه هو بعينه وليس في ذلك أقل ريب .

وقد جعل قلب بمبو يخفق خفقاً شديداً وأخذ ينظر الى مـا حواليه وقد

هجم الليل فلم يرَ احداً فاشتد رعبه وهلع قلبه من الخوف إذ خطر له ان رولاند قد عرفه وانه سيعود اليه .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن إذ قال في نفسه :

ـ ان رولاند قد قتل الشيطان الاكبر ولم يعد الى فينيسيا إلا اليوم كما عاد ارتين أي انه لم يتمكن من الذهاب الى المغارة فيعلم هربي منها فهو إذن يعتقد اعتقاداً راسخاً اني سجين وسأقبض عليه دون شك .

وعند ذلك وصل الى منعطف فرأى اثنين من الجواسيس كان يعرفهما وهما واقفان قرب حمارة يصغيان الى حديث العيال فدنا منهما وعرّفهما بنفسه وقال لهما بضع كلمات سرية فانحنيا وتوارى احدهما عن الانظار وهو يركض أما الثاني فجعل يسير في أثر بمبو .

أما الرجل الذي حسب الكاردينال انه رولاند فانه كان يسير بملء السكينة فيجتاز الطرقات والجسور الى ان وصل الى منزل على الشاطىء فنظر الى ما حواليه ولم يرَ ما يحمله على الريبة فدخل الى ذلك المنزل .

وبعد هنيهة عاد الجاسوس الذي كان قد ارسله برجلين فصار حول بمبو أربعة رجال مسلحين .

فاشتد خوف بمبو بمنظر هؤلاء الرجال الاربعة بدلاً من ان يطمئن وقال في نفسه :

ـ ان من الجنون محاولة القبض على مثل رولاند بمثل هؤلاء الاربعة ولكنه قال ايضاً ان الفرصة صالحة وإذا هاجمه اولئك الجواسيس فإنما يخاطرون بأنفسهم ولا خطر عليّ في شيء .

ولذلك قال لهم : اني امنح كلاً منكم مائة دينار إذ تمكنتم من أسر هذا الرجل الذي رأيتموه دخل الى هذا المنزل .

فبرقت عيونهم من السرور وقالوا بصوت واحد : هلموا اليه .

فاستوقفهم بمبو قائلاً :

ـ ان هذا الرجل شديد القوة ويجب ان تحذروا لانفسكم

فابتسموا ابتسام الاستخفاف وقال أحدهم :

ـ أتريد أن نأتيك به حياً أو ميتاً ؟

قال: لا فرق في ذلك عندي فاذا قتلتموه لا جناح عليكم بل اني أكافئكم ولكن يجب ان تعلموا أن الرجل سيدافع عن نفسه وهو شديد كما اخبرتكم فقد يقتل احداً منكم .

قالوا : انها مهنتنا واذا لم نعرض انفسنا لخطر الموت فكيف نستحق المكافأة .

قال : اذا جرح أحدكم فأني أضاعف جائزته وإذا قتل لا سمح الله أغنيت عائلته .

فتحمسوا لقول الكاردينال وقالوا : هلموا بنا اليه .

وبعد ذلك ساروا الى ذلك المنزل فبلغوا إلى سلم خشبي فصعدوا عليه غير هائبين .

ولم يكن هذا المنزل مؤلفاً الا من طابقين فوقفوا عند الطابق الاول مترددين وكان هناك بابان فجعلوا يتنصتون عند كل باب فلم يسمعوا صوتا فواصلوا صعودهم الى الدور الثاني .

وهناك لم يجدوا غير باب واحد فاصغوا منه فسمعوا وقع خطوات موزونة مستمرة فايقنوا ان الرجل فيه .

اما بمبو فقد كان واقفاً عند مدخل المنزل وهو خافق القلب مضطرب الأعضاء ينظر الى نافذة عالية كان ينبعث منها نور ضعيف .

غير أن هذا النور اطفىء فجأة فأسرع الجواسيس الاربعة الى إنارة مصباح يظهر نوره ويختفي حسب مشيئة صاحبه .

وأدخل أحدهم خنجره في قفل الباب يحاول فتحه ووضع اثنان كتفيهما على الباب ودفعاه بعنف .

* * *

كان هذا الرجل الذي تبعه بمبو رولاند ولا ندري اذا كان علم بانهم يتبعونه فانه كان مشغولا عن ذلك بالتفكير بليونور فان عودته الى فينيسيا جددت في نفسه ذلك الحب الأول الذي توهم انه نسيه وهو لا ينسى .

وكان قد حاول ان ينقض على بمبو فيقتله حين رآه في منزل ارتين ولكنه سكن روعه اذ لم يكن قرر في خطته قتل هذا الرجل في الحال .

فلما انصرف الكاردينال خرج رولاند من الغرفة التي كان مختبأ فيها فقال له ارتين :

ـ العلي تكلمت بما ينطبق على نواياك ؟

قال : نعم

ـ ماذا يجب ان اصنع بشأن ما اقترحه علي الكاردينال ؟

ـ أي اقتراح تعني؟

ـ ان أخبره حين تأتي إلي .

ـ يجب أن تخبره لأني لا أحب ان تخسر ذلك المال الذي وعدك به غير اني أعين أنا ذلك اليوم الذي يجب ان تخبره فيه بأني عندك وان تبالغ بالكتمان الى ان يحين ذلك اليوم .

وعند ذلك تركه وانصرف وفي نيته ان يجد سكالابرينو ويذهب وإياه الى المغارة السوداء .

وقد ذهب الى المنزل الكائن في الميناء فلم يجده فقال في نفسه :

عجباً اين هو فقد مضت مدة الاجازة التي منحته اياها فما عسى ان يكون حدث فان بمبو قد نجا وسكالابرينو غائب وقد يكون قتيلاً فلأذهب الى المغارة السوداء لاقف على الحقيقة .

وعند ذلك غير تنكره وسار فمر بقصر التياري فارتعش وانتفض انتفاض العصفور وعاودته ذكرى ليونور فاشتد به اليأس وجعل يناجي نفسه فيقول :

ـ ترى اية فائدة لي من الانتقام ما زال قضى علي ان لا أرى ليونور واذا رأيتها عن بعد زادت الامي .

نعم اية فائدة بقيت لي من الانتقام ومن المجد ومن الحياة ، نعم ان الموت أفعل معين لي على النسيان ولا بد لي من الموت اذ لا استطيع ان أعيش بهذه الذكرى .

وقد جعل يسير دون ان يقصد جهة معينة وهذه الافكار تتنازعه فمر ببيت الجزيرة وبقصر دندولو وسار الى كل مكان له فيه ذكرى من ليونور دون أن يريد فان الحب كان يقود خطواته .

وما زال على ذلك حتى اقبل الظلام فعاد الى ذلك المنزل الحقير الذي ماتت فيه أمه اذ كان ملجأه الوحيد في فينيسيا وجعل يسير فيه ذهاباً وإياباً وهو يفتكر ثارة بفوسكاري الذي ضربه تلك الضربة الشديدة وثارة بالكردينال الذي نجا منه .

وفيما هو على ذلك سمع صوت كسر الباب ثم رأى الباب قد فتح فأسرع الى إطفاء المصباح وتراجع الى جهة النافذة .

أما الجواسيس الاربعة فقد دنو منه والخناجر مجردة في أيديهم فقال له أحدهم : سلم ان أردت الحياة .

فأجابه رولاند بضربة ابقته بعيداً عنه قدر مترين .

فهاج ثائر الجواسيس الثلاثة وهجموا هجوم المستميت على رولاند ونهض الرابع من سقوطه واندفع معهم بعامل الانتقام فايقن رولاند انهم سيتبعونه في هذا المكان الضيق المظلم ورأى من الحكمة ان يلبث في موقفه وان يتخذ خطة الدفاع الى أن يبطش بهم الواحد تلو الآخر .

وفيما هو على ذلك اذ سمع صيحة ارتجت لها جوانب الغرفة ورأى رجلا هائل الجثة قد انقض على هؤلاء الجواسيس انقضاض الصاعقة فالقى الرعب في قلوبهم وهجم على النافذة ففتحها ثم عاد الى أول من لقيه من الجواسيس

فحمله بيده كما يحملون الاطفال والقاه من تلك النافذة فتحطم جسمه على بلاط الشارع .

وعاد الى الآخرين وقد هلعت قلوبهم من الرعب ولم يجدوا للفرار سبيلا فجعل يلقي الواحد تلو الآخر من تلك النافذة حتى القى الأربعة .

وعند ذلك صاح رولاند قائلا :

ـ سكالابرينو ؟

قال: نعم يا مولاي انا هو وقد أتيت قبل فوات الاوان كما يظهر فلنسرع الى الفرار .

فوافقه رولاند على الهرب واسرعا بالنزول من ذلك المنزل ولكنهما لم يبلغا آخر السلم حتى وجدوا الطريق غاصة بالجنود وقد طوقت المنزل من جميع جهاته وسمعا صوت بمبو يلمع في ذلك الفضاء ويقول :

ـ ادخلوا جميعكم واقتلوا كل من تجدونه .

فقال سكالابرينو : يا للهول .

وقال رولاند : لنخترق جموعهم .

فقال له سكالابرينو : كلا يا مولاي لنعد فاتبعني .

اما بمبو فقد كان واقفاً عند باب المنزل ينظر النتيجة وعيناه شاخصتان الى النافذة المضيئة وفكره يتبع الجواسيس الاربعة فيقول :

ـ انهم صعدوا ، لقد بلغوا الدور الأول، صعدوا ايضاً، الآن وقفوا عند الباب ، لقد كسروه ، دخلوا ، ان النور قد انطفأ وقد بدأوا القتال .

وقد بدأ عند ذلك قليلا وجعل يراقب فرأى ان النافذة قد فتحت فجأة وان جسما قد القي منها فارتجف سروراً وقال في نفسه ، لقد القوه من النافذة واسترحت منه .

وعند ذلك جثا أمام الجسم الملقى كي يمتع عينيه بمنظر عدوه ويقول له كلمة تشف قبل موته .

ولكنه لم يلبث ان رآه حتى صاح صيحة رعب قائلا : انه ليس هو فما هذا الشيطان الرجيم .

وبعد هنيهة سقط رجل ثان فثالث فرابع فتيقن الكاردينال من فوز رولاند وجعل ينتف شعره من قهره ويقول :

ـ الويل لنا جميعاً فقد نجا هذه المرة ايضا .

وفيما يحاول الهرب رأى طائفة من الجند مقبلة فأسرع اليها وأخبر قائدها بحلية الأمر فامتثل الجند له وطوقوا المنزل .

أما رولاند وسكالابرينو فأنهما عـــادا الى المنزل فكان رولاند يتبع سكالابرينو وهو لا يعلم قصـــده فذهب به الى الغرفة الثانية التي كانت تستخدمها جوانا للطبخ فركع قرب المستوقد وجعل يعالج باباً سرياً كان مطلياً بالطين كي لا يظهر بينما كان الجنود من الخارج يحاولون كسر الباب ورولاند واقف وقفة المتأهب للموت وبيديه غدارتـين دون أن ينتبه الى سكالابرينو الذي كان يشتغل بعنف شديد .

وعند ذلك كسر الجنود الباب ودخل أشدهم جرأة فاطلق رولاند عليه النار فصرعه .

ثم دخل آخر فكان حظه حظ رفيقه وفرغت الغدارتان فجرد رولاند خنجره وقد ايقن من دنو ساعته الأخيرة .

ولكنه انتبه لصوت سكالابرينو الذي كان يقول :

ـ لقد فتح الممر فاسرع يا مولاي .

فدنا رولاند منه فوجد منفذاً يتسع لأكثر من انسان .

فقال سكالابرينو :

ـ اسرع يا مولاي بالمرور .

قال : كلا بل مر انت قبلي .

فأيقن سكالابرينو ان جداله محـــال وتقدمه في ذلك الممر فتبعه رولاند وجعل يسير الى الوراء ووجهه المنفذ .

وعند ذلك دخل جميع الجنود ورأوا انهما هربا من ذلـك المنفذ فوقفوا حائرين الى ان دفعت الجرأة او الجنون احدهم الى ولوج ذلك الممرّ فمـا سار فيه بضع خطوات حتى فاجـــأه رولاند بضربة خنجر فخر صريعاً وسدت جثته ذلك المنفذ .

فسار الإثنان آمنان في رواق طويل انتهيا منه الى سلم وبعد خمس دقائق كان الإثنـــان في شارع مقفر غير مأهول ، فتنهد سكالابرينو تنهيدة ارتياح وقال .

— اني فتحت هذا المنفذ منذ عشرة اعـــوام كي أتمكن من الفرار إذا طاردني الجنود فهل كان يخطر في بال احد ان ابن الدوج يستخدم هذا المنفذ؟

فأجابه رولاند : ذلك يدل على بعد نظرك وتحسبك للعواقب فهلم بنـا وستخبرني في الطريق عن كل ما حدث لك .

* * *

ولنعد الآن الى سكالابرينو وطريقة نجاته فلقد تركناه في اشد مواقف الخطر ولم يبق بينه وبين الموت غير لحظة كما تركنا ساندريجو وصاحب الخمارة يصغيان عنـد باب القبو يسمعان آخر كلمة يقولها ذلـــك المنكود من كلمات نزعه .

أما سكالابرينو فقد كانت المياه ترفعه تباعاً الى ان وصل الى آخر درجة من درجات السلم فألقى نفسه في المياه وقد عزم عزماً اكيداً على الموت .

ولكن حب الحياة تغلب عليه فصعد وجعل يسبح حول جدران القبو الى ان علقت يده بتلك النافذة التي كانت تدخل منها المياه .

وقد اشتد رجاؤه حين شعر ان تلك القضبان الحديدية تضطرب بين يديه فانها كانت قديمة العهد وقد خلخلتها المياه وتقادم الأيام .

فأسند رجليه الى الجدار وجعل يشد قضبان النافذة بما أوتيه من القوة البدنية الهائلة فلم تكن غير دقيقة حتى كسر قضيباً .

وعند ذلك خرج من المنفذ الى الترعة وبذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من الصعود الى سطح المياه حتى إذا أيقن من السلامة تنفس الصعداء وذهب الى المنزل فغيّر ملابسه .

وقد روى سكالابرينو لرولاند كل حكاية سجنه حتى إذا أتم حكايته قال له رولاند :

— ولكن لماذا ذهبت الى خمارة مرسي الذهب وأي شأن لك فيها ؟

فسالت دمعتان من عيني سكالابرينو وروى له حكايته بالتفصيل وهما يمشيان الى ان بلغا الجزيرة فدنا رولاند من بيت ليونور وقال له سكالابرينو:

— ألم تقل لي يا مولاي ان هذا المنزل مشتبه به ؟

قال : لقد كان كذلك أما الآن فقد انقطعوا عن مراقبته ومع ذلك وسوف نرى .

ولما وصل الى الباب طرقه فأقبل الخادم العجوز يحمل بيده مصباحاً وقال : من الطارق ؟

فأجابه رولاند قائلاً : ألعلك نسيت جان لورنزو سيدك الجديد ؟

قال : أسألك العفو يا سيدي ثم مشى أمام سيده الى المنزل وأنار بضعة مصابيح .

وقد لاحظ رولاند ان يدي الشيخ كانتا تضطربان وانه كان ينظر اليه نظرات غريبة فقال له :

— كيف ذلك ألم تعرفني بعد ؟

قال : لقد عرفتك يا سيدي من صوتك أما وجهك فما هو وجه جان لورنزو .

— هو ذاك فاني أحب ان أغيّر وجهي من حين الى حين .

فهز الشيخ رأسه وسكت .

فقال له رولاند : أرى انك تريد ان تقول شيئاً تخشى ان تقوله أمام هذا الصديق فقل أمامه ما تريد قوله .

فقال الشيخ : أقول يا مولاي ان وجهك اليوم غير وجهك يوم كنت تدعى لورنزو .

فضم سكالابرينو قبضته فقال له رولاند :

— اني اعرفه يا سكالابرينو منذ عهد بعيد فهو لا يخون رولاند ولا بد ان يكون هناك سبب خطير دعاه الى قول ما قاله وسيوضحه لنا .

فقال الشيخ : هو ذاك يا سيدي رولاند .

فارتعش رولاند إذ رأى ان الخادم قد عرفه وناداه فجأة باسمه وقال له : تكلم .

قال : لقد رأيت أمس السيدة ليونور .

فأجابه رولاند بصوت أبح قائلاً :

— هل عادت الى هنا ؟

— كلا .. ولكنها دعتني اليها في قصر التيارى وهناك اخبرتني بكل شيء يا مولاي فعلمت منها حقيقة اسم جان لورنزو وعرفت كل ما عانيته من العذاب والآن فاني اعجب لنفسي كيف اني لم اعرفك المرة الاولى .

على ان السيدة ليونور اكدت لي انك ستعود ايضاً الى هنا .

— أهي قالت لك هذا القول ؟

— نعم يا سيدي وقد أمرتني ان أبالغ بحراستك حين تكون هنا فاعلم

يقيناً انك ستكون في مأمن في هذا البيت كما كنت يوم كنت تأتي اليه خاطباً فاني في تلك الاعوام التي مضت وهي اعـــوام كوارث وانقلابات فجائية اعددت مكاناً سرياً في هذا المنزل كي تختبىء فيه السيدة ليونور وأبوها عند الاقتضاء ولا يعلم احد غيري الى الآن سر هذا المكان وقد اقسمت لسيدتي ان أخبئك فيه فهل تريد يا مولاي ان تراه ؟

قال : نعم .

فسار الخادم ومشى رولاند وسكالابرينو في أثره حتى لاقوا شجرة الأرز الكبرى وكانت شجرة عظيمة بضخامتها وقـــد تدلت اغصانها حتى بلغت الارض فأزاح الخادم أحد هذه الأغصان فانكشف عن ثقب بجزع الشجرة فأراه الخادم إياه وقال له :

— إن من ينزل من هذا الثقب يبلغ الى دائرة متسعة عمقها ثلاثة امتار وقد أنزلت اليها أمس سريراً للنوم ومائدة وضعت عليها من الطعام مـــا يكفي ثلاثة ايام .

أما هذا الثقب فلا يراه احد لتدلي الاغصان عليه وفوق ذلك فقد زرعت حواليه نباتاً كثيراً لينمو كي يحكم سده كما ترى فلو اتفق لأحدهم ان يزيح الاغصان لما رأى الثقب .

فقال سكالابرينو : انه خير ملجأ وعاد الثلاثة الى المنزل ورولاند عابس الوجه مقطب الجبين فقال له سكالابرينو :

— أتريد يا مولاي ان أرجىء بقية قصتي الى الغد ؟

قال : كلا .. بل أروها الآن فاني مصغ اليك .

قال : لقد سألتني عن السبب في ذهابي الى تلك الحمارة التي كدت اموت في مياهها فاعلم يا مولاي اني قبل سفرك ذهبت الى المغارة السوداء فوجدت الأمور على أتم الانتظام وحملت اوامرك الى الزعماء ثم عدت الى قرية مستر ففاجأني فيها مصاب لم اكن أتوقعه .

فأجفل رولاند منذعراً وقال : أبي ؟

قال : كلا يا مولاي فلا تخف فان أباك لا يزال هناك بحراسة جوانا .

ـ إذن ماذا ؟

ـ بيانكا يا مولاي .

ـ ماذا أصابها ؟

ـ اختطفت .

ـ من الذي اختطفها ؟ أتعرفه ؟

ـ نعم . . فقد قالت في جوانا انه ساندريجو .

ـ هذا اللص الذي بات عدوك ؟

ـ هو ذلك اللص الذي يحقد عليك حقداً هائلاً دون شك لأنه لم يختطف بيانكا إلا بغية الانتقام منك .

ـ ينتقم مني باختطافها ؟

ـ نعم يا مولاي فربما خطر له انك تحبها .

ـ ولماذا هذا الحقد عليّ ؟

ـ لأنك قهرته وأهنته أمام رجاله .

فأطرق رولاند مفكراً ثم قال :

ـ إذن ان هذا الرجل اختطف بيانكا وأبقى على أبي لينتقم مني .

ـ ربما خطر له ان ذلك يكون ابلغ في الإساءة .

ـ ولكن جوانا أين كانت ؟

ـ مسكينة هذه المنكودة فانك ستدهش لما اخبرك عنهـــا فانها تحب ساندريجو من عهد طويل وكانت ترجو ان تكون امرأته ومع ذلـــك فقد دافعت عن بيانكا دفاع اللبوة عن اشبالها ولكنه تغلب عليها وقيّدها .

وبعد ذلك ذهبت الى فينيسيا وعلمت انه في تلك الحارة وقد عرفت ما كان بيني وبينه .

ـ مسكينة جوانا فقد لقيت أشد العذاب .

ـ ولكن ليس هذا كل شيء يا مولاي فاني بعد ان نجوت من قبو الماء لم يكن يخطر لي غير خاطر واحد وهو ان أجدك فبحثت عنك في كل الأماكن التي كنا نلتقي فيهـــا وذهبت الى مستر ولقيت أباك وجوانا ثم ذهبت الى المغارة فرأيت ان بمبو قد نجا .

ـ لقد عرفت ذلك .

ـ إذن هذه هي قصتي بجملتها فاني عدت بعد ذلك الى فينيسيا وصبرت الى ان هجم الليل فجئت الى المنزل ولقيت رجلا عند بابه حسبته جاسوساً فأسرعت بالصعود ووجدتك تقاتل الجواسيس وانت تعرف البقية .

وقد رأى رولاند علائم الحزن الشديد بادية في عيني سكالابرينو فأيقن ان حزنه على بنته وقال له :

ـ اطمئن ايها الصديق فسيكون اول مـــا اعمله انقاذ بيانكا غير اني استمهلك يوماً لأرى أبي وأطمئن عليه .

قال : اني اذهب وإياك إذا أذنت .

قال : إذن هلم بنا .

٤٥

نحول جوانا

لقد عرف القراء كيف ان رولاند كان له مواصلات سرية في فينيسيا يذهب ويجيء بها دون ان يراه احد .

وكان له عدا عن تلك السفينة الكبرى التي ترسو في ميناء ليدو ثلاث سفن أخرى تسع كل سفينة ثلاثمائة مقـــاتل فكانت تسافر بشكل منتظم

تجاري كي لا تستلفت اليها انظار الرقباء ولكنها لا تبتعد ومتى عادت من سفرها بما تحمله من البضائع اطالت زمن إنزال هذه البضائع جهد الطاقة وذلك كي تبقى اكثر أيامها في الميناء .

وفوق ذلك فان هذه السفن الأربع لم يكن يسافر منهـــا غير واحدة بالمناوبة بحيث يبقى في الميناء دائماً ثلاث سفن .

وكان له ايضاً في البحيرات نحو مائة قارب من القوارب السريعة تنقله حين يشاء من البحيرات الفاصلة بين فينيسيا وبين اليابسة .

وكان له في البر كثير من المحطات للجياد وهي محطات تتصل من شاطىء البحيرات الى مغاور بيافا بحيث ان رولاند او احد رسله لو أراد البلوغ الى المغاور والعودة منها يتمكن ببضع ساعات بفضل هذه المحطات التي أنشأها.

وقد ركب رولاند وسكالابرينو احد هذه القوارب بعد ان أشار الإشارة السرية الى البحار فأطلق النوتي قاربه للريح حتى اجتاز بهما البحيرات فخرجا الى الشاطىء وركبا جوادين وسارا الى مستر .

وهنـــاك لقي رولاند أباه جالساً في ردهة المنزل فأسرع اليه يعانقه وينادبه بأعذب الالفاظ .

فارتعش أبوه لهذا الحنو وقال :

ـ من هذا الذي يعانقني هكذا ؟

قال : أنا ولدك .. ولدك رولاند .

ـ ولدي ؟

ـ واأسفاه ألم تعرفني يا أبي من صوتي ؟

فسكت ذلك الشيخ المنكود الأعمى ولكنه جعـــل يبحث بيديه عن رولاند ليجذبه اليه .

فركع رولاند أمامه وقال له بصوت مختنق :

ـ أبي .. أبي .. ألا تذكر ولدك ؟

فوضع كانديانو يده على رأس ولده وجعل يمرها على شعره كأنه يحاول او يري بالمس ما يراه ثم قال :

ـ نعم ان الرأس رأس ذكي كريم ولو كان لي ولد لتمنيت ان يكون مثلك.

ـ ان ولدك راكع أمامك يا أبي .

ـ نعم .. نعم .. لقد ذكرت فقد كان لي ولد فيما .. ولكن ربما كان ذاك من وساوس الجنون فاني عندما اهبط بفكري الى اعماق نفسي وعندما أبحث في قلبي عن رسوم كانت تملأه أجد كأنها قد اختفت .

نعم فقد يخال لي اني كنت كسائر الرجال منذ عهد بعيد جـــداً وان عيني كانتا تنظران بملء الارتياح والسرور الى أحباء كنت أحبهم كما أحب نفسي .. فمن انت ولماذا تقول انك ولدي فلو كان لي ولد لكان مات دون شك .. كلا ليس لي ولد .

وعند ذلك رفع يده برفق عن رأس رولاند فنهض ولده وقد تنهد تنهداً كاد يتمزق له صدره .

أما أبوه فلم يهتم إلا بتدفئة يديه على نار المستوقد .

ومع ذلك نادى جوانا وقال لها :

ـ جوانا أكرمي هذا الرجل النبيل الذي دفعه الجنون الى الإدعاء بأنه ولدي فاني اذكر كما يذكر الحـــالم اني كنت أشير اشارة بسيطة فيتسارع الخدم الى اكرام ضيوفي الغرباء .. فأين هذا العهد ومتى كان ؟

فهز رولاند رأسه وقد أيقن ان أباه لا يعود اليه صوابه ثم التفت الى جوانا كأنه يسألها رأيها فقالت له :

ـ ولكنه مع ذلك لعن مرتين فوسكاري وذكر ولده .

ـ إذن أتظنين انه يشفى ؟

ـ لا أدري ولكن الصواب يعود اليه احياناً .

فمشى رولاند بضع خطوات في الغرفة ثم عاد الى جوانا وقال لها :

ـ أرى انه لا يمكن بقاؤه هنا ؟

فاصفر وجه جوانا وقالت :

ـ وأنا أيضاً أرى هذا الرأي .

ـ قولي كل ما يخطر لك يا ابنتي .

فأطرقت برأسها وقالت :

ـ ان الذي أتى قد يعود .

ـ وعند ذلك ؟

ـ قد ينتقم منك بأبيك كما انتقم باختطاف الفتاة .

ـ ولكنك تكونين بالقرب منه تدافعين عنه .

ـ مولاي ؟

ـ اني موقن من انك تضربينه الضربة القاضية إذا تجاسر على الرجوع.

ـ مولاي ؟

ـ ماذا ؟

ـ اني اضربه الضربة القاضية دون شك لأني تعهدت لـــك على ان احرص على أبيـــك ولكني اضرب نفسي بعـد ان اضربه وسل سكالابرينو يخبرك لماذا اقول هذا القول ؟

وقد قالت هذا القول وغطت وجهها بيدها إخفاء لاضطرابها .

فتوجع رولاند وأخذ يدها بين يديه فقال :

ـ انك تحبين هذا الرجـــل يا جوانا ألا تعلمين انـــه كان يريد قتل سكالابرينو ؟

فلم تجب ولكن ظواهر اضطرابها كانت تدل على يأسها فقال لها :

ـ اني سأنقل أبي الى محل أمين وستكوني معه في مأمن أيضـاً ، انك بمثابة أختي وأنا احترم حبك وأتوجع لمصابك .. ولكن دعيني أتولى أمرك واذهبي مع أبي .

فظهرت صحة العزيمة على وجهها المصفر وقالت بملء السكينة :

أسألك العفو يا مولاي فاني كنت انتظر عودتك لاقول لك .

وهنا توقفت عن الكلام وقد تلعثم لسانها فقال لها رولاند :

ـ تكلمي ايتها الأخت الحبيبة وأعلمي يقيناً انك مهما قلت لي فاني ابقى مديناً لك بالجميل الى الأبد .

قالت : اني لا استطيع البقاء مع ابيك فاصفح عني . اذ لا بد لي ان اذهب الى فينيسيا.

ـ ليكن ما تريدين فانك تذهبين اليها معي ومع سكالابرينو أي مع اخوين يحبانك ويحترمانك ويدافعان عنك .

فهزت رأسها وقالت : كلا بل يجب ان أذهب وحدي الى فينيسيا .

فقال لها برفق : انك تريدين الذهاب اليه لترينه أليس كذلك ؟

ـ كلا بل لادافع عنه .

فاجهشت بالبكاء وقالت بصوت مختنق :

ـ اني اؤثر الف موت على ان أنالكيما بأذى وأنما كل ما أحبه واحترمه في هذا الوجود ولكنه حياتي التي اعيش بها وان قلبي يحدثني بشر مصاب وانك كبير النفس فلا شك عندي انك صفحت عن ساندريجو من اجلي ذلك ما اقرأه في عينيك ولكن .

ـ ولكن ماذا تكلمتي ايتها الاخت العزيزة .

فمسحت جواتا دموعها التي كانت تحرق عينيها وقالت :

ـ نعم لقد تمنت ملياً خلال هذه الايام العشرة التي مضت فرأيت ما سيحدث كأنه قد حدث فانك تعفو عن ساندريجو اكراماً لي ولكن ساندريجو لا يتجاوز عن حقده عليك وهذا الذي أريد ان أمنعه ولو بسفك دمي فأني حين يخطر لي أنك ستلتقي مع ساندريجو يجمد الدم في عروقي من الرعب .

ـ اذن انت تريدين السفر ولا سبيل الى تغيير افكارك ؟

ـ كلا فلا بد من السفر .

ـ ليكن ما تريدين ولكن اذكري دائماً ان لك أخوين لا تبرحين عن فكرهما أتعرفين منزل جزيرة أوليفو ؟

ـ نعم .

ـ انك تجدينا هناك متى أردت وإذا لم تجدينا تجدين من يخبرنا بأمرك أفهمت ما أقول ؟

ـ نعم .

ـ حسناً فمتى تريدين أن تسافري .

ـ في الحال .

ـ كيف ذلك الا تدعين لي وقتاً لأعد لك معدات السفر .

ـ لقد تأهبت لكل شيء فاستأجرت مركبة منذ ثلاثة أيام وهي تنتظرني في الغد للسير بي الى البحيرات وهناك استأجر قارباً وأذهب به إلى فينيسيا والآن استودعكما الله .

فعانق سكالابرينو جوانا وهو يتلفظ بألفاظ القانطين وعانقها رولاند وهو يتوجع ليأسها .

وعند ذلك ذهبت الى والد رولاند فركعت أمامه وقالت :

ـ أنت الذي أحببته ، أنت الذي كنت تحب تلك الميتة النبيلة التي غفرت لي ولا أزال أقدس أسمها لأنها باركتني ودعتني بنتها ان روح هـذه المرأة الطاهرة ترف حولنا وهي تعلم يقيناً ما أكابده من عناء هذا الفراق .

فرفع الشيخ الأعمى يده على رأسها ولا ندري أكان ذلك منه اتفاقاً أم استنار عقله في تلك اللحظة بشعاع من أشعة الصواب .

وعند ذلك نهضت وسارت مسرعة بعد ان اشارت إشارة وداع الى رولاند وسكالابرينو .

وقد لبث الرجلان مدة واجمين ساكتين الى ان تحرك الشيخ حركة استلفتت انتباه ولده والتفتت اليه .

وفي الوقت نفسه قال سكالابرينو :

ـ أتأذن لي يا مولاي ان أذهب بسيدي الدوج الى المغارة السوداء .

فهز رولاند رأسه دون ان يجيب فقال له سكالابرينو :

ـ ثق يا مولاي انه يكون هنـاك في مأمن من كل طارىء فان تلك الحادثة التي جرت لبمبو نبهت الزعماء فزادوا القوة والمحافظـة وأنت أدرى بسهولة الدفاع في تلك المغارة .

قال : ان أبي سيذهب الى فينيسيا .

ـ إلى فينيسيا ؟

ـ نعم فاعد لنا مركبة تنقلنا نحن الثلاثة .

ـ وماذا أصنع بجوادينا ؟

ـ دعهما في المحطة واجتهد ان يكون وصولنا في الليل .

فأسرع سكالابرينو الى الامتثال وبعد ساعة عاد بالمركبة .

فأخذ رولاند بيد أبيه وسار به الى المركبـة دون ان يعترض ولكنه اكتفى بسؤاله قائلاً :

ـ إلى اين تذهبون بي ؟

فلمعت عينا رولاند ببارق رجاء وقال:

ـ الى فينيسيا أفهمت ، تلك المدينة التي كنت حاكما عليها وقمت فيها بسراي الدوج مع امرأتك سيلفا وابنك رولاند .

فظهرت على الشيخ عدم الاكتراث وقال :

فينيسيا ، نعم لقد سمعتهم يقولون عن هذه المدينة انها جميلة .

فتأوه رولاند وقال : وأسفاه ثم ركب المركبة مع سكالابرينو يجاذب أبيه وبلغوا الى فينيسيا في جنح الظلام فسار بأبيه الى بيت الجزيرة .

٤٦

أرتين

لقد تركنا بمبو عند منزل الرصيف وقد أمر الجنود بالدخول الى المنزل للقبض على رولاند وأقام ينظر تلك اللحظة السعيدة التي تحقق بهـا آمال حياته .

وبعد هنيهة رجع الجنود وفي مقدمتهم قائدهم فقال القائد للكاردينال:

ـ لقد قتل منا ثلاثة فاذا اضفناهم الى الذين سقطوا من النافذة بلـــغ المجموع سبعة فاذا اتفق لنا بضع ليال مثل هذه الليلة اصبحنا من غير بوليس.

فلم يكترث بمبو لهذه الأقوال وقال : وهو ؟

ـ اذا كنت تعني به الذي دخلنا للقبض عليه فقد استحال الى دخان وهذا أحسن ما يقال عنه في هذا المقام .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أن الرجل ورفيقه ، لأنهما كانا اثنين لا واحداً ، سارا في الطريق التي يسير الدخان عادة للصعود الى السماء .

ـ أهربا من المستوقد ؟

ـ هذه هي الحقيقة .

فغضب الكاردينال غضباً شديداً ولولا حضور الجنـــد لشتم اقبح شتم ولكنه تجلد وأمر بعض الجنود ان يفتشوا بيوت الحي بجملته وأمر آخرين يراقبوا المنزل ثم انصرف الى المنزل وقد ضاقت الدنيا في عينيه واشتد خوفه حتى أنه جعل يفكر في طريقة تمكنه من الفرار لشدة فزعه من رولانـد فأرتأى ان يترك الدوج وفينيسيا خفية ويذهب الى رومـة فيلجأ الى البابا وهناك يكون في مأمن من رولاند .

ولكنه لم يلبث ان اقر على هذا الرأي حتى تمثلت له بيانكا فهاجت مكامن غرامه وشغلته عن الخوف ورأى انه لا يستطيع العيش بعيداً عنها لاسيما وقد تمثل له ايضاً ساندريجو فهاجت غيرته وزادته هياماً ، فأقام يفتكر في خطة كان قد وضعها بشأن بيانكا فما زال يعالجها حتى استقامت فذهب الى فراشه ونام في تلك الليلة امناً واثقاً من النجاح .

وفي صباح اليوم التالي ذهب توآ الى ارتين فخلا به وبعد حديث مختلف سأله فجأة عن نسائه فقال له: كم يبلغ عددهن ؟

فقال : سبع نساء وأني أرجو ان اجعلهن تسعا فمتى تكامل عندي هذا العدد اطلقت على كل واحدة منهن اسم عروسة من عرائس الشعر فاسمي الواحدة كليو والثانية تربيسكور .

فقاطعه الكاردينال قائلا : لا تكمل ذكر هذه الاسماء وافترض انك جئتهن بفتاة جديدة .

ـ اذن لا يعود يعوزني غير واحدة لتتم عندي العرائس التسع .

ـ اصغ يا ارتين فاني أحدثك عن فتاة طاهرة كالزنبقة نفورة كالغزالة التي لم تألف وجه الصياد .

ـ وهل هي حسناء ؟

ـ ان جمالها يخلب العقول فما رآها أحد حتى فتن بها اما أنا فلا أعلم إذا كانت حسناء فاني ما احببت جمالها بل احببتها وقد كنت أحسب نفسي قويا شديداً واني ما خلقت إلا للسيادة وسحق الشعوب ولكن هذه الفتاة علمتني الخضوع وانستني الاطماع ومعاني السيادة وبت اعاني في حبها عذاباً شديداً فأصبحت في حالة تحمل على الاشفاق .

ـ ولكني لا اجد في كل ذلك ما يدعو الى العذاب وانت تقول انك تحبها وانها جميلة فلماذا تتعذب ؟

ـ افترض ايها الصديق ان إحدى نسائك قد اهانتك وبصقت في وجهك فماذا تفعل ؟

ـ أجلدها بالسوط حتى أمزق جلدها .

ـ وافترض ان التي تفضلها من نسائك قالت لك انهـــا تؤثر ان ترى خنفساء على ان تراك فماذا تفعل ؟

ـ أضع لهـا مائة خنفساء في كيس فأزودها بها وأطلق سراحها وأبحث عن سواها .

ـ أرأيت إذن كيف انك لم تحب أما أنا فاني أعد إهانتها مديحاً ولكنها لا تقول لي انهـا تجدني اقبح من الضفدع ولا تحتقرني بـل تعاملني بأشد من ذلك أي انها تشمئز وتنفر مني نفور المرء من الرائحة الكريهة .

ـ إذن لم يبق عنيـك إلا ان تأخذها بالقوة ومتى فعلت ذلـك وعاملتها بالقسوة خافتك وذهب ذلك النفور .

ـ لقـد حاولت ذلك فلم انجح أيهـا الصديق وفوق كل ذلـــك فان لي مزاحماً فيها .

ـ هل هي تحب هذا المزاحم ؟

ـ لا أعلم .. ولكني لا أظن ان بيانكا تحب ساندريجو .

ـ أتقول بيانكا ؟

ـ هذا هو اسمها .

ـ أهي بنت امباريا ؟

ـ هي بنفسها فهل عرفتها ؟

ـ كلا ولكني عرفت ان لامباريا فتاة تدعى بهذا الاسم ولكنك قلت لي ان لك مزاحماً فيها ؟

ـ نعم وهو مزاحم لا استطيع التخلص منه الآن لأني لا ازال محتاجاً اليه وقد قضي عليّ ان اعقد لها بيدي عقد القران .

ـ بماذا تحتاج الى هذا المزاحم ؟

ـ لأني اعتمد عليه في القبض على رولاند كانديانو حين يأتي الى هنا .

ـ إذن لا يجب ان تختار بين الكره والحب ؟

ـ لا أريـد ان اختار بينهما بل اريد كليهما واريـد ان أظفر برولاند كما أظفر ببيانكا ولا عيش لي إلا إذا فزت بهذه الأمنية أما رولاند فاني معتمد في شأنه على ساندريجو .

ـ مزاحمك ؟

ـ نعم .. وأما بيانكا فاني معتمد بشأنها عليك .

ـ انك تعلم مقدار إخلاصي لك ؟

ـ ذلك لا ريب فيه عندي فاسمع ما انتظره منك .

ـ ان زواج بيانكا وساندريجو لا بد من عقده .

ـ متى ؟

ـ لا أعلم بعد فانه منوط بساندريجو ولكن بيانكا تحتجب على أثر عقد القران .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك منوط بي فسأرضي ساندريجو كل الرضى بحيث لا يكون له من هذا الزواج غير حفلته .

ـ وماذا يكون من بيانكا ؟

ـ انها تكون ضيفتك أفهمت الآن ؟

ـ اني معجب بذكائك يا بمبو .

ـ أعزمت على مساعدتي ؟

ـ نعم فاني أساعدك بذلك كل المساعدة .

فارتاب الكاردينال بقوله وقال له : كيف تقول بذلك ألعله يوجد أمور لا تستطيع مساعدتي فيها ؟

فأسرع ارتين الى التنصل من هذه وقال له :

ان سوء الظن من حسن الفطن ولكن مثلي مع مثلك لا يحمل على الريب ويسؤني ان تشكك بي وأنا أوفى صديق .

ـ لا بأس ايها الصديق فاعذرني فاني لا اعود الى الظنون .

ـ اني اعذرك دون شك اذ اعلم يقيناً انك لا تندفع الى هذه الظنون الا لاضطرابك ولنعد الآن الى ما كنا فيه فقد قلت لي انني اقبض خمسة الاف ريال يوم تدخل بيانكا الى منزلي .

ـ ليكن ما تريد ولكن صداقتك هذه المرة ستكلفني كثيراً .

ـ لا يحق لك الشكوى فاني لا اقبض من خزينتك بـــل من خزينة الجمهورية فقل لي الان ما تريد .

ـ أريد ان تضيف بيانكا عندك وان تعرفها بنسائك كأنها واحدة منهن

ـ ان الغيرة تدفعهن الى البكاء ولا أطيق بكاء النساء .

ـ ولكنك تعرف طريقة تخفيف الدموع .

ـ حسناً فماذا تريد بعد هذا ؟

ـ أريد انه متى باتت الفتاة عندك ان تتعهد لي بأن لا يراها غير نسائك .

ـ أتعهد .

ـ هذا هو القسم الاول من مشروعي وهو سهل كما تراه وقد بقي الثاني فقل لي الديك امرأة بين نسائك موصوفة بالذكاء والدهاء .

ـ اذا كان الدهاء من الذكاء فكلهن ذكيات .

ـ اتحسب انهن يستطعن اغواء فتاة نقية وتغيير اخلاقها ؟

ـ ذلك لا ريب فيه فلا يمضي شهر حتى يغيرن اخلاق التي تحبها .

ـ ليس هذا كل الذي اريده .

ـ ولكنك شديد الظلم بصداقتك .

ـ لا بأس فسننظر في حساب صداقتك وظلمي فاذا رجحت كفة ظلمي

وضعت اثقال الذهب في كفة الصداقة الى ان تتساوى الكفتان .

ـ أنه خير قول خيالي لا ينطق به غير الشعراء .

ـ بل انه قول ذهبي ولذلك اعجبك فقل لي الآن ألم تضجر من اقامتك في فينيسيا ؟

ـ كيف اضجر من هذه البلد ، بلد الحب والفنون ؟

ـ أما انا فاني اضجر .

ـ اذن سافر ؟

ـ هذا ما نويت عليه ولكني اذا سافرت وحدي اشتد ضجري .

ـ يظهر انك تريد ان أصحبك .

ـ لقد فهمت قصدي .

ـ وانا مستعد لصحبتك .

ـ ولكنك لا تستطيع الابتعاد عن نسائك .

ـ ألم افارقهن حين ذهبت الى الشيطان الأكبر وما فعلته من قبل أفعله اليوم .

ـ ولكن هذه المرة يجب ان تسافر مع نسائك.

ـ أي انك تريد إخراج بيانكا من فينيسيا وان لا يعلم أحد بأمرها ما زالت مع نسائي .

ـ هو ذاك.

ـ الى اين تريد ان اذهب بها ؟

ـ سأعين لك المكان حين الاقتضاء والآن فلنلخص اتفاقنا فانك قبضت الف ريال وستقبض اربعة الاف فتكون الجملة خمسة .

ـ إنك بارع بالحساب .

ـ وهذه القيمة مقابل اقامة بيانكا عندك عشرة ايام، اي ان غذاء هذه الفتاة يكلف خمسمائة ريال في اليوم .

ـ وتعليمها ؟

ـ لقد أصبت وقد بقي لـــك عندي خمسة الاف ريال تقبضها خارج فينيسيا .

ـ هو ذاك .

ـ إذن لقد رضيت بجميع اقتراحاتي ؟

ـ دون شك الست صديقك المخلص ؟

وعند ذلك افترق الصديقان فذهب بمبو الى منزله فوجـــد ساندريجو ينتظره فقابله ضاحكا ودخل به الى غرفة اعماله فقال له :

اعينت يوم القران ايها القائد العزيز ؟

فنظر ساندريجو اليه محدقاً وقال له : ذلك منوط بك .

فاصفر وجه الكاردينال اذ خشي ان يكون عرف شيء عن مقاصده وقال له :

ـ كيف يكون أمر زواجك منوط بي ؟

قال : اني خرجت الآن من منزل امباريا وقد الححت عليها ان تعين يوم الزواج فأجابتني قائلة :

« اذهب واستشر الكاردينال بمبو قبل ان تأتي على أمر نهائي » .

فأتيت اليك وها انا قد نقلت لك اقوالها فلا حاجة الى تذكيرك بعهودك

ـ كلا فاني لا انساها .

ـ لا شك عندي بأنك لا تنسى ما حييت بأنك مدين لي بالحياة ولكني خلقت يا سيدي ضعيف الثقة بالامتنان وعهدي ان من يصنع جميلاً لا يجب ان يكتفي عنه بالامتنان لان الامتنان مجاني ولا شيء يؤخـذ مجاناً في هذا الوجود ولذلك ارجوك ان تعين يوم الزفاف .

فأجابه الكاردينال دون تردد قائلا :

ـ ذلك سهل ما زال قد أنيط بي فاني أجعله في اقرب حين .

ـ انه كلام معقول ولكني لم افهم معنى « في اقرب حين » فكأنك لم تعين موعداً .

ـ إذن إسمح لي بدوري ان اذكرك بعهدك ؟

ـ تفضل .

ـ إنك أقسمت بأن تأتينا برولاند كانديانو ميتاً أو حياً.

ـ وسأبر بقسمي فاعطوني بيانكا اعطيكم رولاند بعد اسبوعين من حفلة الزواج فاني سأجيئكم به مغلول اليدين والرجلين الا إذا اضطررت الى قتله وفي هذه الحالة آتيكم برأسه .

فقال له الكاردينال ببطء :

ـ اتأتينا برأسه بعد اسبوعين ؟

ـ اني ما تعودت ان احنث بيميني .

ـ الا تخاف ان يحول حائل دون انفاذ هذا القصد ؟

فابتسم ساريجو ابتسام استخفاف وقال :

ـ لا يوجد مانع في الوجود يحول بيني وبين هذا الرجل .

ـ ولكن العاقل يحسب لهذا الأمر الف حساب .

ـ قلت لك انه يجب حسبان كل شيء حتى موت خطيبتك .

ـ ولو ماتت خطيبتي فان ذلك لا يمنعني عن الوفاء بتعهدي .

ـ لقد وثقت الآن بكلامك واننا سنظفر برولاند بعد اسبوعين ولذلك فقد بات من فائدتنا ان نعمل عقد قرانك ونحن الآن في يوم الثلاثاء فهل تريد ان يكون يوم السبت .

ـ ان هذا اليوم يوافقني وأنا اعتمد عليك إذن باقناع امباريا فقد خيل لي انها لا تزال تتردد .

ـ ذلك منوط بي فاطمئن.

ـ ويجب ايضاً اقناع بيانكا .

ـ ولكني لا اعرفها .
ـ أحق ما تقول ؟
ـ نعم فاني لا استطيع ان اتولى هذه المهمة .
ـ لا بأس فلا تهتم اذن الا بالايام وبان يكون الموعد يوم السبت .

وعند ذلك افترقا فلما بقي الكاردينال وحـــده ظهر الاضطراب على وجهه وقال في نفسه .

اني لم الق في المغاور السوداء ما لقيت هذه الساعة من العذاب فاعطني ايها اللص الشقي رولاند وانا اتكفل بان اضع القيود في عنقك والقيك في تلك الآبار . أأنت تكون زوج بيانكا ؟

وهنا ضحك ضحكا هائلا وهاج ثائره فلم تعد اليه سكينته الا بعد ساعة فذهب الى اسباريا وقال لها :

اننا سنزوج يوم السبت صديقنا ساندريجو ببنتك بيانكا .
فاصفر وجه الحظية وقالت : يوم السبت ؟
قال : نعم وهنا يجب علينا ان نقنع بنتك بالرضى بهذا الزواج .
ـ نعم :
ـ ان بيانكا لي وانت لساندريجو اليس هذا اتفاقنا ؟
فاشارت برأسها إشارة الموافقة فقال لها :

ـ لا تقلقي لشيء فان الحفلة تكون يوم السبت إذا تمكنت من اقنـاع بنتك ولا بد من اقناعها .

ولكن بعد الحفلة تذهب بيانكا في طريق وساندريجو في طريق آخر . اما أمر بيانكا فهو منوط بي وأما ساندريجو فهو منوط بك فتدبري .
وعند ذلك تركها وانصرف وهي لا تعي لفرط اضطرابها .

- ٤٧ -

دهاليز سانت موك

في ذلك الزمن كان رئيس بوليس فينيسيا يدعي جينارو وهو في الاربعين من عمره اسمر الوجه رشيق الحركات كثير المطامع شأن معظم الموظفين في الجمهورية التي كان قومها يتنازعون السلطة فيها كل يوم .

فكان جينارو يطمع بمنصب دندولو كما كان التياري يطمع بمنصب فوسكاري وكما كان فوسكاري يطمع بتحويل تاجه الدوقي الى تاج ملكي .

وكان متولياً زعامة البوليسين الظاهر والسري ولم يكن فوق يده غير يد دندولو وفي ذلك ما يدل على خطورة المنصب الذي كان يتولاه .

وفوق ذلك فقد كان له لذة عظيمة بمهنته فلم يؤثر عنه انه مال الى سواها أو مال مع اهواء الشبيبة فلم يكن له حليلة أو خليلة ولم يولم وليمة ولم ينتزه مع أحد فكانت نزهته انه يتنكر تارة بملابس البحارة ويطوف في المدينة ويجتمع بمشاهير اهل الشر كصاحب خمارة مرسى الذهب وأمثاله فيقف منهم على كل ما يجري في المدينة بحيث لا يفوته شيء من خفاياها .

وكان من عادته ان يقول ان أخص ما يجب ان يبني في المدن الكبرى السجون وكان يخطر له ان يبني سجناً هائلاً يسع كل المدينة وان يؤلف هيئة لا يكون فيها غير فريق من الوطنيين فيكون قسم مسجونين وقسم سجانين .

ففي اليوم التالي لذلك اليوم الذي رأينا فيه بمبو سار من عند ارتين الى ساندريجو ومن ساندريجو الى امباريا كان جينارو رئيس البوليس واقفاً أمام مرآته يصلح شعره وهو يناجي نفسه فيقول :

ـ ان دندولو خلق ليكون رئيساً لديوان التفتيش كما خلقت انا لأكون ملكا لاسبانيا وهو فوق جهله أمور هذا المنصب الكبير الذي يتولاه قد عهد الي بكل أمر وتوارى عن الانظار بحجة اعتنائه بصهره الجريح .

ولكن من الذي جرح التياري .. وفي كل حال فقد اتصل بي ان دندولو يحاول الاستقالة ومن عسى يتولى منصبه الخطير الاي .. نعم سأتولى منصبه ولماذا لا أتولاه الأني لست من النبلاء .. هوذا بمبر وهوذا فوسكاري نفسه فانهما كانا من عوام الناس .. نعم ان الفرصة دانية ولا بد لي من اغتنامها .

والآن فلأشرب كأس خمر فان ما سأفعله يحتاج الى قوة .

وعند ذلك شرب كأس خمر اسبانية وعاد الى مناجاة نفسه فقال :

ـ اني لو لقيت الدوج لقلت له انك يا مولاي في حالة كئيبة وانك والجمهورية في أشد خطر فلو استشرتني في أمرك لما وصلت الى ما وصلت اليه الآن ولما أشرت عليك ان تشمل عيني الدوج كانديانو وتسجن ابنه بل اشرت عليك ان يكون العقاب العكس فكان الحزن قتل الاب وكنت أمنت شر الولد .

والآن فانك لو دخلت الى الحارات وطفت بالبحارة او جلت في الشوارع العامة لما سمعت غير حديث الأعجاب برولاند كانديانو ذلك عدا من تلك العصابات الهائلة التي يتهددك بها في كل حين فاذا جئتك بهذا العدو اللدود يا مولاي الدوج اتجعلني رئيساً لديوان التفتيش ؟

هذا ما يجب ان احدث به الدوج حين اظفر برولاند فلأبدأ الآن بالبحث عنه .

ولا شك ان رولاند من أهل الحيلة والدهاء ولكني اشد منه دهاء فاني اعرف عنه ما لا يعرفه عن نفسه فهو يعتقد انه لا يحب ليونور وانا أرى الحب ماثلا في جميع حركاته واعماله وهو يعتقد انه لن يعود الى منزل

الجزيرة وأنا واثق من انه لا بد ان يعود اليه نعم فانه يشبه العصفور يدرج الى عشه فليذهب الى العش بل الى هذا القفص .

وقد خرج عند ذلك من منزله وهو مطمئن فتفقد خمارتين الى ان انتهى الى خمارة مرسي الذهب .

أما صاحب الخمارة فقد عرفه بالرغم عن تنكره فانحنى أمامـــه بملء الاحترام فقال له رئيس البوليس .

ـ ما لديك من الاخبار يا برتولو ؟

قال : لدي خبر خطير يا سيدي .

ـ ما هو هذا الخبر ؟

ـ هو ان سكالابرينو الهائل ، يد رولاند اليمنى ، قد مات .

فبرقت عينا الرئيس بأشعة الفرح وقال : إذا كنت صادقـاً فيما تقول يا برتولو كافأتك بعشرة دنانير ولكن هل انت واثق مما تقول ؟

ـ دون شك فانا الذي قتلته .

ـ أنت ؟

ـ نعم فقد جاء الى الخمارة فما زلت اسقيه حتى نام الى الأبد .

ـ إذن مر بي غداً لتقبض مكافأتك .

ـ ليس هذا كل اخباري يا سيدي فقد بقي ساندريجو .

ـ لا تحدثني بعـــد الآن عن هذا الرجل اذ لم يبق فائدة من البحث في شأنه .

ـ لماذا العلكم قبضتم عليه ؟

ـ كلا بل لأن الحكومة استخدمته .

وقد تركه الرئيس منذهلا وهو يقول في نفسه .

لقد قتل سكالابرينو فلا بد لي بعد ذلك من القبض على رولاند .

وما زال يسير حتى وصل الى بيت الجزيرة فتسلق جدار الحديقة والقى بنفسه اليها .

وهناك وقف هنيهة يتمعن ويقول :

لا بد من واحد من امرين وهما أما ان يكون رولاند هنا فأسرع وأعد بعشرين رجلا يقبضون عليه ميتاً أو حيـــاً أو لا يكون هنا فأجد الخادم العجوز فاني احاول التعرف بهذا الابله من عهد بعيد فقد أقف منه على كثير من الأمور .

وعند ذلك تقدم في الحديقة حتى وصل الى المنزل فرأى الأنوار كثيرة فيه ولكنه لم يستطع أن يرى احداً .

فدنا من النافذة فوقف تحتها وسمع صوت رجل يقول :

ـ أتقيم الليلة هنا يا مولاي ؟

فأجابه آخر قائلا : نعم يا فيليب فاني محتاج الى ليلة رابعة وعساي ان أجدها في هذا المكان .

فايقن رئيس البوليس ان الصوت الأول صوت الخادم وان الصوت الثاني صوت رولاند .

وقد كاد فؤاده يطير سروراً لاعتقاده الراسخ انه سوف يقبض عليـه فتراجع يمشي الهوينا ويختبيء بين الاشجار كي لا يراه احد حتى إذا وصل الى سور الحديقة حاول ان يتسلقه .

وعند ذلك شعر ان يداً من حديد قد قبضت عليه فحـاول ان يجرد خنجره وشعر ان يداً غلت يده وأنه لا يستطيع الفرار .

كان جينارو مشهوراً بثبات الجأس فلم يذعر لهذه الحادثة وقال لذلك الرجل الذي كان قابضاً عليه .

اني أعطيك الف ريال اذا اطلقتني .

فكان جواب الرجل ان حمله بين يديه كما يحملون الاطفال وعاد بـــه الى المنزل .

فلما رأى الرئيس ذلك الرجل على نور المصباح دهش دهشاً شديداً دون ان ينذعر وقال من أرى .. سكالابرينو !

ثم أجال نظره في الغرفة فرأى رولاند وفيليب والتفت الى سكالابرينو وقال له :

اهنئك بيديك فانهما تشبهان الكلاليب .

ونظر رولاند الى سكالابرينو نظرة السائل فأجابه قائلا:

أن الأمر بسيط وذلك اني كنت عائداً من المدينة فرأيت رجلا يتسلق سور الحديقة فتسلقت السور في أثره وقفوت خطواته وقبضت عليـــه وهو يحاول الرجوع من حيث أتى.

فقال له رئيس البوليس وقد نظر اليه نظرة اعجاب ، احق ما تقول ؟

ـ كيف أكون كاذباً وانت الآن هنا ؟

ـ اذن اهنئك ببراعتك فما كنت احسب انه يوجد من يستطيع اقتفاء أثري دون أن اشعر به .

وعند ذلك التفت اليه رولاند وقال له : من انت ؟

قال : بحار فقير يلجأ الى مروءتك فانك تستطيع يا سيدي ان تسلمني الى الجنود فاسجن وقد اقيم في سجني خمسة اعوام لا أرى في خلالها النور .

ـ ماذا أتيت تعمل هنا.. كن صادقاً في قولك فلا أسلمك الى الشرطة.

فقال الرئيس في نفسه :

ـ لقد نجوت بحمد الله فان الأمر سينتهي بيننا انـه ينعم علي ببعض دريهمات اشفاقاً علي ويطلق سراحي فاعود اليه بعد نصف ساعة لمكافأته .

وعند ذلك أطرق برأسه مستحييا كأنه يخجل ان يعترف بزلته .

فقال له رولاند .

— تكلم وقل الحقيقة .

قال : اني أخجل يا سيدي من الاعتراف بهذه الحقيقة ولكنك وعدتني انك لا تسلمني الى الشرطة .

— وأنا موف بوعدي إلا إذا كذبت فتمعن قبل الاعتراف إذا شئت لأني لا أطلق سراحك إلا بشرط الصدق .

— الحقيقة يا سيدي اني فقير وان اعمالي لا تجري على ما أريد منذ عهد طويل .

— أأنت بحار ؟

— إني بحار بالظاهر يا سيدي ومـــا هذه الملابس التي البسها إلا ملابس تنكر فاني لا أمتهن مهنة البحارة فأجتاز الترعة بالعابرين وأنا أغني وأنشد وأنشد الأشعار كلا يا سيدي فان هذه المهنة مهنة أهل الكسل .

— إذن ما هي مهنتك ؟

— هي ان أتسرب في ظلمات الليل الى المنازل التي لا يحيدون حراستها وان اتفقدها دون ان يشعر بي أحد ثم اعود منها بمـــا يتيسر سرقته بملء الاحترام .

وإني لا أزور غير المنازل الكبيرة ولا أسرق عـادة غير مـا خف حمله وغلا ثمنه وذلك لأني شديد الإعجاب بالجوهرات .

— أي انك تحترف مهنة اللصوصية ؟

— هو ذاك والأسفاه فان المرء خلق ليعمـل وإنمـا يعيش الفتى كيما يضر وينفع ولما كانت أشغالي لا تسير على محور النجاح كما ذكرت لك ولم يكن لي درهم أقتات به خرجت الليلة هائماً على وجهي واليأس ملء قلبي حتى وصلت الى هذا المنزل فدخلت الى حديقته ودنوت منه فسمعت أصواتاً ورأيت نوراً فرجعت قانطاً على ان أعود اليه في الغد فقبض عليّ هـــذا الرجل وهذه حكايتي .

وكان رولاند يصغي الى حديثه كل الإصغاء وعند ذلك سمع في الحديقة صوت صفير فارتعش رولاند وسكالابرينو وتنبه جينارو .

فنهض رولاند وقال لسكالابرينو : احرص على هذا الرجل كل الحرص وبالغ في إكرامه فانه السيد جينارو رئيس بوليس فينيسيا وقد أراد ان يشرفك الليلة بزيارته .

ثم خرج من تلك الغرفة وقد ترك جينارو فيها مصعوقاً من هذه المفاجأة.

وقد سار تواً الى الأرزة الكبرى وهناك صفر مثل الصفير الذي سمعه فظهر له في الحال رجل وقال له :

— مولاي ان الأمر يجري في هذه الليلة .

— أتقدر ان تذهب بنا ؟

— نعم.. دون خطر .

— حسناً فانتظرني هنا .

ثم عاد الى المنزل فقال لرئيس البوليس :

— انك يا مسيو جينارو أسيري .

فأيقن الرئيس انه لا سبيل له الى المفر وسكت .

فقال له رولاند :

— نعم انك أسيري وسأعاملك كما كنت تعاملني إذا اتفق لك ان تأسرني.

قال : لا سبيل بعد ذلك الى الإنكار فأنا هو حقيقة رئيس البوليس ولكني اقتصر على سؤالك عن هذه المعاملة التي تريد ان تعاملني بها .

قال : ماذا كنت تصنع بي لو كنت أسرتني .

— كنت أسلمك الى الحكومة وهنا تنتهي مهمتي .

— وماذا كانت تصنع بي المحكمة ؟

— إنها تسلمك الى الجلاد .

— وماذا يصنع الجلاد ؟

— يقطع رأسك إلا إذا أرادوا الاكتفاء بشمل عينيك بل ازيد على ذلك انهم كانوا يحاكمونك ويحكمون عليك في هـــذه الليلة نفسها ولا يصبرون الى الغد .

وقد قـال الرئيس هذه الأقوال لاعتقاده انه يؤثر بهـا تأثيراً حسناً على رولاند ولكنه حدّق في وجه رولاند فلم يرَ شيئاً من علائم التأثر فقـال في نفسه : لقد قضي عليّ ولم يبق سبيل الى الرجاء .

فقال له رولاند :

— انك أتيت تهاجمني في منزلي يا جينارو دون ان أسيء اليك بشيء .

— ولكن واجباتي تقضي عليّ بذلك يا سيدي وقد أردت إنقاذ الجمهورية.

— بل قل انك اردت ان تقدم رأسي الى مجلس العشرة بإحدى يديك وتلتمس بالثانية المكافأة عن هذه الخدمة اليس كذلك ؟

قال : هو ذاك يا سيدي فلم يدفعني الى مهاجمتك غير الطمع .

فبرقت عينا رولاند ببارق سرور وقال :

— إذن قد هاجمتني فغلبتك وكنت تريـد ان تسلمني الى محكمة فينيسيا فأنا أسلمك الى محكمة الجبال فتحكم عليك بنفس العدالة التي تحكم عليّ بهـا محكمتك .

— محكمة الجبل يا سيدي إذن قل لي بصراحة انك تريد قتلي .

— ذلك منوط بالمحكمة لا بي .

وعند ذلك سمع رولاند قرعاً على الباب بشكل خاص فقال للطارق : ادخل .

فدخل ذلك الرجل الذي لقيه رولاند عند الارزة وقـال له : لقد أزف الوقت يا مولاي .

— حسناً فلنذهب .

وقد أشار إشارة الى رئيس البوليس وانصرف دون ان يهتم لأسيره .

فنهض سكالابرينو الى الرئيس فتأبط ذراعه وجرد باليد الثانية خنجره وهو يقول :

— إن كلمة واحدة تبدو منك تدعوني الى معاقبتك فـــلا توقفني في مواقف الجلادين .

قال : إطمئن فلا أقول شيئاً .

وسار هذا الموكب الصغير يتقدمه رولانـد والأسير بين حارسيه وهـما سكالابرينو وذلك الرجل الى ان بلغوا الشاطىء .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقد اطفئت أنوار الترعة ولم يبق غير نور واحد كان يضيء في قارب .

فمشى رولاند الى ذلك القارب وصفر نفس الصفير الذي صفره في الحديقة عند الارزة فخرج له في الحال رجل وقال له وقبعته في يده :

— إلى أين يريد مولاي ان يذهب ؟

فنزل الى القارب وقال : الى سانت مارك .

ثم نزل رئيس البوليس يحيط بـه الرجلان وسار بهم القارب فوقف بعد نصف ساعة عند سانت مارك .

وهنا نزل جميعهم فقال الرئيس في نفسه : الى أين يذهبون بي ؟

وقد سرى الرعب الى قلبه فقد كان يتوهم في البـدء انهم سيخرجون به فينيسيا وينقلونه الى الجبل ولكن أنزلوه عند سانت مارك فماذا يريدون ان يصنعون به .

ومـا زالوا يسيرون به حتى وقفوا عند احد أبواب تلك الكنيسة وبعـد هنيهة كان داخل الكنيسة وهي مضاءة بنور ضعيف .

فقال الرجل الذي يرافقهم : اسرعوا قبل فوات الوقت .

ثم تقدمهم فدخل من وراء الهيكل في باب ونزل منـــه على سلم وهم يتبعونه حتى اجتازوا ثلاثين درجة .

وهنـاك ساد الظلام فأنار الرجل مصباحاً ورأى رئيس البوليس انـه في إحدى مغاور تلك الكنيسة وهي مغارة متسعة بنيت فيها القبور .

فذهب الرجل الى أحد هـذه القبور وفتحه بلولب خفي فدخل رولاند قبـل الجميع وتبعه رئيس البوليس وسكالابرينو وذلـك الرجل فلما دخلوا جميعهم اقفل الباب من ورائهم .

وهناك رأوا نافذة تطل من ذلك القبر على قاعة رحيبة يستطيع الناظر أن يرى كل ما يجري في تلك القاعة ويسمع كل ما يقال من الحديث دون ان يراه احد .

فالتفت رولاند عند ذلك الى رئيس البوليس وقال له :

ـ انظر واسمع ولكن حذار ان تفوه بكلمة أو تكون من الهالكين .

وقد وقف سكالابرينو فوق رأسه والخنجر مجرد بيده .

وعند ذلك اطفيء النور الذي كان ينير القبر وأخفي ذلك الذي جـاء برولاند .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فكانت دقاتها في ذلك السكون تشبه اجراس الكنائس في ساعات الموت فلم تكد تدق الدقة الثانية عشرة حتى اشرقت القاعة فجأة بالانوار .

فهمس دولاند باذن الرئيس قائلاً : انظر جيداً .

فالصق الرئيس وجهه بنافذة القبر وقد دهش لما رآه حتى أنه نسي موقفه فقد رأى اثني عشر رجلاً ظهروا في تلك القاعة وهم يحملون المشاعل واصطفوا حول القاعة ولبث كل منهم واقفاً قرب مشعله وفي وسط القـــاعة مصطبة كبيرة لم يكن عليها احد ولكن كان عليها كراسي وبعد هنيهة جعل الناس يتواردون الى تلك القاعة وكلهم مبرقعو الوجوه فكان كل قادم يقف أمام واحـــد من حملة المشاعل حتى بلغ عدد الوقوف حول كل مشعـل اثنى عشر رجلا .

فعلم جينارو ان حملة المشاعل هم رؤساء تلك العصابة .
وقد جلس أربعة على كراسي المصطبة فقال رئيس البوليس في نفسه .

ـ ترى من عسى ان يكون هؤلاء المجتمعون المتنكرين وماذا يريدون ألعلهم اجتمعوا لمحاكمتي .. أهذه هي محكمة الجبال الهائلة . ولكن كلا ان ذلك لا يمكن ان يكون لأنهم لو كانوا يريـــدون محاكمتي لوجب ان يكون رولاند معهم وهو يجانبي فمن هم وماذا يريدون ؟
وعند ذلك وقف أحد الرجال الأربعة الذين كانوا جالسين على المصطبة فانتزع برقعه والقاه الى الأرض .

فذعر الرئيس ذعراً عظيما فان هذا الرجل الذي اظهر وجهـــه والذي يظهر أنه رئيس هـذه الجمعية السرية كان قائد جيش فينيسيا العام ، أي التياري .
اما التياري فانه وقف وخاطب الحاضرين قائلا :

ـ ايها الاخوان تفضلوا وانزعوا براقعكم حسب عاداتنا في كل اجتماع كي نأمن الخيانة ونثق انه لا يوجد بيننا رجل غريب .
فنزع الجميع براقعهم وبرزت الوجوه فجعل كل منهم يحيي الرفاق بكلمة أو بابتسامة أو اشارة ثم ساد السكوت .

أما رئيس البوليس فقد كان دهشه لا يوصف فجعل ينظر الى جميع اولئك المحتشدين فعرف معظمهم وكان كثيرون منهم في حاشية الدوج ومنهم من كبـــار الضباط وبعضهم من ضباط الإسطول وآخرون من النبلاء فقال في نفسه :

ـ ترى ماذا يريدون من هذا الاجتماع السري بل لماذا رولاند الذي كان يستطيع ان يقتله جاء به الى هذا الاجتماع وأوقفه في مواقف يرى فيه اولئك الناس دون ان يروه .
أما التياري فانه مضى في حديثه فقال :

ـ ايها الاخوان أرى ان عددنا قد تم وقد عرفتم جميعكم ان ساعة العمل دنت فاشكركم لحضوركم والتفافكم حولي .

وكان يتكلم بلهجة السيادة ولم يكن بين الحاضرين من يخطر له ان ينازعه تلك السيادة فقد كانت علائم الامتثال بادية على الجميع .

فقال التياري:

ـ نعم لقد تم عددنا ولا ينقصنا غير واحد وهو دندولو .

فظهرت علائم القلق على جميع الوجوه بحيث استدل رئيس البوليس ان غياب دندولو يتوقف عليه أمر خطير .

ورأى التياري انهم يتوقعون منه ان يخبرهم باسباب هذا الغياب فقال :

ـ ان حمل يدي في عنقي ايها الرفاق يدلكم على اني كنت جريحا وذلك أني اضطررت الى المبارزة مع دندولو بسبب مسألتنا الكبرى فما ترددت هنيهة عن تجريد حسامي في وجه والد امرأتي وهو شبه أبي ولكني اعترف ان يدي اضطربت وذلك طبيعي خلافاً له فان يده لم تضطرب وأصاب بحسامه زوج ابنته .

أما السبب في هذه المبارزة فهو ان دندولو اخبرني فجأة انه لا يريد الانخراط في سلكنا وأنه تمعن في الأمر فرأى بعد التفكير ان الحكمة وصالح الجمهورية يقضيان ببقاء فوسكاري رئيساً وان المصلحة العامة تقضي بان لا يحدث تغيير على الاطلاق فاضطررت الى مبارزته .

فارتفعت الاصوات وقال كثيرون :

ـ من يضمن لنا انه لا يخوننا ؟

فابتسم التياري وقال :

ـ لقد حملته على ان يقسم على ان لا يبوح بكلمة مما يعرفه بل فعلت خيراً من ذلك فقد أكرهته على الاقامة في قصري ووضعت عليه الرقباء واليوم اكرهته على الاستقالة من منصبه بحيث لم يبق لدينا ما نخشاه .

فصعد عند ذلك رجل الى المصطبة واضطرب الرئيس حين رآه إذ عرف أنه اميرال الاسطول .

أما الأميرال فانه التفت الى الجمهور وقال :

ـ سادتي وإخواني .

ان ما أراد عمله رفيقنا العزيز ورئيس جمهوريتنا في المستقبل لا يستطيع ان يعمله سواه.

ويسؤني جداً ، ان اتبين هذا الضعف من دندولو ولكني على ثقتي انه لا يخون أرى انه لا بد من قتـــله حرصاً على شرفنا وسلامتنا ومستقبل مشروعنا .

فصاح الجميع قائلين :

فقال الأميرال : هو ذاك ويجب ان نقر على ذلك منذ الليلة فاسمعوا ما اقترحه .

اني اقترح على ان نقترع على ثلاثة منا وهؤلاء الثلاثـة الذين تصيبهم القرعة يذهبون الى قصر التيراي حيث يقيم دندولو فيقترحون عليه مبارزة شريفة فاذا لم يقبل بها طعنوه طعنة خنجر تكون القاضيه وإذا قبل بارزه الثلاثة كل بدوره حتى يقتله واحد منهم .

فوافق الاكثرون على هذا الاقتراح ونزل الاميرال عن المصطبة .

أما التيراي فقد قطب حاجبيه وقد علم القراء كيف ان دندولو كان مقيما في قصر التيراي لم يصدق بكل ما رواه إلا بأمر واحد وهو استقالة عمه للانصراف الى العناية بليونور فماذا يصنع متى ذهب هؤلاء المؤتمرون الى منزله وماذا يكون من ليونور متى علمت مقاصدهم واسترسلت الى اليأس .

ولذلك استرعى الجمهور السمع وقال :

ـ ايها السادة الاخوان اني لا اوافق على اقتراح الاميرال فلو قتـــل دندولو في منزلي فكيف اوضح هذه الحادثة ؟

علي اني اؤكد لكم ان والد امرأتي مقيم في منزلي واني مبالغ في مراقبته فاذا قتلناه الآن اثرنا الظنون فيحدث الناس بما يكون وبما لا يكون .

على انا اذا صبرنا الى اليوم التالي لفورنا لا نخاف دندولو سواء كان ميتاً او حياً ولذلك اسألكم ان تعتمدوا علي بكل ما يتعلق برئيس ديوان التفتيش فأنا المسؤول عنه .

وكان التياري يتكلم والاضطراب ظاهر في لهجته فحمل الجميع اضطرابه على محمل النسب وفوق ذلك فقد كان بالتياري ثقة لا حد لها وما زال قد تعهد بعمه وتحمل تبعته فلا سبيل الى مقاومته .

ولذلك وافقوا جميعهم على اقتراحه حتى الاميرال نفسه وكان من الذين خدعوا باضطرابه ايضاً رئيس البوليس فقال في نفسه :

ـ اني لم اكن أعهد بأن التياري يحب عمه الى هذا الحد بل كنت أحسب ان الأمر على عكس ما رأيت ولكن فلأسمع .

وعند ذلك قال التياري :

ـ ليقدم الآن الزعماء تقاريرهم .

فرأى رئيس البوليس ان الاثني عشر مؤتمر الذين جاءوا في البدء بمشاعلهم قد تقدموا من التياري واعطوه اوراقا مختلفة .

فأخذ التياري الاوراق وجعل يقرأها مع ثلاثة كانوا بالقرب منه .

حتى إذا اتم تلاوتهـــا ذهب الى أحد القبور ففتحه ووضع فيه تلك الأوراق .

فارتعش الرئيس سروراً ونسي ان رولاند وسكالابرينو واقفان وراءه.

وعند ذلك خلا التياري باثني عشر رجلا من الحاضرين وجعلوا يتداولون فدامت المداولة ساعة .

وبعد ذلك عـــاد المتداولون الى مواقفهم امام المشاعر وساد السكون الرهيب هنيهة فانهم سيسمعون القرار النهائي .

وقد صعد التياري الى موقفه الأول وقال بصوت جهوري :
« أيها الاخوان ،

ان جمعيتنا مؤلفة من النبلاء وقواد البر والبحر ومن كل من يتولى منصباً عالياً في فينيسيا او كان ذا وجاهة فيها .

أمـــا عامة الشعب فـــلا نعتد بهم إذ ليس بينهم من يحب فوسكاري وسينظرون بجملتهم الى سقوطه بغير اكتراث .

ونحن متفقون على المناصب التي يتولاها كل منكم في الحكومة الجديدة فلا حاجة الى البحث في هذا الموضوع .

ولكني أقسم أمامكم أيها الاخوان وأمام ارواح اولئك الموتى التي ترفرف حولنا وأمام الله الحاضر في هذا الهيكل اني لا أخل بحرف من الشروط التي عاهدتكم عليها واني امنح كلا منكم ما وعدته به في اول يوم من فوزنا .

والآن فاعلموا انكم جميعكم قد اقسمتم لي ايضاً يمين الوفـاء والاخلاص » .

فرفعوا جميعهم أيديهم وقالوا بصوت واحد :

— إننا نجدد اليمين .

فقال التياري :

— إذن فاعلموا اننا متأهبون وقد اعددنا كل ما ينبغي من الوسائل وكل منكم يعرف موقفه وما يجب ان يفعل بحيث لم يبق علينا إلا تعيين اليوم الذي يجب ان نضرب فيه الضربة الكبرى ونحن قـــد اجتمعنا وتداولنا لتعيين ذلك اليوم .

فاعلموا إذن اننا لا نجتمع في هذا المكان بعد اليوم فهو اجتماعنا الأخير .

وأنتم تعلمون ايهـــا الاخوان ان فوسكاري لم يحتفل بعد تلك الحفلة التقليدية التي يحتفل بهـا كل دوج يتولى فينيسيا وهي تلك الحفلة التي نسميها « زواج الدوج ببحر الادرياتيك » .

وبناء على إلحاحي وإلحاح بعض رجالنا رضي فوسكاري ان يحتفل بهذه الحفلة في آخر العام أي في زمن قريب .

ففي هـذا اليوم ، أي في يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك ، يكون موعد زواجه بالموت .

أما موعد اجرائنا فسيكون موعد هذه الحفلة فعند إطلاق اول مدفع من مدافع الاحتفال يعمل كل منكم بما عهد اليه فهل توافقون على هذا الموعد؟

فصاح الجميع هاتفين لالتياري إشارة الى الموافقة . وعند ذلك قال لهم:

— إذن استودعكم الله الى يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك .

فمدت الأيدي اليـه من كل صوب وصافحه الجميع وهم يهنئونه بالفوز وهو يقبل تهنئاتهم بالشكر .

وبعد ربع ساعة تفرق الجميع وعـاد الظـلام والسكون الى تلك القاعة وبقي جينارو رئيس البوليس وهو حائر مضطرب يسائل نفسه مراراً هذا السؤال فيقول :

— ترى لماذا أراد رولاند ان احضر هذه المؤامرة ؟

وعند ذلك فتح باب القبر الذي كانوا فيه ودخل ذلك الرجل الذي جاء برولاند اليه وهو يحمل مصباحاً ، فخرج رولاند في البـــدء وتبعه رئيس البوليس بين الرجل وسكالابرينو فصعدوا السلم حتى وصـــلوا الى ساحة الكنيسة .

وفيما هو يسير معهم وقد نسي نفسه لفرحه بهذا الاكتشاف رأى ان سكالابرينو قد وقف هو ايضـــاً والتفت الى ما حواليه فرأى ستة رجال جالسين على كراسي وأمامهم الشموع .

فذعر وقال في نفسه : ترى أية حـادثة جديدة ؟ ومن هم هؤلاء الستة الذين يشبهون القضاة ؟

ثم رأى صندوقاً طويلاً يشبه التابوت فذعر وقال : ما هذا ؟

فأجابه صوت قائلاً : إنه تابوتك .

فاشتد رعبه ولم يعرف من الذي قال له هذا القول .

ثم سمع رولاند يقول لأولئك الستة :

— يا زعماء الجبل ان الاجتماع الذي كنا عزمنا على عقده في بيت الجزيرة سنعقده هنا واننا في مأمن .

ولكننا قبل ان نبحث في أعمالنا اطلب اليكم ان تؤلفوا شكل محكمة لمحاكمة هذا الرجل .

فقال احدهم : ماذا فعل المتهم ومن الذين يشكوه ؟

قال : أنا .

قال : تكلم إذن ايها الرئيس فاننا مصغون اليك وسنحكم عليه حسب شرائعنا المستقلة .

فقال رولاند : ان اتهامي ينحصر بكلمة وهي ان هذا الرجل يدعى جينارو أي رئيس بوليس فينيسيا .

فقال احدهم : هل التهمة ثابتة عليه ؟

— إنه جاء في هذه الليلة الى جزيرة اوليفو للقبض عليّ أليس ذلك أكيداً يا جينارو ؟

قال : ذلك لا ريب فيه ولكني قد فعلت واجباتي .

فقال أحد القضاة :

— ان الاقرار صريح فلا سبيل بعد ذلك الى المحاكمة ولم يبق بد من ان ينفذ فيه العقاب حسب شرائعنا ثم وقف وقال :

— ان مهمتك يا جينارو تقضي عليك بمطاردتنا نحن الذين نحاول إعطاء الحرية والاستقلال لهذا الشعب المضطهد .

وان شرائعكم تحكم على كل من تقبضون عليه منا بالإعدام وكذلك شرائعنا فانها تحكم عليك بالإعدام لأنك من أعدائنا فتأهب للموت .

فقال رولاند : اني أطلب للمتهم حق الدفاع عن نفسه .

فنظر الستة الى رولاند نظرة انذهال فقال احدهم :

— دافع إذن عن نفسك يا جينارو فقد سمعت اننا نعتبرك من أعدائنا وإننا نقضي عليك بالموت لأنك لو قبضت على واحد منا لقضيتم عليه مثل هذا القضاء وقد أراد رئيسنا الأكبر الذي أخرجنا من الظلمة الى النور وعلمنا ما لا نعلم من اسرار الحياة ان تدافع عن نفسك فدافع إذا استطعت.

قال : اني لا اعتبركم قضاة .

— وهل الذين يحكموننا منكم قضاة أعظم منا ؟

— نعم لأنهم يحاكمون باسم شرائعنا .

— ونحن نحكم باسم شرائعنا ايضاً أما انتم فتحكمون بالظلم والكذب فتجورون على الضعيف والفقير وترهبون الغني والقادر أما نحن فان شرائعنا تمنح حق هذه الحياة لكل إنسان وتبنى على المساواة وأنتم تختارون قضاتكم من بينكم فكيف تنكرون علينا ان نختار قضاتنا من بيننا ؟

قال : حسناً فاني اعتبركم قضاة ولكنكم لا تستطيعون الحكم عليّ لأني قمت بواجباتي .

— أتحسب من واجباتك قتل أمثالك في الإنسانية او تسليمهم الى الجلاد ليقتلهم ؟

— كلا اني أقبض على أمثالي بل على الذين يسيئون الى الهيئة الاجتماعية.

— أي الذين يسيئون اليكم أنفسكم وكذلك نحن فاننا نقتل من يسيء الينا .

— إذن كنتم تفعلون نفس ما نفعله لكنتم ايضاً مثلنا .

— هو ذاك غير ان مقاصدنا تختلف عن مقاصدكم ولكن الواسطة واحدة وهي الحرب الناشبة بيننا .

– إذا كان ذلك فلم يبق لي سبيل الى الدفاع لأني أصبحت أسير حرب فافعلوا بي ما تشاؤون .

وقد أطرق برأسه وضعفت عزيمته فقال له رولاند :

– هذا الذي كنت ادفعك الى قوله يا جينارو وهو ان تعترف انك أسيرنا وانك أسير حرب وانه يحق ان نعاملك معاملة عدو لدود .

– اقتلوني اذن ما زلت كما تقولون .

– اصغ إلي يا جينارو فان أبي حين كان دوجاً لم يسىء الى حرية الشعب بشيء ولم يخالف نظام الشرائع ولكنه كان يعتبر ان أفقر بحار وأعظم نبيل متساويان لدى القانون وهذا هو ذنبه الوحيد الذي جوزي عنه بشمل عينيه كما تعلم وجوزيت أمي بالموت يأساً وجوزيت أنا بالسجن ستة أعوام في أعمق الآبار .

فاعلم يا جينارو ان الذين انفذوا هذا العقاب الهائل كانوا فوسكاري وبمبو والتياري وقد عرفت جرائمهم الهائلة وانهم لم يبلغوا الى هذه السلطة إلا بعد ارتكاب هذه الجرائم ومع ذلك فانك تخدمهم .

فكيف تقول انك تفعل واجباتك بالقبض علي وانما أنا أريد معاقبة المجرمين بل اني أريد ان اعمل عملاً نافعاً يستفيد به جميع الناس وكان عليك ان تختار بين العقاب والجريمة ولكنك اخترت الجريمة بخدمة أهلها .

جرد نفسك يا جينارو من شوائب الاغراض ولا تفتكر بظاهر تلك الالفاظ الرنانة كالواجبات والعدل والشرائع بل افتكر بحقيقة معانيها تجد انك اخطأت بخدمة هؤلاء المجرمين الذين لا يستخدمون الشرائع الا للعبث بالشرائع ولا يتذرعون بالواجبات الا للاخلال بالواجبات .

فتأثر رئيس البوليس لأقوال رولاند وترقرق الدمع في عينه فقال له رولاند :

– ان دمعة واحدة تشتري زلات كثيرة فتمعن يا جينارو بكل ما رأيته

وسمعته الليلة في الدهاليز السرية واذهب فانك حر مطلق السراح .

فكادت عيناه تخرجان من وجهه لفرط اندهاله وقال : أنا حر طليق ؟

ثم سقط مغمياً عليه كأنه لم يطق احتمال هذا السرور الفجائي بعد أن سمع بأذنه حكم الاعدام عليه وبعد أن رأى بعينه التابوت .

فلما استفاق لم يجد نفسه حيث كان بل وجد انه كان طريحاً على شاطىء الترعة .

فاسرع الى منزله فوضع رأسه بين يديه وتاه في مهامه التفكير .

* * *

عندما ذهب رولاند الى كنيسة سانت مارك كان عالماً بما سيراه فقد كان له كثير من المخلصين بين المؤتمرين مع التياري وقد وقف منهم على نيات هذا القائد .

وكان في وسعه احباط هذه المؤامرة غير انه رأى ان يهيج الحزبين حزب فوسكاري وحزب التياري فيقسم قوتهما ويضعفهما وكلاهما خصمه فقد ثبت جلياً أن الأميرال لم ينخرط في سلك هذه المؤامرة الا بايعازه .

وعلى ذلك فان الدوج والتياري سيقتتلان أشد قتال دون ان يعلما ان رولاند الذي سحقهما .

فلما أتاه ذلك الرجل حين قبض سكالابرينو على جيناريو وعلم منه ان الجلسة ستعقد هذه الليلة خطر له ان يصحب معه رئيس البوليس .

وذلك أنه منذ قبض عليه كان يفتكر بأن هذا الرجل قد يفيده فائدة عظيمة ويتمعن الفكرة في طريقة استخدامه الى ان خطر له ذلك الخاطر الفجائي وهو أن يدع رئيس البوليس يعلم بأمر المؤامرة ويعلم جميع المؤتمرين فيخبر فوسكاري دون شك بما رآه فتنشب الحرب الأهلية بين النبلاء المنقسمين الى قسمين فيضعفان بعد هذا القتال فيغتنم رولاند فرصة

هذا الضعف ولا يجد مقاوماً شديداً حين يضرب ضربته الكبرى .

ولذلك أطلق سراح رئيس البوليس بعد ان أوهمه انه محسن اليه بهذا العفو وبعد ان أوقفه على هذا السر الهائل

* * *

أما جينارو فانه بعد أن لبث في منزله مضطرباً نحو ساعتين عادت اليه السكينة وعاد الى التفكير والإمعان .

ومن غريب أمره أنه كان يبذل جهداً عنيفاً كي لا يفتكر برولاند ولكنه لم يكن يستطيع التفكير الا به فكان يسمع قوله له :

ـ انك حر مطلق السراح .

فيهتز لهذا القول ويقول : ان من واجباتي ان اقبض عليه وسأفعل أما الآن فلافتكر بغير هذا الشأن .

٤٨

جوانا

تركنا جوانا وقد خرجت من المنزل بعد ان ودعت رولاند واباه وسكالابرينو وذهبت توا الى فينيسيا فلم تقم في ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه مع سكالابرينو بل استأجرت غرفة في شارع ضيق يشرف على ساحة سانت مارك .

ولم تكن قد وضعت لنفسها خطة فان هذه المنكودة لم يكن لها غير فكر واحد وهو انقاذ ساندريجو من رولاند .

وكانت خطتها شديدة الصعوبة فانها كانت تريد انقاذ ساندريجو ولكنها كانت تحاول في الوقت نفسه إكراه ساندريجو على عـدم قتل رولاند أو سكالابرينو .

فلما وصلت الى فينيسيا كان اول همها ان تجد ساندريجو فاقامت اربعة ايام وهي تبحث عنه كل يوم في الميناء والأرصفـة والشوارع الى ان كانت الليلة الخامسة فلقيته عند ساحة سانت مارك ولكنها وقفت حائرة منذهلة لا تعلم اذا كانت خدعتها عيناها لانها رأت ذلك اللص بملابس الضباط .

فلما ثابت من ذهولها كان ساندريجو قد دخل الى قصر بمبو فوقفت عند ذلك الباب تنتظر خروجه .

وبعد نصف ساعة خرج ساندريجو وسار فاقتفت أثره وهي لا تعلم ماذا تصنع الى ان وقف عند باب منزله وهم بالدخول فالتفت منذهلا اذ شعر بيد لطيفة قد وضعت على كتفه ورأى جوانا فقال :

ـ انت هنا في فينيسا !

قالت : نعم وقد اتيت لاحدثك يا ساندريجو .

ـ اذن ادخلي ايتها العزيزة لتعلمي مقدار سروري بلقياك .

فدخلت واياه واجلسها فقال لها بلهجة الهازىء :

الا تزالين في حراسة الشيوخ والفتيات .. اني اهنئك بهذه المهمة ولكني اعجب لفتاة جميلة مثلك لا تزال في نضارة شبابهـا كيف تقضي على ذلك الشباب وتدفن نفسها حية كي تخدم المجانين .

ولكنك اتيت اخيراً واذا شئت أجعل لك مركزاً هنا فلا تعجبي لقولي الذي لا ينطبق على ظواهر منزلي الحقيرة ولكن لا تغتري بالظواهر فانه لا يمضي زمن وجيز حتى ابلغ ما لم يكن يخطر في بال .

وكل ما أرجوه ان لا تكوني حاقدة علي فقـــد قضت علي السياسة ان

اتصرف معك كما تصرفت واعلمي اني قادر على افادتك فاذا شئت ادخلتك الى منزل امرأة شهيرة فلا تجدين عندها الا الخير اتقبلين ؟

فاجابته قائلة :

ـ ساندريجو اني ما اتيت إلا لانقذك .

ـ ممن تنقذينني ؟

ـ من رولاند كانديانو .

فوقف ساندريجو وقد توقف الحقد في عينيه وقال :

ـ رولاند كانديانو ذلك الرجل الذي اهانني وداس كبريائي .

اني اكرهه بملء جوارحي ويسرني انك اتيت لانذاري يا جوانا بعد ان اسأت اليك تلك الاساءة فقولي يا جوانا كل ما تعلمينه عنه فقد عرفت نياتـه دون شك واين هو مختبىء فلا تمضي ساعة حتى يبيت قتيلا .

ـ كلا يا ساندريجو انك لا تقتل رولاند .

ـ لا اقتله ابداً ؟

ـ كلا .

ـ ومن يمنعني ؟

ـ أنا .

ـ انك مجنونة دون شك .

ـ تفرس في وجهي اترى مني ما يدل على الجنون ؟

ـ اني لا افهم ما تريدين فقد قلت لي انك اتيت لانقاذي من رولاند ثم تقولين انك تمنعينني عن قتله فكيف يتفق هذان القولان ؟

ـ لقـد قلت ما قلتـــه يا ساندريجو فاصغ الي واعلم انه إذا قتلك رولاند مت انا يأساً ولذلك اتيت لأنقذك ولكنك اذا اردت قتلـه فاقتلني أنا قبله .

فضحك ساندريجو وقال :

— اني لا أفهم شيئاً من اقوالك لأنك تريدين ولا تريدين في وقت واحد فاوضحي ما تقولين .

— ذلك لأني لا أريد ان تموت ولا ان يموت هو ايضاً فاعذرني يا ساندريجو إذا كنت لا أحسن التعبير عن افكاري فلا تنظر إليّ هذه النظرات ألا ترى اضطرابي ؟

— ولكن ألم أقل لك اني اكره هذا الرجل كرهاً لا تصفه الاقلام واني لا يهنأ لي عيش إلا بقتله فاذا كنت لا تريدين ان اقتله فقولي لي على الأقل كيف تريدين إنقاذي ؟

— ذلك لأني أعلم عن رولاند ما لا تعلمه وإذ كنت قد عرفت شيئاً فقد فاتتك أشياء ، ألا ترى ذلك الاعصار حين يثور فيجرف كل ما يمر به في السهول وهكذا رولاند فانه سيمر بفينيسيا مرور الاعصار والويل لمن يقف في سبيله ، فلماذا تريد ان تتصدى له يا ساندريجو ، اني اضمن لك بأنه لا يمسك بسوء بشرط ان لا تقف في سبيله .

— لقد فهمت الآن .

— ماذا فهمت ؟

— فهمت ان رولاند ارسلك إليّ لأنه يخافني .

— انك منخدع يا ساندريجو فان رولاند لم يكلمني كلمة عنك بل أنا الذي كلمته وقرأت بين عينيه انه يعفو عنك إكراماً لي بشرط ان تنسحب من المعركة .

— أي بشرط ان أبرح فينيسيا .

— نعم هو ذاك فلنسافر معاً يا ساندريجو أتريد ان أسافر معك الى حيث تشاء وأكون معك كما تشاء .

— أأتيت الى فينيسيا لتقترحي عليّ مثل هذا الاقتراح ؟

— نعم .

— ان اقتراحك صالح مقبول ولكن يوجد مانع يحول دون تنفيذه .

— كرهك لرولاند أليس كذلك .. وأسفاه اني كنت أود ان تعرفه حق العرفان .

— إذن كان يزيدني كرهاً ولكن ليس الكره الذي يحول دون اقتراحك.

— إذن ماذا ؟

— الحب .

فصعقت جوانا لهذا التصريح ومضى ساندريجو في حديثه فقال :

— نعم اني محب واني محبوب ويوم السبت سيعقد قران القائد ساندريجو في كنيسة سانت مارك ويحضر حفلة قرانه نبلاء فينيسيا والآن فاذا اردت ان تعرفي خطيبتي فاعلمي انها تدعى بيانكا .

فسقطت جوانا على كرسيها واهية القوى وأتم ساندريجو حديثه فقال:

— أرأيت كيف اني لا استطيع ان أبرح فينيسيا في الوقت الحاضر فاذهبي الآن يا جوانا فقد اوشك ان يهبط الظلام ومتى تزوجت وسكنت في منزلي الجديد سأستقبلك على الرحب .

وكان هذا اللص السفاك يكلم تلك المنكودة وهو يشاور نفسه بين ان يبقيها عنده أسيرة او يفتك بها كي يمنعها عن ان تقابل رولاند .

ولكن خطر له انه اذا تركها تنصرف يتعقب أثرها ويعلم اين يقيم رولاند إذ لم يكن لديه شك لفرط غروره بنفسه ان رولاند يخافه وانه ارسل جوانا اليه .

أما جوانا فان كلمات ساندريجو ضعضعت حواسها فقالت له :

— الى اللقاء القريب ثم انصرفت وهي تتمتم بكلمات لا تفهم .

وأما ساندريجو فانه خرج في أثرها الى ان عرف المنزل الذي دخلت اليه.

فانصرف وعاد بعد نصف ساعة يصحبه جاسوس فدله على المنزل وقال

له : انها تقيم هنا فيجب ان تعرف أين تقيم بالتدقيق كي لا أجد صعوبة حين الدخول اليها .

فأجابه الجاسوس قائلا : ذلك سهل .

قال : حسناً فسأقف في موقف المراقبة وسأرسل لك معيناً فاذا خرجت فاتبعها وإذا زارها احد فارسل إلي في الحال من يخبرني ثم تركه وانصرف بينما كانت جوانا في غرفتها الصغيرة تشهق بالبكاء .

* * *

بينما كانت جوانا تبكي وتنتحب وتنظر واليأس ملء قلبهـا الى تلك الهوة العميقة التي فتحت أمامها كان ساندريجو قد دخل الى منزله ووقف يصلح شعره أمام مرآته ويتأنق في لباسه .

حتى إذا أتم لبس ثوبه الجديد قال في نفسه :

— من يستطيع ان يعلم انه يوجد في هذا الثوب ذلـــك اللص السفاك ساندريجو ، كلا حتى ان رفاقي القدماء قد لا يعرفونني .

حتى إذا أتم لباسه ولبس قبعتـــه نظر الى المرآة نظرة أخرى وابتسم وقال :

— لا شك ان النصر سيكون حليفي وسأظفر بقلب بيانكا في حفلة الليلة .

ذلـك ان ساندريجو كان كسواه من الشبان الأغرار الذين منت عليهم الطبيعة بشيء من الجمال فانهم يحسبون ان النساء رهن لحظة من لحظاتهم .

على ان قتله لرولاند كان اسهل من فوزه برضى بيانكا .

ولم يكن ساندريجو وحده يهتم بهذه الحفلة التي ستعقد فيها خطبته هذه الليلة في قصر امباريا بل ان رولاند ايضاً كان يود حضورها فقد لبس ملابسه

ولم يفيّز ولم يتنكر فلا ندري أكان ذلك لإفراطه في البسالة أم انه كان له قصد خاص .

غير انه لبس برقعاً من المخمل الأسود حسب العادة في تلك الايام وخرج من المنزل في الساعة الحادية عشرة ونصف أي بعد بدء الحفلة بساعتين .

ولما خرج من المنزل الى الردهة وجد كثيرين من الرجال مجتمعين فيها فقال لهم :

— هل هيأتم رجالكم ؟

قالوا : نعم فانهم في مراكزهم منذ ساعتين .

— حسناً فسأخرج من الحفلة في الساعة الثانية تقريباً بعد انتصاف الليل فلا تصنعون شيئاً فاذا بلغت الثانية والنصف ولم تروني فابدأوا الهجوم .

فانحنى اولئك الزعماء بملء الاحترام وتفرقوا بحيث لم يبق غير سكالابرينو فقال :

— أتظن يا مولاي اننا نفوز ؟

قال : اطمئن يا سكالابرينو فان القصر سيطوقه مائتا رجل وهذا العدد كاف لاختطاف فتاة .

قال : لقد أصبت يا مولاي فان ثقتي بك لا حدّ لها واني اعتقد اعتقاداً كبيراً انك سترد لي ابنتي ولكن قلبي يحدثني بمصاب لا اعلم ما هو .

— لا تخف شيئاً فقد علمت ان بيانكا كانت في قصرها في الساعة الثامنة من هذه الليلة .

فأطرق سكالابرينو هنيهة مفكراً ثم قال :

— لقد عهدت يا مولاي الى كل من رجالنا بمهمة يقضيها إلا أنا .

قال : ليس من مهمة اعهد اليك بها سوى انه يجب ان تقف أمام باب قصر امباريا الى الساعة الثانية والنصف .

— لماذا لا تريد ان اعمل شيئاً .

— لأنك أب قد يدفعك الحنو الى فعل ما يفسد عملنا فدعني أقضي هذه المهمة مع رجالنا وهلمّ بنا الآن فقد حان الأوان .

* * *

ولنعد الآن الى جوانا فان هذا النبـأ الذي تلقته من فم الذي تحبه عن بيانكا قد صعقها فاسترسلت الى البكاء حتى إذا فضبت دموعها قالت :

— كلا انه لن يتزوجها وذلك مستحيل .

ثم خرجت من منزلها هائمة على وجهها وهي تردد هذا القول كالمجانين .

ومـا زالت تسير حتى رأت انها بلغت شاطىء الترعة الكبرى وهنـاك لقيت بحاراً وقالت له :

— هل لك ان تدلني على قصر امباريا ؟

فمد البحار يده مشيراً الى قصر يبعد نحو مائة خطوة .

فقالت : اهذا هو قصر امباريا ؟

قال : نعم هو ذلك القصر المتلالىء بالانوار إذ يظهر ان ليس لهذه المرأة بنتاً وانها تحتفل الليلة بعقد زواجها .

فارتعشت جوانا وسارت الى ذلك القصر .

٤٩

أم او محظية

كانت امباريا قد عقدت هذه الحفلة بأمر بمبو فجاءها الناس على اختلاف الطبقات وكانت حفلة نادرة المثال فان المحظيات في ذلك العهد كان لهن منزلة كبيرة ولا سيما من كانت مثل امباريا وكان يظهر عليها في تلك الليلة انهـا

متأثرة تأثراً عظيماً فانها كانت تضحك ثم يصفر وجهها ثم تقطب حاجبيها ثم تعود الى الضحك وكل ذلك لغير سبب ظاهر .

وقد كانت لم ترَ بنتها منذ ثلاثة أيام فان الغيرة كادت تمزق قلبها الفاسد.

ففي الساعة الخامسة من تلك الليلة دخلت الى بنتها تتبعها خادمة تحمل صندوقاً صغيراً فأمرت الخادمة ان تضع الصندوق في الغرفـــة وان تذهب لإحضار البقية .

فامتثلت وعادت بعد هنيهة بثوب من الحرير الأبيض فوضعته على المقعد.

أما بيانكا فانها كانت تنظر الى هذه الملابس نظرات تشف عن الرعب .

فلمـا انصرفت الخادمة دنت امباريا من بنتهـا فقبلت جبينها ثم فتحت الصندوق فأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ الثمين ومشطاً مرصعاً باللؤلؤ ايضاً ونطاقاً مرصعاً بالالماس ثم اخرجت تاجاً صغيراً رصع بالحجارة الثمينة المختلفة فأخذت تلك الحلى بيدها وقالت :

— كيف ترين هذه الحلى يا ابنتي ؟

قالت : انها من ابدع المجوهرات .

— ولكن جمالها يزيد متى كانت عليك .

— عليّ أنا ؟

— نعم يا ابنتي فاني أحب ان تلبسيها كي أرى كيف تكون عليـك مع الثوب الأبيض .

فوقفت بيانكا وقد تبين الذعر في عينيها فقالت :

— ماذا تريدين مني يا أماه اني احب ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة .

— أتعدين اعظم حفلة أحييها في فينيسيا من الأمور الهائلة ؟

— إذن لقد احضرت لي هذه المجوهرات وهذا الثوب كي احضر تلك الحفلة التي سمعت الخدم يتحدثون بها ؟

— نعم يا ابنتي فاني أريد ان تفتني الأبصار وان تهيجي قرائح الشعراء

واعلمي يا بيانكا انك قد تجاوزت السن الذي تنحصر فيه البنات في المدارس وفي الغرف وآن لك ان تظهري أمام الناس فان هـذه العزلة تقتلك وأنا لا أريد لـك إلا الحياة فانك تعلمين انك ابنتي الوحيدة وانك كل مـا أحبه في هذا الوجود .

وبعد ان قالت لها هـــذا القول وقفت تتمعن في جمالهـا فاصفر وجهها فجأة وقالت :

— نعم ان جمالك بديع فتان لا يلبث الناظر اليك ان يراك حتى يتدله في حبك ، وأما أنا ..

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وقالت :

— ما بالك يا أماه ومـــا هذه الأقوال الغريبة التي اسمعها منك انك تعذبينني .

فبذلت امباريا جهـــداً عنيفا حتى تمكنت من ضبط نفسها فضحكت وقالت :

— الحق اني مجنونة فاعذريني يا ابنتي فاني متأثرة لفرط سروري بك فان هذه هي المرة الأولى التي تجتمعين بها مع الناس .

ثم أشارت الى المقعد وقالت :

— انظري الى هذا الثوب الابيض يا بيانكا فقد اعتنيت به عناية خاصة وستظهرين بـــه كالملكات ولكن كاد يفوت الأوان يا ابنتي وسأسلمك إياه بيدي .

فتأوهت بيانكا وقالت :

— اني لا أحضر هذه الحفلة يا أماه .

فارتعشت امباريا وخامر قلبها شيء من الرجاء ولكنها مع ذلك لم تجد بـداً من اقناعهـا على حضور الحفلة فان عواطف الأمومة وعواطف الغيرة كانت تتنازع في قلبها .

فقالت بيانكا :

— انك تعلمين يا أمي شدة نفوري من هذه الحفلات فلماذا تحاولين إكراهي على حضورها وماذا اعمل بحفلة لا اعرف احداً من اهلها ؟

فأجابتها بصوت مختنق وهي تتمنى ان لا تتمكن من اقناعها .

ولكن ذلك لا بد منه يا ابنتي .

— لا افهم ما تقولين وهذا الذي يعذبني فقد أشكل عليّ فهم مقاصد الناس حتى أمي وقد آن لنا ان نتوضح يا أماه بملء الاحترام .

— تكلمي يا ابنتي وسليني عما تشائين أجيبك .

— نعم فاني أحب ان اعلم قبل كل شيء لماذا تقولين ان حضور هذه الحفلة لا بد منه ولم تقولي هذا القول قبل اليوم ولماذا كنت تحجبينني عن العيون حتى اوشكت ان تسدي عليّ منافذ النسيم والآن تريدين ان اظهر في قاعتك لجميع الناس ؟

— ذلك لأن اليوم غير أمس ولكنك تجاوزت عهد الحداثة فأصبحت صبية وغداً تصبحين امرأة حسب النظام العام .

فاصفر وجه بيانكا وقالت :

— ذلك يدل انك تريدين تزويجي .

— هو ذاك .

— وعلى ذلك فقد اخترت لي الزوج .

— وهذا أكيد ايضاً .

— وإذا قلت لك اني لا أريد ان اتزوج واني ارجوك ان تذهبي بي من فينيسيا .

— أجيبك ان زواجك ضروري .

— ولمن ؟ ما زلت لا أريد الزواج .

— لي أنا .

فساد بين الأم والبنت سكون يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة.

فأطرقت امباريا برأسها وكانت عيناها ترسلان شراراً خلافاً لبيانكا فانها كانت تراقب أمها بملء السكينة ولكن علائم صحة العزيمة كانت بادية عليها فان نبأ زواجها قد أثر بها تأثيراً عظيماً ولكنها علمت انه لا يزال لديها أمور كثيرة يجب ان تعلمها فتمكنت من ضبط نفسها وقالت :

— أرى يا أماه منذ عهد بعيد ان لديك أمور خفية تحاولين كتمانها عني فانيعشت كل مدة حداثتي وحدي ولما جئت اليك جعلت حاجزاً منيعاً بيني وبينك ومع كل ذلك اشعر انك تحبينني واني أحبك .

ثم انك لا تخرجين بي للنزهة إلا حين هجوم الظـــلام وتبرقعين وجهي ووجهك ايضاً ببرقع كثيف كأنك لا تريدين ان يعرفك احد حين أكون وإياك وهنا في نفس هذا المنزل اعيش معتزلة منفردة لأسباب لا اعلمها حتى سئمت هذا العيش وهذه الالغاز ولكن ليس هذا كل شيء فانك الى الآن لم تقولي لي شيئاً عن أبي .

— أبوك ؟

— نعم أليس لي أب ؟

فاضطربت امباريا اضطراباً شديداً إذ لم يخطر في بالها ان ابنتها ستسألها يوماً عن أبيها فنسيت في تلك اللحظة ساندريجو وبمبو والحفلة وبدت على وجهها صفرة الخجل وهي لم تخجل في حياتها فقالت لها :

— اسكتي يا بيانكا فلماذا تريدين ان تخجليني ؟

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وحدقت بهـــا كأنها تحاول ان تقرأ دخائل قلبها في عينيها وقالت :

— أي خجل تعنين يا أماه انك قد اندفعت في القول فلم يبق لي بد من ان أعلم .

— بيانكا أرجوك ..

— كلا اني أريد ان أعلم .

ـ إذا كان لا بد من ذلك فاعلمي .. ثم غطت وجهها بيدها وقالت : ان أباك لص لم يرك في حياته ولا يعلم بوجودك .

ـ يا للهول .

ـ نعم يا ابنتي هذا هو السر الهائل الذي اكرهتيني على ان أبوح لك به فاني كنت أحاول أن اكتم عنك عيشي الذميم ولكنك أبيت الا اكراهي على القول .. نعم يا ابنتي اني تلك الحظية الشهيرة التي يدعونها امباريا .

وهنا اختنق صوتها بالبكاء فقالت بيانكا بلهجة حنونة :

ـ كفي أيتها الأم العزيزة فاني سأنسى كل ما سمعته منـــك الآن فليمت الماضي ولتبرح هذه المدينة الى بلاد لا يعرفنا فيها أحـد فافتخر بك وأقول هذه امي التي أحبها .

فهاجت العواطف المختلفة في صـــدر امباريا وتمثل لها أنها إذا برحت فينيسيا اضطرت الى فراق ساندريجو فسقطت عواطف الأمومة لمجرد هذه الذكرى وقالت :

ـ اني أريد يا ابنتي ان أسافر فان كل سعادتي ان أكون انا وإياك ولكن ذلك مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ لا تسأليني مزيداً ولكن اعلمي انه قـد مر في أيامي الماضية حوادث دعت الى يأسي اذا لم تنقذيني قضى علي .

ـ تكلمي يا أماه فاني مستعدة لانقاذك .

ـ اذن فاعلمي يا بيانكا انه لا ينقذني غير زواجك ولا تحسبي اني اريد أن اضحي سعادتك على هيكل أغراضي فان ذلك الرجل الذي يحبك ويريد زواجك يشغل منصباً خطيراً في فينيسيا وهو في مقتبل الشباب جميل قوي تتمنى كل حسناء ان تكون زوجته فستكونين معـــه غنية محبوبة محترمة وتموت أمك سعيدة لأنها تراك سعيدة .

فاجابتها بيانكا قائلة : كلا يا أماه اني لا اتزوج هذا الرجل ولا سواه .
فأجابتها أمها كأنها لم تسمعها :

ـ بل يجب ان تحبينه فهو الذي انقذك وأرجعك الي .

ـ معاذ الله ان أحبه بل أكرهه .

ـ تكرهينه ؟

ـ نعم .

ـ لماذا هذا الكره وبماذا اساء اليك ؟

فاصفر وجه بيانكا وقالت :

الي .. انه لم يسيء الي بشيء .. ولكني اسالك بدوري يا أمـاه ان لا تسأليني شيئاً .

ـ أتريدين أن أقول لك الحقيقة يا ابنتي اذن فاعلمي انـك تكرهين ساندريجو لانك تحبين سواه .

ـ نعم فانك تحبين ايتها الشقية رولاند كانديانو .

فأجابتها باندهال صادق قائلة :

ـ رولاند كانديانو . اني لا أعرف هذا الرجل .

ـ بل انك تعرفينه فهو الذي اختطفك من هنا وهو الذي أوهمنـا في البدء انه طبيب وهو الذي ذهب بك الى قرية مستر وأقسم على ان يشقيني ويقتلني . نعم انك تحبين الرجل الذي اكرهه وهو رولاند كانديانو .

فتنهدت بيانكا تنهداً عنيفاً وقد سمعت أمها تذكر لها انها تحب هـذا الرجل وعرفت انه يدعى رولاند كانديانو فاضطربت اضطراباً عظيما ولم تستطع احتمال هذا التأثير فسقطت مغمياً عليها .

ولم يطل اغماؤها فلما استفاقت وجدت أمهـا جاثية بقربها فقالت لها فجأة :

ـ بماذا كنا نتحدث يا أماه أليس بحديث الحفلة ؟

قالت : نعم وبغير هذا الحديث ايضاً .

قالت : لا تذكري لي بالله غير حديث الحفلة .

ـ ولكنك أبيت ان تحضريها.

ـ أنا قلت ذلك..اذن لقد كنت مخطئة فاني أحب ان احضرها وأحب أن أرى .

فاضطربت امباريا وقالت في نفسها : ترى ما الذي يحملها الآن على حضور الحفلة ومن الذي تحب ان تراه ألعلهـــا ترجو أن ترى رولاند ثم قالت لها :

ـ أحق ما تقولين :

قالت : نعم فاذهبي ودعيني ألبس وحدي فاني أحب أن اكون جميلة كما تقولين .

فذهبت امباريا وهي معجبة لهذا الانقلاب وبيانكا وحدهـا فجعلت تضع في صرة بعض اشياء كانت تحبها وهي ساكنة هادئة غير أنها كانت معجبة بنفسها لهذا العزم الفجائي الذي اوحي اليها .

وبعد ان تمت معداتها اخذت الصرة بيدها وفتحت باب غرفتها فخرجت منه الى ساحة ومن تلك الساحة الى رواق ضيق انتهت منه الى سلم فنزلت عليه حتى انتهت الى باب من ابواب القصر كانت تخرج منـه للنزهة كل ليلة مع أمها .

وقد فتحت ذلك الباب وخرجت مسرعة وهي لا تفتكر الا بالابتعاد عن امها .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة ، أي ان الظلام كان قـــد خيم على فينيسيا ، ولكن القوارب كانت مصابيحها مضيئة وبعد ان ابتعـدت نحو خمسمائة خطوة من القصر وقفت وقالت في نفسها :

ـ رباه الى اين اذهب وماذا اعمل وما يكون مصيري ؟

وقد اضطربت في امرها اذ لم يكون لها اصدقاء ولا ام ولا بيت ولا مال غير بضعة دريهمات كانت في جيبها وما كان عليها من الحلى .

ولكنها كانت تؤثر عذاب البرد والجوع والفقر بل كانت تؤثر الف موت على ان تعود الى امها بعد ان علمت من فمها انها محظية وانها تريد ان تبهرجها وتزينها لتبيعها في سبيل اغراضها .

وعند ذلك خطر لها خاطر فجائي انار ظلمات يأسها فنادت بحاراً وقالت له :

— هل تريد ان تجتاز البحيرات ؟

قال : حباً وكرامة يا سيدتي .

فنزلت الى القارب وسار بها يخترق العباب فقال لها البحار : في اي شاطىء تريد سيدتي ان تنزل ؟

قالت : في الشاطىء المؤدي الى طريق مستر .

— ٤٩ —

رجل الغابات

عندما نزلت بيانكا من القارب الى الشاطىء كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة .

فوقفت وحدها في ذلك المكان المظلم المقفر الى ان توارت السفينة عن انظارها .

ولبثت على ما كانت عليه من الشجاعة والصبر حتى اذا مشت قليلاً ورأت انها لا ترى غير الظلمات ولم تعد تسمع انين المياه ولم تعد ترى غير تلك الظلمات التي كان الهواء البارد يطارد غيومها المتبعثرة شعرت ان تلك الشجاعة قد فارقتها وان الرعب قد بدأ يتولاها .

وكان البحار قد دلها على طريق مستر وهي قريبة منها فجعلت تشجع نفسها وتوسع الخطى .

وكانت الأشجار الباسقة مغروسة على جانب الطريق فكان الهواء يحرك اغصانها فتخرج اصواتاً يتمثل للفتاة انها تقول لها :

— الى اين تذهبين ايتها الصغيرة الحسناء .. ليس اب ولا ام ولا اخ ولا زوج أهكذا تسيرين وحدك في هذا الظلام المخيف ؟

فكانت بيانكا تجيب هذه الاصوات فتقول في نفسها :

— هناك في ذلك البيت الصغير في مستر اجد الأم والأخت.. اجد جوانا اجد ذلك الشيخ الجليل .. وربما وجدته هو .. نعم ان نظرة منه تنسيني الامي وكلمة من فمه ترد الي الرجاء المفقود .

وما زالت تشجع نفسها بهذه الاقوال وتسير حتى وجدت نفسها في غابة متوسط الطريق .

فوقفت منذعرة فان الغابة كانت كثيفة فتمثلت لها اشجارها رجالا من العمالقة سود الملابس سود الوجوه وخيل اليهـــا ان حفيف تلك الاشجار كلمات يهمس بها اولئك العمالقة بعضهم في اذان بعض .

وكيف لا ترعب تلك المنكودة ولو سار الرجل الشجاع في مثل الغابة في ظلام الليل لما تمكن ان يصون نفسه من الرعب .

وفيما هي على ذلك مر بها ايل وهو يركض ويصوت ولو علمت انه ايل لاطمأنت ولكنها لم تكن قد سمعت من قبل ذلك الصوت ولم تستطيع ان ترى ذلك الحيوان لشدة الظلام فـذعرت ذعراً لا يوصف وجعلت تركض وهي لا تعي إذ لم يخطر لها في ذلك الحين غير خاطر وهو ان رجل الغابات يطاردها .

وذلك ان الخرافات كانت كثيرة في ذلك العهد ومنها خرافة كانت كثيرة

الشيوع وهي انه يوجد في كل غـــابة رجل وحشي الأخلاق له وجه إنسان وجسم نمر فلا يظهر فيها إلا بالليل ويمزق من يعثر به بأظافره ويفترسه .

وكانت بيانكا تعرف هذه الخرافة فلما شعرت ان الأيـــل قد مرّ بها أيقنت انه رجل الغابة فطارت نفسها من الذعر وجعلت تركض كما قدمناه .

مع ان بيانكا كانت متعلمة خير تعليم وقد ثقف العلم عقلها ولكن ذلك العصر كان عصر خرافات حتى ان العلماء انفسهم كانوا يعتقدون بها .

وقد لبثت تركض منذعرة فتقع وتنهض وتسقط وتقوم ومـا زالت على ذلك حتى اشرق الفجر .

وقد التفتت الى ورائها إذ خيّل لها انها سمعت وقع خطوات فرأت انه ليس الوهم الذي كان يدفعها الى الاعتقاد بأن رجل الغابات يطاردها بل رأت حقيقة ان رجلاً يطاردها .

وعند ذلـك جعلت تركض قانطة وهي واثقـة انه لم يبق لهـــا رجاء بالإفلات من رجل الغابات .

ولكن الرعب قد مدّ حبلها لا سيما وقد رأت بعينها ما كانت تراه بعين الخيال فصاحت صيحة منكرة وسقطت جاثية على ركبتها وشعرت بأنفاس ذلك الرجل الذي يطاردها تهب على رأسها .

ولكنها لو التفتت ورأت ذلك الرجل لكان ذعرها منه أشد من ذعرها من رجل الغابات .

* * *

٥٠

تابع رجل الغابات

في الساعة العاشرة من تلك الليلة كان المدعوون قد بدأوا بالوفود الى قصر امباريا وقد جاء ساندريجو وبمبو وغيرهم وجميع من في فينيسيا من المحظيات واخذ رولاند كانديانو يتأهب للحضور كما تقدم .

وكانت امباريا اعلنت لزائريها ان الحفلة لا يكون فيها رقص لأنها ستكون قاصرة على تعريف اهل فينيسيا ببنتها وبصهرها القائد ساندريجو .

ولكن الموسيقى كانت تصدح في القاعة الكبرى وقد غصت القاعات بالمدعوين ومع ذلك فان امباريا لم تظهر واليك تفصيل ما حدث .

انها بعد ان تركت بنتها دخلت الى غرفتها وهي لا تعي لفرط اضطرابها فانها باتت تغار من بنتها غيرتين احداهما لأنها ستكون زوجة ساندريجو كأنها نسيت اتفاقها مع بمبو وان هذا الزواج سيكون بالظاهر فقط .

والثانية لأنها ظهر لها ان بنتها تحب رولاند وهي لا تزال تحبه ايضاً ذلك الحب الاول الذي لا يزول تأثيره من القلب مهما طرأ على هذا القلب من الاغراض .

وإنما عادت الى غرفتها كي تتأنق بلباسها وتكشف بنتها بالجمال الاصطناعي إذ كانت دونها بالجمال الطبيعي .

وبعد ان اقامت ساعتين امام مرآتها تحيط بها نساؤها ذهبت الى بنتها ودخلت الى الغرفة التي كانت فيها فوجدت ان الثوب الابيض لا يزال على المقعد وصندوق المجوهرات لا يزال في موضعه فقالت في نفسها :

ـ انها لم تلبس فهي لا تريد ان تحضر الحفلة .

وعند ذلك دخلت الى غرفتها الخاصة فلم تجدها فنادت خادمتها وسألتهن عنها فبحثن عنها في جميع الغرف فلم يجدنها .

فأيقنت انها هربت وأمرت خادماتها ان يكتمن هذا الأمر وقد اقفلت عليهن الابواب مبالغة في الحرص على الكتمان وعادت الى غرفتها وهي متأثرة لفراق بنتها ولكن غير تأثرها في المدة الأولى فانها حين اختطفوا بنتها اول مرة كانت أماً مجردة أما الآن فان حبها غير مجرد .

وقد أقامت مدة طويلة في غرفتها ثم خرجت الى قاعة الاحتفال فاستقبلها ساندريجو وسار بهـــا الى كرسي كبير يشبه العرش في تلك القاعة وجلس بجانبها يحدثها فجعلت تنادمه وقد نسيت بنتها .

وفيما هما على ذلـك مرّ بهما رجل مبرقع عرفته امباريا بالرغم عن برقعه الكثيف فأخذ بيدها وقامت معه بعد ان استأذنت من ساندريجو فجعلا يسيران في القاعات وهما يتحدثان بصوت منخفض .

وقد سألها الرجل قائلاً :

ـ أين بيانكا ؟

فقالت له : انها لا تحضر .

فتنهد الرجل كأنه قد نزل عن عاتقه حملاً ثقيلاً وقال :

ـ انك لا تنسين ما اتفقنا عليه وهو ان بيانكا تكون لي بعد الزواج .

قالت : ان الزواج لا يعقد بعد غد ولن يعقد .

فارتعش الرجل وقال : ماذا تعنين ؟

قالت : اصغ إليّ يا بمبو فسأطلعك على أمر أحب ان يكون مكتوماً عن الجميع حتى عن ذلك الرجل الذي يكاد يفترسنا بعينيه لشدة شوقـه الى معرفة ما نتحدث به .

فنظر بمبو من خلال برقعه الى ساندريجو فرأى عينيه تتقدان وراه نهض وهو يحاول ان يأتي اليها فقال لها :

— اسرعي بما تريدين ان تقوليه فانه قادم الينا .

قالت : ان بيانكا قد اختطفت منذ ساعتين واظن انها ذهبت الى رولاند في مستر فتصرف الآن بما يوحيه اليه دهاؤك .

فوضع بمبو يده على جبينه وقد شعر ان دماءه تلتهب في رأسه ولكنه تاب الى رشده لفوره فانحنى أمام امباريا وافترق عنها .

وعند ذلك دنا ساندريجو من امباريا وقال لها :

— ماذا يريد هذا النذير السوء وهو من هو ؟

قالت : انه صديقي وسيكون من اصدقائك فانه من ظرفاء فينيسيا .

فاطمأن باله وسألها قائلاً : أين بيانكا فاني لم أرها بعد ؟

— انها ستحضر قريباً .

* * *

أمـــا بمبو فانه حين ترك امباريا ذهب تواً الى حيث تقيم بيانكا ففتح غرفتها ورأى الثوب الأبيض لا يزال على حاله والمجوهرات لا تزال في موضعها فارتعش سروراً وقال في نفسه : انها لم تكذب في ما قالته لي .

وعند ذلك اسرع الى الخروج من القصر فركب قارباً وأمر البحار ، ان يسرع به الى اجتياز البحيرات وان ينزله في طريق مستر .

فلما توسط البحيرات رأى قارباً عائداً الى فينيسيا فقال للبحار : يمكن محادثة من في هذا القارب ؟

قال : ذلك سهل يا سيدي .

قال : إذن أدن منه حتى تلاصقه .

ففعل وسأل بمبو بحار ذلك القارب قائلاً :

— من أين انت آت ؟

قال : من الشاطىء المؤدي الى طريق مستر .

— انك ذهبت بفتاة صبية اليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي .

— حسناً فواصل سيرك ولكن احذر ان تكون كاذبـــاً وقل لي نمرة قاربك .

قال : ان نمرته عشرة وما قلت لك غير الحقيقة .

قال : إذن امض في سبيلك وأمر بحاره ان يسرع جهد الإمكان .

وبعد هنيهة بلغ به الشاطىء فأمره ان ينتظره وسار حتى بلغ الغابة.

ولم يكن يعلم أين تقيم في مستر ولكنه يرجو ان يظفر بهـا في الطريق قبل دخولها لأن طريق مستر واحدة فجعل يوسع الخطى ثم جعل يركض الى ان سمع وقع خطوات أمامه فجأة فوقف مرتعشاً فانـه رأى بيافكا على قيد عشرين خطوة منه .

وكان اضطرابه شديداً حتى انه لبث واقفـاً في مكانه وهو يحسب انه يركض كما يصيب الراكض في الحلم .

ولم يثب الى رشده إلا حين رأى الفتـاة قد أخذت تركض حتى كادت تتوارى عن انظاره فزال اضطرابه واندفع في أثرهـا كالسهم حتى أدركها وقد سقطت جاثية على ركبتها فابتسم ابتسام الظافر وقال :

— انها باقت لي هذه المرة دون منازع .

٥١

سفينة الحب والموت

بعد انتصاف الليل بقليل تفقد رولاند رجاله حول قصر امباريا ليرى اذا كان كل في موقفه فانه كان قد أعد المعدات لاختطاف بيانكا بحيث بات الفوز مضموناً لديه .

وبعد ذلك دخل الى القصر ونظر نظرة عامة في تلك القاعة المتسعة فرأى امباريا تبسم لساندريجو ابتساماً ساحراً وأيقن انها تهوى هذا اللص .

فجعل رولاند ينتقل من موقف إلى موقف باحثاً عن بيانكا فلم يجدها حتى انه قلق عليها وأيقن أنها غير موجودة في هذه الحفلة الذي أعدت لها فعاد الى القاعة التي كانت فيها امباريا جالسة في صدرها جلوس الملكات فلم يجدها ولم يجد ساندريجو فبحث عنهما فلقيهما واقفين عند نافذة تطل على الترعة فاحتال حتى تمكن من الوقوف بقرب هذه النافذة وراء ستارة بحيث كان يسمع حديثهما ولا يريانه فسمع ساندريجو يقول :

ـ إذن هي تأبى حضور الحفلة ؟

قالت : لقد توسلت اليها مراراً كما قلت لك ولكن لندع البحث في شأنها الليلة وغداً نفتكر ببيانكا أما الليلة فأرجو ان تكون بجملتك لي أتريد ؟

ـ لكن ماذا تريدين ؟

ـ قل عني مجنونة اذا شئت ايها الحبيب فان هذه الحفلة تضجرني ولا افتكر بالساعة التي سنختلي بها حتى اتنهد .

ـ ان الليل يتقدم .

ـ نعم ولكن أتعلم ما خطر لي ان افعل حين ينصرف المدعوون وتنتهي الحفلة .

ـ ماذا خطر لك ؟

ـ اتعدني بتحقيق هذه الأمنية ؟

ـ دون شك .

فلم تكترث امباريا للناس الذين يرونها فطوقت ذراع ساندريجو بذراعها واسندت رأسها الى كتفه فقالت :

ـ اني أعددت سفينتي الجميلة الخاصة بالحفلات الانيقة وأمرت ان يضعوا فيها الخيمة الداخلية وفرشوا فيها البسط الحريرية والوسادات المخملية بحيث باتت شبه عش للعاشقين .

والذي أريده هو أن ندرج الى هذا العش بعد تفرق الناس وتتم لذة الحياة على تماوج السفينة اللطيف .

فلم يشأ رولاند ان يسمع اكثر مما سمع وانصرف وهو يقول في نفسه :

ـ أن بيانكا مقيمة في غرفتها دون شك ولا بد من اخبارها بأننا سنختطفها كي لا تضطرب وقد بات اختطافها سهلاً ما زالت هذه الأم الشقية مشغولة عنها بغرامها الفاسد .

وبعد ربع ساعة ثبت له ان بيانكا غير موجودة في القصر فعاد الى القاعات وكانت امباريا تحدث الناس ضاحكة باشة امنة طوارق الايام وارتين واقف بين عصابة من الفتيان يجادلهم في الشعر ويوازن بين الشعراء فدنا منه رولاند فلمس كتفه فأشار اليه ان يتبعه .

فامتعض الشاعر وتبعه مكرها وهو لا يعرفه حتى اذا خلا به وعرفه ارتعش خوفاً عليه لوجوده في هذا القصر وقال له ؟ بماذا تأمر يا مولاي ؟

قال : أريد ان تذهب الى امباريا فتقول لها ان لديك نبأ سرياً خطيراً تريد أخبارها به .

ـ ما هذا النبأ ؟

ـ لا تقلق له واتبع هذه المرأة الى حيث تذهب بك وعلي البقية .

فذهب ارقين ممتثلاً وراء رولاند يحدث امباربا ثم رأى الاثنين يسيران فاقتفى اثرهما .

وقد اجتازت القاعات حتى بلغت الى غرفة مقفرة ودخلت اليها .

فحاول ارتين ان يتبعها ولكن رولاند سبقه الى هذا الباب فدخل مكانه واقفل الباب .

أما امباريا فانها جلست على مقعد وقالت : واني مصغيـــة اليك فاننا وحدنا الآن .

وقد نظرت عنـــد ذلك الى الرجل الذي تحدثه فعلمت انه غير ارتين ووثبت من مكانها الى الباب .

غير ان رولاند حال بينها وبينه وقال لها : بملء السكينة .

ـ اعلمي يا سيدتي انك اذا خطوت خطوة أو صحت صيحة جازيتك عن جرائمك بموت سريع تستحقينه من عهد بعيد .

فارتعشت رعباً لهذا الصوت وقالت لمحدثها : من أنت ؟

فرفع رولاند البرقع عن وجهه فتراجعت امباريا منذعرة وسقطت على المقعد الذي كانت عليه وقد وهت قواها من الرعب .

أما رولاند فانه جلس بجانبها وقال لها :

ـ اطمئني وأعلمي يقيناً انك إذا أصغيت الي بسكينة لا أمسك بسوء .

قالت : ماذا تريد ؟

قال : انك اعددت في قصرك حفلة باهرة اهنئك بانتظامها ولكني أما أن اكون مخطئاً أو تكون هذه الحفلة عدت لغرض من الأغراض .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ لقد اكدوا لي وأنا واثق مما يقولون انك أردت في هذه الحفلة ان تقدمي بنتك لأهل فينيسيا اليس كذلك ؟

فاضطربت وقالت : هذا أكيد .

قال : ولقد قيل لي انك لا تريدين الاقتصار على تقديم بنتك بل انك تريدين عقد خطبتها على القائد ساندريجو اليس كذلك ؟

ـ هذا أكيد ايضاً .

ـ اذن فاعلمي اني بحثت في جميع قاعاتك فوجدت الخطيب ولكني لم أجد الخطيبة فخطر لي ان اسألك عن السبب في تخلف بنتك عن هذه الحفلة التي اعدت لها .

فارتعدت امباريا إذ علمت أو خيل لها انها علمت ما يدفع رولاند الى سؤالها عن هذا الشأن لاعتقادها انه يحب بيانكا وانها تحبه وأنه لم يخاطر بحياته ويأتي الى هذه الحفلة الا وقد دفعه يأس الغرام فهاج تأثرها وايقنت ان اضطرابها لم يكن الا اضطراب غيرة لأنها شعرت بانها لا تزال تحب رولاند فقالت له بصوت يتهدج :

ـ أريد ان أعلم باي حق تسألني هذه الأسئلة ؟

فابتسم رولاند وقال :

ـ لقد التقينا قبل هذه المرة ودار بيننا حديث يشبه هذا الحديث يومئذ فبات يحق لي ان أراقب اعمالك وأن اسألك عما أريده

وقد قال لهـــا هذا القول بلهجة تبين فيها الوعيد فخافت أمباريا وقالت له :

ـ اني أجيبك على سؤالك فأقول ان بيانكا لم تحضر هذه الحفلة لانها ابت ان تحضرها .

ـ بل انك كاذبة .

فاطرقت برأسها لهذه الاهانة دون ان تجيب وهي لو خرجت من فم سواه لمزقت عنقه باظافرها .

ولكنها رأت ان رولاند يستطيع ان يهينها دون ان تستطيع مجاوبته فهل نشأ ذلك عن خوفها منه لأنه عارف باثامها كلا بل انها شعرت بسرور لهذه الاهانة كما يفرح بعض النساء حين يضربهن عشاقهن .

ولذلك اجابت رولاند بلهجة ادهشته فقالت :

— ارحمني فاني اذا قلت لك ان بيانكا أبت حضور الحفلة فما ذلك الا لأني لا استطيع ان اقول غير ما قلت .

قال : ولكن يجب ان تقولي فاني اريد ان أعلم ما جرى لبيانكا .

— إذن انت تحبها ؟

وعند ذلك تفجرت الغيرة في صدرها حتى انها لو ظهرت لها بنتها في تلك الساعة لقتلتها .

فلما سمع رولاند قولها لبث ساكتاً منذهلاً فاعتبرت امباريا سكوته اعترافاً بذلك الحب فهاجت هياج اللبوة ووقفت وقالت بصوت مختنق :

— انك إذاً تحبها .. حسناً فستضحك قليلا لتعذبني بما يخطر لك من انواع العذاب الذي عذبتني به قبل.. انك اهنتني واحتقرت كبريائي فاني تعودت ان أفوز على جميع القلوب بنظرة ما عدا قلبك . نعم انك لم تشفق علي ولم ترحمني حين طرحت قلبي عند قدميك بل انك سحقت هذا القلب وجئتني الآن تقول انك تحب ولكنك لا تحبني ولا تحب ليونور بل تحب بيانكا .. إذن فاعلم قبل كل شيء امراً لم تكن تعلمه من قبل وهو ان بيانكا لا تحبك فقط بل تعبدك عبادة .

فارتعش رولاند وكانت تبتدره الحدة ولكنه كظم غيظه إذ كان يريد ان يعلم كل شيء .

ونظرت امباريا الى وجهه فرأته قد اصفر وبدت عليه علائم الانفة والاشمئزاز فقالت :

نعم انك تأنف ان تسمع مثل هـذه الأقوال ولا تحترم قول غرام يخرج من محظية فيخدش سمعك يا حضرة النبيل .

إذن فاعلم ان بيانكا تحبك وليس هذا كل شيء ايهـــا العزيز .. وهنا ضحكت ضحكة المنتقم .

انك تحب بيانكا ولكن يوجد رجل آخر يحبها وهو من أخلص اصدقائك إذ انه بمبو الذي اختطفتها منه مرة .. اما وقد عرفت ذلك الآن فتعذب كما عذبتني .. أتعلم أين هي بيانكا .. اين هي تلك الفتاة النقية الطاهرة التي لا عيب فيها إلا انها ابنة المحظية .. انهـا الآن بين ذراعي بمبو وأنا التي القيتها بين ذراعيه فابحث عنها واظفر بها اذا استطعت .

وعند ذلك سكتت وهي عرضة لنوبة عصبية كانت تهز اعضاءها .

فغضب رولاند غضباً عصبياً وجرّد خنجره وهو يقول في نفسه :

— لقد دنت ساعة هذه المرأة فلتمت .

ولكنه ما لبث ان اغمد خنجره وقال في نفسه :

— كلا لست أنا الذي يجب ان يعاقبها على هذه الجريمة .

وقد نظر الى امباريا نظرة صعقتها ثم خرج وهو يقول :

— مسكينة بيانكا اني أتيت لانجدتها بعد فوات الأوان .

ثم خرج من القصر واسرع الى أحد زعماء عصاباته فقال له :

— سر بعشرين رجلاً الى قصر الكاردينال وادخل اليه بالرضى او بالعنف فاذا وجدت بمبو فيه فجئني به الى بيت الجزيرة ميتاً او حياً .

فأسرع الزعيم ممتثلاً وتوارى عن الأنظار .

وقد وقف رولاند حزيناً منقبضاً يفكر في هذه الفتاة المنكودة ويقول في نفسه :

— اني ما ابقيت على أمها إلا لأنها تحبها أمـا وهي التي دفعتهـا الى بمبو فلتمت فانها لا تستحق الحياة .

وعند ذلك وضع برقعه على وجهه وارتدى بردائه بحيث لم يعد يعرف وسار الى حيث كان سكالابرينو .

فلما رآه سكالابرينو قال له : ماذا حدث أيها الرئيس ؟

قال : اتبعني .

وقد أخذ يسير على شاطىء الترعة وهو يفحص القوارب الراسية فيها وسكالابرينو يتبعه دون ان يجسر على سؤاله الى ان وقف أمام سفينة جميلة عظيمة الاتقان فقال له : أترى هذه السفينة ؟

قال : نعم .. ولكن بيانكا ؟

قال : صبراً واعلم ان هذه السفينة للمحظية امباريا أسمعت ؟

— نعم سمعت ولكن قلبي يحدثني بمصاب .

— لقد قلت لك صبراً فاصغ الى كل ما اقوله .

— اني مصغ .

— إذن فاعلم ان المدعوين سيخرجون قريبـــاً من قصر امباريا وتسود السكينة في ذلك القصر ولكنك تبقى في موقفك فلا تفارقه .

— هنا ؟

— هنا او في غير هذا المكان كما يوحي اليـــك فعندما ترى الجميع قد انصرفوا ترى امباريا آتية الى هذه السفينة مع ساندريجو أفهمت ؟

— نعم ولكن فاعلم إذن ان امباريا وساندريجو سيذهبان للتنزه في هذه السفينة ولا اقول لك شيئاً بشأن هذا الرجل وهذه المرأة فـان البقية عليك أما الآن فافترض انه حدثت نكبة وان ابنتك لا نستطيع ان نردها اليك هذه الليلة .

— إني أؤثر يا مولاي ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة فان بيانكا ماتت اليس كذلك ؟

— كلا انها لم تمت كما ارجوه .. ولكن اسمع ..

وعند ذلك أخذ يده بين يديه وجعـــل يحدثه بصوت منخفض فيسليه ويعزيه حتى إذا أتم حديثه ووقف سكالابرينو على جلية الأمر لم يبك ولم يتنهد بل قال :

— حسناً يا مولاي .

فابتعد رولاند عنه وذهب فاختبأ وراء شجرة وجعل يراقب فرآه قـد اقترب من السفينة التي دله عليها وجعل يحادث البحار الذي كان فيهـا فقال في نفسه :

— لقد فهم قصدي وقد قضي على امباريا القضاء المبرم .

وعند ذلك انصرف وذهب الى جهة قصر الكاردينال دون ان يرى ودون ان يرى سكالابرينو ايضاً امرأة واقفة على الرصيف تنظر اليهما .

أما هذه المرأة فقد كانت جوانا .

* * *

وأما سكالابرينو فانه دنا من سفينة امباريا .

وكان من عادة امباريا ان تعيّن لسفينتها بحاراً من النوبيين السود غير انها حين كانت تحاول ان تتوغل في البحيرات تختار رجلاً من الأشداء الاقوياء كي يحميها عند الاقتضاء من القرصان .

وكان هذا الرجل جالساً في مؤخر السفينة ينتظر والنعاس قد دب في جفنيه .

فناداه سكالابرينو وقال له: لي كلمة اقولها لك من قبل السيدة امباريا.

فأسرع الرجل اليه وقال له : ماذا تريد ؟

قال : لا أعلم ولكن إحدى نساء السيدة امباريا تنتظرك عند باب القصر .

قال : ماذا تريد مني ؟

قال : خير طريقة لمعرفة ذلك ان تذهب اليها .

قال : لقد اصبت وسار في طريق القصر وسكالابرينو يصحبه .

وكان الظلام شديد الحلك فلم يسر البحار بضع خطوات حتى انقض عليه سكالابرينو فألقاه الى الأرض وصفر صفيراً خاصاً فأسرع اليه نحو عشرة رجال فقال لزعيمهم :

— خذوا هـــذا الرجل ولا تسيئوا اليه ولكن لا تطلقوا سراحه قبل صباح غد .

فقبضوا عليه ووضعوا الكمامة في فمه وانصرفوا آمنين .

وعند ذلك ذهب الى السفينة بعد ان أخذ رداء البحار ومشعله وجلس في مؤخر سفينة امباريا مكانه ووضع رأسه بين يديه فكان يظهر انه نائم والحقيقة انه كان يفتكر بأمور هائلة .

* * *

عندما ثابت امباريا الى رشدها رأت ان رولاند قـد انصرف فقالت في نفسها :

— انه ذهب للتفتيش عن بيانكا ومحاولة الوصول اليها قبل بمبو ولكنه سيضل سعياً فانه لا يعرف الطريق التي سارت بها خلافاً للكاردينال فانه يعرفها .

وقد فرحت فرحاً وحشياً حين خطر لها ان ابنتها ستقع في قبضة بمبو وان رولاند يطوف باحثاً عنها في فينيسيا واليأس ملء قلبه .

وعند ذلك قامت الى مرآتها فأصلحت وجهها وعادت الى قاعاتها فخطر لها ان رولاند قد يكون باقياً في القصر وانها تستطيع القبض عليه .

ولكنها رأت ان ذلك محال إذ لا يمكن ان يبقى في قصرها بعد ان اظهر لها نفسه فجعلت تسائل نفسها قائلة :

— ترى لماذا لم يبطش بي بعد ان جرحته هذا الجرح الهائل ؟

ألعله أشفق عليّ أم يريد ان ينتقم مني انتقاماً أشد من القتل .

وعادت الى الاختلاط بالناس الى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل حيث تفرقوا فتوكأت على ذراع ساندريجو وخرجت به الى السفينة فصعدت اليها ولم ينتبها الى سكالابرينو إذ حسباه البحار فانه كان لابساً رداءه وهو في مؤخر السفينة فقالت : سر بنا في عرض البحيرات الى حيث تشاء .

فسار سكالابرينو بتلك السفينة يمخر العباب وجلس العاشقان تحت تلك الخيمة وقد أرخيت ستائرها الحريرية وتبرقع القمر بالغيوم كأنه خشي ان يرى ما كان يتوقع ان يراه من المناظر الهائلة .

وفي الوقت نفسه كان قارب حقير يتبع تلك السفينة الفخيمة الى حيث سارت دون ان ينتبه اليه احد .

* * *

ولبث العاشقان يتنزهان نحو ساعة في البحر وقد شغلا بما هما فيه عن مراقبة سكالابرينو الذي كان قد توغل بهما حتى لم يعودا يريان المدينة .

وعند ذلك قال لها : لنعد الى البر .

قالت : بل لنقم هنيهة أيها الحبيب .

قال : ولكننا قد تأخرنا .

قالت : ألم يسكرك الحب كما اسكرني وما علينا إذا تأخرنا بل ما علينا إذا بقينا كذلك الى الأبد ؟

— ذلك لأني ..

— ماذا ؟ قل كل ما خطر لك .

— ذلك لأني أريد ان أرى بياتكا .

فارتعشت امباريا فجأة لقوله الذي نبّه فيها عواطف الأمومة ولكنها كانت مضطربة اضطراباً عظيماً لفرار بنتها ولمطاردة بمبو لها ولظهور رولاند ولتلك الساعة التي قضتها مع ساندريجو وقد هاجت هذه العواطف المختلفة تأثرها حتى كادت تجن فضحكت ضحكاً عصبياً وقالت :

— بيانكا ؟

فقلق ساندريجو وقال : نعم بيانكا .

فخطر لها عند ذلك ان تبوح له بكل شيء وان تستبقيه لها فقالت :

— أتريد حقيقة ان ترى بيانكا ؟

— نعم ألا يحق لي أن أراها ؟

— ولكنها تكون نائمة في القاعة .

— لا بأس فهي تغفر لخطيبها هذا الخطأ ولا سيما حين تعلم ان قلقي عليها شديد فاني اريد ان اعلم لماذا لم تحضر الحفلة .

فضحكت ضحك المجانين وقالت :

— أتريد ان تعرف الاسباب .. حسناً فأنا اقولها لك .. انها لم تحضر لأنها تكرهك ولأنها تنذعر من مرآك فلِمَ تفتكر بها وهي تكرهك في حين أنت معي وأنا أعبدك ؟

— اني اريد ان تكون لي بجملتك ولا أريد ان تقطع الغيرة قلبي .

وعند ذلك طوقت عنقه بذراعيها العاريين ولكنه دفعها عنه وهو يقول :

— اني اريد ان أرى بيانكا .

فاتقدت عيناها بشرار الغضب وعضت الغيرة قلبها فهاجت انتقامها وأثارت جنونها فضحكت ضحك المنتقم وقالت :

— إذا كنت تريد ان تراها فاسرع في أثرها .

فقبض ساندريجو على يدها وقال لها :

— ماذا تعنين ؟

قالت : اعني انها ليست في فينيسيا وانها هربت منك وان بمبو يطاردها ولا بد ان تكون في حوزته الآن .

فزأر ساندريجو زئير الأسود الضواري وصدمها صدمة عنيفة القتها على الارض .

فابتسمت وقالت له : اقتلني .

قال : أين هي ايتها الشقية ؟ تكلمي .

وقد قبض بيده على عنقها وحاول خنقها فقالت له :

— لا أعلم .

قال : وبمبو ؟

— في طريق مستر .

— في طريق مستر .. لقد فهمت كل شيء .

وعند ذلك نهض عنها وأسرع الى باب الخيمة فنادى البحار قائلاً :

— ويحك أسرع بنا الى البر .

وقد فتح ستائر الخيمة فمزقها ولم يكد يرى البحار واقعاً في وجهه على نور القمر حتى صاح صيحة هائلة وقال :

— ماذا أرى ؟

أهذا سكالابرينو أم خياله ؟

فقال له سكالابرينو : بل هو بعينه ايها الفاجر الغادر ثم طعنه بخنجره طعنة هائلة فاخترق الخنجر صدره وتركه مغمداً به فهوى على ظهره قتيلاً وباتت قبضة خنجره في صدره تشبه شكل الصليب .

وقد رأت امباريا هذا المنظر الهائل والذعر ملء قلبها فلم يغمى عليها ولم تستطع ان تصيح صيحة اذا كان مثلها مثل من يصاب في حلمه بالكابوس .

وعند ذلك رأت سكالابرينو يدنو منها فحلت عقدة لسانها وقالت :

— رباه من هذا .. أراله بيانكا ؟

قال : نعم أنا هو أيتها الأفعى .

ولم يقل بعد ذلك كلمة بل انه قبض على شعرها فجرها به الى طرف السفينة .

وهناك حملها بيديه القويتين ودفع بها الى البحر فهوت الى الاعماق .

وقد هوت السفينة لهذه الحركة العنيفة التي فعلها سكالابرينو وانقلبت .

وخرج صوت على قيد بضعة أمتار يمزق حجاب السكون .

غير ان سكالابرينو لم يسمع ذلـــك الصوت فجعـل يسبح حتى بلـغ الشاطىء وتوارى عن الانظار .

٥٢

قبلة جوانا الأولى

ان ذلك الصوت الذي مزق حجاب الفضاء خرج من قارب صغير كان يقفو أثر سفينة امباريا .

وذلك ان جوانا كانت واقفة في ذلك القارب وقـد رأت كل تلك الحادثة الهائلة التي لم تستمر اكثر من دقيقة دون ان تستطيع إنقـــاذ ساندريجو فصاحت تلك الصيحة التي لم يسمعها سكالابرينو لفرط اضطرابه .

وكانت قد أتت وهي نفسها لا تعلم ما تعمل ولكنها كانت موقنة من انه ستحدث فاجعة تقضي على رجائها القضاء المبرم فانها جاءت الى فينيسيا وليس لها غير قصد واحد وهو انقـــاذ ساندريجو ومنعه من الاعتداء على رولاند .

وقد عرف القراء كيف انها عرفت من ساندريجو نفسه انه يحب بيانكا فهربت الى قصر امباريا ليلة الحفلة وعولت على ان تدخل اليه بالسر فتقابل بيانكا .

ولكنها لم تلبث ان رأت سكالابرينو واقفاً عند باب القصر وقفة حملتها على الريبة فاضطربت خطتها لوثوقها ان سكالابرينو انما كان كامناً لساندريجو كي يقتله .

وقد وقفت عند ذلك لا تفارق سكالابرينو لحظة وهي تتعذب عذاباً شديداً لغيرتها من بيانكا وخوفها على ساندريجو .

ثم رأت ان سكالابرينو أبعد البحار وأقام مكانه في السفينة فقالت في نفسها :

ـ لم يبق شك ان امباريا ستتنزه في هذه السفينة مع بيانكا وساندريجو ولذلك أسرعت إلى قارب صغير فأقامت فيه تنتظر كما كان ينتظر سكالابرينو .

إلى ان انتهت الحفلة ورأت ساندريجو قادماً الى السفينة وامباريا تتوكأ عليه بدلال فاشتد خفقان قلبها وقالت :

ـ ويح له انه يحب الأم ويحب البنت ويحب كل حسناء تبدو له الا أنا وما ذلك إلا لأني صادقة في حبه .

وجعلت السفينة تسير ببطء وجوانا في اثرها وهي تكاد تجن لاضطرابها فانها كانت تارة تهم أن تنادي ساندريجو وتحذره وتارة تعقد الغيرة لسانها فتثنى انين الموجع وتطرق برأسها فتبكي .

الى أن حدثت تلك الحادثة التي تقدمت وبلغ سكالابرينو الشاطىء سابحاً فأسرعت الى تلك السفينة التي انقلبت وهي تصيح والهة فتنادي ساندريجو دون أن يجيبها أحد .

فنسيت من هو ذلك الرجل ولم تعد تذكر غير غرامها به فتقول ويلاه لقد مات قتيلاً فأي رجاء بقي لي بعد الحياة ؟

وعند ذلك رأت على ضوء القمر ثوب امرأة ابيض عائماً على سطح الماء فأسرعت اليه وجذبته حتى تمكنت من حمله بمن فيه الى السفينة .

وهناك ركعت بجانب امباريا وحاولت أن تخنقها وقد أصيبت بما يشبه الجنون .

وعند ذلك شعرت ان امباريا قد تحركت ثم رأتها فتحت عينيها وقالت : من أنت ؟

قالت : أنا التي أحبه .

ـ تحبين من ؟

ـ ساندريجو .

وقد هاج تأثرها عند ما ذكرت اسمه وعاودها فكر القتل ولكنها رأت ان امباريا قد ضحكت ضحكا عصبياً وقالت :

ـ تحبين ساندريجو .. هذا هو .. انظري.

فنظرت المنكودة الى الجهة التي أشارت اليها فرأت على ضوء القمر جسم ساندريجو يتمرجح فوق سطح الماء قرب السفينة المنقلبة فالقت بنفسها الى الماء وبلغت الجثة فطوقت عنق ساندريجو بذراعيهـا بحيث امتزج الجسمان ولم يظهر منهما فوق الماء غير الرأسين .

وعند ذلك وضعت فمها على تلك الجثة الباردة بحنو لا يوصف وقبلته تلك القبلة الاولى فكانت الأخيرة وهوى الجسمان الى الأعماق .

٥٣

امباريا

كان سكالابرينو قد القى نفسه الى المياه ساعة انقـــلاب السفينة وسار سابحاً حتى بلغ الشاطىء فذهب الى بيت الجزيرة .

وكان رولاند ينتظره فكان أول ما قاله سكالابرينو انه سأله عن بنته.

فأجابه رولاند قائلا :

ـ اننا لم نعـــلم شيئاً يعد عنها فقد بحثنا في منزل الكردينال فـلم نجدها فيه .

فاطرق سكالابرينو برأسه اطراق القانطين ولم يقل كلمة فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

ـ تشجع ايها الصديق فان بيانكا قوية صادقة العزيمة فلا خوف عليها من بمبو وسنجدها كما فارقناها والآن قل لي ماذا صنعت بساندريجو ؟

ـ قتلته .

ـ امباريا ؟

ـ اغرقتها .

فجعل رولاند يتمعن بوجه هذا الرجل الذي يخبره بهذه الأسرار الهائلة بملء السكينة كأنه يروي رواية عادية .

* * *

أما سكالابرينو اذ كان صادقاً بشأن ساندريجو فقد كان مخطئاً بما رواه عن امباريا فانها لم تغرق كما توهم وقد رأينا جوانا انقذتها .

فلما غرقت جوانا مع ساندريجو بقيت امباريا وحدها في القارب ورأسها بين يديهـــا لا تعي على شيء ولا تفتكر بهـذه المرأة وجعلت الأمواج تقذف القارب وتعيده الى الشاطىء من تلقاء نفسه .

ولما انتبهت من سبات غفلتها كان الصبح قد أشرق والقارب قد بلـغ الشاطىء فانتبهت ونظرت الى ما حولها فرأت بعض الناس ينظرون اليها من الشاطىء نظرات الانذهال فبذلت جهداً عنيفاً حتى نسيت ما مر بها وتمكنت من تسكين اضطرابها .

وعند ذلك دنت منها أحد النساء اللواتي كن على الشاطىء فقالت لها : هل السيدة سقطت في الماء ؟

قالت : نعم هل يوجد بحار يستطيع ايصالي الى منزلي ؟

فأسرع رجل الى قاربها وقال لها ، اني لست بحـاراً يا سيدتي ولكني استطيع ايصالك فالى اين تريدين ان تذهبي ؟

قالت : الى قصر امباريا .

وجعل القارب يسير ببطء وجزعها يشتد فقالت للرجل : ارجوك ان تسرع السير وهناك اكافئك خير مكافأة .

قال : ان مشاهدتي ذلك الجمال الذي تعجب به ايطاليا بأسرها خـير جزاء لي .

فنظرت امباريا اليه نظرة الفاحص فرأته لابساً ملابس تدل على الفقر فافتكرت هنيهة بماذا يجب ان تكافئه الى ان خطر لهـا خاطر فانتزعت مشطاً من شعرها مرصعاً بالحجارة الكريمة فدفعته اليه وقالت :

ـ اني لا اكافئك بشيء لكونك اوصلتني ولكني أرجو ان تقبـــل مني هذا التذكار مكافأة لك عما قلته لي .

فأخذه الرجل شاكراً واندفع يجذف فجعلت امباريا تنظر الى القصور التي تمر بها الى ان مرت بقصر التيباري فرأت امرأة واقفة في نافذة مفتوحة تنظر نظرات تشف عن السويداء .

فاسرعت وادارت وجهها وهو تقول :

ـ ويلاه ... انها هي .. ليونور .. رحماك اعفي عني .

وبعد هنيهة وصلت الى قصرها وهناك غيرت ملابسها وعالجوها بالاستدفاء ثم نهضت بعد الظهر وهي نشيطة كعادتها وقد نسيت أو تناست كل ما مر بها فلم تعد تخاف غير أمر واحد .

وهو انهـــا كانت تتوقع في كل لحظة ان ترى رولاند او سكالابرينو داخلاً اليها .

ولم تكن تفتكر بشيء غير هذا فان بنتها كانت تمثل لها كانسان عرفته من زمن بعيد ولم تكن تعجب الا لأمر واحد وهو انها كيف تحن على بنتها هذا الحنان وهي تكاد الآن لا تذكرها وباتت تشبه في قلبها نباتاً غرس في ارض قاحلة .

وكذلك بمبو وساندريجو فقد ذهبا من مخيلتها وباتت تذكرهما كما يذكر المرء حلماً بعيداً بحيث لم يبق ماثلاً لهـا غير رولاند كانديانو فجعلت تبكي بكاء اليما وعرفت انها منذ أتت الى فينيسيا لم تكن تحب حباً خالصاً غير رولاند وانها لا تزال تهواه .

ومن عجيب امرها كانت تحبه بقدر ما تخافه فهي قد تبذل حياتها في كلمة غرام تقولها له ولكنها تبـــذل كل مرتخص وغال كي لا تراه لشدة ذعرها منه .

ومما زاد اضطرابها انها رأت ليونور في النافذة فعدت هذه الرؤيا انذاراً لها بنكبة عظيمة وأقامت في غرفتها تفتكر بهذه الأمور الهائلة بينما كان رولاند يعتقد انها ميتة .

ثم خطر لها خاطر كان خلاصة ابحاثها وهي انها لم تجيء الى فينيسيا الا من أجل رولاند وان رولاند يحتقرها ويكرهها دون شك وانه قد يكون هو الذي سلح سكالابرينو ودفعه الى ما فعل .

وقد تجسم هذا الخاطر في مخيلتها حتى تمكن الرعب في قلبها ورأت انه لم يبق لها بد من الفرار .

وعند ذلك نادت وكيلها وتداولت وإياه نحو ساعتين حتى اذا انتهت المداولة نهض وهو يقول :

ـ سأنفذ كل أوامرك يا سيدتي وسأحضر لك بنفسي ثمن القصر وما فيه من الأثاث والرسوم .

قالت : ما عدا الرسم الذي أخبرتك عنه .

قال : دون شك يا سيدتي ولم يبق عليّ الآن إلا ان أعلم الى أية مدينة من المدن الايطالية تريدين ان أوافيك .

قالت : الى رومة .

وعند ذلك انصرف الوكيل وجمعت امباريا كل ما كان عندها من الحلى الثمينة والذهب وبرحت القصر في ظلام الليل دون ان تصحب معها احداً من خدمها فركبت قارباً واجتازت به البحيرات فلقيت وكيلها ينتظرها على الشاطىء وقد أعد لها مركبة فركبتها واجتازت بها ايطاليا مسرعة وهي تبذل الذهب بسخاء في الطريق كي لا يعيقها عائق عن مواصلة السير الى ان وقفت بها المركبة في صباح يوم عند باب احد القصور في رومة فتنفست الصعداء وقالت :

ـ الآن نجوت .

وقد دخلت الى قصرها وجعلت تتفقد غرفه بفرح لا يوصف وهو فرح أمان بعد الخوف وللحال أمرت بإصلاح ذلك القصر ووزعت رقاع الدعوة على فتيان رومة تبشرهم بعودتها اليهم كما كانت تلك الحفلة التي أعدتها في فينيسيا حفلة الوداع .

وفي الليل اضطجعت في سريرها وجعلت تناجي نفسها فتقول :

ـ أف لفينيسيا وترعاتها وشوارعها الموحلة وجواسيسها الأدنياء وخناجر رعاعها اللامعة وكل ما يرغبني فيها فلتسقط فينيسيا ولتحيا رومة وشمسها الذهبية وفتيانها الظرفاء فاني هناك لم اكن غير الحظية الحسناء وأما هنا فاني ملكة الحظيات .

وقد نامت تلك الليلة آمنة مطمئنة وقد ماتت في قلبها بيانكا وبمبو وساندريجو حتى رولاند كانديانو فقد مات الجميع لديها من عشيقها دافيليا الذي قتلته بيدها الى ساندريجو الذي قتل أمام عينيها .

وكان قصرها من اجمل قصور رومة وهو مبني في شارع لا يقيم فيه غير النبلاء والكرادلة وكبار السيدات فاحدثت عودتها تأثيراً عظيماً في تلك العاصمة .

وبعد اربعة ايام اعدت حفلتها الشائقة فكانت حفلة بديعة ظهرت فيها امباريا بجمالها الرائع .

حتى إذا انتهت الحفلة تفرق المدعوون وهم يعجبون بلطف امباريا وهي لاهية بفوزها فرحة بانتصارها .

ولم يبق من بين جميع اولئك المدعوين غير واحد فدنا منهـا بعد ان انصرف جميع الناس ونزع برقعه فصاحت امباريا صيحة رعب قائلة :

ـ بمبو ؟

فانحنى الكاردينال امامها وقال : نعم أنا هو فما بالك ذعرت مني ؟

فاصفر وجه امباريا وقالت له بصوت يضطرب :

ـ ماذا أتيت تعمل هنا أبقيت علائق بيننا ؟

قال : دون شك .

قالت : ما هي ؟

قال : ابنتك يا سيدتي .

٥٤

جنون بيانكا

فلندع الآن امباريا مع الكاردينال ولنعد الى فينيسيا بل الى ضواحيها اي الى تلك الغابة التي تركنا بيانكا فيها .

فلقد تركناها وقد أدركها بمبو فذعرت ذعراً لا يوصف وتوهمت انه رجل

الغابات بينما كان بمبو ينظر اليهـا وقد فرح فرح الوحش الضاري وقـد ظفر بالفريسة .

أما بيانكا فانها التفتت وهي تكاد تجن رعبـاً فعرفت بمبو ووثبت لفورها بعد ان كانت قد سقطت جاثية على ركبتيها وقالت له :

— من انت ؟

فقال لها بلهجة المتعطف :

— كيف ذلك ألا تعرفين من أنا ؟

— نعم لقد رأيتك مرة أو مرتين ولكني لم اعرفك فمن أنت ؟

فتنهد بمبو تنهداً عميقاً وقال :

— إذا كنت تريدين معرفة اسمي فقـد سمعته مراراً وسمعت الناس يلفظونه بملء الاحترام فاني ادعى بمبو وأنا كاردينال وأسقف فينيسيا أي اني رجل عظيم ولا حد لسلطتي في فينيسيا .

وقد جمعت من الذهب والجواهر ما لا يقدر بثمن ولي قصر يناطح السماء فعندما يمر به الناس ينظرون اليه نظرات تشف عن الرعب والاحترام لأن جميع الناس يعلمون ان الدوج آلة في يدي فاذا اردت قطعت الرؤوس وإذا اردت فتحت ابواب السجون بكلمة تخرج من فمي .

— وماذا تريد مني ؟

— أريد ان اضع هذه السلطة وهذه الثروة تحت قدميك فاصغي إليّ ايتها الفتاة إذا قلت لك من أنا وسأقول لك من انت .

انك تدعين بيانكا وامك تدعي امباريا فانت ابنة الصدفة والإتفاق إذ ليس لك أب يعرف أي انك لست شيئاً مذكوراً .

وان أمـك تدعى امباريا أتعلمين ما معنى هذا الاسم .. انـه يفيد معنى الحب الفاسد والشهوات المنكرة وانه اسم إمرأة تكون ملك الغني فهي مثال الخجل والحطة والعار وانت ابنة هذه المرأة فـاذا رآك الناس لا يقولون

هوذا فتاة حسناء قد مرت بل يقولون هذه هي امباريا وهذا كاف للدلالة على انك ابنة الخجل ورجائي ان تكوني فهمت قولي فماذا تقولين ؟

فلم تجبه بيانكا بحرف ولكن عينيها كانتا تتكلمان عنها بأفصح لهجة تدل على الاحتقار .

فاضطرب بمبو وقال في نفسه : أأكون كردينالاً عظيما وتحتقرني ابنة محظية ولكنها لحسن الطالع في قبضة يدي ثم قال لها :

ـ أما الآن فقد عرفتني وعرفت نفسك وعرفت اني بفضل سلطتي وثروتي اخضع اجل النساء لارادتي وانك أنت لا ينظر اليك رجل نظرة اخلاص على جمالك فانهم لا يحبون بنات المحظيات حباً صادقاً بل يشترونهن شراء كما يشترون امهاتهن فكيف تسكتين بعد ذلك وقد قلت لك اني أتيت لأضع سلطتي وثروتي تحت قدميك .

فقالت بصوت سمعه بمبو :

ـ يا الله ما أشد هذا القبح .

ولم تقل هذا القول خصيصاً بل أنه خرج من فمها من تلقاء نفسه حتى انها لم تكن تريد أن يسمعه .

فاصطكت اسنان بمبو ولكنه كظم غيظه وقال :

ـ نعم اني قبيح ولكن الجمال الحقيقي هو جمال النفس لا جمال الوجه وانك لم تعرفيني بعد حق العرفان فقد كنت منذ بضعة أعوام أدنى من البحارة في المنزلة فاصبحت اليوم وأنا اعظم عظيم في البلاد وكل ذلك بفضل ما أوتيته من الصبر وقوة الارادة وحسن الحيلة فاذا عرفت ما فعلت فاعلمي ما سأفعل وهو قول لم اقله لأحد سواك بل هو قول لم أكد أجسر على ان اناجي به نفسي فاني كنت استطيع بما أنعم به الله علي من الذكاء والرجاء ان أذهب الى رومه وأبلغ فيها ما تشاء مطامعي ولكني تخليت عن جميع ذلك من أجلك .

وقد سكت هنيهة علّه يسمع كلمة منها فلم تفه بحرف فقال لها :

ـ ما بالك لم تجيبيني ألم تسمعي ؟

قالت : كلا .

قال : كلا بل سمعتني ولم تفتك كلمة من أقوالي فاصغي الي أيضاً ايتها الحسناء واعلمي اني لقيت فيك من العذاب ما لم يلقه بشر منذ رأيتك فهل تعطفين علي بنظرة رضى وإذا كان عذابي ودموعي لا يؤثران على قلبك ولا يجدان فيه ذرة من الرحمة فما انت من النساء .

وبعد فماذا اسأت اليك فكرهتني هذا الكره أني لم أكلمك مرة وانت لا تعرفيني فلا يمكن ان تكرهيني ولكني اقرأ سطور الكره بين عينيك .

ولماذا هذا الكره وانت تعلمين يقيناً اني أحبكأصدق حب وأني سأكون السلم الذين ترقين عليه الى قمة المجد واني أبذل كل ما لدي من سلطة ونفوذ ووجاهة ومال في سبيل سعادتك فكيف لا ترحمينني الا يمكن ان اجد في قلبك القاسي ذرة من الاشفاق ؟

قالت : كلا .

فتنهد عند ذلك تنهداً عميقاً واحمرت حدقتاه ومد يديه اليها فتراجعت منذعرة ولكنها كانت متأهبة للدفاع .

فارتجف بمبو ورأى بفطرته الفاسدة أنه لم يبق له بد من استعمال العنف فهجم عليها وهو يقول :

ـ ستكونين لي بالرغم عنك .

ولكنه قبل أن يبلغ اليها تراجع وهو يصيح صيحة ألم والدم يقطر من يده .

ذلك ان بيانكا اسرعت الى امتشاق مدية كانت قد خبأتها في صدرها وطعنته بها حين هجم عليها .

ولكنه لم يبال بذلك الجرح وهجم عليها ثانية فتراجع ايضاً وقد أصيب بجرح آخر في ذراعه .

فان بيانكا كانت واقفة والمدية في يدها وقد عزمت على ان تدافع عن نفسها دفاع القانطين فاذا لم تفز بدفاعها قتلت نفسها .

وقد دام هذا الخصام بينهما بضع دقائق وبيانكا على غاية الحذر إذ كانت تعلم يقيناً انه إذا قبض على يدها تمكن من الفوز عليها .

ولكنه لم يتمكن من الوصول الى يدها فلما أصيب بالجرح الخامس مسح الدم عن وجهه وابتعد عنها خطوتين فقال :

ـ كفى فاطمئني فاني لا أمد يدي اليك ولكني لا أعلم ماذا يكون مصيرك في هذه الغابة المقفرة والى اين تذهبين .

اني لا اسألك شيئاً الآن بل اسألك ان تعودي معي .

فلم تجبه بيانكا ايضاً وأشارت برأسها إشارة سلب فقال لها :

ـ الا تريدين ان تعودي معي ؟

فاشارة الإشارة نفسها فقال :

ـ إذن اصغي الي فلا اكلمك بعد الآن وانصرف وحدي إذا لم اقنعك واعلمي اني أريد ان أرجعك الى فينيسيا وهذا لا بد منه وثقي اني لا اكلمك كلمة في الطريق ولا أدنو منك وانك لا تريدين ان تكوني لي فليكن ما تريدين ولكني لا أريد ان تكوني لسواي .

ولما رآها مصغية اليه مضى في حديثه فقال :

ـ اني سأدع لك الخيار بعد هنيهة بين أن تعودي معي إلى فينيسيا وبين ان تذهبي الى حيث تشائين فاذا رضيت ان تعودي معي اقسمت لك اني احترمك واذا أبيت انتقمت وكان انتقامي هائلا لا يخطر في بال انسان.

وهنا لا بد لي أن أخبرك كيف يكون انتقامي فاعلمي .

اني كلمتك في بدء حديثي عن أمك وأنت ربما تعتقدين انها محظية فقط

ولكنك واهمة في اعتقادك فان لأمك قصراً في فينيسيا تنفق عليه خمسمائة الف ريال في العام وانت تجهلين كما يجهل جميع الناس كيف كان استيلاؤها على هذا القصر .

فاعلمي اذن ان صاحب هذا القصر كان يدعى جان دافيليـا وهو من اعضاء مجلس العشرة ومن كبار النبلاء .

أما هذا الرجل فقد مات قتيلاً بعد ان كتب وصيته بيومين وقد ترك في وصيته هذا القصر للحظية امباريا.

انك لم تفهمي بعد فافهمي فان الذي قتل جان دان دافيليا كان امك .

فذعرت الفتاة وقالت : يا للهول .

قال : يظهر ان حديثي بـــدأ يؤثر عليك والآن فاعلمي ان لدي أدلة وشهود من كبار النار يشهدون ان أمك القاتلة فماذا تقولين اتسكتين ايضاً.

وهنا سكت قليلاً بينما كانت بيانكا تبذل جهداً عنيفاً كي تمنع نفسها عن الاغماء فمضى في حديثه فقال :

ـ انك اذا صحبتني الى فينيسيا ابقيت هذا السر مكتوماً فلا أبوح به لأحد وإذا اضطررت للعودة وحدي وشيت بأمك حين وصولي فقبضوا عليها وقتلوها بعد اسبوع .

ولو كان بمبو الح عليها لارتابت في قوله ولكنه قال لها هذا القول وادار ظهره فسار سيراً بطيئاً .

وقد كان موقف بيانكا في تلك الساعة حرجا إذ كان يجب عليها ان تختار بين موتها وبين موت امها .

وقد تمثلت لها أمها بايدي الجنود وهي مساقة الى ساحة الاعدام فارتعشت فرائصها ومشت في أثر بمبو .

أما الكردينال فشعر انها تسير وراءه فلم يلتفت وفرح فرحاً لا يوصف وعظم في عيني نفسه إذ تمكن من اخضاع هذا الظبي النفور .

ولبث سائراً ساكتاً ولكنه كان من حين الى حين يشعر بلهيب الجرح الذي أصابه ويفتكر انه لولا هذه المدية التي كانت معها لكان فوزه مضموناً فيئن انين القانطين ويفتكر بطريقة تمكنه من تجريدها من هذا السلاح .

وفيما يفتكر بذلك خطر له فكر هائل وهو أن هذه الفتاة تسير وراءه وانها قد تطعنه بين كتفيه طعنة تكون القاضية فالتفت فجأة فرآها تسير على قيد بضع خطوات منه والمدية مشهورة بيدها فعاد الى المسير .

وما زالا سائرين حتى وصلا الى الشاطيء ورأى البحار لا يزال ينتظر في القارب فأشار اليها أن تصعد اليه .

أما بيانكا فانها ترددت لحظة في البدء ثم تمثلت لها أمها يسيرون بها الى ساحة الاعدام فارتعشت واسرعت بالصعود الى القارب .

٥٥

العذراء

عرف القراء ان ارتين الشاعر كان من اشد الناس جبناً في حين انه كان يفاخر الناس بجرأته وانه لم يعترف بهذا الخوف الا لرولاند .

وهم يذكرون ايضاً انه هو الذي دعا امباريا الى محادثته بأمر خطير فلما وصل وإياها الى الغرفة دخلت قبله ودخل رولاند مكانه في اثرها واقفـــل الباب في وجهه .

وقد عاد ارتين عند ذلك الى القاعات وهو راض عن نفسه لأنه خـدم رولاند خدمة كان حليفها الفوز .

ولكنه ما لبث ان هلع قلبه من الخوف إذ قال في نفسه :

ـ ان امباريا عدوة رولاند اللدودة وانه لا بد من حدوث خصام بينهما

يكون الفوز فيه لرولاند لا محالة وان امباريا سوف تذكر انـه هو الذي خدعها هذه الخدعة فترسل احد أعوانها فيقتله شر قتل .

ولم يكد يخطر لهذا الخاطر حتى هرول مسرعاً الى منزله فاقفل الابواب وتحصن به كأنه في حصن يهاجمه الاعداء .

وعند ذلك رأى أنه لا يستطيع الرقاد لشدة خوفه فجمع نساءه وجعل يعاقر واياهن المدام ويروي لهن النوادر المختلفة عن شجاعته النادرة المثال حتى اقبل الصباح وهو على ما هو فيه .

وفيما هو على ذلك قرع الباب الخارجي بعنف فهلع قلبه وأرسل أحـد خدمه يستطلع فعاد وهو يقول :

ـ ان الطارق الكاردينال بمبو يصحبه امرأة .

فأمره أن يسرع بفتـــح الباب وهرع لاستقباله فلما تظاهر بالدهشة وقال له :

ـ ما هذا الاصفرار الذي يتولاك وما هذه الجراح التي بيديك ؟

فجلس بمبو على كرسي وهو خائر القوى وقال له :

ـ اني مؤتمنك على سر تقسم لي بشرفك على كتمانه فان هذه الفتاة التي تراها أريد ان تختبىء عندك بضعة أيام فانها لا تكون في مأمن الا إذا كانت عندك ورجائي أن يعاملها نساؤك بما تستحقه من العناية والاكرام .

فانحنى ارتين أمام بيانكا المنكودة وقد ظهرت عليه عـــلائم الاشفاق الأكيد وقال :

ـ انها تكون عندي كما لو كانت في منزل ابيها .

ثم قرع المائدة ونادى امرأة من نسائه تدعى بيريتا فقال لها : اني اعهد اليك بحراسة هذه الفتاة فاعتبري انها اختك .

فدنت بيريتا منها وهي تبتسم لها الطف ابتسام فتأبطت ذراعها وهي تقول لها بلهجة اشفاق :

ـ ثقي ايتها السيدة اني ما زلت بقربك فلا سبيل الى الخوف .

وقد عرف القراء كيف ان بيانكا رضيت ان تعود الى فينيسيا مع بمبو فلما صعدت الى القارب وسار بها يخترق الامواج اصيبت بيأس شديد .

وذلك انها خطر لها انها ستعود الى قصر امها وهناك تعود الى سلطة ساندريجو اذ تكرهها امها على الزواج به وفي هذا الفكر وحده ما يدعوها الى اليأس ذلك فوق ما تجده من النفور من عيشة امها .

ولكنها كانت امها ولا سبيل الى مجافاتها ولا الى مجافاة هذا الكاردينال الهائل فان الاعدام يتهدد تلك الأم .

وقد اضطربت في أمرها وتمثل لها الموت ففضلته على العودة الى منزل أمها ولكن ماذا تصنع وإلى اين تذهب .

وما زالت هذه الافكار تتنازعها حتى رأت ان القارب قد وقف عند قصر لم تكن تعرفه .

ولم يكد الكاردينال قد كلمها كلمة على الطريق وفاء بوعده فلما وقف القارب قال لها بملء السكينة :

ـ أصغي الي فاني سأوجز القول وعليك ان تختاري .

انك لا تريدين ان تكوني لي فليكن ما تريدين ولكني اقسم بالله انك لا تكونين لسواي .

وهذا منزل صديق امين سأقيمك فيه فاذا وافقت علي اقتراحي فلا خوف على أمك وإذا أبيت وأردت ان تذهبي وأنا لا أمنعك فلا تمضي ساعة حتى تكون امك بيد الجلاد وهي متهمة بقتل جان دافيليا .

والآن فاختاري بين ان تتبعيني وبين تذهبي الى حيث تشائين .

وعند ذلك فعل كما فعل حين كان في الغابة أي أنه أدار ظهره ومشى دون ان ينتظر جوابها .

فتبعته بيانكا كما تبعته هناك وهي ترجو ان تتمكن من ايجاد طريقة

سرية تخبر بها أمها عن تلك التهمة التي يتهمها بها الكاردينال فمن هربت أمها تطمئن هي عليها وتهرب بدورها .

فلما ذهبت بيريتا بها بقي بمبو وارتين فقال له الكاردينال :

ـ هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها .

قال : أهذه هي التي ...

ـ نعم هذه هي التي يجب ان يفسد نساؤك اخلاقها .

فأطرق ارتين برأسه الى الأرض ولم يجب .

فقال له بمبو بلهجة المتوعد :

ـ ما هذا ؟

قال : من هي هذه الفتاة ؟

ـ ألم اقل لك انها ابنة المحظية امباريا ويجب ان يكون في عروقها دماء محظية ولكنها لم تختلط بعد بالناس ولم تعلم شيئاً من سير امها أي لا تزال على التربية التي تعلمتها في المدارس على انها إذا عاشرت نساءك عشرة أيام تصبح كما أريد ان تكون فما تقول ؟

ـ اقول أني اشفق عليها .

ـ ولكني سأقتل هذه الشفقة بكلمة اكتبها فهات معدات الكتابة فانه لا يزال لك خمسة الاف ريال... هات معدات الكتابة لأكتب لك حوالة بها على الخزينة .

ـ لا حاجة الى ذلك .

فذهل بمبو وقال : ماذا تقول ؟

ـ أقول أني أوثر ان تبقي مالك لك .

ـ اهذا انت الذي أسمعه ام اني من الحالمين ؟

فتنهد ارتين وقال : كلا بل انت في يقظة .

فقيد بمبو هذا التنهد بحساب الخمسة آلاف ريال.

وقد كان مصيباً فان ارتين كان من عشاق المال وقد تنهد حقيقة لخسارته هذا المبلغ الجسيم .

ولكنه رأى تلك الفتاة فرأى الطهارة ماثلة في جبينها واليأس يبدو في عينيها فاشفق عليها اشفاقاً اكيداً .

ثم أنه كان من أهل الفنون الجميلة وقد قابل بين جمال بيانكا وقبح بمبو فانف من أن يدفعها اليه وفضل خسارة المال .

وفوق ذلك فانه كان لا يزال خائفاً من ان تبحث عنه امباريا وترسل له من يقبض عليه ويقتله لأنه خدعها بادخال رولاند اليها فما يكون مبلغ حقدها متى علمت ان بنتها عنده .

ولذلك قال لبمبو :

– انك غير حالم وأني ارفض ذلك المال الذي تعرضه علي .

غير ان الكاردينال لم يكترث لقوله فقام لنفسه فاحضر دواة وقلماً وكتب الحوالة على ورقة فامضاها ودفعها اليه قائلا :

– خذ ايها الصديق .

قال : كلا . ولكنه نظر الى الحوالة نظرة كئيبة فقال له الكاردينال :

– اذن انت تريد ايها الصديق ان تضطرني الى ان أعمق البحث في شأن سفارتك الى جان مدسيس .

وقد قال الكاردينال هذا القول من قبيل الايهام فانه لم يكن يعلم شيئاً من اتفاق ارتين ورولاند ولكن الريب كان يخامر قلبه .

أما ارتين فانه بعد ان سمع هذا القول اضطرب ووثق ان الكاردينال عالم بالحقيقة وانه قد يشي به الى الدوج فيرسله الى سجون الابار حيث يموت فيها شر موت فرعب رعباً عظيما .

وكان الكاردينال لا يزال باسطاً اليه يده بالورقة فأخذها وهو يقول :

– أي دخل لي بهذه الشؤون ؟

فقال له الكاردينال : إذن لقد بقينا ايها الصديق على اتفاقنا القديم ؟

قال : نعم ولا انكر اني اشفقت هنيهة على هذه الفتاة .

كلا لا يجب ان تشفق عليها بل يجب ان تكون هذه الشفقة علي وبعد فلما تشفق عليها وهي ابنة محظية احببتها حباً قاتلاً وسأجعلها من اسعد النساء وارفعهن شأناً وأبعدهن نفوذاً في حين انها معرضة لغرام اقل الفتيان شأناً فيعبث بها ويجعلها من عامة الناس وعند ذلك الا تشفق عليها ؟

فاعتذر ارتين عما بدر منه وبعد هنيهة فارقه الكاردينال وهو يقول :

ـ اذكر اني معتمد عليك وعلى نسائك في تقويم اودها .

قال : انك لا تذكر ناسياً وقام فودعه الى الباب ثم عاد وهو مطرق يفكر الى ان قال :

ـ ويح لي ما هذا الجنون الذي اصابني وما هذا الاشفاق على هذه الفتاة فقد رأيت كثيرات مثلها مع جان مدسيس فليحدث لبيانكا ما كتب لها وليفعل بمبو ما يشاء أما انا فخير ما اعمله الآن ان أدخل الى مخدعي وانسى هذه السفاسف بالرقاد .

٥٦

الكاردينال

عندما عاد الكاردينال الى منزله كان النهار قد طلع فلما وصل اليه وجد أحد خدمه واقفاً عند الباب الخارجي فأسرع الخادم اليه حين رآه وقال له :

ـ مولاي ما هذه الليلة الهائلة التي قضيناها ؟

فأسكته الكاردينال إذ رأى رجلان يسيران بالقرب منه ودخل معه الى المنزل فقال له :

— قل الآن ما جرى وأوجز في القول .

قال : انهم دخلوا القصر في هذه الليلة دخول المغتصب .

فقطب حاجبيه وقال : ألعلهم لصوص ؟

— كلا يا مولاي فانهم لم يمسوا شيئاً من رياش القصر كما تبينت بعد رحيلهم .

فاصفر وجه الكاردينال حين أيقن انهم غير لصوص ونظر الى الخادم كأنه يأمره ان يمضي في حديثه فقال الخادم :

— لقد كانت الساعة الخامسة بعد انتصاف الليل وجميع الخدم نيام إلا أنا فقد لبثت ساهراً بأمرك .

عند ذلك سمعت قرع الباب الخارجي وعلمت انك لست انت الطارق لأن القرع لم يكن بالشكل الذي اصطلحت عليه فلم افتح .

ثم تكرر الطرق ولما لم افتح الباب كسروا القفل فجعلت أصيح مستغيثاً فاستفاق جميع الخدم وبادروا الى نجدتي .

وعند ذلك فتح الباب ودخل منه عصابة كأنها من مردة الجن فقبض بعضهم علينا وأثار بعضهم المصابيح .

ثم جاء رئيسهم وسألنا قائلاً : أيكم خادم غرفة الكاردينال ؟

فقلت له : أنا هو فدنا مني ووضع غدارته على صدري وقال لي :

— سر بي الى غرفة مولاك .

فلم أجد بداً من الإمتثال وغدارته مصوبة الى رأسي وذهبت به الى غرفتك لعلمي انك لست فيها وهناك سألني قائلاً :

— أين هو مولاك ؟

قلت : انه مسافر .

– انك كاذب .

– بل اقسم بالعذراء .

– إذن سر أمامي فاني اريد ان أرى جميع غرف القصر .

وعند ذلك تفرق جميع رجال تلك العصابة في القصر ففتشوه أدق تفتيش حتى انهم كانوا يفتشون تحت الأسرة ووراء الستائر فلما لم يجدوك انصرفوا دون ان يسيئوا الى أحد منا بشيء .

فقال بمبو في نفسه والذعر ملء قلبه : إنه رولاند دون شك .

ثم قال للخادم : دعني الآن وحدي فاني محتاج الى الراحة وعد إليّ بعد ثلاث ساعات .

– حسناً يا مولاي .

– وأقفل كل شيء واذهب الى السنيور جينارو رئيس البوليس فأورد ما حدث وقل له ان يأتي لمقابلتي ثم سله بلساني ان يرسل عشرين جندياً لحراستي فاننا في زمن لم يبق فيه أمان حتى لأمراء الكنيسة .

فامتثل الخادم وذهب مسرعاً لتنفيذ الأمر .

وخلا بمبو الى نفسه فقال : نعم ان رولاند يتعقبني وانه مقيم في فينيسيا لا يراه احد فيها على كثرة الرقبـاء والجواسيس وكلما نصبوا له فخاً نجا منه كأنه من الأبالسة .

أما أنا فلا سبيل لي الى النجاة منه بغير الفرار فانـــه قد ضيق الحلقة عليّ وإذا لم أسرع بالفرار قضي عليّ القضاء المبرم .

وقد تقدم لنا بيان خطة الكاردينال فانه كان يحاول ان يبرح فينيسيا ببيانكا بعد ان يتم نساء ارتين تدريبها على ما يريد في مدة اسبوعين .

أما الآن فقد رأى انه لم يبق له سبيل الى البقاء اسبوعين بعد ان أيقن ان رولاند يتبعه ولذلك عزم عزمـاً أكيداً على ان يبارح فينيسيا في الغد مع بيانكا ونام .

وبعد ثلاث ساعات استفاق واستقبل رئيس البوليس فقال له :
— قد أخبرك خادمي بما اتفق لي ليلة امس وإنما دعوتك إليّ لأستطلع
ك في هذه الحادثة .

قال : أرى ان هذه الحادثة متفقة مع حادثة خطيرة ايضـاً تجهلها دون
ومع حادثة سوف تحدث .
— ماذا تعني بما تقول ؟

— انهم وجدوا في الترعة الآن جثتين جثة رجل وجثة امرأة أما المرأة
ا تدعى جوانا ولا شك ان نيافتكم لا تعرفونها .
— كلا .

— إننا راقبنا هذه المرأة مدة طويلة ثم توارت عن أنظارنا وإنمـــا كنا
بها لوثوقنا انها كانت تخدم ابن الدوج السابق خدمة سرية .
— رولاند كانديانو ؟

— نعم فان نيافتكم لا تجهلون انه لا يزال يطمع بأن يخلف أباه .
أما جثة الرجل فهي جثة لص قديم تعيّن اخيراً بين قواد الجيش دون
علم احد سبب هذا التعيين .
— ساندريجو ؟

فابتسم رئيس البوليس وقال : ألعل نيافتكم تعرفون هذا اللص ؟
— أعرف انه خدم الجمهورية خدمة جليلة .
وبعد ان تمعن هنيهة قال : إذن لقد قتل ساندريجو ؟

— اني لم أقل لنيافتكم انه قتل ولكنكم عرفتم الحقيقة كما يظهر فانه
ب بخنجر في صدره .
— ماذا تظنون بهذه الجريمة ؟

— أظن ان جوانا قد قادت ساندريجو الى كمين وان رولاند قتله .
— ولكن هي ماتت ايضاً ؟

ـ ربما قتلوها لأنها ارتكبت خيانة ولكنني أرى اني أؤثر على نيافتكم بهذه الرواية .

ـ كلا كلا فامض في حديثك فقد قلت لي انه يوجد حادثة اخرى .

ـ نعم وهي ان الجثتين وجـدتا في الترعة كما قلت لكم ولكن وجدوا أمامهما سفينة منقلبة وهي بديعة الاتقان .

ـ انها دون شك سفينة ذينك المنكودين .

ـ ربما .. أمـا أنا فقد عرفت السفينة لفوري وهي سفينة امرأة ولا بد ان تكون نيافتكم سمعت بذكرها ولكنني لا أجسر على التصريح باسمها في هذا المكان المقدس .

ـ لا بأس فاذكر لي اسمها .

ـ إنها محظية شهيرة تدعى امباريا .

ـ ماذا تقول ألعل هذه المحظية قتلت ايضاً ؟

وقد اضطرب الكاردينال في نفسه اضطراباً شديداً فقال في نفسه : لقد قتل ساندريجو وقتلت امباريا فجاء دوري لا محالة .

أما رئيس البوليس فقد قال له :

ـ كلا يا سيدي فان كان أمر هذه المرأة يهمكم فاعلموا انها لم تقتل وانها مقيمة في قصرها وقد تأكدت ذلك اذ خطر لي البدء في انها هي القاتلة على انها إذا لم يكن لها يد في القتل فان لهـا دخلاً في الحادثة دون شك بدليل انها تتأهب للسفر وانها ستبرح فينيسيا غداً الى رومة .

ـ وأية علاقة ترى بين هذه الحوادث وبين قتل ساندريجو وسفر المحظية والهجوم على منزلي ؟

ـ لا أجد علاقة ولكن خطر لي ان أولئك الناس الذين قتلوا ساندريجو واكرهوا امباريا على الفرار قد يكونون نفس الذين هجموا على قصركم .

ـ ترى ماذا يقصدون ؟

ـ لا أدري فربما كان ذلك انتقاماً عن حقد شخصي .

ـ أتظن ان رولاند كانديانو حاقداً عليّ وانه يريد الانتقام مني .

وقد قال الكاردينال هـــذا القول وندم عليه إذ رأى رئيس البوليس يبتسم ابتساماً دله على انه يعرف كثيراً من الاسرار .

أما الرئيس فانه قال له :

ـ مهما يكن من الأمر يا سيدي فـلا يمضي زمن قليـل حتى أقف على الحقيقة بشأن الهجوم على قصركم ولكن إذا أذن لي سيدي أسديته نصيحة .

ـ قل .

ـ نصيحتي الى سيدي ان لا ينام في قصره مدة شهر .

فوقف بمبو وقال :

ـ إنك مخطىء فيما تقول فان الأسقف لا يجب ان يفارق أسقفيته والله يتولى حمايته ولذلك لا اخرج من منزلي ويفعل الله يشاء .

ـ إني أعجب بشجاعة نيافتكم ومع ذلك فلا بد لي من ان أقوم بواجباتي وأتولى حمايتكم ولذلك أرسلت لكم عشرين جندياً كي يحرسوا القصر حتى يزول كل خطر .

ـ اني أقبل ذلك مع الشكر .

وعند ذلك فارقه رئيس البوليس وهو يقول في نفسه :

ـ نعم ان جنودي ستحرسك وتراقبك أشد المراقبة فاني أريـد ان اعلم قبل سفرك اذا كنت مخلصاً لألتياري وإذا كنت من المؤتمرين فان اسمك غير مقيد في قاعتي .

أما بمبو فقد بقي وحده فجعل يجمع ما لديه من الاحجار الكريمة وهي ثروة عظيمة فانه كان يجمع هذه الحجارة الكريمة توقعـــاً للسفر الفجائي فوضعها جميعها في منطقته وعقدها في وسطه .

ثم أحرق كثيراً من الاوراق التي يخشى مغبتها وخرج من قصره من باب

سري بحيث لم يره أحد من الجنود فسار توآ الى الشاطىء فاجتمع ببحار وحادثه ملياً ثم اعطاه مبلغاً من المال وعاد الى منزل ارتين .

فلم يعجب ارتين لقدومه وقال له : اني سأجلس على المائدة وستتغدى معي فاسمح لي ان ادعو الخادمة كي تعد لك مكاناً معي .

قال : لا تدعو احداً فاني أتغدى معك بشرط ان لا يعلم احد بوجودي عندك .

ـ ولكنهم رأوك دخلت ؟

ـ لم يرني غير خادمك واريد ان تخبئه في مكان فلا يخرج منه إلا في صباح غد .

ـ ولكن ماذا حدث ؟

ـ افعل ما قلته لك وسنتحدث على المائدة .

فخرج ارتين من تلك الغرفة وعاد بعد هنيهة فقال :

ـ اني لا استطيع سجن الخادم حـــذراً من ان يصيح ولكني ارسلته بمهمة الى تريفيز وهو لا يعود منها قبل يومين .

ـ حسناً فعلت والآن فمر ان يمدوا لك الطعـام في هذه الغرفة وان لا يدخل اليك أحد .

ثم قام فاختبأ في غرفة ثانية حتى إذا احضروا الطعام وتغديا جلس بمبو على كرسي قرب المستوقد وأطبق جفنيه .

فقال ارتين في نفسه : انه ينام فهل خطر له ان يقيم عندي ؟

غير ان الكاردينال لم يكن نائماً بل انه كان يفتكر في طريقة لإقناع بيانكا على السفر معه .

أما ارتين فقد تشاغل عنـــه بالكتابة حيناً الى ان شعر بهجوم الظلام وذهب الى المصباح كي يشعله فقال له الكاردينال : لا تفعل .

فاضطرب ارتين وقال له : لماذا ؟

قال : لا فائدة من ذلك فاجلس بجانبي واصغ إليّ .

فامتثل ارتين وهو معجب لأمره وبدأ الكاردينال الحديث فقال :

— اني سألتك أمرين أحدهما ان تبقي الفتاة عندك مدة اسبوعين والثاني انك وعدتني بإخراج بيانكا من فينيسيا .

— هذا أكيد .

— إذن اني أعفيك من هذين القيدين اللذين دفعت لك ثمنهما مقدماً .

— ماذا تقصد بذلك أتريد ان تسترجع المال بعد ان دفعت معظمه للدائنين ؟

— كلا فاطمئن فانك لا ترد إليّ شيئاً ولكن بشرط .

— ما هو ؟

— هو اني عزمت على ان ابرح فينيسيا هذه الليلة وأريد ان تصحبني فان سبقتني تنتظرني على قيد بضع خطوات من قصرك ومتى بلغت بها البحيرات فقد نجوت .

— نجوت ؟

— أريد ان اقول ان بقية السفر لا يهم .

— إذن ما هو الشرط ؟

— ماذا تدعى تلك المرأة التي عهدت اليها بيانكا ؟

— بيريتا .

— إذن يجب ان تناديها بحيث تبقى بيانكا وحدها ثم تدلني على غرفة بيانكا إذ لا بد لي من إقناعها .

فذعر ارقين وقال : رباه ماذا تقول أمها ؟

— لا تقول شيئاً فاننا ذاهبان اليها .

— إن المال الذي دفعته لي يكلف غالياً .

فهز بمبو كتفه وقال :

— إنك ستدعو بيريتا ثم تدلني على غرفة بيانكا ثم تخرجنا من هذا المنزل دون ان يرانا أحد .

— حسناً فابق هنيهة الى ان اعود .

وبعد هنيهة عـــاد ارتين فذهب بالكاردينال من غرفة الى غرفة حتى انتهى الى غرفة بيانكا فقال له : هذه هي .

٥٧

ابنة المحظية

لقد عرف القراء من الفصل السابق ان ارتين ابعد خادمه بأمر الكاردينال .

وكان الكاردينال قد طلب اليه ان يسجن ذلك الخادم الوحيد الذي رآه الى الصباح فارتأ ارتين ان يبعده عن فينيسيا وكلا الأمرين واحد .

وقد رأى ارتين ذلك الخادم يركب قارباً ليجتاز به البحيرات فاطمأن وعاد الى بيبو .

غير ان الخادم لم يتجاوز في قاربه بضعة امتار حتى عاد الى شاطىء آخر بعيد عن القصر فوثب الى البر وأسرع الى بيت جزيرة اوليفو .

وهناك دخل الى المنزل دون تردد كأنه قد تعوّد ان يدخل اليه مراراً فلما رآه الخادم العجوز احسن استقباله فانه كان جاسوساً وضعه رولاند في منزل ارتين .

وقد سأل الجاسوس الخادم العجوز قائلاً :

— هل الرئيس في المنزل ؟

قال : كلا فقد سافر هذه الليلة .

— أيعود ؟

— ربما عاد في المساء .

— إذن سأنتظره .

وقد اقام الجاسوس كل ذلك اليوم في المنزل .

فلندعه الآن ينتظر رولاند ولنعد الى بمبو الذي تركناه عند باب غرفة بيانكا فانه فتح تلك الغرفة ودخل اليها فوجد بيانكا جالسة حول مائدة.

فلما رأته وقفت لفورها وراء المائدة بحيث جعلتها حاجزاً بينهما .

أما بمبو فانه اقفل باب الغرفة من الداخل ووضع المفتاح في جيبه وذهب الى النافذة الوحيدة التي كانت في تلك الغرفة فتفقدها دون ان ينظر الى الفتاة كأنها غير موجودة .

ولم تكن هذه الغرفة تطل على الترعة بل على شارع ضيق وهي لا تعلو اكثر من خمس أذرع عن سطح الأرض .

فلما تفقدها عـــاد الى بيانكا فوجدها مسلحة بمديتها الصغيرة فابتسم ابتساماً هائلاً وقد عول هذه المرة على ان لا يتوقف بسبب جراح .

أما الفتاة فانها اجابته على ابتسامه بنظرة كانت تنفذ منها الجرأة .

فابتسم بمبو ابتسامه الأول وقال لها :

— أرى ان هذا الخنجر الجميل لا يفارق يدك فكأنك قد تعلمت القتل من أمك التي قتلت جان دافيليا الشهير الذي لا يزال مجلس العشرة يبحث عن قاتله .

فارتعدت بيانكا وعلمت انه لا يقوى عليها إلا بمثل هذا البحث .

وعند ذلك جلس بمبو بعيداً عنها وقال لها :

— انك ترين بأنه لا سبيل الى الخوف بأن اجنح الى القوة كما فعلت في

الغابة فاصغي بسكينة الى كل ما اقوله لك واعلمي اني سأبرح فينيسيا في هذه الليلة نفسها ولكنني عزمت عزماً اكيداً على ان تكوني لي قبل سفري ولا بد ان تكوني لي .

فهزت الفتاة رأسها وأرته الخنجر فقال لها :

ـ لقد قلت لك ستكونين لي وسأظفر بك برضاك فانك تكرهينني بقدر ما أحبك ولا بد من ان امزج الحب بالبغض ، نعم ايتها الشقية فانك ستكونين لي برضاك كما قلت وكفى الآن خداعاً ورياء فاعلمي اني مخيّرك بين أمرين إما ان تلقي نفسك بين ذراعي أو أسلم أمك الى الحكومة بعد ساعة فاختاري .

فصاحت بيانكا صيحة يأس تمزق لها صدرها وتراجعت منذعرة الى آخر الغرفة .

فقال لها : بورك فيك من فتاة تدفع بأمها الى يد الجلاد .

فصاحت بيانكا صيحة يأس أخرى بحيث وثق بمبو ان الفوزبات له وتقدم منها خطوتين .

فصاحت بيانكا قائلة :

ـ أماه لنمت معاً ما زلنا لا ملجأ لنا الا الموت .

وعند ذلك رفعت يدها بخنجرها وقد انقدت عيناها ببارق غريب وطعنت صدرها بذلك الخنجر طعنة هائلة فتدفق الدم من ذلك الصدر وسقطت تلك الفتاة النقية الطاهرة على ظهرها وقضت شهيدة الطهر والعفاف ضحية ذلك الوحش المفترس .

فصاح بمبو صيحة منكرة واسرع اليها فركع أمامها ورفع بيديه المضطربتين رأسها الجميل المصفر ففتحت عينيها ونظرت الى ذلك الكاسر نظرة تدل على السلامة والاطمئنان الى ذلك الموت الذي كان لها خير ملجأ .

قال بمبو : كلا انك لا تموتين ... اني لا أريد ان تموتي .

وعند ذلك تحركت شفتا الفتاة فاصغى بمبو ليسمع ما تقول فسمعها تتمتم بصوت خافت قائلة :

— الوداع يا أمي ... الوداع يا رولاند .

وعند ذلك أسلمت الروح بين يدي ذلك الفاجر .

فوقف الكاردينال يتمعن في وجهها ويقول :

— أحق انها ماتت ونجت مني .. كلا ليس ذلك ممكناً .. كلا انها لم تمت وهي نائمة .

وقد اضطرب عقله في تلك اللحظة حتى انه كان يعتقد انها نائمة وجعل يقول اقوالاً تدل على الجنون وهو يحاذر ان تستفيق من رقادها كي لا يزعجها .

ثم زاد اختلاط عقله حتى اضطجع بجانبها وتوهم انها حية تكلمه فحاول ان يضمها الى صدره وان يدنس شفتيها الطاهرتين بشفتيه .

ولكنه سمع عند ذلك اصواتاً مختلفة في القصر فعاد اليه رشده فجأة وذهب من مكانه منذعراً فأصغى الى تلك الأصوات وقال :

— رباه ماذا اسمع .. من هذا الذي يتكلم .. انه صوته .. رباه لقد قضي علي .

ثم سمع ذلك الصوت يقول : اين بيانكا ؟

فأجابه صوت امرأة قائلة :

— تعال الى هنا .

وبعد لحظة سمع انهم يطرقون باب الغرفة طرقاً عنيفاً فضحك ضحك المجانين واسرع الى النافذة فوثب منها الى الشارع فسقط واقفاً وجعل يسير هائماً مضطربا الى القارب الذي كان ينتظره .

حتى إذا بلغه صعد اليه وأمر البحار ان يسرع السير ما استطاع فاندفع به يسابق الرياح .

ولم يطمئن قلبه الا حين بلغ الشاطىء في آخر البحيرات فكافأ البحار خير مكافأة وسار في الرمال حتى توارى عن الانظار .

* * *

٥٨

السير المغتصب

كان بمبو يعرف ضواحي فينيسيا حق العرفان فجعل يسير بطريق معوجة حذراً من ان يراه البحار ويعرف الطريق التي سلكها حتى اذا ايقن انه لم يعد يراه سار في طريق آخر وهو لا يعلم الى اين يسير لشدة ما تولاه من الرعب .

وقد نسي في موقفه الحالي بيانكا وموتها فلم يفتكر الا بنفسه وما يتهدده من الاخطار فلم يكن يتمثل له وجه بيانكا وهي صريعة بل وجه رولاند ولم يكن يسمع كلماتها الاخيرة التي فاضت بها روحها بل كان يسمع ذلك الصوت الهائل الذي اضل صوابه من الرعب ويقول في نفسه :

ـ لا شك ان رولاند سيطاردني ولكن اين له ان يجدني فان ايطاليا متسعة نائية الاطراف فكيف يخطر له اني لجأت الى رومة دون سواها .

وفوق ذلك فلو اني في رومة فاية فائدة له من ان يتبعني اليها وما عساه يريد الا ان يتخلص مني لأني اتبعه في فينيسيا وأنا لا اتبعه ما زلت بعيداً عنها .

ثم أنه لو أراد ان يتبعني لينتقم مني فان روما غير فينيسيا واني اكون فيها قويا فان البابا نفسه يتولى حمايتي .

وقد حاول بهذه المناجاة ان يطمئن نفسه ويأمن خوفه ولكن الرعب كان لا يزال مستولياً عليه لاعتقاده ان رولاند لا بد ان يقفو أثره .

وقد كان أول ما عمله أنه اشترى جواداً نشيطاً وغير ملابسه وسار ينهب الأرض بجواده حتى وصل عند هجوم الليل الى فندق في قرية فرينزلا ولم يكن يوجد غيره في تلك القرية فتمشى في ذلك الفندق ونادى الخادم فقال له :

— أرى ان هذا الفندق لا يتردد عليه كثير من الناس :

قال : نعم يا سيدي واأسفاه فاذا لم يردني من حين الى حين نبيل مثلك لاقفلته من عهد بعيد .

— اذن لا يوجد احد الآن في الفندق .

— لا يوجد سواك يا مولاي .

— حسناً اني أحب ان أقيم هذه الليلة هنا .

— ان الأسرة عندنا على غاية من الاتقان والنظافة .

— هذا كل ما أرجوه فارني هذه الأسرة .

فأخذ صاحب الفندق مصباحه فتبعه الكاردينال الى غرفة صغيرة لم يكن فيها غير سرير ضيق فقال له الكاردينال :

— لقد اعجبتني هذه الغرفة وسأبيت فيها .

وعند ذلك تركه صاحب الفندق فاضطجع على السرير بملابسه ونام .

وفيما هو بين اليقظة والنوم سمع ضجيجاً في القاعة العمومية فنهض وجعل يصغي فسمع صوت اثنين من المسافرين حتى اذا قربين لهجتهما اصطكت اسنانه من الرعب فنزل عن السرير وجعل يزحف زحفاً الى الباب كي لا تسمع خطواته فوصل بعد بضع ثوان خالها اياماً ووضع اذنه على قفل الباب .

وهناك جعل العرق يسيل من وجهه فأخذ يتراجع زاحفاً على ركبتيه الى نافذة كان يعلم انها تشرف على بستان ووثب منها اليه ثم تسلق الجدار وهبط منه الى الارض وهو يقول :

ـ أني سأسير ماشياً على قدمي إذ لا سبيل للوصول الى جوادي .

وعند ذلك جعل يركض في الحقول وغدارته مشهرة بيده وهو يلتفت الى وراءه من حين الى حين.

وما زال يسير راكضاً حتى اشرق الصباح وقد خارت قواه .

وعند ذلك لقي أحد الرعاة فنفحه بدينار واستدل منه على مدخل القرية ثم ذهب اليها فاشترى جواداً وسار به ينهب الأرض حتى وصل الى آخر قرية قبل رومه فاقام في فندقها وقد عزم على ان يدخل رومه في الليل .

وعند الغروب امتطى جواده وسار في طريق رومه .

* * *

وبعد ربع ساعة من مفارقته هذا الفندق قدم اليه فارسان كان أحدهما يشبه العمالقة بضخامة جثته وعلائم الحزن بادية عليه فدخل ذلك الفندق .

* * *

٥٩

جينارو يدفع دينه

لندع الآن ذينك الفارسين في الفندق ولندع بمبو يسير هارباً الى رومة لنجتمع بامباريا ولنعد باذهان القراء الى تلك الحفلة التي أعدتها امباريا في تلك

الليلة التي كانت ليلة حب وجنون وقبل تلك الليلة التي دفعت الغيرة فيها امباريا الى تسليم بنتها .

ويذكر القراء ان سكالابرينو كان قد اخبر رولاند أنه قتل ساندريجو واغرق امباريا .

وكان اجتماعها في بيت الجزيرة فأرسل رولاند سكالابرينو الى مكان آخر للبحث عن بمبو بحيث لم يبق في البيت غـــير فيليب العجوز فلما جاء جاسوس ارتين للبحث عنه لم يجده .

وقد برح رولاند المنزل وحده وهو قلق البال لاختفاء بيانكا كما انه كان شديد القلق على جوانا بعد ان علم بقتل ساندريجو فأشفق عليها اشفاقاً عظيما وعزم على ان يردها الى منزلها كي يعزيها عما هي فيه .

وكان قد عين لها رقيباً منذ حضورها الى فينيسيا بحيث كان يعلم اين تقيم وقد ذهب منذ الفجر الى منزلها لهذا الغرض .

وفيما هو يسير على الرصيف رأى كثير من الناس مجتمعين ينظرون الى قارب صغير فيه امرأة مبتلة الثياب فنظر الى هذه المرأة فعرف انها امباريا.

فوقف مطرقاً مفكراً وقد ساءه ان الجريمة انتصرت على العقاب وحاول ان ينقض عليها .

ولكنه رجع فجأة عن هذا الفكر فتنهد تنهداً عميقاً وسار مواصلاً سيره.

وعند ذلـــك شعر بيد قد لمست كتفه فالتفت فرأى رجلاً فقال له : من أنت ؟

قال : إذا اردت ان تتبعني اخبرتك من أنا .

قال : لا حاجة لذلك إذ عرفتك فأنت جينارو رئيس البوليس وقد نظر رولاند الى مـا حواليه نظرة الحذر ، فقـال له جينارو : ارجو ان تطمئن يا مولاي فانك تذكر الاصوات ما زلت قد عرفتني مرتين من صوتي وأما أنا فاني أذكر الأعمال .

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني انه لا يجب ان تخاف ما زلت مديناً لك .

– أوضح ما تقول .

– لقد التمست منك يا مولاي ان تتبعني فلا يجمل الحديث هنا .

– الى أين تريد ان اتبعك ؟

– الى أي محل شئت بشرط ان لا يسمع حديثنا احد فاذا شئت دخلنا الى هذه الكنيسة .

فنظر رولاند نظرة الفاحص فانحنى جينارو أمامه وقال له :

– أقسم لك بشرفي انه لا يوجد في هذه الكنيسة رقيب او جند ومع ذلك فاذا أحببت ان تسير الى أي مكان غيره تبعتك الى حيث تريد .

قال : إذن لندخل الى هذه الكنيسة .

ودخل الإثنان فجلس كل منهما على كرسي بجانب الآخر وبدأ رولاند الحديث فقال له : اني مصغ اليك .

قال : ابدأ يا سيدي فأقول انه كان بوسعي ان اقبض عليك هذه الليلة في قصر الحظية امباريا ولكني لم افعل .

قال : بل كان يجب ان تفعل عملاً بواجبات مهنتك .

قال : نعم وكنت واثقاً من الفوز بالرغم عن تلك القوارب التي جمعتها لغرض لم اعلمه .

– أرى انك واقف على حقيقة الامر .

– هذه هي مهنتي يا سيدي .

– إذن لماذا تأخرت ؟

– لأنك عفوت عني فباتت حياتك مقدسة لدي .

فنظر رولاند اليه بانذهال فقال له جينارو :

– ان حياتك تبقى مقدسة لديّ الى ان اخدمك خدمة تعادل خدمتك لي .

– أي الى اليوم الذي تنقذني فيه .
– او ما يشبه ذلك من إنقاذ شخص تحبه فوق ما تحب نفسك .
– من هذا الذي تعنيه ؟

– اصبر يا مولاي ودعني في البدء أتمم ما كنت اقوله فقد قلت لك اني لا اقبض عليك ما زلت مديناً لك ولكني حين أفي هذا الدين لا يكون لي شاغل غير القبض عليك إذ ليس ذلك من واجباتي فقط بل من فائدتي.

فقال له رولاند بلهجة الاستكبار : ومتى تحسب انك تتخلص من قيود الامتنان ؟

– بعد عشرة دقائق يا مولاي .
– أي انك بعد ربع ساعة تحاول القبض عليّ .

– كلا يا مولاي فاني لا احاول شيئاً من هذا قبل ثلاثة ايام فاني أحب ان اكون عادلاً معك حتى إذا لم يوفقني الحظ وفزت عليّ تكون عادلاً معي.
– كن مطمئناً فلست من اهل الظلم .

– أشكرك يا سيدي فلقد قلت لك منذ هنيهة ان مهنتي تقضي بأن اعرف كل شيء وقد تولعت بهذه المهنة ولعاً عظيماً حتى اني لم اقتصر على معرفة ما يعمله المرء بل تجاوزت ذلك الى معرفة ما يفتكر ولذلك ارجو ان ابلغ يوماً الى منصب رئاسة ديوان التفتيش إذا وفقت فينيسيا الى اختيار حاكم ذكي ولكن لندع هذا البحث الآن فأنت تعلم يا سيدي انه منذ قرر لي ان اهتم بك ، أي منذ فرارك من الآبار ونيلك هذه الشهرة العظيمة في فينيسيا ، لم يكن لي همّ إلا ان اعلم ماذا تعمل وماذا تفتكر .

اما اعمالك فقد عرفت منها انك رجل شديد فقد مضى شهور وانت تعبث ببوليسنا وهو احذق بوليس في ايطاليا بل في العالم بأسره .

فاسمح لي يا مولاي ان اظهر لك اعجابي بك في هذا المقام واني اقول لك بأني سأكون اسعد إنسان يوم يذاع بانني أنا الذي قبضت عليك .

على اني إذا لم أقف على كل اعمالك بالتفصيل فقد عرفت ان يدك كانت تدير جميع تلك الحوادث الكبيرة التي حدثت في قصور التياري وامباريا والكاردينال وفي قصر رئيس ديوان التفتيش حتى في قصر الدوج نفسه فقد رأيت فوسكاري من حين الى حين ينظر الى ما حواليه كأنه يخشى ان تنقض يدك الهائلة عليه ورأيت دندولو والتياري يرتجفان رعباً حين يذكر اسمك ورأيت الكاردينال يضطرب خوفاً كورق الخريف ويتأهب للفرار فعلمت عند ذلك شدة هذه الحرب الهائلة التي تثيرها على هؤلاء الأقوياء .

ولقد كان التياري وفوسكاري شبه اخوين وكان بمبو شبه حاكم وكان دندولو لا يشغله إلا إظهار مجده فهوذا دندولو الآن بات سجين بيته وهوذا بمبو يحاول العزلة وهوذا التياري يأتمر على الدوج ، ومن فعل كل ذلك يا مولاي ؟

اني أعرف ذلك الفاعل الذي أثار الرعب في القلوب واوحى بدهائه الى التياري هذه المؤامرة واعلم انه سينقض قريباً على فينيسيا انقضاض الصاعقة ويبلغ منها ما أراد .. إلا إذا ..

وهنا سكت فقال له رولاند : أتم حديثك .

فانحنى جينارو وقال :

— إلا إذا قبضت على رولاند يا مولاي .

فابتسم رولاند وترجم جينارو معنى هذه الابتسامة بقوله : لقد فات الأوان .

وعند ذلك دخل رجل الى الكنيسة فوقف على مسافة بضع خطوات وسعل سعالاً معنوياً يراد به تنبيه الأذهان فالتفت رئيس البوليس وذهب مسرعاً اليه .

فجرد رولاند خنجره وخبأه تحت ردائه وأقام ينتظر .

أما هذا الرجل فانه جعل يكلم جينارو همساً كأنه يقدم له تقريراً حتى إذا أتم حديثه اطلق سراحه بإشارة وعاد الى رولاند وهو يقول في نفسه :

— إذن لقد قتل ساندريجو .. يجب ان اعلم حقيقة السبب في مقتله .

وقد عاد الى مجلسه بجانب رولاند وقال له :

— لا يشغلك يا مولاي اني حدثت هذا الرجل فهو من اعياني وقد جاء يخبرني انهم وجدوا في الترعة جثة رجل تعرفه وقد مات مطعوناً بخنجر فاسمح لي ان أحقق في أمره ثم اعود اليك فانه على الرصيف .

قال : لا حاجة الى إزعاج نفسك بهـــذا الشأن فان القتيل لص يدعى ساندريجو وقد عيّن اخيراً قائداً في الجندرمة مكافأة عن خيانة ارتكبها.

— إذا كنت عارفـــاً بذلك يا سيدي فقد يمكنك ايضاً ان تقول لي اسم المرأة .

— أية إمرأة ؟

— إمرأة وجدت جثتها بجانب جثة ساندريجو .

فاضطرب رولاند اضطراباً عظيماً وخرج لفوره من الكنيسة الى الرصيف فوجد انهم يخرجون جثة امرأة من قارب وقد وضعوها على محمل بجانب جثة ساندريجو .

ففرّق رولاند الناس عن هذا المشهد وأسرع الى تلك المرأة وقد عرفها فجعل يفحص قلبها كأنه لا يزال لديه رجاء حتى إذا أيقن انها ماتت سالت الدموع من عينيه وجعـــل يندب جوانا بأشجى الألفاظ وينعتها بأشرف النعوت والناس من حوله ينظرون اليه فيتوجعون لمصابه ويحترمون حزنه .

وبعد ذلـــك دنا من تلك الجثة فقبّل جبينها والتفت كأنه يبحث عن رئيس البوليس فرآه وذهب اليه فقال له :

— أتريد ان تفي دينك وتخلص من قيود الامتنان ؟

قال : دون شك .

قال : هوذا الفرصة قد دنت فاني كثير الشواغل اليوم وعلي ان اهتم بالاحياء فاذا توليت عني دفن هذه الفتاة أصبحت في حل من قيودك .

ثم أخرج من جيبه قبضة من الذهب ودفعها الى رئيس البوليس لنفقات الدفن .

فأبى جينارو أخذها ولكن رولاند قال له بلهجة الآمر : فأني أنا الذي أردت دفنها وأنا الذي يجب أن أدفع النفقات .

فأخذ جينارو المال وقال : سأنفذ أوامرك وسأدفن هذه الفتاة كما تدفن بنات النبلاء .

ـ اشكرك والآن دعني .

ـ مولاي .

ـ ماذا ؟

ـ اقسم لك ان ما أريد قوله لك يبلغ اقصى درجات الخطورة فهذه فتاة قد ماتت ولكن توجد غيرها يجب انقاذها .

ـ اذن تعال .

وعند ذلك دنا الجاسوس الذي كان قد دخل الى الكنيسة فقال لرئيسه همساً : هل تعرفه ؟

قال : كلا .

فابرقت اسرة الجاسوس بأشعة الفرح وقال : أما أنا فاني أعرفه فهو رولاند كانديانو .

فالتفت جينارو الى جماعة من الجواسيس كانوا يتبعوه على مسافة قصيرة فأشار اليهم ان يدنوا منه وأمرهم ان يقبضوا على الجاسوس قائلاً : انه من المؤتمرين فخذوه وضعوه في محل خفي وراقبوه أشد المراقبة .

فأسرع الجواسيس الى القبض عليه بينما كان يرجو حسن الجزاء .

أما جينارو فانه تبع رولاند الى الكنيسة وهو يقول في نفسه مشيراً الى الجاسوس :

– ويح لك ايها الأبله انك كدت تفسد علي أمري .

ثم دخل الى الكنيسة وجلس بجانب رولاند فقال له :

– لقد قلت لك يا مولاي اني إذا لم أكن واقفاً على جميع اعمالك فاني عالم بجميع مقاصدك واعتقد ان هذه الحادثة الأخيرة أي قتل ساندريجو داخلة في خطتك وان كنت لم أعلم السبب في موت الفتاة .

فاضطرب وجه رولاند حين ذكر جوانا وقال له : امض في حديثك .

قال : ساقول لك النتيجة يا مولاي انك تحوم في جميع اعمالك ونواياك وإرادتك حول امرأة لا اسميها ولكنك تعرفها دون شك .

قال رولاند في نفسه : ليونور .. نعم لا يدفعني الى ما اعمله غير ليونور.

فقال جينارو : واني على اليقين يا مولاي من ان هذه المرأة الشهيرة قد ملكت شغافك فاذا ارشدتك الى طريقة لانقاذ حياتها أكون كأني قد انقذت حياتك.

وقد كان اضطراب رولاند عظيما حين سمع هذا القول اذا ايقن بأن جينارو يعلم ان حياة ليونور في خطر ولكنه قال في نفسه :

– ترى ايجب علي؟ ولماذا انقذها وكيف تستحق مني هذا الاهتمام بعد ان خانتني .. نعم اني قد أغفر لها خيانتها ولكني لا أدافع عنها إذ يجب علي أن أنسى انها في الوجود .

وعند ذلك تنهد تنهداً كاد يمزق صدره وغرس أظافره في باطن كفه وقال في نفسه انها في خطر .. ولكن كيف أنقذها أأنقذت هي أمي وقد كانت في أشد حالات الشقاء .. أحاولت انقاذي وأنا اتعذب في الآبار ..

نعم انها حاولت دون القبض علي في بيت الجزيرة ولكن كل انسان

سواهـا ينقذني لو استطاع . وهي الآن في خطر الا يمكن ان يكون ذلك عقابا لها .

وكان يناجي نفسه بسرعة التصور ويحـــاول ان يقنع نفسه بوجوب التخلي عنها ولكنه شعر فجأة أن قلبه كاد يخرج من صدره فقال في ضميره :

– ويح لنفسي أني لا أزال أحبها وأنا أرتعد خوفاً عليها مـــع أني لم أعرف الخوف .

وعند ذلك أجاب جينارو بصوت المنكسر قائلاً :

– قل ما هذا الخطر الذي يتهدد ابنة دندولو .

قال : حين ذهبت بي يا مولاي الى تلك القبور التي كان يجتمع بهـــا المؤتمرون وسمعت حديثهم بشأن دندولو خطر لي أنهم لا بـد ان يجتمعوا ايضاً بطريقة سرية دون ان يحضر التياري اجتماعهم فذهبت في اليوم التالي واختبأت في أحد القبور فرأيت نحو عشرة منهم قد جاؤا الى محل الاجتماع واتفقوا على قتل دندولو بالسر لأنهم كانوا يخشون أن يبوح بأمرهم .

وبعد أن اتفقوا على ذلك قال واحد منهم : لقد عرفت من ثقة ان ابنة دندولو مقيمة مع أبيها في غرفة واحدة في قصر التياري وأنهـا واقفة على سر مؤامرتنا وانها هددت زوجها بفضح السر .

فأثر هذا القول على الحاضرين واتفقوا في الحال على قتلها وقتل أبيها وعند ذلك نظر إلى وجه رولاند كي يرى تأثير هذا القول عليـه فرأى أن وجهه قد اصفر وأنه قد عض شفتـه كي لا يصيح حتى أدماها فقال له الرئيس :

– أتريد يا مولاي أن تعرف اسم الرجل الذي اختاروه لقتل دندولو ؟

قال : كلا .

قال : واسم الذين عينوه لقتل ابنته .

فاتقدت عينا رولاند وقال : من هو ؟

قال : هو الفتى كريماني وهذا بيان الخطة التي سيجري عليها فان السيدة ليونور تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع في سفينتها .

ـ اني عارف بذلك .

ـ وهي تتنزه في يومين معينين من كل اسبوع فتصل بسفينتها الى جسر التنهدات وهناك تقف هنيهة ثم تعود الى القصر .

وأني عارف بذلك .

ـ اذن فقد تقرر ان كريماني يغتنم هذه الفرصة وهذا كل ما أردت قوله لك يا مولاي فهل نعتبر بعد ذلك اني وفيت ديني ؟

ـ نعم .

فانحنى جينارو وقال : إذن فاعلم يا مولاي أني سأصبر ثلاثة أيام وبعد ذلك يجب أن تحذر مني فأني سأبذل كل جهدي للقبض عليك .

واسمح لي أن انبهك يا مولاي ان هذا اليوم أحد اليومين الذين تتنزه فيهما السيدة ليونور .

ـ نعم اذكر فاذهب الآن في شأنك فانـــك خدمتني خدمة توازي خدمتي لك .

فانصرف رئيس البوليس عند ذلك وقد لاحظ القراء انه في كل حديثه معه كان يناديه « مولاي » وأنه لمح له مرة بل مرتين أنه سيغدو في وقت قريب دوجاً وانه يطمع ان ينال في خدمته منصب رياسة ديوان التفتيش ولكن رولاند لم يكن يجيبه بشيء فلما خرج من الكنيسة سار وهو يحدث نفسه فيقول :

ـ نعم لقد وفيته دينه وبات مديناً لي والآن فاني أرى اعمالي سائرة على محور النجاح فاني واقف على سر المؤامرة وجميع المؤتمرين مطمئنون وقد عين الدوج يوم الحفلة وهو ذلك اليوم الذي يضرب المؤتمرون فيـه ضربتهم الكبرى .

أما أنا فأني اتخذ احتياطي من الآن الى ذلك اليوم فاذا فشل رولانـد قبضت عليه واذعت سر المؤامرة وكافاني فوسكاري دون شك بتعييني في منصب دندولو وإذا كان الفوز في جـانب رولاند ادع المؤتمرين يخبطون في ظلماتهم واكتم سر رولاند فيكافأني نفس المكافأة .

وعلى الجملة فان الفوز مضمون لي من الجانبين وسواء كان فوسكاري أو رولاند حاكما على فينيسيا فاني سأكون فيها رئيس ديوان التفتيش وهـذا كل ما أرجوه .

ولما خرج من الكنيسة رأى أحد جواسيسه قريباً منها فناداه وقال له:

يوجد رجل في الكنيسة ؟

قال : لقد رأيته .

ـ أعرفته ؟

ـ كلا .

ـ لا يجب ان تعرفه .

ـ إذن ماذا يجب ان أعمل ؟

ـ يجب أن تتبع هذا الرجل كظله فلا تفارقه لحظة وتعود الي في المساء فتخبرني بما فعل .

ـ حسناً يا سيدي .

ـ إذا رأيته يختصم مع أحد أبناء المدينة ...

ـ مع من ؟

ـ مع أحد من أبناء الأعيان كابن كريماتي مثلاً فاذا قتل احد المتخاصمين فلا يبق الى المراقبة لزوم فتعود الي في الحال وتخبرني بما اتفق .

وعند ذلك افترقا فذهب رئيس البوليس في شأنه ووقف الجاسوس قرب باب الكنيسة ينتظر خروج رولاند بذلك الصبر الذي امتاز به الرقباء في كل مكان .

أما رئيس البوليس فانه حين عاد الى منزله وجد فيه رسول الكاردينال بمبو يدعوه الى زيارته وأخبره بالهجوم على منزل مولاه في الليـل فقال في نفسه : أرى ان نطاق الحصار أخذ بالتضييق وهو ما قلته لحاكم فينيسيا القادم .

وعند ذلك نزع البرقع الذي كان متنكراً به وذهب الى الكاردينال .

وقد عرف القراء ما كان بين هذين الرجلين فان بمبو كان يحاول ان يخفي مقصده عن رئيس البوليس ويوهمه ان لا نية له على الإطلاق بمبارحة فينيسيا وكذلك جينارو فانه كان يحاول ان يضغط على افكار الكاردينال كي يفهم منه شيئاً وقد فاز كل بما كان يبغيه فان الكاردينال برح فينيسيا دون ان يعلم به جينارو .

وكذلك جينارو فقد وثق ان رولاند قضى قضاءه المـبرم على بمبو ولم يشكل عليه غير أمر واحد وهو كيف ان رولاند لم يدخل الكاردينال في سلك هذه المؤامرة الهائلة إلا إذا كان يريد ان ينتقم منه انتقاماً أشد هولاً .

٦٠

جسر التنهدات

خرج رولاند من الكنيسة دون ان يرى ذلك الرقيب الذي وضعه جينارو لمراقبته على انه لو رآه لما اكترث له فقد كان في حالة من الاضطراب جعلت كل فكره منحصراً في أمر واحد وهو ذلـــك الخطر الذي يتهدد ليونور .

ولم يكن يذهله إلا انه بينما كان يعتقد انه سلاها ولم تعد تخطر له ببال وجد انه لا يزال يحبها كما كان في عهد خطبته وقد علم لاول مرة ان حبها

كان دفيناً في قلبه وان هذا الخطر احياه وانه إذا كان لا يزال حيا الى الآن على ما اصابه من القنوط فما ذلك إلا لأن ليونور لا تزال في قيد الحياة .

وقد أقام ذلك اليوم تائهاً هائماً في فينسيا لا يعلم الى اين يسير فكان تارة يقف أمام قصر التياري وتارة يرود حول قصر كريماني الى ان غابت الشمس فذهب الى جسر التنهدات وقد وضع برقعاً اسود على وجهه واقام ينتظر في قارب صغير .

وبعد هنيهة رأى قارباً قادماً وليس فيه غير رجل واحد فوقف قرب السجن وكان فيه كريماني .

وبعد ذلـــك بقليل سمع صوت المجاذيف فالتفت وارتعشت اعضاؤه ارتعاشاً ظاهراً إذ رأى ليونور جالسة وحدهـا تحت خيمة السفينة وقـال في نفسه :

ـــ عجباً ما الذي يدفعها الى هذه النزهة المطردة ولمـاذا اختارت نزهتها جسر التنهدات ؟

وكان اضطرابه عظيماً لمرآها ولكنه تجلد وضبط نفسه ودفع بقاربه حتى التصق بسفينتها .

أما ليونور فانها رأته وعرفته وكان موقف الاثنين هائلاً عظيماً امتزج فيه الهناء بالخوف واللذة بالاضطراب ولم يستطيعا هذه المرة ايضاً ان يفوها بكلمة بالرغم عن ذلك الحب الذي كان يجذب كلاً منهما الى الآخر .

غير ان رولاند بذل جهداً عميقـــاً كي يتمكن من ضبط نفسه فقال لها بصوت متهدج :

ـــ اهربي .. عودي الى قصر .. ومهما حدث فلا تخرجي منه قبل شهر .

ان ليونور سمعت ذلك الصوت فهل فهمت مـا قال ؟ ذلـك غير مرجح ولكن بحار سفينتها أدار مقدمها في الحال الى جهة القصر واندفعت تسير بملء السرعة .

ذلك ان البحار عرف رولاند وسمع ما قاله فنظر اليه نظرة امتزج فيها الخوف بالإمتنان والإشفاق وعاد بسيدته الى القصر .

فلما توارت السفينة عن نظر رولاند تنهد تنهداً خرج من صدره كالانين ثم تقدم بقاربه الى حيث كان قارب كريماني .

أما كريماني فانه رأى سفينة ليونور قد دنت من الجسر ولكنها بدلاً من ان تتقدم بها الى حيث كانت ترسو عادة عادت بها ادراجها مسرعة فقال في نفسه : لم يبق سبيل لقتلها هذه الليلة ولا بد من تأجيله الى يوم آخر .

وعند ذلك رأى قارب رولاند قد التصق بقاربه وان فيه رجلاً لا يعرفه فأوجس منه شراً وقال له :

ـ اذهب من هنا ولا تقف بجانبي .

أما رولاند فانه ابتسم واجابه قائلاً :

ـ فينيسيا وسانت مارك .

وكانت هذه الجملة جملة التعارف بين المؤتمرين فاطمأن كريماني وصعد رولاند الى قارب الفتى ورفس قاربه برجله فاندفع كما تشاء الامواج ثم جلس بجانب كريماني وقال له بملء السكينة :

ـ تفضل واجلس يا سيدي فاني قادم اليك لأحدثك .

فجلس كريماني وهو آمن مطمئن لاعتقاده انه يحادث شريكاً له بالمؤامرة وقال له :

ـ من انت يا سيدي ؟

فانتزع رولاند برقعه وجعل ينظر اليه .

أما كريماني فانه ذعر ذعراً عظيماً لأنه لم يعرف هذا الرجل ولم يره مرة بين المؤتمرين ولكنه ما لبث ان اطمأن إذ اعتقد بأن احد الزعماء ارسله اليه وقال له :

ـ اني تمعنت في وجهك يا سيدي فوجدت اني لا أعرفك ومع ذلك فقد قلت جملة .. وهي تبرهن لي انك من المؤتمرين .

فانحنى كريماني ولم يجب فقال له رولاند :

ـ كلا يا سيدي اني لست من المؤتمرين أي لست منكم وإذا كنت قد لفظت جملة السر فما ذلك إلا لأني كنت اريد الوصول اليك بسهولة لأني اريد ان احدثك .

فاصفر وجه كريماني وشتم شتماً قبيحاً وجرّد خنجره .

ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند قبض على يده وضغط عليها ضغطاً عنيفاً حتى صاح الفتى صيحة ألم وسقط الخنجر من يده فالتقط رولاند الخنجر ورده اليه .

أما كريماني فانه أخذ الخنجر وقد ظهر الانذهال العظيم في عينيه فقال له : إذن ماذا تريد ؟

قال : اصغ لي بسكينة تعلم ماذا اريد واجلس فان وقوفك في القارب يفسد موازنته فينقلب .

فامتثل كريماني وقال : اني مصغ اليك .

قال : أرى يا سيدي انك لا تعرفني ولا بد من التعارف بيننا اتذكر اننا كنا في حفلة المحظية امباريا حين أهنت الشاعر ارتين فقبض عليك احد الخدم وألقاك خارج القصر ؟

فاصطكت اسنان كريماني من هذه الذكرى وقال له رولاند :

ـ أرى انك تذكر هذه الحادثة فانك حاولت بعدها ثلاث مرات ان تنتقم من هذا الشاعر المسكين لاعتقادك انه اهانك بتلك الاهانة وفي كل مرة كان يحبط مسعاك .

فجعل كريماني ينظر اليه نظرات الإنذهال ومضى رولاند في حديثه فقال :

ـ أنا هو الذي كنت أحول دون انتقامك فاني كنت اكره ان يظلم الشاعر وإنما أقول يظلم لأنك لم تطرد من حفلة امباريا بأمره بل بأمرنا .

ـ من أنت ؟

ـ سوف تعلم فقل لي الآن ألم يكن أبوك الشيخ كريماني احـــد اعضاء مجلس العشرة سنة ١٥٠٩ ثم ألم يكن احد هؤلاء الذين حكموا على الدوج كانديانو بشمل عينيه ؟

اني أخبرك بأمر تجهله فان كانديانو بعـــد ان أعموه تركوه يتجول في الأسواق مستعطياً وانت ابن احد الذين حكموا عليه اعلم اني أنا ولده .

ـ رولاند كانديانو ؟

ـ نعم أنا هو فـان أباك ارتكب دناءة لا يرتكبها من تجول في عروقه دماء إنسان لأنه كان يعلم ان أبي لا ذنب له وإنما فعل ذلك ارضاء للمؤتمرين على أبي ليضمن مركزه ويضمن مستقبلك فبينما كنت انت تتجول متنزهاً في كل مكان فسيح كنت أنا سجيناً في الآبار المظلمة العميقة على ان البنين لا يجب ان يواخذوا بذنوب آبائهم وإنما ذكرت لك حكايتي معكم كي تعلم انه يحق لي ان احول بينك وبين التي تحاول قتلها .

فارتعش كريماني وقد علم ما سمعه ان رولاند حاقد عليه حقداً عظيماً وانه عارف بسر المؤامرة .

وكان شجاع القلب ثابت الجنان فخطر له ان يقتل رولاند بضربة دون ان يدع له وقتاً للدفاع فقال له بملء السكينة :

ـ انك أردت ان تكلمني يا سيدي وقد رأيت اني أصغيت اليك كل الإصغاء فاذا أردت فافصح الآن عما تريد مني .

قال : اني أتيت اليك لأخيّرك بين الموت والحيـاة فاذا أردت ان تحيا اقترحت عليك ان تغادر فينيسيا الآن فلا تعود اليها إلا بعد شهر .

فأجابه كريماني بلهجة المتهكم قائلاً :

ـ ولكن أتسمح لي ان أبرح فينيسيا في حين اني مضطر الى الإقامة فيها ؟

ـ ذلك لأنه لا يجب ان تكون سافلاً كأبيك فترتكب جريمة افظع من جريمته ويجب ان تعـــلم انه لا فرق عندي بين ان لصاً او سفاكاً او خائناً فكن كيف شئت بشرط ان لا اجدك في طريقي .

وكان كريماني يسمع حديثه وهو يتأهب لاغتياله فقال له :

ـ من أنبأك اني أريد ان اكون لصاً سفاكاً خائناً ؟

ـ إذا لم يكن ذلك فماذا تصنع هنا ألست كامناً لتلك الفتاة لتفتك بهـا واني على شدة كرهي لأبيك اشفق على شبابك ومستقبلك ويسوءني ان أراك كامناً لإمرأة تريد ان تقتلها وهي دون دفاع فاذهب يا كريماني واني أعاهدك على نسياني كل ما كان من أبيك وكل ما بدر منك بشرط ان تقسم لي بأنك تبرح فينيسيا منذ الليلة وتعود اليها بعد شهر .

فأجابه كريماني بضحك عصبي ثم وقف فجأة وطرح رداءه فاهتز القارب اهتزازاً عنيفاً وسقط كريماني الى الترعة فشعر بأن يداً من حديد قد ضغطت على عنقه .

وذلك ان رولاند كان يراقب كل حركاته وقد ادرك قصده فلما وقف كريماني يحاول الهجوم عليه وقف هو ايضاً دون ان يكترث لحفظ توازن القارب وسقط كريماني الى الماء فسقط رولاند في أثره وقبض بيده القوية على عنقه ولم تكن غير لحظة حتى توارى الاثنان في الماء .

وبعد هنيهة ظهر رولاند وحده على سطح الماء فتوكأ على القارب واقام ينتظر حتى إذا مضت عـدة دقائق ظهر كريماني على مسافة عشرين ذراعـاً وهو جثة هامدة لا حراك فيها .

٦١

المطاردة

وعند ذلك خرج رولاند من الترعة دون ان يندم على قتل كريماني وسار الى بيت الجزيرة وقبل ان يصل اليهـا لقي سكالابرينو فقال له : مـا وراءك من الأخبار ؟

قال : أسوأها .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك انه ليس لدينا انبـــاء وهذا الذي يدعوني الى القنوط من لقاء بمبو وبيانكا .

ـ لا بأس فاذا لم يكن لدينا ما نعمله في فينيسيا فلنذهب الى الضواحي فاني ارجو ان اهتدي الى المكان الذي لجأ اليه الكاردينال وسنضع الرقباء حول قصره ونذهب الى الضواحي فنبحث عنه وقد أرسلت نحو مائتي فارس في أثره فاذا لم نعثر به فلا بد ان يجدوه .

وعند ذلك وصلا الى المنزل فرأى رولاند الجاسوس الذي كان أقامه في خدمة الشاعر ارتين فقال في نفسه :

ـ ترى ماذا حدث عند ارتين ؟

ثم دنا من الخادم وسأله عن السبب في قدومه فقال له :

ـ ان السيد ارتين يا مولاي حاول ان يرسلني الى تريفيزا .

ـ لماذا ؟

ـ ليبعدني دون شك فقد رأيت الكاردينال عنده .

فصاح رولاند وسكالابرينو قائلين :

— بمبو ؟

قال : نعم فانا الذي ادخلته .

فقال سكالابرينو : هلم يا مولاي لنسرع .

فقال الخادم: تمهل الى أن تسمع كل حديثي فان الكاردينال جاء وكانت تصحبه امرأة وفتاة .

فنظر كل من رولاند وسكالابرينو الى الآخر نظرة سرور واندفعا الى خارج المنزل دون ان ينتظرا سماع تتمة اقوال الخادم حتى بلغا الشاطىء فركبا قاربا وسارا به .

وكان سكالابرينوا ساكتاً لا يتكلم ولكن علائم الاضطراب الشديد كانت بادية في عينيه .

فادرك رولاند سبب اضطرابه فقال له :

ـ اني أعرف بيانكا حق العرفان فثق انها كانت أقوى من بمبو .

قال : ولكن قلبي يخفق خفوقاً عظيما ويحدثني بمصاب أليم فعسى ان نصل قبل فوات الأوان .

وبعد هنيهة وصلا الى منزل ارتين وطرقا بابه فلم يفتح لهما أحد .

فكررا الطرق مراراً وكانا يسمعان وقع اقدام الخدم وصوت ذهابهم واياهم مما يدل على فرط اضطرابهم فان ارتين كان لا يزال معتقداً أن امباريا سترسل له من يقتله .

فلما رأى رولاند ما كان من ترددهم في فتح الباب صاح بملء صوته مناديا أرتين فسمع ارتين الصوت وعرف أنه صوت رولاند فأمر خدمه ان يسرعوا بفتح الباب وسار معهم فلما دخله رولاند قال له : أرتين أهذا أنت أيها الرئيس ؟

فأجابه رولاند بصوت ارتجت له اعضاؤه قائلا :

ـ اين بمبو؟

فتلعثم لسانه وقال :

ـ بمبو .. الكردينال .. ولكن ..

ـ ويحك قل اين هو أو انتزعت انيابك من فمك وعذبتك عذاباً لا يخطر في بال الابالسة.

فارتعد ارتين خوفاً وقال: تعال وشهد الله اني اخفيتها عندي ولم يخطر لي ان ذلك يغضبك .

ثم سار مسرعاً ورولاند وسكالابرينو في أثره الى أن أوصلها الى الغرفة التي كانت فيها بيانكا فحاول سكالابرينو فتحها فوجدها مقفلة فدفع الباب بكفه فتحطم ودخل الاثنان الى تلك الغرفة .

وقد عرف القراء ما لقياه في تلك الساعة الهائلة وقد نظر رولاند الى النافذة فوجدها مفتوحة وعلم أنه فر .

وعند ذلك سمع انين سكالابرينو فالتفت اليه فلقي بيانكا ملقاة على الارض وسكالابرينو راكع أمامها لا يجسر أن يقول كلمة بل أن صوته قد اختنق في حلقه.

فاسرع رولاند ونظر الى بيانكا فاذا هي قتيلة فضم قبضتيه ورفع نظره الى العلى كأنه يتهدد القدر ثم سالت دمعتان من عينيه .

وعند ذلك لمس سكالابرينو بلطف فالتفت سكالابرينو اليه وقال :

انها لم تمت اليس كذلك.. مولاي قل لي انها لم تمت .. بيانكا .. ابنتي.. الا تسمعينني .. هـــذا أنا .. أبوك نعم أنا هو أبوك فانظري الي وافتحي عينيك فقط فاذا رأيت اني غير جدير أن أكون أباك انصرفت عنك ولكن افتحي عينيك.

فهز رولاند كتف ذلك الاب المنكود وقال له : قف ايهـا الصديق .. قف ايها الأخ .

ـ انها ميتة فلم يبق لي الا أن أموت بقربها .
ـ بل انك تعيش .
ـ أية فائدة لي من الحياة ؟
ـ فائدة الانتقام لها .
ـ الانتقام لها ؟

وقد اتقدت عيناه ببارق هائل ولكن هذا البارق ما لبث ان انطفأ فقال رولاند :

ـ نعم يجب ان نظفر بهذا الشقي الذي قتل بنتك ونجزيه موتاً بموت وعذاباً بعذاب .. تعال .

ثم أخذ سكالابرينو بيده وسار به وهو يتبعه دون مقاومة كالاطفال فقال له :

ـ أتريد أن ينجو بمبو من ايدينا وإذا كنا تأخرنا عن إنقاذ بنتك أتريد أن نتأخر عن الانتقام ؟

فضم سكالابرينو قبضتيه بشكل هائل واندفع وهو لا يعي الى خارج القصر مع رولاند .

* * *

عندما كان سكالابرينو خارج القصر ذهب عنه ذلك الذهول الذي كان يتولاه فغضب غضباً عظيماً وجعل يعاتب الاقدار بكلام لا يفهم وحاول ان يعود الى بيانكا ليراها مرة أخرى ولكن رولاند منعه وسار معه الى جهة النافذة التي نجا بمبو منها فرآها تطل على شارع ضيق يشرف على الترعة وكان الظلام قد اقبل واصطفت القوارب فالتصق بعضها ببعض عند الشاطىء فسار رولاند على الرصيف وهو يراقبها فوجد مكاناً فارغاً بينها وايقن أنه هرب فوثب الى قارب مجاور كان فيه بحار فجرد خنجره وقال :

ـ اني مخيرك بين طعنة خنجر تبعث بروحك الى الابدية وبين مائة ريال تقبضها للفور .

قال : إني أوثر المال دون شك .

ـ قال : إذن اصدقني في المقال فمتى برح القارب الذي كان مجاور قاربك موضعه .

ـ منذ عشر دقائق .

ـ من الذي سافر فيه ؟

ـ رجل بملابس الفرسان وعليه وشاح أسود .

ـ من اين أتى هذا الرجل ؟

ـ من هنا وقد أشار الى قصر ارتين .

ـ أكانت تبدو على الرجل علائم السكينة ؟

ـ بل كان كالخنزير البري الذي يطاردونه فأنه كان يلتفت في كل لحظة الى ورائه كأنما جمع جواسيس فينيسيا في أثره .

ـ الى اين ذهب به القارب ؟

ـ الى البحيرات .

ـ هل تستطيع إدراكه ؟

فنادى رولاند سكالابرينو وسأله ان يصعد الى القارب وأمر البحار ان يسير .

وقد جلس بجانب سكالابرينو وجعل يعزيه أجمل عزاء .

وبعد هنيهة تبين لهم البر فقال رولاند : عجباً كيف لم نعثر بالقارب وهو لم يبتعد عنا إلا بعشر دقائق كما تقول .

ـ ذلك لان البحيرات عريضة يا سيدي فقد يكون سار بغير الطريق التي نسير فيها .. ولكن كلا .. انظر .

ـ اسكت فقد نظرت .

وقد نظر رولاند على مسافة بعيدة نور أحمر عند الشاطىء فأمر البحار بالاسراع حتى وصلوا الى ذلك الشاطىء فوثب رولاند الى البر ووجد هناك ثلاثة من البحارة فقال لهم بلهجة الآمر .

ماذا تصنعون هنا ؟

فأجابه أحدهم أننا بحارة ننتظر انقلاب الهوا لنرجع الى فينيسيا .

— وماذا جرى لهذا الرجل الذي جئتم به أي ذلك الرجل الذي كان يلبس ملابس فرسان وعليه وشاح اسود ؟

فتشاور البحارة بالنظر ورأوا انهم لا يستطيعون المقاومة فأجابه صاحب السفينة قائلاً :

— ان هذا الرجل دفع لنا مكافأة حسنة لنجتاز به البحيرات ولكنه لم ينقدنا شيئاً من اجل سكوتنا .

فأخرج رولاند من جيبه ديناراً فالقاه اليه وقال له : أما انا فاني ادفع لمن يتكلم فقل اين ذهب الرجل .

— انه ذهب من هذا الطريق القديم .

— متى ؟

— منذ خمسة دقائق .

— أعرفته ؟

— كلا يا سيدي .

فعلم رولاند ان هذا كل ما يعلمه البحارة فنادى البحار الذي جاء به وقال له :

— هل تستطيع ان تأتيني بمعدات الكتابة؟

قال : نعم يوجد ورق وحبر في القارب .

فعاد رولاند الى القارب فكتب رسالة ثم طواها دون ان يستطيع ختمها لعدم وجود شمع وقال للبحار :

ـ هل تعرف القراءة ؟

فهز البحار رأسه وقال : كلا والأسفاه .

فاطمأن بال رولاند من انه لا يفهم معنى الرسالة وقال له :

ـ اني كتبت هذه الرسالة لأني لا اعود الى فينيسيا وقد وعدتك بمائة ريال وفي هذه الرسالة التي كتبتها حوالة بالقيمة فتذهب بها الى قصر ارتين وتعطيه إياها فيدفع لك المال أتعرف ارتين الشاعر ؟

ـ نعم أعرفه فقد طالما نظم اشعاره في قـــاربي وأنا لم اضع معدات الكتابة في قاربي إلا من أجله .

قال : حسناً فاسرع الآن بالذهاب .

فامتثل البحار وانصرف وعاد رولاند الى البحارة الذين أتوا ببمبو وفهم منهم ما أراد ان يفهمه ثم أخذ بيد سكالابرينو وسار في طريق بمبو .

أما ما كتبه رولاند الى ارتين فسيقف عليه القراء في حينه .

أما رولاند وسكالابرينو فما زالا يتعقبان الكاردينال وهما كل ما بلغا الى قرية يعلمان انه قد سبقهما بزمن وجيز حتى بلغـــا الى آخر قرية قبل رومة وعلما انه يتقدمهما منذ ربع ساعة فسارا لفورهما فدخلا الى تلك العاصمة في الساعة التاسعة من المساء .

وقد ذهبا الى أحد فنادقها فلما اختليا فيه قال سكالابرينو: أتعلم يا مولاي ان هذا السفاك يستحق مثل ذلك العقاب الذي اخترعه الشاعر دانتي ؟

فقال له رولاند : ان دانتي نفسه يذعر لهول العقاب الذي اعددته لهذا الكاردينال .

فتنهد سكالابرينو وقال له وهو يضم قبضتيه :

ـ لا أظن انه يوجد عقاب في الارض ينطبق على جرائمـــه فهو الذي أعمى أباك وجعله يتسوّل في الطرقات وهو الذي قتل أمك يأساً وهو الذي سجنك ستة أعوام في أعمق الآبار وهو الذي طارد ابنتي كما يطارد النمر الإبل وسفك دمها الطاهر وقد قبضت عليه فهو سيموت الليلة بيدي .

فقال له رولاند : كلا فان هـــذا الرجل لا يجب ان يموت موتاً عادياً ويجب ان أعاقبه عقاباً وحشياً ينطبق على نفسه الوحشية .

— وما هذا العقاب ؟

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وقال له :

— انتظرني هنا ساعة او ساعتين واستأجر مركبة قوية مستعدة للسفر .

فأحنى سكالابرينو رأسه اشارة للامتثال والتف رولاند بردائه وبرح الفندق .

٦٢

انذار القاتل بالقتل

لما برح رولاند الفندق سار في أول طريق رآهـــا كأنه لا يريد مكاناً معيناً .

وكان رولاند يعرف رومة حق العرفان إذ جـاء اليها منذ تسعة اعوام سفيراً من لدن مجلس العشرة الى البابا فكانت امباريا يومئذ في رومة وقـد عرفته منذ ذلك العهد في قصرها وولعت به ذلك الولوع الذي قضى عليهـا بهاجرة رومة الى فينيسيا .

وفيما هو سائر لقي جماعة من الفتيان واقفين في وسط الطريق فدنا منهم وقال لهم بظرف :

— أتأذنون أيها الأسياد لرجل غريب ان يسألكم إذا كانت امباريا الشهيرة بجمالها قد عادت الى رومة .

فأجابه أحدثهم سناً وكانت الخمرة قد دارت في رأسه : أتسأل عن امباريا المقدسة والناس لا يتحدثون بغير حديثها فمن أين انت قادم ؟

— إذن امباريا في رومة ؟

— ونحن ذاهبون الآن الى الحفلة التي تعدها الليلة .

فشكرهم رولانـد وانصرف فذهب تواً الى قصر امباريا فاختلط بين جماهير المدعوين واقـــام هناك ساعة ثم عـاد الى الفندق الذي ترك فيه سكالابرينو فوجده واقفاً عند الباب فقال له :

— أوجدت المركبة ؟

قال : نعم وهذه هي .

قال : حسناً فتعال معي الآن .

فسار سكالابرينو معـه حتى اذا اقتربا من قصر امباريا سارا في شارع ضيق وراء القصر ووقفا عند باب واطىء كان فيه رجل ينتظر فقـــال له رولاند :

— ألا تزال على عزمك ؟

قال : نعم يا مولاي ما زلنا متفقين على القيمة .

قال : نعم وهي الف ريال .

— وسأقبضها في فينيسيا .

— إذن ستوصلنا ثم تعود الى المركبة فتنتظرنا فيها ؟

— حسناً فتفضلا .

وكان هذا الرجل أحد الخدم في قصر امباريا فصعد سلماً وتبعه رولاند وسكالابرينو حتى انتهوا منه الى رواق طويل ثم نزلوا على سلم صغير دخلوا منه الى غرفة كان فيها مصباح يضيء .

وكان لهذه الغرفة ثلاثة ابواب فقال الخادم لرولاند :

— هذا الباب الذي من الجهة اليمنى يشرف على قصر امباريا والباب الأيسر يشرف على أحد القاعات أما الباب الثالث فهو الذي دخلنا منه .

قال : حسناً فاذهب الآن الى المركبة وانتظرنا فيها .

فانصرف الخادم واطفأ رولاند المصباح .

ولم يكونا يسمعان حساً من الجهة اليسرى أما من الجهة اليمنى فقد كان رولاند يسمع صوت امباريا تودع زائريها .

ثم ساد السكوت فقال سكالابرينو لرولاند : أدنا الوقت ؟

قال : كلا فاصبر .

وعـــاد الإثنان الى الإصغاء فسمع سكالابرينو عند ذلك صوتاً ارتعش وجعل العرق البارد ينصب من جبينه وقال : ألعلي حالم ؟

فقال له رولاند بصوت هامس : ماذا ؟

قال : هذا الصوت .

قال : صوت امباريا فقد توهمت انك اغرقتها ولكنها لا تزال حية تسعى .

ـ كلا كلا بل اني حالم .

فوضع رولاند يده على فم سكالابرينو وقال له : اسكت وانتظر .

* * *

لقد عرف القراء ان امباريا حين وصولها الى رومة ذهبت الى قصرها وجعلت تعد معدات الحفلة الشائقة بمناسبة عودتها الى رومة .

وقد عرفوا ايضاً انه بعد ان انصرف جميع المدعوين بقي رجل فرد في القاعة فكشف البرقع عن وجهه وعرفت انه الكاردينال بمبو .

وقد اضطربت اضطراباً عظيماً لمرآه إذ كانت تعتقد انهـــا بهربها من فينيسيا تركت وراءها كل ماضيها الهائل .

ولكنها ملكت نفسها وقالت له :

ـ ماذا أتيت تعمل هنا وأية علاقة بقيت بيني وبينك ؟

فأجابها بسكينة رجف لها قلب الحظية قائلاً :

ـ ابنتك يا سيدتي .

ـ ابنتي ؟

– قد كنت أحسب انه يسرك ان تعلمي ما جرى لإبنتك فأتيت خصيصاً لأخبرك بأنبائها .

وكان يقول هذا القول بلهجة المتهكم فقالت له :

– ولكنك تعلم انها لم تعد ابنتي فقد كانت مثال الفضيلة وكانت فضيلتها هذه تؤنبني والله يعلم اني كنت أحبها ولكن لمـــاذا لم تكن تنظر إليّ إلا نظرات الإحتقار ؟

فقال لها : بل لماذا كانت تحب نفس الرجل الذي تحبينه ؟

فوقفت امباريا وقالت له :

– اسكت ولا تقل كلمة عن هذا الرجل .

قال : ان من يسمعك يحسب انك خفت .

– سواء كان ذلك عن خوف او عن سواه فلا تذكره أمامي وقل ماذا تريد ان تخبرني .

فانتبه الى ما ظهر من اضطرابها حين ذكر رولاند فقال لها :

– ارجعي يا سيدتي بذكراك الى تلك الحفلة التي اعددتها في فينيسيا حين قلت لي ان بيانكا قد هربت فاتبعها في طريق مستر .

قالت : نعم فماذا جرى ؟

قال : اني لقيتها في تلك الطريق وحملتها على الرجوع معي الى فينيسيا وعند ذلك ..

فقالت له ببرود : وعند ذلك ؟

قال : طعنت نفسها بخنجر أمامي فكانت الطعنة القاضية .

ومن غريب شراسة هذا الرجل الكاسر انه حمل الى أم نبأ قتل بنتها كما ينقلون الأنباء العادية دون ان يختلج له قلب او يضطرب له لسان .

بل الأغرب من ذلك ان امباريا تلقت هذا النبـأ دون ان يظهر عليهـا شيء من التأثير سوى انها اصفرت قليلاً وقالت :

— إذن لقد ماتت بيانكا ؟

قال : نعم ماتت .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين ربما عاد فيه الى ذلك القلب الوحشي شيء من عواطف الأمومة ولكنها لم تلبث ان قاومت هذه العاطفة فقالت :

— ربما كان ذلك خيراً لها .

وقد كان هذا كل ما رثت به بنتها تلك الفتاة التي قتلت نفسها لإنقاذ أمها .

وعند ذلك قال لها بمبو :

— والآن أرى يا سيدتي انه يجب ان نتفق فان لديّ كثيراً من المشروعات أريد عرضها عليك وستوافقين عليها دون شك اذا اردت ان تحفظي مكانتك في رومة و . .

فقاطعته امباريا بملء العظمة قائلة :

— كفى إنذاراً فقد مضى زمن الوعيد ولم أعد أخافك بعد مغادرتي فينيسيا .

— ولكني ما أتيت لأخيفك وفي كل حال فقد خيّل لي انك نسيت الجريمة التي أوثقت عرى الاتفاق بيننا بل نسيت اتفاقاً على الدفاع ومن الذي يحميك سواي ؟

— ممن تريد ان تحميني ؟

— انك تعرفين اسمه فلا حاجة الى ذكره ومن يعلم فانه قد يأتي يوماً الي رومة .

— اسكت .. اسكت .

— بل ان رولاند كانديانو الذي القيته في ظلمة الآبار قد يطاردك ليشفي غليله من الانتقام وقد يكون في رومة بل قد يكون الآن هنا في هذا القصر . . ولكن ما أصابك ؟

ذلك ان امباريا ارتعشت حدقتاها وجدت عيناها من الرعب ولم تكن تنظر الى بمبو بل كانت تنظر الى جهة لا ينظر اليها الكاردينال فالتفت الى تلك الجهة مقتدياً بها فرأى رولاند كانديانو .

وقد رعب الكاردينال رعباً لا يوصف وقد بذل جهداً عنيفاً كي يحاول النهوض ليهرب فلم يستطع .

أما رولاند فانه كان يتقدم ببطء فدنا من امباريا كأنه لا يرى الكاردينال حتى خيّل لذلك الرجل ان رولاند غير قادم اليه ودخل قلبه شيء من الرجاء .

ولكنه لم يلبث ان ارتعش ارتعاشاً عظيماً فان يد هائلة قبضت على كتفه فالتفت فرأى سكالابرينو فسقط على الارض لرعبه وأوثق سكالابرينو يديه ورجليه ووضع كمامة في فمه دون ان يبدي شيئاً من المقاومة .

وعند ذلك حمله وخرج به .

أما امباريا فقد رأت كل ذلك وأصيبت برعب لا تصفه الاقلام ثم تمعنت بوجه رولاند فرأت عليه علائم الكآبة لا علائم القسوة والانتقام فابتسمت ابتساماً مغتصباً وقالت :

ـ لا أنكر اني خفت في البدء .. وستضحك مني فقد توهمت انك تريد الإساءة إليّ .. أليس كذلك ؟ نعم فانك لا تسيء الي امرأة .. وانك رجل عظيم القلب كريم الأخلاق لا تقتل إمرأة لا تستطيع الدفاع .

فقال لها رولاند :

ـ سيدتي انك ستموتين .

فتراجعت امباريا منذعرة واضطربت عيناها كأنها قد أصيبت بالجنون فقالت :

ـ أموت .. لماذا .. لماذا يجب ان اموت ؟

فوضع رولاند زجاجة صغيرة على المائدة وقال لها :

— اني احضرت سماً يقتل للفور دون اوجاع فانك قتلت دافيليا وليس ذلك من شأني ولكنك قتلت ابنتك فيجب ان تموتي .

فاصتكت اسنانها وقالت :

— أنا اموت حين ارى الحيـاة تبسم لي الطف ابتسام انـك لا شك من المجانين .

— ان الحياة كانت تبسم ايضاً لليونور التي قضيت على سعادتها ولبيانكا التي سفكت دمها ولي الذي قضيت عليّ بالشقاء الأبدي ألا ترين ان الارض قد ضجت من جرائمك وان في حيـاتك موت جميع الذين يقربون منـك .. تأهبي للموت فلا أمهلك غير دقيقة .

فنتفت شعرها من اليأس وقالت :

— كلا لا أريد ان اموت .. اقتلني إذا شئت .. اقتلني إذا استطعت .

وعند ذلك دخل سكالابرينو فزادها منظره ذعراً على ذعر وقالت :

— إنكـا من القتلة السفاكين .. ولكن لا تحسبا اني أموت دفـاع .. الى .. الى ..

غير ان رولاند أسرع للقبض عليها فجرها الى المائـدة التي كانت عليها الزجاجة وقال :

— اختاري بين ان تنتحري بشرب السم وبين ان تموتي بسيف الجـلاد في فينيسيا .

— الجلاد ؟

— نعم فاني لا أعلم من الذي وشى بك فاني حين برحت فينيسيا كانت الحكومة عينت جائزة ألف ريال لمن يهدي مجلس العشرة الى المحظية امباريا قاتلة دافيليا .

— الجلاد .. الجلاد .. كلا .. كلا .. اني أؤثر الانتحار .

نعم اني انتحر ولكن دعني أعيش ساعة بعد .

— يوجد مركبة تنتظرنا عند الباب فـاذا أحببت أن تعيش شهراً ايضاً فتعالي .

— كلا كلا رولاند اعف عني.. رولاند أذكر اني أحببتك .. رولاند اني لا أزال أحبك.

وهنا جعلت تتأوه وتتنهد وتقول اقوالا تحـــزن القلوب القاسية بحيث اضطرب وجه رولاند وربما كان يحاول العفو عنها .

غير أن سكالابرينو كان يراقبه وقد أدرك ما يجول في نفسه .

فلما رأى امباريا قد ركعت أمام رولاند وبسطت يديها له تتوسل وتطلب العفو أسرع سكالابرينو فأخذ زجاجـــة السم عن المائدة ووثب الى امباريا فقبض على شعرها وألقى رأسها الى الوراء .

وبينما كانت امباريا تفتح فمها لتستغيث صب سكالابرينو السم في فمها . وكان ذلك السم هائلاً فانه لم يلبث أن يبلغ الى جوفهـا حتى اضطربت اضطرابا عظيما ثم سكنت ولم تعد تتحرك فكان سكونها سكوت الموت .

وعند ذلك مسح سكالابرينو العرق عن وجهه المضطرب وقال :

هلم بنا الآن الى الآخر .

٦٣

رسالة رولاند الى ارتين

حضر رولاند هذا القتل الذريع دون أن تبدو منه إشارة تـدل على الرغبة بالمداخلة.

ولكنه حين رأى امباريا راكعة تتوسل اليه مرت على قلبـــه الرقيق

عاطفة الاشفاق ولو لم يدرك سكالابرينو قصده وأسرع الى اعدامها لكان عفا عنها .

أما سكالابرينو فان من ذكر ماضيه وعرف انه عاش كل شبابه دون أن يدرك معنى الحنو ثم ملا حنوه على بيانكا فجاءة فراغ قلبه كما تملأ أشعة الشمس الأناء الفارغ فلما أحبها هذا الحب ورأى ان امباريا قد سلمتها تسليما الى بمبو . أن من عرف ذلك لا ينكر عليه قتل تلك المرأة بل يعد عمله قضاء عادلاً .

على اننا لسنا في حاجة الى تبرئة ابطال هذه الرواية أو إلى لومهم فاننا نقص ما حدث لهم وهذا الذي حدث فليحكم عليهم القارىء بما يشاء .

أما امباريا فقد ماتت في تلك القاعة التي كان يحدق فيها عشاقها بها منذ ساعة .

وقد وجدوها في اليوم التالي ميتة في نفس ذلك المكان فاحتفل بها أهل رومة احتفالاً عظيما ولبس بعض الفتيان عليها ملابس الحداد ونصبوا لها تمثالاً في محل عمومي .

أما رولاند فانه برح تلك القاعة لفوره يتبعه سكالابرينو الى تلك المركبة التي نقل اليها بمبو .

فصعد رولاند الى المركبة وأقام فيها بجانب الكردينال وهو موثق اليدين والرجلين مكموم الفم وصعد سكالابرينو الى جانب السائق وخرجت تلك المركبة بهم من رومة تنهب الارض وتسير في طريق فلورنسا وفيفيسيا .

أما بمبو فانه حين حمله سكالابرينا الى المركبة ذعر ذعراً شديداً وقال : لقد دنت ساعتي الأخيرة وقد اغمي عليه في المركبة .

فلما عاد اليه رشده وشعر أن تلك المركبة المقفلة تسير به ذهل في البدء لوجوده في سجن متحرك ثم لما رأى انهم لا يسيئون اليه أخذت السكينة تعود الى نفسه تباعاً .

غير أنه كان مضطرباً حائراً إذ لم يكن يعلم الى اين يذهبون به ولكنه كان يرى هذا الرجل الجالس بجانبه وهو رولاند لا يظهر أنه يريد به سوء .

وقد تمعن به ملياً وفحصه فحصاً دقيقاً فانتهى بقوله :

ـ ان هـذا الرجل يستحيل ان يكون يريـد قتلي ولكن ما عساه يريد مني ؟

وعند ذلك عاودته ذكرى المغارى ولكني قد اوفق الى الخروج منها في هذه المرة كما توفقت في المرة الأولى .

وقد مضت الليلة الأولى دون ان يفوه الكردينال بكلمة .

وكانوا قد نزعوا الكمامة عن فمه حين اغمائه حتى انهم فكوا قيود يديه ورجليه ففحص بمبو بالنظر بابي المركبة وقد طمع بالفرار من أحدهما فرأى انهما محكما الأقفال .

وفي اليوم التالي وقفت المركبة عند الظهر فرأى بمبو انها وقفت في سهل متسع ثم رأى سكالابرينو قد دنا منه وقال له :

ـ أتريد ان تأكل ؟

فشكره وقال له : كلا وهو يرجو بهذا الامتناع ان يحمله على الاشفاق عليه .

وبعد هنيهة عادة المركبة الى السير ففرح بمبو فرحاً عظيما إذ بدأ يثق بانهم لا يريدن قتله .

وقد حاول في ذلك اليوم ان يقف على الحقيقة فنادى رولاند قائلا بلهجة المتوسل :

ـ سيدي .

ولكن رولاند لم يجبه ولم يلتفت اليه .

وعند المساء وقفت المركبة ايضاً وجاءه سكالابرينو فسأله إذا كان يريد ان يأكل فأجابه بنعم .

ولما سارت المركبة جعل يحدث نفسه فيقول :

أنه ظفر بي الآن وسيضعني في سجن .. حسناً ولكني سأخرج من هذا السجن بعد ستة أشهر او بعد عام وعند ذلك يأتي دورك ولكني لا اسجنه هذه المرة في الآبار .

وكانت كل تصوراته منصرفة الى ساعة فراره والانتقام من رولاند وكان يسلي نفسه باختراع آلات التعذيب التي يعذبه بها حين الافلات منه والظفر به فاذا خطرت له وسيلة ارضته ابتسم ابتسام الرضى ونسى كل ما هو فيه .

وقد اجتازوا المسافة من رومة الى بادو بثمانية أيام لم ينبس رولانـد في خلالها بكلمة .

وعندما وصلوا الى بادو لم تسر المركبة في طريق البحيرات المؤدية الى فينيسيا بل سارت في طريق مستر حتى إذا وصلت اليها وقفت فيها وخرج رولاند من المركبة فحل محله سكالابرينو وجلس بجانب الكاردينال .

ثم واصلت المركبة سيرها دون أن يعود رولاند .

ولم يكن بمبو يرى شيئاً ولكنه كان يسمع فسمع وقع حوافر خيل كثيرة علم منها أن كوكبة من الفرسان تحرس المركبة .

أما رولاند فانه ذهب الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه جوانا مـع أبيه وبيانكا .

فدخل الى الحديقة عند هجوم الظلام،وطرق الباب بشكل اصطلاحي ففتح الباب فظهر منه ارتين الشاعر .

وقد تنهد ارتين تنهداً عميقاً حين رأى رولاند وحاول أن يظهر ما لقيه من الضجر في هذه الأيام .

ولكنه لم يصغ الى حديثه وسأله قائلا :

ـ هل فعلت ما أوصيتك ان تفعله .

قال : نعم فتعال وانظر .

فسار في أثره وفتح ارتين باب غرفة فرأى رولاند منظراً غريباً .

وهو أنه رأى مائدة عليها صندوق مستطيل يشبه الناوس وقد اوقدت شمعة عند أوله وشمعة عند آخره وغطى هـذا الصندوق بقطعة من الجوخ الأبيض .

وقرب هذا الصندوق امرأة جالسة تبدو عليها علائم الكآبة .

فقال ارتين بصوت منخفض ، انها بترينا وقد صحبتني بالرغم عني مع انك أمرتني ان أكون وحدي ولكني لم استطع مخالفتها لشدة الحاحها.

فقاطع رولاند الشاعر باشارة ومشى الى ذلك الصندوق فأزاح عنه الغطاء وظهر عند ذلك انه تابوت .

وقد كان هذا التابوت من خشب السنديان وقد كتب عليـــه بمسامير رؤوسها سوداء ما يأتي هذه الصورة .

بيانكا

ابنة امباريا

ماتت في السادسة عشرة من عمرها

قتيلة

بيد الكاردينال والاسقف

بمبو

فأعاد رولاند الغطاء الى ما كان عليه وعند ذلك قال له ارتين :

ـــ اني وضعت بيانكا كما امرتني في صندوق من خشب الارز ثم وضعته في صندوق من الزنك ثم وضعتهما في صندوق ثالث من السنديان .

وقد لقيت عنـاء شديداً لاضطراري الى تنفيذ اوامرك وحدي ولا سيما حين نقلته الى هنا .

فقال له رولاند : ألم يعلم الرجال الذين نقلوه الى هنا ما كان فيه ؟

— كلا فلم يعلم به أحد .

— حسناً فعد الآن الى فينيسيا ثم التفت الى بتريتا وقال لها :

— ألست انت يا ابنتي التي ارشدتني الى الغرفة التي كانت فيها بيانكا ؟

قالت : نعم يا سيدي .

— لماذا ألححت بمرافقة جثة هذه المنكودة ؟

— لأني كنت احبها حباً شديداً مع اني لم أرها إلا بضع ساعات .

— قولي الحقيقة يا ابنتي فاذا لم تكوني سعيدة في منزل سيدك تكلفت باسعادك بموافقة ارتين .

فاصفر وجه ارتين وقال : انها حرة .

فنظرت بتريتا الى ارتين نظرة المشفق وقالت :

— من عسى يريحه إذا فارقته ومن يعتني به حين يمرض ومن يمسح دموعه حين يبكي ؟

فأجابها ارتين بصوت متهدج من التأثر : أحق يا بتريتا انك لا تفارقينني ولكن هذا السيد رجل عظيم قادر ان يكفل سعادتك كما قال وهو لا يعرف الكذب .

فقالت له : هلمّ يا سيدي فان سعادتي بأن ارضيـك .

فبكى ارتين حنواً وقال :

— إذن انت تحبينني يا بتريتا فاعلمي اني لا أنسى حنوك وانا الذي يكفل سعادتك الآن فهلمي بنـا فانك لا تكونين خادمتي بعد الآن بل ستكونين زوجتي .

فقال له رولاند :

— وعندما تفعل ذلك فاحضر إليّ لتقبض ثلاثين الف ريال عينتها مهراً لهذه الفتاة والآن فاذهبا .

فودعاه وانصرفا فباتا تلك الليلة في فندق وفي مساء اليوم التالي دخلا الى قصر ارتين وسيجدهما القراء فيه قريباً .

٦٤

قبر بيانكا

إن المركبة التي سارت بالكاردينال وسكالابرينو ذهبت بطريق تريفيز فكان يخفرها إثنا عشر فارساً ساروا بهـــا الى مغاور بيافا ثم وقفوا عند المغارة السوداء .

وكان الكاردينال في خلال هذه الأيام التسعة قد اطمأن بعد الاطمئنان فانه افتكر ملياً وانتهى بقوله :

— لأعلم الآن اين يريد ان يضعني وبعد ذلك نرى ما يكون .

ولم يكن حقده قد زاد على رولاند إذ كان مالئاً قلبه فلم يتسع لمزيد .

وقد أخذ في خلال السير ينتقد عليه ويسفه اعماله فيقول :

— إني لو كنت مكانه وقبضت على بعبو لمـــا أبقيت عليه لحظة ولما سجنته فانه قد يهرب من سجنه .

ولكن الأبله لم يقتلني وقد كان يجب ان يقتلني حين رآني وسيرى كيف يعض اصابعه ندماً ويأساً .

وعندما وقفت المركبة وأنزلوه منها نظر نظرة الى مـــا حواليه وعرف من اشتداد الظلام انهم اوقفوه قرب المغارة السوداء .

وقد أخذ سكالابرينو بيده وسار به الى ان بلغا باباً ففتح أمامهما .

فذعر بمبو إذ ذكر هذا السجن وذكر ما لقيه فيه في المرة الأولى من العناء وحاول ان يمتنع عن الدخول ولكن سكالابرينو دفعه الى الداخل ودخل في أثره .

غير ان الكاردينال لم يلبث ان دخل حتى ذهل إذ لم يرَ ذلك السجن الرهيب الذي كان فيه بل وجد نفسه في غرفة مفروشة فرشاً جميلاً .

أما سكالابرينو فانه اقفل الباب من الداخل إقفالاً محكماً وجلس على كرسي دون ان ينبس بكلمة .

وكان يجتنب ان ينظر الى الكاردينال كأنه كان يخشى ان يخالف الأوامر الصادرة اليه ويبطش به ولكن عروقه كانت تنتفخ من حين الى حين وكانت عيناه تتقدان وينتفض انتفاضاً ظاهراً مما يدل على انه كان يميل الى عصيان أوامر رولاند وقتل هذا الرجل كما كان يمليه عليه حقده وبغضة الهائلان .

وقد جلس الكاردينال ايضاً على كرسي في تلك الغرفة المضاءة وقال في نفسه :

— ترى أيريد رولاند ان يجعل هذه الغرفة سجني ؟

وقد توالت الساعات والسكوت سائد حواليه الى ان خيّل له ان سكالابرينو قد نام فنهض ومشى الى جهة الباب وقلبه يخفق خفوق اجنحه الطائر .

غير ان سكالابرينو كان قد أسند كرسيه الى ذلك الباب وجلس عليها فتراجع الكاردينال خائباً وهو يقول في نفسه :

— لا سبيل الى الخروج من هنا الآن ولكني لا أعدم وسيلة للفرار .

وقد انتهى به الأمر الى انه نام نوماً متقطعاً .

ثم استيقظ فجأة لوقع اقدام سمعها ونظر الى الباب فوجده مفتوحاً ولم يجد سكالابرينو في الغرفة .

وكان المصباح لا يزال على المائدة يضيء تلك الغرفة فرأى رولاند واقفاً أمامه فذعر لمنظره حتى انه لم يستطع النهوض .

اما رولاند فانه قال له : تعال .

ثم برح الغرفة وترك بابها مفتوحاً فلبث الكاردينال في موضعه وقد جمد في مكانه من الرعب الى ان سرى الى قلبه الرجاء فجأة فنهض وخرج من ذلك الباب الى رواق مقفر .

وقد نظر الى يمينه فلم يرَ غير الظلام الحالك فنظر الى يساره فرأى نوراً ضعيفاً فارتعش سروراً ومشى في الظلام وهو يرجو ان يجد منفذاً وان يتوارى في ذلك الظلام عن عيون المراقبين .

ولكنه لم يكد يسير عشر خطوات حتى لقي ثلاثة رجال لم يكلموه كلمة ولكنهم جعلوا يدفعونه بحرابهم الى المكان الذي جاء منه .

فتراجع ذليلا حقيراً وما زالوا يدفعونه حتى انتهوا به الى مكان تألقت فيه انوار المشاعل بما يبهر البصر ورأى والذعر ملء قلبه انه بات ضمن دائرة غصت بالرجال والخناجر مجردة بأيديهم .

فأيقن بمبو انه قضي عليه لا محالة وأصيب لرعبه بما يشبه الدوار فسقط جاثياً على ركبتيه ولكنه بذل جهداً عنيفاً فتمكن من النهوض ثم شدد نفسه تباعاً فنظر الى اولئك الرجال المحدقين به نظرات دموية وقال :

ــ ماذا تريدون مني ؟

فانبرى من بينهم رجل وقال له بصوت هلع له قلب الكاردينال من الخوف :

ــ أنا سأخبرك بماذا يريدون منك .

وكان هذا الرجل رولاند فدنا منه ووضع يده على كتفه وقال له بصوت جهوري كان يسمعه الجميع :

ــ انك في سابق الزمان لم تكن شيئاً مذكوراً بل كنت رجلا مكروهاً

يحتقرك الناس ويجتنبونك ويسيئون بك الظنون فلم تجد بينهم غير رجل واحد تأثر لشقائك واشفق عليك ورآك ذكي الفؤاد قوي الارادة فجعلك في عداد اصدقائه وفتح لك ابواب منزله وأغدق عليك النعم فمهد لك سبيل المستقبل بحيث بلغت بفضله ما بلغت .

أما هذا الرجل فهو أنا فانظر الآن بماذا كافأتني فأعميت أبي وقتلت أمي وقضيت عليّ ان أموت في الآبار .

فضحك بمبو ضحكاً هائلاً وقال :

— لقد كنت ابغضك اكثر مما كنت ابغض اولئك الذين كانوا يحتقرونني ولا أزال ابغضك بملء جوارحي .

— ليكن . وقد قبضت عليك اول مرة وسجنتك هنا وأنا ارجو ان تعتزل وتعينك العزلة على التفكير والندم على إساءتك إليّ بحيث يأتي يوم اصفح فيه عنك .

فلما نجوت من سجنك عدت الى جرائمك بقتلك فتاة بريئة فقل بماذا اساءت اليك هذه الفتاة ؟

— لقد كنت احبها واقسمت ان تكون لي .. لي وحدي فلو لم تمت .. أواه انها لو كانت حية .

— أكنت تقتلها ايضاً ؟

— كلا ولكني كنت اكون اشد براعة من قبل فأتمكن من القبض عليها قبل ان تنتحر كما فعلت .

فاصفر وجه رولاند لهذا الخبر الفجائي وأيقن ان تلك المنكودة قتلت نفسها بيدها تخلصاً من عار الفضيحة .

وقد سمع عند ذلك أنيناً من ورائه فقال : صبراً يا والد بيانكا .

أما بمبو فانه ضحك كما ضحك اول مرة وقال وقد هدد السماء بقبضتيه :

— اذك تنتصر ولكني اذا مت فقد انتقمت لنفسي قبل الموت بموت

التي تحميها انت .. تلك التي لم يقتلها غير حبي فاقتلني إذا اردت اموت قرير العين بهذا الانتقام فان تلك التي تحبها لم تمت لولاي فيا ايتها السماء واقمارها اشهدي بأني أموت آمناً مسروراً أما هو فيعيش ليتعذب فانه ليس من الذين ينسون وانت يا رولاند اني اكرهك فاعلم انه لو كانت بيانكا نفسها لي واعطيت معها كنوز الارض لتخليت عن بيانكا وعن الكنوز مقابل ساعة استطيع تعذيبك فيها فاضرب الآن فقد قرأت بين عينيك انك قضيت عليّ .

فالتفت رولاند الى المحيطين به وقال :

— ماذا تريدون ايها الاخوان أيستحق هذا الرجل ان يحيا ؟

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين :

— ليمت .

قال : أيستحق هذا الرجل ان يموت من دون تعذيب ؟

قالوا : كلا فليعذب .

وعند ذلك قبض إثنين على الكاردينال وسارا به على مسافة بضع خطوات من ذلك المكان الى مكان كان فيه صخر كبير حفروه حتى بات يشبه الكهف .

وكان نعش بيانكا موضوعاً عند مدخل هذا الكهف فرآه بمبو وقرأ ما كان مكتوباً عليه فاهتز اهتزازاً عنيفاً وتراجع منذعراً ولكن الرجلين كانا قابضين عليه .

وهناك تمثلت له حوادث تشبه احلام النائمين فانه رأى نحو عشرين رجلاً حملوا النعش ونقلوه الى الكهف في قلب الصخرة فجمد الدم في عروق بمبو وحوّل نظره عن ذلك النعش .

وعند ذلك سمع صوت رولاند يقول هذا القول الغريب :

— ايها الكاردينال اني ووالد بيانكا نغفر لك ذنبك ما زلت قد اصبحت من اهل القبور .

فاصطكت اسنان بمبو وقال :

ـ أنا الآن من اهل القبور .. ما معنى هذا الهزل .. اني اشعر بأن صوابي قد ضل أنا ميت .. من الذي يقول هذا القول .. كلا .. دعوني .. الى اين تذهبون بي ايها .. وقد اختلطت بقية كلامه بأنينه فلم يفهم منها شيء وهذا الذي حدث .

أما رولاند لم يكد يتم كلامه حتى دفع الرجال بمبو الى ذلك الكهف أي الى قبر بمبو وأخذ البناؤون بالفور يسدون بالطين باب القبر .

اما بمبو فقد بات في حالة لا تستطيع وصفها الأقلام إذ كان يثب في ذلك القبر وثوب المجانين وكانوا يسمعون صوته من الخارج فيرتعشون رعباً لتصورهم هذا المشهد .

وقد اشتغل البناؤون ساعة في سد باب القبر فلما اوشكوا ان ينتهوا من سده ضحك بمبو ضحكاً هائلاً اصفرت له وجوه الحاضرين .

وقبل ان يضعوا الحجر الأخير خطر لأحد البنائين ان ينظر الى داخل القبر فرأى بمبو منطرحاً تحت النعش وقد فارق الحياة .

ولما تم سد الباب ألقوا فوق تلك الصخرة كثيراً من الحجارة الصغيرة والتراب .

وقد زرعوا فوقها نباتاً من نبات تلك الجبال السريع النمو فلم تمض بضعة ايام حتى نبت الزرع فوق تلك الصخرة بحيث لم يعد يخطر لأحد ان ذلك النبات يوجد تحته قبر بيانكا ابنة المحظية امباريا وقبر الكاردينال اسقف فينيسيا .

* * *

أما رولاند فانه عيّن عشرين رجلا لحراسة الصخر شهراً كاملا ثم عاد

مع سكالابرينو الى مستر فذهب منها الى البحيرات وفي الساعة العاشرة من المساء دخل الى بيت الجزيرة .

٦٥

قبر آخر

كان أول ما اهتم به رولاند حين وصوله الى بيت الجزيرة انه تفقد أباه الشيخ كي يطمئن بأنه لم يحدث له ما يكدره أثناء غيابه .

وكان الدوج الشيخ نائماً نوم الاطفال فوقف رولاند هنيهة يتمعن في وجهه وهو مضطرب ذلك الاضطراب الذي يحدث عادة لمن يلتقي بمن يحبه بعد فراق كان خائفاً فيه عليه .

أي ان ذلك الاضطراب لم يكن ناشئاً عن تقريع الضمير بعد ذلك القضاء الذي قضى به على الكاردينال .

ونعم ان ذلك القضاء كان هائلاً وأي قضاء أشد وافظع من ان تسجن رجلاً في قبر مع جثة الذي قتلها وتسد عليه باب القبر بالطين والحجارة وتدفنه في قيد الحياة ولكن الأخلاق والعادات تختلف باختلاف العصور والأزمان فقد كانت ايطاليا في ذلك العهد مرسحاً للأعمال الهائلة وساحة المعارك الدموية لا تنار إلا بنيران الحرائق ولا يلقي فيها غير العصابات تنهب الارض وتسفك الدماء ولا يسود بين قومها غير الجرائم بحيث تولدت القسوة في القلوب وبات الانتقام من أخص مطالب الناس .

على اننا لا نبحث في أخلاق ابطال هذه الرواية كما تقدم لنا القول في احد الفصول السابقة بل نروي حديث اعمالهم وعلى الجملة فان انتقام رولاند لو حدث في هذه الأيام لكان مما تقشعر له الأبدان ويندى منه جبين الانسانية خجلاً واما في ذلك العصر فقد كان أمراً محموداً .

ومهما يكن من الأمر فان رولاند على شدة اشفاقه وميله الى العفو عند المقدرة لم يجد في قلبه أية رحمـــة حين قضي على بمبو هذا القضاء ولذلك لم يشفق عليه ولم يعف عنه ولا سيما وان الكاردينال لم يستعطفه بكلمة بل كان يهيج في صدره البغضاء بما كان يقوله مما يدل على توطين الحقد في قلبه .

وبعد ان اقام رولاند هنيهة يتمعن في وجه أبيه فارقه ونزل الى حيث ينتظره سكالابرينو فأقام معه يتحادثان بأحاديث مختلفة دون ان يذكر بيانكا او بمبو بحرف وبعد ذلك تركه رولاند فخرج سكالابرينو من المنزل وذهب الى الأرصفة القديمة في ليودو وهناك جعل يسير ببطء وهو يفكر في مشروع لا بد ان يكون شخصياً لأنه لم يطلع عليه رولاند .

وقد كانت السكينة بادية في وجهه في حين ان النار تتأجج في قلبه .

وما زال يسير حتى وقف عند منزل كان مكتوباً على بابه بحروف كبيرة « خمارة مرسي الذهب » .

وهناك وقف يراقب فرأى ان الباب مقفل ولكن النور ينبعث من خلال شقوقه فقال في نفسه : ان زبائن هذه الخمارة مجتمعون ووقف ينتظر .

ويذكر القراء ان لهذه الخمارة بابين يدخل من إحداهما الى رواق فصبر سكالابرينو نصف ساعة ثم رأى ذلـــك الباب قد فتح فدفعه وخرج منه رجلان فعرف سكالابرينو ان احدهما برتولو صاحب الخمارة ولم يعرف الثاني لأنه كان ملتفاً برداء كبير .

وقد خرجا وتركا الباب مفتوحاً فسارا بضع خطوات وهمـــا يتحدثان كأنهما يتمهان حديثاً قديماً .

أما سكالابرينو فانه اغتنم هذه الفرصة ودخل الى الرواق من البـــاب المفتوح فدخل الى الخمارة وذهب بملء السكينة الى قاعة الاجتماع فأقام ينتظر .

ولا بد لنا هنا ان نذكر للقراء ذلك الرجل الذي كان مع برتولو ولم يعرفه سكالابرينو ولذلك نعود قبل ساعة الى تلك الخمارة فنقول .

دخل هذا الرجل الى الخمارة وجلس على مائدة قرب الشاربين كرجل تعود زيارة هذا المكان .

وكان برتولو قد عرفه دون شك فصرف جميع زبائنه حتى اذا لم يبق فيها احد كشف الرجل القناع عن وجهه فظهر جينارو رئيس البوليس.

وعند ذلك قال له برتولو : اذا كان يريد سيدي ان يشرب فان لدي خمراً معتقة من افضل الخمور الفرنساوية .

فوافقه الرئيس على ذلك وبعد ان شرب كأساً سأله قائلاً : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : لديّ انباء خطيرة .

— ما هي ؟

— أولها ان رولاند قد برح فينيسيا .

— أتعلم الى أين ذهب ؟

— ان اخصاءه يؤكدون انه ذهب الى ميلانو .

— حسناً فليس هذا الذي أريد ان اعرفه فقل لي بماذا يتحدثون في الميناء؟

— انهم لا يتحدثون يا سيدي إلا برولاند فانه منذ ظهر للبحارة وقال لبعضهم انه ستحدث قريباً حوادث عظيمة في فينيسيا لم يعد لهم شاغل إلا حديثه وكلهم معجبون بـــه حتى انهم كانوا يتحدثون الآن في هذه الخمارة فيطعنون بالدوج فوسكاري أقبح طعن ويرجون ان ينقذ رولاند الجمهورية من قبضته .

— أتظن حقيقة ان شعب فينيسيا ينتصر لرولاند ؟

— أتأذن لي يا سيدي ان اتكلم بجلاء ؟

— بل آمرك .

— إذن فاعلم ان معتقدي هو ان رولاند كانديانو لا يلبث ان يظهر لشعب فينيسيا حتى يهبوا هبة واحدة لنصرته ولكن جيشنا وبوليسنا قويان لحسن الحظ .

— نعم هو ذاك ولكنك ستتبع تعليماتي في انتظار هذه الحوادث .

— معاذ الله ان أخل منها بحرف فاني حين اجتمع بأولئك البحارة أظهر لهم اني اشد منهم حقـــداً على فوسكاري وعندما يذكرون والد رولاند الأعمى اتظاهر بالبكاء إشفاقاً عليه .

— حسناً تفعل والآن أتظن ان رولاند غير موجود في فينيسيا ؟

— بل أظن انكم تعرفون من ذلك فوق ما أعرف .

— ورفيقه؟

— أي رفيق ؟

— ذلك الرفيق الذي لا يفارقه لحظة أي سكالابرينو .

فابتسم برتولو وقال : سكالابرينو ؟

قال : نعم وأظن انه يدعى بهذا الاسم .

— إذن لا يجب يا سيدي ان تهتم لهذا الرجل .

— كيف لا أهتم وهو خصم شديد ؟

— لقد كان كذلك .

— ماذا تعني ؟

— اعني انه إذا كان رولاند في ميلانو كما يقولون فان سكالابرينو قد سافر سفراً شاسعاً لا يعود منه وأنا الذي قتلته .

— بورك فيك فاني حين لقيت هذا الرجل آخر مرة أي منذ عشرين يوماً ..

فوثب برتولو من موضعه كأنه قد تهرب وقد اصفر وجهه فقال :

— أتقول يا سيدي انك رأيت سكالابرينو منذ عشرين يوماً ؟

— رأيته بعيني ولكن لنبحث الآن في المهم وهو اني اريد منك ان تثابر على تحميس رفاقك وتجعل لهم ثقة لا حد لها برولاند كانديانو .

ثم نهض وخرج من تلك الحفارة فتبعه برتولو الى الخارج وهناك ألح عليه بوجوب اتباع تعليماته وقال له :

– يجب على الأخص في أول شباط ان تبذل كل ما لديك من الجهد .

قال : لماذا خصصت هذا اليوم يا سيدي ؟

قال : لأنه اليوم الذي يحتفل فيه الدوج حفلته الكبرى وبقدر ما يزيد الهتاف لرولاند يزيد الخطر عليه .

وهنا أقول لك أنه إذا سألك رفاقك عن الأوامر التي اصدرتها اليك بشأن تلك الحفلة فقل الحقيقة بتمامها .

وعند ذلك فارقه الرئيس فوقف برتولو هنيهة حائراً مبهوتاً إذ لم يدرك شيئاً من مقاصد رئيس البوليس .

وكان برتولو هذا من أخص رجال البوليس وله نفوذ عظيم بين أهل الميناء فلم تكن تخفاه خافية من أمورهم بحيث كان أعظم جاسوس لدى جينارو .

فلما توارى رئيس البوليس عنه لم يعد يفتكر بأوامره وخفايا مقاصده بل جعل يفتكر بسكالابرينو وبذلك النبأ الغريب الذي نقله اليه الرئيس إذ قال له أنه رآه بعينه وهو أمر لا يحتمل التصديق لغرابته فبعد ان افتكر ملياً قال في نفسه :

لا شك ان الرئيس قد اخطأ إلا إذا كان قد رأى الشيطان يتمثل له بشكل سكالابرينو .

ولم يكن يقول هذا القول عن سبيل المزاح بل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان الشيطان قد تمثل له بهذه الصورة لاعتقاده ايضاً ان مثل رئيس البوليس لا يمكن أن يخطىء .

وإنما خطر له الشيطان إذ لم يكن يخطر في باله ان سكالابرينو يحيى بعد الموت ويستطيع الخروج من ذلك القبو بعد أن ابتلعته الأمواج فيه .

ولذلك عاد آمناً الى الحفارة فاقفل بابها ودخل فجعل يحسب نقوده وايراد الليلة حسب عادته كل يوم .

ولما أتم عد نقوده ذهب الى باب ذلك القبو الهائل فوقف عنده موقف الحائر المبهوت وجعل يقول :

ترى أيمكن ذلك ان يكون ؟

ثم فتح ذلك الباب وأطل منه باحثاً عن الجثة وكان الماء قد فرغ من القبو .

فلما لم ير شيئاً لاشتداد الظلام عزم على أن يحضر مصباحاً وينزل الى القبو فيبحث عن الجثة .

وقد دخل الى القاعة العمومية فلم يكد يطأ عتبة بابها حتى وقف والذعر ملء قلبه إذ رأى سكالابرينو جالساً على مائدة وقد أسند رأسه الى يده وجعل ينظر اليه .

فلما رأى سكالابرينو ما كان من جموده وانحباس لسانه قال له :

— أهكذا تستقبل اصحابك القدماء يا برتولو ؟

فطاش رأس برتولو ولم يصدق ما رآه فقال :

— ولكني أرى وجهه واسمع صوته وما أنا بحالم فكيف هذا ؟

أأنا هو برتولو الواقف أمامه .. أهو هو سكالابرينو الناظر إلي ؟!

فقال له سكالابرينو : اني عالم يقيناً بانك ستقدم لي من تلك الخمرة المعتقة في ذلك القبو الشهير .

ثم نهض ومشى اليه فجعل برتولو يتراجع وسكالابرينو يتقدم وهو يقول له :

— ان باب القبو مفتوح وما عليك الا ان تنزل اليه فان صديقك ساندريجو ينتظرك وقد سأم صبراً .

وكان التهكم ظاهراً في أقوال سكالابرينو ولكنه لم يكن يريد التهكم .

وما زال برتولو يتراجع حتى التصق بالجدار ومد يده على خنجره وهم بقتله ولكنه انف من قتله وهو على هذه الحال .

أما برتولو فانه كان قد تشجع قليلاً وحلت عقدة لسانه فقال له :

— أتريد أن تشرب ايها الصديق ؟

فضحك سكالابرينو ضحكاً هائلاً وقال :

— لقد ملأت جوفي من مياه قبوك فاشكرك .

— اقسم لك بأني لست انا الذي القاك في القبو بل اني لم أكن أريد لك هذا ولكن ساندريجو كان صاحب هذه الفعلة هذه المنكرة وقد حذرته كثيراً ومنعته مراراً عن هذا القصد وأعلم يقيناً ايها الصديق اني لا أريد لك سوءاً .

— وأنا كذلك .

— إذن ماذا تريد مني وماذا أتيت تعمل هنا ؟

— اني أتيت لأقتلك يا برتولو .

— كلا انك لا ترتكب هذه الجناية وما انت إلا مازح دون شك وإلا كيف يخطر لك ان تقتلني وأنا لم اسيء اليك بشيء بل كنت اثني عليك منذ ساعة .

— مسكين يا برتولو فلم يخطر لي انك تخاف الموت إلى هذا الحد .

وكانت اسنان برتولو تصطك من الرعب والعرق يسيل من وجهه وقد امتقع حتى بات بلون الأموات فقال لسكالابرينو .

— نعم فقد عرفتك رقيق الشعور وانك لا تقتلني دون شك فهل تريد ان التمس العفو منك جاثياً على ركبتي ؟

وقد ركع عند ذلك فقال له :

— انهض .

وكان في نية سكالابرينو ان يقتله ولكنه حين جاء اليه كان يعتقد انه سيلقي خصماً يدافعه لا ان يبطش به بطش النمر بالنعجة .

أما برتولو فانه تنفس الصعداء ووقف وهو يقول :

— إنك ستصفح عني أليس كذلك ... وحسناً تفعل ايها الصديق فاني اقسم لك بالله ان ساندريجو صاحب تلك الفعلة واني لا بد لي فيها .

فسكت سكالابرينو ولم يجب .

فقال برتولو في نفسه !

— ترى ما عساه يصنع ايقتلني ولكنني اراه أغمد خنجره الم يريد خنقي ؟

فقال له سكالابرينو :

اصغ الي يا برتولو فانهم يعتقدون انك أشد وابسل رجال فينيسيا واني اردت ان اقتلك لأنك اردت قتلي والآن جميع تلك المصاعب قد حدث معظمها بسببك فانت لا تستحق الحياة ولكنني اشفقت عليك كما قلت لك ..

— ارأيت انك طيب القلب ؟

— هو ذاك ولذلك اقترح عليك قتالاً منظما ولا اقاتلك بالخنجر بل بالأيدي فتأهب وهلم بنا .

فاتقدت عينا برتولو ببارق من الرجاء وقال :

— اذا كان ذلك فسح لي مكانا على الأقل .

فتراجع سكالابرينو خطوتين وهو يقول :

— احذر لنفسك ايها الشقي اني سألقيك في القبو .

وعند ذلك هجم برتولو على غرة فانتزع الخنجر من منطقته وطعنه به طعنة نجلاء .

غير ان سكالابرينو تمكن من الوثوب قبل ان يصل الخنجر الى صدره فأصاب ذراعه وأسال دماءه .

وفي الوقت نفسه أصيب برتولو بضربة هائلة على رأسه كادت تضيع رشاده وسقط الخنجر من يده .

فرفس سكالابرينو الخنجر برجله وهجم عليه فكان القتال شديداً بين الاثنين وكلاهما مشهود له بالقوة البدنية وكلاهما حاقد على خصمه حقد الموت .

الى ان تمكن سكالابرينو من تطويق ظهر خصمه بيديه وجعل يضغط ضغطاً عنيفاً بينما كان برتولو ينهش وجه سكالابرينو ويعضه .

وما زال على ذلك الى ان تلاشت قواه وانحلت عزيمته وسمع صوت تكسير عظامه فلم تكن غير لحظة بعد ذلك حتى انقلب رأسه الى جهة كتفه الأيسر واسلم الروح .

فاطلقه سكالابرينو عند ذلك فسقط الى الأرض جثة هامدة فرفسه برجله الى القبو وسمع صوت سقوطه فيه فاقفل الباب وعاد بملء السكينة كأنه لم يفعل شيئاً .

هذه كانت خاتمة تلك المبارزة بين الرجلين وقد فقد جينارو رئيس البوليس بموت برتولو اعظم ركن من اركان جواسيسه الذين كان يعتمد عليهم في المهمات ولاسيما في ذلك اليوم العظيم الذي لم يكن يعلم لمن يستتب النصر فيه الفوسكاري أم لرولاند .

٦٦

صديقان

قبل هذه الحوادث المفجعة ببضعة ايام كان الدوج فوسكاري وجينارو رئيس البوليس جالسين في قاعة الاستقبال في سراي الدوج .

وكان الدوج جالساً في كرسي عظيم ورئيس البوليس واقفاً أمامه وقفة الاحترام .

وكان الدوج يحمل بيده رسالة قد قرأها نحو مائة مرة وهو لا يزال يقرأها وهذه هي :

« صديقي ومولاي .

« حدثت حوادث لم تكن في الحسبان قضت علي أن أبرح فينيسيا دون أن أراك .

« على أني أرجو أن أعود اليك في اقرب حين فأعاود اعمالي لديك وما هي إلا الإخلاص والوفاء .

« ولذلك أسألك ان تصفح عني لهذا السفر الفجائي وأن تعلم يقيناً إني في القرب والبعد صديقك المخلص وخادمك الامين .

بمبو

« اسقف فينيسيا بحول الله »

حاشية : لا بد لي من أن أوصيك هذه الوصية وهي :

« اسرع بالاجراء ضد الذين تعرفهم .

« أما ذلك الرجل الذي حال دون مخابرتك مع مدسيس فاذا لم يكن بوليسك قادراً على القبض عليه في الحال كان الخطر شديداً فتدبر » .

وكان بمبو قد كتب هذه الرسالة قبل سفره وأوصلها الى الدوج بطريقة مضمونة في نفس ذلك اليوم الذي دخل فيه الى منزل ارتين .

فقرأ الدوج مراراً هذه الرسالة التي حرمته الرقاد لشدة خوفه من عباراتها الأخيرة .

وقد دعا رئيس البوليس اليه وقال له : هل عرفت شيئاً عن الكاردينال ألم تسفر ابحاثك عن شيء ؟

قال : أظن يا مولاي أني عرفت المكان الذي ذهب اليه نيافته .

ولكني اسألكم قبل كل شيء أن تعلموا بأني لا أعلم امراً ان واكداً ان جواسيسي قد انتشروا في كل مكان دون أن يعثروا بشيء وكل ما أقوله لكم مبني على الظن .

ـ ما الذي تظنه ؟

ـ أظن ان الكاردينال خاف .

فأجابه بلهجة دلت على العظمة :

ـ مما يخاف هذا الكاردينال العظيم في ظل الجمهورية :

فانحنى الرئيس بملء الاحترام وقال :

انه وان كان كردينالا فهو رجل ومهما علا مقام الرجل فقد يجد إذا فتش في ماضيه خيالاً يزعجه في لياليه .

ـ هل وجدت هذا الخيال .

ـ نعم يا مولاي وهو يدعي رولاند كانديانو .

فبذل الدوج جهداً عنيفاً كي يخفي اضطرابه ولكن هذا الاضطراب لم يخف على رئيس البوليس فقال في نفسه :

ـ لقد سنحت الفرصة لالقاء ذلك الخطاب الذي طالما رددته عند المرآة فلا تأهب لتمثيل دوري فان الحياة تمثيل لا يفوز فيها غير البارع فيه .

فقال له الدوج :

ـ إذن اتحسب ان الكاردينان خاف رولاند ؟

ـ لا اقول ذلك يا مولاي على سبيل الظن بل على سبيل اليقين ولا حاجة الى تذكير عظمتكم بتلك الضربة الهائلة التي اصيبت بها أسرة كانديانو .

وحاشاي أن أكون أردت بهذه الذكرى تقريع أحد من الناس ولكن الضربة كانت قاضية على تلك الأسرة قضاء لا يحتمله التصور غير ان رولاند قد نجا من السجن يا مولاي .

ـ وماذا تستنتج ؟

ـ استنتج وذلك على سبيل الظن ان الكاردينال بمبو كان أحد الذين أصابوا اسرة كانديانو بتلك الضربة وان رولاند حاقد على الكاردينال حقداً هائلا وان الكاردينال يعرف هذا الحقد حق المعرفان فهو لم يسافر إلا لأنه خاف .

فحدق فوسكاري به وقال له :

ـ أتحسب أنه يوجد أيضاً غير الكاردينال من يخاف رولاند ؟

ـ كلا يا مولاي لأن أولائك الذين أشرتم اليهم ليسوا من الذين يهربون حين تثور العاصفة بل انهم يقتحمون الاخطار حتى يفوزوا وأظن أني غير محتاج الى ذكر اسمائهم .

فاطرق الدوج هنيهة مفكراً ثم ابتسم وقال :

ـ انك رجل ماهر يا جينارو .

فانحنى وقال : ان سيدي يغمرني باحسانه .

ـ أين ذهب الكاردينال فيما تظن ؟

ـ أنه هرب إلى رومه .

ـ لماذا ذهب الى رومة ولم يذهب إلى ميلانو أو فلورنسا مثلا .

ـ لا بد أن تكونوا سمعتم بتلك الحظية الرومانية التي أقامت عندنا وكان لها شهرة عظيمة .

فاصفر وجه الدوج وقال : امباريا .

ـ هي بعينها والذي أظنه أنه يوجد بينها وبين الكاردينال علائق سرية تقضي عليه بأن يكون حيث تكون ولما كانت امباريا قد ذهبت الى رومة فقد ذهب هو اليها في نفس ذاك اليوم .

فنهض الدوج وحاول الرئيس أن ينصرف لاعتقاده ان الدوج يريد ذلك .

ولكن الدوج أوقفه باشارة وقال له : ابق فاني أريد محادثتك واجلس أمامي .

ـ مولاي ؟

ـ اني أريد أن تجلس فاجلس فانك أعظم من أن تلبث واقفاً بحضرتي .

فامتثل الرئيس شاكراً وبدأ الدوج الحديث فقال :

ـ دع الآن الحديث بشأن الكاردينال فهو يعود حين يريد .

ـ هذا إذا كان يستطيع .

فارتعد وقال : كيف ذلك ؟

قال : أريد أن اقول يا مولاي أني اعتقد بأن الكاردينال بمبو لن يعود الى فينيسيا وأنه يسافر السفر الأكبر الذي لا يعودون منه على الاطلاق واسمح لي يا مولاي ان أتكلم بصفتي رئيساً للبوليس وان كان ذلك من واجبات سواي في هذا المقام .

ـ واجبات من ؟

ـ واجبات رئيسي . رئيس ديوان التفتيش .

ـ ولكنك تعلم يقيناً ان رئيس ديوان التفتيش قد استقال وفوق ذلك فما الذي تنتظره من دندولو وأنت تعلم انه عاجز الهمة عاجز الرأي فقل ما تريد قوله .

فقال جينارو : نعم ان منصب رياسة ديوان التفتيش خال لنكد الطالع في هذه الايام التي يجب أن يكون فيها رئيس حازم قوي الإرادة .

ـ أي يكون مثلك ؟

ـ كلا يا مولاي فاني غير خليق بهذا الشرف .

ـ وأنا أقول لك أخدمنا في هذه الأحوال بما عرفت به من الاخلاص بل أخدم الجمهورية كما يجب أن يخدمها رئيس ديوان التفتيش ولا تخف ان يذهب املك سدى .

فوقف جينارو وقال :

اذن لنتكلم بحرية وجلاء يا مولاي فاني انتظر من عهد بعيد أن اسمع ما سمعته الآن من عظمتكم وان همتي اعظم من أن تتقيد بمنصبي الحاضر .

ـ أي انك تسألني تعيينك بدلاً من دندولو ؟

ـ هو ذاك يا مولاي .

ـ إذن أعدك بهذا المنصب فاجتهد ان تستحقه .

ـ سأبذل جهدي يا مولاى .

ـ ولا تحسب اني أعدك دون قصد الوفاء وسأعين لك يوماً محدوداً فعد إلي في اليوم التالي من شهر شباط وذكرني بهذا الوعد تجد اني صادق به .

ـ هذا كل ما أرجوه يا مولاى وقد فهمت شروطكم غير انى اتخذت كل ما ينبغي اتخاذه من وسائل الاحتياط ليوم الحفلة الكبرى قبل ان يتفضل علي مولاي بهذا الوعد .

ـ حسناً فعلت والآن تقول ان الكاردينال لن يعود إلى فينيسيا .

ـ اقول يا مولاى ان الكاردينال قد بات الآن في قبضة رولانـد فيما اعتقد .

هذا الذى اريد أن ابحث فيه أى بهذه المؤامرة التي يدبرونها الآن ضدى فاني قبضت على نحو مائتي رجل ولكني لم اطمئن بعد .

ـ ذلك لأنكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

ـ هذا الذي اعتقده ولكن قـل لي الآن كيف تمكنت من تعقب أثر رولاند إلى هذا الحد ولم تتمكن من القبض عليه ابلغ من ضعف بوليسنا ان رجلا واحداً يعبث به عدة اشهر :

ـ يسوءني يا مولاي ان أخوض في هـذه المسألة لأني لا أحب الطعن بأحد .

ـ أني كدت أقبض على رولاند ثلاث مرات ولكن مـا حيلتي وقد

كانت أوامر دندولو ترد الي في كل مرة مخالفة للخطة التي كنت أضعها فيلتوي القصد وتضيع الفرصة .

ـ وبعد ان استقال دندولو ؟

ـ برح رولاند فينيسيا .

ـ أأنت واثق مما تقول ؟

ـ اني لا اخطيء يا مولاي لأني لا اقول إلا ما أثبته بنفسي ولاسيما في الأمور الخطيرة .

ـ ولكن لا بد من القبض على رولاند ومحاكمته فانه يتولى الآن زعامة عصابات من اللصوص تشبه الجيش فاذا لم تقبض عليه كان خطراً دائماً على الجمهورية ولكني أرجو أن لا يطول غيابه عن فينيسيا وان لا ينجو من عدل القضاة .

ـ اسأل مولاي أن يطمئن فان رولاند سيعود .

ـ إذا كان ذلك فاني مطلق يدك في العمل فتصرف كما تشاء .

ـ ولكنك تمنحني يا مولاي سلطة عظيمة ونعم انها مؤقتة ولكني استطيع بهذه السلطة ان أكره القائد العام نفسه على طاعتي .

ـ نعم أعرف ذلك وأردد قولي السابق .

وعند ذلك أخذ الدوج ورقة فكتب عليها وامضاها ثم ختمها بختم الجمهورية وأعطاها الى رئيس البوليس .

فأخذها جينارو وهو يرتعش سروراً وقال :

لنبحث الآن يا مولاي في المؤامرة التي تهتمون بها فقد قلت لكم انكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

وعند ذلك دخل الحاجب وقال :

ان القائد العام على الباب يا مولاي وهو يلتمس الاذن بالدخول .

فأشار الدوج الى الحاجب بادخاله وقام فأزاح ستاراً وقال لجينارو :

ـ اختبيء وراء هذا الستار وانتظر ذهاب التياري لنعود إلى تتمة بحثنا.
فامتثل جينارو ودخل التياري بعد هنيهة فقال :
كنت أحسب أني استطيع استدعاءه إذا كنت محتاجاً اليه .
قال : كلا لا فائدة من حضوره وجلس أمام الدوج .

وكان الشيب قد بدأ يظهر في شعر التياري وبدت علائم التعب في وجهه ولكن عينيه كانتا لا تزالان براقتين تنبعث منهما أشعة تدل على الإرادة الثابتة .

وكان القلق باديا عليه وذلك لأن المؤامرة التي يريدها بدأت بالوصول الى الغاية منها ومع ذلك لم يكن راضياً .

على أن اضطرابه لم يكن من غاية المؤامرة بل من سير المؤامرة نفسها فانه دخل في سلكها مرغما ثم أصبح بعد قليل رئيساً لها دون أن يسعى لنيل هذه الرياسة .. وكان من أهل الطمع وهو يرجو أن يجعل الجمهورية ملكية ثم يجعل الملكية امبراطورية ويصبح عظيما كفرنسوا الأول وشارلكان .

ولكن الذي كان يخيفه ان جميع اعمال المؤامرة كانت تجري بسهولة لم يكن يتوقعها وكان يرى كثيرين من القواد يأتون اليه من تلقاء انفسهم وينتظمون في سلك المؤامرة بينما كان يحسبهم من اعدائه .

ولذلك كان يحسب أن يداً خفية قادرة تدير شؤونه وتهيىء له اسباب مجده . بل أنه توهم مرة أن فوسكاري واقف على اسرار المؤامرة وأنه لم يعاقبه إلى الآن حتى يدعه في اطمئنان الى ان يتيسر له ان يضربه الضربة القاضية .

فكانت هذه الأفكار تتنازع في نفسه مع ليونور ويضطرب لها هذا الاضطراب فانه كان لا يزال يهوى ليونور كما كان يهواها قبل الزواج ويرجو ان يفتنها بالعظمة متى فاز ببرامه ووضع على رأسها أكليل الدوقية ويقول

في نفسه انها من سليلة الحكام وانها لم تحب رولاند من قبل الا لانه كان ابن دوج فمتى صرت دوجاً احبتني دون شك .

هذا الذي كان يرجوه التياري من المؤامرة وهو أن يغنم قلب ليونور حين يفوز بالحكم ويتقلد الامارة .

وقد جلس أمام الدوج كما تقدم وهو متأهب لقتله اذ بدرت منه بادرت تدل على انه واقف على سره .

أما الدوج فانه قـــال له : حسناً فعلت بقدومك الي لأني اسر برؤياك ولكن لا بد لي من لومك فانك لا تزورني إلا في القليل النادر .

ـ ذلك لأني اشتغل لك فأنا مشغول عنك بك .

ـ لا شك عندي بوفائك ايها الصديق الصادق فقد بت صديقي الوحيد بعد سفر بمبو .

فلم يجد التياري في لهجة فوسكاري اقل دليل يحمله على الشك باخلاصه فقال :

لقد أتيتك باسماء جديدة .

فانقبض الدوج وقـــال : في كل يوم تفتح السجون ونلقي في اعماقها العباد ؟

ـ ان مجدك لا يؤيد غير هذه السجون ألم تعد رجل العزم الشديد الذي عرفناه ؟

بل أن الجمهورية قد تجرأت كما أرى فان كثيرين من النبلاء قد هجروا البلاد هاربين وغصت السجون بالمتهمين وقد اعدمنا خمسة عشر رجلاً في خلال شهرين وبت إذا خطر لي ان اتجول في فينيسيا لا أبصر من حولي غير الرؤوس المطرقة والسكون الشامل بينما كنت إذا ظهرت للناس لا يقابلونني إلا بالهتاف اما الآن فانهم إذا نظروا إلي خلتهم يقولون : كفاك ما سفكت من الدماء وأسلت من الدموع .

ولكن لم يبق غير القليل فتطمئن نفسك وفي كل حال فانك تستطيع ان تظهر للناس يوم الحفلة الكبرى وأنا على اليقين من أنك لا تسمع منهم غير الهتاف :

فتناول الدوج قائمة الاسماء من يد التياري وجعل يقرأها فيهز رأسه تارة ويبتسم تارة ويقول : أهذا أيضاً من الخائنين فقد كان بالأمس يظهر لى آيات اخلاصه وهذا ايضاً فقد قال لي أنه يسفك آخر نقطة من دمه في سبيلي إلى ان أتم قراءة الأسماء فقال :

ـ أرجو ان لا يوجد سواهم فانهم يبلغون الاربعين .

قال : كلا وأما بقية الفنيسيين فانهم مخلصون لك أشد الاخلاص وسأعود اليك بعد ثلاثة أيام فاخبرك بطريقة ترتيب الجند يوم الحفلة بحيث يحيطون بك من كل صوب .

وعند ذلك نهض التياري فودعه وانصرف .

وقد شيعه الدوج الى الباب فلما عاد الى القاعة لقي رئيس البوليس فيها فقال له :

لقد سألتني يا مولاي منذ هنيهة بمن يجب ان نبدأ القبض عليه من المتهمين فاجيبك الآن انه يجب ان تبدأ بهذا الرجل الذي خرج من هنا.

فاصفر وجه الدوج وقال : التياري ؟

ـ نعم القائد العام يا مولاي .

ـ اسرع بايضاح ما تقول أو احسب انك اصبحت من المجانين .

وقد غضب الدوج غضباً شديداً وقبل ان يبدأ جينارو حديثه قرع جرساً كان أمامه بعنف عظيم فقال له الرئيس ، ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : اريد ان أأمر بالقبض على التياري .

قال : كلا لا تفعل يا مولاي وقد اسرع فوقف عند الباب كي لا يدع أحداً يدخل .

فقال : الدوج : إذن اقبض عليك أنت ايها الشقي .

وقد مشى اليه مشية المتوعد فقال له جينارو بصوت الهامس ، مولاي إذا سجنتني أو قتلتني لا تستفيد شيئاً ولكنك إذا قبضت على التياري اليوم أو جعلته يشك بك خسرت كل شيء فاصغ الي بالله .

فعاد فوسكاري الى مجلسه ويده علي جبينه وعند ذلك اقبل الحراس وقد سمعوا قرع الجرس فاطلق سراحهم باشارة ونظر إلى جينارو فقال له : تكلم الآن .

قال : مولاى اني وقفت على جميع اسرار المؤتمرين وانا عالم ان التياري زعيمهم وانت تعرف التيارى حق العرفان فهو لا يقوم على مثل هذا الأمر الخطير إلا إذا كان واثقاً من الجند نعم ان الجيش بجملته مخلص له ما خلا فرقة ضعيفة لا تستطيع مقاومة جيش فاذا قبضت على التيارى اليوم لا تمضي ساعة حتى يثور الجيش ثورة هائلة فينقذونه ويهجمون على قصرك وانت ادرى بعد ذلك بما يكون على ان الأجدر بك في هذا الموقف الحرج ان تدعه آمناً ومطمئناً وتتأهب بالسر لرد كيدهم في نحورهم .

فاتقدت عينا فوسكارى ببارق مخيف وجعلت شفتاه ترتجفان من الغضب والخوف معاً فقال له جينارو : اتأذن لي يا مولاى ان اسديك نصيحة ؟

فقال : تكلم فقد خدمتني اليوم خدمة تجيز لك ان تشير .

قال : لو كنت في مكانك لبدات باطلاق سراح جميع المسجونين الذين وردت لك اسماؤهم .

فتردد الدوج هنيهة ثم قال: كلا فليبقوا في السجن ما زالوا فيه فان ذلك اسلم عاقبة .

ولكن جميع اولئك المنكودين كانوا من المخلصين لك .

ـ وقد اصبحوا اعدائي بعد ان سجنتهم ونكلت بهم فاذا اطلقت سراحهم انضموا إلى اعدائي للانتقام مني على اني متى انتصرت اطلقت

سراحهم واحداً تلو الاخر كنت محسناً عليهم أمـا إذا عفوت عنهم اليوم كنت ضعيفاً في عيونهم وعدوا ذلك من قبل الخوف .

فانحني جينارو إخفاء لما ظهر على وجهه وقـال : اني أعجب بذكائكم يا مولاي .

ـ إذن لا بد أن يكون لديك قائمة اسماء الذين انضموا الى التياري .

ـ ولكن هذه القائمة لم تتم بعد وأنا أعمل على اتمامها .

ـ لا بأس فاقرأ لي أسماء الذين عرفتهم .

فامتثل جينارو وذكر له نحو ثلاثين اسماً كتبها الدوج بخطه حق إذا أتم كتابتها قال له : ماذا يريد هؤلاء ؟

قال: ما يريده الذين يبتغون قلب الحكومات وهو نيل الرتب والمناصب وما شاكل ذلك .

والتياري ؟

ـ يريد أن يكون في مكانك .

فاطرق الدوج مفكراً ثم قال : متى عرفت ذلك وكيف ؟

ـ في هذه الليلة يا مولاي ولهذا لم أقدم لكم تقريري إلا اليوم وقد اهتديت الى المؤتمرين بادلة مبهمة فما زلت اقفوا اثارهم حتى حضرت أحـد مجتمعاتهم دون أن يروني.

ـ اين ذلك ؟

ـ في سفينة الأميرال .

ـ ومتى تقرر ان يبدأوا العمل ؟

ـ في اليوم الأول من شهر شباط .

ـ أي اليوم الذي أشار علي التياري ان اجعله يوم حفلة .

ـ لا يزال لدينا يا مولاي بضعة أيا تكفينا لقلب هذه المؤامرة وعـلى

أيادي هؤلاء الطامعين وما زلت قد أذنت لي يا مولاى بالكلام فاسمح لي ان أبسط خطتي .

ـ قل .

ـ أرى انه يجب في يوم الحفلة ان ترسل فرقة الرماحة الى سفينة الاميرال التي عينت للاحتفال وسيلصق بهذه السفينة سفينتان أضع فيهما كثيرين من رجالي يتهددون سفينة الأميرال عند الاقتضاء أما أنت فانك تذهب الي ليدو ويحيط بك حراسك كي تبحر منهـــا إلى السفينة ولكن عندما تصل الى الرصيف أشير إشارة خاصة فيقبض رجالي على التيارى ومن يحيط بك من المؤتمرين فانهم لا يستطيعون دفاعاً بغير الجند وعنـد ذلك تعود إلى القصر فتجمع مجلس العشرة وتحكم على المؤتمرين في الحال أما الآن فيجب ان تكتم الأمر كل الكتمان وتبالغ باظهار السكينة كي تحملهم على الاطمئنان وهـذه هي خطتي .

ـ وأنا أوافق عليها .

ـ ولكن عندما تقبض عليهم وتعود بهم الى قصرك ويحكم عليهم مجلس العشرة فمن الذى يتلو هذا الحكم ؟

ـ رئيس ديوان التفتيش .

ـ ولكنه مستقيل ولم تعينوا سواه .

ـ سأعين الرئيس في ذلك اليوم يا جينارو وسيكون ذلك أول ما أعمله حين القبض عليهم وأنت تعرف الذى اخترتـه لهذا المنصب دون شك ولا حاجة إلى ذكر اسمه .

فانحنى جينارو بملء الاحترام وقال له الدوج : اذهب الآن في شأنك واعلم انك منذ الآن تستطيع الدخول الي حين تشاء فتذكر للحاجب كلمة « جسر التنهدات » فلا يعترضك فاذهب وتمم فائتك ودقق البحث في أعمال

المؤتمرين وعد الي بكل ما تعلمه من أمورهم ولا تنسى ان سعادتك ومستقبلك موقوفان على نجاحك فتدبر .

ولكن بقي لي سؤال فقد قلت لي ان رولاند كانديانو لا بد ان يعود الى فينيسيا اليس كذلك ؟

فارتعش جينارو وقال : هذا الذى أرتابه .

ـ اتظن انه يعود قبل اليوم الأول من شهر شباط ؟

ـ لا أظنه يعود يا مولاى قبل منتصف ذلك الشهر .

ـ حسناً فاذهب الآن في شأنك .

فانصرف جينارو وهو يقوله في نفسه :

ـ ويح لهذا الدوج انـه يتردد في تقليدى منصب رياسة ديوان التفتيش وأنا أهبه الحياة على أن رولاند لا يتردد مثله وعلى الجملة فان فوزى بات مضموناً في الحالين .

وخرج جينارو الى القاعة التي يجتمع فيها من يريـد مقابلة الدوج وكان بينهم التيارى فوقف ينظر اليهم نظرة المتذهل إذ كانوا جميعهم من الذين ذكر اسماءهم للدوج .

أما الدوج فانه سقط على كرسيه خائر القوى بعـد انصراف جينارو وجعل يقول في نفسه : ان هذه المؤامرة لا تذكر في جانب ما يعده رولاند من وسائل الانتقام فاين هو الآن .. وماذا يصنع .. وهو سيعود فكيف ينتقم مني .

وقد تمكن الرعب من قلبه فالكنه ذكر ان النبلاء ينتظرونه في قاعـة الاستقبال فاخفى اضطرابه حتى تمكن من الابتسام وتفقد درعه وخنجره ثم فتح الباب وخرج منه الى القاعة الكبرى .

وهناك رأى التيارى ورأى اولئك المؤتمرين يدنون منه لأظهار خلوصهم فابرقت عيناه وبحث عن قائد حراسه وقد حاول أن يأمر بالقبض عليهم

جميعهم ولكنه ذكر لفوره نصيحة جينارو فكظم القيظ وجعل يبتسم لهم ويرد تحياتهم بأحسن منها .

وعند ذلك دنا منه التياري وقال ، ان الحفلة الكبرى باتت قريبة يا مولاي وقد أعدت جميع المعدات ما خلا مسألة واحدة فاننا لا نعلم أية سفينة تريد ان يكون الاحتفال ؟

قال في سفينة الأميرال ايها الصديق أليست هي العادة المتبعة الى الآن ؟

فابتسم التياري ابتسام الظافر وقال جينارو في نفسه : لم يبق فائدة من بقائي في هذا المقام .

أما الدوج فانه مضى في حديثه فقال مخاطباً التياري : وإني بمناسبة هذه الحفلة أحب ايها الصديق العزيز ان تبقى واقفاً بجانبي .

وليس ذلك لأني أخشى اقل حادثة من حوادث الشعب ولكني أحب تشريفك في تلك الحفلة وتشريف جميع الحاضرين الآن فاني أريد ان يكونوا جميعهم أيضاً بجانبي .

وعند ذلك مر من بينهم وهو يبتسم لهم ودخل الى قصره .

٦٧

تجارة ارتين الشاعر

وليسمح لنا القراء ان نعود بهم الآن الى تلك الليلة المحزنة التي انتحرت فيها بيانكا في منزل ارتين وحين سافر بمبو هاربا الى رومة وطارده رولاند وسكالابرينو .

ويذكر القراء ان امباريا برحت فينيسيا أيضاً قبل هذه الحوادث ببضع ساعات وأنها أمرت وكيلها ان يبيع جميع فرش قصرها ما خلا تلك الصورة الكبرى ذات الإطار الذهبي أي صورة رولاند .

وكان ارتين قد حضر تلك الفاجعة التي حدثت في منزله وقد دخل الخدم جميعهم إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا بعد انصراف رولاند وسكالابرينو فلما رأى أرتين هذه الفاجعة أمر خدمه ان يحكموا اقفال ابواب القصر وقد هلع قلبه من الرعب وأقام المتاريس وأخذ يحصن الأرض تحصين القلاع بينما كانت بيريتا تشتغل بنقل جثة امباريا الى سرير وقد أخذت كل ما كان في القصر من الأزهار ووضعتها على ذلك السرير .

أما أرتين فانه بعد ان حصن قصره دخل الى غرفته وجعل يمشي فيها مشي المجانين ويحدث نفسه فيقول : قبح هذا الكاردينال ولعن الله تلك الساعة التي خدعت فيها باقواله ألم يختر ذلك الوحش غير منزلي لقتل تلك الفتاة المنكودة؟

أنه سيلقى من انتقام مطارديه مما تشيب له الرؤوس ولكن ماذا اصنع الآن بهذه الجثة .. قوتل الغرام فانه سبب كل شقاء .

وقد بات تلك الليلة على أحر من الجمر وعند الفجر نادى أحد خدمه وأمره ان يهتم بدفن الفتاة وذلك ان يضعها في كفن ويحملها الى قارب ثم يلقيها الى المياه كما يدفنون المجرمين والفقراء فان الفقر كان يعد من كل عصر من الذنوب .

وفيما هو يتأهب الى ذلك جاءه رسول رولاند بتلك الرسالة التي تقدم ذكرها وقد عرف القراء كيف ان أرتين قد امثل لكل ما أمر به رولاند .

وبعد الظهر خرج من قصره كي يتفق مع نجار على صنع التوابيت ولما عاد مر بزورقه بقصر امباريا فرأى الناس مجتمعين عند بابه فسأل البحار عن هذا الاجتماع .

فأجاب البحار قائلاً : كيف لم تعرف ذلك يا سيدي فان أهل فينيسيا لا يتحدثون اليوم إلا بسفر امباريا .

— أسافرت امباريا ؟

— هذه الليلة .

— هل انت واثق مما تقول :

— انهم يبيعون أثاث قصرها .. انظر .

فأمره عند ذلك أن ينزل الى البر وبعد هنيهة كان داخل قصر الحظية فوجده غاصاً بالناس على اختلاف طبقاتهم وقد بسطت الامتعة وعرضت للبيع بالمزاد فاشترى ارتين شيئاً من تلك الامتعة وأرسلها إلى منزله وأقام تتمة البيع .

وقد لقي الوكيل وهو يعرفه فقال له . أن البيّع لم يحسن في هذا اليوم إلا بفضلي .

قال : ذلك لا ريب فيه يا سيدي واني لا أجد قولاً أعبر به عن امتناني.

ثم أشار بيده الى تلك الرسوم الجميلة وقال : تفضل يا سيدي باختيار ما تستحسنه منها .

وإنما قال ذلك كأنه يريد ان يعطيه جعلاً عن تلك الخدمة .

فلم يتردد ارتين وجعل يتفقد تلك الصور والوكيل يتبعه بمصباحه من قاعة الى قاعة حتى انتهى الى تلك الغرفة التي كانت امباريا قد جعلتها شبه معبد ووضعت فيها صورة رولاند .

فوقف فيها أرتين وقال : هو .. أصورته هنا !

وكان ارتين لم يعرف اسم رولاند الا من عهد قريب ولكنه عرف معظم تاريخه بعد ان عرف اسمه فقال للوكيل : اتعرف صاحب هذه الصورة ؟

قال : نعم فهو رولاند كانديانو ابن الدوج السابق .

— إذن لقد كانت تعرفه امباريا ؟

— لا أعلم ولكن الذي أعرفه ان المصور الذي رسمها اقام في صنعها أربعه أشهر وقد جعلت سيدتي إطاره من الذهب الخالص .

— ومن يسألك عن الاطار الذهبي فخذه واعطني الصورة وهذا كل ما أطلبه مقابل خدمتي .

— اني أعطيك إياها للفور .

فأخذها أرتين وهو يعتبر انه استولى على كنز لانها كانت من صنع تيتيان أشهر مصور في ذلك العهد وذهب بها الى منزله وهناك جعل ينظر اليها معجباً فيتنهد ويقول: ماذا عساي أن اصنع بهذا الرسم البديع فلو كنت من الأغنياء لحفظته عندي .

وأقام بضعة أيام وهو يفتكر في طريقة بيع هذه الصورة الى ان قال في صباح يوم : لقد وجدت الطريقة ثم وثب إلى سريره فلبس ملابسه وذهب تواً الى منزل دندولو ومعه الصورة .

وهناك استقبله خادم واخبره ان دندولو يقيم منذ حين في قصر صهره التياري فذهب تواً الى قصر القائد العام وهناك التمس مقابلة رئيس ديوان التفتيش وبعد هنيهة كان واقفاً أمامه فأشار اليه بالجلوس وقال له : انك طلبت مقابلة رئيس ديوان التفتيش ولكني استقلت من منصبي ومع ذلك ...

قال : اني اتأسف لحرمان فينيسيا من رئيس مثلكم ولكني التمست مقابلة السيد دندولو لا رئيس ديوان التفتيش .

— إذن تريد مقابلتي مقابلة شخصية ؟

— نعم يا سيدي فقد خطر لي ، ولا أعلم كيف جاءني هذا الخاطر ، انك أو ان احداً من ذويك تحفظان أثر صداقة لرجر من اصحابك وهو رولاند كانديانو .

فلم يكد ارتين يتم كلامه حتى شعر أنه قد كتب خطأ عظيما إذ رأى دندولو قد نهض فجأة وهو مصفر الوجه مضطرب اليدين وذهب إلى الباب فأقفله ثم عاد الى الشاعر فقال له : ما الذي حملك على أن تظن هذا الظن..

وماذا أتيت لتقول لي فهل انت آت من قبله .. قل أهو الذي أرسلك ؟

— كلا يا سيدي فاني آت من تلقاء نفسي وما زال هذا الاسم قـــد أثر عليك هذا التأثير فانا مخطىء دون شك وسأعود من حيث اتيت .

— بل ابق وقل بحرية وجلاء ما تريد قوله بشأن رولاند كانديانو .

— أظن يا سيدي انه فيما مضى كان معدوداً من عائلتكم .

— كيف ذلك ؟

— ومن يجهله يا سيدي الا تعلم انهم لا يزالون الى اليوم يذكرون ليونور ورولاند ويقولون عشاق فينيسا .

— كلا لا اعلم ولا أريد ان أعلم .

— اني لم اقل هذا القول إلا لأظهر لك بأني كنت احسب انك لا تزال تحب رولاند وإنه لم يفصله عنكم غير حادثة مؤثرة حدثت بالرغم عنك .

فزاد اصفرار وجهه وقال : ايقول ذلك ؟

قال : نعم وربما كانوا مخطئين في كل حال فما هي الا اشاعات تلقتها من افواه الناس دعتني الى فعل ما فعلت وانا غير مسؤول .

— ماذا فعلت ؟

فابتسم ارتين وقال : ذهبت الى قصر امباريا متنزها وتفقدت قصرها وهم يبيعون ما فيه بأغلى الأثمان لأنه من ابدع الرياش فكان من جملة ما رأيته هناك رسوم من صنع المصور المشهور تيتيان فأخذت رسماً من بينها وجدته افضلها واشتريته بمائتي دينار وهو رسم رولاند .

ولم اكن راغباً بشرائها ولكني كرهت ان تقع هذه الصورة بيد من يجهل قدرها فاشتريتها وخطر لي ان ابيعكم إياها رحمـة بجمال الصناعة ليس إلا وانظر يا مولاي يتبين لك صدق قولي .

وعند ذلك كشف الستار عن الصورة فارتعش دندولو إذ ظهر له رولاند كأنه ماثل امامه لا يعوزه غير الكلام .

وكانت الصورة تنظر إلى كل من ينظر اليها فاضطرب دندولو اضطراباً عظيما وخيل له كأنما رولاند يقول له : ماذا فعلت بي وبماذا اسأت اليك انا او بفتك فالقيتنا إلى هوة الشقاء .

وبينما ارتين ينظر الى دندولو منذهلاً لما رآه من اضطرابه لمرأى الصورة رأى باب الغرفة قد فتح وبرزت منه امرأة لم تقع العيون على أجمل منها فدنت من دندولو وقالت له : أبي اني أريد شراء هذه الصورة .

فانحنى ارتين أمامها وقد أعجب بكلامها نفس اعجابه بجمالها ولكن ليونور لم تنظر اليه ولا إلى الصورة .

أما دندولو فقد علم ما يجول في نفس بنته فلم يبد أقل اعتراض وأشار إلى الشاعر أن يتبعه فتبعه إلى غرفة أخرى وهناك نقده ثمن الصورة .

فقبض ارتين الثمن وقال له ، يسرني يا سيدي ان هذا الرسم الجميل لم يقع بيد سواك .

فشكره دندولو وشيعه الى الباب وقال له : اقسم لي انك أتيت من تلقاء نفسك وأن رولاند لم يرسلك .

فقال له : اقسم لك يا سيدي اني لم أقل إلا الحقيقة وحاشا للشعراء ان يكذبوا إلا بشعرهم .

وخرج وهو مطرق الرأس نادم على ما فعل فانه ايقن بعد ما رآه من ليونور أنه لو طلب ثمن هذا الرسم اربعمائة دينار لقبضها للفور .

* * *

وبعد ذلك بيومين سافر ارتين بحثة بيانكا إلى مستر وانفذ أوامر رولاند بغاية الضبط كما تقدم لنا بيانه .

٦٨

الأب والبنت

عندما ذهب ارتين وذهب معه دندولو وخلا المكان لليونور نظرت الى تلك الصورة التي رسمها تيتيان أشهر مصور في ذلك القصر .

وهو ذلك المصور نفسه الذي التمس منها مرة يصورها فأجابته قائلة ، ان رسمي وجسمي لا يكونان إلا لخطيبي .

فعاد إلى رومه وهو يقول : لقد عدت من فينيسيا بثلاث تذكارات لا يمكن أن انساها وهي داخل كنيسة سانت مارك وسماء فينيسيا المرصعة بالنجوم ونظرات ليونور دندولو .

وقد نظرت إلى صورة رولانـد بتلك النظرات التي فتنت لب المصور وقالت له والدموع تجول من عينيها : أي رولاند أنك لا تزال قريباً مني .. رولاند ايها الحبيب الكريم حبذا لو كنت تسمع كل ما يقوله لك قلبي منذ فراقنا الهائل بل حبذا لو تمكنت ان أدخل إلى قلبك واعرف بماذا حكمت علي . رولاند ان عذابي لا تصفه الاقلام فقد لقيت ما لم يلقيه بشر فيبقي في قيد الحياة.. رولاند ان رسمك هذا لا يسكن عذابي بل يزيده .. رولاند اني أجد العذاب عذباً في هواك ويسرني أن تكون شقوتي بك ولأجلك .

وقد جلست على كرسي وجعلت تتمعن بذلك الرسم فبقيت على ما هي عليه الى ان عاد أبوها ورآها جالسة قرب الصورة فقال لها :

— من يعلم يا ليونور فقد تكونين مخطئة بشراء هذه الصورة .

فهزت ليونور رأسها ولم تجب فقال لها : هل تريدين الاحتفاظ بها ؟

قالت : نعم يا أبي فليس لدي منه تذكار .

— ولكن ضعيها على الاقل في موضع خفي بحيث لا تريها في كل حين .

— بل اني اؤثر ان تكون دائماً بقربي .

فجعل دندولو يسير في تلك الغرفة بخطوات مضطربة يتوجس خيفة من هذه الصورة إذ كان يعتقد أن بنته نسيت رولاند فوجد بعد حادثة الصورة انه مخطيء في ما توهم وقد ذكر عند ذلك حقيقة توهمه فان ليونور بعد شفائها كانت تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع تختار لذلك يوماً معيناً وساعة معينة لا تخطئها .

وقد كان التياري أرسل مرة أحد خدمه في أثرها وعلم إلى اين تذهب فلما عادت من النزهة وجدت زوجها واقفاً أمامها فقالت له بجفاء : ماذا تريد ؟

فاضطرب لجفائها وقال لها : لا شيء سوى اني أريد ان اقول لك بأنه ليس من الحكمة ان تخرجي وحدك في ظلام الليل وسأرسل معك من يخفرك .

— قالت : اني لا اتنزه بعد الآن .

قال : بل اختاري على الاقل موضعاً آخر للنزهة .

قالت : ان هذا المكان يعجبني إذ لا أجد فيه ما يقرع ضميري .

فخرج التياري وهو يزبد من الغيظ وجعل دندولو بعد ذلك اليوم يصحب بنته في نزهتها.

أما هذا الموضع التي كانت تذهب اليه فكان جسر التنهدات فكانت تسير في زورقها حتى تصل اليه ثم تعود إلى القصر .

وكان دندولو يقود في أكثر الاحيان ذلك الزورق فاتفق ذات يوم أنه حين وصل معها الى جسر التنهدات رأى زورقاً قد دنا من زورقها وفيه رجل رآه وعرف انه رولاند كانديانو وسمع ما قاله لها .

ويذكر القراء تلك المقابلة حين اراد رولاند انقاذها من ابن كريماني وقال لها : اهربي ولا تخرجي من قصرك قبل شهر .

فلما سمع ابوها هذا الكلام اسرع الى العودة بها وهو يضطرب اضطرابا شديداً ويقول في نفسه : ان رولاند يراقبها ويحميها .

وقد جعل ينظر الى بنته في الطريق فيجدها ساكنة هادئة بالظاهر وهو لا يعلم ما يثور بقلبها .

فلما وصلا الى المنزل قال لها : أرأيته ؟

قالت : نعم يا أبي .

— أعرفته؟

— نعم .

فلم يسألها ابوها غير هذا السؤال ولكنه كان يرتعش سروراً لما كان يراه من عدم تأثرها .

وقد اطمأن منذ ذلك اليوم لاعتقاده ان بنته قد سلت رولاند وأنه يستطيع في المستقبل تنفيذ خطته التي قررها بعد اختصامه مع التياري وهي انه يعيش وإياها في منزل معتزل .

غير انه حين رآها واقفة أمام صورة رولاند تتمعن بها عاوده الشك فقال لها بعد سكوت قصير : اذن لقد عزمت على الاحتفاظ بهذه الصورة ؟

فأجابته بذلك الايجاز الذي الفته منذ نكبتها قائلة : نعم .

— الا تخشين ان تحزنك يا ابنتي اطالة النظر الى هذا الرسم .

— كيف ذلك يا أبي ؟

— انه ينبه في نفسك تذكارات قديمة .

— اية تذكارات تعني ؟

وقد قالت له ذلك فاحمر وجهه وعلم انه بات يخاف اكثر منها ذكر ذلك الماضي .

وعند ذلك عاد الاثنان الى السكوت وقد نهضت ليونور تحاول الذهاب الى غرفتها فقال لها أبوها : اجلسي يا ابنتي واصغ الي .

فامتثلت ليونور وجلست أمامه فقال لها : اتعلمين يا ليونور انه سيحدث حوادث خطيرة في فينيسيا فانك تعرفين سر المؤامرة وتعلمين انه لا بد من حدوث ثورة قريبة .

— ماذا تعني بذلك يا ابي ؟

— ألم يخطر لك ابداً ان فينسيا هي المدينة التي لقينا فيها أشد العذاب وان كلمة او حادثةمثل حادثة هذه الصورةتنبه فينا جميع تلك الاحزان الماضية .

— اني افتكرت كثيراً بهذه الأمور .

فلمعت عيناه ببارق من الفرح وقال لها بصوت منخفض : اتعلمين ماذا فعلت ؟

— كلا يا أبي .

— اذن فاعلمي اني بعت جميع مـا امتلكه في فينيسيا حتى ان منزل دندولو نفسه لم يبق لنا وكذلك كل ما كان لدينا من التحف فاني بعتها بالسر بحيث اصبحت ثروتنا ذهباً .

وقد عهدت الى رجل وفي بنقل هذا الذهب الى ميلانو وهو ينتظرنا فيها ألم تنهي قصدي ؟

— العلك تريد الفرار ؟

— نعم إذا سافرت معي فان زورقاً جميلا ينتظر امام القصر منذ ثمانية ايام وفيه ثلاثة بحارة مخلصون لي فاذا شئت هربنا في هذه الليلة .

وقد اتخذت جميع ما ينبغي اتخاذه من الوسائل التي تساعدنا على الخروج بالسر من هذا المنزل اذ لا نخرج من احد أبوابه بل من أحد نوافذه فاني اعددت سلمـــاً من الحبال نعلقه بحديد النافذة ونهبط عليه الى الطريق أرأيت ؟

— نعم انها سهلة .

ـ أتوافقين إذن على الفرار في هذه الليلة ؟
ـ كلا يا أبي .
ـ كلا إذن ليكن ذلك غداً أو في اليوم الذي تختارينه .
ـ كلا اني لن أهرب .

ـ كيف ترفضين الفرار الا تعلمين ... فقاطعته قائلة : انك إذا أردت الفرار يا أبي خوفاً على نفسك من عاقبة الثورة فافهم وكن موقناً اني استطيع الدفاع عن نفسي أما أنا فاني لا أخاف شيئاً وسواء افتصر التياري أو انخذل فان حياتي لا تتغير .

ـ ولكن أنا ماذا أعمل فان المؤتمرين يراقبونني فاذا لم يقتلني التياري قتلني فوسكاري :
ـ لقد أصبت يا أبي ووجب عليك ان تهرب .
ـ كيف أهرب وأنت هنا ؟

ـ قلت لك لا تخشى علي واذهب وحدك اذ يستحيل علي ان أبرح هذا القصر أما أنت فان الخطر عليك شديد ولا بد من فرارك .
ـ معاذ الله ان افترق عنك لحظة .
ـ ارجوك ان تتمعن في ذلك عساك أن تذعن .
ـ وأنت ايضاً تمعني يا ابنتي فان حياتك في هذا القصر عذاب .

وعند ذلك افترقا فدخل دندولو الى غرفته ودخلت هي الى غرفتها ولم يكن يفصل بين الغرفتين غير باب .

أما ليونور فقد دخلت وهي غير محتاجة الى التمعن فانها كانت مصممة كل التصميم على البقاء في فينيسيا .

أما دندولو فقد قال في نفسه : لا شك انني لا ابرح فينيسيا إلا إذا برحتها معي ومع ذلك فاذا اكرهتني الحوادث استطيع السفر ببضعة أيام .

٦٩

لقـــاء

في اليوم التالي لذلك اليوم الذي عاد فيه رولاند الى فينيسيا بعد موت الكاردينال كان جينارو رئيس البوليس جالساً في غرفته يطالـــع تقارير جواسيسه الاخصاء .

وكان ذلك اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني وقـــد ظهر القلق على وجه الرئيس فكان يسأل كلا من جواسيسه عن مسألة واحدة فاذا لم يجبه عليها سمع بقية تقريره بملء الضجر واطلق سراحه .

وما زال على ذلك إلى ان دخل عليه احدهم فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : اني جلت امس حسب أمرك بين خمارات المينا .

— ماذا سمعت ؟

— سمعت حكايات غريبة اخصها ان ابن الدوج كانديانو السابق موجود الآن في فينيسيا وانه يتأهب للاستيلاء على سراي الدوج وانه سينقذ الشعب من مظالم فوسكاري .

— أأنت واثق مما تقول ؟

— كل الثقة بل اني سمعتهم يصرخون فيقولون ليسقط فوسكاري دوج فينيسيا وليحيى رولاند دوج الشعب .

— ما هذا أحق ما تقول ؟

— نعم يا سيدي .

— حسناً فعد إلى تلك الخمارات وعد الي بكل ما تسمعه وتعلمه .

ثم اطلق سراحه ونادى سواه من الجواسيس فقال له ، اخبرني بمـــا لديك .

قال : كنت امس يا سيدي قرب خمارة مرسي الذهب .
فذكر الرئيس انه زار امس تلك الخمارة وقال له : ما رأيت ؟
قال : رأيت برتولو خارجاً منها مع رجل .

— من هو هذا الرجل ؟
— لا أعرفه .
— إذاً ماذا عرفت ؟
— ليس هذا الذي كنت احاول معرفته يا سيدي فانه بينما كان برتولو يحادث ذلك الرجل دخل رجل آخر متلصصاً الى الخمارة .
— أكان من اللصوص ؟
— كلا فاني اعرف اللصوص من مشيتهم .
— وماذا حدث ؟

— حدث ان برتولوا دخل بعد هنيهة الى الخمارة فوقفت عنـــد الباب انتصت فسمعت اصواتاً تدل على الخصام وعرفت صوت ذلك الرجل وبعد المشاجرة بالكلام سمعت صوت عراك عنيف ثم ساد السكوت وبعد هنيهة برح الرجل الخمارة .
— اتبعته ؟
— دون شك .
— وعرفته ؟

— سوف تعلم يا سيدي فاني تبعت هذا الرجل الذي خيل لي اني عرفته من صوته ثم من قامته ومشيته فمـا زال يسير وانا في أثره حتى وصل الى جزيرة اوليفور .
فوقف الرئيس وقال ؟ من هو هذا الرجل ؟
— انه سكالابرينو وأنا أعرف الآن اين يقيم بحيث نستطيع القبض عليه متى نشاء .

ـ احذر ان تقول كلمة من هذا الحديث أفهمت ؟

ـ نعم يا سيدي ولكن ليس هذا كل ما أريد قوله فاني بعد أن عرفت المكان الذي ذهب اليه سكالابرينو أحببت ان أعلم غايته من الذهاب الى الخمارة ونتيجة ذلك الخصام الذي حدث وأنا عائد الآن من خمارة مرسي الذهب .

ـ ماذا علمت ؟

ـ عندما وصلت رأيت بابها مقفلاً على غير عادتها وقد اجتمع كثير من الشاربين وقلقوا على صاحب الخمارة فنادوا البوليس كسروا الباب وبعد البحث وجدوا جثة برتولو في القبو .

ـ برتولو قتيل !!

ـ نعم وان قاتله سكالابرينو .

وقد سكت الجاسوس واقام ينتظر تهنئة الرئيس ومكافأته على هذا الاكتشاف .

أما جينارو فانه جعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم وقف فجاءة وقال له : لا يجب ان تقول كلمة مما أخبرتني به .

ـ سأبالغ بالكتمان يا سيدي .

ـ لا شك عندي بحرصك على الكتمان وانما أوصيك من قبيل المبالغة بالحذر فاحرص على الكتمان خمسة أو ستة أيام أي الى يوم الثاني من شهر شباط أفهمت ؟ والآن فاذهب فلا حاجة بي اليك .

فانصرف الجاسوس ودخل بعده جاسوس آخر فحدق به رئيس البوليس ثم قال له : اني اهنئك بحسن تنكرك فاني لم اعرفك فمن أنت ؟

فنزع شعره ولحيته المستعارين وقال له : أرجو ان تعرفني الآن .

فوقف جينارو وقد دهش دهشاً عظيما وقال بصوت ابح : مولاي كاتديانو ؟

ـ إذا كنت تتكلم بهذا الصوت المرتفع تضطر الى القبض علي إلا اذا اضطررت أنا الى القبض عليك .

ـ اعذرني يا مولاي فلم يكن يخطر لي في بال أن أراك هنا .

ـ لماذا اليس لنا فائدة مشتركة تقضي علينا بان نجتمع من أجلها اما أنا فهذا معتقدي ودليل ذلك اني أتيت مساء أمس الى فينيسيا فكانت زيارتي الاولى لك وقد اتيت اسألك إذا كنت تجد الآن الفرصة موافقة للقبض علي وتسليمي الى مجلس العشرة .

وكان جينارو يصغي الى كلامه وهو متذهل لا يعلم ما يريد منه رولاند وقد عرف القراء ان هذا الرئيس كان من أهل العزيمة والادارة السريعة فرأى بسرعة التصور انه إذا قبض على رولاند انقذ فوسكاري ونال ذلك المنصب الذي يطمع فيه ولكنه رأى ايضاً ان الجو لا يخلو لفوسكاري بعد ذلك وان فوز رولاند اسرع الى تحقيق امله فوقف أمامه وقفة الاحترام وقال له : لقد رجعت يا مولاي عن فكر القبض عليك .

قال : يسرني ان اعرف السبب في ذلك .

ـ السبب بسيط يا مولاي فهو اولاً معرفة الجميل .

ـ لم يبق لي عليك جميل فقد وفيت دينك فلا تبحث في هذا الموضوع .

ـ وفوق ذلك فاني أرى الحق في جانبك ما زلت من انصار العدالة والحق .

ـ ان هذا السبب غير كاف فان من كان مثلك لا ينظر إلى وجوه العدل والظلم إلا في آخر اعماله .. كلا ليس هذا بالسبب الاكيد وما زلت تأبى ان تكون حراً في مقالك فسأقول عنك ما كان يجب ان تقوله فاصغ الي انك إذا قبضت علي يعينك فوسكاري رئيساً لديوان التفتيش بعد ساعتين وهذا منتهى مطامعك .

ـ ارأيت إذن يا مولاي ان الحق وحده الذي ...

فقاطعه رولاند قائلاً : كنت احسب انك أشد صبراً مما أراك فانك إذا قبضت علي تصبح رئيساً لديوان التفتيش كما قلت لك وبعد ذلك ماذا يحدث؟

ان يوم أول شباط يأتي وأكون أنا في السجن فينشب القتال بين فوسكاري والتياري أليس كذلك ؟

ـ دون شك يا مولاي .

ـ وانت تعلم يقيناً ان الفوز يكاد يكون مضموناً لالتياري ومتى فاز يكون أول همه ان يلقي في ابار السجون جميع انصار فوسكاري وانت في مقدمتهم وهذا هو السبب الذي دفعـــك الى الرجوع عن القبض علي فماذا تقول .

ـ أقول انك من النوابغ يا مولاي .

ـ وانا اقول انه كان يجب ان تقول الحقيقة وان لا تحاول إكراهي على تعيينك في المنصب الذي تطمع فيه وانت لا تظهر لي من الكفاءة ما يحملني على الرضى بهذا التعيين .

ـ هل فات الاوان ؟

ـ نعم إلا اذا اسلمت من غير شروط .

ـ لقد رضيت يا مولاي .

ـ ارضيت ان تكون لي دون ان تقيدني بقيد ؟

ـ نعم يا مولاي ولكني التمس من عظمتكم ان لا تنسى باني كنت قادراً على ان أكون حائلاً دون مقاصدكم .

ـ ذلك يفيد انك تسألني منصب رئيس ديوان التفتيش .

فانحنى جينارو دون ان يجيب .

ـ يسوءني اخبارك باني عزمت على الغاء هذا المنصب .

فاصفر وجه رئيس البوليس وكفاه بهذا النبأ داعياً للاضطراب فانه قضى قضاء مبرماً على أمانيه .

وعند ذلك أخذت العوامل تتنازعه حتى انه نظر الى الباب كأنه عزم على القبض عليه والميل الى جهة فوسكاري .

على ان رولاند كان يفحص وجهه ويقرأ افكاره حتى رآه مد يده يحاول قرع الجرس .

فوقف رولاند ودنا من النافذة فقال له :

ـ قبل ان تقرع الجرس تعال وانظر فاني لا أحب ان ترتكب هفوة قد لا اعفوها لك .

فشعر جينارو بان لرولاند سلطانا عليه فقال له : مولاي اتحب اني ..

فقاطعه قائلاً : تعال وانظر .

فامتثل جينارو ودنا من النافذة فقال له رولاند : ماذا ترى ؟

فنظر جينارو الى الرصيف الذي كانت تشرف عليـــه من النافذة ولم يجب .

فقال له رولاند : كم تستطيع ان تحشد من الرجال للقبض علي ؟

قال : اني إذا ناديت رجالي جاءني منهم مائة رجل على الأقل ولكني لا أريد القبض عليك .

قال : ولكن هؤلاء الذين تراهم يذهبون ويجيئون يزيد عددهم على اربعمائة رجل ويوجد مثلهم في الشوارع المجاورة فاذا أردت ان تثير معركة دموية يا جينارو فافعل .

ـ لقد قلت لك يا مولاي اني استسلمت اليك .

ـ دون شروط ؟

ـ دون شروط ولكن استسلم الى كرمك ومروءتك .

ـ حسناً فاجلس الآن لنتحدث إذ لدي ما اسألك عنه بشأن الحفلة الكبرى فقل لي في أية ساعة يخرج الدوج من سراياه في ذلك اليوم ؟

قال : في الساعة التاسعة من الصباح تقريباً .

إذن صف لي بالتدقيق الموكب الذي يسير فيه الدوج الى ليدو فمن اية قرية يتألف الحرس ؟

ـ من فرقة الرماحة وحملة البنادق فانهم يذهبون الى سفينة الأميرال بحجة انهم يريدون حماية الدوج فيها .

ـ اين يكون موقف التياري القائد العام ؟

ـ يجانب الدوج وذلك منذ خروجه من السراي .

ـ أرى يا جينارو انك انت الذي دبرت هذه التدابير والآن فما الذي عرفته من انباء المؤتمرين ؟

ـ ربما اكون لا اعرف شيئاً يا مولاي لا تعرفه فانت تعرف خطة المؤامرة حق العرفان ولكن الذي عرفته حديثاً ان التياري وافق على إرسال الفرق إلى سفينة الأميرال والحقيقة انه يريد القبض على الدوج فوسكاري في ساعة الحفلة .

وفي تلك الساعة نفسها تزحف فرقة الى سراي الدوج وهي خالية من الحراس .

وعند ذلك يقرع جرس سانت مارك وتقتدي بـه أجراس الكنائس فيحتل الجنود مراكز الدفاع في المدينة .

ـ هذه خطة التياري فقل الآن ما تعرفه عن خطة فوسكاري .

ـ انها على اتم البساطة فان الموقف سيقف عند رصيف ليدو وعند ذلك يضرب فوسكاري التياري الواقف بجانبه الضربة القاضية بدلاً من ان يذهب الى سفينة الأميرال .

وفي الساعة نفسها يطعن كل قائد من قواد فوسكاري زعيما عن زعماء الثورة وقد عين لكل قائـد الزعيم الذي يجب ان يطعنه بحيث يأخذهم على غرة .

أما سفينة الأميرال فسيحيط بهـــا ساعة الحفلة سفينتان عليهما جنود مخلصون للدوج.

— انها خطة بسيطة مثل كل خطة صالحة ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن الجواسيس .

— ان جواسيسي سينتشرون في جميع انحاء المدينـة ويصيحون في كل مكان ليحيى فوسكاري بحيث يجذبون معهم الشعب ولكني استطيع ان أدعهم يهتفون لغير فوسكاري .

— لا فائدة من ذلك فدعهم يهتفون له قدر ما يشاؤون بل اني اؤثر هذا الهتاف ولكن لا يجب ان تغير شيئاً من خطة الحفلة وكذلك خطة المؤتمرين فانها لا تغير .

— إذن لا يبقى علي يا مولاي إلا ان انتظر اليوم الاول من شهر شباط.

— نعم يجب ان تصير بملء السكينة كما أنا صابر .

وعند ذلك نهض رولاند يريد الانصراف فلما وصل الى الباب قـال له جينارو :

— كلمة واحدة يا مولاي .

— ما هي ؟

— إذا حدث حادث لم اكن اتوقعه فاين أجدك ؟

فحدق رولاند بجينارو ونظر اليه نظرة اضطربت لها اعضاؤه ثم قال له دون تردد ، انك تجدني في بيت الجزيرة فاني أكون فيه وحدي كل ليلة .

— لا أرى من الحكمة ان تكون وحدك يا مولاي .

— لا أكون وحدي بل يكون معي ايضاً والدي الأعمى المجنون . وقد ذكر أباه واتقدت عيناه ببارق مخيف من الانتقام فانحنى جينارو كأنه أراد اتقاء هذه البوارق الهائلة وعندما رفع رأسه رأى رولاند يسير في الرواق بملء السكينة فقال في نفسه :

— وحده مع أبيه الأعمى المجنون !

وبعد أن توارى رولاند عن نظره جلس في كرسيه واطرق مفكراً فجعل يقول في نفسه :

— ترى لماذا يريد ان يلغي منصب رياسة ديوان التفتيش .. انه يخطىء في ذلك خطأ عظيما .. نعم ولكن أحق ما يقول انه يبيت وحده كل ليلة في بيت الجزيرة .. صبراً يا جينارو ولا تتسرع فان موقفك خطير .

وقد جعل يتمشى في غرفته وهو يتمعن ويفتكر إلى ان استقر على رأي فقرع الجرس .

وبعد هنيهة دخل اليه أحد خدمه فحدق به كأنه يريد ان يسبر اعماق قلبه ويعلم إذا كان يستطيع الركون اليه فقال له :

— أريد ان تذهب...

ثم توقف عن اتمام الحديث وقد ظهرت عليه علائم التردد فقال :

— كلا لا فائدة من ذلك فعد الى حيث كنت .

فامتثل الخادم وانصرف .

أما جينارو فانه قام الى غرفة ثانية كان يضع فيها ملابس التنكر فتنكر تنكراً عظيما بحيث كاد ان لا يعرف ذاته وقال في نفسه :

— ان مثل هذه المهمة لا يجب أن اعهد بها الى سواي .

واليك بيان ما جال في خاطره .

فقد رأى انه إذا ترك الأمور تجري في مجاريها كان النصر مضموناً لرولاند دون شك .

وأية فائدة له من فوزه فان رولاند نفسه قال له انه سيلغي منصب رياسة ديوان التفتيش وهذا المنصب كان كل ما يطمع به رئيس البوليس .

وهو يريد هذا المنصب فانه لم يكن فاسد الطبع لئيم النفس ولكنه كان شديد الطمع ميالاً الى مهنته كل الميل بحيث كان يريد ان يبلغ في الترقي بها

إلى أبعد حد أي منصب الرئيس الأكبر وما زال رولاند يريد الغاء هـذا المنصب الذي يطمع فيه وهي الغاء رولاند نفسه .

وهنا تشعب فكر جينارو الى طريقين فانه إذا كان يريـد القضاء على رولاند يجب ان يكون واثقاً من ان ضربته ستكون القاضية واذا فشل بها انتقم منه دون شك وكان انتقامه هائلاً .

ولذلك خطر له ان يقتل رولاند ولكنه لا يقتله بيده بل يرسل له من يقتله فاذا فشل لا يكون مسؤولا لدى رولاند ولا يكون معرضاً لانتقامه .

ولكن من هذا الذي سيرسله. ان القراء سيعرفونه أما جينارو فانه كان يفتكر به فيقول :

— انه اذا نجح بقتل رولاند فزت انا بما ابغيه وإذا لم ينجح لا يعلم رولاند الحقيقة بل سيكون مديناً لي بالامتنان لأني انا سأتولى انذاره .

اما هذا الرجل الذي اختاره جينارو لقتل رولاند فانه كان التياري القائد العام .

وقد قلنا ان فكره كان متشعباً بطريقين اما الطريق الثانية فهي المؤامرة فانه كان يفتكر بها فيقول انه إذا فاز التياري يخـبره جينارو بأنه كان يعرف سر هذه المؤامرة من عهد بعيد ولكنه كان يكتم أمرهـا لميله اليه وفوق ذلك فانه سوف يرشده الى طريقه للتخلص من رولاند وذلك كاف لنيل رضاه .

وإذا فاز فوسكاري كان منصب جينارو مضموناً فانه يعود عودة الظافر الى سراي الدوج بهذا المنصب فهو لا يرجع عن وعده .

فلما فحص جينارو هذه الخطة وقلبها في جميع وجوهها ذهب تواً الى قصر التياري .

وكان متنكراً كما قدمناه فاضطر الى البقاء في قاعة الانتظار الى ان يؤذن له بالدخول .

وقد لقي هناك كثيراً من القواد الذين ينتظرون يوم أول شباط بفارغ الصبر وهم يتحدثون بهذا اليوم بطريق الالغاز ولكنه كان يفهم الغازهم وهم لا يشعرون .

وقد صبر الى ان جاء أحد خدم التياري فقال له : اني قادم بمهمة الى مولاي القائد العام . .

قال : من قبل من ؟

قال : من قبل رئيسي جينارو رئيس البوليس .

قال : حسناً فانتظر .

وبعد هنيهة عاد فادخل جينارو الى القائد العام فقال له التياري : أأنت قادم من قبل جينارو كما قلت ؟

قال : كلا يا مولاي بل اني جينارو نفسه اتيت متنكراً .

— لقد عرفتك الآن من صوتك ولكن لما تنكرت ؟

— لأن التنكر عادة قديمة عندي وفوق ذلك فاني ما أحببت ان يراني أحد عندك لأني قادم اليك بمهمة سرية .

فأشار اليه بالجلوس وقال له : اني مصغ اليك .

وفي الوقت نفسه جرد خنجره وجعل يلعب به وهو مصغ اليه .

فقال له جينارو : ماذا تقول يا مولاي إذا قبضت على رولاند كانديانو فارتعد التياري واتقدت عيناه .

فابتسم جينارو وقال : اني ما احببت ان اقدم على هذا الشأن الخطير دون ان أخابرك فيه .

— هل أخبرت به الدوج ؟

— كلا فقد خطر لي ان تعلم ذلك قبله .

فنظر التياري اليه نظرة المرتاب لأنه كان يعلم أنه من اخصاء الدوج فاضطرب في أمره وقال في نفسه : ما عسى يريد مني هذا الداهية العلة قادم

التجسس احوالي ولما ذكر القبض على رولاند فجأة دون مقدمة .

ثم قال له بصوت مرتفع : لماذا أتيت تحدثني بأمر هذا الرجل دون سواي أتعلم اني ادير بوليسة الجمهورية .. نعم اني استغرب ذلك على ان ادارة البوليس لو كانت بيدي لما تجاسر رولاند ان يعود الى فينيسيا وهو رئيس العصاة الثائرين بل اني كنت قبضت عليه من عهد بعيد وجازيته بما يستحقه من الاعدام .

— ومع ذلك فقد تجاسر وعاد الى فينيسيا .

فارتعش التياري ارتعاشاً ظاهراً وقال : ماذا يريد وماذا اتى يعمل ؟

قال : ارأيت يا سيدي انه يهمك ان تعلم ما جرى لرولاند فانك كلمتني بلهجة عنيفة كان يجب بعدها علي استئذانك بالانصراف ولكني صديق لك .

— انت صديقي ؟!

— نعم صديقك ولماذا الاندهال وأنا أعلم كثيراً من الأمور .

فاصفر وجه التياري وقال : بماذا تتعلق هذه الأمور التي تعرفها ؟

— ولكن .:. برولاند كانديانو .. وأعرف على الأخص ان بينك وبينه عداء شخصياً هائلاً فلنكلم يا سيدي بحرية وبرهاني علي حريتي في قولي اني محتاج اليك وسأبين لك هذه الحاجة في غير هذا المقام .

— متى :

بعد شهر أو بعد نصف شهر فاني مضطر في خلال هذه المدة الى التغيب عن فينيسيا لأني احب ان أتجاهل ما سيجري خلال هذه المدة من الحوادث فليقبضوا على رولاند ويطلقوا سراحه .. وليفعلوا غير ذلك فاني لا أحب ان اعرف شيئاً .

— هل لك ان تقول لي لماذا تريد مبارحة فينسيا ؟

— السبب الوحيد الذي ذكرته لك وهو اني لا أحب أن أعلم شيئاً مما سيجري في هذه الأيام .

فوقف التياري فجأة وقد ايقن الآن ان رئيس البوليس عـــارف بسر المؤامرة ودنا منه .

فقال جينارو في نفسه : أني إذا قلت كلمة في غير موضعها كنت من الهالكين .

أما التياري فانه حدق به وقال له ، ماذا تظن أنه سيجري ؟

ـ لقد قلته لك منذ هنيهة أي انهم سيقبضون على رولاند .

فتنفس الصعداء وعاد إلى مجلسه فقال ، لماذا لا تريد ان تتداخل في شأن القبض عليه ؟

ـ ذلك لأني حاولت القبض عليه ولم انجح وبت أخاف إذا حاولت ذلك مرة ثالثة ان لا انجح ايضاً وهو اعتقاد راسخ في لا يتزعزع ولا أعلم إذا كنت تفهم ما أعنيه كما ينبغي .

ـ امض في حديثك .

ـ لقد رأيت هذا الرجل الهائل فخفته وأنا لم أعرف الخوف على ما مر بي من الاخطار لاسيما وقد علمت يقيناً ان أمر القبض على كانديانو لم يعد من أمر البوليس بل أصبح شأناً عائلياً يفض بالمبارزة فقلت في نفسي أنـه يوجد في فينيسيا من يهمه أن يعـلم بان رولاند كانديانو يبيت الليلة وحده في المنزل .

فارتعش التياري ولكنه أخفى اضطرابه وقال له : من هذا الذي يهمه ان يعلم ما قلت ؟

ـ انت يا التياري وقد وعدتك أن أكون حراً في مقـــالي الى آخره وسأفعل ولو كان قولي يسيئك إلا أعلم أنك كنت ورولاند تحبان امرأة .. ألا أعلم ان حياة هذا الرجل باتت حاجزاً منيعاً دون سعادتك والحقيقة ان القبض على رولاند لا يفيدني شيئاً بشرط ان لا أدعه يسيء الى الجمهورية خلافاً لك ولذلك تخليت لك عنه وأنا اعتقد اني خدمتك أجـــل خدمة .

لا تعجب يا سيدي مما اقول فانك ما جفوتني وابعدتني عنك إلا لاعتقادك بأني شديد الإخلاص لسواك وأما أنا فاني من أشد المخلصين لك وقد ساءني أن أراك مسترسلاً الى الأحزان وان لا تنال من هناء الحياة مـــا يستحقه ذكاؤك وهمتك.

وهنا ساد السكوت هنيهة فكان التياري يقول في نفسه : ترى من هذا الذي يخونه منا ؟

ثم تبدى له ان جينارو مخلص في ما قاله فانه لو كان عارفاً بسر المؤامرة ولو كان مخلصاً لفوسكاري فما الذي يمنعه عن ان يقبض عليه في سراي الدوج وهو يذهب اليها في كل يوم .

وعند ذلك نظر اليه التياري نظرة تدل على الثقة فأدرك جينارو معنى هذه النظرة وقال : أظن اني قمت بواجبي الأدبي بقدومي اليك وأنا ذاهب الآن فأرجو ان تعلم مهما حدث بأني نهجت معك مناهج الاصدقاء .

فلم يجبه التياري ولكنه شيعه الى الباب وهناك صافحه بيد تضطرب وقال له : أتقول ان رولاند كانديانو يبيت هذه الليلة في منزله ؟

ـ نعم في بيت الجزيرة .

ـ وحده ؟

ـ مع ابيه الشيخ .

وهنا افترقا فاسرع جينارو بالعودة الى منزله فنادى أحد خدمه وقال له : اتعرف جزيرة اوليفو ؟

قال : نعم .

قال : اتعرف من يقيم فيها الآن ؟

ـ ذلك الرجل الذي زارك اليوم بعد الجواسيس .

ـ لقد عرفته كما يظهر .

فابتسم الخادم دون ان يجيب .

قال : إذن اذهب هذه الليلة واكمن في الحديقة طول الليل ومهما حدث في المنزل أو في الحديقة فلا تتداخل بل يجب ان تسمع وترى وتقف على كل ما يجري ثم تعود الي فتخبرني بما يكون فاذا نجحت بمهمتك اعطيتك عشرة ريالات وإذا فشلت فيها جلدتك عشر جلدات .

* * *

٧٠

لقاء ايضاً

أما التياري فقد بقي وحده واقفاً في غرفته يتمعن ويفتكر الى ان أقر على الأمر الذي كان يتردد فيـــه فنادى أحد خدمه وقال له ، ادع لي كاستريشو .

وبعد هنيهة جاءه هذا الرجل وهو شاب في الثلاثين من العمر وعليـه ملابس الضباط .

فنظر اليه التياري نظرة ثقة واعجاب وقال له : اتريد ان تصحبني هذه الليلة في رحلة مخطرة ؟

قال : انك تعلم يقيناً باني مستعد لسفك دمائي في سبيلك .

ــ حسناً فعد الي في الساعة العاشرة من هذا المساء وليكن معك صديقك روماني وجيبرتو .

ــ سنحضر في الوقت المعين فهل الأمر مقلق ...

وهنا أشار إشارة الضرب .

فقال : نعم .

ـ حسناً فمن هذا الذي قضى عليه ؟
ـ سوف تراه .
ـ اين ؟
ـ سوف تعلم .
ـ حسناً فسأحضر مع رفاقي كما أمرت .

وانصرف الضابط فابتسم التياري ابتسام الرضى فانه منذ أعوام بعيدة لم يشعر بما كان يشعر به من الاطمئنان فقد وثق بعد الامعان ان جينارو لم يكن ضده وقد كان يخافه كثيراً ولكنه علم بعد ما سمعه من رئيس البوليس وعزمه على مبارحة فينيسيا كي لا يتداخل بما سيجري من الشؤون ان المؤامرة لم يبق شك لنجاحها وانه سيغدو دوجاً بعد ثلاثة أيام .

وفوق ذلك فانه سيفتك برولاند ويرفع عن صدره اثقال هذا الكابوس وأي فوز يدعوه الى الاطمئنان مثل هذا الفوز فانه متى صار دوجاً ومات رولاند فلا بد لليونور ان تحب زوجها فانها أحبت رولاند وحفظت عهده وهو في قيد الحياة ولكن الغرام لا يكون بالاموات .

ولما فازت نفسه بهذه السكينة أخذ يعد وسائل الفتك برولاند حتى رسخت في ذهنه فخرج من غرفته وسار في رواق فصعد سلماً خفياً يؤدي الى المكان الذي تقيم فيه ليونور مع أبيها .

وكان كل رجائه في تلك الساعة ان يرى ليونور فينظر اليها نظرة تشف عن انتصاره وتدل على قرب حوادث عظيمة .

ولكنه لم ير ليونور ولم يجد اباها فنزل الى القاعة التي كان الضباط مجتمعين فيها وجعل يحدثهم بملء البشاشة والارتياح خلافاً لعادته فقد كان دائم التجهم والتقطيب .

وبعد ظهر ذلك اليوم خرج التياري وحده من قصره وجعل يطوف في شوارع فينيسيا حتى أقبل الظلام فذهب الى اقبح شارع في المدينة كان يعيش

فيه البحارة وأولئك الشقيات اللواتي قدر عليهن نكد الطالع وسوء التربية ان يبعن قبلاتهن بقطعة من الخبز .

وهناك المتسولون على اختلافهم وأهل الدعارة والشقاء دخل التياري إلى أحد البيوت في ذلك الشارع ، شارع الشقاء .

وقد فتحت له الباب امرأة عجوز فقال لها : هنا يقيم سبارتفنتو ؟

قالت : نعم يا مولاي فتفضل بالدخول .

فدخل التياري واقفلت العجوز الباب ودنت منه فقالت له: الملك قادم يا مولاي لمقابلة ابني أو لمقابلة بنتي أو لمقابلتي فان لكل منا شأنا خاصاً به مثال ذلك انك اذا أردت ان تعرف ماضيك وحاضرك ومستقبلك وما يكون من غرامك وإذا اردت ان تكون محبوباً لا يخفوك من تحبه فانا الذي اجيبك . واذا كنت تريد فتاة حسناء تدرك معاني الغرام وملاذ الصبابة فابنتي تجيبك. وأما إذا أردت ان تتخلص من زوج غيور أو عاشق مزاحم بضربة خنجر فابني يجيبك فاختر يا سيدي بين الأم والابن والبنت .

فقال التياري : اني أتيت لأرى سبارتفنتو .

— انه هنا كان ينتظرك فقد عهد اليه بمهمة يكسب منها عشرة ريالات ولكنه بقي هنا كأنما كان يحدثه ..

— اسكتي ايتها العجوز وناديه ولدك .

ففتحت العجوز بابا يطل على سلم وقالت : ادخل يا سيدي .

فتردد التياري حين رأى السلم المظلم ثم استوثق من خنجره وصعد ذلك السلم بقدم ثابتة بينما كانت العجوز قد قرعت السقف بعصاها مرتين .

وقد انتهى من ذلك السلم الى غرفة لم يكن فيها غير سرير ومائدة عليها زجاجة وبضعة اقداح وكثير من السيوف المختلفة معلقة بالجدار وهناك رجل طويل القامة وقف حين دخول التياري فانحنى أمامه وقال : اني انا هو سبارتفنتو مستعد لخدمتك في ما تريد .

قال : يسرني ان أراك فقد وصلت شهرتك الي وعلمت انـك أمهر من طعن بالخنجر وضرب بالسيف .

— نعم فاني اقتل بضربة واحدة .

— ومن قال لك اني أريد القتل .

— إذن لماذا انت هنا فهل خدعتـك تلك العجوز الشمطاء ثم مشى الى الباب وهو مقطب الجبين .

فاستوقفه التياري وقال : قف واصغ الي .

فعاد الرجل ووقف أمامه فقال له التياري : نعم اني أتيت لأني محتاج اليك في قتل واحد من الناس فهل تفعل ما أريده منك ؟

— وأنت هل تعرف الأجرة التي اتقاضاها ؟

— لا أبالي بالأجرة فاني ادفع لك قدر مـــا تشاء بشرط ان لا تخطيء الرجل .

— ان اجرتي عن الرجل العادي عشرة ريالات .

— حسناً ولكن الرجل الذي أريد ان تقتله شديد هائل .

— واجرتي عن الرجل الموظف بالحكومة خمسون ريالا .

— ولكني قلت لك ...

— وشروطي ان النصف يدفع مقدماً .

فمد التياري يده الى جيبه فاخرج قبضة من الذهب ودفعها اليه وقال له: اتصغي الي الآن ؟

— تكلم .

— هل انت مستعد للقتل ؟

— كيف لا والقتل مهنتي .

— ولكني انذرك ان الرجل شديد قوي فيجدر بك ان تصحب بضعة من رجالك الاشداء .

— اني اكفي وحدي .
— لقد قلت لك ان الرجل شديد الخطر .
— ولكنه سيموت فيزول بموته كل خطر .
— ألم تخف منه ؟

فنظر اليه نظرة المندهل وقال : ماذا يفيد معنى الخوف ؟
— وإذا سألتك ان يكون ذلك في هذه الليلة .
— بل في هذه الساعة .
— اواثق من قتله ؟

— كيف لا اكون واثقاً من قتله وانت تدفع اجرتي فقل لي أين أجده .
— في جزيرة أوليفو .
— متى ؟

— الساعة العاشرة فتقتله وتعود في الساعة العاشرة ونصف الى كنيسة سانت مارك فرموز فتجد اربعة رجال واقفين قرب بابها وانا منهم فاعطيك ما تملأه به جيوبك من الذهب .

— حسناً فسأعود اليك في تلك الساعة والان عين لي المكان بالتدقيق .
— في بيت دندولو القديم اتعرفه ؟
— نعم اعرفه .

— وسيكون الرجل فيه مع رجل عجوز فتقتل الفتى افهمت ؟
— دون شك .

— كيف تصنع لتدخل الى المنزل او لتأتي به الى الحديقة ؟
— هذا شأن يتعلق بي!.
— إذن لقد تم الاتفاق والآن نستطيع الانصراف .

— اذهب آمناً وسأعود اليك في الساعة العاشرة ونصف بعد ان اقتله .

فالتف التياري بردائه وحاول الانصراف فاستوقفه اللص وقال له : لقد نسيت أمراً .

ـ ما هو ؟

ـ اسم هذا الرجل .

فارتعش التياري وقال : ماذا يفيدك اسمه ؟

ـ أحب ان اعرف اسم الذي اقتله لأضيفه الى قتلاي .

ـ إذن لا بد لك ان تعرف اسمه .

ـ ذلك لا بد منه أو لا اقتله .

ـ فاطرق التياري هنيهة مفكراً ثم قال : ان الرجل هائل كما قلت لك وقد فعل اموراً عظيمة فخرج من ابار وانتقم من كثيرين من اعدائه وهو يتولى قيادة جميع عصابات السهول والجبال .

ـ اسمه ؟

ـ احذر فانه امهر الطاعنين بالخنجر .

ـ اسمه ؟

ـ اعمل بنصحي واستصحب رجالك .

ـ اسمه ؟

ـ رولاند كانديانو .

ـ ماذا تقول ؟!

ـ رولاند كانديانو .

ـ احق ما تقول .. اتريد ان اقتل في هذه الليلة رولاند كانديانو

ـ نعم .

فذهب اللص الى المائدة التي كان قد وضع عليها الذهب فرده اليه وقال:

ـ خذ مالك .

ـ لماذا .. لماذا ؟

ـ لأني لا اقتل رولاند .

فقبض التياري على ذراعه بعنف وقال :

ويحك ايها الشقي اتريد ان أقبض عليك غداً وأزجك في اعمق السجن فاني اطلب اليك ان تقتله بأسم الحكومة .

ـ وأنا لا أعرف الحكومة واحذر من ان تنذرني الا تسمع اذين المياه في الترعة ان هذا الصوت قد يكون اذين الذين توعدونني فاني لا اغفر لمن يجسر على تهديدي وبعد فبماذا استحق الملام اني أرد لك مالك . هل سرقتك فقل ماذا تريد ؟

ـ أريد ان ابقي لك هذا المال ولا انذرك ولكن قل لي على الاقل لماذا لا تريد ان تقتل رولاند .

ولكن لماذا اسألك فان السبب ظاهر وهو انك خفت .

ـ وقد قال ذلك على رجاء أن يثير حماسته .

ـ انك لو اذعت ذلك لمـــا وجدت من يصدقك فقد قلت لك اني لا اعرف الخوف .

ـ بل انك ترتجف لمجرد اسم رولاند .

ـ ولو افترض صحة ذلك فانه جائز إذ لم يخطر لأحد أن يسيء رولاند حتى ندم الندم الشديد أما أنا فأني لا أخاف الموت الموت .

ـ إذن لماذا لا تريد قتله ألا تريد ان تتكلم ألا تعلم من أنا ؟

ـ انني أعرف بأنك القائد العام .

ـ وإذا كنت تعرفني فلماذا تعاندني ؟

ـ ولماذا لا اعاندك فاني لا أخافك بل اني استطيع أن القيك من هذه النافذة فأجعلك طعماً للاسماك ولكني ادعك تنصرف بأمان .

فاصفر وجه التياري واصطكت اسنانه ولكنه لم يقل كلمة لخوفه من العاقبة .

أما اللص فانه اندفع في حديثه فقال :

— ان السبب في اني لا أريد قتل رولاند فهو اني سفاك ولكني لست من الجواسيس ولكل امرىء مهنة اشتهر فيها فاني أخدم اولئك الذين لا يعرفون ان يقاتلوا مقابل أجرة اتقاضاها ولكن لا شأن لي بأعمال الحكومة فانه يوجد في فينيسيا دوج ومجلس عشرة وديوان تفتيش ورئيس بوليس وجيش منظم فعليهم ان يقبضوا على رولاند إذا كان من المتمردين أما كونه متمرداً عاصياً فاني لا أعد ذلك له ذنباً يجب ان يقتل له بل اني أعد عصيانه واجباً مقدساً ولا اتكلم بلساني بل بألسنة جميع جمهور الشعب ما خلا النبلاء فقد قال لهم رولاند أنه سينقذهم من نيركم وهو فاعل ما يقول ولذلك يرى الشعب وأنا منهم ان هذا العصيان لا بد منه فاذا قتله كما تريد أكون قد خنت ذلك الشعب بجملته وما أنا من الخائنين .

فكبر وقع هذا الكلام على التياري وعلم يقيناً أنه لا سبيل إلى اقناعه فخرج من ذلك المنزل وهو يعثر بأذياله وبلغ الى قصره في الساعة التاسعة .

وبعد ذلك بساعة جاءه الضباط الثلاثة الذين وعدهم على اللقاء وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر والغدارات وكلهم مخلصون للقائد العام أشد الاخلاص إذ كانوا من رجال المؤامرة فقالوا له : لقد اتينا حسب أمرك فالى اين تريد ان تبعث بنا ؟

قال : اصغوا الي فأن اليوم العظيم قد دنا والفوز مضمون لنا فاننا قد تأهبنا لكل طارىء وعرف كل منكم مهمته فلم يبق لدينا غير حائل واحد يجب إزالته في هذه الليلة فانكم تعرفون دون شك ان رولاند كانديانو في فينيسيا .

فقال أحدهم : أهو هذا الحائل ؟

وقال آخر : يقال ان جميع البحارة وعامة الشعب متأهبون للثورة انقاذاً له .

وقال آخر : بل ان جميع النساء لا يتحدثون إلا به .

فقال أولهم : هو ذاك ولكنه لا ينتصر له واحد من النبلاء أو القواد أو الجنود فماذا يفيده البحارة والشيالون والنساء ؟

فقال له التياري : لقد اخطأت فقد يكون وضع خطة لا نعرفها .

ـ لا سبيل لنجاح هذه لأننا سنستولي على فينيسيا في اقرب حين .

ـ هذا الذي أرجوه لكن يجب ان نتوقع كل أمر ونتأهب لكل طارىء فان لدينا في ذلك اليوم العظيم ما يشغلنا عن كبح جماح الثائرين فلذلك رأيت ان نقتل رولاند .

ـ لنقتله .

* * *

٧١

اللقاء ايضاً

ولنتقدم التياري ورجاله إلى منزل الجزيرة فان رولاند صعد في الساعة التاسعة ونصف الى غرفة أبيه فوجده مضطجعاً على كرسي طويل فوقف هنيهة أمامه ثم لمس كتفه فانتبه الشيخ وقال : ماذا يريدون مني ؟

فقال : هذا أنا رولاند يا أبي وقد أتيت اليك الآن لأنهم قد يهاجمون المنزل هذه الليلة فلا بد لي من اخراجك منه فتعال معي .

وعند ذلك لفه برداء وأخذه بيده فقال له : الى اين يذهبون بي ؟

قال : لقد قلت لك يا أبي انك لا تستطيع الاقامة هذه الليلة في المنزل .

ـ من يدعونني بأبيه ؟ فارتعش رولاند وقال : أنا هو .. أنا ابنك رولاند .. الا تذكر يا أبي !

فاطرق الشيخ برأسه وسار مع رولاند كأنه لم يسمع شيئاً .

فتنهد رولاند وسار به الى حيث كان ينتظره سكالابرينو والخادم العجوز فأشار اليهما ان يتبعاه وساروا جميعهم الى تلك الشجرة الكبرى التي يذكر القراء ان الخادم فيليب قد جعل كهفاً في جزعها يلجأ اليه في زمن الثورات فتعاون معهما على انزال ابيه الى الكهف وأقام فيليب عنده ثم عاد مع سكالابرينو الى المنزل فقال رولاند : اني أريد أن أعلم الآن الى أي حد يبلغ جينارو من حدود الجبانة .

ويذكر القراء ان رئيس البوليس اجتمع في صباح ذلك اليوم برولاند فقال له بعد انتهاء المداولة : اين أجدك إذا احتجت اليك فأجابه في بيت الجزيرة حيث أكون وحدي مع أبي كما تقدم في الفصل السابق .

ولذلك كان يتوقع رولاند أن يهاجموه في هذه الليلة فخبأ أباه في الكهف.

وكان رولاند قد أخبر سكالابرينو بجميع ما جرى بينه وبين رئيس البوليس وقال له : لا حاجة الى إزعاج رفاقنا فاني وإياك نكفي المهاجمين .

فقال له سكالابرينو : انهم لا يستطيعون الوصول الينا إلا من طريق واحدة وهو طريق الكنيسة وسأكمن لهم هناك فاذا رأيتهم كثيرين لا أدعنك تقاومهم وحدك .

قال : اذهب فاني منتظرك .

فانصرف سكالابرينو واطفأ رولاند المصباح فاقام ينتظر وهو مطرق يفكر .

ولا ندري بماذا كان يفتكر أبذلك الموقف الذي كان يخاطر فيه بحياته أم برئيس البوليس الذي ملك قياده ثم عاد الى خيانته ام بجان مدسيس وساندريجو وبمبو وكريماني وأمباريا وجميع اولئك الذين قتلهم أم تمثلت له بيانكا التي ماتت شهيدة العفاف وجوليا التي ذهبت ضحية الاخلاص أم كان يفكر باولئك الذين يريد الانتقام منهم وهم دندولو وفوسكا والتياري أم

تمثلت له ليونور في تلك الساعة وهي لم تبرح ضميره منذ عرفها الى اليوم .
أنه كان يفكر بواحدة من هذه الأمور ولعله كان يفكر بها كلها فقد مرت به كل حوادث حياته في تلك الساعة منذ ليلة خطبته الى الآن .

وفيما هو على ذلك جاء سكالابرينو وقال : لقد اتوا .
فقال له رولاند : كم يبلغ عددهم ؟
— اربعة .
— أرأيت معهم جينارو ؟
— كلا ولكني رأيت انهم ليسوا من الجواسيس العاديين .
— كيف ذلك ؟
— اعني انهم يلابس الضباط .
فوجم رولاند هنيهة لأنه لم يكن يتوقع حضور ضباط ثم قال: ربما كانوا غير قادمين الى هنا .
وعند ذلك سمع وقع خطواتهم في الحديقة فاسرع رولاند وهمس في أذن سكالابرينو بضع كلمات فأجابه بصوت منخفض قائلاً : لقد فهمت .

وقام الاثنان فوقف كل منهما عند أحد مصراعي الباب وقد جرد رولاند خنجره وتسلح سكالابرينو بكرسي ضخم من خشب السنديان الغليظ .

أما القادمون فكانوا التياري ورفاقه وقد خرجوا من القصر كما تقدم فركبوا زورقاً الى الجزيرة فقال أحد الضباط :
— اذا كان كانديانو وحده كما قيل لك فان واحداً منا يكفي فهز التياري رأسه وقال : ان المنزل متسع وكان يجب أن نكون اكثر من أربعة .
— ولكن ليس منا من يعرف هذا المنزل .

— أنا أعرفه وذلك يكفي فاعلموا الآن اننا سندخل الى الحديقة وندنو من المنزل وهناك قاعة كبيرة للطعام يجب ان ندخل منها الى المنزل دون ان يسمع لنا حس.

ـ ولكننا سوف نضطر الى كسر الباب .

ـ كلا ان لدي مفتاحه فقد اتفق لي اني كنت سيد هذا المنزل .

وقد قال هذا القول بلهجة دلت على انه يتميز غيظاً فذكر الضباط الثلاثة ان ليونور امرأة قائدهم كانت تقيم في هذا المنزل وانها كانت خطيبة رولاند فعلموا انهم لا يخدمون المؤامرة بقدومهم بل انهم يخدمون اغراض قائدهم الشخصية .

غير انهم كانوا شديدي الاخلاص له فامتثلوا وساروا ساكتين فكان يقول في نفسه : لا شك أنه وحده ولولا ذلك لهاجمونا .

ثم خطر له خاطر فجائي وهو ان جينارو قد يكون منخدعاً وان رولاند قد لا يكون في المنزل فأسرع الى فتح الباب دون تحسب وقال لرفاقه بصوت منخفض : سيروا الى اليسار .

فتقدم اثنان من الضباط وقد جردا خنجريهما بينما كان التياري يقفل الباب الذي فتحه فتقدما من باب القاعة ففتحاه ودخلا .

ولكنهما لم يلبثا ان تجاوزا العتبة حتى صاحا صيحة تدل على النزع وخرج عند ذلك رولاند وسكالابرينو وكادت كرسي سكالابرينو تفلق رأس التياري ولكن رولاند استوقفه قائلا : ان هذا الرجل لي فهلم من الخوف أما الضابط الذي كان معه فانه رمى بخنجره الى الارض وقال : أني اسلم نفسي فحبسه سكالابرينو في إحدى الغرف .

اما رولاند فانه نظر الى التياري نظرة كهربته وقال له : تعال .

فتبعه التياري واضاء سكالابرينو مصباحاً ودخل في أثره فقال له رولاند :

ـ دعنا الآن وحدنا .

ـ مولاي ؟

ـ قلت لك دعنا وحدنا ولا تدخل الا حين أدعوك .

فخرج ممتثلا وجلس التياري على كرسي وقد بدت عليه علائم الاضطراب الشديد على وجهه .

أما رولاند فانه اقفل باب القاعة وعاد الى التياري فقال له : انك قادم لقتلي اليس كذلك ؟

قال : نعم وقد عادت اليه شجاعته بعد خوفه من تلك المفاجأة فقال : نعم اني قادم لقتلك فان كلا منا يبحث عن رفيقه منذ عهد بعيد .

— ولكني لم ابحث عنك يا التياري ولو أردت البحث عنك لظفرت بك من عهد طويل كما ظفرت بصديقك بمبو وامباريا حليفتك بالاثم ولكن ما زلت قد لقيتك الآن فلا بأس من ان اقول شيئاً من افكاري .

— إذن لنوضح افكارنا قبل ان نقتتل فانك لا تجد اشهى من قتلي وأنا لا أجد أشهى من أن اخطف روحك .

— لا حاجة الى الايضاح يا التياري فاني اريد ان اقول لك ما افتكر به .

— قل .

— أتذكر يا التياري ليلة خطبتي ؟

فهز رأسه وقال : كلا لا أذكر .

— اما انا فاني اذكرها فقد دنوت مني في تلك الليلة فصافحتني وقلت لي بلهجة المخلصين « اهنئك يا رولاند وارجو ان تكون سعيداً » .

نعم انك قلت لي هذا القول وبعد نصف ساعة القيتني في اعمق السجون.

نعم انك قلت لي هذا القول وقد حفظت كلماتك عدة اعوام وأنا فيها ابحث عن اصلك فايقنت انك لا يمكن ان تكون من رجال السيف إذ لو كنت منهم لتخلصت من عدوك بالسيف وليس بالخيانة .

فتبين الغضب في وجه التياري ومضى رولاند في حديثه فقال :

— اصغ الي بسكينة كي احدثك فلقد قلت لك انك لست جنديا كما هي

عليه ملابسك وقد خطر لي حيناً انك من اولئك اللصوص الذين يكمنون في الطرقات فوجدت انك لست منهم ايضاً إذ لو كنت منهم لكنت طعنتني غيلة وقتلتني غدراً ولكنك لم تجسر الى ان خطر لي انك جاسوس ولكني رأيت ايضاً انك احـط من الجواسيس اذ كنت تستطيع ان تقبض علي ولكنك لم تعمل بل صافحتني وهنأتني وانت تضمر لي الموت .

— ويح لك أيها الشقي ان هذه الاهانة ستكون آخر ما تقوله .

وعند ذلك وثب يريد الهجوم على رولاند ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند انقض عليه بسرعة وقبض على يديه وأعاده ذليلاً الى مجلسه .

ثم تركه وقال له : لقد سألتك أن تسمعني بسكينة وسأوجز في كلامي لك فلقد قلت لك انك لست جنديا ولا لصاً ولا جاسوساً أما وقـد رأيتك تريد مهاجمتي بأربعة رجال فقد عرفت الآن من أنت .. التياري من زمرة الجبناء الأدنياء.

فاهتز التياري في مجلسه ولكنه لم يجسر على معاودة الهجوم فقال له : انك أنت الجبان ما زلت تقول لي هذا القول والقوة في جانبك .

— اننا وحدنا في هذه القاعة وما القوة إلا في جانبـك فان خنجرك في يدك أما خنجري فقد تركته مغمداً في صدر قائدك .

وقد قال هذا القول وكتف ذراعيه .

أما التياري فانه وقف والخنجر مجرد بيده وقد برقت عيناه ببارق هائل من الحقد ورفع يده فلم يبق بين رولاند وبين الموت غير لحظة .

ولكن رولاند لم يجزع ولبث واقفاً في مكانه يبتسم ابتسام الاحتقار .

فألقى التياري خنجره الى الارض بعنف فقال له رولاند بلهجة الساخر المتهكم .

— لقد كنت اعلم يقيناً انك لا تجسر على قتلي لخوفك .

قال : كذبت .

قال : بل انك خفت فقد قلت في نفسك اني إذا قتلته قتلني رفيقه وهذا كل ما أريد ان أقوله لك يا التياري وهو انك لست جباناً فقط بـــل لو صورت النذالة والجبن لمـا تمثلنا إلا برسمك ولذلك اعاملك معاملة الجبناء الأنذال الذين يأنف الشجاع من قتلهم فاذهب يا التياري فقد عفوت عنك .

قال : ان ذلك سيكلفك كثيراً .

— انه لا يكلفني شيئاً ما زلت جباناً فانك لا تجسر على لقائي وإذ كنت في طليعة جيش لأنك تخافني ولأنك جبان فاذهب فاني لا اكترث لـك في المستقبل كما اني لم اكترث لك في الماضي لأنك جبان .

وعند ذلك ذهب الى الباب ففتحه وكان سكالابرينو ينتظر فقال له : دع هذا الرجل ينصرف ولا تسوء اليه بشيء ولا تتدان الى صفعه لأنه جبان فدعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فان التياري انين الموجع وجعل العرق البارد يسيل من وجهه وقـــد اضطربت أعصابه لما لقيه من الخذل وسار حتى وصـل الى جثتي القائدين وتراجع منذعراً .

فقال رولاند : ارأيت يا سكالابرينو كيف انه لم يجسر ان يقترب من ضابطيه فقد كانا وحشين مفترسين ولكنهما لم يكونا جبانين .. ارأيت مقدار جبنه فانه لا يجسر أن يرى الأموات لشدة خوفه من الموت .. ولكن ماذا ينتظر ولماذا لا يذهب وقد عفوت عنه ؟

فزأر التياري زئير الوحوش ووثب من فوق الجثتين وبعد هنيهة كان في الحديقة وقد شيعه رولاند الى الباب فلما خرج منه قال رولاند : لا تقفـل الباب يا سكالابرينو بل دع جميع الأبواب مفتوحة فلا يجب الاحتياط مع الجبناء .. دعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فجعل التياري يركض وهو يذوب من الخجل ويقول في نفسه : نعم نعم اني لا شك جبان .

٧٢

قرار دندولو

منذ ذلك اليوم الذي احضر ارتين صورة رولاند الى ليونور كان دندولو مضطرب النفس قلق البال حزين النفس اذ شعر بأن بنته قد انفصلت عنه كل الانفصال وانها لا تزال تحب رولاند حباً لا يؤثر عليه كرور الأيام .

وقد ذهب رجاؤه وزالت مطامعه فبات يخاف الاقامة في فينيسيا ولم يعد يخطر له الا ان يقضي ما بقي له من الحياة في منزل بعيد عن الناس ينسى فيه ماضيه وبنته وكل شيء في الوجود .

وقد كان قرب ذلك اليوم العظيم يروعه حين يبيت التياري دوجاً وتنتقل بنته الى سراي الدوج فقد كان يظن في البدء ان ابنته تتفق مع التياري ولكن بعد ما رآه منها في حادثة الصورة ايقن ان الاتفاق محال وعول على الفرار قبل ان تستتب السلطة لالتياري وينتقم منه . .

ولقد كان هيأ اسباب الفرار وهو موقن ان ابنته تكرهه ولكنه عول أن يراها مرة ايضاً وهو يقول في نفسه ربما عادت الي متى علمت هـــذه التفاصيل فلما اجتمع بها قال لها : هل تمنعت يا ابنتي بما اقترحته عليك منذ بضعة أيام ؟

قالت : أي اقتراح تعني ؟

ــ أن نبرح فينيسيا معاً الى أي بلد شئتيه .

ــ لقد أجبتك يا أبي في ذلك الحين .

ــ نعم لقد أجبتني جواباً يدل على عدم الاشفاق فان اصرارك على البقاء بعد اصراري علي الذهاب يدل على ان ليس لي بنت .

ومع ذلك فقد يكون ذنبي اقل مما تحسبين فان هذا الخطأ ما أوحاه الي غير حبي اياك .

— لا شك عند يا أبي فيما تقول ولولا ذلك لما كنت تراني .

— ليس هذا كل الذي أريد أن أقوله فاعلمي أن رولاند كانديانو إذا كان قد نجا أخيراً فأنا الذي انقذته .

فوقفت ليونور وقد اصفر وجهها وقالت : ما هذا الأسم الذي ذكرته يا أبي ؟

— هو الاسم الذي يردد قلبك ذكره في كل لحظة ومع ذلك يجب ان تصغي الي لأني لا أريد ان تلعنني ابنتي بعد موتي .

— كلا يا أبي لا العنك .

— هو ذاك وقد تصفحين عني ايضاً ولكنك تلبثين على اعتقادك باني لم اقم بواجباتي ولذلك لا أجد بـــداً من قول الحقيقة بجملتها تبرئة لنفسي ولراحتي .

— إذا كان ذلك لا بد منه لراحتك فقل .

— أعلمي قبل كل شيء أن رولاند لم ينج عشر مرات إلا بفضل رئيس ديوان التفتيش أي بفضل أبيك اتعرفين ذلك ؟

— كلا اني لم أكن أعرفه .

— واعلمي ايضاً أنه قبل نجاة رولاند كان أحد الجواسيس عارفاً بمكانه فذهبت به الى ليدو وقتلته كي لا يبوح بهذا السر لأحد .

— فارتعشت ليونور ولم تجب فقال لها : اعلم يقيناً انك لا تعتبرين عملي غير اصلاح خطأ جاء بعد فوات أوانه ولكن اصغي الي ايضـاً فاني محدثك بما جرى في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة فاسمعي .

فخفق قلب ليونور خفوقاً شديداً وحاولت ان تهرب ولكنها ذكرت ما قاله لها ابوها فانه أشار بيده الى صورة رولاند وقال لها : اتعلمين اين كانت هذه الصورة قبل ان تصل اليك ؟

قالت : نعم يا أبي في قصر المحظية امباريا .

ـ ألم تسألني كيف اتفق وجود هذه الصورة هناك ؟
ـ أية فائدة من معرفة ذلك ؟

ـ اني مخبرك به فاعلمي ان المحظية دعت المصور تقياني الى صنعها نقلاً عن ذاكرته وهذه الصورة تمهد لي سبيل ما أريد قوله لك فقد رأيتها قبل الآن في قصر المحظية .
ـ انت ؟

ـ نعم فاذكري ان رولاند جاءنا ليلة الخطبة حسب عـــادته في بيت الجزيرة وكنت واياه في الحديقة .
ـ بالله يا أبي لا تعد الى هذه التذكارات .

ـ اني لا أقول لك غير ما يجب قوله فاني كنت تلك الليلة من اسعد الناس ولكن هذا الهناء كان آخر هناء عرفته وا أسفاه .

فبينما أنا واقف في الترعة وقد بلغت الساعة الحادية عشرة ونصف سمعت وقع خطوات في الحديقة فحسبت انـــك أنت عائدة ولكنني نظرت من النافذة فاذا القادم التيادي .

نعم لقد كان التياري وما كنت أحب هذا الرجل وكنت أعلم انـه لا يحبني فاستأت لحضوره ومع ذلك لم يسعني إلا أن أترحب به .

فدخل ورأيت وجهه مضطرباً وعيناه تتوقدان فقال لي : اني أتيت لأكلمك في شأن خطير .

قلت له : اني مصغ اليك .
قال : لا استطيع ان أكلمك هنا .
قلت : اين تريد ؟
ـ تعال معي الى قرب كنيسة سانت مارك .
ـ في هذه الساعة ؟

— بل في الساعة الاولى بعد انتصاف الليل وإذا لم تحضر ساءت العاقبة وكان الخطر شديداً .

فوعدته بالحضور وأنا لا أعلم شيئاً مما يريد فودعني وانصرف .

وقد رأيته وقف في الحديقة وجعل يرتجف ثم انصرف وهو يسرع السير .

ولقد عجبت لهذه الزيارة ولهذا الموعد وانذرني قلبي بحدوث مصاب فلما رجعت من الحديقة بعد ان شيعت خطيبك سألتني عن السبب في اضطرابي وقلت لك انه اضطراب سرور .

قالت : نعم اذكر ذلك واذكر ايضاً اني قلت لك باني اتوقع حدوث نكبة وأسفاه.

قال : نعم يا ابنتي وتذكرين ايضاً اننا قمنا نتحدث الى بعد انتصاف الليل بنصف ساعة فدخلت الى غرفتك وذهبت أنا إلى سانت مارك فلقيت التياري ينتظرني .

وهناك شكرني لحضوري فقلت له : لماذا أردت ان تكلمني هنا وليس في منزلي ؟

فقطب حاجبيه وقال لي : ذلك لأني لا أطيق الاقامة في منزلك فاني اشعر فيه اني أصبح كالمجانين .

قلت : اني لا أفهم ما تقول .

فغير الحديث وقال لي : موعد لقائي في هذه الجهة لا أدري إذا كنت اذهب اليه فان ذلك منوط بك .

قلت : تكلم .

قال : هل تقرر زواج بنتك برولاند ؟

— دون شك وانت تعرف ذلك حق العرفان .

— الا يوجد ما يمنع هذا الزواج ؟

ـ كلا فان من كان بمنزلنا لا يخل بعهوده .
ـ وإذا قلت ان هذا الزواج لا يتم عقده ؟
ـ أرى انك تهينني يا التياري .
ـ كلا ولكني اسألك إذا كنت تريد استعمال سلطتك بمنع هذا الزواج .
ـ ولماذا ؟
ـ لا تسألني عن الاسباب بل اجبني .
ـ اذن اجيبك بالرفض البات .
ـ وعلى ذلك فستعقد خطبتها غداً .
ـ دون شك .

فسكت مطرقاً ولم يخطر لي في تلك الساعة انه يحبك بل حسبت انهم يريدون تزويج ابن الدوج بسواك لمآرب سياسية فلما سألني التياري عن قولي الأخير اجبته قائلاً : اني اعتبر الالحاح في هذا الموضوع اهانة لي .

فتركني عند ذلك مغضباً وانصرف فقفوت أثره ورأيته دخل الى قصر المحظية امباريا واقفل الباب بعد دخوله .

ولا أدري ما الذي دفعني الى تعقبه وادراك حقيقة مقصده فاني دنوت من ذلك الباب وطرقته ففتح لي أحد الخدم وقال لي : ادخل ايها السيد فوسكاري فانهم لا ينتظرون سواك .

وكان وشاحي يغطي جانباً من وجهي فحسبني ذلك الخادم فوسكاري الذي كان رئيس ديوان التفتيش في ذلك العهد .

وقد حاولت ان أقول له بأني لست فوسكاري ولكني تقت الى معرفة هذه الغرائب ورأيت ان في هذا الاجتماع سراً أحببت الوقوف عليه فادخلني الخادم الى غرفة متسعة وقال لي : افتح باب الوسط فاني لا يحق لي ان اتجاوز هذا الباب .

ثم تركني في تلك القاعة التي لم يكن فيها سواي فتجاسرت على الدنو من

ذلك الباب الذي دلني عليه الخادم ولكنني علمت ان التياري قد دخل من هذا الباب فاردت ان أقف على سر هـذا الاجتماع ودنوت من ذلك الباب فسمعت صوتاً يشبه صوت النزع .

وكان هذا الصوت صادراً من غرفة مجاورة فذعرت ودنوت من ذلـك الباب ففتحته برفق ورأيت منه امرأة ورجلين .

اما المرأة فكانت امباريا المحظية وأما الرجلان فكانا التياري وبمبو ذلك الماكر الذي أصبح كردينالاً .

والآن فاسمعي يا ليونور مـــا كانوا يتحدثون به فقد قال بمبو يخاطب امباريا .

ان الوشاية مكتوبة لا يبقى غير التوقيع عليها وأنا اتعهد بايصالها الى موضعها .

فأجابه التياري قائلاً : نعم انك مصيب بما ارتأيته يا بمبو .. نعم انه هو القـــاتل .. نعم هو الذي يجب ان يتهم ويحكم عليه بما يحكم به على القاتلين .

أما امباريا فانها أجابته قائـــلة : ولكن مجلس العشرة يدعونني اليه لسؤالي .

فقال لها التياري : أني أحد اعضاء هذا المجلس كما تعلمين وسأمنعه عن أن يدعوك فوقعي على الوشاية دون خوف فاعترض بمبو قائلاً : بل يجب أن تذهب الى مجلس العشرة كي تسحق شهادتها هـــذا الرجل فـلا تقوم له قائمة بعد .

وكأنما المحظية تأثرت من لهجة بمبو أو كبرت عليها هذه الجناية فقالت :

— وإذا أبيت ان اوقع على الوشاية وأشهد على الجناية ؟

فاجابها بمبو: اذاً نذهب نحن الى مجلس العشرة ونشهد بما نعرفه إذ لا بد

للجلاد من قطع رأس فاختاري بين أن يكون رأسك أو رأس الذي تريد أن تشي به .

فوجف قلب المرأة وأخذت القلم بيد ترتجف فوقعت على الوشاية .

وقد علمت انهم يشون على رجل منكود ولكن الحقيقة الهائلة لم تخطر في بال .

ولما رأيت بمبو وضع الوشاية في جيبه علمت أن امباريا قد قتلت رجلا وانهم يريدون اتهام سواها بـه فتراجعت بينما كان الثلاثة يتحدثون بصوت منخفض حتى وصلت الى منتصف القاعة .

وهناك سمعت ذلك الصوت صوت النزع صادراً من غرفة علي يساري فدنوت من تلك الغرفة وفتحت بابها فرأيت رجلاً صريعاً على الأرض والدم يتدفق من صدره فدنوت منه ونظرت اليه فاذا هو دافيليا أحـد أعضاء مجلس العشرة .

وعند ذلك فتح عينيه فقلت له : اتسمعني يا دافيليا ؟

قال : نعم.

قلت : من الذي طعنك ؟

— هي :

— امباريا؟

— نعم وسأموت .

— اتعلم ماذا يجري هنا يا دافيليا .. أأنت مصغ الي ؟

— تكلم .

— انهم يحاولون اتهام رجل منكود بقتلك وقد سمعت حديثهم .

— من الذي يتهمونه ؟

— لا اعلم .

— كلا ان هذا لا يكون ..

وسأذهب بنفسي الى مجلس العشرة .

— حسناً تفعل فهل استطيع ان افيدك الآن بشيء ؟

— كلا .

— اذن سأخبر اهلك :

— لماذا ؟

— لأن الريب يخامرها فتجهز علي فاذهب قبل ان تراك .

— استودعك الله .

— أسرع أسرع بالذهاب .

فخرجت من ذلك القصر الجهنمي وأنا شبه المجانين فعدت الى منزلي .. وفي اليوم التالي ...

فقالت له ليونور : وفي اليوم التالي ذهبت المحظية الى مجلس العشرة فشهدت ان رولاند القاتل ولكن دافيليا لم يحضر .

— بل حضر ولكنه مات قبل أن يستطيع اظهار الحقيقة .

وساد السكوت هنيهة بين الأب وبنته ثم نهضت ليونور ومشت ببطء الى صورة رولاند وقالت : رولاند لماذا تأخر أبي الى الآن عن اخباري بهذه الحقيقة الهائلة ؟

فقال لها أبوها : ليونور ليونور ان حزنك كان عظيما فلم استطع ان ازيده بمثل هذه الإنباء وانا لم اخبرك بها الآن الا لأن قلبي يحدثني بأننا سنفترق فراق الأبد .

ولكن ليونور لم تسمعه فأتمت حديثها مع الصورة فقالت : رولاند اني لو عرفت هذه الحقيقة من قبل لانتقمت لك من زمن طويل ولكن ثق ايها الحبيب اني سانتقم لك واقسم لك ان هذا الرجل الذي اتسمى الآن باسمه لا يموت الا من يدي .

وعند ذلك عادت الى كرسيها وغطت وجهها بيدها فناداها ابوها

فأشارت له انها مصغية فقال : الا تجيبين رجائي يا ليونور وتبرحين معي هذه المدينة التي لا ترى فيها غير الاشباح الدموية ؟

— كلا يا أبي .

— اني أتوسل اليك فتعالي معي ولنهرب .

— كيف ذلك ألم تسمع قسميوان التياري يموت من يدي إلا إذا أخبره أحد بمصيره فهرب من انتقامي .

فاصفر وجه دندولو وأيقن ان اقناعها محال فتراجع قانطاً وهو يقول : استودعك الله ثم خرج من تلك الغرفة ذليلا خجلا قانطاً من بنته لاسيما بعد ان أهانته وأظهرت له أنهـــا تخاف أن يشي بها الى زوجها ويحذره من انتقامها .

ولم يعد يخطر له في تلك الساعة غير الفرار فذهب الى غرفته فأحرق كل مـا كان لديه من الاوراق التي يخشى عليها ثم اتشح بردائه وخرج من ذلك المنزل خروج اللصوص .

ولما وصل الى الرصيف التفت الى نافـذة ليونور وقال : استودعك الله يا ابنتي .

وفي تلك اللحظة اطفىء نور الغرفة الذي كان ينبعث من تلك النافذة فكان شبه جواب لهذا الوداع .

فسار دندولو حزين النفس منقبض الصدر الى الشاطىء ولكنـه لم يسر خطوة حتى ابصر رجلاً قد تصدى له وهو ملتف بردائه فلم ير وجهه وقال له من أنت ؟

فأجابه الرجل قائلا : لقد سرني انك لم تعرفني .

— ماذا تريد مني ؟

— أريد ان أقول لك كلمة بالسر ولكني لا أقول لك شيئاً هنا مخافة الرقباء فهل تريد أن تتبعني ؟

— لكن ما تريد .

فسار الرجل وتبعه دندولو وهو غير مكترث لأمره ولكنه استاء لتأخر سفره .

وما زالا يسيران حتى اقتربا من منزل ارتين وهناك شارع ضيق مقفر فدخل الرجل اليـــه ثم وقف والتفت الى دندولو فقال : الديك خنجرك يا دندولو ؟

فأجابه بعظمة : انه لا يفارقني .

قال : حسناً فلو لم يكن معك خنجرك لاعطيتك خنجراً إذ لدي اثنان.

وعند ذلك نزع رداءه فالقاه الى الارض فقال له دندولو : أراك تقترح علي مبارزتك ؟

— هو ذاك .

— ولكني لا ابارز رجلاً لا أعرفه .

— اذن اضطر الى قتلك كيف اتفق فخير لك ان تدافع عن نفسك .

والآن لا بد لي أن اوضح لك السبب في هذا القتل .

— اني مصغ اليك .

— اتعلم يا دندولو اننا اليوم في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني . انك تعد هذا القول من سقط المتاع ولا تكترث له ولكن تعـلم خطورته حين تعلم انه بعد يومين يبدأ شهر شباط .

فارتعش دندولو ارتعاشاً ظاهراً فقال له الرجل :

— أرى انك فهمت فلا حاجة الى اخبارك بما سيجري في هـــذا اليوم الرهيب ولكن لا بـد لي تذكيرك بأنك واقف على جميع أسرارنا وانك أردت الخروج من جمعيتنا فقررتا بالاجماع قتلك وقتل ابنتك .

— ليونور ؟

— نعم وقد تعينت انا لقتلك فاقمت اراقب خروجك خمسة عشر يوماً

ويجب عليك ان تشكرني لأني اقترحت عليك مبارزة شريفة في حين اني كنت قادراً على اغتيالك .

ـ نعم اشكرك ولكنني لا أرى وجوباً لهذه المبارزة فاني كنت استحق القتل لو كنت جديراً بالخيانة .

ـ ان المرء ضعيف بالطبع يا دندولو فقد يتفق حدوث حوادث تدعوك الى الاباحة بما تعلم .

ـ لو كنت أريد خيانتكم لخنتكم من عهد بعيد .

ـ ولكن لا يزال لدينا يومان وفي ذلك وقت فسيح .

ـ اني مغادر فيفيسيا الآن .

ـ ولكن رسولك يستطيع أن يبلغها بعد ساعة فان حياة ألف رجل معلقة بحياتك وفي كل حال فقد تلقيت الأمر بقتلك ولا يسعني العصيان وقد انفت من قتلك اغتيالاً فاقترحت عليك المبارزة .

فايقن دندولو من لهجته ان لا سبيل معه الى الجدال وانه لم يبق عليه إلا أن يدافع عن نفسه .

وكذلك الرجل فانه تأهب للقتال وبعد هنيهة انقض كل من الفريقين على خصمه بخنجره فكان قتالاً هائلاً دام خمس دقائق اسفر عن سقوط دندولو صريعاً .

فأكب الرجل عليه وفحص جرحه فقال : انه لا يعيش اكثر من ربع ساعة .

ثم التف بردائه وتوارى عن الانظار .

٧٣

رسالة ارتين

كان ارتين قد دخل في هذه الليلة الى منزله في الساعة الثامنة وعليه علائم الاستياء فانه كان قد دعي الى مأدبة فلما ذهب اليها قيل له انها تأجلت الى موعد آخر .

وكان قد رأى من أهالي فينيسيا ما لم يره من قبل فان علائم الاضطراب كانت بادية في جميع الوجوه وأكثر الناس يجتمعون عصابات ويتحدثون بأصوات منخفضة .

فعاد إلى منزله وهو مضطرب البال وتمشى وحده وهو يقول في نفسه : ترى ماذا حدث في فينيسيا أو ماذا عسى يحدث فاني أرى سكون القوم يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة فاذا استمرت الحال على هذا المنوال حرمت فينيسيا من وجودي وذهبت .. ولكن الى اين أذهب .. اذهب الى روما والكاردينال روسبولي جلدني فيها بالسياط أم اذهب إلى باريس وولي العهد حاقد علي لأني هجوته فهو يشنقني لا محالة .

قبح أولئك العظماء الذين يغضبهم هجاء الشعراء الا يعلمون ان الشعراء يهيمون كل واد وان الاشراف ما زالت تهجى وتمدح .

ولكن الى اين اذهب فاني لم أعد أطيق الاقامة في هذه البلد وفيما هو على ذلك جاءه أحد خدمه فقال له : يوجد على الباب رجل جريح يريد ان يكلمك وهو من أهل الجاه كما يظهر من حديثه وملابسه .

ـ ألعلك رأيته ؟

ـ نعم قد سمعت أنينه تحت النافذة فذهبت اليه ووجدته في حالة النزع فطلب الي أن أحمله اليك .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ لا أعرفه .

ـ اذهب إذن وجئني به .

ـ لقد فعلت يا سيدي .

ـ كيف تفعل ايها الابله دون أمري أحسبت بيتي مستشفى وبعد فأين وضعته ؟

ـ في أحد غرف الدور الاول وأرسلت من يدعوا طبيباً .

ـ حسناً فعلت وها أنا ذاهب اليه .

وذهب ارتين إلى الجريح فلما رآه صاح صيحة انذهال وقال : هو دندولو الذي بعثه صورة رولاند وعند ذلك فتح الجريح عينيه فقال له ارتـــين : تشجع يا سيدي فان الطبيب سيحضر قريباً فينقذك .

فأشار اليه دندولو ان يدنو منه فقال له : ماذا تريد اتستطيع الكلام ؟

قال : لا حاجة الى الطبيب فاني سأموت .

وعند ذلك دخل الطبيب ففحص الجرح وتبين ارتين من عيني الطبيب حالة اليأس .

أما دندولو فانه سأل الطبيب بصوت خافت قائلا : اني موقن بقرب الموت ..

ولكن قل لي متى أموت ؟

ـ قال : توكل على الله يا سيدي .

ـ بل تكلم ولا تخف فلا أخشى الموت .

ـ أتريد ؟

ـ ذلك لا بد منه .

ـ إذن فاعلم ان الموت يكون حين اخراج الخنجر من صدرك ولكن ليس بأكيد فثق بالله .

ـ لقد فهمت فهل تستطيع أن تعطيني مقويا وقتيا يعينني على الكلام ؟

ـ ذلك سهل .

وقد أخرج لفوره زجاجة صغيرة من حقيبته وافرغها في فم الجريح فلم يكد الشراب يستقر في جوفه حتى شعر بانه انتعش فقال للطبيب : اشكرك وأرجوا أن تنصرف الآن .

فامتثل الطبيب وشيعه ارتين الى الباب فقال له : ماذا ترى ؟

قال : انه يعيش ساعة ايضاً إذا بقي الخنجر في صدره وإذا أخرج يموت للفور .

ـ ألا يمكن انقاذه ؟

ـ كلا واأسفاه .

فعاد ارتين الى الجريح وقال له : اطمئن يا سيدي فان الطبيب يرجو لك الشفاء .

فقال له دندولو : اني اعرف حقيقة أمري فاسرع الى مجاوبتي عما اسألك عنه باتم الجلاء فان الأوان يفوت بعد نصف ساعة .

قال : سل يا سيدي ما تشاء .

قال . لقد قلت لي حين زرتني ان رولاند من اصدقائك .

ـ هو ذاك .

ـ إذن استطيع أن أعهد اليك بمهمة سرية اليه .

ـ دون شك فانه يزورني في أكثر الأحيان .

ـ أريد أن أعطيك كتابا اليه .

ـ وأنا اتعهد بتسليمه اياه .

ـ وسأملي عليك الكتاب فتكتبه بخطك .

ـ كما تريد

ـ اقسم لي أنك تنسى كل ما أمليه عليك .

ـ اقسم .

ـ اذن اكتب .

فاحضر ارتين معدات الكتابة واملى عليه دندولو ما يأتي :

« رولاند .

« اني على وشك الموت فقد أصبت بطعنة خنجر لا سبيل الى النجاة منها فكل ما أقوله لك حقيقة لا ريب فيها فان القادمين الى لقـــاء ربهم لا يكذبون .

« رولاند اني جبان وقد حملني ضعفي على ارتكاب جريمة كانت شراً عليك .

« ولو كنت وحدك الذي شقيت بسبب هذه الجريمة لتعزيت ولكن أباك وأمك قد أصيبا بها وكذلك ابنتي قد عوقبت بذنب سواهـا واليك بيان الحقيقة .

فقاطعه ارتين الشاعر وقد غار على صناعة الانشاء وقال له : الا ترى ان الاملاء ركيك ؟

قال : اني استحلفك بشرفك ان لا تغير كلمة من هذا الكتاب ثم عاد الى الاملاء فقال :

« رولاند ان ابنتي جديرة بك وقـد ضحت نفسها واقدمت على ما لا يقدم .

« وذلك انك كنت في السجن فتوعدني التياري بالدمار وبالقتل وبالتهم إذا لم اطعه فاضطررت الى الامتثال له لأني جبان .

« وقد قلت لليونور مرة انك هربت من فينيسيا وتخليت عنها وسلوت

« حبها ثم قلت لها مرة ثانية انك مت وأخيراً قلت لها انني في أشد مواقف
« الاخطار وانه لا ينقذني من هذا الخطر غير زواجها بالتياري .

« فوافقت ليونور على ان تدعى باسم التياري ولكنها لم توافق على غير
« ذلك اي انها تكون امرأته بالاسم ليس الا فهي تحمل اسمه ولكنها
ليست امرأته .

« وما زالت على ذلك إلى الآن فانها حين اعتقدت انك مت مات كل
« رجاء في قلبها ووفت بعهدك بعد الموت ولما علمت انك حي عادت الى
« عبادتك فهي هي على وفائها في الحياة وفي الموت .

« هذا ما أريد ان أقوله لك قبل ان تدركني الوفاة ولا أدري ايقدر
« لكما ان تلتقيا ام حكم عليكما بالفراق الابدي وهو ما ارجحه فان هذه
« الحوادث التي ستجري ستكون شؤما على ابنتي .

« وكل ما اطلبه اليك في هذه الساعة الاخيرة ان لا تسيء ظنك بليونور
« بل قدس اسمها في قلبك فانها ضحية ضعفي وشهيدة الوفاء استودعك الله
« يا رولاند .. الوداع يا ليونور .. اني سأوقع على هذه الرسالة وأموت ».

وعند ذلك أخذ القلم تمن يد ارتين وكتب اسمه في ذيل الرسالة .

وبعد ذلك وضع يده على الخنجر المغمد في صدره وجذبه برفق فلم تمض هنيهة حتى فاضت روحه وردد النفس الأخير .

فكبر موته على الشاعر ارتين وقال في نفسه : ويح لي ما اعظم شقائي فهذه جثة ثانية في منزلي لا أدري ماذا اصنع بها وأخاف ان أكره على السفر بها كما فعلت بجثة بيانكا .

وعند ذلك خطر له ان يبحث في جيوب الفقيد علّه يجد وصية كتبها قبل موته فلم يطل بحثه وظفر بورقة مطوية كانت في جيبه ففتحها وقرأ فيها ما يأتي .

« انا دندولو كاتب هذه السطور عزمت على مغادرة فينيسيا ولي اعداء كثيرون أخاف ان يفتك بي أحد منهم على الطريق .

« فاذا حدث وقتلت التمس ممن يطلع على هذه الوصية أن يعمل بشروطها وهي :

١ ان يخبر بموتي ابنتي ليونور المقيمة في فينيسيا في قصر زوجها التياري القائد العام ويتلطف جهده بأخبارها .

٢ ان تحمل جثتي الى فينيسيا وتدفن في تربة ابائي .

٣ ان يذهب الى ملانو وهنـاك يذهب الى آخر منزل في شارع سانتو فينزل إلى القبو وينزع أول بلاطة في الصف الاول من جهة الباب فيجد هناك صندوقاً ».

فتنحنح ارتين ومسح عينيه وقال ، العلي اقرأ خطأ فلاقرأ بسكينة .

« وهذا الصندوق يحتوي على خمسين الف ريال والف دينار وحجارة كريمة يبلغ قيمتها خمسين الف ريال » .

فكاد ارتين يغمى عليه وصاح صيحة فرح عظيمة فتراكض اليـه الخدم ولكنه انتهرهم وطردهم اقبح طرد فتراكضوا من وجهه منذعرين .

وبعد ان اقفل الباب في اثرهم عاد الى الوصية وقرأ ما يأتي :

« ان هذه الوصية إذا عثر بها نبيل أو شاعر أو رجل من أهل الفنون الجميلة فلا اهينه بعرض مكافأة عليه .

« وإذا لقيها لص وكان يحترم إرادة الأموات الأخيرة فليقنع بأربعة آلاف ريال .

« وإذا لقيها رجل فقير فاني اسمح له بخمسمائة ريال يستعين بها على حاله .

« ومهما كان الذي يظفر بهذه الوصية فاني التمس منه ان يقسم ما في الصندوق الى قسمين متساويين فيعطي قسما لرولاند وهو يكون أمـا في فينيسيا او في مغاور بيافا »

« والقسم الثاني لاينتي ليونور زوجة التياري القائد العام ».

الى هنا انتهت وصية دندولو فلما اتم ارتين تلاوتها نظر الى الجثة نظرة المؤنب وجعل يمشي في الغرفة وهو يحدث نفسه ويقول :

— اني لا استطيع أن أحسب نفسي من اللصوص فلا يحق لي ان اقبض اربعـــة آلاف ريال وأنا مضطر الى ان اعتبر نفسي شاعراً أي من الذين لا يجب ان يهانوا بعرض المكافأة عليهم .

ولكني اقبل هذه الاهانة ولو قبلت بها فكم تكون مكافأتي فانها لم تعين في الوصية .

ثم ضرب جبينه بيده فجأة وقال : اني أعد نفسي من الفقراء ومن عسى ان يكون افقر مني وأنا من الشعراء .

ولكنه وا أسفاه لم يجد على ذلك الفقير الا بخمسمائة ريال .. وحبذا لو كانت دنانير على الاقل » .

مسكين يا ارتين لا بـد لك من الاكتفاء بخمسمائة ريال .. ولكن لماذا المسكنة فاني اتمنى بهذه القيمة ان تمطر السماء منزلي جثثاً في كل يوم .

وقد تعزى ارتين بهذا الخاطر وخرج من غرفة الميت فلقي بيريتا وقال لها : لقد اصبت بمصيبة فادحة يا بيريتا فقد خسرت ثروة عظيمة .

وقد ترك الجثة في موضعها ودخل الى غرفته فجعل يفتكر بما يجب ان يصنعه فارتأى ان يخبر في البدء التياري بموت عمه ثم يهتم بدفنه إذا إذن له التياري ان يتولاه ثم يذهب الى ميلانو فيأتي بذلـك الصندوق العجيب ثم يأخذ منه خمسمائة ريال ويقسم البـاقي الى قسمين حسب الوصية ثم يذهب بكتاب دندولو الى رولاند .

وهنا لا بد لنا من الثناء على هذا الشاعر فانه لم يخطر له في بال ان يستأثر بما في الصندوق على شغفه بالمال وما ذلك الا لأنـه كان من فحول الشعراء أي من اولئـك الادباء الذين هذبت الآداب نفوسهم فما غرهم مال وما تدنسوا بنقيصه .

٧٤

الزوجة

وفي صباح اليوم التـالي لبس ملابس مقتمة وذهب لانفاذ وصية الميت وقد وضع كتاب دندولو الى رولاند في جيبه فجعل يقول في نفسه : ترى ايجب ان أخبر ليونور بما تضمنته رسالة ابيها إلى رولاند فان هـذه الانباء تفيدها ؟

ولكن من يعلم ما يكون بعد ان أصيبت هذه العائلة بذلك اليأس القاتل فقد يحدث اذا اطلعت على الرسالة أمور هائلة تنقض صواعقها على رأسي .

وبعد فان الميت لم يعهد الي بأن اطلعها على الرسالة بل سألني ان اسلمها إلى رولاند فلاحترم ارادة الميت .

وقبل ان يخرج من منزله دخل الى غرفة الميت كي يتحقق ان حوادث الأمس لم تكن حلماً فرأى دندولو ميتـاً كما تركه وذهب الى قصر التياري فتمكن بعد الجدال العنيف من الاذن له بمقابلة ليونور .

وكانت ليونور قد قضت ليلة هائلة فان ما أخبرها به ابوها عما فعـله التياري حول حزنها الى غضب وانتقام فقالت : ان التيار لا يموت الا من يدي ولم تقل هذا القول عن بادرة حدة بدرت منها بل انها كانت عازمة كل العزم على ذلك وهي تعلم يقيناً انها إذا قتلت زوجها كان قتله داعياً الى فراق الأبد فاذا بقي لها بقية رجاء ذهب هـذا الرجاء فان جميع أهل فينيسيا يعلمون انها لم تقتـل زوجها إلا للاقتراب من حبيبها رولاند من حبيبها رولاند كانديانو .

على ان هذه الفتاة كانت ترجو على قنوطها ان تعود الى ذلك الزمن القـــديم ولكنها لا تعلم كيف ترجو وعلى أي اساس تبنى هذا الرجاء فكان اليأس عظيما في قلبها إذ كانت تعتقد انها متى قتلت التياري لا بد لها ان تنتحر .

وقد تمكن منها فكر الانتحار ولذلك باتت تلك الليلة التي قتل فيها ابوها على أحر من الغضا فبينما كان ابوها يموت في منزل ارتين كانت هي تتأهب للموت ايضاً .

ولما جـاء ارتين وطلب مقابلتها امتنعت في البدء ثم أذنت له بالدخول حين ذكرت ان هذا الشاعر قد جاءها بصورة رولاند .

فدخل ارتين اليها وقال لها : اني قادم يا سيدتي بانباء لا بد من اخبارك بها ولذلك اغتفرت لنفسي خطأ الالحاح بمقابلتك فان هـذه الانباء خاصة بابيك الشهير .

وكان أرتين يتوقع ان تسأله الاسئلة الكثيرة ولكنها سكتت ولم تجب بشيء فقال لها : لقد رأيت اباك يا سيدتي امس في منزلي وقـــد جاء اليه دون ان يزيد أي انهم جاءوا به الي .

— جاءوا به اليك :

— نعم يا سيدتي وذلك يحملك على الظن انه جريح .

— أنه يدعوني اليه فهلم بنا .

— كلا يا سيدتي فتفضلي بالاصغاء الي فانه مصاب بجرح خطر قاتل .

— بل تريد ان تقول انه مات ؟

— هو ذاك يا سيدتي فقد حملوه الى منزلي وهو بحالة النزع فلم يستطع الا ان يعهد الي باخبارك والله يعلم ما ..

فمنعته من الكلام باشارة وقد اصفر وجههـا وذكرت ان دندولو ابوها وانها باتت وحيدة في هذا الوجود فشعرت بخوف عظيم لم تدرك سببه وهي

قادمة على الموت ونظرت الى ارتـــين وقالت له : لقد قلت ان ابي كان جريحاً .

— نعم لقد فاجأه احـــد اللصوص بطعنة خنجر تحت منزلي وسمعت صيحته فاسرعت لنجدته فوجدته ملقيـــاً على الأرض فحملته الى المنزل واسرعت باحضار الطبيب فلم يجده نفعاً وا اسفاه .

— اشكرك يا سيدي على كل ما صنعته .

— انني لم افعل غير واجباتي وليس هذا كل شيء فان الفقيد الكريم قد عهد الي بدفنه .

— كلا فان ذلك خاص بي .

— اذن يجب ان انقل الجثة الى هنا ؟

— بل انا اتولى هذه المهمة ايضاً فتفضل برافقتي الى منزلك .

فانحنى أمامها بملء الاحترام وهو قلق لسكوتها اذ كان موقنا بان النار تتأجج في صدرها .

وكانت ليونور تعتقد ان اباها قد قتل بيد التياري أو أحد رجـاله فلم يزدها ذلك حقداً على زوجها إذ لم يعد يحتمل المزيد وسارت مع ارتين الى الغرفة التي وضعت فيها جثة أبيها فتركها وحدها .

أما ليونور فانها دنت من أبيها فركعت أمامه وأخذت يده بين يديها .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل منه رجل والنار تتوهج في عينيه .

وذلك انه بينما كانت ليونور تدنو من جثة ابيها دخل رجل الى منزل ارتين وهو ملتف بردائه وقد لقي ارتين في صحن الدار فقبض على ذراعه وقال له : اين هذه المرأة التي دخلت بها ادعها الي في الحال .

فصاح به ارتين قائلا : ويحك هل انت من المجانين أم انـك تريد أمر خدمي فيطردونك بالسياط .

— ويح لك ايها الشقي اني اقتلك شر قتل إذ لم تمتثل .

ولكنك تقدم على أمر منكر ايها الرجل فان هذه السيدة التي هناك تم واجباً مقدساً ويجب عليك ان تخجل .

فلم يسمع الرجل مزيداً واسرع الى الغرفة التي أشار اليهـا ارتين ودفع بابها بعنف فدخل .

أما ليونور فانها التفتت ورأت أمامها زوجها التياري فقالت له : لقـد انتهى بك الأمر إلى ان تراقبني .

فلما رأى التياري جثة دندولو نزع قبعته وتراجع ببطء .

وكان قد رأى ليونور خرجت من القصر وهو يعلم ان رولاند في فينيسيا فايقن انها ذاهبة اليه أي انهـا تحاول الفرار فاقتفى اثرها ووصل حين دخولها .

أما ليونور فانها قالت له : ألعلك ات لتشق من موت ضحيتك ؟

فاجفل التياري وقال: ضحيتي .. اني أقسم لك بان لا علم لي بما حدث ولكن دندولو قد خان كثيرين من فينيسيا وكنت أكرهه لأني لم ألق منه غير السوء ولكنه كان أباك... كلا يا سيدتي لست أنا الذي قتلته فابحثي عن قاتله بين الذين خانهم كما خانك وخانني . وأنا الآن ذاهب فلو كنت عالماً الى اين كنت قادمة لما وافيتك .

وعند ذلك نظرت ليونور الى ذلك الخنجر الذي قتل به أبوهـا وكان لا يزال في يده.

ولكنها قبل أن تقبض عليه كان التياري قد انصرف فوقفت واجمـة وكلمات التياري ترن في أذنيها حيث قال :

— ان دندولو قـد خان كثيرين في فينيسيا فابحثي عن قاتله بين الذين خانوه .

فجعلت تقول في نفسها ترى أي رجل لقي من خيانة أبي مثل ما لقيه رولاند .

وقد ذعرت عند ذلك أو خطر لها ان رولاند قاتله وإذا كان ذلك فهل يحق لها أن تلومه.. كلا ولكن القدر قد وضع سداً عظيما بين هذين العاشقين الذين تحدثت بحبهما الركبان فلم يبق عليهـــا الا ان تحني رأسها صاغرة لهذا القدر .

وبعد هنيهة نقلت الجثة الى قصرها وعينت موعد الدفن في اليوم التالي أي في اليوم الاول من شهر شباط وأقامت تلك الليلة تحرسها .

وكان خاطر الانتحار قد تمكن منها فجلست أمام جثة أبيها وتاهت في مهامه التفكير .

وبعد زمن طويل التفتت فرأت رجلاً ينظر اليها وكان هـــذا الرجل زوجها .

فقال لها التياري : اني واقف هنا منذ ثلاث ساعات وأنت لا ترينني وكنت انتظر ان يقـــع نظرك علي .. نعم اني اذكر اتفاقنا وهو انك تكتمين سري وفي مقابل ذلك لا ادخل الى غرفتك ولا اكلمك ولكن يجب اليوم ان أكلمك لأن الذي سأقوله امر خطير ولا أدري اذا كنت استطيع الكلام بعد قليل .

قالت له : ماذا تريد أن تقول لي ؟

فارتعش التياري فرحاً إذ لم يجد في لهجتها ما يدل على غضب أو نفور فقال لها : بصوت متهدج اتريدين اذن الاصغاء الي ؟

قالت : انك ما زلت نقضت الاتفاق فاتلفه بجملته وتكلم فاني مصغية اليك .

ومما تجدر ملاحظته ان ليونور لم تكن تأذن له من قبل بمحادثتها لانه كان زوجها أما الآن فقد بات عدوها الذي عزمت على الانتقام منه بالقتل ولا بد من مقابلة الاعداء للوقوف على نياتهم فانها باتت تكرهه الآن فوق ما كانت تحتقره .

فقال لها التياري: اني أحببت ان أكلمك أمام الميت فان اباك الذي كنت اكرهه أعده الآن شاهداً مقدساً على ما أقوله وأني اقسم بهذا الميت على اني لا اقول لك غير الحقيقة فاسمعي ؟

انك تعلمين بأنه ستجري حوادث خطيرة فانك عالمة بمؤامرة الفينيسيين على الدوج فوسكاري وانهم يريدون أن أكون أنا خلفاً له .

وغداً بعد الظهر سأضع على رأسي تاج فينيسيا إذ لا شيء ينقذ فوسكاري الآن ولا يوجد من ينازعني السيادة .

فانت الآن في حالة تحسدك عليها الأميرات ولا يبعد أن يكون لك في وقت قريب لقب ملكة فاني أرجو ان يكون لي لقب ملك .

ولقد نظرت إلى ما حوالي ونظرت الى المستقبل فرأيت أن مجد الجمهورية ومصلحتها يقضيان بأن يكون الاتفاق تاماً بين الدوج والدوجة اتسمعين ما اقول يا سيدتي ؟

– اني مصغية اليك .

– وقد أتيت اسألك ماذا يكون نهجك حين تدخلين الى سراي الدوج الذي أقام فيها كثيرون من أجدادك .

– اني انهج نهج امرأة بيعت وأنت اشتريتها أي نهج عبـــدة تكره سيدها .

وقد كان يرجو أن يبهرها جلال الملك وان تكون قد ملت عيش العزلة والانفراد ولكنه رأى من جوابها وسكينتها ان عزيمتهـــا ثابتة لا تتزعزع فكظم غيظه وغير خطة حديثه فقال :

– انك ترفضين ذلك التاج الذي أعرضه عليك وتأبين أن تكوني تلك الدوجة التي تحسدها كثيرات من الأميرات الايطاليات فلادع الآن هـــذه الابحاث لأعود الى بحث آخر . اتعلمين يا سيدتي من الذي دبر هذه المؤامرة التي سينفجر بركانها بعد غد . أتعلمين لماذا يقتل رجل فينيسيا ويسفكون

دماءهم في ذلك اليوم ، ان كل ذلك من اجلك نعم اني انا الذي اعـــددت المؤامرة ولكن جميع تلك الدماء والدموع لا تسيل لا في سبيل انتصارك فقد خطر لي انك إذا ارتفعت الى العلى لا تتدانين الى خفض النظر وتنسين ذلك الماضي وخيل لي ان الأميرة ليونور سوف تنسى الحقد الذي كان كامناً في صدر مدام التيباري .

وانت ترين اني لم أخاطر بحياتي ولم اعمل هذه الاعوام الطويلة إلا من اجلك .

على أني سأرجع عن هذه المطامع ما زلت لا تريدين ان تكوني أميرة إذ لا فائدة لي بعد ذلك من منصب دوج .

فلم تجبه ليونور بكلمة ولبثت صامتة كأنها لم تسمع ذلك الحديث فهاج غضب التيباري ولكنه كبح جماح غضبه وقال . اسمعي ايضاً فاني اقترح عليك ان نبرح فينيسيا ونذهب الى حيث تشائين ونعيش كما تريدين فنسافر منذ الليلة وادع رفاقي الذين دفعتهم الى هذه المؤامرة أي كما اني كنت بطلاً في سبيلك أصبح جباناً في سبيلك ايضاً اتريدين . قولي أتقبلين ؟

ـ قل لي يا التيباري ألست أنت الذي وضعت وشاية امباريا في صندوق الوشايات .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انك سمعتني فيما اظن فان امباريا كتبت الى مجلس العشرة تقول ان رولاند كانديانو قتل جان دافيليا ألم تكن أنت الذي أملى عليها هـــذا الكتاب ؟

ـ كذب وافتراء فاني لا اتدانى الى مثل هذه النقيصة .

فمدت ليونور يدها الى جثة أبيها وقالت : الا تسمع يا أبي ما يقول بعد ان اقسم بحشتك انه يقول الحقيقة ثم التفتت الى التيباري وقالت : من منكم

الذي وضع الكتاب في صندوق الوشايات فقد كنتم تأتمرون على قتل رولاند وكنتم كثيرين ؟

— كذب وافتراء فاني لم أشر على امبريا بشيء ولم يوضع كتاب في صندوق الوشايات .

فقاطعته قائلة: التياري من الذي أراد الاجتماع بابي في ساحة سانت مارك بعد اجتماع المؤتمرين بقليل من منزل امباريا .

وهنا أخذت يد أبيها الميت وهزتها بعنف وقالت: تكلم يا ابي .. استفق من سبات موتك وأعد على التياري ما حدثتني به .

فذعر التياري ذعراً عظيما لانهم كانوا في ذلك العهد يخافون خوفاً شديداً من أرواح الأموات وقال بصوت مختنق : نعم نعم اني اعترف بان كل ما تقولينه حق فقد كنت خائناً أثيما ... نعم فاني في ليلة خطبتك كنت اسمع الناس مع بمبو يذكرون اسم رولاند وليونور فتقطع الغيرة قلبي. نعم أنا هو الذي أغرى المحظية على المتهم رولاند وأعد تلك الرسالة التي القيت في صندوق الوشايات . نعم انا هو يا ليونور ذلك الخائن الأثيم .

على انني لو اضطررت على فعل اكثر من ذلك لأفصلك عن رولاند لفعلت. واني سأفعل ما لا يخطر في بال بشر لتكوني لي بل اني أدخل الى جهنم النار واستعين بالبيسها كي لا تحول قوة في الوجود بيني وبينك .

وقد أهانني رولاند اهانة لا تحملها نفس أبية واضطررت الى المخاطرة بحياتي وسفك دماء الناس واثارة فينيسيا ولكني لم أفعل ذلك لنيل منصب الدوج بل للفوز برولاند وانتزاع قلبه من صدره لأنك تحبينه .

وقد هاج غضبه واتقدت عيناه ومشى الى ليونور :

ولكن لبثت واقفة في مكانها تنظر الى جثة أبيها كانها تستشهد على ما يقول .

أما التياري فانه ضم قبضتيه ورفع يده كانه يريد أن يسحقها فالتفتت

اليه عند ذلك وقالت له : أتم جرائمك واقتلني فانك إذا قتلتني تستريح ولا يبقى حولك من تغدر به .

فسقطت يد التياري وتراجع عنها خطوة وقد هاج غضبه فعمد الى الشتم القبيح واتهمها بكل ما يخجل المرأة ثم قال لها : أما انا فاني حر على الأقل فقد أحببتك ولا أزال أحبك بدون عقل وقد فعلت ما لم يكن يمكن فعله كي تكوني لي وأما انت فقد أحببت سواي ورضيت مع هذا الحب ان تسمي باسمي فاينا أفضل وأينا الخائن اجيبيني ايتها الشقية اجيبيني .

قالت : نعم أجيب وجوابي اني عفوت عنك .

— أنت .. أأنت تعفين عني ؟

— ألم تقل لي ان رولاند قد عفا عنك ويجب على كل امرأة ان تقتدي بالرجل الذي تحبه .

فقبض التياري على شعر رأسه حتى كاد ينتزعه وقال اقتلها ... ولكن كلا .. لا استطيع لاني لا أزال أحبها .

ثم برح تلك الغرفة وهو يقول : لعنتك السماء والارض فانك علة شقائي .

اما ليونور فانها سقطت على كرسي واهية القوى وهي تقول : انه لم يجسر على قتلي فلا بد إذن من ان اقتل نفسي .

وقد دل هذا القول على مبلغ يأس تلك المنكودة فانها لم تهج غضب التياري الا لتحمله على قتلها ولم تحاول قتله لأنها علمت ان رولاند عفا عنه ولذلك عزمت عزماً أكيداً على الانتحار بعد ان تدفن أباها .

وكان مدفن عائلة دندولو في الجزيرة وراء كنيسة فرموز ولا يبعد بيت الجزيرة عنه غير بضع خطوات فذهبت الى ذلك البيت وهي تعلم انه لرولاند فدخلت اليه وذهبت الى غرفتها القديمة فيه فلبست تلك الملابس التي كانت تلبسها ليلة خطبتها فان ملابس العزارى كانت في ذلك العهد عن ملابس

المتزوجات ولعلها كانت تريد ان تكون الظاهرة كما هي في الحقيقة بل ربما أرادت ان يعلم أهل فينيسيا انها إذا ماتت في غير منزل زوجها فذلك لانها لم تكن متزوجة بل كانت عذراء بل ربما كانت تريد ايضاً ان يعلم رولاند بعد موتها ان كبريائها منعها على ان تقول له :

ـ اني لا أزال وفية بعهدك واني لا أزال نقية عذراء .

وقد عزمت بعد تلك الليلة ان تنتحر بشرب السم وأقامت تلك الليلة أمام جثة أبيها .

* * *

وفي صباح اليوم التالي بعد ان حملت الجثة الى المدفن وذلك في صباح اليوم الأول من شهر شباط تفرق الناس وانصرف التيارى وضباطه فساد السكون الرهيب في قصر التيارى القائد العام .

٧٥

اليوم الاول من شهر شباط

ان هذه الحوادث التي سنقصها منحصرة في يوم واحد وهو اليوم الاول من شهر شباط الذي بات يوماً تاريخياً في فينيسيا .

ولا تجد مثلنا في قص حوادث ذلك اليوم الامثل ذلك الكيماوي الذي لا يعرف مواد الجسم إلا بعد تحليله والنظر في عناصره ثم يعود الى تركيب تلك العناصر وكذلك نحن لا بد لنا من بيان تلك المقدمات التي تؤدي كلها الى نتيجة ذلك اليوم .

ففي صباح اليوم الاول من شهر شباط كان جينارو رئيس البوليس

لا يزال ساهراً الى الساعة الخامسة من الصباح فانه قضى كل ليلته بالامعان والتفكير .

وقد وقف في النافذة وجعل ينظر منها الى فينيسيا والقمر لا يزال مشرقاً في سمائها وقد اصفر وجه النجوم لقرب بزوغ الفجر .

ولكن جينارو لم يفكر بهذه النجوم وقد اغلق النافذة وهو يقول : ان الهواء بارد ولكنه سيهب سخناً بعد بضع ساعات ويكون اليوم هائلاً .

وعند ذلك دخل الى غرفة كان فيها كثيراً من الملابس المختلفة يستعملها للتنكر فبالغ بالتنكر وابتسم ابتسام المعجب بنفسه وهو يقول : اني لا أكاد أعرف نفسي .

وقد تنكر بملابس الحجاب المقيمين في سراي الدوج وبرح منزله من باب خاص لا يخرج منه سواه .

وبعد هنيهة وصل الى جوار سراي الدوج فلقي فرقة واقفة هناك من الجند فاجتازها ودخل الى الدوج بفضل كلمة السر الذي لقنه اياها الدوج نفسه فكان يستطيع ان يدخل اليه متى شاء .

وقد لقي القاعة فارغة فجعل يناجي نفسه فيقول : هوذا اليوم العظيم التي تحتفل فيه فينيسيا بتزويج الدوج من الادرياتيك ولكن ترى من الذي سيكون الدوج التياري أم فوسكاري أم كانديانو ؟

على أنه مهما يكن المنتصر فان أعمالي سائرة على محور الفوز وكل من ينتصر من هؤلاء الثلاثة انتصرت معه فاذا فاز فوسكاري فهو لا بد له مني وفوق ذلك فقد وعدني وعداً اكيداً وسيكون أول ما يمضيه حين عودته إلى السراي أمر تعييني رئيساً لديوان التفتيش .

وأما التياري فقد خدمته أجل خدمة حين أخبرته أين يوجد كانديانو وهو لم ينجح ولكن ذلك لا ينقص قدر الخدمة وفوق ذلك فهو يعلم يقيناً اني واقف على سر المؤامرة واني استطيع عند الاقتضاء ان ابرهن له عن

ذلك فهو اذن يثق من اخلاصي ولا يبخل عني بهذا المنصب إذا فاز وقد بقي كانديانو فاني أطلعته على نيات فوسكاري وعلى ما يصنعه التياري ورفضت رفضاً باتاً ان اقبض عليه في حين ان ذلك كان من واجباتي فلا ريب عنده باخلاصي .

ونعم ان رولاند قال انـــه سيلغي منصب ديوان التفتيش ولكني استطيع اقناعه أنه لا بد لفينيسيا من هذا المنصب وهو من أهـــل العقل وسيحفل ببراهيني .

وخلاصة ما تقدم اني أخلصت لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وخلت كل واحد منهم وبات كل واحد منهم يعتقد اني من المخلصين في خدمته فليتنازعوا الملك وليقتتلوا عليه ما يشاؤون إذ لا بد لواحد ان يفوز ولا بد لي أن افوز الفوز العظيم فانهم والحق يقال لا يشتغلون لأنفسهم بقدر ما يشتغلون لي .

وقد جعل يضحك حتى سمع خطوات فوسكاري فانقطع عن الضحك ودخل الدوج فلقيه جالساً في قاعته .

ولم يعرفه الدوج في البدء حتى عرفه بنفسه فسأله قائلاً : لماذا هـــذا التنكر ؟

قال : لأني أبلغت التياري بأني غائب عن فينيسيا فـلا يجب أن يراني وبهذا اللباس استطيع أن أكون دائماً بجانبك .

ـ ولكن لماذا أبلغت التياري انك غائب عن فينيسيا ؟

ـ لأنهم إذا علموا بوجودي في فينيسيا قد يغيرون خطة المؤامرة لخوفهم مني وإذا علموا اني غائب يطمئنون ويبقون الخطة على نفسها .

فأعجب فوسكاري به وظهرت عليه علائم الاطمئنان فسأله قائلاً :

ألم تعلم شيئاً عن رولاند ؟

ـ كلا يا مولاي .

ـ اذن ليس هو في فينيسيا .

ـ اؤكد لكم انه لغاية امس لم يكن هنا . وقد قال هذا القول دون أن يكون كاذباً وسيعرف القراء لماذا .

ـ على ذلك لا يكون هناك الآن ؟

ـ من يعلم يا مولاي فان هذا الرجل عجيب في سرعة انتقاله فبينما نحسب انه في فينيسيا تجد انه في رومه يقتل امباريا وبينما هو في رومه يتصل بنا انه في مغاور بيافا يجري أموراً لا تعلمها وبينما نعتقد انه هناك قد تجده بعد ساعة في ليدو .

ـ وأي شأن له في ليدو ؟

ـ أظن أنه عالم بما سيحدث .

ـ كيف عرف ؟

ـ من يعلم فأني أقول ما أقوله على سبيل الظن والذي اظنه أنه إذا كان عارفاً بما سيحدث فلا بد له أن يحضر .

ـ وأية غاية له من الحضور ؟

ـ أنه يكره التيارى كرهاً لا حد له والذي اراه أنه يريـــد احباط مساعيه بحيث انه سيكون نصيرك اليوم بالرغم عنه .

ـ نعم ان ذلك معقول وانما يفعله كي يبقى له عدو واحد بدلاً من اثنين.

ـ هو ذاك .

ـ هل أتممت معداتك ؟

ـ نعم يا مولاي فان ساحة سانت مرك قد احتلتها الجنود بأمرك وجميع عمالي وجواسيسي في مراكزهم على جميع الطرقات التي يسير فيها الموكب وقد صدر اليهم الأمر بالالتفاف حولك كلما تقدمت بحيث انك حين تبلغ الرصيف تجد جميع جواسيس المدينة محيطين بك وكل واحد منهم مسلح بخنجر وغدارة .

ـ حسناً يا جينارو .

ـ وفوق ذلك فقد وزعنا كثيراً من المال على الشعب كي يهتفوا لك حين مرورك وأخذت فرقة من الجند فقسمتها الى فرق فرقتهـا في المدينة فاذا بلغت الساعة العاشرة ودق جرس سانت مارك زحفوا كلهم الى سراياك وهم يهتفون فيصلون اليها حين تصل .

ـ حسناً فعلت يا جينارو .

ـ أما الذي سيحدث في ليدو فقد خصصنا زورقاً جميلاً مزيناً لحملك الى سفينة الأميرال التي تجري الحفلة فيها .

وأنت تعلم يا مولاي انك إذا ذهبت إلى هذه السفينة بت أسير التياري لأن جنوده فيها ولكنك حين تصل الرصيف تشير الاشارة الخاصة بدلا من ان تركب الزورق فينقض المخلصون لك بخناجرهم على زعمـــاء المؤامرة المحيطين بك ويقتـــل كل منهم الزعيم الذي أمر بقتله وتطلق السفينتان الملاصقتان لسفينة الاميرال نيرانها على تلك السفينة بحيث يكون الفوز مضموناً فتعود الى سراياك فائزاً منتصراً وقد قتلت زعماء المؤتمرين على غرة وأرعبت قلوب الآخرين .

ـ حسناً فعلت يا جينارو فانتظرني لالبس ملابسي .

وكان جميع موظفي الحكومة قد اجتمعوا في السر وبينهم التيارى فعين رئيس التشريفات موقف كل منهم في الموكب وتجمهر الشعب في الخارج .

وبعد هنيهة فتح باب القاعـــة الكبرى وخرج منه فوسكاري بملابسه الرسمية وقد وضع التاج على رأسه وتقلد حسامه المرصعة قبضته باليواقيت واللآلىء ولبس ذلك الوشاح الكبير فكان يحمل ذيله الطويل اثنان من الخدم وقد دخل الى تلك القاعة العظيمة يتقدمه رئيس التشريفات ووراءه ستة من الحجاب فالدوج وستة حجاب من ورائه فأهل منزله وفي الختام أربعون جندياً .

فاحدقت به العيون كالنطاق ومشى الى وسط القاعة بملء الجلال فصاح التياري قائلاً : ليحيى الدوج .

فردد الجميع الهتاف وتنبه فوسكاري للهاتفين فرأى ان معظمهم كانوا ينظرون الى التياري .

وبدت عند ذلك التهنئات بينما كان التشريفاتي يعين لكل مكانه في مكانه في الموكب ما خلا التياري فقد أراد الدوج ان يكون بجانبه .

فلما تمت هذه المعدات دقت اجراس سانت مارك فكانت إشارة الي سير الموكب .

وخرج الموكب من السراي فكان جينارو أحد اللذين كان يحملان ذيل رداء الدوج فكان ينظر نظرات تشف عن القلق الى الشعب وفوسكاري والتياري :

وقد اجتاز الموكب نصف الطريق دون حادث حتى بلغ الى طريق ضيقة فتوقف عن المسير ورفعت القبعات جميعها عن الرؤوس واصفر وجه التياري وذلك ان موكباً آخر قد اعترضه مؤلف من الرهبان والكهنة ووراءهم نعش دندولو وليوفور في أثره .

حتى إذا مرة الجنازة نظر كل من فوسكاري والتياري الى خصمه وهو يقول : ترى على من يكون منا شؤم هذه الجنازة ؟

٧٦

رولاند كانديانو

في الليلة الأخيرة من شهر كانون الثاني كانت مغاور بيافا وضواحي المغارة السوداء متلألئة بأنوار المشاعل .

وحول هذه المشاعل جمهور من الناس يبلغ عددهم خمسمائة رجل وكلهم بملابس أهل الجبال .

وكل منهم قد اسند يده الى بندقيته ووضع غدارتين في حزامه وتقلد خنجراً .

وقد اجتمعوا بشكل هلال ووضعت أمامهم منصة عالية تشبه منبر الخطاب .

فصعد اليها رجل كانوا ينظرون اليه نظرات الاعجاب والحب فان هذا الرجل كان رولاند .

وكان رولاند يخطب فيهم فيقول : لقد اصبحتم الآن رجالاً لأنكم تعلمتم ان واجبات الرجال ليست قاصرة على حماية الضعيف بل على اضعاف القوى ايضاً .

إذ أية ضمانة لحماية الضعيف بوجود القوة فانها ما زالت موجودة فلا بد من توالي الثورات فخير طريقة لحماية الضعفاء ابادة الاقوياء .

وإذا قيل لكم ان الأقوياء قد تكون صدورهم عواطف رحمة وعدل كانوا كاذبين .

فان المرء لا يشتد خطره ويكثر شره إلا باشتداد قوته فالقوة هي مصدر الشر .

هذا الذي عرفتموه وصرتم به رجالاً ولذلك ارفض تلك السلطة التي أردتم ان تسلموني اياها .

فاذا أتيح لنا النصر اتولى الادارة العمومية ستة أشهر وأكون دوجـــا بالاسم لا بالفكر وأفرغ جهدي لتعليم شعب فينيسيا معنى الحرية الحقيقية فمتى عرفوا انهم لا يحتاجون في سعادتهم الى رؤساء ودعتهم وداع الأبد .

وهنا سكت رولاند ونحن لا نتولى نقـــد قوله بل ندعه الى القارىء ونكتفي برواية ما حدث .

ولا شك ان سامعيه كانوا يرتأون رأيه إذ لم يخطر لأحد أن يثنيه عن عن عزمه على تولي الرياسة ستة أشهر على ان المستقبل يخلف الظنون ولكن رولاند كان يقول ما قاله بملء الاخلاص .

وفي كل حال فان هذه الأقوال لم توحها اليه المبادىء الفلسية وحدها بل كان لليونور يد فيها .

وذلك ان حبها كان يتجسم في قلبه في كل يوم وهو في كل يوم يزيد قنوطاً من لقائها إذ لا يمكن ان تكون زوجته .

ومن هنا تولد يأسه ولم يعد يكترث للحياة إذ لم يجد نعيما فيها .

ووطد النفس إذا انتصر على تولي السلطة الى ان يتمكن من سحق قوة الظالمين ثم يذهب إلى حيث لا يعود .

هذا ما كان يفتكر به حين كان يخطب بالقول فلما نزل عن المنبر ذهب الى المغارة السوداء .

وهناك اجتمع الزعماء فعين لكل منهم المهمة الخاصة به في يوم أول شباط .

وتعين على كل منهم ان يسافر في الليلة نفسها الى فينيسيا برجاله فيذهبون اليها في طرق مختلفة ويجتمعون في مكان معين .

وكان قد أرسل منذ أسبوع الف رجل إلى فينيسيا بحيث بات عدد اولئك الذين كانوا من اللصوص الفي رجل .

وهذا عدد رجاله الذين سيحاربون غير انه كان له أضعاف هذا العدد في فينيسيا من البحارة والعمال والتجار الذين عملوا على نصرته بالسر وانتصروا ذلك اليوم العظيم .

وكان لرولاند الشعب ولالتياري الجند ولفوسكاري موظفو الحكومة .

ولما انتهت الجلسة في المغارة السوداء برح اللصوص الجبل وعزم رولاند على الذهاب الى فينيسيا فالتفت باحثاً بنظره عن رفيقه الامين .

فاسرع سكالابرينو اليه وقال له : هوذا أنا يا مولاي .
قال : إذن هلم بنا الى فينيسيا فقد آن الأوان .
فقال : اني أحب قبل ذلك ان اكلمك يا مولاي .
قال : ماذا؟
قال : صبراً الى ان ينصرف جميع إخواننا .

- ٧٧ -

الوداع الأخير

ولما انصرف الجميع قال له رولاند : تكلم الآن :
قال : مولاي اني أريد أن أودعك الوداع الأخير .
فارتعش رولاند وقال له : ماذا تعني ؟
– انك يا مولاي عينت لكل زعيم مهمة إلا أنا ..
ولكنك تبقى بجانبي فلا تفارقني وهذه هي مهمتك :
فأجابه بلهجة ملؤها الحنو قائلا : دعني اتمم حديثي يا مولاي فاني عينت لنفسي مهمة وأنا التمس منك ان لا تسألني عنها ولا بد لي لانفاذها من ان افارقك الآن .
فحدق رولاند به وقال : اتقسم لي يا سكالابريو انك لا تريد الانتحار .
فارتعش سكالابرينو ولم يجب فأخذ رولاند يده وقال له : أرى انك قد يأست من الحياة ايها الصديق .
قال : هل تجسر يا مولاي أن تقول بأنك لم تيأس منها انت ايضاً فقد كنت لصاً شقياً لا عاطفة لي ولا ضمير فجعلتني رجلاً وعلمتني أن أفتكر أي ان أشقى فلما عرفت بيانكا خلت ان أبواب النعيم قد فتحت لي وكان ذنبي الوحيد اني عودت نفسي على عبادتها .

أما الآن وقد عادت روحها الكريمة الى مبدأها فـلا أنكر عليك اني سأمت الحياة .

ولكن لا تظن اني أحاول الانتحار فقد علمتني ان الانتحار ضعف وفوق ذلك فان وجودي معك خير بلسم لجراحي وخير عزاء لي عمن فقدت فثق اني لا ابغي الانتحار ولكني نهجت لنفسي خطة اظن اني سألقي فيها الموت ولهذا أردت وداعك الوداع الأخير لاعتقادك أني سأموت .

— ما هذه الخطة التي نهجتها ؟

— التمس منك يا مولاي ان لا تسألني عنها .

فاطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال له : اتقسم بأن تعود الي إذا سلمت من الموت ؟

— اقسم لك على الامتثال والآن فاسمح لي أودعك فلا بد من ذهابي لأصل قبل فوات الأوان .

وعند ذلك تقدم لمصافحته وكانت المرة الاولى التي بدا فيها يمد يده الى رولاند .

ففتح رولاند ذراعه وعانقه عناقاً طويلاً وكلاهما يبكي لاعتقاده أنه الوداع الأخير ثم أفلت سكالابرينو منه وانطلق راكضاً كأنه لم يطق هذا الوداع .

أما رولاند فانه خرج من المغارة مطرقاً مفكراً فلقي رجلا ينتظر بجواد فامتطاه وسار به ينهب الأرض .

وأما سكالابرينو فانه كمن وراء صخرة الى ان خرج رولاند فجعل يتبعه بالنظر حتى توارى عن نظره فتنهد تنهداً طويلاً وذهب الى تلك الصخور التي دفنت تحتها ابنته بيانكا فجعل يطوف حولها وأقام مدة وهو ينظر الى تلك الأزهار النامية على ضريحها .

ثم ركع وجعل يقبل تلك الصخور والأزهار وهو يبكي بكاء اليما وبعد ذلك نهض فجأة وبرح ذلك المكان دون ان يجسر على الالتفات فوصل الى

فينيسيا في آخر كانون الثاني وذهب الى أحد فنادق ايدو فطلب زجاجة من الخمر وأقام ينتظر .

وفي الساعة التاسعة جاءه رجل بملابس البحارة فقال له : لقد جئت في الزمن المعين .

قال : نعم وانت هل احضرت المال ؟

فاعطاه سكالابرينو منطقة محشوة بالذهب فلمعت عينا البحار وقال له : حسناً فاتبعني .

فقام سكالابرينو في أثره وقال له : كيف يجب ان تفعل ؟

قال له : تعال معي وسوف ترى :

وقد سار البحار الى منزل وهناك اعطاه ثوبا من ملابس البحارة يوافق جسمه كان قد أعده له خاصة .

فلبسه سكابرينو وقال : متى يركب الجنود الزورق ؟

قال : عند الفجر .

قال : إذن كيف نصنع ؟

قال : لا تهتم بذلك وقل نفس ما اقوله أو لا تقل شيئاً و لآن هلم بنا قبل فوات الأوان .

وبرح الاثنان ذلك المنزل الى الشاطىء فركبا زورقاً وساروا به الى جهة سفن الحكومة .

وبعد ربع ساعة أشار البحار الى سفينة ضخمة وقال له : هـذه هي سفينة الأميرال .

فوضع سكالابرينو يده على كتفه وقال له : اقبل مني هذه النصيحة ايها الصديق وهي انك حين تصعد الى سفينة الأميرال ارجع منها الى البر ولا تعود اليها .

فضحك البحار وقال : اشكرك لهذه النصيحة فقد كنت عازماً على ان انصح بها نفسي وسأعمل بها دون شك لأني اتوقع حدوث ما سيكون .

وكان هذا البحار من جنود سفينة الأميرال فصعد بسكالابرينو وهو متنكر بملابس جنود البحارة الي السفينة وقال الاثنـــان كلمة المرور فلم يعترضهما أحد .

أما سكالابرينو فقد كان خدم مدة طويلة في إحـدى السفن الكبرى بحيث كان ابن الصناعة فذهب توأ الى الموقف الذي اختاره كأنه من بحارة تلك السفينة وكان رفيقه يتبعه فقال له وقد خلوا : اتأذن لي ايها الرفيق ان أعلم عما تنويه فهل انت ناقم على زعيم تريد قتله ؟

قال : هو ذاك فاني كنت بحاراً في إحدى بواخر الحكومة وقد عاقبني أحد ضباطها ظلماً عقاباً صارماً إذ جلدني بالسياط فعرفت الآن أنه في هذه السفينة ورأيت أن انتقم منه .

قال : حسناً تفعل ولكنهم إذا علموا بأني أنا الذي جئت بك شنقوني دون شك .

قال : لا تخف مني الافشاء وفوق ذلك فانك غني الآن بمـــا اعطيتك وستهرب .

قال : هو ذاك والآن استودعك الله وأرجو لك التوفيق فان ظلم هؤلاء الرؤساء لم يعد يطاق وعند ذلك تركه وعاد من السفينة الى زورقه فلما توسط البحر رأى سفينة كبيرة سائرة الى سفينة الأميرال .

* * *

أما سكالابرينو فقد أقام وحده يراقب فرأى بعد هنيهة تلـك السفينة الكبرى قد التصقت بسفينة الأميرال وصعد منها رجل فقال لأحد الضباط

بلهجة السيادة سر بي إلى غرفة الأميرال فتمعن الضابط بوجهه وعرف انه التياري القائد العام فاسرع الى الامتثال وذهب به الى الأميرال .

وقد خلا الاثنان ساعة وعند الفراق صافحه الأميرال وهو يقول : سأبدأ العمل قريباً .

ولما انصرف التياري جمع الأميرال ضباطه وأخبرهم بما يجب ان يفعلوه فاسرع الضباط الى ايقاظ البحارة واضطربت السفينة بهم فكانت الأوامر تنقل اليهم همساً .

ثم رفعت المراسي ومخرت السفينة العبـاب حتى بلغت إلى الشاطىء في الساعة الرابعة من الصباح دون ان تنتبه السفن الحربية اليها .

وهناك صعدت الجنود اليها ولم ينتهوا من ذلك إلا في الساعة الخامسة .

٧٨

الدوج القديم

لقد تقدم لنا القول ان موكب فوسكاري التقى بجنازة دندولو وان ليونور كانت تسير وراء الجنازة بملابس الحداد .

فبعد ان دفنت الجثة وتفرق الناس عادت ليونور الى قصر زوجها وهي تسمع هتاف الناس لالتياري فيشتد يأسها وتصح عزيمتها على الانتحار .

وهناك خرجت سراً من القصر وذهبت الى بيت الجزيرة فلقيت هناك خادمهم القديم فيليب وقد أسرع اليها وهو فرح بلقائها وقال لها : هذا انت يا سيدتي ؟

قالت : نعم فهل تريد أن تأتمني مفتاح غرفتي القديمة ؟

فدهش الخادم العجوز لقولها وقال : أأتمنك ؟

قالت : نعم فان المنزل لم يبق لنا كما تعلم .

فاضطرب الشيخ وقال : ولكنك تعلمين يا سيدتي ان المنزل لك مـا زال له .

ثم تركها مسرعاً وعاد بالمفتاح فأخذته ودخلت إلى غرفتها فوقف الشيخ يراقبها وهو يكاد يذوب حناناً عليها وقد رأى في عينيها من دلائل اليأس ما رابه فوقف يتمعن في أمره وهو لا يعلم إذا كان يحق له المداخلة في شأنها.

ولكن قلقه اشتد عليها حتى لم يعد يكترث للواجبات فأسرع راكضاً الى الأرزة الكبرى فأخرج من كهفها والد رولاند وجاء به الى قاعة الطعام فاقامه فيها وصعد الى غرفة ليونور فقرع باب الغرفة وهو يقول : هـــذا أنا يا سيدتي .

ففتحت ليونور الباب ولكنها اسرعت إلى إخفاء زجاجة في صدرهـا وقالت له برفق : ماذا تريد ؟

وكان قد رآها قد خبأت الزجاجة فارتعش وقال لها بصوت يتهدج : ماذا فعلت يا سيدتي ولماذا لبست ملابس العذارى ؟

قالت : أنه خاطر خطر لي فلا تقلق له .

قال : سيدتي لماذا خبأت زجاجة السم في صدرك ؟

فلم تجبه على سؤاله وقالت له أيضاً برفق : ماذا تريد ؟

قال : يوجد رجل في قاعة الطعام يريد أن يكلمك وهو رجـل شيخ نبيل كان يحبك من قبل كابنته .

ـ كأبنته ؟

ـ سيدتي اني في خدمة بيتكم النبيل منذ خمسين عاماً ومن خدم هذا العهد الطويل يستحق المكافأة وكل مـا آمله من المكافأة ان تقابلي هذا الرجل .

وقد بسط يديه شأن المتوسل وقـــد سالت دمعتان من عينيه فتأثرت ليونور لحنوه وقالت له : هلم بنا .

ولا ندري ما كان يرجو الخادم العجوز من هذه المقابلة ولعله رأى من الدوج القديم بارقة صواب فرأى ان يثنيها عن عزمها .

ونزل الاثنان حتى وصلا الى قاعة الطعام فلما رأت ليونور والد رولاند عرفته للفور وقالت : من هذا والد رولاند .. كلا اني لا أريد أن يراني .

ولكنها ذكرت للحال انه أعمى فدنت منه ووقفت أمامه وذكرت أيامها الماضية وما كانت تجده من حنو ذلك الشيخ ثم ذكرت تلك المصيبة الفادحة فجعلت تشهق بالبكاء .

وقد ارتعش الشيخ لبكائها وقال : من هذا الذي يبكي ؟

فركعت ليونور أمامه وأخذت يده بين يديها وقالت له بصوت مختنق : أنها فتاة قانطة منكودة لا تراها ولكنك رأيتها من قبل يا مولاي الدوج ألا تذكر ليونور دندولو يا مولاي وانك كنت ترتعش حنواً حين تقبل جبينها ألا تذكر ما قلته لها يوماً وهو ان هذه الفتاة خلقت لتكون سعيدة إذن فاعلم ان هذه الفتاة الشقية التي تبكي أمامك هي ليونور دندولو .

فقال لها : من هذا الذي يدعوني دوجاً .. أنا دوج .. ما هذا المزاح .

فلم تنتبه ليونور لهذا القول ومضت في حديثها فقالت : ابي انك لا تعلم المصيبة التي نكبتني فانهم إذا أعموا نظرك فقد أعموا نفسي واحرقوا قلبي ومنعوني أن أحب .

انك لا تعلم أي عذاب اقاسيه حين أحبه حبـــاً ليس وراءه حب وهو يحتقرني ولا استطيع ان أبرهن له باني جديرة به وان خطأي الوحيد انما كان لأني أردت أبي . مولاي الدوج اني غير مخطئة وقد عزمت على الموت ولكني قبل أن أموت أحب أظهر له براءتي .

فاصفر وجه الدوج وارتجفت يده وقال : من هـذا الذي يبكي .. من هذا الذي يتكلم بلهجة تقطع القلوب من الاشفاق .

— انها ليونور يا مولاي الدوج .. ليونور التي كنت تدعوهـــا بابنتك ألعلك نسيتها .. أتنساني وأنا أرجو أن تبارك لي البركة الأخيرة ذلك ان ليونور كانت تجهل انه مجنون فقال : ليونور .. ليونور دندولو نعم أذكر ان هذه الفتاة جميلة عاقلة .. نعم لا بـد أن أكون عرفتها .. أتقولي أن ليونور دندولو أصيبت بنكبة .

فصاحت صيحة يأس وقالت : اقول انها تبكي عند قدميك وأنها عازمة على الانتحار .. اقول ان الأرض والسماء ظالمتان لأنهما يعاقبـان البراءة ولأني أعاقب بذنب سواي .

قال : ليونور دندولو .. اصبري .. ألم تكن تأتي من عهد بعيـد الى قصر كائن على الشاطىء .. نعم قصر جميل كان يأتي اليـــه كثير من النبلاء .

— أنه قصرك يا مولاي .. رباه كيف لا ترسل صواعقك فتنقض على رؤوس اولئك الذين نكبونا بهذا المصاب.

وعند ذلك سمعت صوتاً أجش يقول من ورائها ، لقد فات الأوان ولم يبق سبيل للعقاب .

فالتفتت ليونور منذعرة فرأت التياري ولكنها لم تره بشكله المعروف فقد كان مصفر الوجه ممزق الملابس بارز العينين مضطرب الاعضاء فدنا من ليونور وقال لهـــا : انك تريدين ان تموتي فهلمي ولكنك ستكونين لي قبل الموت .

فتراجعت ليونور منذعرة واصطدمت بالدوج فضمها الى صدره فقالت له : نعم يا أبي أريد ان أموت ولكني لا أحب ان أخجل بموتي معه احمني يا مولاي ودافع عني . الي .. الي انقذوني من انياب هذا الوحش .

٧٩

انتصار فوسكاري

بعد أن مرت جنازة دندولو سار موكب فوسكاري الى رصيف ليدو فكان فوسكاري كل ما تقدم يشتد قلقه وذلك ان الناس كانوا يهتفون له في بدء السير فلما تقدم انقطعت اصواتهم وساد السكون من حوله.

ثم سمع هذا الهتاف قد استبدل فجعل الناس يهتفون للقائد العام ويدعونه منقذ الجمهورية بعد ان كانوا يهتفون لفوسكاري .

فالتفت إلى التياري الذي كان يسير بجانبه وقـــال له : يخال لي انهم يهتفون لك .

قال : ان الشعب يخطىء يا مولاي في بعض الأحيان .

فالتفت عند ذلك إلى جينارو وقال له همساً : ماذا تقول ؟

قال : اني اضمن الفوز الأكيد إذا حافظت للنهاية على السكينة .

— وماذا جرى للفرقتين الخاصتين بالتياري ؟

— انهما في سفينة الأميرال .

— ولكنهما قد تعودان ؟

— ذلك محال فان سفننا محاطة بسفينته .

— انك مسؤول عن ذلك .

— دون شك .

وبعد هنيهة وصل الموكب الى الرصيف فصاح فوسكاري صيحة غضب

ذلك انه رأى سفينة الأميرال ملاصقة للرصيف ورأى الفرقتين واقفين بأسلحتها على البر .

فدنا عند ذلك التياري منه وقال له بلهجة تدل على التهكم والثقة من الفوز : اننا أحببنا يا مولاي ان نوفر عليك مؤونة الذهاب الى سفينة الأميرال فجاءت سفينة الأميرال اليك .

فجرد فوسكاري خنجره وهو يقول : يا للخيانة يا للعار .

بينما كان فوسكاري يسير بموكبه الى رصيف ليدو كان كلما تقدم الموكب الى محطة تحتل عصابة تلك المحطة التي برحها كأنها تحاول أن تقطع عليه خط الرجعة إلى سراي الدوج .

وكانت هذه العصابات مؤلفة من رجال لا يعرفونهم في فينيسيا وهم مدرعون بدروع خفية تحت ملابسهم وقد لبسوا في رؤوسهم خوذاً صفراء .

وكانوا مدججين بالسلاح فكان أشد هذه العصابات أقربها الى سراي الدوج ولا يتجاوز قدر رجال العصابة خمسين رجلاً ما خلا ثلاثاً كانت تؤلف الواحدة منها من مائة رجل .

وقد أتت فجأة عصابة من ثلاثمائة رجل وهجمت على سراي الدوج فانتصرت على الجنود التي بقيت لحراستها واستولت على السراي .

وللفور دخل خمسة منهم الى قاعة مجلس العشرة وجلسوا على كراسيه وذهب ثلاثة آخرون الى قاعة الجلسات السرية وقد جرى كل ذلك بسرعة وجرأة نادرتين وذلك لأن هذه العصابات كانت موطدة نفسها على الموت .

ثم ان هذه الخطة كانت قد درست درساً مدققاً فلقيت هذا الفوز العجيب وهذه العصابات كانت لرولاند كانديانو .

أما خطته فقد كانت على أتم البساطة وهو أنه يدع فوسكاري والتياري يشتبكان بالقتال في ليدو فيضعفان أو يبيد أحدهما الآخر .

ومتى عاد الغالب منهما الى سراي الدوج يعود ضعيفاً منحط القوى فيهجم عليه رولاند برجاله ويفوز عليه لا محالة مهما بلغت قوته .

وكان رولاند قد جعل يطوف في المدينة يصحبه خمسة من رجاله وقد لبس تلك الملابس التي كان يلبسها في عهد أبيه حين كان دوجاً وقد برز وجهه للناس فعرفته في البدء إحدى النساء فصاحت قائلة أيها الناس هوذا رولاند كانديانو قد عاد اليكم لينقذكم من المظالم .

فلم تكن غير لحظة حتى اجتمع الناس من حوله وجعل يهتفون هتافاً بلـــغ عنان السماء فيقولون ليحيى رولاند كانديانو .. ليحيى رولاند القوي .

وبعد ربع ساعة كان خبر قدومه قد ملأ فينيسيا فازدحمت الجماهير من حوله وكلهم يهتفون له ويدنون منه كأنه ولي من أولياء الله يريدون أن يتبركوا به .

وعند ذلك سمع دوي البنادق من ليدو فان القتال كان قـد نشب بين فوسكاري والتياري ودقت أجراس الكنائس وأسرع نحو مائة رجـل الى رولاند فحملوه ووضعوه في مكان مرتفع فصاحت النساء قائـلة تكلم .. تكلم وصاح الرجال قائلين انقذنا .. انقذنا .

فأشار بيده إشارة سكت لها الجميع فقال لهم بصوت جهوري: اتريدون الحرية .. أم الاستعباد ؟

فصاحوا قائلين : الحرية الحرية .

قال : أتريدون ان تجعلوني حارساً لحريتكم ؟

فصاحوا قائلين : نعم نعم نريد رولاند القوي .. رولاند دوج الشعب .

فأشار رولاند إشارة مفادها أنه رضي بما يرضاه الشعب .

وكان هذا كل خطابه فيهم فنزل عن ذلك المكان المرتفع وقد عقد اتفاقاً بينه وبين الشعب وزحف الى سراي الدوج .

* * *

والآن فاعلموا ما جرى في سفينة الأميرال ان سكالابرينو حين صعد اليها كان البحارة نياماً ولم يكن ساهراً فيها غير الأميرال وبعض الضباط .

فبعد أن برح التياري السفينة نزل سكالابرينو الى العنبر وهناك أخرج مصباحاً صغيراً من جيبه الكبير فأناره وجعل يبحث في عنبر تلك السفينة المتسع .

وبعد ذلك سمع من فوق رأسه وقع خطوات مستعجلة فصبر وجعل يصغي وهو آمن مطمئن إذ لا شأن لأحد في العنبر فسمع انهم يرفعون المراسي وسمعوا اصواتاً تقول الى البر .

وكان في هذا العنبر غرفة مقفلة تستعمل مستودعاً للبارود فصبر الى ان سارت السفينة وشغل بحارتها بسيرها فأخرج خنجره وكسر به قفل ذلك الباب ودخل الى الغرفة فرأى نحو خمسين برميلاً من البارود وضع بعضها بجانب بعض ففتح ثقباً بأحد هذه البراميل فتدفق منه البارود .

وعند ذلك أخرج من جيبه فتيلاً خاصاً يبلغ طوله مترين فوضع أحد طرفيه في ثقب البرميل وأمسك الطرف الآخر وقال في نفسه : اني وعدت رولاند ان لا اقتل نفسي ونار الفتيل لا تصل الى البارود قبل دقيقتين وعند ذلك جلس القرفصاء وأقام ينتظر .

* * *

وكان على هذه الحالة والمصباح بيده معداً لأحراق الفتيل وهو يصغي حتى سمع اصواتاً تقول : الى البر . إلى البر .

فاشعل الفتيل بنور المصباح وصعد الى ظهر السفينة بملء الاطمئنان بينما كان فوسكاري يقول : يا للخيانة يا للعار .

وقد قال فوسكاري هذا القول وجرد خنجره فكان أول ما فعله انه هجم على جينارو مدير البوليس وطعنه به .

فسقط جينارو على الأرض وهو يقول : لقـــد قتلت دون أن يبدي حراكاً .

ولكن لو دنا أحد منه في تلك الساعة واصغى الى حديثه لسمعه يقول : لقد حسبت ايها الأبله انك قتلتني ولكني قد نجوت منك بفضل هذا الدرع ولرآه ينظر خلسة الى ما يجري حوله .

أما التياري ورجاله فانهم جردوا خناجرهم حين رأوا مـــا كان من فوسكاري مستنجداً بالنواب قائـلاً : الي فانهم يريدون قتل الشريعة وإبادة الحرية .

فأجابه التياري قائلاً : بل انهم يريدون قتلك إذا امتنعت عن التسليم .

فنظر فوسكاري الى ما حواليه فرأى ان المؤتمرين قد اشتبكوا بالقتال مع جنود فوسكاري ودوى رصاص البنادق من الجانبين فأشار التياري الى جنـــود الفرقتين الكائنتين في سفينة الأميرال وصاح بهم قائلاً : انزلوا الى البر .

فتجمعت الجنود لقوله واندفعوا الى الجسور الخشبية التي وضعت بـين السفينة والشاطىء .

وعند ذلك سمع دوي هائل ارتج له الفضاء وفتحت سفينة الأميرال كما تفتح فوهة البركان وتصاعـد عمود طويل من النار والدخان ثم تساقطت النيران تساقط الامطار وتطايرت بقايا السفينة الى الارض والبحر .

وقد ذعر المتحاربون لهذه الحادثة الهائلة وساد السكوت وتوارت سفينة الأميرال وهرب الفريقان ومعظم المؤتمرين الذين كانوا في السفينة .

وعند ذلك اشرق وجه فوسكاري باشعة الفرح فجرد حسامه واندفـع فاندفع في أثره الجنود والنبلاء الذين كانوا الى الآن في موقف التردد فكانت ساعة هائلة قتل في خلالها نحو مائتي رجل .

ولبث التياري يقاتل مع بعض من رجاله الى ان كسر حسامه فنظر إلى فوسكاري نظرة جنون وقبض على شعره بيده فصاح فوسكاري برجاله قائلا : اقبضوا عليه .

ولكن التياري وثب من بينهم وهرب قبل أن يظفروا به فقال فوسكاري لرجاله بلهجة المنتصر : هلم بنا الى القصر ودعوا هـــذا الخائن يهرب الى حيث يشاء .

٨٠

جسر التنهدات

وقد التف النواب والنبلاء حول فوسكاري يهنئون له بينما هو يساءل نفسه فيقول : لماذا تدق الاجراس دقات حزن وما هذا الصراخ الذي اسمعه من بعيد ومع ذلك فقد سار برجاله الى السراي .

وكان قد قتل من جنوده في هذه المعركة كثيرين ولكن بقي له قوة لا يستخف بها .

وكانوا كلما تقدموا خطوة اضطروا الى الوقوف لاعتراض العصابات في كل حين .

وبعد ساعة من ذلك السير البطيء وصلوا الى مكان ضيق يتشعب منه طرقات كثيرة فقال أحد أعضاء مجلس العشرة : هلموا بنا نركب الزوارق .

فأجابه فوسكاري قائلا : كلا فان الشعب يحسب اني خفته .

وعند ذلك هجمت عصابة مؤلفة من خمسة عشر رجلا فأطلقوا بنادقهم على رجال الدوج دفعة واحدة وارتدوا الى جهـــة السراي وهم يصيحون قائلين : الحرية .. الحرية كانديانو انها في يد رولاند كانديانو .

وقد قتل بهذه الطلقات أربعة وجرح ثمانية .

ومع ذلك فان الدوج أمر ان يتقدم الموكب فواصل سيره وكان كل ما تقدم من السراي يشتد هتاف الناس لرولاند ويكثر هجوم العصابات .

حتى ان النساء كن يصرخن من النوافذ قائـــلات : لتحيى الحرية .. ليحيى رولاند .

وكان كثيرون يرمون موكب الدوج بالقذائف من أعلى السطوح .

فاشتد جزع الدوج إذ كان يرى رجاله تتساقط أمامـــه ولا يسمع غير اصوات الهتاف لرولاند فصاح قائلاً : رباه اني لا اسألك غير الحكم على هذه المدينة اسبوعاً واحداً فقط فاجعلها قاعاً صفصفاً واحرقا بأهلها المتمردين .

وصاح النواب قائلين : تباً لكم ايها العبيد الأشقياء .

وصاح الجنود قائلين : الى الموت .. الى الامام .

فكانت اصوات هتاف الشعب تخفت اصواتهم فلا يسمعها أحد.

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا سانت مارك .

ولكنهم لم يبلغوها إلا وقـد تضعضع شملهم وتمزقت ملابسهم وتهشمت اعضاؤهم .

فصاح الدوج بمن بقي من رجاله قائلاً : اسرعوا الى السراي .

وقد قال هذا القول بصوت متلجلج اذ كاد يجن من رعبه .

وعند ذلك التقى بعصابة مؤلفة من ثمانمائة رجل يتقدمهم رولاند وقد بقي حسامه في غمده .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين : الحرية الحرية .

وقد خرجت هـــذه الأصوات من أفواههم كما يخرج الزئير من اشداق ألف أسد .

وصاحت جماهير الناس من حولهم بالهتاف لرولاند صيحات تشبه دوي الرعود القاصفة .

وقد رأى فوسكاري رولاند قادماً اليه كما يرى الموت فسقط حسامه من يده لشدة رعبه .

ورأى الجنود ما كان منه فحسبوا ان ذلك إشارة من حاكمهم الى التسليم فاقتدوا به وسلموا اسلحتهم .

وبعد لحظة التقى رولاند بفوسكاري فقال له نفس اللهجة التي كلمه بها قضى عليه بالسجن منذ تسعة اعوام : فوسكاري اني أعدك عاصياً متمرداً واقبض عليك .

فجرد خنجره وحاول ان يطعن به نفسه : ولكن عشرين رجلاً انقضوا عليه انقضاض العقبان الكاسرة واختطفوا الخنجر من يده .

وبعد هنيهة كانوا يصعدون الى السراي فاخذ فوسكاري تاجه عن رأسه والقى به الى الارض كما فعل والد رولاند في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة .

فاصدر رولاند أمره عند ذلك بالمحافظة على المدينة وجـــاءه النواب وفريق من النبـــلاء فأظهروا خضوعهم وهكذا انتهت تلك الثورة ببضع ساعات كسائر ثورات فينيسيا بـــل كسائر الثورات التي يتداخل فيها الشعب .

* * *

بينما كان رجال رولاند ينفذون أوامره وقد حفظت أوراق الحكومة وفتحت أبواب الابار والسجون فخرج منها السجناء .

وبينما رؤساء الأسطول يتسارعون لمبايعة الدوج الجديد وقـد سادت الأفراح في فينيسيا كان رولاند يسير الى جسر التنهدات وقد نزل على ذلك السلم الذي نزل من قبل وهو خافق القلب لتأثره فقد بات دوجـــاً ورأى اعداؤه قد سقطوا من حوله الواحد تلو الآخر وقبض على أشدهم هولاً ولكن كل ذلك لم يخفف شيئاً من شقائه في حب ليونور إذ انه في تلك الساعة لم يفتكر إلا بها .

وقد وصل الى جسر التنهدات تحيط به زعماء عصاباته وكلهم يعرفون تاريخ حياته وما فعل به فوسكاري .

وقد أخذوا معهم فوسكاري فلما وصلوا الى الجسر امر رولاند ان يجلسوا فوسكاري على السرير الحجري الذي جلس عليه من قبله ابوه حين ثملوا عينيه ودنا منه رولاند وقال :

— فوسكاري اننا اتينا بك لمحاكمتك على ذنوبك السابقة وانما نحاكمك على ما اسأت به الى الدوج كانديانو أما ذنبك الي فاني أعفو عنه .

* * *

وليسمح لنا القراء أن نعود الى بيت ارتين الشاعر فقد كان هذا الشجاع أقفل جميع الأبواب ووضع وراءها المتاريس وسد المنافذ فكأن هذه الثورة لم تثر في فينيسيا إلا لأرهابه .

أما هو فقد أقام في غرفة كائنة في وسط المنزل يرتجف من الرعب ولا ولا يتعزى بأحد .

حتى ان نساءه كن قد ذهبن الى النوافذ يتفرجن على تلك المعارك الناشبة غير مكترثات لاعتراضه .

ولم يكن معه غير خادم واحد وهو الخادم الذي جعله رولاند رقيباً عليه في منزله فان جميع الخدم كانوا واقفين عند الأبواب وقد أمرهم أن يدافعوا عن المنزل حتى الموت إلى ان يتسنى له الفرار .

وفيما هو على ذلك قرع باب غرفته قرعاً شديداً فاندلع لسانه من الرعب وجعل يصيح : رحماكم لا تفتكوا بي اني لا دخـــل لي بهذه الثورة قسما بالعذراء .

وقد فتح الخادم الباب فكان الطارق نساءه فدخلن قائلات لقد تأيد الفوز لرولاند .

غير أن ارتين لم يسمع كلامهن فأسرع واختبأ تحت السرير وهو يقول بصوت يتلجلج من الخوف : رحماكم لا تقتلوني اني لم اسيء الى أحد .

ولم يستفق من رعبه إلا حين سمع قهقهة الخادمات فنهض وأظهر كل فنون شجاعته بضربهن وشتمهن .

غير ان جاسوس رولاند حال بينه وبينهن وأخرجهن من الغرفة فشاب اليه رشده وأخبره الخادم عند ذلك بما أوتيه رولاند من النصر .

فضرب ارتين جبينه بيده وقال الرسالة .:. رسالة دندولو ... رباه كيف استطيع ايصالها الى رولاند دون أن أخاطر بنفسي .

وبعد التفكير هنيهة قرر انيعهد بايصالها الى ذلك الخادم فكلمه بصوت منخفض وأعطاه اياها فانطلق بها لفوره .

* * *

أما سكالابرينو فانه بعد ان أشعل الفتيل في سفينة الأميرال صعد الى ظهر السفينة فلم ينتبه اليه أحد من البحارة والجنود لانهماكهم في أعمالهم لأنه كان مرتدياً بملابسهم وقد رأى الجنود تنزل الى البر فاندفع بينهم وفتح لنفسه سبيلاً بالقوة فوصل الى ساحة القتال ساعة الانفجار .

وهناك رأى ما كان من انخذال التياري وشاهده يركض هارباً فقال في نفسه : إذا نجا منهم فلا ينجو مني واندفع في أثره .

وأما التياري فانه أسرع راكضاً الى قصره ودخل الى غرفة ليونور فلم يجدها فصاح بملء اليأس قائلا : لقد هربت .

ثم ذكر فجأة انه رآها تشيع جنازة ابيها وتراكض الخدم اليه منذعرين لهيئته فقال لهم : اين السيدة ليونور .

فأجابه أحدهم : قائلا انها في بيت الجزيرة .

فخرج راكضاً وبعد هنيهة كان في بيت الجزيرة وقد دخل الى قاعة

الطعام كما تقدم حيث تركناه يحاول أخذ ليونور بالقوة وهي بين ذراعي والد رولاند تصيح وتستغيث .

أما والد رولاند فانه مد يده شأن المتوعد وقال : من هو هذا السفاك الذي يجسر على ارهاب امرأة ؟

فأجابه قائلا : هذا أنا التياري .

— ماذا تريد ؟

— أريد امرأتي .

فاندهل الشيخ وقال بلهجة من يستفيق من نوم طويل ، امرأتك ؟

— ان تلك الصيحات التي كان يسمعها من الخارج وصوت ليونور الشجي وقد ركعت أمامه تروي مصابها وعناية فيليب كل ذلك قد رد صوابه اليه .

فأجابه التياري ، نعم امرأتي واني ... وقبل ان يتم جملته شعر ان يداً قوية قد وضعت على كتفه فالتفت مغضباً فرأى أمامه سكالابرينو فقال له : ماذا تريد مني ؟

قال : أريد أن اقتلك .

وعند ذلك وثب الى الجدار حيث تعلق الاسلحة فانتزع خنجرين فابقى واحداً في يده والقى بالآخر الى التياري .

فالتقط التياري الخنجر واسرع سكالابرينو فوقف بينه وبين ليونور .

أما والد رولاند فانه جلس على كرسيه وحدق بعينيه كأنه يريد ان يرى ما يحدث .

وأما ليونور فانها ركعت وخبأت رأسها بين ركبتي الشيخ كي لا ترى .

وقد جرد التياري الخنجر ونظر الى سكالابرينو فرأى جثته الضخمة ونظراته البراقة الهائلة فحاول ان ينقض عليه .

ولكنه ما لبث ان تراجع عن هذا العزم كأنه علم بأنه قضي عليه القضاء المبرم .

وقد هاله منظر سكالابرينو وكره ان يموت من يده فالتفت الى ليونور وقال لها واليأس ملء قلبه : اني اموت فكوني سعيدة ما زالت سعادتك معقودة بموتي ولكني العنك في ساعة الموت .

ثم نظر الى ما حوله نظرات تدل على الجنون وطعن نفسه بخنجره طعنة عنيفة .

وبعد هذه الطعنة لبث بضع ثوان ينظر الى ليونور نظرات وحشية ثم هوى الى الأرض صريعاً .

وقد بقيت عيناه مفتوحتان تدلان على الوعيد كأنما عواطف الانتقام بقيت فيه بعد الموت .

وأما سكالابرينو فانه القي خنجره ودنا منها فقال لها : سيدتي لقد انتهى كل شي وقد نجوت .

فقال له والد رولاند : من أنت ؟

قال : اني صديق مولاي رولاند وصديق السيدة ليونور وصديقك .

— رولاند .. اين هو ولدي ؟

فصاح سكالابرينو بصوت يتهدج من التأثر قائلا : تقول ولدك ... أحق ما اسمع رباه أحق ان الصواب عاد اليك ؟

فسالت دمعتان من عين الشيخ واطرق برأسه فقال : يا ليته لم يعد الي هذا الصواب فقد ذكرت الآن وا أسفاه وبحثت في أعماق نفسي فلم أجد غير ظلمات اليأس .

ثم قال بصوت خنقته عبرات اليأس : ولدي .. اين هو . فانه لا شك قد قنط في اعماق السجون .. ولدي رولاند اين انت ؟

فبكى سكالابرينو وحاول أن يخبره بكل ما حدث وبانتصار رولاند فحال دون ذلك دخول الخادم العجوز الى تلك القاعة مسرعاً يصطحبه جاسوس رولاند في منزل ارتين .

وقد دنا هذا الجاسوس من سكالابرينو وقال له : يجب في الحال ان أرى الرئيس .

— لماذا ؟

— لأعطيه هذه الرسالة .

— هاتها .

فأخذ سكالابرينو تلك الرسالة التي كتبها أرتين الى رولاند بإملاء دندولو وقرأها معجباً بسرعة ثم التفت الى الجاسوس والى فيليب وقال لهما : يجب ان تراقبا هذه السيدة كل المراقبة وان تمنعاها عن الخروج وان لا تدعاها لحظة واحدة .

ثم التفت الى الشيخ فتأبط ذراعه وقال له : أتريد ان تعلم أين هو ولدك؟ أتريد ان تلمسه وتراه بيدك وقبلاتك إذ لا تستطيع ان تراه بعينك ؟ إذن تعال معي .

— ولدي .. ولدي .

— تعال .. تعال .

فقالت ليونور : أبي لا تتركني .

وقال سكالابرينو : تعال وقد نظر الى الرجلين وجدد بنظره وصيته اليهما بشأن ليونور ثم سار بالشيخ .

أما ليونور فانها كانت لا تزال راكعة فأسندت رأسها الى الكرسي وقد وهنت قواها وجعلت تبكي بدموع غزيرة .

وأما فيليب فانه حمل جثة التياري الى الخارج وعاد الى الإقامة معها حسب وصية سكالابرينو .

٨١

عذاب فوسكاري

ولنعد الآن الى جسر التنهدات فقد تركنا فوسكاري هناك مقيداً على ذلك الكرسي الحجري الذي ثملوا عليه عيني والد رولاند وإنما اجلسوه عليه كي يعاقبوه بذلك العقاب نفسه .

على ان كبرياء فوسكاري لم تنحط حتى في هذه الساعة فجعل ينظر الى رولاند نظرات وحشية ملؤها الحقد وقد تمثلت حقيقة نفسه في عينيه إذ لم يبق سبيل للتنكر في هذا الموقف بعد ان سقط من قمة مجده فظهرت نفسه مجردة .

أما رولاند فانه دنا منه وقال له : فوسكاري اني امثل هنا رجلا انتقم منه انتقاماً أشد فظاعة من القتل لتنفيذ اطماعك أي اني هنا ابن كانديانو الذي قبضت عليه وثملت عينيه وقضيت على صوابه فماذا تقول ؟

— أقول انك تحسن عملا بالإنتقام لأبيك .

— فوسكاري اني اكرهك كما يكرهون رجلا يبطش بشيخ لا يستطيع الدفاع وأنا أحب ان اعاقبـــك بنفس مـــا عاقبت به أبي .. أنظر إليّ يا فوسكاري ترى ذلك الوجه الذي طالما تمثل لك في ليالي ندمك .. انظر يا فوسكاري فانك بعد هنيهة لا ترى لأنك ستعمى كما عمي أبي وتطوف في الاسواق متسولاً كما طاف أبي .

فارتعش فوسكاري في البدء ارتعاشاً بيّناً ثم تغلب على ضعفه وعادت اليه كبرياؤه فأجاب رولاند بنظرة حقد فاتقدت عينا رولاند وأشار إشارة

فدنا رجل منه لم يلبث فوسكاري ان رآه حتى عرف انـــه الجلاد فقال : الوداع ايها النور الوداع ايتها الحياة .

وعند ذلك سمع صيحة عظيمة عند مدخل الجسر وتباعد الناس الذين كانوا يحيطون برولاند ودخل رجل عجوز يقوده رجل هائل الجثة وهما كانديانو وسكالابرينو فكان كانديانو باسطـاً يديه المرتجفتين وهو يقول بصوت مختنق : ولدي رولاند .. ولدي أين انت ؟

فسالت مدامع الجبلين حنواً وبعـد لحظة كان رولاند بين ذراعي أبيـه وهو سكران بفرح لا تصفه الاقلام وقد نسي كل شيء في تلك اللحظة ولم يخطر له ان يعلم كيف عاد الصواب الى أبيـــه وكذلك أبوه فانه لم يبحث كيف ان ولده بات السيد الحاكم في سراي الدوج .

وعند ذلك شعر رولاند ان يداً تلمس كتفه فالتفت فاذا بأحد الزعماء يقول له مشيراً الى فوسكاري : لا يجب ان نطيل نزعه .

فاضطرب رولاند وأخذ بيد أبيه الى فوسكاري وقال له: هوذا الرجل الذي اعماك .

فقال أبوه بصوت أجش : الرجل الذي اعماني ؟

— نعم يا أبي فاذكر الرجل الذي قبض عليك في تلك الليلة الهائلة .

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قيدك على الكرسي الحجري ؟

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قضى عليك بالظلمة الأبدية .

— فوسكاري ؟

فأطرق فوسكاري عند ذلك برأسه ولم يطق ان يرى .

فقال رولاند : انه هنـــا يا أبي وهو جالس على نفس الكرسي الذي اجلسك عليه فقل يا أبي ماذا يجب ان تصنع به ؟

فبسط الأعمى يديه وقال : أين هو فوسكاري ؟ دعني ألمسه يا ابني .

فأخذ رولاند بيد أبيه ووضعها فوق رأس فوسكاري .

فقال له كاندياتو : أأنت الجالس على ذلك الكرسي الذي لا يجلس عليه غير المجرمين ؟

فأجاب فوسكاري بملء الكبرياء : أنا هو الجالس على هذا الكرسي الذي اجلستك عليه من قبل .

فقال رولاند : احكم يا أبي بما تريده من العقاب .

فقال فوسكاري : اني انتظر عقابكم بنفس لا تخاف .

— تكلم يا أبي .

— نعم .. نعم .

ثم ضغط بيديه المرتجفتين علي رأس فوسكاري وقال له :

— فوسكاري اني اعفو عنك فاذهب وعش سعيداً واجتهد ان لا يقتلك ضميرك .

وعند ذلك سقطت كبرياء فوسكاري ونكس رأسه الى الارض فبللها بدموعه .

وبينما كان يذهب مطرق الرأس محدوب الظهر كأنه كان يخاف ان يقتله ضميره كما قال له الشيخ كان رولاند راكعاً يقبل يدي أبيه ويقول : انك عظيم يا أبي في أعمالك فقد علمتني اليوم ان اعظم انتقام هو العفو عند المقدرة .

٨٢

عشاق فينيسيا

كانت ليونور راكعة في قـــاعة الطعام حينما برحها كانديانو الشيخ وسكالابرينو .

وكانت تودع نفسها كل شيء في الوجود فتودع الحياة وتلك السماء الزرقاء وذلك الشباب الناضر وهذا المنزل الذي احبت فيه بل كانت تودع الحب نفسه فتتمتم قائلة : الوداع يا رولاند .

وكانت تكرر هذا الاسم كأنها تريد ان تموت وهو بين شفتيها .

وقد تجمع كل الوجود في حبها وتجمع كل حبها في هذا الاسم .

وما اعظم تلك الساعة الرهيبة التي كانت تكلم فيها من تحب من اعماق نفسها وتبسط له براءتها وما لقيت من اليأس ثم تودعه الوداع الأخير .

وقد وقفت عند ذلك فلم ترَ اللذين كانا يراقبانها لانها تجردت عن المادة ولم تعد ترى غير خيـــال رولاند الذي كانت تناجيه فقالت : رولاند اني احببتك .. رولاند .. رولاند اني لا ازال احبـــك .. رولاند .. رولاند استودعك الله فعش سعيداً بعدي .

وعند ذلك مدت يدها الى صدرها وأخرجت منه زجاجة السم ونظرت من النافذة الى الارزة الكبرى فقالت : رولاند .. رولاند .

فأجابها صوت من الحديقة يقول : ليونور .. ليونور .

فتكهرب جسمها وقالت وقد شعرت انهـا باتت في غير هـذا الوجود : رولاند .

فأجابها الصوت عند عتبة الباب قائلاً : ليونور .

وقد مرت دقيقة شبه دهر وقف فيها كل من العاشقين تجـاه الآخر دون ان يجد كلمة يقولها .

وقد علمت ليونور ان رولاند قد عرف براءتها وعرف رولاند ان ليونور لا تزال تحبه كما يحبها فكان موقفاً هائلاً شعر فيه كل منهما ان قلبه يهم بالخروج من صدره وانهما لا يستطيعان احتمال هذا الفرح الهائل .

ثم فتح كل منهما ذراعيه دون ان يريد وسالت المدامع من عيونهما وهكذا جمع العاشقين قلبيهما في قلب واحد ثم افترقـــا ووقف كل منهما يبتسم الى حبيبه تلك الابتسامة الحلوة التي انستهما مرارة الماضي .

واننا نختم تاريخ هذين العاشقين بتلك الابتسامة ورجاءنا ان لا يكون قد ملّ القارىء حوادث هذه الرواية وذلك كل ما نتمناه .

* * *

وبعد ذلك بخمسة اشهر احتفلت فينيسيا بزواج رولاند وليونور وقـد جعلا هذا الزواج في نفس اليوم الذي عقدت فيه خطبتهما القديمة .

وكان في اليوم التالي لانتصاره قد انتخبه الشعب دوجاً لفينيسيا ففعل كل ما يمكن فعله في سبيل إطلاق الحرية للشعب بحيث بات الشعب الفينيسي اسعد الشعوب المنصوفة مدة عامين الى ان تغلب مطامع البعض وفساد اخلاق الآخرين فعاد الشقاء الى تلك المدينة ولكن ذلك خارج عن نطاق حكايتنا فنقصر علي القول ان سكالابرينو أبى كل الإباء ان يخلف التياري في منصبه فاكتفى بأن يكون ملازماً لرولاند ورفيقه في اسفاره .

وأما ارتين فـانه اكتفى بنظم قصيدة في وصف ذلك الانقلاب فاعترف الناس بأنها خير ما جادت به قرائح الشعراء .

وأما جينارو فانه جـــاء الى رولاند بعد سقوط فوسكاري وسأله ان يعود الى منصبه القديم فأجابه قائلا : لم تبق حاجة الى البوليس ولكني اعهد اليك بمهمة افضل من ذلك المنصب وهي ان تبحث وتأتيني كل يوم باسماء الفقراء البائسين ومن أناخ عليهم الدهر فأضاعف راتبك .

فقبل جينارو هذه المهمة وهكذا أنفق رولاند جميع المال الذي تركه له دندولو .

﴿ تمت رواية عشاق فيتيسيا ﴾